رواية

عباس بن نخي

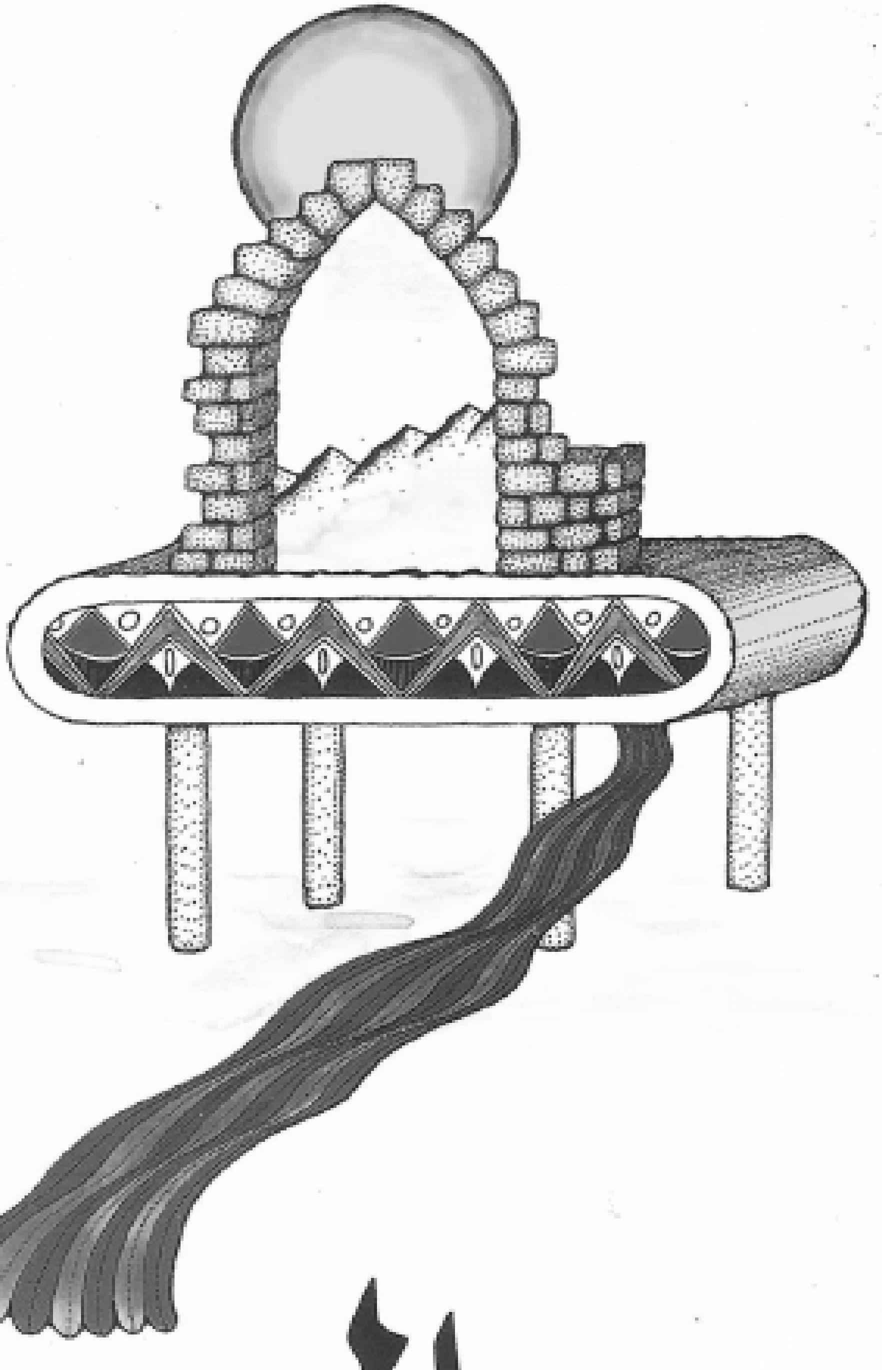

القربان

شبكة الفكر
alfeker.net

القربان

القربان

عباس بن نخی

* «القربان»

* تأليف: عباس بن نخي

* مراجعة وتصحيح: السيد محمد علي الحكيم

* التنضيد والإخراج الفني: مؤسسة الإمام للنشر والتوزيع

* الغلاف من تصميم: السيد ميثم الشماع

* لوحة الغلاف للفنان: السيد حسن بهروز لواساني

* جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف.

* الطبعة الأولى: إبريل - نيسان ٢٠٠٨م.

* الحجم: 22X15 * عدد الصفحات: 759

* الترقيم الدولي:

ISBN 978-99906-669-5-3

ردمك 59/2008

* إصدار: مؤسسة الإمام للنشر والتوزيع

* طبع في: لبنان - بيروت

* توزيع: مؤسسة الانتشار العربي

الانتشار العربي

E-mail:arabdiffusion@hotmail.com

arabdiffusion@hotmail.co.uk

www.alintishar.com

بيروت - لبنان / ص . ب: 113/5752

هاتف: 961-1659148 فاكس: 961-1659150

---

* يمكنكم التواصل مع المؤلف ومراسلته عبر البريد الالكتروني:

a.bennakhi@live.co.uk

قصة حقيقية:

بعض ما في هذه الرواية
تصوّرات، وبعضه الآخر
جمع وتأليف، والبقية العظمى
وقائع خالصة.
أرسلتُ تلك حيناً،
ولجأت إلى هذا تارة...
لأكتب الحقيقة دائماً

الإهداء:

إلى الإخلاص المفعم في سيرته،
إلى العشـق المنبعث من مواقفـه،
إلى الغيرة المتفجرة في فتاواه وأحكامـه،
إلى عبراته السريعة في مصاب «القربان» وأحزانـه،
إلى مسيرة أسسها في ظلامة «الزهراء»، قادها بحافي قدميه،
إلى «الميرزا التبريزي الكبير» قدس الله سره،
وفاءً لحق لـه على الأمة، وبدٍ ودَيْن له عليّ...

أهدي هذه الرواية

يقال إن أعرابياً أستأذن يوماً على «كسرى»، حتى إذا مثل بين يديه عرّف نفسه: سيد العرب.

فتعجّب «كسرى» وأستنكر، إذ أستأذن الحاجب لرجل «من» العرب، فكيف صار «سيّدهم»؟

فأجابه: ذلك لما تشرّفت بحضرتك وحظيت بلقائك.

* * *

وها أنا أصبح ملَكاً، أو أسمَى...

إذ جرى اليراع بهذه السيرة، وصرت أخطّ قصة «سادة الوجود»

المدخل

هامَتْ بك العينُ لم تَتْبَعْ سواك هوىً
مَنْ علَّمَ البينَ أنَّ القلبَ يهواك

منذ اللحظة الأولى كان الصراع... ومنها أنطبع بمسحة سَرَت في جميع نشآت الوجود.

وإذا كان الدفق يستمدّ من الحب، والحركة تستوقد من العشق، فإن «الصراع» هو الذي رسم ويرسم شكل الحياة، ويخطّ مقاديرها، ويقود مسيرتها. صراع الهاجس المُقْلِق الذي حمله «سادة الوجود»، وعاشه أولئك العظماء، تجاه الموجودات، من إنس وجنٌ وملائكة، وحَجَرٍ ومَدَر وشجر، وما لا نعلم من خلق... الهاجس الذي يضطرم بين حدّي: التعطيل والتشبيه، وتنزيه الله جلّ جلاله عن ذواتهم، وعن حلول وشِرك، وبين الحياء مما يترتّب على ظهور مقاماتهم، في النظرة إليهم والعقيدة فيهم.

من بدءِ الخلق، إلى رفض السجود، فالخروج من الجنة، ثم الهبوط إلى هذه الدنيا... حتى المصرع الموعود، ليقولوا: ها نحن نُقتل لأننا نعشق، ونموت لأننا ممكنات. وفي طيّات هذا السجِل العريض، يندرج صراع الخير والشرّ، العقل والهوى، الوليّ والطاغوت.

* * *

لطالما رأيت الأمر لغزاً عويصاً لا يُحلّ، وسؤالاً صعباً لا جواب له ولا ردّ عليه. وكنت أنثني بتعبّدٍ محض أمام النصّ وقدسيته، وأرعوي بضعف وجهل وفقر، في عشوة تشخيص «حدود الله» التي لا يجوز أن أتعدّاها، أو أعتدي عليها، وفي داخلي شعلة ما زالت تلسعني بألسنتها، فأنادي:

إلهي، ربّ الممكنات والكائنات، يا من لا قديم ولا واجب سواه...

أرني من أين أتيتُ، ولم كنتُ، وإلى أين أسير؟

أرني ماذا يُراد بي؟

أي ربّ، لقني ما يخرجني من حيرتي...

عرّفني سرّ هذا الوجود، وماذا وراء خلقي وتكليفي... فإن بعض الإجابات من الضحالة ما يُدخلها في السذاجة والاستغفال، وأنا لا أريد، ولا أطيق، بل لا أملك أن أكون مغفّلاً غبياً.

إن أشدّ ما صار يُقلقني ـ مؤخراً ـ أنني ما عُدت أستطيع الخلوة والانفراد بنَفْسي... إذ ما انفككت أشعر أن هذه الحياة ضربٌ من التمثيل المستمر، والمسرحية المتواصلة التي أُعدّت فصولها بدقّة، إذ يلتزم روّادها بحرفية النص، ويتقيّدون بتعليمات «المخرج» أيّما تقيّد!

وأن ثمة «كواليس» تدير الوضع وتراقبه، وتعدّ للفصول القادمة وتحضّر للمشاهد التالية، بل هذه «كوّة» على الخشبة، يقبع فيها «ملقّن» يذكّر الممثلين بسقطاتهم، ويُملي عليهم أدوارهم...

وهناك جمهور يحضر الأداء ويقيّمه: يصفّق تارة مُعجباً، ويضحك أُخرى مسروراً، أو مستخفاً، أو لاهياً وعابثاً، وينشغل ثالثة بشأنه عن العرض حين ينحدر إلى مراتب تافهة، فيتحدّث واحدهم إلى جاره، أو يقضم شيئاً من البزر ويشرب مرطباً، وقد ينصرف ليُخلي مقعده لغيْرِه، عندما يبلغ الأمر صُوَراً مقززة، ويدور على أحداث تبعث الاشمئزاز.

أنا جازم بأنني لست وحدي في خلوتي...

فإذا سرقت لمحة واختلست فرجة فانزويت، تراني استغرقت في العلّة: فأنا جازم أيضاً بأنني لست هنا لآكل وأشرب، وأعمل وأكسب، وأتزوّج

وأنجب، ولا لأتعلّم وأُنتج وأُطوّر ما «يزيّن» الأرض، و«يعمر» هذا الكوكب، وأمضي لأرْكَن إلى إنسانه الأخرق، حتى يخرق «الأوزون»...

بل ولا حتى لأصلّي وأصوم!

وبعد، فأنا متيقّن بأن هذا كلّه ليس مناماً، ولا جنوناً، ولا أنفصاماً ينقلني إلى خيال لا شأن له بالحقائق والوقائع.

ها قد صلّيت، وصلى المصلون... ثم ماذا؟

ماذا بعد الصلاة والصيام؟ بل ماذا بعد أنتظام الحياة كما تريد الشريعة ويحكم الدين؟ ماذا لو تحقّقت العدالة الأجتماعية والمساواة وآزدهر العلم وعمّت الصحّة وشملَ الغِنى والرفاه... بل لو أنقطع الناس كلّهم إلى الله في عبادة دائمة مستمرة لا تنقطع؟

إنني أشعر أن وراء هذا كلّه شيئاً آخر...

* * *

كم أنهكَني تتبّع آلاف النصوص وملاحقة مئات المؤلفات، وكم أرعَبني أن أقضي عمري في التحصيل العلمي، لأُصبح مُتخصّصاً يمكنه معالجة تعارض الأدلة وأضطرابها (واقعاً كان ذلك الأضطراب والتعارض أم وهماً توهمته)، حتى أستطيع ـ في النهاية ـ تكوين رؤية متكاملة، وفَهْمٍ ونسيجٍ واحد: يُبسط، لتفرش عليه الإجابات التي أبحث عنها.

ما سكَنَتْ نفسي يوماً ولا آستقرّت، وهي تخوض في ما أمكَنها من ميادين، وتجوب في ما شاء الله من حقول: السياحة بترفها وعبثيّتها، إلى الحوزة العلمية بصعابها ومشقّاتها، إلى السياسة وعالمها الغريب، وهو عالم حقّ أن يُعدّ من الأباطيل، إذ ليس ما يدور في رحابه من معطيات العقل في شيء!... فالهجرة، وضرب في الأرض يطلب مراغَماً وسعة.

وفي عرض هذا وذاك ما لم أعد أحصيه من كتب وقراءات ألتمس فيها ضالّتي، ومثلها علماء ورجال وأوتاد، صحبتهم ودرست عند بعضهم ردحاً، عسى أن أقرب من غايتي. والسؤال ـ اللغز ـ يقضّ مضجعي، ويسهد ليلي، فلا تكتحل عيني بغمض، ولا مقلتي بكَرى.

أما نهاري ففي تيه... قد عميت عليّ وجوه الرشد، وٱستُبهِمَت معالم القصد، فأمضي هائماً لا أدري أين أريد؟

وإن حَسُنَ هَدْيي وصلُح سَمْتي في أعين الناس، فها هم يأنسون بظاهري ولا يستوحشون، فغاية حرصهم أن تجاريهم، فلا تشتهر بهيئة أو مَلْبَس يثير التساؤلات، ولا تشذّ برأي وفكرة تُورثهم مشقّة التدبّر والتأمّل، ولا تتفرد بسلوك ينال مما يستصحبون، فيكدُر صَفْوُ عيشهم...

وهٰذه عندي أخسّ درجات السوقية، وأحقر صوَرها!

وفي الأيام التي سبقت كتابتي هٰذه، عَسُرَ الأمر، ودخل رهْصاً ومخاضاً، وكأنها ولادة أعضَلَت، إذ نشب الجنينِ في جوف أمّه وقد خرج بعضه! فٱعتزلتُ الناس وٱنقطعت، وصرت حِلْس داري، بلا رهبنة ولا تبتّل، عسى أن أحظى بِدِعَةٍ وأتفيأ بظلال...

ولٰكن أنّى لعالي الهمّة، وذو الحدّ والشكيمة، أن ينعم براحة ويستجمّ برفاهية، دون أن يقحم الصعاب ويتخطّى الرقاب ليذوق الرضاب، وهو من شمّر لها في أمسه وكشف عن ساق؟

فخرجتُ من حيث دخلت...

* * *

ما وجدتُ علاجاً إلّا حين عزمت أن أعيش الأمر حضوراً ووجداناً، لا تعلّماً وبحثاً وتحقيقاً. أن أتعامل بسِلْعة العالَمِ الذي أستكشِف، وأراهنُ على بضاعة الحضرة التي أتحرّى، وأتكلّم بلغة سكانها ولسان قاطنيها... فيمّمتُ شطر بيت من البيوت التي ﴿أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾، وٱرتميت على الأعتاب لائذاً ومتوسّلاً، أن:

تلافَني يا سيدي ومولاي وأدركني.

عندها بدأت الإشراقة في نفسي، وبدأت الإجابات تترى...

هناك بناتٌ يتواثبن أمام الكتّاب فيبعثن فيهم الأفكار، وشياطين تراقص للشعراء، فتوحي لهم بالقوافي والأوزان. وهناك بارقةٌ تفتح المصاريع لفيض، وومضةٌ تقدح الزناد لخاطرة...

وهٰذه إشراقةٌ أشعلَت في نفسي مجامِرَ العُود، ونفحةٌ نضَخَت قوارير الطيوب، وهزّة نثرت الأزهار والورود... وٱنقلاب قلَبَني عاشقاً متيّماً، فأصبحت وقد نزلت بي صبْوَةٌ وحرقة لا تزيدني شدّتها إلّا أُنساً وطَرَباً، وأمسيتُ أليف شجَنٍ وحليف سقام وقد ٱستوقد الوجدُ ضلوعي، وغدوت صريعاً أطبق بيديه على سهام الجَوَىٰ وقد ٱخترقت صدره ونفذت لتلذع شِغاف قلبه، وهو يقبّلها برضا ونشوة!

أهٰكذا يكون البسط والرجاء بعد القبض والخوف؟

أهٰكذا يكون التجلّي بعد ريْن وصدأ وٱحتجاب؟

أهٰكذا تفعل الجذبة ويفعل الفتح؟

لعمري إنها لسَمْسَمة، فذر الأمر في سنبله وٱعفِ فهمك!...

هناك معارف لا سبيل لٱكتسابها، وحقائق لا طريق لإدراكها، إلّا بالٱتصال بها - حكراً وحصراً - عبْر الوجدان بإشراقة، والٱلتقاء بها من خلال الأنفس بإلهام... ولا يكون ذلك إلّا بإكسير خاص يُسري السنخية، ومعادلة معينة، سهلة وبسيطة وغيْر معقدة، ولٰكنها ممتنعة إلّا على من ٱمتُحِن، تفتح الأبواب وكأنها تحمل كلمة السرّ...

إنها معادلة الحب وإكسير العشق.

بالحب تدفّق الوجود، وعبْره خُلقت الموجودات، وبه تتّصل بصانعها وتكتشف المعاني المبهمة والأسرار الخفية، والأخطر من هٰذا وذاك، تعرف فلسفة خَلْقها وعلّة ٱنبعاثها ومعنىٰ وجودها.

أظن أنني بدأت أقرب من ضالّتي...

إنني أقف الآن على شاطئ ممتد، لا يبدو أن بحرَه الزاخر حَسَرَ عنه يوماً بِجَزْرٍ، تتلألأ رماله الذهبية، كما تشفّ مياهه الزرقاء الصافية عن قاعه، وفي داخلي من الصفاء والٱنشراح ما يسع البحر بمياهه وشواطئه... إنني أطلّ من شُرفة رحبة، وأنظر آفاقاً تعجم عن الوصف، وتخرس وتُبكِم... ثم أتبيّن أنني ٱندمجت فيها وغدوت جزءاً منها. فأنا أحلّق مع أسراب «النحام»، وأغسل الشطآن مع الأمواج، وأحتضن الماء مع قاع البحر!

لقد أصبت بالحب، ونزل بي ما مكّنني من إدراك السر!

وإن صحّت عندي فلسفة «التاويين» في «التضاد» ونظرتهم لدوره في نظام الطبيعة والحياة، وآعتباره منبع الفعل والحركة (دون أن يكون منبع الوجود، فلست معهم ـ بطبيعة الحال ـ في هذا)... فإن الأمر لا يسري في الروح البشرية ولا يحكم حركتها وآنفعالاتها، إذ الأشباه والنظائر تتجاذب، والأرواح جُنَد مجنّدة يأتلف منها ما تعارف.

ولعل المرء يرى، من فرط ضآلة قدْرِه، كم هو مجازٌ في نسبته إلى الوجود، وآعتباريّ في جلّ حيثياته... فيبحث عن ذاته ـ حين يبحث ـ ويرى حقيقته في محبوبه، فيدنو منه ويتقرّب إليه... وتكون «الجذبة».

❁ ❁ ❁

كنت قد فرغت لتوّي من فاصل خدمة في كنف مجلس إنشاد ورثاء، تخلّلته وصلة من أحرّ البكاء وأشجاه... شيء أنساني جرحي الغائر، وكأنه مَرّ عليه ببلسم مُعجِز فآندمل، حتى ظننت أن الإعوال غالب الألم فسكّنه، ولكن لا عين للجرح ولا أثر!

كأن «إله الحب» أوْتر قوسه الذهبية، وآنتقى من كنانته سهماً تقطر الصبابة من سنانه، ويرقص العشق على قدْحه، ورماه فأصمَى القلب وأرداه! فهام يلوي على سرٍّ عظيم...

إن الأمور عندي ـ الآن ـ في غاية الوضوح ومنتهى الصفاء والجلاء، وليس ثمّة سؤال، ولا حيرة ولا إبهام!...

آنقشعت الغيوم وتبدّدت، وأخذت المكنونات تفصح عن ذواتها ومضامينها، وتكشف أسرارها، وكأنها تُستنطَق فتجيب ممتثلة... آنجلى الشكّ، وآنتفى الريب، وآنحسر لثام الشبهات، وأشرق نور اليقين، ولاحت غرّته وظهر صبحه.

كأسنان التروس، آلتقت وتداخلَت، فأنْهَت بَكَرَةُ الذِّهن صيامها الوِصال، وأفطرت، فدارت، وفُتح باب مُبْهَمٌ مُصْمَتٌ، أحكمت ضبّته وآستغلَج قفلُه وصدأ نجرانه وثبت مزلاجه، فآستعصى دهراً...

ثم انقادت الأفكار وطاوعت، وكأن كلّ معنىً وجدَ كلمته، وكلّ كلمة وجدَت موقعها في الجملة، والجمل في الفقرات... وانتظم الأمر وتناسق النصُّ وجرى الخطاب كأروع ما يكون.

لعمري، كيف أصِف هذا؟

أسُلافٌ هذي التي دبّت في عظامي؟ أم حُميّاً صرَعتني أم شَمول؟

إن تكُ سكرة، فللّه درّها... لا ريب أنها جرعة مهولة من صرفٍ صراح، ما شِيبَت بمزاج... فهذه نشوة غامرة، وفَترٌ وخَدَرٌ يدغدغ كلّ ذرة في وجودي، حتى ما تمالكَتْ نفسي أن تسبح!... ولا إثم عليّ ولا عار.

من أين لابنة الكَرْم و«معتّقة الدَيْر» هذه، أن تفعل بي ما فعلَت؟

من جَنى عنقودها وأسال دمه؟ في أي الخوابي سكبت ليصفو كدَرها؟ وفي أي قَبْوٍ سُترَت عن الشمس ووُريَت عن الأضواء؟ أي نادِل هذا الذي دار بأكؤسها، وأي ساق طاف بأقداحها؟

لست أدري إن كان «ابن الفارض» عناها في ميميته الغراء، ولكني أتمثل قوله... والإشارة تعرف طريقها للمُشار إليه:

شـرِبنـا علـى ذكـر الحبيب مُـدامـة
سكِـرنـا بهـا من قبـل أن يُخلَقَ الكَـرْمُ

ترى أهو عروج الروح الذي يحكون عنه، ويقولون إنّ «جذبةً» يمكن أن «تخلع» عن الإنسان بدنه وتنتزع عنه وتجرده جسمه؟ فتطوي له المنازل، بعناية إلهية خاصة، بلا كُلفة منه في العطاء ولا سعي (مُستَحِقّ) في الجهاد!

ظننت ـ لوهلة ـ أن ما اعتراني أثّر في وزني خفّة، أو أن ما انتابني خلخل جاذبية الأرض من تحتي... ولكن سرعان ما أدركت كم شفّ كياني ورَقّ، ولَطُف عنصره وصَفَا، حين أخذت أرقى في السماء وارتفع!

ارتفع دونما تحليق وطيَران، بل ارتفع وكأنني في مصعد زجاجي لناطحة سحاب، غيْر متناهية الأدوار...

إنني استشرف بقاعاً وصِقاعاً، ما زالت تتّسع دائرتها وتكبُر...

ويحي!... إنني أهيمن على ما أرى وأنظر!

إن الحقائق والحوادث الخارجية تستحضر أمامي وتتمثّل، وكأن أمراً يصدر إليها بوجوب المرور على العالم الذي أرتقيت! فلا تتحقق ولا تكون ولا «تحدث» إلّا بعد المرور هنا. أو كأن «القانون» يقضي أن تودع نسخة هنا من كلّ ما يقع هناك!

إنني أنظر ما يجري في البيوت والطرقات والأسواق:

رجل يضرب زوجته، وفتىً يستذكر دروسه، وأمرأة تعدُّ الطعام، وأخرىٰ تغسل الثياب، وهـٰذا متسوّل يستجدي أمام جامع... هـٰذه حافلة غفا سائقها فجنَحَت لتهوي في وادٍ، خفّت إليها ملائكة الحفظ وأعادتها إلىٰ الطريق، وهـٰذا جرّاحٌ يستأصل وَرَماً من عنق مريض...

إنني أعرف أشخاصاً لا صِلة لي بهم من قريب أو بعيد، أعرفهم بأسمائهم وأسماءِ آبائهم وأزواجهم وأبنائهم وجميع أقاربهم! أعرف أرتباط كل شخص بالآخر، أعرف أعمال الأشخاص ومِهَنَهُم، وتفاصيل حياتهم: بشدّة يمرّون أم برخاء، بعُسْر يقضون أم بِيُسْر؟ حتىٰ صرت عالماً بالحالات النفسية والروحية التي يمرّون بها: بحزنهم وسرورهم، بتقواهم وسعادتهم، أو بتعاستهم وشقوتهم... ولو سُئلت لأجبت، أو لو أردت وشئت، لأمكنني أن أقدّم تقريراً كاملاً مفصلاً عن كلّ واحد منهم.

والعجب من حضور هـٰذه الصوَر والمعلومات في آن واحد، فإذا ٱلتفتُ إلىٰ جهة، لم تغب عني الأخرىٰ ولا ٱنزوَت. والأعجب، أنني صرت أرىٰ سكان السماء من ملائكة وغيْرِهم، وأرىٰ صور الأعمال وتجسّمها، وتمثّل القيم في هياكل، وظهورها في أشكال حِسّيّة!

فهـٰذه أعمدة من نور ترتفع من دُور يتهجّد أهلُها ويتلون القرآن...

وهـٰذا عبَقٌ يفوح من نيّة خيْرٍ قصدَها مؤمنٌ...

وهـٰذه بيوت يُذكَر فيها «المصاب» وتذرف الدموع، فتزهر وتتلألأ، فتستقطب آلاف الملائكة، وتجتذب أفواجاً بعد أفواج من سكان السماوات، يهبطون بجفان من ذهب وأوان من فضة، يجمعون فيها ما يتقاطر ويفيض من دمع... ورعيل شغلته المشاركة في الندبة عن أي دَوْرٍ وعمل!

وبعد خروجي من صدمة الأنتقال، وسكوني مما أنتابني من أجواء هـٰذا العالم، خصوصاً تقاطر الأسماء والأشياء وتدفقها عليّ...

صرت قادراً على تفكيك المعلومات وتقسيمها وتنظيمها وفرز تداخلها، فأنظر الصوَر الطبيعية لبيت يأكل أهله ويشربون، ويشاهدون التلفاز، بينما راح أحد قاطنيه يصلّي نافلة الليل، فألتقط صورة جديدة نورية ـ في عرض الأولى ـ تتشكّل من الصلاة وعلى إثرها. فتتركّب كخرائط المهندسين التي ترسم على أوراق شفّافة، توضع إحداها فوق الأُخرىٰ فلا تحجب العليا السفلى، بل تكملها وتبرز معالمها... وقد أعانني ذلك كثيراً، وكأنه وَضَعَني على الطريق وعرّفني آلية التلقّي هنا.

❋ ❋ ❋

ما زلت أرقىٰ وأرتفع... حتى أنقطع عنّي، على حين غفلة، مرمىٰ الأرض، وأختفت صوَرها، وكأنني أنتقلت إلىٰ عالم آخر.

إنني أبلغ الآن طوراً أشبه بصحراء مترامية الأطراف، قاحلة، ولـٰكنها رطبة الموطئ ليّنته...

ومع أنها سلبتني نزراً من البهجة والأنشراح، وأقلقتني بعض الشيء، إلّا أنها ليست موحشة، بل ثمّة أنس مبثوث هنا بخفاء، يمكن إدراكه وراء هـٰذا الكثيب، وتحت تلك الأثلة الوتر هناك... ولـٰكنه أنس يختزن دعوة للمغادرة، وترقّب الآتي وأنتظاره، ويحثّ على عدم الركون والأطمئنان.

إلهي... كأن لا سماءَ لهـٰذا المكان!

لا أقصد السحب والنجوم، بل الفضاء الذي يحويها... لا فضاء هنا، لا شيء فوقي! دعني أُدقق وأستجلي الأمر، فهـٰذا من أغرب ما يكون... ليس عَدَماً أو خلاءً، ولا فراغاً، إنه وجود ما، ولـٰكن لا جسم له ولا جرم فيه... ومع ذلك فالبصر لا ينفذ ليدرك ما وراءه، مهما أرسلته بعيداً.

ولعلّ مقدمات الكآبة وبوادر الضيق الذي بدأت أحس، تعود لهـٰذا الأمر المزعج، الـذي يُشعرك بعراء فاضح، بل بضغط ودوار... أن لا يظللك شيء ولا تلتحف بغطاء؟!

أم تراها دعوة (كريمة) في سياق الحال وعلى نَسَق المقام تأخذني نحو ما تبغي وتريد! وتقديرٌ يشغلني ويدفعني للإعراض عن النظر إلى الأعلى، ويوجّه عنايتي إلى الأسفل حيث قدَمَي، أو يصرفه إلى الأمام، حيث دربي الذي قادني وأنهى مطافي إلى حاجز عظيم أشبه بالجدار، وأقرب إلى تكثّف النور وتراكمه، ولكن دون سَطْع وبَهْر؟...

مهلاً، لعلّي أسأت الفهم وأخِذت، فشطَحْتُ بعض الشيء، إنه جدار من ظُلمة لا من نور...

ربّاه، بل هو من نور!

إذاً ما هذا السواد؟ أتراه فجوة عظيمة أو خرق في هذا الجدار النوري؟

نعم... إنه غار أو كهف، بدا كثقب أسود في جدار النور ذاك. لقد أختلط الأمر عليّ في البداية، وما كان الذهول الذي عُدْت إليه، أبقى لُبّاً يميّز ما تداخل من الصوَر وألتبَس.

هذا هاتف يقرع سمعي ويستحثني للمضي قُدُماً...

وكلّما دنوت وأقتربت، أرتفعت نبْرة «الهاتف»، وأزدادت وضوحاً وإلحاحاً، في وتيرة متصاعدة تدعوني للدخول في الهُوّة، وأقتحام هذا الجدار وأختراقه، وسَبْر ما وراءه.

بل كأن يداً وقوة (أو طاقة) تجتذبني إليه، وأخرى تدفعني نحوه...

لعَمْري، أي إرادة تَـثْـبُتُ هنا، ومَن له أن يقرر؟!

دنَوْت على مهل وأناة، وبطء وتريّث، مقرّباً بين خطاي، كَمَن يستجلي ويتفحص ليقرر أيقدم أم يحجم؟! والحال أنني ما عدت أملك خياراً، وكنت أمتثل بعد كل خطوة لتاليتها بأستسلام، وكأنه قانون لا مناص من ألتزامه، ولا محيص عن أتباعه...

حتى وقفت بإزاء «الجدار»، وعلى شفير «الثقب».

وفجأة، هبّ نسيم خَضِل، سرَىٰ في داخلي أكثر مما لامَسَ بشرتي! تخلّل وجودي وفعل فعل السحر في نفسي، إذ أزاح الوَجَل وأذهب الرَّوْع عني... فأجتمعت إرادتي وألتقت مع هذه الطاقة التي تتلاعب بي!

ولا سيّما قد أعقبت هذا النسيم نفحة من برد، لم يكن قارساً، إلّا أن رعشة، بل رعدة أخذتني كأنها نفضت عنّي ما علق من بقايا التّرديد، الذي قاوم تلك الهبوب... عندها، قذفت نفسي - غيرَ متوان - في «الهوّة»، ودخلت «الغار»... فهويت من شاهق لا قرار له، أو ارتقيت في مسار تصاعدي لا نهاية له، قطّع أنفاسي بعد أن حبسها.

ورحت أطوي نفقاً كانت جدرانه تتموّج وتدور بسرعة فائقة، لتُضعضع كياني وتخلخله، وتمتص ذرات جسمي، وتفرغ وجودي من عنصره الدنيوي، ومن الخلقة التي بدا أن لا سِنخيّة بينها وبين ما ينتظرني، ولا محل لها في ما أنا مُقدم عليه وقادم إليه.

كنت أعي جيداً كل شيء، وأتفهم ما يجري على بدني، فلا أعبأ إلّا بما سيأتي ويتبع، يحدوني ترقّب وتطلّع، ويدفعني شوق لا يتناهى...

أدركت أنني أخلع «نعلي» لأدخل «الوادي المقدّس»...

لذا تحمّلت الألم الذي صاحب العملية، وأحسبه امتزج بخفّة وراحة، ما زالت تتنامى وتزيد.

وقد أوجدَت هذه الحركة الأشبه بالطرد المركزي، وصنعت وسادة هوائية، أو تياراً وريحاً شديدة، دفعتني بسرعة متصاعدة، حتى إذا بلغت الذروة، كانت قد استوفت من جسمي ما أرادت، وبلغت الهدف والغاية، إذ لم تُبقِ إلّا على «سويداء»، أضيف لها «شيء» و«حفنة» من «عنصر» ذلك العالم، وأنا على أعتابه، ومُزِجَتا.

ثم توقف كل شيء وسكَن...

ها قد انعدَم الحيث والتحيّز، وتلاشى الزمن واضمحل، وتعطّلت آخر متعلّقات نشأة الأرض وعالم الحياة الدنيا!

ترى المحبّين صرعى في ديارهم
كفِتْيَةِ أهل الكهف لا يدرون كم لبثوا

لا صوت هنا ولا حركة...

سكون وصمت مطبق، وهدوء وسكينة مطلقة...

وأنا أترنّح، إذ لا أرض ولا موطئ تستقر عليها قَدَماي...

كسليل تتج لتوّه، يلملم شتاته من طيش سفره ـ الحَمْل، ويلعق جراحه من وعثاء الطريق ـ الوضع... راح يبحث عن أُمّه «الناقة»؟

أفَقْتُ... فوجدت نفسي أستحضر صوراً ٱلتقطتُها في حياتي، وصنعتها على مرّ السنين، ومعانٍ تعلمتها وعرفتها بالوجدان والحنين... صور لأعمالي وأفعالي، بل حتىٰ لأفكاري ومعتقداتي التي لم تنعكس يوماً بسلوك ولا صدر عنها فعل، أفكار حملتُها وعانيت من غربتها وتألمت لظُلامتها، ولعلّي لم أطلع عليها أحداً من قريب أو بعيد!

ها هي أمامي...

وأنا أتقلّب بين حقائقها ومثالها، حتىٰ إنّ ما ٱشتهيته وتمنيته يوماً، أراه الآن وقد تجسّم في صورة، وتمثّل في شكل، وظهر في هيئة...

صوَرٌ في غاية الروعة والجمال، والقسم والوسامة، تشعّ بهاءً وسناء، وأُخرىٰ قبيحة منكَرة، شوهاء خرقاء، وبينهما صور باهتة، لا تستحق أن تعار ٱلتفاتاً، وكأنها تولّدت من عبث، وجاءت من لهو...

كانت بعض هذه الصوَر والأشكال تبشّ في وجهي وتحييني ببِشْر، وأُخرىٰ تدنو مني بتوجّس الغريب وتقترب بخيفة المرتاب، كأنها ليست مني ولا صنيعتي، في حين بعضها الآخر يتوارىٰ... بل رأيت منها من تُعرِض، وإن نظَرت، فشزراً، وكأن وِتراً بيني وبينها أو ثأراً.

ومن أروع ما رأيت، وأجمل ما تمثّل لي، صورة لفعل قمت به في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي:

كنت طفلاً في نحو الخامسة من عمري حين «ٱرتقيت المنبر» وصرت «أقرأ التعزية»! ولم يكن منبراً، إذ مسّ الصغار المنبر يدخل في المحرمات والمحظورات، اللهم إلّا أن يُستلم لتقبيل، أو يُتَمسّح به ٱلتماساً للبركة... ولا كانت خطبة ولا قراءة!

ما زلت أتذكّر «المجلس» بوسائده وفرُشه الممتلئة بحشو القطن، حديثة التنجيد، بقماش الكتان زيتي اللون... وقد ٱنفض لتوّه.

وتحضرني صورة «أمّ الخير» امرأة عمّي «عيسى»، وهي لي بمنزلة أمٌ ثانية، أذكرها بـ «ثوبها»، و«الثوب» ملاءة رقيقة، أو جلباب فضفاض، لا يكون إلّا أسود اللون، ترتديه المرأة فوق ملابسها، بل تشتمل عليه، فليس فيه معالم للخياطة والتفصيل فيُرتَدَى، لا أكمام ولا أردان، ولا طرّة ولا هدَب، اللهم إلّا جَيْبٌ تلقيه في عنقها، وذيل طويل ممتد ترفع طرَفه، تغطّي به رأسها، وتستر وجهها إن باغتها غريب...

أذكرها وقد دخلت مع أمّي وابنة عمّي «فاطمة» (وكانت فتاة، ولم تكن صارت بعد «أم بدر»)، يجمعن فناجين الشاي ويسوين المتكيات والفرش، ويُعدْن ترتيب الديوان، ثم يرجعن للمطبخ... حتى خلا المجلس.

عندها ارتقيت كيساً كبيراً (شوالاً) من الأرز، كان قد ضاقت به «دار الكيل» (غرفة المؤن)، فرُكِنَ في زاوية «الديوانية»... ورحت «أترنّم» وأحكي نغمة المقرئ، دون أية ألفاظ أو كلمات وأشعار، مجرّد تلحين وتنغيم، أرفع صوتي وأخفضه، أرجّع وأشدو، فأتمايل مع اللحن وأهزّ رأسي وأسدّ أذنيّ براحتيّ، ثم أتصنّع هيئة الباكي، وأتباكى...

ومع أني سمعت «أمّ الخير» تتهكّم وتخاطب أمّي ساخرة:

"هذا هم شيخنا إحنا"...

لكني تجاهلت ذلك، وغالبت الحَرَجَ والخجل، ومضيت في «قراءتي»... حتى عادت ودخلت الديوانية لتلتقط شيئاً، فسألتني، وهي في طريقها:

"ها يمّه، شتسوي"؟ (ماذا تفعل يا بني)

فأجبت بشيء من اعتداد: "أقرا قرايه"!

وكم كنت أستغرب بقاء هذه الحادثة في ذاكرتي (الضعيفة)، وتكرار طيفها بين الفترة والأخرى، وإن غابت بعض تفاصيلها أحياناً، أجدها تعود في أحيان أخرى...

لعلّ هذا كان أول عهدي، أو أول اتصال لي في هذه الدنيا بـ «الذبيح»!

لقد شكّل هذا الفعل الساذج، صورة ملكوتية، ما أظن الجنة الموعودة ستكون أنعم وأهنأ من مرآها!

لـؤلؤٌ مكنون، أُفرغ في قالب الحسن والجمال، ووُسِمَ بميسم الملاحة والصَّباحة، وقد أرتدىٰ الحياء، وتسربل بالبهاء، ففاض وشعَّ لطفاً وظرفاً طبَعَ الأجواء حوله، وزرع البهجة حيثما حل ونزل...

يملك الطرْف، ويملأ العين، ويأخذ بمجامع القلب، ولا تكاد ترتوي من طلّته حتىٰ تظمأ، ولا تشبع منها حتىٰ تجوع.

❁ ❁ ❁

دخلت «الكهف»، ولا أدري كم لبثت...

لم يكن كهفاً يحكي الضيق والعزلة، بل أفقاً رحباً، وعالماً كبيراً وعظيماً... وأضف ما شئت من مفردات الكمال، فلن تبلغ ولن تدرِك!

ولكن دعني أُحدّثك عن بعضها...

تغيّرت في هٰذا «السفر» أشياء كثيرة، وأنقلبت موازين...

أوّل ما يفعله الأنتقال من هٰذه الدنيا بموت أو عروج، إلىٰ البرزخ أو الملكوت... هو طفرة وأطّراد خرافي ـ كمّي وكيفي ـ في العلم والمعرفة.

إذ تتغيّر أدوات التلقّي والأكتساب... فلا تعود العملية تحصيلية أنتزاعية، تجول بين الجزئيات وتتلمّس المصاديق وتتحرّىٰ المقدّمات، لتُؤلّف المفاهيم وتكوّن الكلّيات! وتعمل بالبرهان «الإنّي» فتعرف العلّة بالمعلول، أو«اللمّي» فتكتشف المعلول من العلّة...

يتغيّر الإدراك، ويتجاوز نطاق المحسوسات وبالتالي المعقولات، إذ يغدو البصر «حديداً»، ينفذ في الأجسام ويخترق الظواهر، بل المتخيلات.

وتتغيّر بألتبع المُدْرَكات والمعارف، ويتّسع نطاقها.

فتقف ـ علىٰ سبيل المثال ـ علىٰ أسرار تعابير تلهج بها الألسن في الدنيا وهي نشوىٰ قد غمرها الرضا ولزمتها القناعة من بلوغ هٰذا الحدّ في مخاطبة الحبيب والنهل من معين فيضه، فتقول في إذن الدخول لزيارته:

"الحمد لله الذي فتح باب فهمي بلذيذ مناجاتكم"... لتُصْدَمَ هنا حين ترىٰ كم كان مفهوم «اللذة» الذي «عرفته»، وطربت عليه، ضحلاً وقشرياً وصغيراً أمام حقيقته!

فاللذة هنا تكاد تكون شيئاً آخر، بل هي فعلاً شيء آخر، يتضاءل أمامه ما هناك (في الدنيا) ويصغر حتى يتلاشى وينعدم. والعجب، بعد هذا، كيف ضاقت الألفاظ وشحّت، فيُسمّى ما يعتري البشر من النشوة والسرور، على سواء هنا أو هناك: «لذة»!

وقد تتغيّر المعايير وتختلف الأُسس... فتلتقي «الأضداد» وتجتمع «النقائض»! إذ قد ينتفي مفهوم الضدّية من رأسه، ويسقط جوهر التناقض ويزول، لا أن ترتفع دواعيه وتختفي موضوعاته.

فنحن نعالج اجتماع الحبّ والبغض مثلاً، باختلاف الموضوع، فنقول إننا نبغض شخصاً ونحبّ آخر، أو بافتراق وقوعهما زماناً، فنحبّ شيئاً ثم نبغض الشيء نفسه بعد حين... متجاهلين أن محلّ وقوعهما في النفس واحد، وأنّ حال عيشهما كثيراً ما يقترن، فلا ينبعث الحب إلّا ويخلّف في موضعه «فراغاً» هو البغض... إذاً:

كيف لقلب مفعم بالحب، أن يكون مُترعاً بالبُغض؟

كيف لرقعة أو لدار واحدة أن تستقبل هاطل الغيث في فِنائها، وحرّ السموم على سطحها؟!

أم ترانا نصدّق أن في القلب زوايا وحنايا وأركاناً؟ فتستأثر هذه الخلجة بركن، ويحظى ذلك الشعور بزاوية، وتنطوي تلك الحنيّة على همّ ويستوطن هذا الركن إحساس... ثم تعيش (كلّها) معاً في قلب واحد؟!

كيف، ولمَ يجعل الله لامرئ من قلبين في جوفه؟

لعلّي لن أشطح كثيراً إن أرجعت جُلّ الصدام والتعارض إلى «ذاتية» الأشياء و«أنانيتها»، ونزعة حبّ البقاء التي حكمتها، وجُبلت عليها الأشياء، كل الأشياء، فترى كُلاً ينزع صوب ما يصون بقاءه، ويديم وجوده، ويبعده عن الاضمحلال والفناء...

أما هنا، فيقترب الوجود من «الواحد» ويدنو من الوحدة، فتضيق على «الكثرات» رحابها الدنيوية، لترجع الأوراق إلى الغصون، وهي إلى الفروع، ثم إلى جذع وساق، فجذر واحد...

لا ضدّية هنا، ولا نفرة بين حبّ الحبيب وبُغض عدوّه في هذا العالم، وإن وقعا في قلب وزمن واحد، إذ يستمد أحدهما من الآخر ويَصُبّان معاً في التكامل، ويقودان إلى الكمال.

بل لا سبيل إلى الكمال إلّا بأقتران الحب بالبغض، والتولّي بالتبري، والعمل بالترك، حتى كأن العلاقة تنتقل من التنافر والتضاد والتناقض إلى التلازم والأقتران والوئام، بل «التضايف».

ومن هذا وذاك، يكتشف المرء البَوْن الشاسع بين حياتنا الدنيا و«الحَيَوان»... وكيف أن كلّ ما في هذا العالم، مما نبهَر به ونعجب، ونسعى إليه ونُكِبّ عليه، لا يعدو قطرة في ذلك الخضم... ويكتشف كم نحن صغار، في حجمنا وهمومنا وطموحاتنا، وصغار في فهمنا، ثم كم نحن بعيدون عن «الحق» و«الحقيقة».

وكم خضعنا للحسّ والشهوة والهوى، وأغفلنا الهدى والعقل والمعنى، وكم حكّمَتنا المادّة وأمضت فينا قوانينها، وآستزلّتنا لنوغل في لوازمها ومقتضياتها، حتى صرعتنا فحُجبنا ولَهَوْنا:

فرِحين بدرهم مخروم، عن كنوز تملأ الخافقَين...

بل ما عدنا نشعر بفقر وحاجة، ولا بعجز وتخلّف، وكأن ما نحن فيه هو غاية المجهود ونهاية المأمول... فنتنادي ونتساءل بلسان حال المستنكر: "وهل وراء «عبادان» قرية"؟!

❁ ❁ ❁

كانت «جذبة» أو «عروجاً» أو «مكاشفة»، ألقتني في هوّة عميقة، سمّها إن شئت الثقب الأسود، أو نفق الزمن أو بوابته أو جداره، أو أي آسم آخر، فلا تشاح في الألفاظ، ودعنا نتجاوز الحساسية من المصطلحات ووجوب الدقة في آستعمالها، فلا شأن لنا بهذا الآن...

لقد كانت القنطرة التي نقلتني، أو المركبة التي أخذتني، والباب الذي فُتح لي فعبرت من خلاله إلى ما وراء دنياي.

ورحت أتنقّل في تلك الديار، أجول وأسيح...

حتى توغلت في ذاكرة التاريخ، وعالم «ما كان»، مقلّباً الصفحات بولَع المغامر وهمّته، وفضول الباحث ورغبته، وشغَف العاشق ولهفته...

مُستعرضاً صوَراً ومناظر، ومطّلعاً على أحداث ووقائع، كان أقصى أملي - يوماً - أن أرىٰ شاردة منها في منام! فإذا بي أُطلّ عليها، وأستشرف ساحاتها، وأعيشها... جنباً إلى جنب أهلها وروّادها وأبطالها، حتى كأني أخوضها وأعتركها معهم.

أدركتُ ضالّتي، وقرّت عيني.

وعُدْتُ...

وهٰذه تحفة السفر.

هٰذه مدوّنات تلك الرحلة، أو ما عَلِقَ منها بعد العَوْد، وأنطبع في نفسي، مما كانت أهلاً أن تتلقّاه وتحمله، فأستقر في ذاكرتها.

وكنت قد أضفت في هٰذا الموضع من مسوّدة الكتاب:

"هٰذه جذوة من قبس... لعلّكم تصطلون".

ولكني آثرت أن أحذفها، وفضّلت أن ألغيها.

فالحق أنني أكتب ما أكتب هنا لنفسي، وأخطّ ما يسكّن غليلاً ما زال يضطرم في أحشائي، مذ وعيت، وسعيت إلى الحقيقة... لواعج وتباريح، أخال أنني سألقىٰ حتفي، وأموت بغُصّتي، أو سيَجِنُّ جنوني، إن لم أبثّها وأنشرها... وها أنا أفعل.

وإن كان لما يُسمّىٰ بالدَّوْر الرسالي، والمسؤولية الدينية والأخلاقية في البلاغ والنصح والإرشاد، تجاه إخواني في الله، أو تجاه العلم والفكر والثقافة، تجاه الحق والحقيقة وخدمة لها، هامش في دواعي الكتابة... فإنني أُقِرّ بصغره وضآلته! ولا يكذب الرائد أهله.

وبعد، فلعلّ هٰذه الكتابة «عطاء» ينبثق عن عدوىً أصابتني «هناك»، لا أجد ما أعبّر به عنها، إلّا أن أتمثّل:

لـمـسْـتُ بكفّـي كفّـه أبْـتَـغي الغِـنَـىٰ
ولم أدْرِ أنّ الجـــودَ مـن كفّـه يُعـــدِي

إنني لا أكتب ما أكتب هنا لِعِلّة ولا من فلسفة، ولست أرمي هدفاً ولا أريد غرَضاً، بل أكتب حباً وعشقاً، وعند الحب تنقطع سلسلة العلل، ويتوقف تحرّي الباحثين، ويُمسِكُ المتحدّثون...

فلا يطلبون سبباً لقول، أو حكمة لفعل، ولا تفسيراً لسكوت وسكون، ولا يسألون عن أشياء، خشية أن يهتكوا الستر، أو أن يمسّوا قدس هذا الحرَم المنيع، وحذَر أن يبدو لهم ما يسؤهم.

بل إن العاشق نفسه لا يدري ما الذي أنزل به ما نزل، وصيّره في ما صار، ولا يدري لِمَ قال ما قال وكتب ما كتب.

فذره في سنبله... وأنشد مع «صفي الدين الحلّي»:

لقد نِلْتُ إذ نادمتُه من حديثِهِ
من السُّكْرِ ما لا نلتُهُ من عقيقِهِ
فلم أدرِ من أيِّ الثلاثة سَكْرتي
أمِن لحظِهِ أم لفظِهِ أم رحيقِهِ
لقد بعتُهُ قلبي بخلوَةِ ساعةٍ
فأصبحَ حقّاً ثابتاً من حقوقِهِ

وإن أفشيت سراً، وشكَوْت...

فالعجز أشكو، وقلّة الحيلة، وحيرة تتلوها حيرة!

فكم مرّة بعد مرّة ألقيت قلمي، وطويت أوراقي، وطفقت مُخبّطاً قد تملّكني اليأس واستحوذ عليّ الضعف، بأن ليس في اللغة ما يبلُغ، ولا في البيان ما يُبدع...

فأنّى لريشة هذا العالَم ومِداده، وكيف لمنطقه ومفرداته، أو لقوانينه ومقتضياته، أن تكتب عن ذلك الوجود وتصوّر تلك العوالم، بل أن تحكي عن شأن من شؤونها أو شجونها.

حارت العقول، وتاهت الحلوم، وانحسرت الأفهام، ونَبَتِ الألباب...

فماذا عسى مثلي أن يفعل!

ولكني، رغم كل هذا وذاك، قحمت هذا الميدان وكتبت...

كتَبْتُ... بعد أن شملني الفيض وعمّني الكرم، لا لأستحقاق، بل كطفل أضنى والديه ببكائه وإصراره وعناده، فما وجدوا إلّا أن يلقموا أصابعه هذا اليراع، ويقدّموا له «لعبته المفضّلة التي يجيد»، ليصمت قليلاً وينشغل، ثم ليباهي بعد ذلك أقرانه ويزهو ويفتخر!

وها أنا أفعل...

ها أنا أُحِلّ عقد الرباط المخملي بأناة، وأُزيح القطيفة الموشاة بخيوط الذهب والدمقس بتمتّع وإبطاء، وأكشف عن أغلى مقتنياتي وأثمنها لدَيّ، وأفخر تحفي وأعزّها عليّ... وكنت حتى الأمس ضنيناً بها على نسمة فجر تداعبها، أو ضوء بدر يلوحها، وحريصاً أن يفوح أريجها وينتشر عبيرها، فتجتذب فراشات الدنيا، تختطفها من زهراتها، ومن شُعَلٍ تحوم حولها، لتلتقي هنا وتلقي بنفسها فتلقى حتفها بين هذه الأوراق!

كنت أخلو بها وأنفرد، بِشُحٍّ وأنانية، بل بغرور وتعالٍ:

هل مَن يفهم ما أُريد؟!

أتحيّن من الأماسي ما صفا وراق، وقد تلألأت نجومه في شرفتي، وأنا ألوذ بنفسي، وأستعين بركوتي وموقدي الصغير، أُعِدّ قهوتي بعناية، ثم أرتشف رشفة وأشعل لفافة، وأُرسل نظري، علّه يسترجع بعض تلك المناظر والآفاق، ويستعيد ما أفتقدت من الروح والحال...

❋ ❋ ❋

الفصل الأول: البداية

هُـمُ الألفُ المـمـــدودُ في كلِّ ســاعــةٍ
على أصْلِه بــاءُ الـبــدايــة قــدْ رَوَى

كل ما يمكنني أن أقوله الآن...

إن نفيراً عاماً وأستدعاءً عاجلاً صدَر عن شيخ الملائكة الأعظم وزعيمها الأكبر، باغت أنشغالهم وقطع أسترسالهم، وجمعهم من كل حدب وصوب، فألتقوا في عرصة وسعتهم، رغم الحشود التي كانت تترى والطوائف والأفواج التي تتقاطر آناً بعد آن.

زرافات ووحداناً... وجوهٌ شاحبة كأنها في صَعَق دائم، وشفاه ذابلة لاهجة، أخذ منها التسبيح ما أخذ، فما عاد يمكنها التحدث إلّا إذا أطبقت على أحناكها وأمسكت بأفواهها وقهرت ألسنتها أن تتوقف عما تلهج. وهياكل كأنها محنّطة، لا يكاد يخفق لها جناح من فرط التقديس... ومع هذا، كم كانوا خفافاً في الحضور، مبادرين للأمتثال.

وأخرى نضِـرَة، تتدفّق حيوية ونشاطاً، ولكنه نشاط لم ينل من وقارها وأتزانها، ولا أصاب هَـدْيها وسَمْـتها، ولا شغلَها عن هول الحضرة التي تعيش، رغم ما تقتضيه المهمة التي أنيطت بها، وما يستدعيه دور «المدبّرات» من خفّة وسرعة ومبادرة.

هـٰذا «جبريل» يجوب الصفوف وينظّمها، وهـٰذا «ميكائيل» يعينه، وهـٰذا «إسرافيل» يتولى جانباً آخر...

لم يكن قد عرّفني أحد بهـٰؤلاء العظماء، ولـٰكن الجلال والهيبة والعظمة، تفيض في هـٰذه الحضرة وتُفصح، وكأنها تلقّنك وتهمس في أُذنك، إنها تسري في وجودك من شدّتها، فتنطبع في النفوس والخواطر بحضورها، فتتعرّف على بعض شؤونها، ومنها أسماؤها الكريمة.

تماماً كما تحضر في الذهن صور الأجسام أو الأشياء الحسيّة في حياتنا الدنيا حين تقع عليها الباصرة فتُشاهَد وتُرى، أو حين تلمس أو تشم أو تذاق فتُدرَك، فهي «تحضر»... فإن القِيَمَ هنا «تُشهَد»، والمعاني تُفصح عن نفسها وتكشف، فتُدرَك وتُعرَف.

ولعلّي أوفّق لبيان المعنى وتقريبه إن مثّلت له بحالة الطقس؟

فإذا كان الطقس في الدنيا، لشدّة فيضه وإحاطته الحسية، يعرّفك نفسه، ويُسري بعض خصائصه وصفاته وينفذها في وجودك، فتدرك برودته وحرارته، وتعلم رطوبته أو جفافه، وتعيش ذلك وجداناً... فإن كل الموجودات في هـٰذا العالم تفيض ـ من فرط شفافيتها ـ وتعرّفك نفسها. فالشجرة تحدّثك، والربوات تخاطبك، والنسمات تكلّمك والريح تسرُّ إليك، وكلّها ـ في المقابل ـ تستنطقك، وتنتزع منك ما تُضمِر... هـٰكذا القِيَم هنا، تفصح عن مكنونها، وتعكس حدّها وقدرها. وكلّ ذلك بحضور الخواطر وتبادلها، ولغة الأرواح وتخاطباتها.

هـٰكذا تتكوّن بحورٌ متلاطمة من العلم والمعرفة، لا تلبث أن تستحيل أنواراً، فتصبغ عالمها بالنور... من هنا فإن الموجودات في هـٰذا العالم كلّها نورية، ولـٰكنها تتفاوت في الشدة والضعف.

وأروع ما في هـٰذا، أن في طيّات النور، وفي أثناء هـٰذا المشهد المتألق البديع... نور على نور، ووَهَجٌ يعلو وهجاً، تتشكّل منه صور جديدة، وتنفرز أحداث، وتتكوّن مشاهد، يمكنك أن تطلّ عليها وتشهدها من جديد، وتطلب تكرارها مرّة بعد مرّة دون مؤونة ولا مشقّة!

لعمري، ماذا عساي أن أقول عن «النور»، عن جوهره وطبيعته فحقيقته؟ عن كيفية أنبعاثه وفعلِه وتأثيره، عن حجمه ومداه، عن الإحساس به والشعور بوجوده، ثم عن إدراكه بلا قنطرة الحواس!؟... ونحن نقرنه في عالمنا بالمصباح، وبضياء الشمس، وما يبدّد ظلمة الليل، ونلتمسه في الرؤية والإبصار، أو في الدفء والطاقة!؟

فإن وقفنا يوماً على حقيقة «النور»... فأنّى لنا بـ «المنوّر»؟

كيف بالمصدر الذي يشعّ، والمنبع الذي يُرسل هذه الخيوط والحُزَم وينشرها، فيتلألأ الوجود ويزهر؟

«أنوار» تنسيك النور الذي يحيط بك، تُبدّده وتقهره... حتى كأن لا شيء في الوجود سواها؟... وفوق كل ذي علم عليم.

❋ ❋ ❋

ها قد وجدتُ موضعاً يُشرف على هذه العرَصة، يسمح لي بإطلالة يغطّي نطاقها الموقع بأطرافه وأكنافه وزواياه، فأتمكن من آستطلاع الوضع ومراقبته، فلا يفوتني شيء.

ترى أيمكنني أن أحدّث أحداً هنا وأسأله؟

ماذا عساي أن أفعل؟ كيف يتخاطب هؤلاء؟

إنني لا أسمع إلّا همساً... وها قد تلاشى حتى الهمس، وأطبق الصمت، حين أشار «أعظم» الملائكة، فآرتدّت الأنفاس، وآشرأبت الأعناق، وآنعقدت الألسن، ليصدع بالبيان الخطير...

إنه يُخبِر أن الدورة التكوينية الكبرى، التي تتخلّلها مليارات الدوائر والدورات التامة المغلقة، التي تسبح في فضائها ضمن تيارات متعارضة وآتجاهات متعاكسة من الحركة والسعي، بدءاً من قطبي نواة الذرة، وآنتهاءً بالمجرّات التي تضمّ آلاف النجوم والمجموعات الشمسية والمنظومات الفلكية المغلقة... كادحة إلى ربها كدحاً فملاقيته:

ستبدأ «سفَر» العودة، وسيشرع نصف الدائرة الثاني، وقوسها الصعودي بالإقلاع والحركة.

لقد نشَر أشرعته، ليلتقي في نهاية المطاف ويرجع في «المعاد» إلى «المبدأ»، وتكتمل الدائرة الكبرىٰ للخلق والوجود.

لقد تعلّقت الإرادة الإلهية بوراثة الكون والكائنات، والأرضين والسماوات، ورجوع كلّ الموجودات إليه، والعودة بها إلىٰ حيث يعلم سبحانه وتعالىٰ.

هـٰذا ما ظهر للملائكة ولحضّار ذلك المحفل، أو ما أمكن «جبريل» أن يظهرهم عليه ويخبرهم به، مما تطيقه الأفهام وتبلغه الإدراكات.

ومن المؤكد أن القضية كانت أكبر مما قيل...

إذ أضاف قائلاً:

إن ذلك سيأتي عبر تقديم «قربان أعظم»، يكون في ذروة صراع مرير، يقوم بين الحق الذي يقترن بالعقل ويلازمه، والباطل الذي يتعلّق بالهوىٰ ويتّبعه، يخوضه سلطان «مُريد»، ضد شيطان «مَريد»...

الأمر الذي يتطلّب نقل «الأنوار» إلىٰ صورة أخرىٰ، هي النشأة البشرية، إذ سيُخلق «الإنسان»، وهو خلق من طين، سيُلهَم الفجور والكفور والعصيان، كما الخير والطاعة والشكران.

وهـٰذا هو المقطع الذي أدار الرؤوس... وأطارها!

ثم أمَرَ بالاستعداد والتهيؤ لهـٰذا الحدث الأخطر.

❋ ❋ ❋

اقترن هـٰذا النداء بشعور دخلَني، وقد نزلت من مستشرفي وتركت موقعي المطل، واختلطت بالجموع من روّاد تلك العرصة...

فقد أحسست أنني بتّ قادراً علىٰ مخاطبة الملائكة ومحادثتهم، ودخلني أنني لا أختلف كثيراً عنهم!... رحت أتصفّح الوجوه، وأتحيّن من بينها مَن أسأله، فوقعت عيني عليه:

ترىٰ من يكون هـٰذا الملَك الذي يتألق ملاحة ويزهر لطفاً؟...

لعلّه الوحيد في هـٰذا الملأ، الذي أراه لا يتلفّت ولا يتساءل أو يستفهم، ولا في قسماته ما ينبي عن حيرة أو جهل؟

حتىٰ يخاله المرء لاهياً أو غير مُكْترث ولا عابئ! ولـٰكن الحق أنه بدا مسبوقاً بهـٰذا الأجتماع، أو عالماً بوقوع هـٰذا النداء، بل كأنه كان ينتظره ويرتقبه؟ ولم يكن نظري هو الذي وقع عليه فحسب، بل يبدو أن نظره أيضاً وقعت عليّ... ها هو يقصدني.

إنه يقصدني، يشقّ الصفوف، ويتحاشىٰ الجموع، ويتّجه نحوي!

نعم، إنه يُـقبل نحوي ويبادرني بالسلام والتحية... وقد شغلني حسنه وبهاؤه عن «سؤال»، لا أظن أنني «أُلهمت» مخاطبة الملائكة ومحاورتها إلّا لألقيه وأعرف جوابه! فثنّىٰ بعد السلام وبادرني:

هات سؤالك يا فتىٰ؟ فأنا أقتنص هـٰذه الفرص؟ إن ما جاء بك من الدنيا، قادني إليك ودلّني عليك!

: مَن تكون يا سيدي؟ هلّا تكرّمت وعرّفتني نفسك؟ لماذا تنكشف لي بعض الحقائق والأسماء وتبقىٰ أُخرىٰ خفية عليّ ؟

: دعك عنّي وعنك، وسَلْ عن ضالّتك!

: «الأنوار»، ما هي «الأنوار»؟ قالوا إنها ستصبح «بشراً» وتقدّم «قرباناً» لتطوي صفحة الوجود؟

قبض علىٰ عضدي، وقادني إلىٰ ربوة قريبة، ما إن وطأتها حتىٰ وجدت نفسي في محضر آخر...

: هوّن عليك، أنت في ضيافتي، وهـٰذه داري...

ثم راح في جوابي كمَن ينشد شعراً، ويتغزل بحبيبه!:

«الأنوار» مصدر كل نور، ومنبع كل فيض ووجود...

وهي عندنا، معشر الملائكة وسكان الملكوت، أسم يطلق علىٰ «كوكب دري»، بمنزلة هالة مرتفعة وضّاءة، ممتدة علىٰ أمتداد إدراكنا، وكأنها غير متناهية... مستقرة هناك، بالأُفق الأعلىٰ.

أشاح بيده ولوّح بجناحه وبسط كفّه فوق حاجبيه كمَن يستظل من الشمس أو كمَن يحلم، وقد ضيّق عينيه الجميلتين، وتبصّر وترسّم وتحازر... يريد البعد والمدىٰ الذي لا يُدرَك.

: أين هٰذه الهالة؟ هلّا أشرت لي ودللتني؟
: ليس هٰذا مما يُشار إليه...

إنها نور يشرق من صبح الأزل، هناك، في الأُفق الأعلى، عند «سدرة المنتهى»، حيث يرتدّ الطرف وينقلب البصر خاسئاً وهو حسير... إذ يبلغ «العرش»، وفوقه «الكرسي»، وقوائم الوجود وأعمدته، وحضرات مستغرقة في الرفعة والعلو، متناهية في العظمة والسمو... دونها ما لا يحصى من أبواب، ولا يُحدّ من أستار، ولا يُعدّ من حُجُب.

ولٰكن ثمّة خيوط من إشعاع تلك الهالة، ونفحة من روحها، تسري في وجودنا، فتُشْعِرُنا أنها معنا هنا، وهي في عليائها هناك... وستشعر أنت بهٰذا بعد حين وترى، إن طالت إقامتك واستمرت بعض الشيء!

إنه شعور يمنحنا المزيد من النقاء، وكأنه يعود بنا إلى أصول تستمدُّ من التجرّد، ومنابع وجذور تمتد فيه، فيرهف الحسّ فينا ويدق، فنحلّق ونرقى بمزيد من اللطف والشفافية.

ودون أن أطالبه بالمزيد... راح صاحبي يسترسل ويطنب:

لا تسألني عن مكان «الأنوار»، هل هي هناك في الأفق الذي حدّثتك عنه، أو هنا بين جوانحي؟ ولٰكن سلني عن الجمال، وعن العشق، عن شذرات من فيضها، وقبسات وجذاء من شعَلِها...

كان ديدننا، معشر الملائكة، أن نرتّل وِرْداً ونتلو ـ على نحو تلقائي وشبه آلي ـ ذكراً خاصاً، ونهوي جميعاً إلى السجود... كلما ٱلتفتنا إلى «الأنوار»، وكأننا لا نملك إلّا هٰذا.

أما أنا، فكنت أختلس النظر بين فترة وأُخرى وأتجاهل ما يلح عليّ بالسجود... أسرح بفكري في تلك الذوات: كنهها وجمالها؟

والغريب أن بهجة عجيبة ونشوة رائعة كانت تغشاني من هٰذه الخلسات، تفوق الأُنس والراحة التي أُدركها وأنالُها بالسجود، فتغلِب شعوري بالإثم وتأنيب الضمير من مخالفة الأمر وعدم ٱتباع «الجماعة»، وتقهر الوحشة التي تدخلني من الأنفراد عن أقراني بتعدّي الحدود وتجاوزها!

آه... لندع الحديث عن تلك «الخلسات» وما كان يصيبني منها، ولنعد لـ «الأنوار» والرأي فيها.

إنه خِضمّ متلاطم لا نجيد فيه عوماً ولا نطيق فهماً ولا نحسن إدراكاً، ولا نعرف من حقيقته إلّا نزراً يسيراً...

ومنه أن هذه «الأنوار» تهيمن علينا وعلى عالمنا، وعلى جميع الموجودات. وإننا معشر الملائكة مدينون في خلقنا، وفي معرفتنا الجليل تبارك وتعالى وتشرّفنا بخدمته، إليهم...

هذا ما تلقيناه عن كبرائنا وتعلمناه منهم وأخذناه عنهم.

إذ يقولون إنهم وقعوا حين خُلقوا، بين تقاطع دائرتي التشبيه والتعطيل، بين: مغلولية يد الجليل، والقول بالارتباط والاشتراك ورفع التغاير، بينه سبحانه وبين مشيئته وظهوراته.

ذلك أن هزّة ورعدةً عظيمة تملّكت الملائكة أول ما أدركوا ذواتهم وعلموا أنهم خُلقوا ووُجدوا، وقد تحطّمت أسوار العدم من حولهم، ونفضت أغلالها عن أيديهم...

فقاموا يجمعون شتاتاً بعثره «وعث الطريق»، ويجرّون خُطَىً أثقلها هول الحدث، وهو أشبه بمن يُلقى من شاهق، فيرتطم بالأرض بعنف يخلّفه مهدود القوى محلول العُرى، يترنّح كثَمِلٍ عاقر الخمر حتى أنهمك... وما هم بسكارى، ولكن الخطب فظيع!

ثم أنطلقوا سابحين يتحرّون مَن يدلّهم ويهديهم، وطفقوا يبحثون عما يكسو عُريَ جهلهم، ويفتح بِكْرَ أذهانهم وينكحها بلقاح، إذ لا جنة يخصفون عليهم من ورقها.

وبينا هم في الحيرة والذهول يتقلّبون، وإلى بعضهم يلجأون، وبالأقرب والأدنى يلوذون ويحتمون... إذ أعتراهم هاجس واحد، دهمهم فجأة وغشيهم، أشتركوا ـ جميعاً ـ في تلقيه والشعور به، فأخذوا يتساءلون عن الخلق، وعن النبأ العظيم الذي سكن أنفسهم:

من أين جئنا؟ ومَن خلَقنا؟

وما كانت هنيئة حتى اختُطفت أبصارهم وارتحلت أفئدتهم، لتتوجّه تلقاء «الصادر الأول» السابق جوداً والأكمل وجوداً، مختزلة سعياً يتنقل بهم بين كواكب وأقمار وشموس آفلة (إن كانت ثمة «شمعة» في ذلك المنظر، تتراقص شعلتها الباهتة، لتُرى... وما كانت، بل ظلماء دهماء!).

أسرَهم ذلك «النور» الأنور، وقد سرت منه في وجودهم خيوطٌ، فأرتهنهم كماله وجلاله، وصرعهم بهاؤه وجماله، فهاموا عشقاً... وما ملكوا إلّا أن يجثوا سُجَداً، وقد أُلقي في روعهم: أن لا شيء بعد هذا الذي يَرَوْن، ولا قبلَه ولا سواه... فعظّموه ومجّدوه وقدّسوه!

وإذا بالوجود يضطرب ويتزلزل من هذا الخاطر الخطير، حتى خال الملائكة أن أركانه تضعضعت، وأنه سيهوي ويتقوّض أو يتدكدك ويندمر... فتملّكها من الرعب والفزع أضعاف ما كانت فيه!

نكس «الصادر الأول» بصره وكسر طرفه وأطرق برأسه...

وقد دخله من الحياء ما فاق الحدود وغلب الوجود، حتى غمَر بحور الحب فيه وأثارها، فهاجت وماجت، ومرج بحرا: الحب والحياء، فألتقيا، فصار الفيض يسري وأخذ النور يتشعشع...

فما زالوا من الواحدية يخرجون، وفي التعيّنات يظهرون، وإلى الكَثَرات يومئون ويشيرون... علّهم يصرفون الملائكة ويثنون سكان الملكوت عما وقعوا فيه من التشبيه والتعطيل، ويَخرُجوا (هم) من الحياء الذي لزمهم تجاه ربّهم بعد ذلك الخاطر الخطير الذي كان من الخلق فيهم.

وما انفكوا يتجلّون في حلّة، ويتمثّلون في أخرى، وينزلون في مقام، ويظهرون في مرتبة: من أسماء الله وصفاته، إلى العقل، إلى النور، إلى كلام الله وقرآنه، إلى العرش والكرسي واللوح والقلم...

كانت التعيّنات تنبجس وتنبثق من الوجود الأقدس للصادر الأول والعقل الكلي، الواحدة تلو الأخرى... فظهر أنها وجودات مطوية أو منطوية في وجود واحد أقدس، أو قل: في كتاب واحد مبين، فأخذت تنتشر وتتجلى وتظهر... وتتكثّر.

وكأنها تشفّ وتُستنسخ، أو كأن جزيئات تكوينها وذرات وجودها أخذت تنفرز، فتنتزع نفسها وتستلّها بعد تداخل وأندكاك وتمازج، لتشكّل ظهوراً جديداً وآية بعد أخرى.

وذلك دون أن تتحوّل وتستحيل، ومن غير أن تنفصل وتتجزّأ، فيخلو منها ما كانت تملأُه، وتملأ ما كان خِلواً منها... ولا أن يعتريها ما يجعلها محلاً لجوهر، ولا حالّة في جوهر آخر، ولا أن ينال من لطافتها فيدخلها في التكثّف ويفسد «تجرّدها».

هناك من شبّهوا الأمر، أمر نشوء الكَثَرات وخروج الصادر الأول من الواحدية، بتموّج البحر، وآخرون بأضطرام النار، وغيرهم بحضور الصورة من المرآة، وهناك من رأوه كتشعشع السراج وإرساله الضياء... ولكن لم يسعفني أي من هذه في تكوين الصورة الحق. فليست الألفاظ هي التي تضيق على المعاني فحسب، بل الأفهام على التصوّرات أيضاً.

ما زالوا عليهم صلوات ربهم في هذا...

ما زال «العقل الكل» يخرج صور العلوم المودعة في «العقل الأول». والأمر يصدر من «الكرسي» حيث تتجلى جملة الصفات الفعلية، ويظهر الأقتدار وينفذ الأمر والنهي.

لينحدر عن «العرش» الذي يحيط بجميع الأجسام، فيخلع القوالب على الوجودات ويمنحها هياكلها، دون أن تكون له جهة، كيف وهو جسم الحضرة ومكانها؟... الجسم الكلّي والمكان المنزّه عن الجهات الست، وفي الحقيقة قلب «الصادر الأول»!

و«القلم» يجري من مداد المُجْمل ودَوَاتِه على «اللوح»، فيخطّ تفاصيل الوجود.

ويحكم «القضاء» في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية، وفي الأزل إلى الأبد، فيرسم «قدَر» الممكنات، فتخرج من العدم إلى الوجود، واحداً بعد واحد.

ما زالوا عليهم الصلوات في هذا...

حتى آلوا على أنفسهم أن يُحِلّوا ذواتهم أجساماً حسيّة، ويتعلّق وجودهم الأشرف الأقدس بعناصر مادية، ويكونوا خلقاً من طين:

بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!

فيتنزّه الجليل جلّ جلاله عن تلك النشأة، ويعلو عن هذه الهيئة، فتُعلم المغايرة ويفك الأرتباط...

ولست أدري - لا أنا ولا غيري - لِمَ كان ذلك منهم؟

إذ بقي السؤال يدوّي في أرجاء الملكوت:

لماذا تنزّل النور ليكون طيناً؟ وكيف أرتدى هذا الجلباب وهبط به إلى الدنيا، بعد ذلك الصَّوْن والخَفَر والحجاب؟ كيف ألتفَت بعد الوحدة إلى الكَثَرات؟ وسافر من تلك الحضرة النضرة العامرة، وهجر وطنه الأصلي إلى هاتيك الديار القاحلة؟

وبين قائل إنه لم تكن ثمة وسيلة تهدي الخلق إلى التوحيد وتنجيهم من الشرك إلّا هذه...

وآخر بأنهم - عليهم الصلوات - ما رأوا سبيلاً يحقق تمام عبوديتهم لله سبحانه وتعالى إلّا هذا...

وثالث قال: ما كان عطاء العشق المطلق، وكمال الحياء، وهو في الذروة، إلّا ليبلغ هذا المدى، ويكون بهذه الحال...

ولعلّ الجَمْع بين هذه الأقوال الثلاثة، قد يلتقي، أو يدنو ويقرب من الحق بعض الشيء.

عندها...

علِمَتِ الملائكة أن وراء هذا «الصادر» «مُصْدِر» أنحسرت عنه الأوصاف والأسماء، وأن وراء هذه القدرة قادر لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وأن «الأنوار» صنائع «الله»، والخلق بعدُ صنائع لهم...

وأن هناك رباً تؤوب إليه «الأنوار» وتدين.

هكذا عرفنا - معشر الملائكة - الله جلّ وعلا، ومن هذه «الأنوار» أخذنا هديَنا ومعالم ديننا...

قرنّا أنوارَهم بالله سبحانه وتعالى، فسبّحوا ـ عليهم الصلوات ـ منزّهين، فسبّحنا. وهالَنا مقامهم وأدهَشَنا فعلهم فخِلناهم آلهة، فهلّلوا ـ عليهم الصلوات ـ لنعلم أن لا إله إلّا الله، فهلّلنا. وقِسْنا عظمتهم بالله، فكَبَّروا ـ عليهم الصلوات ـ لنعلم أن الله أكبر، فكَبَّرنا... ورحنا نلهج بلا انقطاع:

"قدّوس سبّوح رب الملائكة والروح".

وهٰكذا قضت «مشيئة الله»، ومضى «أمر الله»، مستغرقاً في الحب والعشق، حتى تنزّل إلى النشأة الدنيا والحياة البشرية...

فحكم الله وأراد أن يعرّف خلقه «مشيئته»، ويعلن للمُلك والملكوت قدْرها ومنزلتها عنده، ويكشف لعالم الإمكان ما يكنّه من عظيم الحب والتقدير لهٰذا الوجود الأقرب إليه.

❋ ❋ ❋

لعمري، حقٌّ أن أتمثّل: "وداوني بالّتي كانت هي الداء"...

أبسط القول يا «فطرس»...

إنّني أدرك أن هٰذا المعنى لا يحتمله إلّا قول ثقيل، ولٰكن بالله عليك هلّا فصّلت هٰذا المجمل؟ هلّا كشفت الغموض وأسفرت؟

نظر إليّ بحب وحنان، ثم قال:

ها قد عرفت اسمي! فلعلك تعرف أسماء سادتنا.

إنني أتوسّم فيك هٰذا، وإلّا لما ارتحلت إلينا ولا جئتنا... لن يكون الجهد معك سدىً، لذا سأستجيب لرجائك. أبشر، سأطير معك وأحلّق ما وسعني ذلك... وما أمكنك.

لفهم أصل القصة، لا بد من عودة، ما أمكن العود...

عندما أراد الله سبحانه وتعالى، المستكن في العماء والبطون والغيب والكمون، بحقيقته الغيبية التي:

لا تنظر نظر لطف أو قهر، ولا تتوجّه توجّه رحمة أو غضب، بل هي بذاتها ـ بلا توسط شيء ـ لا تنظر إلى الأسماء والصفات، ولا تتجلى في صورة ومرآة...

غيبٌ مصونٌ عن الظهور، مستورٌ غيرِ مكشوف عن وَجْهِهِ حجاب النور، فهو الباطن المطلق والغيب الذي ليس مَبْدأ لمشتق. فلا أسم له في عوالم الذكر الحكيم، ولا رسم ولا أثر لحقيقته في الملك والملكوت.

لم يزل والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور. هناك حيث تنقطع آمال العارفين، وتزل في سرادقات جلاله أقدام السالكين، وتحجب عن ساحة قدسه قلوب الأولياء الكاملين...

ومن جعل «العنقاء المغرب» طريدته، طارت به وألوَت.

عندما أراد وأحبَّ لهذا «الكنز المخفيّ» أن يُعرَف...

وقع «النكاح الأول» الغيبي في الأزل، وتجلى «الفيض الأقدس» في صور الأسماء وظهر في كسوة الصفات وأنعكس نوره في مرائيها.

نطقت مشيئته جلّ وعلا، فكانت «الأنوار» معادن كلماته وأركان توحيده وآياته ومقاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفه بها مَن عرفه، لا فرق بينه وبينها إلّا أنهم خلقه وعباده، فتقها ورتقها بيده، بدؤها منه وعَوْدها إليه...

إن ذات الباري تبارك وتعالى لا تقع على شيء، ولا تكون سبباً أو علّة لشيء، فـ «القدرة» التي تتعلّق بالأشياء هي غيرُ «الذات»، إذ هي فعله ـ عزّ أسمه ـ لا محالة.

وبالدليل القشري الجدلي: لا بد من نسبة وعلاقة بين المتعلّق والمتعلَّق، ولا علاقة ولا نسبة بين القديم والحادث، ومحال أن تقع النسبة إلّا بين حادثين، فلا يتعلّق قديم بحادث أبداً، وتعالى الله عن جميع النسب، وجميع الأعراض والجواهر...

أما القدرة التي تتعلّق بالأشياء فهي مشيئته.

هكذا خلق الله الأشياء بالمشيئة، والمشيئة بنفسها، ومن هنا كانت المشيئة القوّة التي قهر بها كلّ شيء، والقدرة التي أستطال بها على كلّ شيء، فنعلم أن المشيئة المطلقة فوق التعيّنات الخلقية من العقل وما دونه.

أحدَثَ الأشياء، فوقع العلمُ منه على المعلوم والسَّمعُ على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور.

كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان، ولم يزل تبارك وتعالى بلا زمان ولا مكان، وهو الآن كما كان.

سرى الحب، وهو لا يسري إلّا ويَحْكُم...

فطاوعتهم «المشيئة» في ما شاءوا، فأنشأهم «الحب» خلْقاً وجعلهم بشراً، وسرى في الكلام فجاء مُنزلاً يحكي جوهرهم، وتحركت المقادير وكتبت الآجال ومضى القضاء، وكانت الحياة...

* * *

أتعلّم يا صاحبي، إنني أنظر فيك طفولتي... هذا ما جذبني إليك!

إنني أرى فيك هواجسي وتقلّباتي الماضية، وطموحي وآمالي الحاضرة... وبعد، فأنا «طائفي» متعصّب كما تعبّرون في دنياكم! ونحن نُحسَبُ على «الطائفة» نفسها، نحن نعشق حبيباً واحداً صرنا ننتسب إليه، وأنا لا أُطيق أن لا تعرف حبيبك كما ينبغي، فتعقّه وتبخسه حقّه! وهو من أعظم الحوب.

قال هذا ومضى دون أن ينتظر منّي رداً أو تعليقاً...

ثم أضاف:

طالما كنت أرى جلسات الوصل بين الملائكة وحلقات الذكر التي ينقل لنا فيها كبراؤنا هذه المعارف والأخبار، طريقاً وعرة.

وكنت أُفضّل أن أعيش الإشراقة في روحي، وأُدركها وأحسّها بين جنباتي، وأتفاعل معها حتى تتداخل في وجودي وتندك في ذاتي... لم أرَ الأمر ميداناً يخضع للأدلة والبراهين، ولا حقلاً يمكن للقياس والأستقراء والتجريب أن يثمر فيه.

والحق أن أعترف وأذعن...

لقد كنت صغيراً على فهم كلمات كانت تأخذني عبْر دهاليز مظلمة ودوّامات مُرْبكة، إلى ميادين غريبة، أقرب إلى التيه والضياع، من ربوع المعاني والمداليل وخلق القناعات وبعثها في الأنفس.

وما كان يسكّن فورتي ويخمد آضطرابي إلّا التسليم بحقيقة كونها أمراً يفوقني، وأن العلّة تكمن في آنحدار فهمي وتدنّي آستيعابي، لا من خلل فيها أو عيب منها... ولولا هذا «اللطف» لكنت شطحت في غرور كان سينتهي بي إلى المكابرة والعناد، ثمّ: رفض «ما لا أفهم» والوقوع في مهلكة «الكبرياء»، هذا الرداء الذي ما نازعه الله أحدٌ إلّا قصم ظهره!

لقد كان إدراك مضامين تلك الكلمات وفهم ما تكتنزه من معارف، والإحاطة بما تحويه من حقائق، تعصى عليّ وتعسر، وصرت ـ بعد فترة ـ أتحسّس منها وكأنني في «عقدة» مستحكمة. وكلّما كنت أسأل وأستفهم، عسى أن أفك رمزاً من رموز تلك «الأسرار» وقد خلتها، لفترة تراءىٰ لي بأنني طويتها من مسيرة الجهل، إلى «الطلاسم» والألغاز أقرب منها إلى العلوم والمعارف!...

كان الرد يأتيني أكثر صعوبة وعمقاً وغموضاً.

وإذا ما ألححتُ في سعيي، وعادت أسئلتي لتتركّب ويترتّب عليها المزيد، جاءني الردّ:

"إنها سمسمة تدقُّ عن العبارة، وإن البيان ليعجز عن وصف الأمر، والتعبير يقصر عن الإحاطة به، واللغة تضيق عن نيل معانيه، فكيف بإدراكه وهضمه؟ إن بعض ما أنت فيه قصور لا تقصير، فهو يتطلّب وعاءً لا تملكه، وظرفاً لم يتحقق فيك. إن هذا الأمر صعب مُستصعب، لا يدركه إلّا ملَك مقرّب أو نبي مرسل... فتقرّب وأدنُ عسى أن تحظى".

وأظنهم قالوا:

"لا يدركه ملَكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل" ولم يذكر الآستثناء بـ«إلّا»!

وبين هذا وذاك، بين العجز عن آكتساب المعارف واليأس من طريق التعلّم، وشَغَفٍ لا يتناهى لإدراك الحقيقة وكشف السر، ولهفة جيّاشة تستحثني على خوض هذه الغمار لبلوغ مداها، ونَهَم صار يربك سلوكي ويحرجني وهو يدفعني إلى تصرفات غريبة على ذلك الملأ، ويقودني إلى سلوك مرفوض في الملكوت...

عدْتُ آملاً في ضرب من العلم لا يحتاج إلى تعلّم واكتساب، بلَغني أن بعض ما لدى شيخنا الأكبر جاءه من ذلك الطريق!؟ فيمّمت شَطر العلم «اللّدنّي» أو الحضوري، وأنخت ركابي ببابه، ظاناً أنه المبذول الأقل مؤونة، والغُنْم الأسهل منالاً...

وإن كان هذا (سهولة نيل هذا العلم والظفر به) ظنّاً، كنت أُحدث نفسي وأُمنّيها به، ورجاءً أُطمّعها فيه، أو حدْساً أرتقبه وأنتظر تحققه... فمن اليقين أن العلم «الحضوري» هو الأعظم وقعاً في النفس، والأكثر قرباً إلى الفؤاد... فأنت لا تحتاج، إذا ما سغِبْتَ أو ظمئت، إلى دليل يثبت لك جوعك وعطشك، كما لا تحتاج إلى أن تقيم لنفسك برهاناً على وجودك! ولن تحتاج إلى مفردات وتعابير تنقلك إلى المعاني والحقائق، فالمعلوم ماثل في نفسك، حاضر في وجدانك.

لذا عكفت متطلّعاً إلى نفحة إلهية تشملني، راجياً نسمة ربانية تهب، فتصيبني وتنعشني، وعطاءً رحيمياً يتملّكني ويغمرني... حتى يتخللني ويعمّني، ويندك فيّ ويسري، ويحضر حضور الروح في الجسد، فأقف على ما أُريد، وقوف العرفان والوجدان. أما أملي ورهاني، فكان على تلك النظرات المختَلَسة، والسَّرْح الذي كان يعقبها، والأثر الذي كانت تتركه عليّ، من الإيماءات العميقة التي كنت أتلقّاها، أو أختلقها وأتوهّم أنني أتلقاها، فتغشاني!

فالعشق أوّله شغَبٌ وحراك، أو هكذا يظهر ويتراءى: قبضٌ وبسط، فتق ورتق، وسبح راقص... خفّة ونشوة يصاحبها ظمأ وفراغ وحرمان، يتخلّله شبَع وارتواء! شيء بمثابة إرهاصة الولادة، أو الانعتاق بعد الأسر، كخروج الفراشة من شرنقتها.

ثم الالتفاتة التي أظنهم أولونيها...

مع أنني لست واثقاً ـ أصلاً ـ بأن أية التفاتة منهم حانت إليّ، أو أنهم أولوني شيئاً خاصاً كعناية ميّزتْني عن أترابي من الملائكة الساجدين، ولكني أعيش هذا الظن، ولا أسمح لنفسي أن تتجاوزه وتُحرمه!

وبعد هذه المسيرة الممتدّة والسعي الحثيث...

ما زال كُنه «الأنوار» خافياً عليّ، وعلى غيْري، ولست أدري ما حقيقة «الصادر الأول»، و«العقل الكل»، و«الروح»، و«العرش»، و«الكرسي»، و«اللوح»، و«القلم»، و«الأسم الأعظم»، و«الكتاب المبين»، و«أم الكتاب»... إنه علم مستأثر يدور بين أصحابه وأهله.

وبعد يا صاحبي...

فالنظر إلى تلك «الأنوار» هو الزاد الذي نستمد منه طاقتنا، ونشحذ به همنا، في أداء وظائفنا من تهليل وتسبيح وتقديس لربّ العالمين، وما نقوم به من إدارة شؤون خلقه وتدبير ملكه وملكوته تبارك ربي وتعالى...

فبمجرّد النظر إلى ذلك النور في تشعشعه العظيم، ومن تلألئه الباهر، نستمد الطاقة، ونستعين على الملل والكلل والفتور، كما هو الهواء والتنفس والطعام والشراب عندكم معشر البشر.

* * *

أخذ يعتريني شيء، فَهِمَه صاحبي من فوره... فبادر:
دعني أُحدّثك عن أمور وأُريكها، ثم أرحل حيث شئت!
: أرحل؟ إلى أين أرحل؟... ما أنا براحل.
: بلى، إنك راحل عما قريب... ولكن دعني أُحدّثك عن حقائق، وأُزوّدك بأمور ستحتاجها.
إنها أمور ثلاثة لا بُدّ لَكَ من معرفتها.
لا تكن كمن زار «مكة» ولم يرَ «الكعبة»!
إذا لَمْ ترَ هذي الثلاث فما رأيت شيئاً، وعُدتَ مغبوناً:
«المذبح»...
«القربان»...
«القاتل»...
لقد شهدت واقعتين من أعظم وأخطر ما يكون، دعني أُحدّثك عن مولد «القربان»، ولعلّي أستطعت أن آخذك لتنظر إلى «المذبح».
أما «القاتل»... فمتى شئت!
كان «الوهج» في وجه المَلَك قد بلغ حداً لم أرَهُ فيه من قبل، فبدا أكثر سحراً وجمالاً! حتى أسرني، فأسلمت القياد وألقيت العنان... فلما رأى ذلك منّي، تبسّم بأنشراح، وأخذ بيدي إلى «الربوة»، وقال:
لنبدأ بالأخير!
عليك أن تتهيأ لما ينتظرك... ستشاهد مسيخاً، منكَر الطلعة، لم ترَ في حياتك ما هو أكثر هولاً وفظاعة، ولم تقع عيناك على أقبح وأبشع مما أنت مقبل عليه الآن!
فزعت، فأنتزعت كفّي من يده، ورجعت القهقرى...
: لا بد من ذلك... لن تندم، ثق بي أيها المؤمن.
: ما هذا المهول؟ مَن يكون هذا «الأقبح»؟ ولماذا تأخذني إليه؟
: لن آخذك إليه، سوف تطلّ فتطّلع عليه فقط، مجرّد رؤية ومشاهدة عن بُعد، لن تحدّثه ولن تجالسه.

قد يراك، ويعلم بحضورك، لا تخف، إنه أحقر من أن يطالك بسوء، فلا سلطان له عليك هنا.

أما حين تعود إلى دنياك، فأنت وسبيلك!

إنه الوحيد من سكان الملكوت الذي أبى السجود «للأنوار»، ورفض الإقرار بفضلهم والخضوع لولايتهم والتسليم لأمرهم... في بداية الأمر، لم يكن يحتمل وجود مَن هو أقرب منه إلى الله، لكنه بعد أن أطّلع وعَلِم، لم يتحمّل «أستخلاف» غيْره، ولم يُطق أن يستأثر هذا «الغيْر» بهذه الحظوة والقرب والمنزلة!

وراح بين مَن يشكو، ومَن يستصرخ ويؤلّب الأجواء:

"كيف لـ«النور» أن يحلّ في الطين؟!

أليست «النار» هي الأقرب إلى «النور» والنورية وما يترتّب عليها؟!

إنه أنقلاب على الأسس، وخرق يقفز على القواعد، ولكم أن تقيسوا بعقولكم وتحكّموا المنطق لتروا هذه الحقيقة وتقفوا عليها بوضوح"!

ولو كان موقفه هذا وأستنكاره ناشئاً من جهل وتخلّف أعجزه عن أستيعاب الأمر وهضمه، كما لم نستوعب نحن الأمر ولم نهضمه، لهان وأمكن علاجه... ولكن الحال كانت مختلفة تماماً.

لقد أذعنّا نحن وآمنّا وسلّمنا، إذ إن الله تبارك وتعالى يعلم ما لا نعلم من حكمة هذا الأستخلاف وأسراره، وأبى هو وأستكبر وطغى. لقد ظهر له الأمر وثبت وبان، وفهمه تمام الفهم وأستقر في نفسه وعَلِمَه، لكنه لم يُطِقْهُ ولم يتحمّله. يقال إنه صريع الحسد، حسد «الأنوار»، ويقال إنه ضحية العُجْب والغرور بعد عبادة أمتدّت دهوراً، وعلى كلا الفرضين، دخَلَه من الكِبْر ما أنتهى به إلى ما سترى...

: لعمري، إنك تتحدّث عن «إبليس»، هل أنت آخذي إليه؟

: نعم... تلقي نظرة عليه، ومتى شئت الأنصراف، أو ما تمالكت نفسك من هول منظره وقبيح مرآه، تلفّظ بكلمات الأستعاذة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، فترحل من فورك، ويغيب عنك.

أريدك أن ترىٰ رؤوسه ووجوهه الخمسة، التي تحيط برأسه ووجهه الأصلي، وتتعرّف عليها، حتىٰ تميزها متىٰ ٱلتقيت بها في الدنيا.

لا تكتمل «المعرفة» ـ يا أخي ـ ولا تتم لأمرئ، ولن يقطع في «السير» شوطاً ويبلغ في «السلوك» منزلاً، إلّا بهذا... لا بد له من «التَخلِية» فيفسح لـ «التَحلِية». وحتىٰ يخلي قلبه ويفرغ وجوده من كلّ قبيح، ويتجنّب بعد ذلك ما يرد عليه من القبائح والرذائل، عليه أن يتعرّف علىٰ مصدر القُبح وأصل القذارة ومنبع السوء ومبعث البشاعة (وهي مواطن «التروك» في لغة الفقهاء)، ويقتلعها من جذور وجوده وأعماق نفسه... فينقىٰ!

ولكني لا أكتمك سراً...

فالحقيقة أن ما يعنيني هو أن ترىٰ «زقلل» و«دلام» و«عندق» و«زبل» في الوجوه التي تتفرّع عن عنق «إبليس» وتحيط برأسه... وأُريدك أن ترىٰ من بينهم وجه «القاتل»، قاتل «القربان».

عليك أن تمعن النظر وتدقّق، لترىٰ في ملامح كلّ وجه، صور الوجوه التي يظهر بها في دنياكم ويتلبّس، ليضلّ ويغوي ويغرر ويلمز، ويمارس شيطنته عليكم، فلكلّ من تلك الصوَر والوجوه أصل هنا ستراه.

وأنا أتحيّن بعد هذا، أين ومتىٰ سترىٰ تلك الوجوه أو تلتقيها في عالم الدنيا، وأتحرّق شوقاً لأنظر حالك وردّة فعلك حينها؟!

وبعد هنيئة... كنا هناك.

وقفنا علىٰ شفا وادٍ سحيق، فأشار لي الملَك الكريم وقال:

ٱنظر هنا، ها هو... «إبليس»، بذاته وعينه.

لم أزد علىٰ قول: بالله ٱعتصمت!

كان في قعر الوادي، وقد ضربت أوتاد علىٰ جلاميد سود في سفوحه، رُبطت بها سلاسل وأغلال قيّدته وكبّلته.

ماردٌ ضخم الجثة، عبلٌ، لحيم، فاحش الطول، داكن البشرة غليظها، غارت قدماه في الأرض ـ علىٰ صلابتها ـ حتىٰ ثلثي ساقيه، أو أنهما غُرستا كضرب من الجبس.

والتوت على فخذيه المتباعدتين أفاع سوداء تفقّأت في جلدها، الذي يبدو أنها لم تخلعه مذ كان وكانت، نتوءات صغيرة، ولكنها صلبة، شيء كحراشيف التماسيح... فلا لِينَ هنا، حتى في ملمس الحية! وكلّما صاتت من فيها، خرج فحيحها ناراً وأرسل ألسنة من لهب!

أما جذعه، فبطن عريضة تدلّت أمعاؤها من جثاف وأخاديد توزّعت فيها، فتجمّعت أشكال الديدان وأنواع الحشرات، كقُراد، تقتات من خُراج قيحها وصديده، حتى تمتلئ فتموت، فتتلوها أخرى، وهكذا... له ستة رؤوس كرؤوس الغيلان، شعثاء غبراء، تعلو ستة أعناق غلباء، مهترئة، لكن بلا تداع أو انهيار، كبقايا أساطين معابد الرومان، المتناثرة هنا وهناك في موقع أثري، لا تعلن نهايتها قدر ما تحكي عجز القائمين على الموقع عن إعادة تركيبها وتنظيمها في أماكنها التي كانت عليها.

غرست في كل رأس قرنان، ودارت فيه عينان حمراوان، لا تستقران ولا تسكنان... كأنها تستطلع المحيط وتراقبه، أو ترسل الشرور وتنشرها. وأعجب ما في العيون أنها تنمّ عن يقظة وتوقّد خارق، وفي إثره دهاء ودغل وختل ومَحَل، لم ينل منها ما يتوالى على البدن ويتواصل عليه من ضروب النكال والعذاب.

وعشرات الأيدي... بعضها مصفّدة، وأخرى مطلّقة، تتدلّى منها حبال غليظة كتلك التي تلقيها البواخر العملاقة في أعناق مراسيها، يبدو أنه تمكّن من تقطيع بعضها، فتحرّرت بعض الأيدي مما كبّلها.

يخور كعجل هائج، يطلق الهيعة تلو الهيعة، وينتفض بين لحظة وأخرى يريد أن ينفض أغلاله ويحلّ قيوده، فيزمجر ويرعد ويزبد، حتى يتزلزل الوادي من تحته، وتتلقّى الجبال من حوله رجع عوائه المنكر... وترتفع ألسنة الدخان ويعلو العطب من منخريه، وينحدر صديد نَتِن. دلع لسانه فتجاوز طرف ذقنه حتى تدلّى على صدره، وقد أفقدته نوبات الغضب المتلاحقة رشده، فغرس أنيابه في لسانه فاخترم وجرح، حتى أبكِمَ وخرس، فما عاد يطيق نطقاً ولا يحسن إلّا هذياً وجؤاراً.

وكلّما صرخ براجفة أنخلع لها صفاد من يده، أتته شواظ من نحاس أو صُبَبٌ من مُهَل، تخرق قلنسوة من صلب تحمي رأسه، فتصيب يافوخه وتخرج من دبره، فتتركه خامداً ثاوياً إلى حين...

وبينما كان الملَك الكريم يحثّني على التمعُّن والتفحّص في الوجوه المحيطة بالوجه الأصلي، ويدعوني للتركيز على سحنتها وقسماتها وتقاطيعها، تركيز حفظ واستذكار...

كنت منشغلاً أغالب هلَعي وفزعي وما نزل بي من اصطكاك الركب ورجف المفاصل وارتعاش الأيدي والأطراف، وطفقت ألتمس مخرجاً من رغبة ملَكَتني، فما عدت في وارد غيرها، تلحّ عليّ بالانصراف والخلاص من هذا الفزع والرعب والذعر، واشمئزاز وغثيان يدفعني للخروج والهرب من هذا المرأى المهول...

أردت أن ألجأ إلى «الاستعاذة» التي علّمنيها صاحبي، فخشيت أن أرحل فجأة، فأنقطع عنه وأفقده وأضيع!

وأردت أن أثبت وأقاوم، فما أسعفتني نفسي، ولا أعانني شيء، لا في داخلي، ولا في ما كنت أرى من حولي...

فما ملكت إلّا الصدّ، وأن أولي الوادي ظهري.

ولكن «صدّ الأطفال» هذا لم يبرئ جرحاً ولا سكّن ألماً.

عندها تبسّم «فطرس» مشفقاً ومسلّياً وناولني قدحاً فيه صبابة لا تفي إلّا برشفة، فعجبت من «الشحّ»، أيسري حتى في هذه الربوع؟...

يا لبخلهم! أتكون أول ضيافتهم لي هذه الشربة ـ الرشفة؟!

تبسّم وناولني القدح، لا يخفي ضنته! وقال:

هذه شربة، تزيل عنك ما أصابك... ولكن حذار، فقد تُنسيك ما رأيت، وتمحوه من ذاكرتك، أو لا تُبقي إلّا على نزر يسير، لا بد أن يسعفه حظّ كبير لتستذكر ما رأيت. إنها قطرات من دموع الرائين، تجمعها الملائكة من مجالسكم ومحافلكم، وتعود بها «أنفس تحفة» من الأرض...

تتداوون في الأرض بالتربة، ونتشافى هنا بالدموع!

رحت أخيّر نفسي في عرضه «السخي»!

هل أشرب فأتخلّص من آلامي وأخرج من محنتي؟ وفي المقابل أفقد ذاكرتي وأخسر كل هذا الذي رأيت؟ أم أقاوم رغبتي وأتحمّل، وأحظى؟

لقد أومأ لي وعلّقني بأمل...

أن يبقى لي شيء يسير من الذاكرة، وأعود ببعض الذكرى، فتعلّق بعض الصور... ألن تكفي؟

يا له من خبير...

إنه يعرف طريقتنا معشر البشر، نتشبّث بالقشّة لننجو من الغرق، ونبني جبالاً من أوهام الأماني والآمال، فكيف لا نثق باحتمال رجحه، أو لم يرجّحه، ولكنه طرحه وأتى على ذكره، ملكٌ كريم؟

إنها مجازفة، ولكن حالتي تستحق المجازفة، وحظّي رهان رابح، وطالما قادني وبلغ بي ما أنا فيه، فسيبقي لي ما أستذكر به تلك الوجوه.

* * *

في طريق عودتنا...

ذهب بي إلى قصر باذخ، كصرح، أقيم منفرداً، يتسلّق الغار أسواره، فينسج أكاليل تجلّل أعاليها، ثم تمتد كشواخص تبرز من السور، وتتقدّم كأنها أجنحة، لتصنع أحياداً وَارِفة، تستظل بها آرام، وتتواثب خشوف حول أمّهاتها الظّباء، وتهفو أرشاةٌ وتهزع، وبين هذه وتلك وُعُولٌ وأيائل أتخذت الحيد صفّة تتفيأ فيها...

وبعد الأسوار يقف الداخل على أفنية رحبة، تحتضن مروجاً نضرة، وخمائل زاهرة، ورياضاً زاهية، يتناسق فيها الزنبق الغضّ، وتنتشر أفواف السوسن، تغالب الآس وتباري الأقاح... تتوزّع في أطرافها العيون والينابيع، وقد أتصلت بقنوات وسواق تمتصّ زخمها، وتهدئ نضخها وفورتها، لتصبّ في غدران وتترقرق إلى برك وبَحرَات، تنساب من تحت الأرض، وقد شفّت أحجار الرّصف عليها فصارت تحكيها، ومع أنتشارها في الأرجاء لن يأمن أي حصيف نبيه أن يقع في ما أصاب «بلقيس» ملكة «سبأ» في قصر نبي الله «سليمان»، فيحسب الصرح لجّة!

وبعد... فقد أستنجلت الأرض، ونزّ الماء من تربتها ونضح حيث بسقت الأشجار، وأحتاج النبت، وشاءت الورود، فلا حاجة للسقي.

كان صاحبي يمضي غيّر عابئ بكل هذا، وأنا أقصر خطاي وأستبطئ سيري فأملأ عيني مما أرى وأنظر، وما كنت أنفكّ من سطوة منظر وبَهر مرأىً حتى أقع في أسْرِ آخر... حتى تقدّمني صاحبي وفصلنا بون، فما أوحشني ذلك ولا أورثني خشية من تيه وضياع. لقد أطربني هديل الأطيار من حولي وتغريد العنادل من فوقي، وهذا الفضاء المفعم بالنشوة والسرور... فما عدت أكترث لشيء ولا أعنى.

هذه قُمريّة أستقرّت على كتفي تقرقر وتضحك، وهذه قبّرة ترفرف من ورائي وتصفر تستلفت نظري وكأنها تستمهلني ألّا أمضي عنها، وهذه إوَز تتقدّمني في مشية مترقّصة مضحكة، وهذه فواخت تحلّق معها يمام، في أئتلاف جمع البريّ بالداجن!

ما زلت في بهجة هذا الشدو، مأخوذاً مبهوراً، ولو سُئلت عن قمّة الطرب وذروة النشوة؟ لما عدَوت أداء هذه الأطيار... حتى هبّ الصبا، فعلِمت أن بعد كل جمال «أجمل»، ووراء كل كمال «أكمل»... راح يتخلّل الأغصان، ويسري بين الأفنان، فصار يخلق جرساً ويرسل نغماً ويعزف لحناً، ويبعث موسيقا، لو بلغت سكان الأرض واستمعوا إلى لحظة منها لماتوا شوقاً وتلفوا لهفة!

هنا تتعطّل لغة العود وتتقطّع أوتار الطنبور ويتبدّد عزف المزامير وضرب الدفوف، هنا يستجدّ للغناء ولجمال العزف واللحن ولعذوبة الصوت معنىً آخر، كما يستجد للسّماع والطرب...

لا أدري لِمَ تداعت في ذهني كلمة شهيرة لأديب الإنجليزية الأول «شكسبير»: "احذروا هذا الرجل، إنه لا يحبّ الموسيقا"!

أوَيملك امرؤ أن لا يحب «هذه» الموسيقا؟

أرهفت سمعي وأرعيته، فآنست صوتاً يأتي من بعيد، أفواجٌ من الملائك تطلقه، وأفواج أخرى تحمله وتجول به في هذا الفضاء، أقبلْت عليه، فإذا به إنشاد... نعم إنه إنشاد، إن هزجاً بديعاً يصاحب ذاك اللحن، أو أن العذوبة التي أسكرتني هي الصوت ـ النشيد نفسه، وليست شيئاً من الموسيقا صاحبه وجاء معه أو بعده؟ كانت «جوقةً» من ملايين المنشدين ترتّل بعذوبة تتثنى لها الجبال وتميد مع ترجيعها وبلوغها القرار:

تفديكَ يا فردَ الأماثل معْشرٌ
فاقت بنسبتها لكم أمثالَها
طوبى لها قد أدركت ما أمّلَتْ
قد أدركت ما أمّلَتْ طوبى لها
عميت بصائر حُسّد لو أبصَرت
لتبيّنت أفعالَها أفعى لَها

هكذا يترجم الجمال ويظهر في هذه الرحاب، فيحيلها مغانٍ يتراقص فيها كل شيء ويخف نشوة وطرباً!

ترىٰ مَن هو الممدوح؟ وبمن كان الصوت يتغزّل؟

مَن هٰذا الذي تنقلب الرياح ـ وهي تتخلّل الأشجار ـ لحناً يعزف بمجده، وأُنشودة تترنّم بمدحه؟ فتُطرب السامعين من نشوة الحب، وتسكرهم من لذة العرفان؟ ثم مَن هم الحُسّد الذين تدعو عليهم الملائك وتصف أفعالهم بالأفاعي؟

فرغت من هٰذا، وما فرغت!

حتىٰ دنونا من القصر، وإذا ببوابته العظيمة (دون رتاجه) تتفتّح علىٰ مصراعيها، وقد امتدت منها أذرع نورانية تصافحنا، وانبرت أصوات رقيقة تحيينا وتحتفي بقدومنا: "أهلاً ومرحباً"...

رحنا نمر بدهاليز طويلة وقاعات رحبة كبيرة، تعبق جدرانها بمجامر الندّ والبخور، ويفوح في أرجائها الطيب والعطور، تزينها صور ورسوم بارعة، كلّما وقع بصري علىٰ شيء منها دبّت فيه الحياة وتحركت علىٰ الحائط متهلّلة مستبشرة، فإن أعرَضتُ أو تجاوزتها عادت لحالتها الأُولىٰ!

حتىٰ تخلّلنا القصر وقطعناه، وصرنا في طرفه الآخر.

سألته، وقد سكّن ما بي فرطُ التكرار وتوالي الأنبهار فكأنني شبعت! وامتص زخم الصدمة ما قرأته في وجه الملَك من اللامبالاة وهوان كل هٰذه عنده... فانحلّت عقدة من لساني، وسألته: "أفي الجنة نحن"؟

قال: هٰذا نعيم مبذول للمؤمنين، حيثما كانوا في هٰذا الملكوت، يصحبهم ويلحقهم وهم فيه يرفلون... لؤلؤ ومرجان، فاكهة ورمان، حور وولدان، أنهار وخمور، دور وقصور، سرورٌ وحبور. أما الجنة ـ عندنا ـ فهي حيث تحلّ «الأنوار»، أو حيث يمكنك أن تطلّ عليها وتتّصل بها وتلتقي، مذ لبستْ حلّة الخلق وظهرت في أرديته بعد مشيئة الربّ المطلقة.

آه ثم آه...

لو حظيت بنظرة يا هٰذا، لو اتصلت مرّة والتقيت، لو شفّك الوجد يوماً وأضناك الهوىٰ... لازدريت يا صاحبي كلّ ما ترىٰ، ولَعُدْت بـ «النعيم» إلىٰ معناه الحقيقي، وعرفت وَقْعَ «برد الولاء» في القلب!

قبض على عضدي، وأدارني حتىٰ صرت من حذائه إلىٰ وجهه، وقال بنبرة جديدة، خالية من الرومانسية التي كان فيها، وكأنه آستفاق منها مكرهاً وخرج من أجواء وذكريات حبيبة على قلبه مرغماً:

لقد رأيتَ «القاتل»، وآن لك أن ترىٰ «المذبح»...

أخذني إلىٰ إفريز واسع كأنه حديقة معلقة، وأشار إلىٰ طرف فيه، تنتصب سدرة وارفة أثقلها النبق، بجوار جُمّيْزَةٍ جمعت في ثمرها التين والزيتون، وشيء آخر لم أتعرّفه...

أشار إلىٰ الفسحة بين الشجرتين وقال:

هٰذه بقعة فيها من «الجنة» شيء...

لعلّها روضة في أطرافها، أو طريق تنتهي إليها... لست أدري.

ولٰكنها ليست من الجنة الموعودة. إن فيها ريح الجنة، لولا سموم تلفح ولاهب يرمض! الجنة حبور صرف، وسرور خالص، لا نصَبَ فيها ولا حزَن، وهٰذه مُضنىً قاطنها، ومتألم نزيلها، مع سروره ورضاه!؟ سكان الجنة في سلام فاكهين ملتذّين، لا يشوب عيشهم ضنك، ولا يكدر صفوهم ضيق ولا آضطراب، والجالس هنا تلسعه مرارة وتشرقه غصّة ويكويه آكتئاب، جنباً إلىٰ جنب أُنسه ونشوته؟!... في هٰذه البقعة مزيج غريب وتداخل أكثر غرابة، يقلب آنبعاث الألحان إلىٰ عزف جنائزي مفجع، ويحيل شدو الأطيار تراتيل وترانيم مشجية.

ثم عاد إلىٰ لحنه الرومانسي الحالم، ومضىٰ يقول:

كنت أسبح يوماً هنا وأسرح، متأمّلاً متفكراً تارة ومُصَلّياً أخرىٰ، ومنشغلاً بأوراد ومنصرفاً لأذكار خاصة، إذ لمحت «منظراً» غريباً، ليس من عالمنا، لا جنساً ولا نوعاً، لا طبيعة ولا سنخاً... كان (المنظر) يتراءىٰ بين طيّات الأفق الأعلىٰ، يظهر تارة ويغيب أُخرىٰ، وكأن سُحُباً نورية تمر فتواريه وتخفيه، وأُخرىٰ تنجلي وتنزاح فتبديه... وإن لم يخذلني ظنّي ويكذّبني نظري، فإن هٰذا «الشيء» الغريب، أخذ يعرج ويرقىٰ حتىٰ بلغ «العرش»، وآستقر هناك متربعاً عليه!

سمعنا عن نفوس تتكامل وهي تطوي المراحل والمنازل، وعن أرواح تعرج، وكلّها تتجرّد ويلطف عنصرها، وتخف وتشف من كثافة النشأة الأرضية التي كانت فيها... لكن هذه قطعة من أرض مبسوطة: بترابها وحجرها ومدرها، ٱرتفعت وعرجت، ٱرتقت وسَمَتْ، وهي على هيئتها الدنيوية، باقية كما هي؟

ترى هل ثمّة ٱستثناءات في قانون الوجود ومراتبه؟ هل يمكن لهذا المعقول أن يتخلّف ولو في جزئية واحدة؟... أم أن الصورة الأرضية الدنيوية لهذا الموجود المقدّس هي هيئة ملكوتية في الأصل؟ حلّت في البسيطة وتنزّلت من سابق عهد؟

رأيت عروج «البقعة» وتقدّمها وبلوغها ثم ٱستقرارها في الحضرة التي هي فيها الآن، وكانت ماضية ترقى وتخترق الحجاب تلو الحجاب، حتى طوت السبعة، وبلغت العرش، بل عَلَتْه! أي أنها حلّت حيث يصدر «الأمر» ويظهر الجبروت ويكون، وحيث الإحاطة بجميع الأجسام.

إنها أرض «المصرع»...

«المذبح» الذي تلقى دم الأُضحية الإلهية، فنُحر «القربان» بعرصته... «القربان»، الذي قدّمته «الأنوار» من ذاتها:

كفارة لذنوب الخلق حين أشركوا، ومن الشرك تتفرّع كلّ معصية.

وهداية للكائنات، حتى تعلم أن «الأنوار» ممكنات تحلّ في أبدان، وتقضي بحدّ السنان، فلا تشرك بعد هذا بربّها.

ثم حباً وعشقاً لله... حب قضى أن تمضي لتتحرّر من قيد الناسوت وتعود إلى مقام «الممسوس في الذات» من جديد، فترجع إلى وطنها بجوار حبيبها وحضرته. وفي سبيل وصل الحبيب، يبذل المحب أعزّ ما يملك، ويقدّم أغلاه، والهدايا على قدر مهديها. وهذا ما ٱنتظره الجليل تعالى، ليجمع الفرش ويطوي الوجود... وعلى حقيقته دارت الموجودات وعلى معرفته فطرت القرون الأولى، من «المبدأ» حتى الأبد، وعليه توقّف سفر عودة الخلق ورجوعهم إلى ربهم في «المعاد».

إنها البقعة التي تلقّت جثمان «الفداء»، ثم حوت قبره وضريحه الشريف، فمزاره وعتبته العالية... وغدت تستقبل أفئدة تهوي إليه، وتأتيه من كلّ فجٍّ عميق.

إن كان لـ«سليمان» في «أورشليم» «فلسطين»، «هيكل» مدفون و«عرش» وكرسي مضيع... ومعبد يحج إليه المؤمنون، ويتبتل الرهبان والكهنة وينقطعون للصلاة وتقديم القرابين، وتحته أو في قَبْوِه «قدس الأقداس»، يدخله عظيم الأحبار، ويختلي فيه مرّة في كل عام.

فإن «الحائر» من أرض «القربان»، غدا معبداً ومسجداً ومزاراً وحضرة، ارتقت عرشَ الرحمن، وارتحلت، وما زالت تفد بمن ثوىٰ فيها، وبقاطنيها وزائريها (المتعاقبين!)، لتستقرّ هناك، وتحلّ في كنف هو المدىٰ «الأقصىٰ» والذروة التي ليس وراءها شيء... وصارت «حضيرة القدس».

هناك «قدّاس» يقدم ذبيحة، يقام على خبز ينوب عن جسد «المسيح»، وخمر يمثّل دمه... وهنا دموع تبكي «الذبيح» وتنحدر على المصاب، ودماء يريقها العشاق من صدور تُلطم، وظهور تجلد، وهامات تنفلق!

لقد شَهِدْتُ هذا المعراج ورأيته...

وهناك طائفة منّا ما زالت تطوف حول تلك البقعة وتحدق بها، ورعيل نذر للخدمة والسدانة، وأفواج ترثي وتندب وتقيم المآتم وتزور... وأخرىٰ تصبو وتتلهّف وتنتظر الإذن بالصدور.

ثم تقدّم الملَك الكريم بوقار، وأخذني برفق ومضىٰ بي إلىٰ تلك الناحية، وأجلسني في موضع محدد، بذل جهداً وعناية، وبالغ في تحديده ودقّق، ميمّماً شطر «البيت المعمور»... وأمرني بصلاة من أربعين ركعة مثنىً مثنىٰ، فإذا فرغت، تأتي تلاوة أذكار وأوراد علمنيها، وأخرىٰ كانت مدوّنة في رقاع، أودعت سفطاً كان في تلك الناحية، بين الشجرتين، ظننته متّكأ، فإذا به عيبة تحوي تلك الصحف، وفيها الأوراد المخصوصة.

وكلّما قطعت شوطاً وقضيت وطراً، تأمّلت في الأُفق علّني أرىٰ المنظر الأعلىٰ، ولكن دون جدوىٰ...

حتى جلس «فطرس» إلى جواري وبسط أمامه منديلاً، أو هي قطعة قماش خضراء زاهية، قال: إنها من «دياركم»، كانت معقودة على «منبر»، حظي سلطان من الجن بالرخصة لأخذها... وقد أودعها عندي أمانة حتى حين، وأجازني بأستعمالها. وأستدرك: إن الجن يأتون بالكثير من هذه «المتبركات»، ولكن ليس كلها يجدي! كأن قفلاً وضعه «الغَصَبُ» على بعضها، إذ غفل أصحابها (الإنس) عنها فأختلسها الجن، خَتَم على فعلها وحجب تأثيرها ومنع بركتها.

ثم أخذ يتململ، وجعل يتمتم بكلام لم أفهمه، ويقرأ من الصحائف... وراح في زجَل وتلاوة عجيبة:

بوركت يا أرض الله المقدّسة، أيتها التربة الملكوتية والبقعة العرشية... طبت بمَن حلّ فيك ونزل... تقدّست أرجاؤك وجلّ ثناؤك إذ حار ماؤك... يا مهد الدماء الزاكية ومثوى الأجساد الطيبة...

يا وهب يا حرب، يا شوذب يا مصعب، يا حنظلة يا ربيعة، يا حجير يا زهير، يا مسلم يا بُرير، يا عابس يا شبيب، يا جون يا حبيب...

بنوح زعفر والجان، ببكاء الوحش والغيلان، بعويل النيل وصرخة الشطآن، بجزع البحر وأنتحار الحيتان، بأنين الصحاري ونحيب الفلوات، وأبنة اليهودي العمياء المبصرة، والشلّاء المعافاة.

بالعوسجة وقد خضد الله شوكها، بالدماء تحت الحجارة، بالأُفق وحمرته، والشمس وكسوفها، والسماء ودمعتها، والأوراق ونضحها، بصيام البومة ودله فؤادها، بهديل الراعبية ومتّصل لعناتها...

ببكّة والغريّ، بيثرب والخليل، بسيناء وغزّة، بالبقعة وساعير، بالربوات وخراسان، بالزوراء وكوفان.

وما زال في هذا حتى أخذته رعدة مهيبة، ثم أنشد بلحن مزج الحزن بحماسة حامل لواء الله ورايته:

عَمَدُ الحديد بكربلا خسَفَ القمر
من هاشم فلْتَبْكه علْيَا مُضر
أوَما دَرَتْ عن سرجه العبّاسُ خَر
فمَشى إليه السبطُ ينعاه كسر
تَ الآن ظهري يا أخي ومعيني

عندها، أهتز المكان وأرتجف البستان...

وكأن «الموكّل» أكتفى بتلك الأسماء، ولم يطق هذا الرثاء، ففتحت طاقة السماء، وأنكشف فوق رؤوسنا الستر عن مشكاة...

وظهرت البقعة المباركة...

والملائكة تهدهد وتحوم، في جلبة وجزع...

ونحن في وجوم!

لم يكن الأمر يُحتمَل لأكثر من ثوان...

خفرات تجلّلن بالسواد، توزّعن حول قبر وأرتمين عليه...

وأخر جاثيات، رفعت إحداهن يديها ومدّت ذراعيها وأرجعت رأسها حتى أستقبلت بوجهها السماء، جمعت الأبتهال مع حثو التراب...

وعبرات تحيي الثرى، لولا زفرات تحرق ما حيا، وجمر يلقى من الأفواه يحكي ما يلهب الحشا، ثم حسرات تصدّع الجبال، ووجيب تنخلع له الأفئدة... وعولة تصك سمع الملكوت.

وفي المنظر دكنة وعتمة، وعثير وعجاج ساطع، يهيجه نوح ملائكة، أو جن، وخلق آخر لا عهد لي به ولا معرفة، أجناس من سكان الكواكب والنجوم و«بنات نعش الكبرى»... تطوف حول القبر هفواً وعدواً، تقفز من جزع وتطفر من لوعة.

وملائكة تحيط بربّات الأسى، الثواكل اللاتي أحتضنّ القبر، كأنهم حرس أو حجّاب، بل خدم وعبيد طوع الأرباب.

ومن ورائهم «السريّ الأبسل» عظيم الملائكة، حاسر الرأس، مشقوق الجيب، يزفر زفيراً تخال أن ضلوعه تنقصف منه، يقوم ويقعد، تائهاً في أودية الحزن، آخذاً في شعاب الهموم، فلا يعود إلّا باللطم والبكاء، وما تيسّر له من مظاهر الجزع ووسعه وأمكنه منها...

مسّ الألم الفضاء، فقتم وضرب بالكدر والسواد، وطبعته الكآبة... وصارت حتىٰ «أجواء» هـٰذا المنظر تتأوّه وتتقطّع حسرات، وكأن قيامة الأحزان قامت هنا، وما زالت...

وليس في الأُفق ما ينبي أنها إلىٰ زوال أو انقضاء!

خلّفتني تلك اللمحة الخاطفة في حيرة ودهشة لا توصفان، وتركتني في بهت وكرب وذهول...

فما مضيت عنها إلّا وطارق يعتصر قلبي ويمضّ فؤادي، وما خرجت ولا عدت إلّا بوديعة من لوعة، وتحفة من غصّة وحسرة، دهمتني لتسكن قلبي وتستوطنه أبداً، فما أن يُذكر بعدها المصاب حتىٰ أستعبر وأبكي، وما فرحة تلقيتها إلّا شيبت بكَدَر وكَمَد.

لقد كنت في حالة يرثىٰ لها، كنت متضعضعاً، بل منهاراً، ولا سيّما أني لم أجد من «فطرس» هـٰذه المرّة، وفي هـٰذا الموقف العصيب ما يسعفني بعزاء أو مواساة وتسرية، ولا بتهوين خطب وتسكين خاطر، إذ كان في شغل عنّي... بل رأيت أن صاحبي هو الذي تعوزه السلوة، ويحتاج إلىٰ من يعزيه ويربط علىٰ قلبه!

زهق وسُكّرَ بصره، فلم يعد يرتدّ طرفه، أطرق طويلاً وراح في نوبة عميقة من الهم والغمّ والترَح... وبقي علىٰ هـٰذا ساعات متواصلة واستغرق أمداً، حتىٰ خلته هلك، ورأيته يشرف علىٰ التلف. فصرت أُحدّثه وأُخاطبه وأتعمّد قطع الصّمت الذي لفّنا، وأُجاذبه الحديث ليجذب طرفاً، فيخرج مما انتابه شيئاً فشيئاً.

مضىٰ يجرّ أقداماً مثقلة، أو قل يصفق ويدفّ بأجنحة كسرها الكمد وأضناها... حتىٰ قال:

نَفَس المهموم لرُزئهم عبادة...

عظّم الله أجورنا وأجوركم بالمصاب، الحمد لله على عظيم رزيّتي، اللهم ارزقني شفاعته يوم الورود.

ها قد رأيت «المذبح»...

وكنت قد نظرت «القاتل»...

فهلم إلى «القربان»!

* * *

بدأت أساريره تنفرج، وكأنه تنفّس الصعداء، حين عزم على ذكر قصته مع «القربان»، وأخذ يستذكر مشاهد ويستحضر حوادث مرّ بها، يمهّد لنقلها وحكايتها... فقال:

كنت من الحمَلَة دهراً، لا الثمانية الكبار، ولا من «الكروبيين»، بل من طبقة دون تلك، ولكنها ذات فضل وحظوة، وفي علوّ ومنعة.

وفي واحدة من هفوات الأكياس وزلاّت الحصفاء وأخطاء الأذكياء، وهي من أخطر الخطوب إن وقعت، إذ هي بألفِ مما يكون من غيْرهم، عثَرْتُ بها وسقطت حين دخلني سؤال وأنتابني خاطر، لا أدري أمن حسد كان أم غبطة، أم جهلاً وغباءً؟

فقد رحت أتساءل عن سرّ الأجتباء وعلّة الأصطفاء؟

لِمَ كان الأعظم «جبريل»؟ ولِمَ أوكل «رضوان» بالجنان؟ وجُعل «مالك» خازن النيران؟ لِمَ كانت النفخة لـ «إسرافيل»؟ وقبض الأرواح لـ «عزرائيل»؟ لِمَ هؤلاء دون غيْرهم ممن أراه لا يقل عنهم فضلاً وأهلية؟

وكأن تساؤلي لم يكن أستفهاماً حقيقياً مجرّداً، يتحرّىٰ المعلومة التي أجهل ويستجلي المبهم والغامض من الأمر... فقد شابَهُ شيءٌ من أستنكار وخالطه ضغث من أعتراض.

لم يدم الأمر أكثر من هنيئة...

حتىٰ صدر الحكم، وأبرم القضاء عليّ بالحبس!

علاجاً، بل عقوبة زاجرة لهٰذا الخاطر، وجزاءً وفاقاً لهٰذا النمط المريض من التفكير... فليس لمن شهد الملكوت، وعاش هٰذي الرحاب من القدس والقرب، أن يتلوّث ذهنه، وينحطّ فكره بمثل هٰذه العوارض، ولا أن ينال من تسليمه المطلق شيء.

غارت أجنحتي، وتساقط ريشي (فقدت قدرتي علىٰ التنقّل)، ونفيت إلىٰ موضع ناء معزول من السماء الدنيا... والنفي في عالمنا ليس إلىٰ مكان وموضع، فالأمكنة عندنا متداخلة، حتىٰ تخالها مكاناً واحداً، كالأزمنة، فهي منطوية في بعضها، تحسبها زمناً واحداً.

إنما تعيشون «الوجود» في عالمكم بصورته الهابطة وشكله الأدنى، حيث تتراخى الحركة وتتوالد الموجودات، وتنشأ الأجسام الكثيفة والتحيّزات، وتتكوّن الحيثيات الظرفية، فيُشهد التتابع، وتظهر الأشياء والأحداث وكأنها تتوالى وتتقادم.

وهكذا أذهانكم، تخضع لتلك النشأة وتجاري مقتضياتها، فلا تعلم شيئاً حتى تحسّ به وتتصوّره، وتعلل وتجرّب وتبرهن، فتصدّق وتذعن أو تكذّب فتنفي... والحال أن «الأشياء» نشأت (في صورتها العلمية) في عرض وآن واحد، وعن أمر ومن علّة واحدة... تندك توالداتها وتبعاتها، وتتقارب حلقات سلسلتها، حتى كأنها تضمحل وتتلاشى، فتصبح حلقة واحدة، لا سلسلة، وتغدو كالعدم.

ثم تمهّل قليلاً، كأنه يستدرك:

ولا يعني هذا حذف أو إلغاء «شيء» من منظومة الخلق والوجود، بل العملية اختزال يضع الأشياء في موضعها من حيث المكانة والمنزلة... إذ لا ينبغي الإسهاب والتفصيل، ولا حتى التوقف عند علل تافهة وأحداث حقيرة، لا قدْر لها أمام الأصل الذي تنتهي إليه علّة العلل.

المنفى عندنا، «حالة» جديدة تعرض للكيف الذي نعيش، وتنال من الوضع الذي يكون أحدنا عليه...

نفيت، فعزلت، فصرت محاطاً بي، لا يدنو مني دان، اللهم إلّا مَن قصدني، ولا يقصدني أحد!

ولا أرى إلّا مَن كان في طريقه للخروج من السماء إلى الأرض. كالجزر النائية عندكم في الدنيا، وما يحيط بها من مياه وأمواج... تلك المترامية في أطراف البحار، القاصية في أواخرها، لا يمرّ بها إلّا من عزم السفر والرحيل عن الوطن وسواحله، ولا يبلغها إلّا من قصدها لأمر.

كنت أقضي دهري في البكاء، ولست أدري... علامَ كنت أبكي: على سوء فعلي وإساءتي، وقبح ذنبي وجريرتي؟ أم على غضب ربي عليّ وسخطه؟ أم على ما نالني وصرت فيه من الضيق والبلوى؟!

وفي الحبس كان معي «صلصائيل»، شاخصاً جامداً لا يتحرك ولا ينطق!
وكان قد سأل نفسه يوماً: "أيعلم الله ما في قرار البحار، وما يسير في ظلمة الليل وضوء النهار"؟ فأوحى سبحانه إليه: "أن أقم مكانك، لا تركع ولا تسجد، عقوبة لما دهاك".

ومعه «دردائيل»... وكان قد صدر إليه الأمر في بعث فأبطأ، أو أنه تساءل ـ هو الآخر ـ: "أفوق ربّنا جلّ وعلا شيء"؟!

وبقيت على حالتي هذه ما شاء ربي...

حتى جدّ ـ فجأة ـ أمر أنقلبت له أحوال السماوات، وتغيّرت الأجواء في الملكوت من أعلاه إلى أدناه...؟!

كانت عشية خميس مبارك، وليلة جمعة ميمونة.

أنخمدت نيران جهنم ثم أُطفئت تماماً، وزخرفت الجنان وطُيّبت، وٱزّيّنت الحور وتزاورت...

وقامت الملائكة وأنتظمت في صفوف متقابلة، وحلقات عظيمة، تصدح بالتهليل والتكبير والتحميد، وهو طقس أحتفالي خاص له دلالاته عندنا معشر الملائكة، إذ لا يكون إلّا في أخطر أحداث السعد وأعظم مناسبات البهجة والسرور...

وهذه الحالة إن وقعت، وقلّما كان ذلك، تمتلئ بها السماء وتُطبق، فلا تبقى فرجة ولا يبقى موطئ قدم إلّا وعمّه هذا الحدث بحضوره، وأطلّ عليه بوجوده...

لذا لم يكن منفاي في منأى.

وهذا الأمين «جبريل» العظيم في أزهى حلله وأكمل زينته، وقد وضع تاج الكرامة على رأسه، ولهذا الفعل دلالاته الخاصة أيضاً... يتقدّم في ألف قبيل من الملائكة، والقبيل ألف ألف، يقفون على حدود السماء الدنيا، وقد أخذوا في «التمثّل» وأنشغلوا في أرتداء حلّة الأرض وعالم الدنيا، أستعداداً للهبوط والشهود والظهور...

وقد شاءت الأقدار أن يكون طريق بعضهم على سجني...

وفي الوفد الملائكي «الملَكي»، أقران لي وأصحاب ورفاق وأحباب، زادت لهفتي إليهم، وطال آشتياقهم إليّ وآشتدت حسرتهم على فراقي وآنقطاعي... فدَنوا يزورون ويتفقّدون أو يستطلعون.

فسألت عن الخبر، وما يشغل السماوات؟

فأجابوني مخبرين أن سبط «حبيب الله»... قد وُلِد.

وهٰذا «جبريل» يهبط لينقل آسم المولود الميمون من عالم أمر الله، ويحمله إلى الأرض، تحفة من الجليل لجده «الحبيب»...

وهٰذه وفود السماء تهبط عليه مهنئة مباركة.

أدركْت من فوري، بمَلَكة سأبقى مَديناً لها مدى عمري، أنها الفرصة الموعودة، وأن عليّ آقتناصها، وآلتماس الشفاعة منها لخلاصي من حبسي، وإلا بقيت ما بقي الدهر، لا يسأل عني ولا يعبأ بي أحد.

نهضتُ عازماً التسلّل والخروج، فأوصل نفسي لـ «جبريل» وأُقدّم بين يديه عريضتي وشكايتي... لٰكنه الحبس، فكيف السبيل؟

عندها عدت منكفئاً كسيراً، تتناهبني الأحزان وتقطّعني الحسرات...

وفجأة.. آهتز الحبس من حولي، وكأن لا شيء في الوجود يحتمل الهمّ والحزن في هٰذا اليوم!

ثم تبع ذلك هاتف جاءني من بطنان «العرش»:

هوّن عليك يا «فطرس» وتوسّل بسيّدك!

لم أفهم المراد، ولم آهتد إليه، لكنني شعرت عندها أن حبّ هٰذا الوليد المُحتفى به، قد ملَك قلبي، وأنه هو «سيدي»... فآنفكّت ـ على الفور ـ وسقَطَت من هٰذا الشعور والخاطر أقفال الحبس، وفُتحت أبوابه، بل تهاوت جدارنه من حولي وآنهارت!

لعمري... لقد بان لي وآنكشف أن حبّ هٰذا الوليد الميمون لا يجتمع مع سخَط الله وغضبه، فإذا دخل ذاك وحلّ، خرج هٰذا أو آنماث وزال! كما لم يطق سعد الوجود المطبق، أن يُخرم بأية ثغرة حزن، ولو كانت مستترة في حنايا قلبي الجريح، فآنغمَر حتى عمّه السرور!

فخرجت وصاحباي، ومضينا حتى أوصَلْنا أنفسنا إلى «جبريل» عليه السلام، ومثُلْنا بين يديه، نظهر الندامة ونطلب الصفح، وقد أنتدباني لأمثلهما ووكلاني بالحديث عنهما، فقلت مرتجلاً:

سيدي أيها الأعظم،،،

إنك لمطبوع على الإحسان، ولو تكلّفت غيْر الجميل ما أستطعته.

سيدي، بئس ما أجترحت أيدينا الآثمة، ويا لسوء ما سوّلت أنفسنا المريضة الجريئة، ويا لقبح فعلتنا الشنعاء... إن كان الندم من الذنب توبة، فإنّا ـ وعزّة ربنا وعظمته ـ لمن النادمين، وإن كان الأستغفار من الخطيئة حطّة، فنحن ـ ومجد الله وجلاله ـ لمن المستغفرين.

سيدي، لو رفعت أمرنا إلى الباري جلّ جلاله وتباركت آلاؤه، لما ردّ شفاعتك... فهلّا جُدْتَ وتحننت وأنلت وتفضّلت؟ سيدي، هلاّ عركْتَ إساءتنا بجنبك، وجعلت ذنبنا تحت قدميك؟ مولانا أيها الأعظم: هلّا مننت وأقلت وعفَوت؟

وكان «جبريل» في بشاشة ودماثة، وبسط وإيناس ولين جانب، وقد دخلته من النشوة والبهجة، ما لا يسمح له برد طلب، ولا رفض رجاء...

أطرق للحظات، بدا لي أنه يكتم فيها أبتسامة، ويبالغ في إخفائها... ثم أشار إلينا أن نلحق بالوفد، ونهبط معه إلى دار الدنيا، فإن الشفاعة لأهل السماء أصبحت تطلب في الأرض!

ثم قال: هذا سيد الشفعاء يخفق فؤاده غبطة ويلَجاً، وهو في جذل وحبور ما رُئي فيه قبل اليوم، وقد أعتق الساعة من النار ما لا يعلم تعداده إلّا الله عزّ وجلّ... فأغتنموا الفرصة وأنتهزوها.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني: في الانتظار

كـيفَ الــوصــولُ إلى ذاكَ الجمالِ وقَــد
أضْحَى الرقيبُ يُطِيلُ البَحْثَ والنَّظَرا

: أين «الشِّبَر» الذي وعدتنا يا «بهروز»؟

ولم يكن في أسم المخاطب «روزبه» عار ولا مطعَن، ولا في تأخير مقدّمه فـوق، يبعث على التنابز والتهكّم، فللأسمين معنىً واحد هو «سعيد»، ولكنها إشارة تعريض بها دأب «روزبه» يكرّره على رفاقه في الدير، عن الهاتف الذي يأتيه عن يمينه تارة، ويخاطبه من أعماقه أخرى، أن والديه لم يحمّلاه أسمه الحقيقي، وأنه إن كان حقاً «سعيد»، فسيجد يوماً «أسمه» الذي قدّره الله له وكتبه عليه!

: أما كان ذلك وعداً منك وعهداً موثقاً؟ لا يمكنك أن تنكر ما خططته بيمينك... ألم تزعم أنك دوّنت ما وجدته في سِفْر آخر حواريي «عيسى أبن مريم» الذي أدركته؟

ها هو مكتوب بمدادك الخاص...

مدادٌ تقضي الأيام في تركيبه ومعالجته، تحضّره بأناة من قشور الرمان، وأصباغ تستخرجها من الأحجار... وتوظّف له علم الكيمياء.

لا أدري، لِم لا تستخرج لنا إكسيراً يعالج آلامنا؟!

وأخذ يضرب «اللفيفة» بقوّة وغضب، على منضدة أمامه، عدّة مرات، ثم قذف بها، فلطمت صدر «كيومرث»، ووقعت على الأرض...

بادر ـ بخفّة ـ فالتقطها ومسح الغبار عنها، وقبّلها ورفعها إلى جبهته مرات متعددة، وهو يتمتم بالتعوّذ والاستغفار، لا يداري تلفّتات ونظرات سريعة بدَرت منه، رمَق بها الحضور، يستدعيهم ـ على عجل ـ لموقف شديد من هذه الجرأة والوقاحة، بل الهرطقة والتجديف.

لفّ الدار صمت عميق، وأطرق الجميع وسكتوا، سكوت انزعاج وأذىً من سلوك «سهرك»، من جرأته ووقاحته...

ولكن لوحظ أن السخط لم يبلغ حدّ اتخاذ موقف أو إظهار ردّة فعل ما، إذ كان الصمت يحمل وجهاً آخر يتطلّع إلى «سهرك» ويستبطن مؤازرة خفية له، عسى أن يحقق ما يعمّ نفعه! فينطق «روزبه» بما يوضح الصورة ويستجلي العماية عن الجميع.

"لِمَ نتّخذ موقفاً من قضية قد تعود علينا بالرّبح دون أن تكلّفنا شيئاً" !؟

إنه أداء فارسي أصيل معتّق، سلوكٌ متجذّر يحاكي النَّفَس الطويل الذي يقضي سنين متمادية مع بساط أو سجادة، تحاك خيوطها، غرزة بغرزة وعقدة بعقدة، لتبلغ الآلاف في مساحة لا تتجاوز الذراع، بهدوء لا يكدره طارق، وأناة لا يعجلها حادث! قلّ أن تقف لأحدهم على موقف حاسم، أو تبلغ معه إلى نقطة اللاعودة، ولن يتموضع في جبهة (دون أخرى)، حتى يستوفي كل مصالحه منها، ويقطع بِرُجحَان خطوته بما لا شك فيه ولا احتمال!

من هنا أبقى الحضور على صمتهم، ولم يكن عليهم إلّا الترقّب والانتظار، وهي حرفة يجيدونها بامتياز...

عاد «سهرك» وقد انفثأ غضبه وقرّ هائجه، فثاب إليه حلمه ورجعت أناته، أو كأنه قرأ الامتعاض فقط، ولم ير في الوجوه خفي نصرة ومضمر موافقة، ناهيك بدعم وإسناد... فراح في لحن الرجاء والاسترضاء:

لماذا لا تتفهّم حالتنا يا «روزبه»؟

ألا ترى أن الأمر لم يعد يخصّك وحدك، ما دمت وعدتنا به!

أين هو موعودك هذا؟

ألم نصدّقك القول ونطاوعك في الأمر حين قلت إن «الأبستاق» الذي بين أيدينا منقوص مبتور محرّف، وإن «زرادشت» كان ضمّنه الأعم من ترنياته وال «يَشتا» وال «يَسنا» وال «وندايداد» والصلوات. وأن موابذة «الإخيينين» و«الساسانيين»، وهرابذة «الهند»، دسّوا فيه وحرّفوا؟

ألم نأتم بصلاتك، هذه الغريبة، التي تأخذنا كلّ يوم في وجه؟

لا قبلة لنا ولا منسك؟

ألِله في السماء، ولا ظلّ له في الأرض نراه؟

أين ظلّه، أو حجته ووليه، كما تصرّ أن تسميه؟

كيف لا يلطف ربك بنا، ويخرجنا من هذا التيه؟

أمن العدل أيها الشيخ، أن تقشع عنا ضباب اليأس، وتبلج في صدورنا صبح المنى، وتوسع في أنفسنا فسحة الأمل، وتبسط الرجاء، حتى كأن الأمر على حبل ذراعك ومرمى عصاك...

ثم تخذلنا وتعلن عزمك على الهجرة والرحيل؟!

ثم إن السخط والغضب عاود «سهرك»!... فعاد إلى لَحْنِه الأول، وانتفض منفكاً من عقاله، ورجع إلى لغة عصف الرياح وقصفها، يهدر كبعير حبس عن الضراب!:

أما آن لموعودك المنتظر أن يظهر؟ ولآخر الأمم أن تأتي، ولـ «النبي الخاتم» أن يُبعث؟ ولتلك الدماء الإلهية التي تجري في عروقه أن تهرق وتسيح، فيتحقق «القربان»؟

ألا تشعر بالبلاء كيف يطوقنا، والمحن والرزايا تطبق علينا؟

أتعلم أن أنباء دعوتك ظهرت وفشت وشاعت حتى بلغت «أصبهان» نفسها؟ لم يعد خبرك دفائن غيب وخبايا صدور يا «روزبه»، ما عادت الضمائر تطيق طيّه عن الألسن، ولا الألسن عن الأسماع.

ماذا لو بلغ الأمر كسرى «هرمز»، وأنت تعلم سطوته وبطشه، مذ مات أبوه الملك العادل «أنوشيروان»؟

ألا ترىٰ الضَياع الذي نعيش مذ جئتنا بـ «الرفض» وقلت " باطل ما أنتم فيه من تعظيم النار "، وأنزلت «أهريمن» عن الألوهية، وأنكرت «المانوية» وأزدريت «المزدكية»... كما سفّهت «مترا» من قبل. ليظهر إذاً هذا الـمُنجي المرتقب الذي تزعم، وليُهرَقْ هذا الـدم المخلّص، ولتقرّب هذه الأُضحية المنتظرة، وليقـدِّم هذا «الشّبَر»... عسىٰ أن ترضىٰ عنا الآلهة، أو الاله الواحد الأحد الذي جئت مبشراً به!

مضت نيف وأربعون عاماً علىٰ أرتجاج «إيوان كسرىٰ» وتصدّعه، وسقوط شرفاته الأربعة عشرة... هوَت، فقلت إن ذلك لسرّ وإشارة في عددها، وتداعي القصر، حين خمدت نار «فارس»، وغاضت بحيرة «ساوة». أتذكر يا «روزبه» كم أنتشيت وطرت فرحاً، وأخذت تميد جذلاً وطرباً، حتىٰ أوْلمت للدير والقرية بأسرها. ثم أسرجت للقوافل أربعين ليلة، حتىٰ أتيت علىٰ مؤنة عامنا كلّه؟! ورحت تذبح لأضيافك وتنحر، وتهشم لهم وتثرد... كأنك من «هاشم» العرب؟!

ونحن نطاوعك في أستضافتهم ونقوم علىٰ خدمتهم، إذ قلت إنها علامة ظهور النبوّة الخاتمة، أو أنبعاث سيد الأنبياء وآخرهم، وإنه الذي سيقدم «القربان»... فتقوم القيامة؟

تدخّل «بهرام» قائلاً:

مهلاً يا «سهرك»، هوّن عليك... لم يزعم «روزبه» ولم يدّع.

لقد حدثنا عن «العيسوي»، وجاء بالبينة فصدقناه. لم يعاهدنا علىٰ أمر، ولم يلتزم بشيء... إنه حرٌّ في ما يفعل، ونحن أحرار في ما نتبع من تعاليمه أو لا نفعل. حتىٰ إننا ما زلنا نعقد «الكوشتا»...

وأخرج من جيبه الأثنين وسبعين خيطاً، التي تعقد وتربط مرات عديدة في اليوم، تعبيراً عن التصميم الديني والعزم الأخلاقي معاً...

ما زلنا نرتدي «السترة» البيضاء، ونعتمر «طاقية الرأس» ونحجب أفواهنا بنقاب إن دنونا من النار، فلا نلوثها بأنفاسنا... وكلّها خرافات وأباطيل في قاموس «روزبه» وكتابه... ونحن ماضون عليها!

لم يكن يغلظ في نهيه، ولا يتشدد...

وحتى النار التي أصرّ أن نطاوعه في إطفائها، وفاوَضْنا على ذلك وصالَحنا مقابل سكوته عن بقية طقوسنا، لم نمتثل له وأبقينا عليها، عسى أن نطعمها «القربان» يوماً، وحتى نُبقي لأنفسنا على طريق عودة، فنؤوب إن صفرت أكفّنا مما يبشّر به «روزبه»... في حين كنت أنت يا «سهرك» - دون سواك - الأكثر إصراراً على إطفائها والاندفاع وراء «روزبه»!

لم يجبرنا الرجل على شيء، لم يفرض علينا ولا أكرَهَنا...

حتى كنت تنعته - ساخراً - بـ «الثائر الساكن»! والفوضوي الذي يريد أن يقلب الدنيا، وهو في غاية النظم والترتيب، والدماثة والورع... وكنت تراه يهدف غاية لا يسلك لها دربها، وأن ما يريده يتطلّب غيْر ما يفعل، وتقول إنه يقف تحت وابل المطر، ويريد أن يخوض النهر ويسبح في البحر، دون أن تبتلّ ثيابه ولا أن يرطب جسمه!

فلِمَ تلومه الآن، وعلامَ تعترض؟

: ولكنه اليوم ليس رجل الأمس، لم يعد كسابق عهده، إنه لا يكاد يتحدّث إلينا، لم يعد يواصلنا... هل بَكُم وخَرُس؟ إنه يخفي عنّا ويداري أمراً، إنه يضمر ويتستّر، إنه يتكتّم، أين صراحته وشفافيته؟ أين انطلاقه ووضوحه المعهود؟

دع عنك أسلوبك القاتل هذا يا «بهرام»...

لا أرغب في مناقشتك، ولا أريد محاورتك، فأنت تربط لساني دون أن تفتح قلبي. إنك لحاضر الدليل، تجادل بألزم الحجج، وتنضح عن نفسك، فلا تنثني حتى تقرع خصمك، وترميه بسكاته، وتهوي على أحقاف رأسه... لا تحدّثني في هذا الأمر، فأنا أعيشه بكل جوارحي، وأنفعل به وأتفاعل معه، وأنت تتّخذه ميداناً لاستعراض قدراتك الكلامية والخطابية، وسلعة للمغالطة والمهاراة... قد تُفحمني، ولكنك لن تُقنعني، بل إن دفاعك عن «روزبه» يورثني المزيد من الشك فيه! هاك أنظر إليه... لا يعبأ بأحد، ولا يكترث ولا يأبه، كأننا كلاب تنبح، وهو في قافلة تسير!

وبينما كانت الأنظار تتوجّه صوب المخاطب والمعني من كلّ هذا...

كان «روزبه» يلقم المدفأة جذلاً من دلبة هرمت، نخرها الدود وتساقط ورقها، فأتى عليها بفأسه... وراح يقول، كمَن يحدّث نفسه، ودون أن يلتفت للجلبة أو يعرِ «الثورة» أنتباهاً، ساخراً ومعرّضاً:

أليسوا يقدّمون في كلّ ساعة قرباناً؟

ها هو... ودفع الجذل... نقدمه «شَبَراً» لمذبح «الرب» وشعلته الخالدة... فلا قيامة قامت، ولا خلاص عمّ البشر؟!

* * *

كان «الرق» أو «اللفيفة» التي لوّح بها «سهرك» وأومأ، ثم قذفها لتسقط على الأرض، مدوّنَة حسم بها «روزبه» جدالاً طويلاً خاضه مع رفاقه في الدير... دار حول مقولات خصّه بها حواريّ لـ «عيسى بن مريم» أدركه، وأنه صدّق قوله وأنشرح له صدراً.

وكان أول ما نادى به «الكتاب» أن لا يُسجَد لشمس ولا نجم، ولا تعظّم شعلة ولا نار... وذكر أنه أستنسخ شطراً في رقعته المطوّلة من «إنجيل»، دوّن تعاليم «المسيح» ونبوءاته وسيرته، وفيه أن الله أحدٌ ليس له وَلَد، وأن «المسيح» نبي مرسل...

والبشارة عن نبي يأتي من بعده أسمه «أحمد».

وقد جمع إليه ما أستقاه من قراطيس وزبر، وجدَها في أيدي كهنة وقساوسة، خطّها أحبار ورهبان، لازمهم دهراً وصاحبهم طويلاً... فقرأ عن إرهاصات تقع قبل ظهور هذا النبي المرسل، وعن أوصافه وعلاماته، وعن أشياء أخرى، ونبوءات تحقّق بعضها.

ها هم رفاق الدير الذين ألتقوا على تعاليم وأفكار، ثم على منهج ومسلك في العيش والحياة... ها هم يختلفون، وتدبّ بينهم بوادر النزاع والشقاق، بعد عهد ممتد من الوئام والوفاق... ذلك أن شيخهم الكبير، ومعلمهم المتواضع «روزبه»، عزم على الهجرة والرحيل، والأفتراق عنهم بعد أجتماع طويل.

وقف المعلّم في الصباح التالي أمام تلامذته وصحبه، مُسنداً ظهره إلى صخرة «الدير» الكبيرة، التي يقال إن سيلاً عارماً جرفها من سفوح «زاكروس» العصيّة قبل مئتَي عام، فدمّرت ما أتت عليه في طريقها، لتستقر على ربوة «جَيْ».

وإن الدير الذي أُقيم عندها، كان بمنزلة شكر للربّ على توقُّفها عن الأندحار أو الأنحدار، ثم سعياً لإسكان غضبه وإطفاء نائرته.

وقف وقد طبعت السنون بخبرتها الواسعة المتشعّبة على محيّاه طابع الوقار، بمسحة واضحة لا تكلّف فيها، ورسَمَتْ حكمة جلّلته بالهيبة. وآختطّ العلم، الذي طوى في سبيله الفيافي وقطع القفار، وأرمد عينيه من سهر ونظر، وطفق في هجرة دائمة وبحث لا ينقطع... آختطّ شآبيب حُسْنٍ آسر، قلّما تجده في شيخ بلغ من الكِبَرِ عتياً.

وفوق هذا وذاك... نور ينبعث من ثنايا تجاعيده وتقاطيعه، وضياء يشع من ترهّلات جلده وجفاف بشرته، حتى لفع وجهه وصبغه، وآرتفع ليعلو رأسه كهالة نورية وطوق مضيء، يكلّله أينما توجّه.

خيّم السكوت على المشهد، وكأن زهد هذا الرجل وتقواه، ورياضاته المضنية، فعلت فعل السحر، وجعلته مهيمناً على الأشياء، وأورثته شأناً وشيئاً من «الولاية»... عقدت ألسن الأصحاب ـ التلاميذ، فوقفوا بين يديه دون حراك، كالأسرى، وفيهم المشاكس «سهرك»!

حتى أطبق الصمت...

إلّا هفيف ريح، وصفق أثواب غُسلت فنُشرت لتضربها الشمس، وقيق دجاج يلتقط الحب تحت كرمة بحذاء الساقية البعيدة.

وقف «روزبه» يستجمع بعض ما يملك، لـ «يلقي عصاه»، ويصدع ببرهانه، في أناة ورويّة تمكنه من آنتقاء كلماته، وآختيار ألفاظ بيانه الأخير الذي طال آنتظاره وترقّبه. حتى أومأ بيده وأشار، وقد أفرد ـ كعادته ـ سبابته ووسطاه، دون الخنصر والبنصر من قبضته التي جمعها، كمَن يشير إلى السماء بهما... وقال:

طوبى لكم يا رفاق...

طوبى لمن عفّت نفسه وترفّعت عن حطام الدنيا ونجت من إغراءاتها، ولم تركن إلى هذه الدار الفانية، ورضيت باليسير، وقنعت بما تيقّنت حلّه من سفيف يديها.

ما فارقت أكفّكُم فأسٌ تجمعون بها الحطب لشتائكم، ومحراثٌ يشقُّ الأرض ويقلّبها لزرعكم، وضرع معزاة تحلبونها، ورشاء دلو تعبّون بها ما يسدّ رمَقكم. فإذا فرغتم... مددتموها للعلي الأعلى شاكرين داعين.

أي إخوتي الكرام...

إن كان لي بعض الحق عليكم، فأنا أُريد الساعة أجري!

فوجئوا، وصاروا يتلفتون، حتى تمّم الحكيم كلامه وقال:

أُريد جزائي قبلةً أطبعها على هذه الأكف الطاهرة!

ثم تقدّم تجاههم وهو يقول:

أقسمت بحقّي عليكم، إلّا ما مددتم أيديكم...

وراح يقبّل أكفّ أصحابه، ظاهرها وباطنها، واحداً واحداً! حتى فرغ من آخرهم، فعاد إلى موضعه ليكمل حديثه:

طوبى لمن جعل النسك طريقه، وتطوّع في العبادة رغبة في الدار الآخرة... ستنطق وستشهد أحجار هذه الصومعة ولَبِناتها، بما عمرتموها في أيام الاعتكاف ولياليه.

هجرتم النعيم وألفتم الشظف...

هنيئاً إذ لم تبنوا بيوتكم على القناطر والمعابر والجسور، وأرسلتم متاعكم إلى حيث ينبغي، فقادتكم طوالعكم السعيدة وانتهت بكم إلى هذا الدير المبارك الذي سعد بكم وتشرّف، كما سعدتم به وتشرّفتم.

فحق - يا رفاقي - أن تشكروا الله سبحانه، الذي بصّركم ببعض أنواره، فلم تقيموا على السجود لصنم ولا ملك، ولا عبادة وثن ولا شجر، ولا قدّستم ناراً ولا حطباً، ولم تجعلوا ربكم ظلمة ونوراً... فكان عملكم مقبولاً، وسعيكم مشكوراً، ولم يجعله هباءً منثوراً.

مرحى لـ «سهرك» الذي أثارته المعاناة وأضنته... فخلّصته من رتابة العيش، ومن جمود الفكر، وتحجّر الأحاسيس.

ولا غضاضة إن أخرَجَته عن بعض الأدب واللباقة!

عَلَت همّته وتألقت روحه، فلم تغافله الأيام بنسقها وجرْسها المخدّر، ولم يسمح لها أن تطبع قلبه بِرَيْنِها الخفي، غيْرِ المرئي، الذي قلّما يلتفت إليه ويلاحظه أحد! فيقع أغلب الناس في أسر تتابعها دون أن يشعروا...

يمشي الغافل في ركاب الأيام ويسايرها على وتيرتها التي تورث الصمم والبكم والعمى... حتى يألفها، كما يألف ظهور الشمس وغيابها، وتعاقب الليل والنهار، وتناول الطعام وإخراجه، ولبس الثياب وإبلاءها... وهي تستدرجه وتملي له، لتنال من أنفس ما يحمل، وتسلبه أعز ما يملك:

تُجَمّدُ عقلَه وتضرب على ذهنه، فلا يفكر ليكتشف ما وراء الظاهر والسطح من عمق وباطن، ولا يتأمّل ليبدع ويبتكر. وتُسقِطُ همّتَه وتقتل الشوق واللهفة فيه، فلا يطمح لتغيير ولا يتطلّع لتطوير. وتكبلُه بـ «الواقع» وأغلاله الثقيلة، حتى تقيّده بما وجد عليه آباءه وترتهنه بسيرة أسلافه.

والنتيجة هي الإبقاء عليه حيث هو.

فتراه واقفاً كسائبة وسط مجرىً عريض، لا يشعر بحركة عظيمة عن يمينه وشماله ومن فوقه ومن تحته، وسير حثيث يتقادم صوب الهدف النهائي من الخلقة والإيجاد... بينا هو فرح أن لم يفقد مكانه!

إن «سهرك» أبى أن يرضى ـ في طريق الحق ـ ويقنع بالقليل، ولا بأنصاف الحلول، ورفض أن يقف، وهو يرى السنين تسير به وتجدّ... فكان غضبه لما حق أن يكون له الغضب. ولا أظنه أعترض ـ حقيقة ـ على القِرى الذي أستقبلنا به ضيوفنا، ولا ندم على صلاة، ولا يئس من أنتظار... ولا يؤاخذ مثلُه على زلل عثر به لسانه، ولَمَم أخرجه إليه غضبه.

ومرحى لـ «بهرام»... فمسيرة الحق تفتقر ـ دوماً ـ لمن ينهض بأحتجاجها، ويقارع أرباب الباطل وأئمّة الضلال، ويفحمهم ويلقمهم حجراً، ويحول بينهم وبين أستغفال العامة وأستغلال المستضعفين...

والتحية لكم جميعاً أيها الصحب الكريم... ووداعاً!

لعليّ أخطأت في قراءة بعض النصوص أو فَهْمِهَا، أو لم يحالفني الحظّ في إصابة تفسيرها وإدراك تأويلها وفك رموزها... فظننت الميلاد مبعثاً أو نبوّة، وقرأت علامات ذاك في إرهاصات هذا. ولعلّ الصوَر التفصيلية لبعض المعالم لم تكتمل عندي، أو أنها اختلطت عليّ بعض الشيء، لا أُنكر ذلك ولا أكابر...

لكنني لم أكَذِبْكُم ولم أخُنْكُم.

لقد استطعتَ أن أُحدِّد الحدث الأخطر، ووفِّقتُ لمعرفة كثير من خواصّه وأبعاده، الزمانية والمكانية، بل قربت في تشخيصه من الحقيقة الكاملة، وتمكّنت منه. لذا فأنا لستُ في شك مما أنتظِر وأرتقب، ولست في ريب مما أسعى وأبحث.

إنني أعرف «القاتل» و«المذبح»... وأعرف «الفداء».

أعرفه باسمه الشريف الذي وجدته مكتوباً في جميع الكتب السماوية التي قرأت والأخبار التي استقصيت... إنه «شبير» يا «سهرك»، وإن سمعته مني «الشَّبَر»، فقد قصدت العطاء والفداء، وهو ما يطلقه «النصارى» على طقوس المناولة ورموز القربان عندهم.

وقد درج المؤمنون، وجملة ممن التقيت من أحبار ورهبان، على الإشارة إليه بهذا العنوان... لا أدري، لعلّهم يخافون عليه «اليهود»، أو يحذرون أرباب المصالح من كبارهم المتنفّذين، فموّهوا وواروا، وما كذبوا.

لقد أردت المهمّة والعنوان، لا الاسم واللفظ، فتوهمتم وشطحتم بأفكاركم، وأخطأتم فهمي... فماذا أفعل؟

ماذا أفعل وأنا لا أرى في درجتكم ما يسمح لي بتقويم، ويحدوني لتصحيح؟ ولا لمست في مرتبتكم ما يبعثني على المزيد؟ إن هذا الأمر لصعب مستصعب، يحتاج إلى كثير صبر وعظيم تحمّل وكتمان، لا بد من وعاء عميق وصدر رحب وسيع، ولا بد من سعي جاد حثيث، ثم لا بد من بصيرة ونور، وهذا لا يصاب ولا يحصل بمجرد السعي وبذل الجهد...

وإن أردتم الآن أن أزيدكم وأتحفكم، وأجعله مسك الختام من صحبتنا، فإليكموها أيها الرفاق الأحرار، وأعلموا أن هذا أقصى ما يمكنني معكم وآخر ما في جعبتي إليكم:

إنه من ولد «إبراهيم الخليل»، ولكنه من «العرب»، من «إسماعيل» «هاجر»، وليس «إسحاق» «سارة»، من سدَنة «البيت العتيق» ورعاته وخدمه، «البيت» الذي أقامه «إبراهيم» عليه السلام على ربوة، هي البقية من آثار الطوفان الأول الذي وقع في زمن «نوح»...

من قوم ألتزموا عمارة «البيت» وسقاء حجاجه وضيافتهم، وأبقوا على عبادة ربه الحق، في توحيد وحنيفية... عسى أن تخفف من وقع الأوثان ورزء الأصنام على تلك البقعة العرشية المضطهدة المظلومة. إنني أعرفه وأعرف آباءه وأجداده، وأعرف قومه، والأثني عشر النقباء من أهله وبنيه، وأعرف «التاسع» الذي سيرث الأرض ومَن عليها، وسيناول «إسرافيل» «الصور»، لينفخ في القرن، وتقوم القيامة على يديه.

كل ما هناك... كل ما علينا، هو أن نجول ونبحث حتى نلتقيه، ونوافيه حيث هو. فالكنوز لا تأتيكم أيها الكرام ولن تقصدكم، بل عليكم أن تنقّبوا عنها وتعثروا عليها... عليكم أن تجاهدوا وتهاجروا وتشدّوا الرحال، حتى تلتقوا الموعود وتتّصلوا به.

إنني أعاني أيها الأحبة كما تعانون...

وإن كنتم تحسبون السنين وترقبون الأشهر، فأنا أعُدُّ الأيام والساعات والدقائق! وإن آلمكم طول الغيبة وتكالب الزمن، فأنا ـ والله ـ مثخن بالجراح، مثقل بالكلوم، واهن بالقروح، وهذه رضوض شرق بها الدم وأمتلأ، وأخرى نغرت وأنبجست... ولا طبيب يسبر غور الداء، ولا مبضع يستخرج ما تشظى في أحشائي من سهام الدهر ونوائبه.

وبعد... فإن لي قدَراً أنا لاقيه، وإن أبطأ عنّي، فإني راحل إليه، ومهاجر وسائح، أطرق باباً، وألحق قافلة، وأحلّ في بلد... حتى أعثر على ضالّتي وأدرك منيتي وأوافي غايتي.

المعذرة أيها الرفاق الأحبة...

فأنا لم أزهد في صحبتكم، ولا مللت جواركم، ولا سئمت تعليمكم وتربيتكم... ولكنني مأمور!

إن لي ملَكاً يُحدّثني، وينقر في أذني!

وقد وجّهني تلقاء «تهامة» و«الحجاز» منذ أيام خلت، حين أخبرتكم عن عزمي الرحيل... لم أبيّت هذا الأمر ولم أُخطط له من ورائكم، ولم أرغب في لوعتكم ووحدتكم، ولم أرِد وحشتكم التي تشكون من رحيلي. ثم إنني شيخ طاعن أخذ الشيب بناصيته، فلم يبق من عمره نصف ما مضى، وأنا عاشق براه الشوق، ودنف أتلفه الجوى، ومتيّم سيذهب - لا محالة - حرَضاً أو يكون من الهالكين، إن لم يتّصل يومه بغد ينظر حبيبه ويلقاه ويبلغ غايته ومناه، فيسكن هذا الوجد الذي براه.

حمل «الحكيم» عصاة اتخذها من غصن شجرة توت، وقد عقد في طرفها وَفْضة فيها زاده، وعَيْبة فيها متاعه، وألقاها على عاتقه الأيسر. وكان قد حمّل دابّته كتبه وأسفاره، بعد أن أودعها قمطرة، لفّها بإهاب غزال، ثم أخذ عنان الدابة بيمينه ومضى...

عندها اهتزت صخرة الدير وكأن روحاً دبّت فيها، أو خرجت منها! فكأنها حنّت وأنّت، وما استقرت حتى فطَرَها صدَعٌ، بقي ما بقي الدير وكانت الصخرة!...

وراح «روزبه»، تشيّعه عبرات رفاق الدير، ونحيب أجهش فيه «سهرك» الحَرِك الجَلِد، كطفل أوتم على صغره؟!

وبينما كان الجميع في حيرة أشلّتهم، ودهشة منعتهم عن الحراك...

تقدم «سالار» ولحق بالمعلّم لخطوات، وسأله من قرب:

هل من عودة ولقاء أيها المعلّم العظيم؟

توقف الشيخ وهو على وجهته، دون أن يلتفت، ثم عاد لمسيره وهو يقول: سألتقي بعضكم في «قطسفون»، بعد سنين لن تطول!

هنا، لم يملك «سالار» إلّا أن يعدو خلفه حتى أدركه فحاذاه...

ولم تنقل الريح ما دار بينهما بعد ذلك، وأبى «سالار» أن يفصح عن الأسرار التي تلقاها، وطوى عليها أحناء صدره... ولكن ما شهده الجميع، هو التحول الخطير الذي أصاب «سالار» وسلوكه منذ تلك اللحظات، وفي إثر تلك «الخطوات».

تحولٌ ارتقى به وقلبه، رغم تميّزه السابق المشهود، إذ طالما كان بارزاً متفوّقاً، ولكنه أصبح بعد ذلك «الإسرار» شيئاً آخر، تصاغر أمامه وضعه السابق! دخل في صمت وانعزال، وفترات ممتدة من التفكّر والتدبّر والتأمل، ونوبات من غشية، وضربته صُفرة لا تراها إلا في وجه صَبٍّ مستهام، تفضحه بين الفينة والفينة دموع وتنمّ عنه عبرات، وبُنَيَّةٌ أنحلها سهد، وعظام براها شوق وكمد.

ونظرة كأنها تشفق على الصحب، إذ لم ينزل بهم هذا «الداء»، ولا اعترتهم هذه الأوجاع!

* * *

بسط «روزبه» أوراقه في أول وقفة آستراحة آبتعد فيها عن الدير، وفتح كتبه، وقلّبها بعناية شديدة، وراح في الحساب والتأويل، وتطبيق ما سمعه من هاتف الوحي، بالمدوّن في صحائفه...

فكانت المحطات المتبقية أمامه، ليطويها في مسيرته الطويلة، وفقاً لما آنتهت إليه محاسباته، وأفضت دراساته، ثلاثاً:

واحدة في «الموصل»، والأخرى في «نصيبين»، على جادة القوافل بينها وبين «الشام»، والثالثة في «عمورية» من أرض «الروم»، التي يقال إنها سمّيت بآسم «عمورية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح».

يليها، ما جاء بعنوان:

" منزلٌ يوسفيّ يطل على القبلة، ويتّصل بالغاية والمقصد " ... ما عرف له «روزبه» وجهاً مقنعاً ولا تأويلاً باتاً، ولكنه دار بين وزارة وإمرة تأتيه، وبين حبس أو تهمة تناله.

كانت الخطى تأخذه أخذاً، والسير يجدّ به ويهف، وكأن واعزاً خفياً يستحثه ويقوده...

وكان يتفاءل من هذا التتابع، ومن تلاحق الأمارات وتتالي الأحداث، ويستبشر من إيقاع أخذ يدنو شيئاً فشيئاً من العزف والإنشاد، ويبعث في النفس خفة وطرباً، وأملاً أن الأمر دنا والموعد أزف.

وفي «عمورية»، أدرك «روزبه» آخر من آلتقاهم من «المنتظِرين»، شيخ كبير وعابد زاهد في لباس «أسقف النصارى»، فلازمه طوراً وقضى في صحبته وطراً... حتى أسرّ إليه الأسقف يوماً، أنه لم يبق على أمر «الآنتظار» هذا أحد، وأنها خُلِيَتا! مما يأذن بخراب وهلاك قادم أشبه بالطوفان الأول! وصارحه بأنه لا يرى في ما عنده من علوم ومعارف، يفوق ما لدى «روزبه» نفسه، فلا معنى لصحبته وملازمته والأخذ عنه و«التلمّذ» عليه، فأنحله شياهاً وأبقاراً، وسأله أن يفترقا، فينقطع كل في صومعته وينشغل بنفسه ويذهب في سبيله... يسأل الله الفرج وتعجيل الظهور، فلا دَوْرَ لهما، ولا تكليف يتوجه إليهما غير هذا.

ومع أن هذا الدور و«التكليف»، لم يكن ليقنع مثل «روزبه»، ولا يشفي غليله، إلّا أنه أنصاع وأمتثل، رأفة بحال صاحبه، وما قدّره من حدوده ووُسْعِه وطاقته، سواء الروحية أو العلمية.

كان «روزبه» يقرأ في الأسفار والألواح والكتب والقصاصات التي يحملها، وينتقي منها ما يلحقه بدَرَجه ويدوّنه في رقعته ولفيفته، وكان يكابد ويجهد في ترجمة اللغات، وفك الطلاسم، وتحليل رموز الكلمات والعبارات، وكشف معانيها وأسرارها، وسبر أغوار مداليلها... ولم يكن ما يعانيه «روزبه» من مشقّة وعسر وتعقيد في البحث والتحقيق وفك الرموز، وليد مجرّد الأختلاف في اللغات والثقافات والحضارات وتفاوت الملل والنحل، بل كان لأسباب أخرىٰ...

إذ يبدو من بعض النصوص والإشارات أن هذا التّراث، بما يحمله من أسرار ونبوءات ومفاتيح للغيب ومعادلات جفرية وعلوم غريبة وأسباب خوارق العادات، قد كُتب بلغة تجعله حكراً على أهله وتحفظه من أستغلال المتطفّلين، وتمنعه أن يكون شرعة لكل وارد.

وبينا هو في بحثه وتحقيقه، إذ وقع علىٰ عبارة:

"يا حلال المشكلات أدركني"...

وجد أن الأنبياء والأولياء طالما كرّروها في المحن والشدائد التي تواجههم، وكانت قد كتبت بالأعداد، وأشير إليها بالزبر والبيّنات، وتراكيب غامضة، أنهكه السهر وأتىٰ عليه التعب وأضناه في كشفها وبلوغ منطوقها، ناهيك بمدلولها الذي بقي مبهماً لديه، مخفياً عليه.

كما أنه لم يقف علىٰ حقيقة فعل العبارة وتأثيرها، إلّا صبيحة يوم قرس برده وخشَف، وعصفت زمهريره ودوّت...

وكان قد خرج من صومعته يطلب الحطب لموقده...

قفّ جلده وقفص من شدّة البرد، ولم يسعفه فرك يديه ولا النفخ فيهما، وصار يكزّ ويتقبّض، وقد أضطرب حنكه وأصطكّ فكّاه وتقعقعت أضراسه، حتىٰ عزم علىٰ العَوْد، رغم أنه لم يجمع كفايته...

ولكن ما إن أقفل راجعاً، حتىٰ دهمه ما لم يكن في الحسبان ولم يسبق به حدس، و" من مأمنه يؤتىٰ الحَذِر"... أنتصب شعره وأقشعرّ بدنه، وأرتاع وأرتعب، إذ ما علم حتىٰ بَغْتَةُ الأمر: خرج عليه ضيغم يقطّع مرآه النَفَس، أعترض طريقه وهو يزأر ويدير رأسه، وقد بان جوعه من ضمور بطنه، فكأنه لم يلقَ فريسة منذ شهر.

يبس «روزبه» في مكانه، وقد سقطت من علىٰ ظهره حزمة الحطب، وفيها فأسه، ودبّت في عروقه حرارة أنسته البرد وأزاحته، ولكنها ما أذهبت الرعدة في بدنه والرجفة في أطرافه، إذ أبقىٰ عليها ذعره وهلعه.

وكان كلّما همّ بالحركة ليستدير ويلتقط سلاحه، زأر فيه الأسد ونهم، فعاد «روزبه» ليجمد.

عندها، تذكّر الطلسم أو الورد الذي فكّ رموزه قبل أيام، وراح يعتصر ذهنه ليستذكر نصه الحرفي، فهذه الأمور «توقيفية» في الأعم الأغلب، وما زال في هذا الحال الغريب، بين الخوف والأضطراب من جهة، وأعتصار الذهن لتذكّر مطلب علميّ أو نصٍّ مأثور كورْدٍ أو دعاء، مما لا يأتي إلّا مع فراغ البال، من جهة أخرىٰ...

حتىٰ أجرىٰ الله علىٰ لسانه العبارة:

"يا حلال المشكلات أدركني".

همس بها مرّة كمَن يتمتم، ثم أعادها ثانية، والأسد يقترب منه ويدنو، بحيث صار يسمع قعقعة مفاصله، وقبيب أنيابه!...

ثم صاح بها ـ في الثالثة ـ بأعلىٰ صوته.

فظهر في الحال، كخلق الساعة، لا كمَن قدم من مكان:

فارس مهيب، كان منقّباً، فحلّ لثامه... ما أمتشق سيفه ولا أستلّه من غمد! وكز فرسه فدَنا حتىٰ حال بين «روزبه» وبين الأسد، ثم ألتفت نحو الأسد وجَهْجَه به بصوت كالرعد... فذلّ الأسد من فوره وربض كحمل وديع، وأخذ يزمجر ويهمهم، وصار يمرغ رأسه علىٰ حوافر الفرس، ويلعقها بلسانه! عاد الفارس ليخاطبه بمزيج من الحسم والرفق، قائلاً:

كُن دابة لهٰذا العبد الصالح، إلىٰ أن يرحل عنك!

فٱنقاد الأسد ذلولاً سلساً طيّعاً، وجثا أمام «روزبه»، الذي أفرخ روعه وقرّ باله، فسكن وٱطمأن، وكأنه أُلهم تسخير هٰذا السبع، فشدّ حزمة الحطب علىٰ ظهره، ومضىٰ يسوقه بعصاه إلىٰ صومعته!

وبقي «روزبه» علىٰ هٰذا الشتاء كلّه...

حتىٰ جاء الربيع، فذابت الثلوج وسجت الرياح وطلق الهواء، فنبت العشب وٱخضرّ المرعىٰ، وصار يخرج ليرعىٰ الشياه والأبقار. وعادت الحياة إلىٰ الطريق التي تمرّ قرب الدير، وغدت سالكة بالمارة والقوافل، فلزم أن يطلق السبع ويخلي سبيله.

❁ ❁ ❁

أفاق «روزبه» من قيلولة صيفية راح فيها تحت شجرة جوز وارفة الظلال، حيث أرسل أبقاره وغنمه ترعىٰ، وهو بعد في الوسن، فلم يعوّض ما قضاه في سَحَرِ البارحة من إحياء، ولا ما ناله في النجعة وطلب الكلأ لقطيعه الصغير من تعب ونصَب.

وكان طيف قد أثقل رأسه، صرفه عن الفكر في تعب بدنه وقلّة نومه، إذ عصىٰ علىٰ التعبير والتأويل...

فقد رأىٰ في ما يرىٰ النائم، ركوة تعلو بها بئر من تلقاء نفسها، وما زال سطح الماء يعلو ويرتفع، حتىٰ فاضت البئر ونزفت، وإذا بيد تمتد من فم البئر بالركوة وتقدّمها إليه، وهاتف عاد ليناديه: "أبشر بالمنزل اليوسفي"! فتطابقت الرؤيا أو قربت من حساباته وقراءته للغيب.

وحول البئر أشخاص لم يتعرّفهم، كانوا من السماحة وطلاقة الوجوه في الغاية والتمام والكمال، وقد خاطبه أحدهم:

"لا تخف، فقد ٱنتجبك الله لولايتنا وخدمتنا"!

فزاد الأمر في حيرته: بشارة وٱنتجاب وخدمة؟

أفاق من قيلولته علىٰ هضْب ولجة قافلة في «رحلة صيف»، تهود في مشيها من رفق رعاتها، وتتهادىٰ من ثقل أحمالها.

بانَ أوّلها ولم يظهر آخرها...

إبلٌ مطاريق، ونياق مقطورة، وهوادج تخب، وخيل تجول بين المحامل، ومشاة يجوبون... وحداء يأخذ بمجامع القلوب، وإن لم يفهم «روزبه» أشعاره ومعانيه، فقد أدرك أن الحادي يتغزل بالديار ويتغنى بالأهل والوطن، ويستحث الخطى والمسير شوقاً إليه وإليهم.

ولم يتكلّف «روزبه» الكثير ليقرأ سيماء «العرب» في ملامح الركب... وهذا ما كان ينتظره منذ أمد.

ولكن ما إن دنا ليسأل ويستفهم، ويقدّم طلبه ويعرض مقترحه... حتى شهر أحد الحراس سيفه ولوح برمحه مستنفراً، بل متوثباً، ونعر! فما لبث أن ظهرت من بين الركب سرية خيالة، طوقت القافلة ـ كإجراء احترازي ـ من كل جانب، واتخذت وضعية القتال، وأخذت تحوم على هيئة استعراض عسكري يثني كل طامع، ويردع كل من تسول له نفسه شراً. ثم تقدّمت نحوه بعض الخيل مصهلة، وأخرى محمحمة، تقبع وتنخر... حتى تقاطعت عليه أعناقها، ولامسته ركائب الفرسان!

رفع «روزبه» يديه ليشير أنه أعزل لا يحمل سلاحاً، ويعلن أنه لم ينوِ سلباً ولا قصد أذىً. وما كاد يفتح فاه وينبس ببنت شفة، حتى أشار إليه أحد الفرسان ـ الحرس بغلظة وفظاظة، وأفهمه بجلافة أن عليه بكبير القافلة... وصاح بصاحب له:

أنظر ما يرطن هذا الأعجمي!

توجّه «روزبه» واقتيد نحو بعير «كبير القافلة»، وقد شُدّ عليه حدج فاره أزيحت أستاره المطرزة، فأشرف منه رجل كهل، يضع عمامة موردّة، ويرتدي ثياباً فاخرة زاهية، ويتقلّد سيفاً زُينت حمائله برصيعة رائعة من العقيق الأحمر، وقد ملأ أصابعه الخمسة بخواتم تلمع فضّتها وتتلألأ فصوصها الملونة... تحكي ثراءً فاحشاً وغنىً وبذخاً، ولكنه ما نال من حدّة وقسوة ارتسمت في وجه صاحبها، كما لم تؤثر أمواله الطائلة ورغد عيشه، في جلافة طَبَعَتْهُ بها الصحراء، وغلظة وحِدّةٍ جَبَلَتْهُ عليها...

ثم حيطة ويقظة - تتأكد دواعيها في السفر و بلاد الغربة -، وحذر جعل الرجل في حالة طوارئ مستمرة، وأستنفار دائم... وهو ما يمثّل له خطّ الحماية الأول والحصن المنيع من اللصوص وقطاع الطرق، كما يفعل من الغزاة وغاراتهم في موطنه.

علم «روزبه» أن الركب من «كلب»، قبيلة عاربة من «حِمْيَر»، وهي غيْر «كلاب» التي ينحدر منها «قصي»، فهٰذه مستعربة من «نزار» و«عدنان» الذي يرقى إلىٰ «إسماعيل»... كما علم أن وُجْهَتَهم «تهامة»، وقد جعلوا «الشام» و«يثرب» في طريقهم، أما مآلهم، فـ«مكة» ومنازل «قريش».

لم يضيّع «روزبه» وقتاً في أستيام ولا مساومة، فلا ماكس ولا سوّف، ولا دخل في ثمن ولا مثمن، ولا غالىٰ ولا شطّ بسلعته... بل سألهم صفقة مقايضة، وقدّم عرضه المغري مباشرة: يصحبهم في قافلتهم، ويحملوه حيث وجهتهم، علىٰ أن يعطيهم بَقَرَاته ويهبهم أغنامه... فقبلوا وآتفقوا، وقد كانوا ليقبلوا بعُشر هٰذا الثمن!

ومضىٰ «روزبه» مع هٰذه القافلة، يقطع الوهاد، ويطوي البلاد، ويعد الليالي والأيام... يرتقب ما ينتظره في هٰذا السفر.

* * *

فلما بلغوا «وادي القُرىٰ»...

وهو واد خصيب قرب «يثرب»، بين «تيماء» و«خيبر»، يشتمل علىٰ منظومة قرىً زراعية، غنية بمياهها كثيرة بحقولها وبساتينها، وهي منازل «قضاعة» و«جهينة». ويقال إنها كانت قديماً منازل «عاد» و«ثمود»، وبها أهلكهم الله، وآثارها ما تزال باقية. وقد سكنها بعدهم «اليهود»، وآستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها، فلما نزلت بهم القبائل، عقدوا بينهم حلفاً، ومنعوها لهم علىٰ العرب وغاراتهم.

وفي هٰذا المنزل... غدَر أصحاب القافلة «الكلبيون» بصاحبهم ورفيق دربهم، الحكيم العظيم «روزبه»، وعرضوه بضاعة، وزعموا للنخاسين وآدّعوا أنه عبدٌ فِن طلب إليهم «أهل الماء» بيعه!

عرضوا للبيع حُرّاً كريماً، بل عزيز قومه ورئيس بلده، عرضوه كخائل مُسبَع، بعد أن آقتاتوا في سفرهم على خِرَافه، وتاجروا بأبقاره وأثروا!

وبينا هم مع الباعة والنخّاسين في مماكسة وإشطاط، ومساومة وتمحّك، وضروب المجاذبة وفصل القيمة، حتىٰ آشتراه يهودي من أهل البلاد بثمن بخس دراهم معدودة...

إذ وقف «روزبه» في هٰذا المعترك فاغراً فاه، ثم صاح:

رباه... إنها هي!

ظن «الكلبي» أنه شرع في الدفاع عن نفسه، وأنه سيكشف الحقيقة... فراح ينعته بالآبق، ويكيل له الشتائم والسباب، وآمتشق سوطاً من نطاقه وهمّ بتقريعه، ولوّح له بالأصفاد والأغلال...

ولٰكن «روزبه» كان في شغل عن هٰذا وذاك، وقد شخصت عيناه، وأخذ يحملق ويحدق في النخلة... وكأنها أول مرّة ينظر فيها إلىٰ هٰذه الشجرة، فوجدها تتطابق مع الأوصاف التي ذكرت لوطن «الموعود»، وقد جاء ذكرها في «كتبه» بالتكريم والتبجيل، وبعنوان «عمتكم النخلة».

خَفَقَ فؤادُه فرحاً، ولمع البِشْر في عينيه، وآفترّ السرور في وجهه، حتىٰ ذهل عن بيعه وشرائه، ومصيره وما صار فيه من الأسر والعبودية!

ثم هوىٰ إلىٰ الأرض ساجداً، معفراً وجهه في التراب، وهو يكرر:

شكراً لله، شكراً لله... وقد آغرورقت عيناه وذرفت مآقيه.

ثم قام من سجدته وجلس في مكانه متقرفصاً، مدلياً برأسه بين ركبتيه وقد آنحل عقد دموعه، فآستسلم للعَبْرة، وآسترسل في البكاء... بكاء من بلغ نهاية سفر، ما كان يصدّق أنه سيبلغها، لفرط طوله وآمتداده، وشدة جهده وعنائه وكثير مشقّته وبلائه.

فقال «الكلبي» الأفّاك لليهودي، وقد ربط العجب لسانيهما:

لعلّه تذكر عزيزاً...

وأضاف الخراص: أو كأنه يتحسّر علىٰ فراقي! فقد أحسنت معاملته ولم أسِئ إليه! نعم إنه متألّم لآفتراقنا!

ردّ اليهودي:

والله ما أراه إلّا من قوم يعبدون الشجر، أما رأيت كيف أنعقد نظره على النخلة، أما رأيت سجوده؟ ألم تقل لي إنه فارسي؟ إنهم مجوس يعبدون النار، والشجر يوقدها؟!

نهض «روزبه» على تعنيف «اليهودي» وزجر «الكلبي»، ينفض ثوبه، ويصفق كفيه، ومضى إلى مصيره الجديد...

وعندما تنبه لما جرى عليه وصار فيه من الرق...

تملكته الأبتسامة، وصار يضحك من شَدَهٍ وحيرة، و"شر البلية ما يضحك"! إذ فهم أخيراً «المنزل اليوسفي» الذي جاءه الهاتف وتبعته الرؤيا، وعضدته حساباته وكتاباته وما أستنبطه منها، أنه سيلقاه بعد محطّته الأخيرة في «عمورية» حيث أرتحل مع الكلبيين وألتحق بقافلتهم.

ولكنه عاد ليتساءل:

رباه... أين البشرى في الرق؟

ترى، أوزارةٌ بعد الأسر، وسلطان بعد الحبس؟

أقام «روزبه» عند «اليهودي»، يعمل في زرعه ونخله...

وعندما هدأت فورة ما دهمه... صار ينظر في كتبه ويحسب ويدرس العلامات، فعلم أنه بات قاب قوسين أو أدنى من هدفه.

وأنتهى إلى نتيجة شبه نهائية مفادها:

بأنه وإن لم يكن البلد الذي حلّ فيه، هو بلد النبي الخاتم و«القربان»، وأنه لن يلقى هنا «موعوده» المنتظر. فإنه ـ بلا شك ـ بلغ آخر المنازل، وشارف على الوصول إلى مقصده النهائي.

وبقي يقلّبه الشوق، وتقض اللهفة مضجعه، وقد أستطار الحنين فؤاده، حتى ضجر وطفح به الكيل، وما عاد يطيق الصبر! وشارف على الثورة والأنفجار والتمرد والعصيان، وكأن مئات السنين التي قضاها في البحث والسعي والأنتظار، أهون عليه من هذه الأيام، التي علم أنها قلائل معدودة، تفصله عن مرامه وبغيته!

وصار يخطّط للهرب، ويرسم للفرار من الأسر والعبودية...

ولكن ما عسىٰ الغريب أن يفعل؟ فكيف إذا أجتمعت مع الغربة الموحشة عُجمة؟ ورقابة لصيقة، سدت الفرج، وأغلقت المنافذ؟ فأمسىٰ في أضيق من سمّ الخياط، وبات مُدلّه العقل، حائر الطرف، مغلوباً بالضجر والسأم، وقد بان الكمد في وجهه، بل أجمت نفسه حتىٰ عن الطعام، وصار كمَن أُخذ بخناقه ودُفع في صدره! كسولاً في عمله، ملولاً من مهامه... وهي حالات ما كانت في صفاته ولا من سجاياه.

فكرهه «اليهودي»، وزهد فيه، حتىٰ عرضه للبيع.

فوافق ذلك مقدم يهودي آخر من «بني قريظة»، حلّ علىٰ الأول (مولىٰ روزبه) في «وادي القرىٰ»، إذ كانت بينهما قرابة وتجارة... لم يتردد بشراء «روزبه» لبخس ثمنه، وأخذه معه إلىٰ «يثرب».

فأقام مع مولاه الجديد، يعمل في حائط له...

وقد هدأت فورته بعض الشيء، ووَدَعَت نفسه، بل أخذ في الأطمئنان والسكينة، وعاد شعوره بأنه غدا أكثر قرباً وأدنىٰ منزلاً، يبثّ فيه الجدّ والنشاط، مما أرضىٰ مولاه الجديد، حببه فيه وقرّبه إليه.

❋ ❋ ❋

كان «روزبه» يتسلّق نخلة ليتلقّىٰ من رفيقه الذي كان في رأسها، ينثر ويناوله، إذ قدم عليهما أبن عم لليهودي صاحب البستان، وكان يعلم منه تتبعاً وأطلاعاً بالأديان وأحوالها، وأُنساً بالمؤمنين وأخبارهم...

فأخذ يحكي لـ «روزبه» الذي كان في مكانه علىٰ النخلة:

أي «روزبه»... قاتل الله «بني قيلة»، لقد مررت بهم آنفاً مجتمعين علىٰ رجل قرشي بـ «قبا»، قدم عليهم من «مكة»، يزعم أنه نبي أرسله الله للناس كافة، وأنه يوحىٰ إليه قرآن يأتي به «جبريل» من عند الله!

فما إن سمعها «روزبه»، حتىٰ أخذه القرّ والأنقباض، ورجفت به النخلة حتىٰ ألقىٰ بنفسه ـ وهو في ذلك العمر ـ من عاليها! وقام يعرج من الألم، وتوجه إلىٰ المخبر ينهال عليه بسيل من الأسئلة:

ما تقول يا «سمعان»، ما هذا الخبر، بالله أعده على مسمعي ثانية؟

رد اليهودي: ولم هويت من النخلة وتركت عملك؟

ثم وجّه، وقد أدركه عِرْق الحرص والشح ونهضت خسته، إلى صدر «روزبه» لكمة كادت أن تطرحه أرضاً، وقال:

ما أنت وذاك؟ إنما حدّثتك مستهزئاً، أقبِل على شأنك، ولا تتلف وقت عملك وتهدر حق مولاك وتنشغل بهذه الأقاويل.

وتركه وأقفل راجعاً من حيث جاء.

وعاد «روزبه» إلى عمله، حتى أمسى المساء... وأنفرد بنفسه وآب إلى داره، حيث يقطن عريشاً بني وسط البستان.

أفترش حصيرة بالية، ينفذ فيها من التراب أكثر مما تغطّي وتحصر! بسط كفيه تحت مؤخر رأسه يتوسّدهما، وثنى ركبته، ووضع رجلاً على أخرى، وأستلقى على قفاه، يريح ظهراً أثقلته جِلال التمر وزبله، وحمَل العثوق ولقط النفاضة، ونزع الخوص عن الشطب لصنع الجريد، وأجتثاث الفسائل وغرسها... بعد أن نالت منه السنون كفايتها.

وأخذ يتأمل في الخبر الذي بلغه اليوم، ويتدبّر في ما عليه أن يفعل، وكيف يصنع عندما يواجه هذا «القرشي»؟

: أيكون هو الموعود المنتظر؟ أتراني سألقى نبي آخر الأمم، الخاتم الذي سيقدم «القربان»؟

رباه... أألقي ـ أخيراً ـ عصاي ويستقر بي النوى؟

وقد تسلّل نظرُه عبر القَصَب وخلال الثمام الذي تباعد، فغدا المكشوف من سقف العريش أكثر من المظلّل! لينظر في سحب تُلاعب القمر، بعد أن تلاعبت بها الريح، فتستره غمامة، ثم تنجاب لتبديه، فتأتي أخرى وتمر عليه ثالثة، توشّيه بثوب رقيق يشفّ نوره... حتى لا يدري الناظر، هل السحب تركض في هذا الفضاء، والقمر مستقر في برجه؟ أم أن القمر يتنقّل بين السحب ويلهو مع الغيوم؟ أم هي رأسه التي تدور؟ من فرط الترقّب والتمنّي، وحذر الإخفاق والفشل!...

: آه... ما عدت قادراً على تلقي المفاجآت، ولا مواجهة أنتكاسة جديدة، وإخفاق آخر. رقّ هذا القلب ورخت هذه النفس، حتى لتودي بها أية نسمة!... فرفقاً أيتها المقادير، وكفاك أمتحاناً وأبتلاءً وفتنة!

ثم عاد يلوم نفسه ويزجرها:

مه يا «روزبه»، أين وقارك ورزانتك؟ أين الرصانة والركانة والثقة بالنفس؟ ألست مضرب المثل في الحلم والأناة؟ والقدوة في سعة الصدر ونفاذ الرأي وحسن التدبير؟ ألم تكن حكيم قومك، وأربطهم جأشاً وأمضاهم عزماً؟ أقنوط مع اليقين؟ ويأس مع التسليم؟ وإبلاس مع الإيمان؟... ماذا أبقيت للصغار الناشئين والتلاميذ المبتدئين؟

ثم رجع مستدركاً هذه «الوقفة»:

ولكن، كلا...

لن أنخدع بهذه العناوين التي تخلعها النفس على النفس!

وإن جاءت من الخارج ولم يكن الشيطان أغرى بها وأغوى، فصدّقتها النفس، فإن الشيطان هو الذي أجراها على الألسن، أو هو الذي ساقها وقادها إلى الأذن، فأودعها النفس، ليستعيدها ويبعثها عندما تنزل بالمؤمن مثل هذه الإخفاقات والسقطات.

إنني أدرى بنفسي الآن، وهي في أضطراب، ونجمها في أفول، لذا لن أراهن عليها!

قرّر «روزبه» أن لا يراهن على أحاسيسه وما يقع في حدسه، وما تهديه إليه نفسه و«إلهاماتها»، وأن لا يندفع وراء عاطفته ويتعلق بأستدلالات بقلبه، هذا الدليل الكليل، الذي ما زال ينتقل به بين الوهاد والقلل، ويشرّق به ويغرّب، فلا يعود إلّا بالمزيد من المحن والآلام... فلعلّ ما يأتيه من الرزايا وينزل به ويصب عليه من النوائب، مما يصنّفه أمتحاناً وأبتلاءً إلهياً، هي - في حقيقتها - صنائع يده، وحصائد غرسه. فالأمور تجري في مجاريها بالتعقّل والأخذ بالأسباب والنظر في العلل والمقدمات والخضوع للمنطق... أين هذا من النبوءات والحسابات والرؤى والأحلام؟

وإن لم يكن الأمر كذلك، وكان في هٰذه المصائب خيرٌ وحقٌ...

فقد طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى، وما عاد هٰذا الجريح المضنى، والمكلوم المثقل، يريد مزيداً من ضروب هٰذا «التكامل» الروحي، وهٰذه «الرياضة» التي تسمو به وتنمو!

ولٰكن، هل كانت الهواجس ستتركه ليتّخذ قراره بهٰذه السهولة واليسر؟ كلا، فسرعان ما عاد ضميره ـ من جديد ـ ليقرّعه موبّخاً:

سبحان الله! هل أصبح القلب دليلاً كليلاً؟ مَن الذي قاد المسيرة وأنتهى بها وأوصلها إلى هٰذا الموضع حتى الآن؟

ومتى أصبحت تباريح الهوى نوائبَ، وكانت نتائجَ أخطاء وحركات أغفلت أرقام وقوانين الطبيعة؟ وأنّى عُدّت الصعاب التي تكتنف طريق الحقّ، ودروب السير والسلوك، توالي تلقائية وتبعات لمقدمات تجاهلت معادلات وضرورات ومقتضيات سُنن الحياة، وأرادت أن تقفز عليها وتتجاهلها أو تستخفّ بها؟... حتى إنها، لو روعيت وأُعطيت حقّها وموقعها، لما كانت ثمة نوائب ولا صعاب؟!

أين هٰذا المنطق، من الشكر المتّصل على مصيبة حلّت؟ إذ دلّت على: "أن هٰذا الحقير مرّ بخاطر الكريم"؟! أين المعادلة المقدّسة التي نظّمت التناسب الطردي بين الإيمان والبلاء؟

أين برهان الصديقين، ودليل العاشقين؟

إنها بدايات أنهيار، وبوادر فلتان لا يحمد عقباه!

وقد أصابته في صباه لوثة تشبه هٰذه النوبة... أخرجه منها «شيخ» كان يسترشد برعايته وتوجيهاته، أمره أن يتوقّف عن أوراده ورياضاته لبعض الوقت، وينصرف عن كتبه ودراساته لأيام، وأن يقتطع من يومه وليله ساعات للترفيه والترويح، والأستجمام والراحة...

حتى ثاب إلى رشده وعاد إلى عقله وطريقته.

فماذا عساه أن يفعل الآن، وهٰذه اللوابس تهجم عليه من جديد لتصرعه وتهلكه، وليس ثمة «حكيم» يرشده؟

وبين لَبَكِ هذا الموقف وغموضِ ذاك، آختلط الليل بالتراب، والخاثر بالزباد... ولم يجد «روزبه» مخرجاً إلّا في تعطيل القلب، وإلغاء العاطفة، وتحييد أية إشارة تلتقطها «الروح»، وتجميد أي آنتزاع تستخلصه النفس، وبالتالي تأجيل آتخاذ القرار في أمر هذا الخبر!

لم يجد بُداً لقرار التروّي، والخروج من هذا المخاض عبر إخضاع عملية لقاء «القرشي» والحكم على حقيقته، والموقف الذي سيتّخذه منه، إخضاعه لمعطيات العلامات التي عنده في الكتب ونتائج الدراسة والتحقيق والفحص، بتجرّد وموضوعية تامة...

ثم أقسم، في نزعة ثورية خلَقت في نفسه حالة طوارئ، فرضت «أحكاماً عرفية»، أقسم أن يلتزم بهذا القرار، وعاهد ربه أن لا يتّبع إلّا الدليل الحسّي والبرهان العقلي البحت.

* * *

جمع «روزبه» شتات نفسه، وخرج من عشوة غمّاء ومخمصة كادت تودي به، ثم جمع شيئاً مما عنده من تمر، وقصد به إلى «القرشي» القادم من «مكة»، النازل مع مَن تجمّع من المهاجرين بـ «قبا» في أطراف المدينة...

ما إن تلقّت عينه الإشعاعات الأولى لمرأى «النبي»، رغم أنه كان ما زال يتقدّم ولم يصل إلى موضع اجتماعهم وجلوسهم، حتى علم أن ليس كلّ خطّة تحتمل التنفيذ، ولا كلّ قرار يطيق التطبيق، وأن العزائم تفلّها الأقدار، وأن الهمم تنقضها الأقضاء!

دنا «روزبه» من المجلس، بل الحضرة المباركة، ونظر سحابة فوق «القرشي» تظلله وترسل أمواج القدس والنور، تسقطها على مجلسه، أم أن أمواج النور كانت تصدر عنه وتتصاعد فتتكثف هناك عند السحب؟... وقد تقطّعت أزِمّة القلب، وتراخت أعنّة كانت تكبحه، فانطلق ليقف مع الامتحان الأخير، والفصل الأصعب وجهاً لوجه... كيف يحجم ظمآن عن الورود؟ والحياض مترعة في ضنك المحول، والباب مفتوح للطلب والوغول، وهو غاية المسؤول ونهاية المأمول؟ كيف لمُتيّم شفّه الوجد وبراه الشوق، أن يمنع نفسه عن الحبيب، وهو في متناوله، وعلى خطوات منه؟

يــا رَبُّ هَل يُـرضـيكَ هـذا الـظَّما

وَالـمــاءُ يَـنـســابُ أمــامي زُلال

نكسَ بطرْفه، وأطرَق برأسه... فصار يسمع وجيب قلبه. ولكن لم يكن قلبه الذي يخفق فحسب، كانت الأرض تخفق، والفضاء يخفق، والعريشة بما فيها تخفق... أوَجيب القلب هذا، أم طبول الحرب يقرعها الهوى ويستدعيه للنزال في ميدان الغرام؟ وقد أمكنته منه الفرصة، إذ وجده أعزلَ، وفي أضعف حالاته، فينتقم من فارس طالما خاض غماره باسلاً، واغترف من مناهله متزوداً، وعاث في مرابعه ما شاء مغامراً.

لم يتردد «روزبه» لحظة ولا شك، أنّ مَن وقع عليه نظره، هو صاحبه النبي المنتظر. ومع أن «القرشي» كان قد تساوى في موضعه ولم يتميّز في جلسته عن أصحابه، إلا أن ذلك لم يؤخر شيئاً، ولم يؤثر في سرعة تشخيصه من بينهم...

كم جاهد نداء قلبه وكافح في صدّ نفسه وغالبها وهي ترى النور يسطع من جبين «النبي»؟ وقاوم رغبته في أن يلقي بنفسه تحت قدميه، وقد تلقّى منه سهم الهوى في مقتل، حين ٱلتقت عيناهما، فكأنّ معرفة أزلية ألّفت بينهما، وقرابة ورحم جمعتهما... كانت أنفاسه تتصاعد، وروحه ترفرف كالذبيح، وقلبه يخفق، وهو يهتف به ويرجوه بلا طائل: يا قلب ٱتئد! حتى بلغ من المجلس قرباً ومقاماً صار في الحضرة المقدسة، فكأن الزمام لم يعد بيده، وٱنتقل إلى «غيْره»! فأدركه خاص اللطف وشملته «الرحيمية»، وسرعان ما ٱستطاع قهر قواه وٱستجماع طاقاته، وركّز كلّ ما أوتي من عزم وبأس، وٱعتصر نفسه ٱعتصاراً، ليستعيض عبارته الأصلية: "والله ما تمنى موسى في الطور أن ينظر غيْرَ مَن أرى أمامي الآن، ولا أمّل مقاماً وحضرة ترقى على هذه التي أنا فيها!"، ٱستعاضها بالقول:

ٱجتمع عندي ما أردت أن أتصدّق به، ويلغني أنك رجل صالح ومعك رجال من أصحابك غرباء ذوو حاجة، فرأيتكم أحقّ به. ووضع التمر أمامه.

فقال لأصحابه: كلُوا، فأكلوا. وكفّ هو يده!

فقال «روزبه» في نفسه: هذه واحدة. وسجّل عنده العلامة الأولى، فهذا الرجل لا يتناول الصدقة.

ثم قدّم بين يديه قبضة أُخرى، وقال:

أحببت كرامتك، وإني رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أُهديها إليك، وليست بصدقة...

فمدّ يده وأكل، وقدّم لأصحابه فأكلوا.

فقال «روزبه» في نفسه: هاتان ٱثنتان.

ثم قام «النبي» ليتبع جنازة يشيّعها إلى «بقيع الغرقد»، وقام معه أصحابه، فلحقهم «روزبه»... وبينما كان «النبيّ» يقوم من على شفير القبر، وقد فرغ من الدفن، كان «روزبه» يتحيّن لينظر إلى «الخاتم» في ظهره، يستجلي العلامة ويتحرّاها، تعمّد «النبي» أن يزيح رداءه، حتى بان «الخاتم» وٱنكشف ما بين كتفيه...

انقض «روزبه»، وقد انحلت عقد صبره، وانفصمت عُرىٰ تحمّله، وانهار جرف طوقه، فانفرطت تعهّداته، وكل ما التزمه على نفسه، وخطّط له ودبّر... انقض يقبّل الخاتم ويبكي، ثم أهوىٰ على قدمي «الرسول الأعظم»، يلثمها، وقد وَهَىٰ جَلَده، وخارت قواه، ونزف عزمه، وما زال يبكي كطفل في حضن امّه حتىٰ أُغمي عليه.

أفاق على قطرات تبلّل وجهه، وابتسامة تُشرق فيه...

سجّل «روزبه» الحادثة بعد ذلك علىٰ هذا النحو:

كنت في حيرة مُستحكمة، أُعاني غموضاً متأصّلاً من قصة «السامري». الذي رأىٰ «جبريل» حين هبط إلىٰ الأرض ليفلق البحر لـ «موسىٰ»، ويغرق «فرعون»... رآه ـ دون سواه من «بني إسرائيل» ـ متمثّلاً علىٰ رمَكَة، فلاحظ أنها ما كانت تضع حوافرها في موضع، إلا تحرك التراب من تحتها، وكأن الروح والحياة كانت تسري من «جبريل» إلىٰ دابته، إلىٰ موطئ حافرها من الأرض، فتدبّ الحياة في التراب والروح والحركة الجماد!

بصر «السامري» ما لم يبصر غيْره، ورصد بغزير علمه هذه الظاهرة الغريبة، ثم سوّلت له نفسه وبادر بعميق دهائه وعظيم تدبيره، فقبض قبضة من ذلك التراب ـ الأثر، وصرّه في صرّة، واحتفظ بها.

حتىٰ كان من غياب «موسىٰ» وانقطاعه عن قومه ما كان، وظهور «إبليس» في «بني إسرائيل» وزعمه أن «موسىٰ» ليس بعائد إليهم، ولا آتيهم بألواح ولا بشيء من ربه. ثم أمْرُه إياهم باتخاذ العجل... فلما أطاعوا «إبليس» وتمرّدوا علىٰ «هارون»، وصهروا حليّهم وصاغوها عجلاً، انتدب «إبليس» «السامري» وطلب منه «الصرّة»، لينثر ما فيها من تراب في جوف الصنم وعليه... فتحرّك، ونبت له شعر، وصار يخور!

أي إن الحياة، أو بعضها، دبّت وسرَت في العجل ـ الصنم.

كيف تسري الروح وتتسرّب الحياة وتشعّ خارج الموجود الحيّ، الذي حلّت فيه بالأصل وأضفت الحياة عليه؟ حتىٰ لتؤثر في الجمادات المحيطة به وتبث فيها الروح والحياة؟

هل هي أمر مادي حسّيٌ «يبثّ» في نطاق ما و«يرشح» في ما يمسّه، ليسري بعد ذلك في مَن يلتصق به ويتّصل؟ هل هي إشعاع؟ هل هي ضرب من الطاقة المادية العضوية، وغاية ما هناك أنها خفية غيْر مرئية؟ أم هي مقولة معنوية بحتة، أو جوهر بسيط مجرّد؟ لا يحدث ولا يتحقق ولا يكون إلّا بمحدث، هو قوله تعالى «كُن»؟... كيف كانت الحياة تفيض من الرسول (جبريل) وترشح وتسري إلى رمَكَته، فإلى الأرض وتربتها، ومنها إلى العجل - الصنم؟

كان قد أعضل هٰذا الأمر على فهمي فلم يطاوع توجيهاً، ومَرَسَ حبلُ أفكاري عن أستيعابه، فلم يجْر، ونشب في بكرة العقل، وقد صامت عن إدراكه، فلم تدرّ على فهم!

فصارت هٰذه القصة من المعضلات التي لم أهضمها، فلا وجدت لها حلاً، ولا وقفت لها على حقيقة...

حتى فتحت عيني من تلك الإغماءة... لأرى وجه «محمد»!

وقد قرب منّي ودنا، فأستوعب «الوجه» مني نطاق البصر، وملَك زاوية النظر، فلم يطش شيء خارج «قرص القمر».

نظرت وجهه، وأحسست يده تبلل وجهي بالماء...

هناك، عرفت كيف أحيا «عيسى» الموتى، وبثّت حوافر دابة «جبريل» الحياة في التراب حيث وطَأت وخطَت!

هٰذا لعمري وجهٌ يهب مرآه الحياة، لا المادية والعضوية كما في «عازر»، بل الحياة الحقيقية، حياة القلوب والنفوس.

فما إن دنا وجهه الميمون وقرُب من وجهي، وتداخلت أنفاسي بأنفاسه القدسيّة العطرة، وصرت أشمّ عبقه... حتى أنقلب وجودي، وكأن «حياة» أخرى سرت فيه ودبّت! أين منها حياة الأبدان، ونفخ الروح في الأجساد لتتنفس وتتحرك، وحتى لتعقل؟...

«حياة» من نوع آخر، ودرجة لا ينالها إلّا ذو حظ عظيم.

* * *

تلفّت «روزبه» يبحث عن متّكئ، إذ ما عاد قادراً على الاستواء في جلسته، فأسند ظهره إلى جدار قريب، وأرجع رأسه إلى الوراء، ليسنده أيضاً، ثم طلب شربة من ماء، فجيء له بها...

دعاه «النبي الأعظم» وأجلسه إلى جواره...

صمت طويلاً كمَن يلتقط أنفاسه من سفر الحياة بأسرها...

ثم راح يحدّث «النبي الأعظم» بشأنه وما مر عليه. كان ينفض عن نفسه غبار طريق طويلة ممتدة امتداد العمر كلّه، ويروي أخطر مقاطع قصته ويسرد أبرز ما وقع له وجرى عليه.

لم يكن في إقبال «النبي» عليه واستماعه وإنصاته إليه توقاً لمعرفة القصة وتفاصيل مغامراتها المثيرة، فكأنه كان يعلم بها، بل كان ـ فعلاً ـ أعلم بها من «روزبه» نفسه! ولكن يبدو أنه كان يحب ذكر مثل هذه الأمور ولو كانت تكراراً واسترجاعاً لما يعرف. ولعلّها ـ من جهة أُخرى ـ كانت دعوة لترغيب الأصحاب وحثّهم على سماعها.

عندما فرغ، أو تعب «روزبه» من سرده، خاطبه «النبي» قائلاً:

كاتب يا «سلمان» عن نفسك، وتخلّص من الرقّ!

: «سلمان»؟

: نعم هذا هو اسمك، أنت «سلمان».

: إلهي، لك الحمد...

أهوى ساجداً، وقد عادت به الذكرى إلى ذلك الحديث النفسي المُبْكر والخلجات الدائمة التي كانت تلازمه، بل الصوت والهاتف الذي يأتيه عن يمينه يهمس في أُذنه ويُسِرُّ إليه نقراً، ما انفك يطلّ عليه ويعاوده بين الفينة والأخرى، أن اسمه ليس «روزبه». وكان يشعر أن وراء هذا الهاتف أمر لا ينبغي الاستهانة به، وحقيقة مغيّبة، ينبّهه الغيب إليها ويأتيه بخبرها.

وكم عكف على استجلاء سرّ هذا الأمر، وبذل في سبيل معرفة حقيقته، وكم سعى لحل لغزه وفكّ طلاسمه وكشف مطاويه، وحاول وزاول وطاول ... دون جدوى.

وها هو النبي الخاتم «يغيّر» أسمه على حين غرة، ودون أية مقدّمة وتمهيد، ويخاطبه بـ «سلمان»!

«النبي» يُنبئ أهل الأرض، بما يُنبأ ويأتيه من خبر السماء.

وبهذا الخطاب (يا سلمان) أنهى المعذَّب عهداً من المعاناة لا يعرف مداها إلّا من كابدها وعاناها، وبدأ آخر...

كانت البراهين والشواهد تتلاحق والبشائر تترى، وقلب «سلمان» يرقص طرباً ونشوة، وروحه تحلّق في سماء الحدث أكثر مما يعيشه بدنه على الأرض... وما زال كمن يتقلّب في النعيم ويرفل في الجنان، يتنقّل من روضة إلى أخرى، فما أراد أن تبقى في نفسه حسرة من شيء، فتوجّه بسؤال صاعق، كان قد أستطلع مقدّماته ضمن ما تحراه من خبر «القرشي» وتحسّسه من شؤونه قبل أن يأتيه:

بقيت واحدة يا حبيب الله!...

في ما عندي من الصحف أنك «القربان» الموعود، والأضحية الإلهية المنتظرة التي يريدها الرب وينتظرها مذبحه (لا سواها)؟

: بل هو «أبني»، وهو مني وأنا منه!

: فإنهم يزعمون أنك «أبتر» لا عقب لك ولا خلَف، لا وَلَد ولا تَلَد؟

فكأنه أجابه:

الأبتر غيري يا «سلمان»، إنه عدوّي وشانئي، أما أنا فقد أكرمني ربي وأعطاني «الكوثر» لأصلي لربي و«أنحر» «القربان»... سيبقى «الكوثر» يتدفّق في هذه الدنيا، يفيض بالخير ويهب الحياة وينشر الرحمة، حتى يقع الطوفان الثاني، ويظهر «الثاني عشر» من النقباء، فيملأها قسطاً وعدلاً بعد أن تكون قد أمتلأت من شرّ أعدائي ظلماً وجوراً، فيرث الله الأرض ومَن عليها ويمكّن المؤمنين منها ويحكمهم فيها... فإذا أنتهت الدنيا وأنقضى أجلها، وتحققت الغايات من وجودها، وأستوفت المقدّرات حدودها، وعادت الحياة وآبت إلى مبدئها... يعود «الكوثر» إلى موطنه الأصلي، ودياره الأولى: حظيرة القدس وجنان الخلد.

أنا هو يا «سلمان»، لا تَرتَبْ ولا تشك!

وإن أردت شاهداً... فهذا شاهد منّي.

هذا يا «سلمان» شاهد منّي يتلوه، إنه نفسي، فهو منّي وأنا منه... وأشار إلى فتىً يقدم من بعد، ويقرب من مجلسهم.

جمد «سلمان» في مكانه وصعق:

إنني أعرف هذا الفتى، لقد سبق لي أن رأيته...

وراح في تأمل عميق... لم يكن يعتصر ذاكرته ليتعرّف القادم، فقد عرفه من فوره، وكيف لصورة مَن مثله أن تُنسى أو تخدش في محفظة الذاكرة، فضلاً عن أن تمحى؟... إنما كان يعالج الروْع الذي نزل به وهو يرى «الفارس» الذي خلّصه من السبع في وهاد «نصيبين»، يراه هنا في «يثرب» بين يدي الرسول الموعود، وضالّته التي لاحقها طوال حياته! ثم أن يكون «حلال المشكلات» هذا هو شاهد النبوّة والصدّيق الأكبر.

وأخذ يتمتم:

هذا - والله - ما لم يتحرّك به خاطر، ولا تمثّل في وهم، ولا أرتسم في مخيلة!... إنه هو بلا ريب، «حلال المشكلات» الذي أدركني، وسخّر لي الأسد وجعله دابة أليفة مروّضة. فإذا شهد هذا، فماذا يعيق القلب أن يطمئن والنفس أن تذعن وتتيقّن؟

وكأن «النبي الأعظم» عاد ليقول:

أما «القربان» يا «سلمان»، فهو ولدي من «الكوثر»... من أبنتي وبضعتي وثمرة فؤادي، «فاطمة» محبيها وشيعتها من النار والعذاب، و«الزهراء» لسكان الملأ الأعلى والسماوات. ومن صلب أخي ووصيي ووارثي وابن عمي، الشاهد، هذا الذي تعرف.

وأشار ثانية إلى «الولي»، وأدناه حتى أجلسه إلى جنبه، وأخذ بذراعه اليمنى، ذراع «الولي» اليسرى، وأدخل كفه في كفه، وضمها إليه، حتى تشابكت أصابع كفيهما، فصارتا كقبضة واحدة... وقال:

عليك به يا «سلمان»، فهو إمامُك ومولاك، لا غيْره ولا سواه.

وكما علمت أنه مخلّصك من صعاب الدنيا، وحلاّل المشكلات في هذه الدار، فأعلم أن الحساب إليه في الأخرىٰ، وأنه ملجأك وكهفك الحصين، ومُنجيك من أهوال يوم القيامة.

* * *

كانت «الأنفاس المحمّدية» التي أشتمّها «سلمان»، وأفاق من إغمائه بل من صعقته، علىٰ عَبَقِها، بمكانة «المنزل الأخير»، والربوة التي أرتفعت به ليشرف علىٰ «المدينة» ويبلغها...

أو قل البساط الذي فُرش، ليستقرّ عليه ويستوي، بل الصفحة التي نُشرت ليجري عليها مداد الفضل الإلهي وتظهر الرحيمية الخاصة، يخط ويسطر أروع فصول هذه القصة، ويجني ثمار سعي لم يتوقف يوماً من كلل ولا تباطأ من مَلَل، ولا سكن ساعة ولا أستقر.

وما كانت مثل هذه الصفحة لتُنشر ولا ذاك الكتاب ليُفتح، دون أن يُشرع أمام ذلك الواصل «باب المدينة»، فيدخلها طالباً سالكاً (من جديد)، ينهل المعارف والعلوم ـ هذه المرّة ـ من معدنها وعينها الصافية، فيتلقّىٰ «النفحات العلوية»:

فيتعلّم: دقائق التوحيد وأسرار الولاية، وعلم المنايا والبلايا، وحقائق الإيمان وكواشف النفاق، ومعادلات الأتصال ووسائل ومعارج الألتقاء، وخفايا دروب السير ولطائف أسباب السلوك...

وكمالات جعلت «سلمان الفارسي» عالماً «محدَّثاً»...

وفي النهاية والخاتمة تلقّىٰ «سلمان» الأسم الأعظم، والإكسير الذي مكّنه من كلّ شيء.

أخذها كلّها عن إمامه ووليّه...

فصار يمشي علىٰ ظَلَل الماء، كما يمشي علىٰ جُدد الأرض، ويطوي المكان ويخرق الزمان، ويوقد للقِدْر من قدمه، ويعلم مصائر الرجال ومآل الأمور، ويخبر عن الخفايا والمُغيَّبات، وقد صدرت منه الأعاجيب التي ما كانت تطيقها العقول... وما كان يخفيه أعظم!

وكلّما كان «سلمان» يزداد علماً ومعرفة، ويتكامل روحاً ويسمو نفساً... كان يزداد طلباً لضالّته الأُولى، وبحثاً عن معشوقه الأول، فكأن من ذاق من رحيق الحقيقة وأرتشف صرفاً خالصاً من خابيَتِها، يغدو مدمناً، لا يقنع بغيْرِها ولا يشفي غليلَه إلّا تلك المعتَّقةُ.

كانت لهفة «سلمان» إلى «القربان» ولقائه وتحفّزه في أنتظاره، تزداد وتتضاعف، وقد براه الشوق وأضنته الصبابة...

صبابة شوق تهيج الحليم
لا عار فيها على الأشيب

حتى شاع أمره وأنكشف سرّه، وأشتُهر بحبه وأصبح علماً في درب الولاء لا يشق له غبار، ورمزاً في التشيّع لا يجارى ولا يُبارى... وهو لا يبالي أن أصبح مرمىً لسهام الأعداء وهدفاً لحربهم الشعواء، بل راح في مسيرته وأنصرف لشأنه وطريقته، حتى دنا فتدلى فبلغ المقام الأسمى، ولحق بـ «أهل البيت» ونال المُنى.

* * *

الفصل الثالث: الطلقاء واللقطاء

فبـاتـت لـه تــرعــى الغــوائل لا تــرى

لـه مـضجعـــاً إلا تمـنّــته مـصرعـــا

كان من شأن «سلمان» أن يعتزل بين فينة وأخرى، يتنحّى عن الناس، يخلوَ بنفسه، يستغرق في الفكرة والتأمّل، ما يصفي ذهنه ويوازن روحه ويهذّب قواها، بعد كدر ورين ـ لعلّه نالها وعلق بها ـ من مخالطة الناس ومعاشرتهم، فبعض المخالطة يتطلّب النزول إلى حيث هم، قدراً وفهماً، ويُلزم المرء أن يجاريهم فيتخلى عن بعض ما هو فيه من حال ومقام.

كما كان من دأبه أن يُلحِق فترة التأمّل وما يعقبها من صفاء وجلاء، يلحقها بشيء من المطالعة والبحث في كتبه ومُدوّناته.

وهو ماض الآن في ما كان مستغرقاً في معالجته منذ أمد:

تناقضات وفوضى مدوَّنات «تاريخ العرب»، مما وقف على إشكاليته مبكراً، فلا أسقم منه في تواريخ الأمم، وكلّما أوغل المرء فيه، أزداد غموضاً على غموض وآلتباساً في خلط. فلا منهج يحكم التدوين، ولا ضابطة لتناقل الأخبار، وذلك لأجيال متعاقبة وأحقاب ممتدة. وقد أنعكس ذلك جلياً في الأنساب، وهي التي عني بها الرواة أيما عناية وأولوها كل رعاية، فهنا أختلاط وتخليط وتقديم وتأخير وزيادة ونقصان.

ويُعَد الأدب اليوناني مصدراً نادراً يمكن التعويل عليه لتاريخ العرب القديم، فقد مرّ بالعرب «ايسخلس» (Aeschylus)، وتبعه أبوالتاريخ «هيرودتس»، ثم «ديودورس» الصقلي. ويلي هؤلاء جغرافيان، نبغ الأول في فجر التاريخ الميلادي وهو الرحالة «إسترابون» اليوناني، والثاني في أواسط القرن الثاني للميلاد وهو «بطليموس».

ولكنها مصادر لم تكن مبذولة لـ «سلمان»، وإن حظي بشيء منها، فقصاصات سجّل فيها بعض ما قرأ منها وسمع عنها.

كان يقلّب تلك الأوراق...

فوقع على«آية» من العهد القديم في «سفر التكوين»:

" وكبر الولد وفُطِم، وأقام إبراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام إسحاق. ورأت سارةُ أبنَ هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يلعب مع أبنها إسحاق. فقالت لإبراهيم: أُطرد هذه الخادمة وأبنها، فإن أبن هذه الجارية لن يَرِثَ مع أبني إسحاق" (تك: ٢١/٩ ـ ٣٠)

وأخذ «سلمان» يعمل على تفكيك الرمز الخفي و«الشيفرة» المنطوية في هذا النص، فإن لم تكن ثمة «شيفرة»، فعَلَيْه أن يستخلص النص من دسائس التحريف وخيانات التدوين.

ولا سيّما أنه الآن، بعد قطْعِه هذا الشوط الممتد من مسيرته، ووصوله إلى غايته ولقائه موعوده المنتظر ومعشوقه المفتقد، أصبح في وضع متقدم جعله متمكّناً من أدوات جديدة للدراسة والتحليل، وملاكات مستحدثة محكمة للآستنباط والربط، فقد غدا أمام معطيات حسية وأرقاماً مشهودة لا يتردد في توظيفها ولا يتكلّف في كشف الغوامض وحل العقد في ضوئها...

وقد جمع إلى ذلك بصيرة نافذة متّقدة، أستقاها من معلّمه الأعظم، بل أستوهبها منه، جعلته يتفوّق على نفسه، وصار كأنه يحمل سراجاً يستنطق بنوره الكلمات والعبارات، يضيء له مواقع الظلمة واللبس في ما يطالع وينظر... صار له «نور» يمشي به في الناس، كما يسير في مدوّنات العلوم وكتب الأوّلين، يسبر أغوارها ويستجلي أسرارها.

والغريب أنه ما كان يستعمل هـذا «النور»!

لم يكن يلجأ إلى هـذا الضرب الخارق من سبل الكسب العلمي، إلّا حين تعييه المذاهب، ويستوفي كل السبل الأخرى، ويُعمِل كل أمكانياته ويجتهد وُسْعَه، فلا يصل إلى حلٍّ ونتيجة... عندها كان يعمد إلى «النور».

ودعني أعبّر عن الأمر وأصفه بدقة أكبر، وأعود إلى بداياته...

ففي البداية لم يكن الأمر إرادياً وأختيارياً إلى هـذا الحد، كان أشبه بالقهري والتلقائي الذي يعقب طي المراحل الطبيعية في البحث والتحقيق والتمحيص... يجمع الأدلة ويقلّبها، ويعقد المقارنات ويدرسها، فإذا عجز عن بلوغ الغاية والتوصل إلى نتيجة ونهاية، كانت القراطيس تضيء بالكلمات الناقصة الساقطة، وتمتلئ الفراغات بما يُكمِل المعنى، بل كانت الصفحات تشع بين الأسطر عن جُمَل تفسيرية وعبارات تأويلية تفك المبهم وتؤلف بين الشتات وتجمع المتفرقات من العبارات والمعاني.

وبعد ذلك، في المرحلة التالية، أصبح هـذا «النور» ملازماً لـ «سلمان»، لا ينفك يتقدمه في كل ما يهم بقراءته، ويسبقه فيضيء له موطئ قدمه. حتى كان يقفز على فنون الفِراسة التي يتقنها، فيتجاوز نظره في الأشخاص وقراءته لتقاسيم الوجوه وتقاطيعها، إلى ما كان ينطبع في جبين أحدهم بمجرد النظر إليه: هـذا «مؤمن» وهـذا «منافق» وذاك «فاسق»!

كان يكفيه ظهور الشخص أمامه، ونظرة ثاقبة إليه، ليكشف حقيقته ويحكم عليه من واقع سجِلٍّ روحي كامل يشف له ويرتسم عن سيرته الباطنة الغالبة على صورته الظاهرة، فيعرف الناظر الروحاني مدى غَلَبة الغضب والحدّة على الحلم والشفقة في روح هـذا الشخص، ويعرف موقع الرجل بين العلم والجهل، وبين التواضع والكبر، والرفق والعنف، والبغي والعدل، والجور والإنصاف، والأناة والعجلة، والعفو والأنتقام، والرقة والقسوة، والطمع والقناعة، والحسد والرضا، والصدق والكذب... وما إلى ذلك مما لا يمكن خبره - في الأقارب والأصدقاء - إلّا بعد عِشْرة طويلة، أو لا ينكشف من سريرة المرء إلّا في زلات نادرة وخطوب داهمة تعتصره، فتنفجر.

وفي المراحل المتقدمة أصبح هذا «النور» طَوْع إرادة «سليمان» ورغبته، يُعْمِله متى شاء ويعرض عنه متى أراد، فيأخذ بالأسباب ويمضي على الأصل الطبيعي، لا يخرقه إلّا لأستثناءات وضرورات مُلِحَة.

كان «سليمان» ينظر في النص التوراتي ويقلّب الأمر فيه...

: لعمري لا يحكم الأمتثال لحسد النساء وغَيْرَة الضرائر، حركة شيخ الأنبياء، ولن يرسم تاريخه! ليس في الأمر طرد، ولا محاباة لأبنة الخال الميسورة، على الجارية الفقيرة وأبنها!

ترى، هل كان «الخليل» يريد أن يقطع أبنه عن «السريانية» ويخلق فيه اللسان العربي، ويمهد للغة التي سيُنزل الله بها خاتمة كتبه ورسالاته؟ هل كانت هذه «الصيرورة التاريخية» تؤسس العرب المستعربة؟ ليكون أبنه «الذبيح» أول من نطق بالعربية، لغة القرآن ولسان «القربان» (إذ ما كانت العرب تنطق بهذه اللغة قبل «إسماعيل»)؟

هل كان يهيئ لأفتراق العرب «المستعربة» عن «العاربة»، من خلال أحداث زواج «إسماعيل» ثم طلاقه من أمرأته العماليقية «أبنة الصدّي» (و«الصدّي» إنه جماعات بائدة، من قبيل «عاد») وزواجه بأبنة «المضّاض بن عمرو الجرهمي» وإيلادها الذرية «الإسماعيلية»؟ هل كان يريد بدع هوية جديدة، مستقلة، منفصلة، مجانبة للبداوة وما يعتريها من الشوائب والرذائل، ودواعي الطلاق وبواعث الأنفصال عن العرب العاربة وعن الوثنية العماليقية؟ هوية تمثل البيئة والوعاء والمجتمع الذي يمكن للرسالة الخاتمة وحَمَلتها من التحرك فيه والأنطلاق منه؟ هل كان يريد الأستقرار والتحضّر والمدَنية، بدل البداوة والترحل والرَّعَوِيّة؟ وفي الحقيقة العميقة: هل كان يريد ذرية توطئ لنسل مُنتقىً وسلالة منتجبة، وعِتْرَة مجتباة، وبيت مصطفى يحمل «الأمانة» ويتلقّى «الوديعة»؟

لا فوضى هنا ولا صدفة، لا شك أنها حركة محكومة بـ «الناموس الأعظم»، تستلهم من «الوحي» وتستقي من «الكتاب»، وإن كان لـ «سارة» وغَيْرَتها دَوْر، فهو تكميلي ظاهري لا تتجاوز حدوده دائرة الأسباب.

دائرة «الأسباب الطبيعية» التي تسردها المدونات:

أن «إبراهيم» ٱستأذن «سارة» في زيارة ٱبنه «إسماعيل» بعد سنوات طويلة من طرده (!) هو وأمه «هاجر» إلى البريَّة، وكانا ـ آنئذ ـ يقيمان في «مكة» («فاران» التوراتية تقابل «فاران» الحجازية، وهي جبال «مكة») يعيشان في كنف قبائل العرب العاربة مثل «العماليق» و«جُرْهُم».

لكن «إبراهيم»، الذي تنكّر بهيئة عابر سبيل، وصل «مكة» ولم يجد «ٱبنه» في البيت، فلم تكرمه زوجته العماليقية ورأى منها غلظة، فٱنصرف وأودعها وصية تبلغها «ٱبنه»، أن: "غيِّر عتبة بيتك فإني لم أرضها". فلما رجع «إسماعيل» من رعي ماشيته وسمع القصة وعلم بمضمون رسالة «أبيه»... طلّق زوجته. ثم مضى إلى مضارب «جُرْهُم»، القبيلة المنافسة لـ «العماليق» والمتقاسمة معهم السلطة على «مكة»، فوجد عندهم ضالته: ٱبنة «المضَّاض ٱبن عمرو الجرهمي» فتزوجها وعاد بها إلى منزله.

كان «سلمان» معنياً بملاحقة جذور القضايا والوقوف على أُصولها، وقد بذل كثيراً ـ في هذا السبيل ـ ليفهم أسرار الحالة التي أذهلته من مواجهة «قريش» لأبنها «النبي» الخاتم... هذا الإفراط والإسراف في عدائه، وهذه الغلظة والقسوة في جفوته وهجرِهِ وحصاره، ثم هذه الشدة والعنف في أذاه. ورغم أنه كان يتفهّم طبيعة المواجهة، مما رآه في سيَر الأنبياء والأولياء وما لَقُوهُ من أقوامهم... ولكن الحالة هنا ٱستثنائية في الشدة والحدة، وغاية في الغلو والإغراق. وقد خلص «سلمان» من قراءته ودراسته أن ذلك يعود لكُتَل متراكمة من العُقَد النفسية المستحكمة، التي ضربت أسبابها في عمق التاريخ الأجتماعي لـ «قريش»، وتركّبت مفرداتها وبواعثها من حقائق وأحداث لم تتمكن الأيام بتقادمها أن تمحوها أو تنسيها الناس...

كانت هناك «طبقيّة» مستحكمة، وإن كانت «خفية» في بعض مراتبها.

فإذا تجاوزت العبيد والإماء والمحالفين والغرباء الوافدين لمجاورة البيت، وبلغت المجتمع «القرشي» نفسه، مالت لمزيد من التخفّي. ولكن ذلك لم يسقط الحواجز والسدود، ولا نال من النظرة الدونية إلى غيْر «الأشراف».

نظرة أبقت على تعابير «الحاحكين» و«اللهازم» و«الزمع» و«الخُلج»، وأبت لهم أن يلتحقوا بمصاف «النجباء» و«السراة» و«الأشراف» و«العلية» و«الهامات»... وإن وارىٰ بعضهم عاره بـالاتّجار فالغنىٰ والثراء، ودارىٰ آخرون وضاعتهم ـ بعد أجيال متعاقبة ـ بكثرة العدد وتشعّب الصلات. فإن ذلك لم يعالج النظرة إلىٰ الاضطراب العرقي والمطاعن الواردة في طهارة القوم، سواء في أنسابهم أو في أخلاقهم وسلوكهم.

كان «الاستبضاع» فاشياً... وهو طلب الحمل من غيْر الزوج! يقول الرجل لامرأته إذا طهرت من طمثها، أرسلي إلىٰ فلان فاستبضعي منه، رغبة في الولد. وكانت العرب ترىٰ أن ابن الزنا يكون أنجب من الولد للفراش، وأنه سيكون فَطِناً فَهِماً، كيّساً دَهياً!

وما كان «الوأد» ليظهر إلّا بعد موجات من تخلي البنات عن أقوامهن وبيوت آبائهن ـ طوعاً ـ والرحيل إلىٰ بيوت الآخرين، طلباً للنكاح، وإشباعاً للرغبات الجنسية، وضرباً من العُهْر والمجون.

وكان «البغاء»... وكانت «مكة» و«الحجاز» تعجّ بعدد كبير من البغايا. وفي مثل هٰذه المجتمعات التي تضج بالحيوية والثراء والثقافة، كن جزءاً من الحياة اليومية، ووجوداً مشهوداً في صميم المجتمع، ولسْنَ مجرد إماء يُتَسرّىٰ بهن ولا جوارٍ جُلِبن بالغزو. وكان «الزنا» ممارسة طبيعية للحرية الشخصية، لا يثير استخدامه أدنىٰ حرج أو قلق عند القوم. بل كان ضرباً من النكاح والزواج «المشروع»، وكثيراً ما كان يأخذ شكل اشتراك جماعة من الرجال في امرأة واحدة! وما كانت البغيّ مزدراة تُعيَّر، أو خاطئة تخشىٰ من رفع راية علىٰ دارها أو خبائها. فإذا حملت وجاءت بمولودها دعت من اشترك فيه فجاءوا بـ «القافَة» ليتقصّوا أثر الولد بأبيه وشبَهِه به، ومن ثم إلحاقه.

هٰذه محظيّة «زهرة بن النطّاح» وقع عليها فأولدها «عبدالله» فصارت تعرف بـ «أُم عبدالله» وكانت لها راية تعرف بها بالأبطح، وهٰذه «مارية» ذات الراية، كانت أمَة لـ «العاص بن وائل»، وأمّا «صفية» ذات الراية، فهي أُم «معمّر بن حبيب»، وهي أم «صفوان بن أُمية» أيضاً.

بل إن القوم كانوا يمارسون تجارة «الرقيق الأبيض» عن أحتراف ومهنية عالية! فقد كان التجار يجلبون معهم الجواري الروميات والحبشيات والعربيات، يوَظّفوهن في مواخير البغاء ودور الدعارة في «مكة».

وأشتهرت منهن «عناق» وكانت لـ «مرثد»، و«سريفة» عاهرة «زمعة بن الأسود»، و«فرسة» عاهرة «هشام بن ربيعة»، و«أم عيطة» عاهرة «صفوان بن أمية»، و«حنّة القبطية» عاهرة «سهيل بن عمرو»، و«أم سويد» عاهرة «عمرو أبن عثمان المخزومي»، و«قريب» جارية «هلال بن أنس».

وكانت أندية «قريش» ومحافلها ـ في جاهليتها ـ على ضربين:

أندية النخب والأشراف، كـ «دار الندوة» التي أسسها «قصي بن كلاب» وتدار فيها شؤون رئاسة البلاد وسياساتها العليا، و«الرفادة» وهي بمنزلة الإدارة المالية لموسم الحج وخدمة الحجيج...

كما كانت لـ «آخرين» أنديتهم ومحافلهم، حيث اللهو والطرب، والفسق والفجور، والسكر والعربدة، في خلاعة ومجون، يستقطب كل عاهر فاجر ونَطِف دَفِر... محافل وأندية لا يستقبح فيها شيء ولا يستهجن، بدءاً من رقص العراة، وأنتهاءً بما يجري في زواياها وأركانها من الزنا واللواط.

هكذا كانت سلوكيات القوم وأخلاقهم وأعرافهم، وهذا كان شأنهم وديدنهم وما هم فيه وعليه، ومن هنا صاروا يدرجون ـ في الرؤية الإسلامية الجديدة ـ في مدارجهم ويصنّفون في طبقاتهم...

حتى الطعام والشراب، في عناصره وموائده، شكّل شاخص أختلاف وعنصر أفتراق حاد بين سلوك النخبة من السراة والسادة والأشراف، وبين البقية العامة من الرعاع و«اللهازم» و«الزمع»، فتنزّه أولئك عن الخمر والمسكرات تعففهم عن المياه المتعفنة كالنقيع و«الطَّرق»، وهو ماء السماء الذي لوّثته الإبل وخوّضته البهائم بِبَوْلِهَا، كما صانوا بطونهم وترفّعوا عن الخبائث وأستقذروها، فأجتنبوا الهوام من الأوزاغ والأورال والضبّان واليرابيع والجرذان، وهكذا ما أقتاتوا يوماً الورق و«القد» من دفين الدم المعجون بروث الدواب.

فكأن «قريشاً» بهذا السقوط والسلوك الملوّث، وهذا النمط المنحط من العَيْش، وهذه الحياة الأجتماعية المنحلّة... عادوا لـ «التعرّب» بعد «الأستعراب» والهجرة، وأنتكصوا عن «الإسماعيلية» و«الإبراهيمية» و«الحنيفية» إلى الجاهلية الجهلاء، التي كانوا عليها كـ «عاربة» و«عماليق».

وإن أصبح العرب اليوم سكان مدينة ومن مجتمع مستقر، وصاروا في مَدَنيَّةٍ تمتهن التجارة والنمط «اليوسفي»، إلا أن الروح الوثنية كانت تتأجج في نفوسهم الملوثة الموبوءة، فأرجعوا أصنامهم ونصبوها على «البيت» الذي رفعه «إبراهيم» و«أبنه»، كما عادت بهم طبائعهم إلى العهر والفجور، وإلى الغارات والغزو، وذلة الخوف من أن يتخطّف بعضهم بعضاً.

ولم يكن الإسلام ليَجُبَّ ما قبله إلّا في الأحكام وتبعاتها الشرعية، أما في واقع الأمر وحقيقته الخارجية وأثره الوضعي، وهكذا في الرؤية الأجتماعية، فما كان ليتجاوز من ذلك شيئاً. ولا سيّما أن القوم بقوا على إصرارهم وتمسكهم بذلك النهج القديم ـ الجديد... فهذه «ثقيف» تفاوض «النبي» في دخولها الإسلام وتشترط الإبقاء على الزنا والدعارة، وما يعرف بأتخاذ «الأخدان»! وهذا الأمر الإلهي يتأنّى في تشريع النهي عن الخمر ويتدرّج، حذر معارضته ورفضه وقيام ثورة تأتي على الأستقرار المطلوب لنشر الدعوة! ولم يكن هذا الوضع المتردي والسيرة المنحطة، وهذا «التراث» القذر الموبوء، ليزول، وتزول آثاره بين ليلة وضحاها، ولم يكن «النبي» الخاتم، ليتجاوز ـ في دعوته وبلاغه ـ الأسباب الطبيعية إلى المعاجز الخارقة و«الهَدْي» القهري، وإكراه الناس على نهجه ودينه وخُلُقه...

فغاية ما فعله ـ عليه وآله صلوات ربه ـ أن شكّل وأقام الهيكل الظاهري، ومهّد الأرضية، ورفع القواعد المندرسة من البيت «الإبراهيمي»، وبنى كيان الدولة والمجتمع، وهيأ ما يسمح بنهوض الأخلاق وقيام القِيَم وتعميم المُثُل الحقّة. فأصبح الظاهر والحاكم، هو قِيَم الحق والأخلاق والشرف والعفة، وصار الواقع الأجتماعي (في ظاهره الحاكم، في أقل تقدير) يستقبح العهر والخطيئة ويُعيِّر بالرذيلة ويمجّ الفساد.

ـن هنا خرج «الشرف» وأنزاحت «السيادة» عن البيوتات والأسر المتصدّرة في فوضى الجاهلية، والمترئسة في حضيض أنحطاط المجتمع، وأنحصرت في حالات فردية تمثلت في أشخاص حازوا الفخار ـ بجدارة ـ من قيم الحق والعدالة والشجاعة والكرم، فصار يُشار إلى «بشر بن هلال العبدي» و«عدي بن حاتم الطائي» و«سراقة بن مالك المدلجي» و«عروة بن مسعود الثقفي»، كسادة في الإسلام... أما كبيوتات وأسر، فلم يَعْدُ الأمر «بني هاشم» ولا تجاوزهم يوماً إلى غيرهم.

وكلّما كان الإسلام يمضي في ترسيخ قِيَمِه ويتقدّم في تثبيت مبادئه، وكلما كانت الجذور «الإبراهيمية الحنيفية» تُبعث وتتجدّد، وتعيد معاني النقاء لنضارتها والطاهرة لتألّقها، وكلّما كانت الأصالة والنجابة ترجع إلى حيث يجب أن تكون في المجتمع، وكان الشرف يعود ليحتل موقعه المفترض في أمة تريد أن تنهض بحمل خاتمة الأديان... كانت عُقَد «قريش» تتركّب تجاه «الأشراف» و«النجباء» و«الأطهار»، وكان الغضب والحقد والحسد يتولّد فيهم ويتأجج، ثم يستقر في دفائن القلوب والسرائر، أضغاناً أخذت من القوم مأخذها!

ففي ظل ذلك الوضع الوضيع نَسَبِيّاً، وتلك الحال الملوثة أخلاقياً...

كان الواقع الأجتماعي ينفرز ـ تلقائياً ـ عن طبقة توارثت الطهارة والنجابة، وتنزهت عن كل لوث وعار تلطّخ به غيرها من المجموع المحيط بها... فكان الحسد والعداء، وكانت الأحقاد والبغضاء، وهكذا كان السعي لطمس القيم التي أفرزت هذه الطبقة وميّزتها ورفعتها.

كان «سلمان» يسجل هذه الحقائق كجواب أستقر في خاطره وقناعته، وتفسير خلص إليه وتبنّاه، يبرر الظاهر الذي كان يلمسه ويعيشه، سواء من عداء أهل «مكة» وحقدهم على «النبي» الخاتم وعترته، ما دفعه للهجرة وترك وطنه، أو من أداء كثير ممن ألتحق منهم بالإسلام وتظاهر به، فصار يحيط بـ «النبي» ويصحبه، وهو يُسرّ بغضه ويستبطن مشاعر «قريش» ويحمل الأوجاع والآلام نفسها، ويخفي الآمال التي تتطلّع إليها!

كانت ثمة معركة «خفية» تدور رحاها في قلب المجتمع المسلم، ورغم أنها كانت مضمرة تدار بأسلحة غير مباشرة، وتتخندق في الصفوف الخلفية و«الكواليس»، على تكتيك «الطابور الخامس»، إلا أنها كانت محسوسة ملموسة، وفي كثير من الأحيان كانت تخرج إلى السطح والعلن، تكشفها المواقف في صفحات الوجوه وفلتات الألسن، ثم في أداء ما لبث أن خلق «جبهة معارضة»، أخذت تكبر وتتوسع داخل المجتمع المسلم، حتى صارت توجّه ضربات موجعة، بل وقاصمة للدعوة والمسيرة المحمدية...

وعلى هذا تولّد خطاب وبرزت ثقافة خاصة، كأداة وسلاح في هذه المعركة، إذ لم تكن بعض الأمور المتداولة في المجتمع «المكي»، قضايا عابرة أو عفوية... كانت هناك ألقاب، وكان هناك لمز وغمز، وشعر وقصص وأمثال، تصب في احتقان يرصده أي مراقب، احتقان وتشنّج من نزعات ونزاعات تنتهي إلى: الأصالة والشرف والنجابة والرفعة، مقابل الوضاعة والسوقية والدونية، وإلى: الكمالات الأخلاقية، مقابل الرذائل والقبائح.

أشعار وأمثال وقصص ونوادر وطرائف... من قبيل أبيات كانت متداولة في الطعن بـ «بني عبد شمس». ما إن سأل عنها «سلمان» بعضهم، حتى توترت الأجواء واحتدمت وكادت أن تخلق أزمة، وكل ما فعله كان سؤالاً عن أبيات لـ «أبي طالب بن عبدالمطّلب» يقول فيها:

أخصُّ خصوصاً عبد شمس ونوفلاً
هما نُبِذا مثلما نُبِذَ الخمرُ
قديماً أبوهم كان عبداً لجدّنا
بني أمَةٍ شهلاء جاشَ بها البحرُ!

يريد أن أميّة كان عبداً لـ «هاشم»، وما كان من «قصي» ولا «لؤي»، بل هو «رومي» جاء عبر البحار! قذفته الأمواج ونبذته إلى «الحجاز» كأنه زَبَدٌ جاشت به... والشهلاء تخص زرقة العيون، وهي صفة «الروم»!

* * *

ها هو «الرجل» بشخصيته الغامضة، ينبري لـ «سلمان»...

كان «سلمان» يَنظر إليه كمَثَل لـ «النفاق»، ويراه المصداق الأتم لمركب العُقَد الذي علّل وفلسف به العداء القرشي والعربي لـ «النبي» الخاتم وأهل بيته الأطهار. ويرى فيه تلخيصاً لمجموع مفردات جبهة العداء تلك: حقد دفين وبغض متأجّج، وجلافة وصلافة، ونَسَبٌ في غاية السفالة والوضاعة، فلا أصل يعرف له ولا فصل، كل ما هناك أن أباه كان لقيطاً وُجِد رضيعاً مُلقىً في بعض مزابل «مكة» وكناستها، وأمّه كذلك، فانحدر من سلسلة غريبة متراكبة من الزنا والسفاح، جعلت من أمه أخته، ومن أبيه جدّه!

أما أنا فقد رأيته، من مطّلعي، الوجه الأول لـ «إبليس»... إنه «زفلل»!

رأيته على حقيقته التي أرانيها «فطرس» الملك، مكبّلاً في الجحيم يخور ويزمجر، إنه هو بلا أدنى شك، الوجه الأول والأكثر قبحاً لـ«إبليس»، «إبليس» بعينه، كما رأيته مصفّداً في أغلاله هناك!

ها هو يقدم على «سلمان»...

بائن الطول، تراه ماشياً فكأنه راكب، ضخم الجثة، شديد الأضلاع، مصك. دميم الخلقة أشوه، غليظ سمج، جهم الوجه، مقطب كالح، في عبوس وتكشر دائم. ارتفعت في وجهه منابت لحيته حتى أتت على خديه! حيث تنتهي في أعلى كل صفحة بِلخج واسع فمَخجِر غائر، تدور في قعره عين صغيرة ولكنها جاحظة، سوداء في دكنة تنم عن جُبْن مستحكم، تنظر وترقب ولا تُرى من فرط ضيقها، كل نظرِه شزر وإحداد ورمق!

حصٌّ شعر رأسه وتساقط عن منبت قرنيه، دون هامته ويافوخه الكث الذي تلبّد فيه الشعر في تداخل ولزق. ثم كأنه استعاض عن ذلك بما ملأ منخريه ونبت على أنفه الأفطح الخَثَم، وعلى حاجبيه وناصيته التي تداني قصاص الشعر فيها حتى كادت تلتحم بالحاجبين الكثّين، فلم تترك له جبهة يسجد بها! وبعد، يهون ما تقذى به النواظر وتلفظه الآماق من كريه طلعته ومرعب مرآه، إذا سُمع صوته الأجش، يبح من خياشيمه وجوفه في غلظة ترعد، كأنه «عملاق»... حتى قيل إن مُقْرِباً أسقطت من زمجرته !

إنه «زقلل»...

ها أنا أنظر إليه الساعة من موقعي... حيث الإطلالة التي تستطلع التاريخ، وتستعيد بعض مشاهده وأحداثه، وهي ماض غابر، وقع وتحقق ومضى، ولعل وجوده صوري بحت، خارج نطاق الفعل والتأثير، ناهيك بالانفعال والتغيير... إلّا أن الرعب يتملّكني من مرآه! ولا سيما أنني شعرت أنه يرمقني، وهو في أرض الدنيا وساحة الحدث (الماضي)، وأنا في موقعي هنا على مقاعد المشاهدين المتفرجين (في المستقبل، بالنسبة إليه)!

يا للهول...

إنه يشعر بي، ويدرك أنني أُراقب الحدث، ويعلم من أين أتيت وماذا أُريد، ورغم أن لا دور لي في ما يجري ولا دخل ولا تأثير، إلا أنه يريد أن يتناوشني ويفتك بي، لمجرد أن قلبي يهوى خصومه وأعداءه ويبغض أفعاله وأولياءه، فكأنني معهم في المعركة، متخندق في جبهة ضد جبهة.

إنه مسلّط عليّ، وكأنه مبسوط يد حتى على التاريخ، على مُشاهديه وباحثيه ومُسجّليه، وعلى قُرائه وكتّابه!

ولولا اليد الملائكية التي كانت تجللني وتظللني وتحميني وتمنعني، لأنخلع فؤادي ولأسقطني الروع من نظراته والطريقة التي كان يرمقني بها، وأوصَل لي من خلالها أنه يعلم بوجودي ويدرك وضعي، وأن له يداً مبسوطة قد تطالني، وإن كنت هنا على مقاعد النظارة المتفرجين، ومن أهل زمان (قادم) غير الذي أشاهد أحداثه الساعة!

❋ ❋ ❋

هذا «سلمان» يقلّب الأمر ويحدّث نفسه عن أجواء خُلقت ضدّه:

إنهم ما فتئوا يسألون: ماذا في «الولي» وماذا في «القربان»؟

بالله، أيكون هذا سؤالاً ألاحَقُ به؟!...

أوَيماري عاقل في تتبّع أسرار الوجود، ويجادل في السعي لكشفها وبلوغها، حتى ينكر على من يفعل ويجتهد؟ أتسقط الهمّة وتهن إلى هذا الحد؟ أتصغر النفس ويفتر العزم حتى يبلغ هذا المبلغ؟

ثم إني ما عدت أدري، أتخرّص وخبْطٌ هذا، نتج عن خمول ذهن وبلادة فكر وغباء، أم حسد وخبث ولؤم يريد الصدّ عن الحق وقطع الطريق على المهتدين؟ وإن كنت أعلم حال بعضهم، فأنا في ريب من البقية.

علامَ أعاتَب وينكر عليّ وأؤاخذ، وفيمَ أُلام وأُقرّع وأوبّخ؟

أي جرم في حب «الولي» والبحث عن «القربان» والتباشر بمَقْدَمِه؟

وهو الهاجس الذي بعَثَ الحياة، وحرّك الإنسان ودفعه، مذ وُجدَ وكان، وأخذ بيده وهَدَيه صوب سموّه وكماله ومجده، إذ نادىٰ وأخبر وبشّر بأن الله سبحانه وتعالىٰ سيرث الأرض، ويطوي الوجود ويعود بالخلائق إليه، عند تقديم «القربان» و«الأضحية»... هاجسٌ مبدؤه العلم والمعرفة، ووقوده الود والحب، فالشوق واللهفة، ومنتهاه العشق والولاء، ومردّه ومآله ـ في الختام والوصال ـ النعيم الأبدي، ثم الفناء في ذات الله تعالىٰ.

لستِ بدْعاً من العبّاد ولا من العشاق والعرفاء... فعلامَ أُلام؟

ألامُ علـــىٰ حُـبٍّ كـــأني سَـنَـنْـتُهُ
وقـد سُنَّ هـٰذا الحبُّ من قَـبْـل «جُرْهُم»

بل أنا مقصّر ما أدّيت حق الحبيب ولا وفيت ببعض واجبه...

ولـــو أني قَـــدَرْتُ شَقَقْتُ قلـبـي
فـكـيـف أُلام في شـــقِّ الـقـمـيـــص؟

لعمري، ما أنا إلّا سالك مبتدئ، يتلمّس سُبُل نجاته وخلاصه، ويتحرّىٰ ما يبلغ به غايته ومرامه... ماذا يريد هـٰؤلاء؟

كان «سلمان» يحدّث نفسه ويسلّيها في خلوة يقضيها في أطراف «المدينة المنوّرة»، في «قِبا»، وهي ربوع تحمل ذكريات جميلة تعيده للقائه الأول بحبيبه، يستعين بها في جلاء همومه وتخفيف آلامه... راح يستريح هناك، بعد جولة جدل وحوار ساخن خاضه مع بعض «الأصحاب»، لاموه ـ في البدء ـ علىٰ إفراطه في التركيز علىٰ أمور دون أُخرىٰ، وعنايته الفائقة بقضايا دون غيرها، ثم ظهر وبان بأن لب الأعتراض وجوهره ما كان إلّا علىٰ ولائه وعقيدته. وقد بلغ الأمر في آخره أن أتهموه في دينه وفي إخلاصه.

كان يستعيد شريط أحاديثهم وكيف حاصروه بأدلّة واهية وحجج ركيكة، وأقوال لا تنهض ولا تُثبِت إلّا الغُصَص والضغائن والأحقاد التي تعتلج في صدور أصحابها... ثم يستعيد ما قال لهم، ويقلّب ردوده وأجوبته، فيجد أنه كان قادراً على ردٍّ أفضل ودفع أقوى:

لو أني رددت بهذه العبارة لكانت ألزَمَ حُجّة، وهذه الثانية لدَحَضَت مقالتهم وفنّدتها وما أبقَت لهم شيئاً، وما أظنهم كانوا يجدون فيها مساغاً لشك ومنفذاً لشبهة.

لو ألقيت هذه الأخرى في ذلك الموضع، لكُشف زيف دليلهم وبان سخفه، ولأفحمتهم وأبكَمتهم ولعادوا صاغرين مقهورين.

كان شريط الحوار الساخن، والجدل الصاخب، وصوَره الملتوية الغريبة والمتداخلة، من فرط جهل محاوريه، أو خبثهم وتدليسهم، ترتسم في ذهنه... فلا يندم على شيء ولا يتألّم ويتحسّر، كندمه وحسرته على عُجْمَته ولُكْنَتِه، وعلى ضعيف لغته وعاجز بيانه، وإلّا فالبراهين المقنعة أو المفحمة والأدلة القاهرة والحجج المدحضة، كانت حاضرة في متناوله، ماثلة بين يديه، وكانت ستبهتهم وتهزمهم وإن تكاثروا عليه.

كانوا في بداية الأمر يعيبون مواقع حرصه ومواطن تحسسه، ويستنكرون بعض مواقفه وأعماله، ويأخذون عليه الأنشغال بقضايا خاصة ونشاطات تميّزه وتفصله عنهم، قضايا تثير فيهم الريبة والظنون، بل الغيظ والحنق! فهي تخلط الأولويات التي يعملون وِفقَها، وتشتت تركيزهم على ما يَعُدونه الأجدر، لصالح الجدير، بل غيْر الجدير، ولعلها تخطّئهم وتسفّه أداءهم... حتى ما عادوا يطيقون، فأنفجروا في وجهه:

هل هو أستعراض وتباه بالعلم الذي تحمل وتُحسن؟

أم هي الرغبة في التميّز عنّا والتعالي علينا؟

ما زلت تربط كل شيء بالغيب وبالمعجزة، بل بالأساطير والخرافات، تبحث للأحداث عن تفسير في السماء، وتنقب فتجد لها قراءة في التاريخ، وتتحايل لتحيك لها فلسفة وحكمة لا تخطر على بال أحد.

أوَتظن أنك الوحيد الذي قرأ في كتب الأولين ونظر في أسفار الأقدمين، دون الأحبار والرهبان، والكهنة والعرّافين؟

إننا نلتقيهم يا «سلمان» ونسمع منهم شيئاً كثيراً.

ومن هذا الكثير، بعض ما ستقوله لنا وتلقيه علينا قبل أن تفعل بأيام! وفي بعض الأحيان بساعات قليلة، فلا تمضي الأيام والسويعات حتى يوافق فعلك وقولك نبوءتهم، فيتحقق ما قيل عنك وفيك!

أما زعمت أنك تسمع الحجارة تسلّم على «محمد» إذا مرّ بها؟ لقد أخبرونا بأنك ستأتينا بهذا القول ومثله، وقد فعلت!

بالله كيف لم نسمعها نحن تسلّم عليه وتحييه يا «سلمان»؟ ألَك أُذن واعية وقلب سميع، ونحن صمٌّ وطُرْش، وفي آذاننا ثِقَل ووَقْر؟! وما اكتفيتم، أنت وصحبك، عصبتكم هذه المريبة المشبوهة، بما أبدعتموه من نطق الحجر والشجر، حتى زعمتم أن البهائم تُفصح وتتكلّم بلسان عربي مبين كرامة لـ «محمد» ودعوته!

آه من شعوذتكم وسحركم، بالله كيف تحبكون هذه القصص؟

كيف تربطون على الأعين فيتراءى لها وتنظر ما تريدون؟

كيف تمثّلون تلك الأصوات وتحكونها فتنطلي؟

ثم انصرف «المستهزئ» عن «سلمان» والتفت يخاطب الحضور:

أتذكرون قصة «أمرٌ نجيح»!

ووسط قهقهة وضحك مصطنعَين وافاه به الحضور، مضى «زقلل» في محاورته الشيطانية ومناورته الخبيثة، يصادر الموقف ويواري وَهْيَه ويخلق ما يريد من الأجواء، بذلك الضحك والاستهزاء:

الذين ثَمِلوا من «آل ذريح»، وهم يَسْمُرون مع قِيناتٍ لهم، وبينا هم في لَهْوِهم ولعبهم إذ صعد عِجْلٌ على رابية، عِجْل يا «سلمان»، عِجْل! جعل ينصحهم بلسان ذلق: يا «آل ذريح»، أمر نجيح، صائح يصيح، بلسان فصيح، ببطن «مكة» يدعوكم إلى قول «لا إله إلا الله» فأجيبوه.

فترك القوم لعبهم وأقبلوا إلى «مكة» ودخلوا في الإسلام!

أم ما ترَوْونَ من دعاء «النبي» علىٰ «عُتْبة بن أبي لهب» لسعيه قتله؟ فقال: قتلك كلب الله! فخرج «محمد» يوماً في صحب له نزلوا علىٰ مَبْقَلَة «مكة»، وخرج «عتْبة» مستخفياً، فنزل في أقاصي أصحاب «محمد» ليقتله والناس لا يعلمون، فلما هجم الليل إذا أسد قبض علىٰ «عُتْبة» وأخرجه خارج الركب، ثم زأر زئيراً لم يبق أحد من الركب إلّا سمعه، ثم نطق بلسان طَلِق: هـٰذا «عُتْبة بن أبي لهب»، خرج مستخفياً يريد قتل «محمد»، ثم مزّقه قطعاً قطعاً ولم يأكل منه. فصدّقكم الناس وأنطلت القصة!

آه منك ومن صحبك يا «سلمان»...

أنظر أين بلغتم بنا؟ نعتّم قومنا بالكفر ووصمتموهم به، فصار الإطلاق الأشهر والأيسر: «كفار قريش»... ونحن والله ما كفرنا طرفة عين، وأنتم تعلمون هـٰذا جيداً، ولـٰكنها حرب تصادرون فيها وتغالطون. إنكم تعلمون بأننا لسنا كفاراً، ولم نكفر بالله قط... لـٰكننا لا نعرف الله كما تعرفونه أنتم، ولا نراه كما ترونه، أو كما تريدونه أن يكون:

ليس بجسم ولا عَرَض، لا جوارح له ولا أعضاء، لا يكون في محل، لا يحدّه زمان ولا مكان، لا يحويه ظرف ولا يحكمه حيث، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، يرىٰ ولا يُرىٰ، شيء ليس كمثله شيء.

ما هـٰذا الرب؟ كيف نعرفه ونهتدي إليه؟

أين هو ربكم هـٰذا، وأنتم تنفون أن يكون في السماء، إذ لا يحدّه مكان؟ إنكم تتقصّدون أن تعقّدوا الأمر وتخضعوه لتركّبات وفذلكات فلسفية ليستعصي علىٰ عقول «العرب» وبساطتهم! إنه في السماء يا «سلمان»، رب آلهتنا وآلهة آبائنا، تلك التي كسرها «علي» وحطّمها وأزاحها عن «الكعبة».

«الكعبة»، آه... إذا لم يكن جسماً، لماذا اتّخذ الله بيتاً يا «سلمان»؟

إنه هناك، في السماء، يتربع بعظمة علىٰ كرسيّه، ويكلل رأسه بتاج يحقر أمامه تاج «كسرىٰ»، وما يأتي قدره علىٰ جوهرة واحدة ترصّع ضلعاً فيه! وهو هناك، فوقنا في السماء، يستوي علىٰ عرشه. في السماء، لا يأتينا فينزل إلىٰ الأرض، ولا يخالط الناس إلّا غباً.

أتراك صدّقت ما جاء به «محمد» من أن العين واليد والساق وكل ما وُصِف به الله أو نسب إليه، بما يجسّمه ويصوّره ويحدّه، إشارات وكنايات وأستعارات ولغات، ومجاز يُعبّر عن قدرته وعلمه و..؟

إن لله عيناً يا «سلمان»، ولكنها ليست مثل عينك العمشاء، له عين كبيرة نجلاء، دعجاء الحدق وطفاء الأهداب، ينظر بها ما لا ننظر، وله يد لو شاء لسحق بها طاق «كسرىٰ» وهشّم إيوانه بخبطة واحدة، يد يبطش بها ويتناول ما لا نطال، وله ساق عظيمة، أعظم من أعمدة معابد «الرومان» المنتصبة في «الشام»، وهو لا يأتينا في الأرض رحمة بنا حتىٰ لا تتزلزل تحت أقدامه.

تريدون أن تسلبوا عن الله كل صفة تجسّده، لتجعلوا تلك الصفات والعظمة لملوككم، أو لـ «نبيكم»! أما تزعمون أن «محمداً» شاهد شهيد، يشهد حديثنا ويسمع ما يدور في مجلسنا وإن غاب شخصه؟

كم طالَبْنا «محمداً» أن يأتينا بآية مُعجزة وبرهان قاطع على نبوّته، غيّر ما تنادون به وتباهون من أنه الصادق الأمين الذي لم يكذب يوماً. لعمري، أبهذا يأتي «الأنبياء» وتثبت رسالات السماء؟ لأنه صادق في ما مضىٰ، وجب أن نصدّقه في ما أتىٰ؟! ونسلّم لقوله لو جاءنا وأدّعىٰ ما يجر النار إلىٰ قرصه ويصب في مصلحته، وزعم ما يتوّجه مَلِكاً علينا؟!

يريدوننا أن نؤمن كما آمن السفهاء؟...

هيهات، والله ما هي إلّا أساطير الأولين، وأنت أدرىٰ بهذا وأعرف يا «سلمان». نريد دليلاً وآية على أتصاله بهذا الرب الذي ليس كمثله شيء! آيةً مثل عصا «موسىٰ»، أو معجزةً تحيي الموتىٰ وتبرئ الأكمه والأبرص... فيُولينا صفحة إعراضه، لا يحفل بتحدٍّ ولا يأبه بقَوْل! ويزعم أننا مستكبرون معاندون، وأننا لن نؤمن أبداً ولو جاءنا بكل آية... وما يدريه بأننا لن نؤمن؟ هل شق عن قلوبنا وأطلع علىٰ أفئدتنا؟ لمجرد أن حاورناه في الأدلّة التي يقدمها وجادلناه ولم نقتنع بها، زعم أن الله قرر أن يصرفنا عن آياته، وصار يتلو: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾...

بلى، شقّ لنا القمر مرّة، حتى رأينا ـ والله ـ «حِراء» بين صدْعَيْه! كما أنطق الحصى لـ «مكرز العامري»، إذ ألتقط حصيات فسبّحن في يده.

ثم صمت الهازئ هنيئة وتفكّر، وعاد ليقول:

نعم، لست أُنكِر ما جرى على «الحارث بن عمرو الفهري»...

بلى والله، أشهد أنا كُنا جلوساً عند «محمد» إذ جاء ابن عمه «علي»، فاستقبله «النبي» قائلاً: "إن فيك شَبَهاً من «عيسى بن مريم»". فغضب «الحارث» وقال: إن «بني هاشم» يتوارثون، هرقلاً بعد هِرَقل! اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فقرأ «محمد» قرآناً يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم قال: "يا «عمرو»، إما تُبْتَ وإما رحَلْت"! فقال: يا «محمد» ما يتابعني قلبي على التوبة، ولـكن أرحل عنك.

فدعا براحلة فركبها، فلما صار بظهر «المدينة» أتته جندلة فرضت هامته.

ولـكن ما يدرينا، لعلّها صدفة عارِضة، والمنايا خبط عشواء... فوافق انصرافه من ذلك المجلس حركة صخرة طائشة، واقترنت لحظة خروجه بانطلاقتها من مكمنها، وساقه طالعه في طريقها لتصيب رأسه وتصرعه.

وقد يكون ذلك من سحر «بني هاشم»...!

أما أرسل جدّه الحجارة على أفيال «أبرهة» وأمطرها حتى هلَكت وفرّت؟ وكان الحجر يهوي على الرجل من جيشه فيصيب أم رأسه ويخرج من دبره، وإذا اسم كل رجل منقوش على الحجر الذي صرعه.

إنه سحر مستمر يؤثر، سحر يتوارثه «بنو هاشم»... يسلّطونه فيصرعون أعداءهم، ويسخّرونه فيظهر نوراً يشع في وجوههم ويسري من قَسَماتهم، وينبعث من خلال حديثهم، ما يخضع لهم القلوب ويذلّلها، فيقع حبهم في النفوس، بلا مال يبذلونه ولا عطايا يزجونها ولا هبات يغمرون بها.

أما وقد جاء بشراً مثلنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، رجل من سائر الناس، لا بيت له من زخرف، ولا جنان نضرة ولا أموال، ولم يكن ملَكاً ولا جاء معه ملَك، ولا هو يرقى في السماء ليأتينا بكتاب مدوّن نقرؤه...

نحن نريد آية يا «سليمان»، دعه يفجّر لنا الساعة من الأرض ينبوعاً، وإني أعاهدك أن أسلم صادقاً وأذعن، وأن يستقر الإيمان في قلبي، بل أعدك أن أثني مَن معي عن عدائكم، وأميل بهم إليكم...

إن «عيسى» كان يحيي الموتى، ونبيّك هذا يقتل الناس!

يقتلهم ثم يخاطبهم ويزعم أنهم يسمعونه! أما وقف على قتلى «قريش» في «بدر» وقد جمعهم في قليب ألقاهم فيه، وأخذ يناديهم بأسمائهم:

يا «عتبة بن ربيعة»، يا «أمية بن خلف»، يا «أبا جهل بن هشام»، وصار يعدد مَن كان معهم في القليب، حتى قال: "بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس. ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً" . فلما أعترضنا وأستنكرنا عليه فعله الغريب، وخاطبناه وصارحناه: يا «رسول الله»، أتنادي قوماً قد جيّفوا؟ ردّ علينا قائلاً: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم "!... كيف بالله يكون الميت أسمع من الحي، مَن له أن يقبل بهذا؟ والله ما رأينا العاقل الحصيف إلا يائساً من أصحاب القبور، ساخراً من إجابة الموتى، مستهزئاً من نداء الرمم وخطاب الأجداث... وأنتم تحدّثونهم وترجون منهم رداً، بل تزعمون أنكم تسمعون الجواب وتتلقون الرد؟

ثم تغيّر لحن «زقلل» وأنعطف ليجمع إلى سخريته ولجاجته غمزاً وطعناً، أعقبه بتلويح وإنذار ووعيد، وقد خلط ذلك بعضه ببعض، ومزجه حتى ضاع «موضوع» الحوار وأختلط محل النزاع، وما عادت ثمة وحدة تجمع شيئاً من أطراف حديثه... يقفز بين مطالبه ويتنقّل، يراوغ بين أجزائه مسرعاً تارة وفي أخرى يتمهّل، ويمضي في أداء لا تقف له على أساس جامع ولا حكمة بيّنة، اللهم إلا إرباك مخاطَبه، وتشتيت تركيزه وصرفه لينتهي به إلى حيث يريد من الإفحام والهزيمة، وما يشفي غليله.

من الواضح البيّن أنه حقد دفين مُضمَر، أظهره الله في تقلّب هاتيك الصفحات، وطيش تلك الفلَتات... فراح يقول:

والله لا أراك أنت ولا ابن الحليف العسيف (يريد «المقداد بن الأسود»)، ولا «ابن سمية» (يريد «عمار بن ياسر»)، ومَن على شاكِلتكم من الأرذلين إلّا موتورين من «قريش» ومنزلتها، تتحينون ما ينال من مكانتها بين العرب... بل أنت يا «سلمان» متحسّر وحاسد أن جاء النبي منّا لا منكم! فأنت تتعالى علينا يا «سلمان»، إنك تزدرينا نحن «العرب» وتنتقص من قدرنا، وترانا أعراباً متخلّفين، وأجلافاً جاهلين. لطالما شكَوْت وتباكيت على «غربة محمد» وجهل قومه به؟ وأن «العرب» آخر من كنت تتوقع أن يحضنوا خاتمة الرسالات السماوية، بل جعلتم قرآناً يزعم أننا ما كنّا لنؤمن به لو نزل عليكم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. وأن «محمداً» لو نزل بـ «الفُرس» وجاءهم بهذا الدين، لرفعوه على رؤوسهم، وما قبلوا بأقل من صفحات وجوههم موطئاً لقدمه. نعم، فأنتم أرباب علم ومدَنية وحضارة، ودُورٌ وقصور، ونحن بَدْوٌ رُحّل نفترش التراب ونلتحف السماء، فإن تنعّم منّا مرفّه وبطِرَ مترف، سكن الخيام وقطن بيوت الشعر! إننا متوحشون، نشرب الطَرْق ونقتات القِدَّ والوَرَق، ونأكل السحالي والضباب، أذلة يتخطّف بعضنا بعضاً... أليس الأمر كذلك يا «سلمان»؟! قُل فينا ما شئت وأنظر إلينا بالعين التي تريد، فما نحن أهل حرفة وصنعة، ولسنا أرباب نواضح وزراعة... نعم، نحن أجلاف! لا نضارع ولا نداهن ولا نحسن مواربة والتواءً، كما لا نعرف الحرب خنادق وحيلة!

عزّت «بنو شيبان»، إذ ظفرت بـ «أبرويز»، ومرّغوا أنوفكم معشر الأعاجم في «ذي قار»! ثم راح يزهو ويتمثّل بأبيات «بكير بن الأصم» شاعر «بني قيس بن ثعلبة»، وقد تملّكته حالة غريبة، تنم عن سريرة تتفجّر ودخيلة تستعر، فأنشد وكأن «ذي قار» وقعت غداة اليوم!:

هُمْ يومَ ذي قارٍ وقد خَمِسَ الوغَى
خَلَطُوا لُهَاماً جَحْفَلاً بلُهامِ
ضربوا بني الأحرارِ يومَ لَقُوهُمُ
بالمَشْرِفيِّ على صميم الهامِ

فديتك أيها «النعمان بن المنذر»...

إذ سُمْتَهم خسفاً وألبستم الصَّغَار أبداً ما داموا ودامت «العرب»، حين أنِفْتَ أن تصاهر «كسرىٰ» وتنكحه أختك، رغم أنك تابع له وعامل! فصددته ورددت علىٰ رسوله قائلاً: "أما في مَهَا السواد وعِينِ فارس، ما يبلغ به «كسرىٰ» حاجته حتىٰ يتخطّىٰ إلىٰ العربيات"؟ *

ثم ما أكتفيت يا «سلمان» حتىٰ دسَسْتَ أنفك في أخصّ شؤوننا وأشدّها حرمة علىٰ الغرباء، فصرتَ تخوض في أركان العرب وتصنّف الأرحاء والجماجم، وتعرّض بأنسابنا وتنال من مقاماتنا ومواقعنا بين بعضنا بعضاً، وليس ذلك لك ولا لِغَيْرك...!

ما لَكَ أنت وقول «أبي طالب» وشعره في «أُمية»؟

ما لَكَ أنت ومنازل «العرب» وطبقاتهم، مَن أنت لتميّز العالي من السافل، والرفيع عن الوضيع، والسني عن الدني؟

وكان «زقلل» يشير إلىٰ قصة كان الصحابة يتداولونها، يزعم أن «سلمان» هو الذي نقلها عن «علي»، وأنه وراء أنتشارها بين الأصحاب! وهي قصة خروج «النبي الأعظم» مع «علي» حين أراد أن يَعْرِضَ نفسه علىٰ قبائل «العرب». قال: خرج معنا «أبو بكر»، فدفعنا إلىٰ مجلس من مجالس «العرب»، فتقدّم «أبو بكر»، وكان نسّابة، فسلّم فردّوا عليه...

فقال: ممن القوم؟ فقالوا: «من ربيعة».

فقال: أمِنْ هاماتها أم من لهازمها؟ قالوا: بل من هاماتها العُظمىٰ.

فقال: من أي هاماتها العُظمىٰ أنتم؟ قالوا: «ذُهْلُ الأكبر».

قال: أفَمِنكم «عَوْفٌ» الذي يُقال له: «لا حُرَّ بوادي عَوْفٍ»؟ قالوا: لا.

---

* وقد دفع «النعمان» الثمن غالياً... إذ إنه ـ بعد ذلك ـ تخوّف «كسرىٰ» فخرج هارباً، حتىٰ ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، فبدا له أن يستسلم، ففعل، فحبسه «كسرىٰ» بـ «ساباط» المدائن، ثم أمر به فرُمي تحت أرجل الفيلة!

وكان «النعمان» قد مرّ في طريق أستسلامه بـ «بني شيبان» وأودعهم سلاحه وعياله. فلما تمكّن منه «كسرىٰ»، بعث إلىٰ «أبن مسعود الشيباني» وطالبه بتَرِكَة «النعمان» فأمتنع وأبىٰ أن يخفر الذمة، فكان ذلك السبب الذي أهاج حرب «ذي قار».

قال: أفَمِنكم «بِسْطام» ذو اللواء ومُنتهى الأحياء؟ قالوا: لا.

قال: أفَمِنكم «جسّاس بن مُرّة»، حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا.

قال: أفَمِنكم «الحَوْفَزان» قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا.

قال: أفَمِنكم «المزدَلف» صاحب العِمامةِ الفردة؟ قالوا: لا.

قال: أفأنتم أخوال الملوك من «كِندَة»؟ قالوا: لا.

قال: فلستم «ذُهلاً الأكبر»، أنتم «ذُهْلٌ الأصغر».

فَسَدَتِ الأجواء على «الدعوة»، وانزعج القوم وقهروا، لا يدرون ما يصنعون وكيف يردّون... حتى قام إليه غلام بَقَلَ وجهه (بلغ الحلم لتوّه)، يقال له «دَغْفَل بن حنظلة»، فقال:

إنّ على سائلنا أن نسألَهْ * والعِبْءُ لا تعرِفُهُ أو تحمِلُهْ

يا هذا، إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئاً... فمن الرجل أنت؟

قال: رجلٌ من «قريش».

قال: بخٍ بخٍ، أهل الشرف والرئاسة... فمن أي «قريش» أنت؟

قال: منْ «تيم بن مرّة».

فقال الفتى: أمْكَنْتَ والله الرامي من صفاء الثُّغْرَة!

أفَمِنكم «قُصي بن كلاب»، الذي جمع القبائل من «فِهْر»، وكان يُدعى «مُجمّعاً»؟ قال: لا.

قال: أفَمِنكم «هاشم» الذي هشم الثريد لقومه، ورجال «مكة» مسنتون عجاف؟ قال: لا.

قال: أفَمِنكم «شَيْبَةُ الحَمْدِ»، مُطْعِم طير السماء، الذي كأن في وجهه قمراً يضيء ليل الظلام الداجي؟ قال: لا.

قال: أفَمِن «المُفيضين» بالناس أنت؟ قال: لا.

قال: أفَمِن أهل «الندوة» أنت؟ قال: لا.

قال: أفَمِن أهل «الرفادة» أنت؟ قال: لا.

قال: أفَمِن أهل «الحجابة» أنت؟ قال: لا.

قال: أفَمِن أهل «السقاية» أنت؟ قال: لا.

قال: وٱجتذب «أبو بكر» زمام ناقته، وهمّ ليمضي...*

فقال له الغلام: صادف درءُ السيل درءاً يصدعه، أما والله لو ثَبَتَّ لأخبرتُك أنك من زمعات «قريش»، أو ما أنا بـ «دَغْفَل».

قال: فتبسّم «النبي»، وقال «علي» لـ «أبي بكر»: لقد وقعت من الأعرابي على باقعة، قال: أجل، إن لكل طامة طامة، وإن البلاء موكّل بالمنطق.

عاد «زقلل» ليستأنف قصفه المركّز، ويصب على «سلمان» وينفث من حممه المتأججة ما حرج به صدره، وراح يحكم طوقه ليحاصره، ويضيق عليه الخناق، وكأنه ما أراد لهذه الجولة أن تكون كمثيلاتها السابقات، فٱشتد في مِرائه وألدّ في حجاجه، ومن حوله ـ ينصرونه ويؤازرونه ـ وجوهٌ شاهت وقَبُحَت، فما كُنتَ ترىٰ في أحد بصيص خيْرٍ وأمل...

وقد بان لـ «سلمان» وٱنكشف، أن مُضي الرجل في التنقل بين المواضيع والقفز بين فقرات الحديث، لم يكن لقصوره وعجزه وتهافت دليله، أو لجهله وحماقته، بل من فرط ما كان يعتلج في صدره ويستوقد في جوفه... كان يغلي غيظاً فيجيش مرجل غضبه حتىٰ تجحظ عيناه وترتجف شفتاه! فيفقد توازنه وتطير منه شظية وتقع أخرىٰ، فلا تقر فورته ولا تسكن سَوْرته ولا تهدأ ضلوعه، إلّا بهذا الخبط والقحم.

---

* «المفيضون» هم الذين ينقلون الحجيج بين المشاعر، من «عرفات» إلىٰ «منىٰ»، مروراً بـ «المزدلفة»، لرمي الجمرات ونحر الأضاحي. وكان أمرها في حي من «مضر»، يقال لهم «صوفة»، ويُظن أنهم قوم من «بني سعد بن زيد مناة» من «تميم».

و«دار الندوة»: مكان ٱجتماع القوم لٱستطلاع الآراء وٱتخاذ القرارات الخطيرة، وقد أسسها «قصي بن كلاب». و«الرفادة»: شيء كانت «قريش» تترافد به في الجاهلية، فيُخرج كلٌ ما في وسعه من مال، يشترون به للحجاج طعاماً، وكانت الرفادة لـ «بني هاشم». و«الحجابة»: سدانة الكعبة وتولي حفظها، ومن ذلك حمل مفاتيحها، وكانت في «بني قصي». و«السقاية»: سقاية الحجيج، وكانت في «بني هاشم».

وعموماً فإن وظائف «الكعبة»، بيت الله الحرام، مجتمعة كانت لجد النبي «قصي بن كلاب ٱبن مُرّة»، سيد «قريش» في زمانه، وهو الخامس في سلسلة النسب الطاهر لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله، فهو: «محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب (شيبة الحمد) بن هاشم بن عبد مناف ٱبن قصي بن كلاب بن مُرّة».

وبعد أسباب الحقد والغيظ هذه، فإن حشد المطالب وتعبئتها وإردافها واحدة بعد أخرىٰ، ما كان لعرض فكرة منسجمة أو للآستدلال والآحتجاج، بل لمجرد أن يصرع خصمه ويفحمه:

ماذا تروم يا «أبا عبدالله»؟ أتريد أن تجعلها مَلَكِيَّة «كسروية»؟

ما هذا الأنصراف لـ «بني هاشم»، وإلىٰ «علي» خاصة؟

ثم ما هذه الخَلَوات المتواصلة واللقاءات المستمرة الممتدة، المحفوفة بالسر والخفر، بينك وبين «عمار بن ياسر» و«أبي ذر الغفاري» و«حذيفة بن اليمان» و«المقداد بن الأسود»، وهذا الفتىٰ الغر، «جابر بن عبدالله»، وآخرين من «شيعة علي» أنت أدرىٰ بهم! لماذا تنقطعون إلىٰ «علي» وتنفردون به؟ أتراكم تعدّون لتأسيس «حزب»، تجتمعون لتضعوا نواته الأُولىٰ؟ لماذا تخفون أمركم وتكتمون عنا أسراركم؟

إعلَم أنك غافل مستغرق مأخوذ، بل أنت مسحور يا «سلمان»!

ألا ترىٰ أنك تلخّص الدين وتختزله وتجمعه في ولاء هذا «البيت»؟

فنحن لا نراك تأتي علىٰ ذكر شيء من أحكام الدين وتعاليمه، ولا تتحدّث عن قِيَمِهِ ومفاهيمه، أو عن الأحداث التي تقع علينا والحوادث التي تنزل بنا أو تنتظرنا، بل حتىٰ ما ترويه لنا من القصص التي مرّت بك، والتاريخ الذي عشته أو بلغك من قومك أو ممن صحبتهم في عمرك المديد من معلميك... إلّا ربَطتَ ذلك بـ «علي» و«بني هاشم».

أمَا في غيْر «بني هاشم» من أفخاذ العرب وساداتها، وبيوتات «قريش» وعليتها، بهاليل وقماقم؟ أليس في غيْرهم مجدٌ يُعجِب وشرف يَجتذِب وكرم يَغلِب، ومنعة وشجاعة وإباء، أو أية أكرومة ومنقبة وعظمة تُمْتَدَح؟

أتظننا في غفلة يا «سلمان»، أم تحسبنا بُلْهاً بلداء؟

والله إنّ فينا لَمَن يباري فَهمُه سَمعَه، ويسبق قَلْبُه أُذُنَه، ويفهم من الإيماء قبل اللفظ، ومن النظر قبل الإيماء، وتكفيه اللمحة والإشارة... نحن مضرب الأمثال في الفطنة والدهاء، وفي غيْرنا البلادة والفدامة، فأين أنت يا هذا، وإلىٰ أين تأخذك الأفكار وتريد بك المذاهب؟

إننا نراقبكم عن كثب ونحن لكم بمرصد، ونعلم ما أنتم فاعلون، ولن تنطلي علينا الأجواء التي تخلقون... وأعلم، بأننا لن نكتفي برفض دينكم وإنكار عقيدتكم، ولن نقنع بمقاطعتكم فنعزف عن بضاعتكم الفاسدة المزجاة، ولن نكتفي بكتمان ديننا وإخفاء أمرنا، بل سنطوّقكم ونحاصركم ونعيدكم ـ تارة أخرى ـ إلى «شِعْب» جديد ونبقيكم فيه أبداً، ولن نسمح أن تنخدع «العرب» بأساطيركم وخرافاتكم. سنحاصركم ونذلّكم في عددكم حتى نحصّن «العرب» من ترّهاتكم.

أما المُلك والسلطان، فسنُخْليه لكم إلى أجل، إذ هو عائد إلينا بعد حين لن يطول... ولكن ما يعنينا الآن هو ما تبشّرون من دين، وما تنشرون من أفكار ومعتقدات، وما تأتون من أخبار الغيب التي تزعمون وتخترعون، وما تروّجون من أساطير الأوّلين التي تبتدعون.

لقد غلبكم الغرور فلم تحسبوا للأمر فتُعِدوا له عدّته، حتى في دعاواكم الفارغة، لم تحسنوا التأليف ولم تحكموا العقد وتُتْقِنوا الوصفة!... لم تأتوا بجديد في محتوى الرسالة وجوهر الدعوة، لا في فكرها وعمقها، ولا في لغتها ومفرداتها. إنها نفس ما سطّره الأوّلون ليُسَيْطِروا على أممهم، مستغلّين جهل الشعوب وتخلّفها، نفس تلك الأكاذيب والأساطير... خلعتم عليها أثواباً مُلْفِتة، وألبستموها حُللاً برّاقة، أغرت الفقراء بأموال الأغنياء، وجذبت العبيد ومنّتهم بالمساواة، وأطمَعَت الأسياد بمُلْكٍ ستخضع له الدنيا بأسرها، فتعلّقت كل طائفة بحبل، عسى أن يبلغ بها ما يحقق آمالها ويركبها «سفينة الأحلام» التي تقودون!

إن الخبر عندنا واليقين ما علمنا...

إنه أمر بيِّتت له «هاشم»... و«قريش» و«العرب» في غفلة!

لقد جمع «محمد» أقرباءه في الساعة الأولى، قبل أن يعلن بنوّته، وقبل أن يصدع بدعوته، فما أخبر أحداً من «قريش» حتى أجتمع بـ «هاشم» وكشف لهم عن أهدافه ووضع بين أيديهم خطّته ورسالته... لقد عرض على «بني عبدالمطلب» الوزارة والخلافة والإمرة من بعده، وبذل لهم الملك بذلاً.

"مَن منكم يؤازرني في هذا الأمر على أن يكون أخي ووزيري وخليفتي من بعدي"؟... هذا نص كلامه، هكذا أطلق الأمر وعرَضه. إنها نقولات تسرّبت فبلَغَتنا من داخل ذلك المحفل المحفوف والاجتماع السري، وهذه مدوّنات موثّقة ومؤكدة سجّلتها «قريش»، ولن تنساها من غرور «بني هاشم» وطَمَعِهِم، وإضمارهم الاستئثار وسعيهم للانفراد بكل شيء!

هل تريد أن أزيدك يا «سلمان»؟

أتعلم أن المجتمعين يومها سكتوا جميعاً وانعقدت ألسنتهم، ولم ينطق منهم إلّا «علي بن أبي طالب»، وهو بعدُ فتىً يصغرهم جميعاً، فنصبه «محمد» من فوره وزيراً وخليفة من بعده! وطلب منهم البيعة له على ذلك.

وعندما انكشف الأمر وافتُضح، كان يداريه تارة ويتجاهله دون أن ينكره، ويبرّئ نفسه أخرى، فيعزوه ويرجعه إلى أمر جاء به «الوحي» من ربه، حتى جعل له قرآناً مُنزلاً: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وأنتم اليوم جميعاً تتحركون في هذا السياق، وتمضون لتثبيت هذا الأمر: «ولاية علي». ونحن نعلم هذا، ونمضي - في المقابل - بكل ما أُوتينا من قوة وعزم لإبطال ذلك وإفشاله.

أتخال بأننا لا نعرف العروض التمثيلية التي تقومون بتأليفها وإعدادها ثم أدائها أمامنا يا «سلمان»؟ وكأن الأمور تمضي من تلقاء نفسها وتجري على سجيّتها، فتسأل أنت أو يسأل غيرك من «الشيعة»، ولربما أمعنتم في حَبْك الأداء وإتقان التمثيل، فجئتم بـ «أعرابي» يسأل «النبي» عن «ابن أبي طالب» أمامَنا وفي محضرنا، ليُجيب بمكرمة وفضيلة يخلعها على «ابن عمه»، فتسجّلها أنت وصحبك وتلحقوها بمدوّنات حزبكم العتيد؟

وما زلت تنسج وتلقي لتلبسنا وتلبس علينا...

إذ زعمت أن حب «علي» شجرةٌ أصلها في الجنة وأغصانها في الدنيا، مَن تعلّق بغُصن منها أخذَه فأوقَعَه في الجنة، وأن بُغضَه شجرةٌ أصلها في النار، تُوقع من يلزم شيئاً منها في النار! قاتلك الله أيها الأعجمي: أصلها في النار ولم تأت عليها النيران ولم تحرقها؟ أتسفّه عقولنا يا هذا؟

إنك من الأستخفاف بنا حتىٰ إنك لا تجهد أن تخلع علىٰ قصصك شيئاً من سبل الإقناع! أتراك صدّقت نفسك وحسبتنا أعراباً لُطَخ! لا نحسن إلّا الحدْوَ ورعي الإبل، وليس فينا مَن يكشف هـٰذه الألاعيب؟ حتىٰ أوغلت وتماديت وأسرفت، فصرت تشير إلىٰ فضائل ومناقب، تزعم أنك لو كشفتَها لأخذ الناس التراب من تحت أقدام «علي»، يتبركون به. فأنت تخبر، ولا تخبر في آنٍ، تزعم أن هناك مناقب، ثم لا تذكرها! أية حيلة هـٰذه يا «سلمان»؟ أن تهدد بقاصمة تزلزل وفادحة تدمّر، وأنت خالي الوفاض فارغ الجعبة، تراهن علىٰ هول سَيَدْخُلنا وعَجَبٍ سيتملّكُنا، فنخرع ونضرع ونستسلم بلا مؤونة منك ولا كلفة!

فإذا سألنا «محمداً» عن الأمر وشكونا إليه إفراطك وإغراقك وغلوّك في «علي»، أمضىٰ ما أنت عليه وأقرّك أنتصاراً لـ «أبن عمه» وصهره... أوَكان لأحَدٍ أن يدفع عن نفسه خيراً سيق إليه مجّاناً، أو مُزيحاً عن نفسه فضلاً يزيده عزاً وسؤدداً وجاهاً، كيف وقد قال إنه و«علي» نفس واحدة؟!

إيه أخا الفرس!... أتظن أن «قريشاً» تصبر علىٰ ما ترومون، وتطيق أن يؤول الملك بعد «محمد» إلىٰ «هاشمي» غيره، فيخلفه «أبن عمه» ويرثه؟ ولا سيما «علي» هـٰذا؟ ولو كنتم تمهدون لـ «العباس» أو تعدّون لغير «علي» لما هاجت «قريش» وأستُفزّت كما تهيج من «قتّال العرب» هـٰذا الذي أثخن فيهم ونكّل حتىٰ أرغمهم بسيفه؟ والله لا تجتمع النبوة والخلافة في بطن واحد من «قريش» ولو أطبقت السماء على الأرض.

أرفعوا «علياً» ما شئتم، وأنهضوا به ما أستطعتم، وعظّموه ما أمكنكم، وأخلعوا عليه وأجعلوا له من الفضائل والمناقب والقرب من أبن عمّه «النبي» ومن ربّه العلي، ما يملأ الخافقَين ويدهش الثقلَين... فهل هو إلّا خبر السماء، فماذا في السماء؟ نحن يا هـٰذا أبناء الأرض، منها وإليها، إننا ندب عليها ونمشي في مناكبها، نعلو ونهبط، نرحل ونقطن، فإذا حانت منايانا نُقِلنا إلىٰ جوفها ودُفنّا فيها، ولم نرَ بشراً أو نسمع عن إنس رقىٰ في السماء، اللهم إلّا «عيسىٰ النصارىٰ»، وما كان بشراً!

وبعد، فالبلاد بلادنا والديار موطن أجدادنا، إننا نهيمن على مُلْكِنا ونقف في أرضنا، ولا نعرف قانوناً يحكمنا وقوة تُخضعنا إلّا منها. قوة واقعية ملموسة محسوسة، بل مأثورة عن سلفنا، لا بدعة مفتعلة، ولا غيبية سماوية تنذر بأُخرى تكون بعد المات، تَعِدُ بجنانٍ وتتوعّد بنيران... إنما أخضَعَنا «محمدٌ» بالحديد لا بالوعيد، وتسلّط علينا بسحر، وبيان شاعرٍ ملَك القلوب وأخضع النفوس، وإن أخلينا له شيئاً فلكَي يملّكنا به «العرب»، ويعلو بنا عليهم، لا أن يعلونا هو، ويملّكنا «بني هاشم»!

دعوا عنكم واتركوا الأمرِ لأهله، فلا طاقة لكم بما ينتظركم، مما سيكون في غد قريب... وما «محمد» إلا بشر تقتله طعنة رمح، وتصرعه ضربة سيف، أو تودي به جرعة سم! وإن لم يكن هذا ولا ذاك فسيأتيه أجَلُه ويقضي لا محالة عليه، فماذا أنتم فاعلون بعده؟

ناشدتك الله يا «سلمان» أن تترك جديدك هذا...

فما كدنا نطيق ما تقولون وتفخرون وتباهون في «علي»، وما حسبْنا أننا سنفرغ مما تطرون وبما تَهْرِفون، حتى خرجت علينا تفتح باباً جديداً تزعمه «القربان»؟ باب جديد تجعل فيه لبني «علي» مقاماً وشأناً يرفعهم ويعلو بهم، لا على «قريش» و«العرب» فحسب، بل على البشرية جمعاء بما فيها الرسل والأنبياء! فتزعم أنه ضالة البشرية وغايتها مذ خلقها الله؟

أي «قربان» هذا الذي ما من نبي إلّا بكى عليه وسجد على تربته؟

أما أنكرتم علينا قرابيننا لآلهتنا التي كنتم تسفّهون يا «سلمان»؟ كم هزئتم وسخرتم من فعلنا، وأغلظتم القول وشددتم بأن القرابين لا تكون إلّا لله الواحد الأحد، دون الأصنام أو غيرها مما يقرِّب إليه زُلفى... فأطعناكم وامتنعنا. وما كنا لننقطع عنها وننصرف لولا ضغوطكم وقهركم وإرهابكم، وما كنا ـ والله ـ لنعبأ بها لو لم تجعلوا في ذلك قرآناً لا يسعنا أن نحيد عنه! ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ولعلّ المَلَك الذي يأتي ببعث السماء، هذا الذي تسمونه «جبريل»، ما كان لينقم علينا ويُعرض عنّا وينصرف إلى غيرنا، لو أنّا قرّبنا إليه! ولربما أنزل الرسالة وألقى الأمانة على رجل من القريتين عظيم! لعلّه بعث بالنبوة غير «محمد»... رجل يحفظ مقاماتنا، ويبقي على واقعنا الذي ترسّخ عبر قرون، ولا يأتينا بدين يساوي بين العبيد والأسياد، ويتزل «قريشاً» وينحدر بها حتى تكون كسائر «العرب».

دين يُسقطنا ويُزري بنا، ورجل يختطف سلطاننا ويستحوذ على مُلكِنا، ويستأثر بكل شيء لنفسه، فإذا انبسطت آمالنا وتعلّق رجانا بأنه «أبتر» لا خَلَفَ له ولا وَلَد، وأنها حقبة ستزول بموته، وسحابة صيف ستنجلي دون غيث... باغتنا وجعل نسله وذريته في أسباطه!

لا أدري يا «سلمان» ماذا فعلتم حتى انقطعت الملائكة إليكم دون «قريش»، وآثرتكم بصِلاتها دوننا؟! إنني أحدس السر في القرابين التي تقدّمون في الخفاء!... كم أسديتُ النصح لقومي وحذرتهم، فـ "لا يكرم بخيل"، علينا أن نبذل ونهدي ونضحّي، ولكنهم ما أطاعوني، ورأوا أن معاقد الأمر أعظم من أن تَتْبَعَ قرباناً يقدّم لِوثَنٍ، أو تؤخذَ بعطاءٍ يُبذل لكاهن، وانصرفوا في معالجات ما زالت تورثهم هزيمة وإخفاقاً!

أطعناكم وامتنعنا، فانفردتم بالأمر، تدبّرونه وتحيكونه كما تشاؤون! حتى جئتم تنادون بقربان أعظم وأضحية كبرى، ينتظرها الله منذ خلق الخلق وجاء بالبشر وبعث الأنبياء؟ بل أنت تمنّ علينا أن جئتنا - متفضّلاً ومتكرّماً - بخبر تراه أعظم بشارة لخلاص البشرية: ولادة «القربان» الذي سيتقبّله الرب ويرفعه إليه، فتنتهي محنة الإنسان وينقضي شقاؤه على هذه البسيطة، من بعد ذلك الحدث وتضحية «القربان» الأعظم؟!

ولا تنفك تطوّق قولك وتزين قصتك في تسمية «القربان» وتحديده، بديباجة زاخرة بالألقاب، وتلف بيانك بوشاح منمّق بكلمات العَظَمة، وتفرش له أفخر بساط من ألفاظ الجلال والقدس... كأنك في بلاط «كسرى»! ثم تعقد وتربط وتفذلك لتخبرنا أنه:

"السيد الزاهد والإمام العابد، الراكع الساجد، ولي المَلِكِ الماجد وقتيل الكافر الجاحد، زين المنابر والمساجد، نجل سيد البطحاء والحرمين، سليل خاتم الأنبياء رسول الثقلين، ريحانة الحبيب المصطفى من المصطفين، مهجة الفؤاد ونور العينين، خامس مَن في الكساء وثاني السبطين، مولانا ومولى الكونين أبوعبدالله الحسين".

قاتلك الله يا «سلمان»... من لقَّنك مُستَملَحُ السجع ومُستَعذَبُ النظم هذا، وأنت كليل اللسان ترتضخ لُكْنة تتعتع بها وتتلعثم؟ لعمري، لن يكون راص هذا البنيان المحكم ومجري هذا العذب السائغ، إلّا من «بني هاشم»، أرباب الفصاحة والبلاغة وسادة اللسان والبيان، كم يحسنون زخرف القول غروراً. ودع عنك الزعم أنك وجدت ذلك في قراطيسك، وما فككت من الأحاجي والألغاز وأنكشف لك من الأسرار التي فيها!

تعال يا «أبا عبدالله» وحدثني بما أفهم وتفهم، وحاورني بلغة آبائنا وأجدادنا، وعاملني ببضاعتنا وفاوضني عليها، وجادلني بالتي هي أقرب مني ومنك، ودع عنك ترهات السماء وأنباء الغيب وأضغاث الأحلام... فلا خبر جاء ولا وحي نزل.

إنني أعرف أمثالك جيداً، هذه النوادر المتميزة، والعباقرة التي لا تجد مثيلها، ولا يتكرر واحد منها بين آلاف الرجال...

لقد أُخبِرْتُ عنك، فصرت أعرف غرضك ومرامك، وأعرف أهدافك البعيدة، علام شددت الرحال وتغرّبت عن الأوطان، وقطعت الفيافي والوهاد وعانيت الجوع والفقر، ثم الرق والعبودية والإذلال، وأنت ابن سادة قومك وميسوريهم، ولعل فيكم الملوك والأُمراء؟ ولِمَ تريد أن تنتحل هذا الدين وتعتنق هذا المذهب، وتندس في هذه الأُمة، وتتخلل إلى قوم غيْر قومك وتدخل في غيْر ملّتك، فما رضيت حتى أدخلك «محمد» في «بني هاشم»، وصرت من «أهل بيته»!...

أعرف كل هذا جيداً، أُخبرتُ به ووقفت على أدلّته تامة، وأسبابه واضحة جليّة... فهلم إلى الحقيقة مباشرة.

لن تَقِرّ يا «سلمان» ولن يهنأ لك بال حتى توقد وتسجر في هذا «البيت» (يريد الكعبة)، وتقلبها مجوسية تعبد الشمس وتعظّم النيران! لن تنعم حتى يتقوّض عزّ قادم ينتظر «العرب»، ولن تسكن حتى يُؤَدّ مجد تليد تنبأت به رهبانكم، ما رأته «فارس» ولا جال لها في فكر، بل ستتضعضع تحت سنابك خيله قصور الأكاسرة ويتقوّض ملكهم.

أترى أن تدبيرك يخفى علينا، ونيّاتك لا تنشى؟ أتحسب أن أداءك يواري حقيقتك؟... حق لك، فكم هو متقن محكم.

أأغراك يا «سلمان» أن قرنَ النبي الصلوات بحركة الشمس، وجاء القرآن يأمر بذلك: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، فجعل المواقيت ثلاثة، لصلاة الفجر إذا بزغت، وللظهرين إذا انتصفت، وللعشاءين إذا غربت؟! آه، أنا أعلم كم طاب لك ذلك... أن تكون الشمس معكم! وأعلم كم كنت منتشياً وأنت تنظر حبس الشمس لـ «محمد» ورجوعها لـ «علي»؟ بالله أقِر بهذه يا «سلمان» واعترف... كم أنعشك الأنس وغلبتك النشوة؟

❁ ❁ ❁

كان «سلمان» قد اعتاد هذا الحشو واللغو والرغاء وألِفه من طبقة خاصة، هي حاشية «صناديد قريش» السابقين، وورثتهم، من أبنائهم وأعوانهم وعمّالهم، والعمدة في عمّالهم وأزلامهم هؤلاء!

ينفثون به بين فينة وأخرى، كفحيح الأفاعي، يعبّرون عما يجيش في صدور آبائهم وأسيادهم، ويعكسون أمانيهم وآمالهم، ويصورون ـ بطبيعة الحال ـ حقائق رؤاهم ومعتقداتهم، ويعرضون رسالتهم وخطّتهم المقابلة للإسلام وما جاء به «النبي» الأعظم. وكانوا يحرصون أن تكون هذه الجولات وتبقى في دائرتهم الخاصة، لا ينفتحون بها على المؤمنين إلّا في حالات استثنائية، حين يتعاطونها كقناة حوار سياسي تتبادل فيه الأطراف رسائلها، وكانوا يختارون لهذا «التبادل» واحداً من النخبة اللصيقة بـ «النبي» الأعظم، وكثيراً ما كان يقع اختيارهم على «سلمان» أو «ابن عباس».

ولكن هذا ليس دقيقاً تماماً، ولم يكن مطّرداً يمثّل قاعدة يلتزمونها بصرامة، فكثيراً ما كانوا يشطحون ويجنحون ويفلتون حين ينفعلون ويأخذهم الحماس، فيلقون ما لديهم أمام عامة الناس... ولعلّها لم تكن شطَحات وفلتات ومواقف أنفعالية، بل كانت حركات مدروسة ومقصودة، تمثل خطوات في جبهتهم الإعلامية ومعركتهم الثقافية: تزيل قبح الكفر من مسامع العامة، وتهوّن خَطْب إلقائه وتداوله، وتجرؤهم على الله ورسوله، والتمرّد على النظام والسلطة الآخذة في التشكّل والأرتكاز، ولا سيّما في أشخاص الرموز المقدسة للدين الجديد.

ورغم أن «سلمان» كان مَرِناً في تلقيه رسائل القوم التي كانت تُلقى في تلك الأجتماعات (المغلقة) وتتخلل تلك المجادلات (الخاصة)، وكان يلتزم بلوازم تظاهرهم بالإسلام وتلفّظهم ونطقهم بالشهادتين، ويدرج أقوالهم وأعمالهم ويحملها على هامش الحريات المكفولة، إذ لا إكراه في الدين. ويرى في فعل القوم وأدائهم شيئاً أشبه بـ «البرلمانات» و«منتديات الحوار». ذلك رغم كون النظام الإسلامي ما زال ناشئاً فتيّاً، لم ترسَ قواعده ولا أستقرت ركائزه ولا ثبتت مبانيه، ويرى في ذلك مسرباً للتنفيس عن الأحتقان الذي تجيش به الصدور، والغيظ الذي ملأ القلوب، والحقد والحسد الذي أوغَرها... مما ينذر بأنفجار قد يضر أكثر من إضرار هذا الأداء المنافق.

إلّا أنه في الأجتماعات الأخرى، التي كان يُلقي فيها القوم أباطيلهم ويكشفون ضلالاتهم ويفجّرون منكراتهم، في محضر عامة الناس، وعلى مسمع بعض المسلمين السذّج... كان «سلمان» ينزعج ويغضب، ويذهب في ذلك إلى الغاية ويبلغ النهاية، وما كان يطيق إلّا التصدي لهم ومواجهتهم بكل ما أُوتي من عزم وقوة. ولكن «سلمان» كان يحاصَر في هذه المساجلات والمناورات الشيطانية، فينعقد لسانه ويلجم، ويكل بيانه ويفحم. كان يؤخذ بهذا الكم الهائل من الخداع والمكر والزيف، فيذهل من مزيج الدهاء والخبث والحيلة، وتتملكه حيرة بعد حيرة، فيسقط مشلولاً كملدوغ تناوبت عليه العقارب وملسوع تناهشته الأفاعي.

كان يحار وهو يجول ببصره ويتَلَفّت يمنة ويسرة صوب كل متحدّث من القوم ليسمع أكاذيبه ويرصد مواطن التدليس فيها، ثم يرد ببيانه القاصر على تلك الأباطيل ويفضح وجوه الزيف، فلا يكاد ينقض شبهة ويدحض فرية، حتى تنفتح عليه أُخرى، وما إن يدنو ويقرب من كشف خبث سرائرهم وتعريتهم وهزيمتهم، حتى قفزوا على الموضع الذي بلغه النقاش، وفتحوا جبهة جديدة من الأفتراءات...

وما كان يعلم الصلاح في أي الأمرين:

أيقدّم في حواره مزيداً من فضائل «آل محمد» ومقاماتهم ومراتبهم، ويكشف عن دفائن الكنز ومكنوناته، فتذعن بعض النفوس وتؤمن، ويربط على القلوب المؤمنة ويثبّت فيها الولاء والعقائد الحقة، وفي الوقت نفسه، تنبهر أُخرى، ثم يُحجُّ ويبهت الذي كفر. أم يُعرِض عن ذلك حذر أن يقع العلم في غيْر محله، وتسقط هذه اللآلئ من أصدافها وتضيع سدىً، بل لعلّها تؤجج في قلوب القوم مزيداً من الغل والحسد، ومن الحنق والعداء، وتذكي فيهم الإحن والأحقاد، وتشحذ هممهم لمزيد من الحرب والتآمر والإرصاد والإرجاف؟

فيعود حيران يكتم آلامه ويغالب جراحه ويخفي علومه، اللهم إلّا ما يفيض بعد الأمتلاء، ويهدر من فرط الغليان... كحادثة «الجمل» الذي رآه يوماً، فأخذ يضربه! فقيل له: ما تريد من هذه البهيمة يا شيخ؟ قال: ما هذا بهيمة، ولكن هذا «عسكر بن كنعان» يا أعرابي! إنه شيطان من الجن، لا ينفق جملك ها هنا، ولكن أذهب به إلى «الحوأب»، فإنك تعطى ما تريد!

هكذا حتى يشرق بغُصّته، ويموت مرة بعد أُخرى مما يرى من ضياع الحق وغلَبة الباطل، فلا شرحٌ يسعفه مع السفهاء، ولا بيان يجدي ويثمر مع المعاندين، لا رد ينقذه ويخلّصه من مراوغاتهم، ولا دفاع يثنيهم ويردعهم عن شيطنتهم، ولا إخبار بغيب يخوّفهم... فيعود محزوناً كَمِداً سادِماً، يلجأ إلى خلوته، وينفرد بها، حذراً أن يُشغل «علياً» ويُحزِنه إذا أخبره، أو يثير باقي أصحابه ويزعجهم ويزيدهم كرباً بأخبار هذه المساجلات الظالمة.

لعمري، ماذا كان عسى «سلمان» أن يقول لهم لو أمكنته لغته وأنحلّت عقدة لسانه وزالت عُجمته؟ أتراهم سيفقهون من هذا العلم الأسمى شيئاً، ومن بينهم ربائب شياطين لقّنته ووجّهته، أو زرعته ودسته في هيئة البشر، فهل كانوا ليقنعوا ويكفّوا أذاهم؟ كيف لمثل «سلمان» أن يحاور تلك النفوس المريضة ويناظر هذه الأرواح الملوثة الشريرة، وبأية لغة يمكنه أن ينفذ في صدور حرجة ملأها الغيظ واللؤم، وأستولى عليها الجشع والحسد؟ فيواجه شيطنة غايتها الإغواء وهدفها الإضلال؟

كيف لماجد نبيل أنحدر من كريم محتد وأثيل منبت، في أرُومة قومه وذُؤابتهم، وأخيار بلده وسادتهم، تناطح همته السحب وتلاحق الطير في السماء، فلم تسمح له أن يقنع إلّا بالكمال... كيف له أن يحدّث ويحاور رعاعاً تداركهتم أعراق سوء ودسائس خسّة ووضاعة؟ أو يحاجج أباليس يغطّون في المكر والدهاء؟ يخلقون الخبث ويبثّون الفساد، ولا يحسنون إلّا الشر، ولا يريدون إلّا السوء؟ تعتلج العصبية في صدورهم حتى ضاقت وحرجت على أصغر الحقائق وأبسطها، وأستوطنت الحميّة، حمية الجاهلية، قلوبهم فأظلمت عن بصيص نور وطيف شعاع.

فإن أستطاع وتمكّن، ونهض من بين ركام إسفافهم، وقام يترفّع عن حضيض مرتبتهم وهابط سطحهم... فماذا عساه أن يقول عن هاجس طالما حداه للسعي والبحث حتى مَلَك زمام نفسه وهيمن عليها، فقاده إليهم وأنتهى به من أقاصي «فارس» إلى رحاب «يثرب»؟ وكيف سيشرح سر وَلَعِه برصد العلامات وملاحقة الإشارات، وفك الطلاسم وحلّ الألغاز؟ ولماذا أقتفى أثرها في أسفار مضنية ما كانت تفضي، وإن أفضت فإلى لبّ متاهة لا طائل منها. اللهم إلّا تصنيفها موارية طاش فيها السهم، وإدراجها في ما تم الفراغ منه، والتفرغ لما يأتي بعده!

أفي هذه اللغة ما يفهمه هؤلاء؟

هل في هذه العوالم موطئ قدم لهذه النماذج والأصناف؟

❀ ❀ ❀

وبينما كان الصحابة وعلى رأسهم «سلمان» منصرفين إلى همومهم هذه، منشغلين بما ورائها، من الحذر أن يتأثر مسلم دخل الإيمان قلبه، بمناورات هؤلاء المنافقين، وتنطلي عليه حركاتهم وتستحكم في نفسه شبهاتهم... في تلك الأثناء، كانت الجبهة الأخرى تتعهّد ناراً هادئة تُنضج دسيسة عُظمى، تشدّ لها حيازيمها وتشمّر لها عن يد وتحسر عن ساق...

كانت اللقاءات تتوالى والأجتماعات في أنعقاد دائم، لا ينفض...

كانوا يعدّون ويمهّدون ويوطّئون لما ينتقل بهم ويخرجهم من مرحلة منتديات الحوار وندوات المعارضة و«إرجافات المدينة» تلك، إلى وَضع ميثاق وإقامة حلف وتأسيس تنظيم حزبي متقدّم، يخلق تياراً جارفاً يتكفّل «بناء المعارضة»، بناء يلتقي أركان الحزب فيه حول قاسم مشترك واحد، ويأتلِفون حول خطّة وبرنامج متفق عليه، وينتهي عند غاية يتسالم عليها الجميع، وهدف يرتقبونه ويأملونه كأعزّ رجاء وأغلى أمنية :

إسقاط «بني هاشم».

كانت النخب السياسية المجتمعة، أدركت أن إرجافها في «المدينة» وإلقاءاتها وإضلالاتها قد آتت أكلها، وأن الساحة نضجت، وتجاوزت هذه المرحلة الأبتدائية من المعارضة، وأنها اليوم تتقبل، بل تتطلّب وتقتضي بلورة صيغة أكثر تقدماً وتطوراً وتنظيماً، صيغة تراعي الضرورة العملية، ويحكمها الفهم السياسي للواقع القرشي والعربي.

هكذا وُضع دستور هذا التيار، ودوّنت الأسس الفكرية وقُنّن لحركة سياسية متكاملة تنهض بخطّة إقصاء «بني هاشم»، وإحلال غيرهم الصدارة والزعامة، بآلية علمية مدروسة، وأساليب محكمة.

لقد غُزلَت الخيوط الأولى للخطّة التي حاكَت للأنقلاب على «النبي» و«أهل بيته»، (ومن ثم لقتل «القربان»)، في ظل تلك الجلسات والتجمّعات السرية، وعلى هامش تلك اللقاءات والمؤامرات الشيطانية... هناك وُضعت الخطة وأُعدّت الدسيسة وحيكت الغائلة، وأُخذت العهود وأُمضيت، ووُزّعت الأدوار والمسؤوليات، وقُسّمت - مقدماً - الغنائم والحصص!

كانت جذور «الشجرة الملعونة» بواقعها الخبيث المجتث، فلا قرار لها في العمق ولا استقرار على السطح، إذ كل فقرات خطابها وتفاصيله تؤذن للحكيم أنها إلى اضمحلال وانقضاء، وتؤكد للحصيف أنها إلى اندثار وزوال، ولا تحمل من المعاني والقيم ولا تختزن إلّا الأوهام والأكاذيب والاعتباريات، وما يصب في عبادة الشهوة وتأليه الطاغوت.

كانت جذور هذه «الشجرة» تدب وتزحف فوق سطح الأرض زحفاً، وتتقدم لتنتشر في كل اتجاه، تحيك خيوطها وحبائلها فتنصبها، وتنسج شباكها فتلقيها، وتخلع أثوابها على كل سوقة مغمور يتطلّع إلى شيء من المجد والشهرة، وتجتذب كل سافل وَضيع يحلم ببعض العز والشرف، وتنظّم في صفوفها كل منهوم على الدنيا متهالك على حطامها يؤخذ ببريق الذهب ورنين المال... تغريهم جميعاً وتشتريهم بالنسيء، بما ينتظرهم في المستقبل عندما تسقط دولة «محمد» وتنزوي «الولاية» عن عترته وآل بيته، وتؤول الأمور إلى حزبهم، وتتحقق خطّتهم الكبرى وتنفّذ.

وبعد «قريش» بكبيرها وصغيرها، ونشطاء شكّلوا نخبة سياسية واجتماعية ائتلفت وأجمعت وتعاهدت... ما كان ينقص الحركة إلّا توفير الزخم العددي، واستقطاب الرعاع والهمج، أتباع كل ناعق، ليشكلوا السواد ويحققوا «المد الجماهيري» ويؤمنوا لمشروعهم «الأكثرية» المطلوبة.

وما إن لوّحوا بأغراضهم وأهدافهم، حتى وجدوا ضالتهم بسهولة ويسر في كل صغير نفس دنيء، ما استقر الإيمان في قلبه حتى اعتراه الشك فالوهن والضعف، فأمالته أول نسمة ما خال أن تهب (وكأنه كان ينتظرها!)، حتى مالَ معها وهوى في تيارها وانجرف، وراح يعدو في وجهتها ويحلّق، ليلتحق بسربها الطائر، بل لينضم إلى هذا القطيع الناعق. انحدروا من كل حدب وصوب، وتقاطروا على «الشجرة الخبيثة» اجتماع الهوام على الجيف، بل القُراد على أدبار الدواب، ودخلوا في «الفئة الباغية»، وهم يخرجون من دين الله أفواجاً. وعندما نقل أحدهم هذا القول والتعبير فيهم، ردّ آخر: "والله ما دخلوا ليخرجوا"!

ولا غرابة ولا عجب، فهذا هو الوضع الطبيعي لأمّة حديثة عهد بالإسلام، كانت ما تزال قِيَم الجاهلية مُعاشة في ضمائرهم، مغروسة في نفوس أكثرهم... ولم يقوَ الواقع الجديد، ولم يستطع أن ينال من أصل مترسخ في نفوس «العرب» ينأىٰ بهم عن التدخل في:

«إمرة قريش»، أبناء «إسماعيل» وأهل «مكة» وسدَنَة «البيت العتيق».

و«أمر قريش»، فهو يختص بهم ويحسم بينهم.

بهذه الذهنية الدونية، وهذا النمط من التفكير والفهم القبلي والطبقي، أكتسح «المهاجرون» «الأنصار»، وتسيّدوا على أبناء البلد وأصحاب الدار، ومن تلك النماذج الغوغائية أو العامية، تكونت الأكثرية، وكانت الطبقة التي شكّلت فيما بعد ذراع السلطة، وسمحت للأنقلابيين ووفّرت لهم الفضاء الذي مارسوا فيه حركتهم ونفّذوا خطّتهم.

هكذا تشكّل حزب «الشجرة الخبيثة»، متبنّياً صيغة مُطوَّرة لمفهوم «سلطة قريش»، محتفظاً بما يختزنه هذا المفهوم ويحمله ويعنيه من جبروت «قريش» وخُيَلائها، مواكباً لمقتضيات مرحلة ما بعد أستقرار الدين والفراغ من ثبوت الهوية الجديدة للمجتمع المكي والمدَني والعربي ككل.

فقد أنتقلت الخطة إلى طورها الثاني ومرحلتها التالية، المرتكزة على تفتيت البيت من داخله عبر «حركة النفاق». ذلك بعد تهاوي المقاومة الخارجية (حركة الكفر) وأندحارها في عدّة حروب خاضتها ضد الدولة. ولا سيّما بعد فتح «مكة» وما عناه من نقلة نوعية وأنعطافة تاريخية، حين أصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وقد بدا واضحاً أن الساحة غدت تعيش طوراً مختلفاً وأنتقلت إلى واقع جديد... لذا رجحت (في حزب الشجرة الخبيثة) كفّة الجناح المنادي بالتغلغل في الجبهة الداخلية للإسلام، وتبوّء مواقع متصدِّرة ومتقدمة في دولته، والعمل من تلك المواقع، لتقويض النظام الإسلامي وإخراج الناس والعودة بهم إلى جاهليتهم الأولى... رجحت على كفّة الكتلة الأخرىٰ المنادية بالمواجهة المكشوفة والأستمرار في الحروب العلنية وتعبئة الجيوش وأستنهاض مَن لم يدخل في الإسلام من القبائل.

أنتصر تيار «النفاق» على دعاة «الكفر» البوّاح، وسقط خيار المواجهة العسكرية والحرب المعلنة، أمام خيار التخريب والحرب الخفية... فمضى المشروع يتقدم بإدارة وقيادة زمرة شريرة من أدهى دهاة العرب، وهيئة أستشارية تضم ثلة من كبار المنجّمين والكهنة والأحبار ومسخري الجان، بل في الزمرة بعض مردة الجن وعتاتهم! وبأهداف بعيدة المدىٰ تقوم وترتكز على التحريف والتزييف، لا تتخلّف في أي من مراحل عملها وأطوار المواجهة القادمة ولا تحيد عن هدفها الأول والآخر:

إقصاء «آل محمد» وإسقاطهم!

وكان لا بد لإتمام الصفقة وإنجاز الخطة من «الشراكة»، وتوزيع متوازن للغنائم المرتقبة وتقسيم مقنع للثروة والسلطة المرجوّة... و«الشراكة» ثقافة قرشية مترسخة وسُنّة معهودة جارية، سواء في خير «قريش» أو في شرّها. فالزعامة موزَّعة بين أقطابها: سقاية ورفادة وسدانة (شؤون البيت والحج)، وراية ولواء (للحروب والغزوات)، ومال وتجارة (كثروة وأقتصاد). وهكذا أزماتها لا تحل إلّا عبر هذه الآلية... فقضية نقل الحجر الأسود ـ على سبيل المثال ـ كانت تنذر بفتنة، لم تنطفئ إلّا بشراكة، وفي الحرب التي خاضتها «قريش» في صدر الدعوة دفاعاً عن كيانها وواقعها، وما أنتهى إليه قرارها بقتل «النبي»، أبوا فيه إلّا الشراكة، فأجتمعت سيوفهم، ولكن الله أنجى نبيه، وفداه «علي» حين بات في فراشه ليلة الهجرة إلى «يثرب».

من قيمهم الموروثة ووفقاً لثوابتهم «المقدسة»، أنطلقوا وخططوا للأنقلاب ووزعوا الأدوار وتقاسموا الحصص والغنائم... وكل ذلك في تنظيم محكم جمَعَهم في حزب «الشجرة الخبيثة».

وإذا كانت لهذا «الحزب» منطلقاته الكثيرة وأهدافه المتعددة، فإنه تميّز بألتقاء أركانه وأتفاق مؤسسيه على أمر واحد جامع، أُخذت عليه أشد العهود والمواثيق، وأُحكم عقده على أصلب قاعدة، فقُرر وأُمضي كأصل ثابت مطّرد لا يخضع لأي تغيير تفرضه أية ضرورة، ومهما تطلّبته الظروف والمستجدات التي «قد» تظهر في آتي الأيام.

فكأن هذا الأصل قد أندك في وجودهم، حتى تلازم أنتفاؤه مع فنائهم وأنعدامهم وتقوُّض بنيانهم، وقد عمدوا لآلية جعلته ينغرس في أصلابهم ليمتد ويبقى سارياً في ذراريهم والأجيال القادمة من أتباع «الحزب»... إنه أصل مناصبة «بني هاشم» و«آل محمد» العداء، ومنعهم أن يكونوا على البلاد ولاة وللناس أمراء وحكّاماً بأي ثمن.

* * *

كان الصراع بين «الشجرة الطيبة» حزب «بني هاشم»، وسمّه إن شئت «حزب الله»، وبين «الشجرة الخبيثة»، حزب «بني أمية»، «حزب الشيطان»، في السنوات الأخيرة من عمر «النبي» الأعظم قد أحتدم، والمواجهة بينهما قد تأجّجت وتصاعدت وأتسع نطاقها، وعندما بلغت الذروة، دفعت نحو أستقطاب حزبي شديد، وخلقت فرزاً طائفياً حاداً. وما لبثت هذه الحالة المتأزمة وما صاحبها من أجواء متشنّجة، أن أوجَدَت تكتلين واضحين متميزين في المجتمع المسلم: طائفة بمعالم الولاء للبيت النبوي والهاشمي، وأخرى بعداء صارخ يتهالك للنيل منه. وكانت رحى هذه الحرب تدور بضراوة في وقت واحد على عدة أصعدة وجبهات، ولا توفر وسيلة ولا فرصة... وقد أختلفت ـ بطبيعة الحال ـ أساليب الأداء ووسائله بين الحزبين وتفاوتت آلياتها في العمل، بشكل سافر وبَوْن فاحش في كثير من الأحيان والمواقع، مما ترك بالغ الأثر في تحقيق النتائج وتسجيل الأنتصارات.

فالصراع بين حزب مادي دنيوي، تنطبق عليه سمة «الميكيافيلية» بلا غضاضة ولا حَرَج، يحرّر الوسائل ويطلقها بلا كبح، فلا يستنكف عن شيء بشرف ولا يترفع بخُلُق، بل إن الأداء اللا أخلاقي ـ في نفسه ـ أمر ينسجم مع أدبيات «الحزب» وأهدافه غاية الأنسجام، ويشكّل رسالة وعرضاً يخدم خطّته بأمتياز، حين تخاض غمار الدعوة لقضية إسلامية (في ظاهرها) بأيدي مسلمين (في ظاهرهم)، بأدوات جاهلية وطرق مبتذلة، منسلخةً عن كل قيمة ومتحررةً من كل قيد... تكون قد عرضت النموذج المشوّه والصورة القبيحة التي يريدها «الحزب» لهذا الدين!

أما الحزب المقابل والمذهب الآخر، فلا يكاد ينفك من قيود الشرع في حدوده من حرامه ومكروهه، ويدخل مساحات الحلال والمباح، حتىٰ تحكمه أخلاقيات، وتضبطه كمالات، وتقيّده قِيَم، ويقوده نبل وسمو، فيتكرّم عن الدنيّة ويربأ بنفسه عن السفاسف، ويعف عن الشَّين، ويأنف من العار... وما زال يدور في هذا المدار، ويرفل بهذا الرداء، علىٰ مدىٰ تلك الحرب الشرسة وفي جميع مواقعها وأيامها.

وقد نزلت به ـ جرّاء ذلك ـ من الخسائر وتحمّل من الفاقات، وفَقَدَ بهذا الأداء «المثالي» الفريد، وأضاع ما لا يُحصىٰ من المواقع، وفرّط بمكاسب كانت في متناوله ومبذولة بين يديه. كما دفع أتباعه، في سبيل قِيَم الصدق والأمانة والشرف والإباء والعزة والكرامة والجود وما إلىٰ ذلك، مما لا وجود له في قاموس الطرف الآخر، دفعوا وبذلوا، من أغلىٰ الأثمان وأعزها، وهم علىٰ ذلك حتىٰ يومنا هذا! *

خسروا... ولكنك ـ في النتيجة ـ لا تجد فيهم مَن يُعاب بِمَنْقَصة أو دَنِيّة، ولا يُنال بمَذمّة، ولا تَرْهَقُه مَعَرّة، ولا يُرمىٰ بوَصْم، حتىٰ ما وجد أعداؤهم فيهم ما يؤاخَذُون عليه ويُعَيِّرون به إلّا «دعابة وبشاشة»!

---

* ضحّىٰ أميرالمؤمنين ﷺ ـ في واقع الأمر ـ بخلافته عندما أعرض بوجهه الكريم عن «عمرو بن العاص» وقد كشف عورته حين واجهه في «صفين»، فتخلّص بذلك من موت محتم ونجا، وراح يخطط ويدبّر ما قوّض به حكومة أميرالمؤمنين ﷺ ودعم ملك «بني أمية»، فاصطنع بدعة التحكيم وهيّأ لخروج «الخوارج»، وبالتالي قتل المولىٰ ﷺ!

وأبىٰ «مسلم بن عقيل» ﷺ أن يجهز علىٰ «عبيدالله بن زياد»، حين دخل دار «هاني بن عروة» يعود «شريك بن الأعور» في مرضه، لحديث سمعه عن «النبي» صلىٰ الله عليه وآله: "الإيمان قيد الفتك، ولا يفتكن مؤمن"، أي لا يغتال المؤمن عدوّه غيلة ولا يغدر به، بل يواجهه في الميدان أو يبارزه. فنجا «عبيدالله»، وقاد جيش «يزيد» لقتال «الحسين». ولو فعل «مسلم» لوطّأ لابن عمّه «الحسين» ولربما وقع ما غيّر مجرىٰ التاريخ!

وفي تلك المعركة (في كربلاء)، أنف «القاسم بن الحسن السبط» ﷺ وهو فتىً لم يبلغ الحلم، أن يحتفي في الميدان، فانحنىٰ ـ ﷺ ـ يسوّي شسع نعله، فضرب وقتل!

ولو لاحق باحث وتتبّع مواطن هذا النُبل وهذا الألتزام المكلف، ووقف علىٰ شيء من هذا السمو في سيرة «أهل البيت» وأتباعهم، لملأ كتباً ومجلّدات، وما أدىٰ حق الموضوع.

كان الصراع في بداياته وسنيه الأولى يخضع لمدٍّ وجزْر وطيٍّ ونشر، تظهر فيه القسوة وتحكمه الشدة تارةً، ثم تخبو وتسكُن طوراً... ففي حين بلَغَ ظهور العداء ونشر الحقد ذروته في معركة «أحد»، عندما كمنوا لـ «حمزة بن عبدالمطلب»، دون غيْره من رجالات المسلمين، وقتلوه بذلك الشكل الفجيع، ثم ما قامت به «هند بنت أبي سفيان» من المُثْلَة بجثمانه الطاهر ولَوْك كبده، تراه أنحدر في «فتح مكة» إلى أدنى مراتبه ودرجاته حين جعل «النبي» الأعظم من دار «أبي سفيان» مأمناً لكفار «قريش»، وأطلقهم جميعاً وعفاهم من القتل والجزاء الدنيوي. ولكنه عاد ليتصاعد بعض الشيء، بهامش معقول يحكمه ذاك النبل المحمدي، حين نفى «النبي» الأعظم «الحَكَم بن أبي العاص الأموي» وطرده من «المدينة» إلى «الطائف».

وفي حين تنتفي الحاجة في الجبهة السياسية والحرب الخفية للعُدَّة والسلاح، تكون التعبئة العددية ضرورة قصوى، لذا كان حشد الأنصار على أشده، وعمليات الدعوة وكسب الحلفاء، ومساعي أجتذاب مزيد من الداخلين وزيادة أعداد المنتظمين، على قدم وساق. لقاءات وأجتماعات، ندوات ومحاورات، وعود وإغراءات، بعوث ورسائل... القوم يفاوضون القبائل ويتّصلون بمبعوثي «الروم»، وينسّقون مع تجار «الشام»، ويعقدون الأحلاف، و«النبي» يبعث «علياً» إلى «اليمن» فيشيّع «همدان» كلّها!

أستنفار لتأمين الموارد المالية أستعداداً للجولات القادمة... تحريض سافر يمارسه المنافقون، معَلّلٌ بـ ﴿حتى ينفضّوا﴾ يصرف جملة ممن كان يبذل تملّقاً ورياءً. وقد كانوا في حيرة حتى حين، أي الطريقين يسلكون: البذل الذي يفتح لهم مزيداً من سبل التغلغل والتقرّب، أم المقاطعة المالية للتضييق على «النبي»، ومنع ألتفاف جملة من الفقراء والمعدمين حوله؟ في المقابل، لم يكتف «النبي» الأعظم بتخصيص أحد سهمي «خُمس» مداخيل المسلمين لـ «أهل بيته»، وفقاً لقرآن نزل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، حتى وهب أبنته «الزهراء» وأنحلها «فدكاً»، مستجيباً أيضاً لقرآن أمَرَهُ أن: ﴿ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

ومضى الأمر سجالاً، في غمار حرب شرسة توزّع فيها خبث «الشجرة الملعونة» على عدّة محاور، ومن خلال مجاميع مختلفة وفرق متعددة، اختصّ بعضها ببث الإشاعات وتوجيه الطعون وترويجها، وممارسة شتّى طرق التسقيط التشويه التي تنال من وجوه «أهل البيت» وأوليائهم، وأخرى تتحين الفرص في الحروب لتمارس دورها كطابور خامس، طائفة «تقعد» في «المدينة» وتتخلّف عن المعركة بأعذار أقبح من أفعالها، وأخرى تثبّط العزائم وتنشر الأخبار الموهنة، وتفشي الأسرار، وتتجسس لحساب العدو... حتى نزل قرآن يتهدد ويتوعد بنقل المعركة إلى العلن، واتخاذ ما يفضحهم ويعيد تصنيفهم وفقاً لواقعهم لا ظاهرهم، ثم النفي والطرد!: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإلى جانب أساليبهم المبتذلة وطرقهم الوضيعة التي عمدوا إليها بهدف المساس بهيبة «النبي» الأعظم والنيل من مقامه في النفوس، والتقليل من وقع شخصيته والحد من تأثير حضوره، كمخاطبته بسوقية، وندائه بجلافة، ورفع الأصوات عنده، وتعمّد مزاحمته وإشغال وقته... إلى جانب هذه وتلك، شكّل «التشكيك» واحداً من أكثر الأسلحة فتكاً، والجبهات سخونة وميداناً للمناورة، ولا سيما التشكيك بمستقبل الدولة والنظام الإسلامي بعد وفاة «النبي» صلى الله عليه وآله، وتصويره مجهولاً أشبه بمغامرة خطرة ومتاهة لا مخرج منها. ذلك لهدم كل ما يمكنه أن يساعد في تحديد الصورة ورسم معالم الاهتداء إلى الحق من بعده.

فما كان يأتيهم بحُكم ويأمرهم بأمر أو يطلب إليهم شيئاً، إلّا ردوا عليه وواجهوه: أمِن الله هذا أم منك؟! ورغم أن قرآناً قرر بأن النبي ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، إلّا أنهم كانوا مُصِرّين على التشكيك، متعمّدين بثه ونشره بين الناس، ليزرعوا فيهم الجرأة ويُذكوا نزعة التمرّد، فضلاً عما يتضمنه من وقاحة تصب في غرضهم الأول، أي المساس بقدس «النبي» وخدش هيبته.

و«النبي» الأعظم يسعهم بصدره الرحب، يتحمّل منهم ما يملأ نفسه حسرات، ولكن دون أن ينال من عمله، فقد كان ماضياً في خطوات متعاقبة وإجراءات مكثّفة، ترسم المستقبل بوضوح، وترسخ ولاية «علي» وتحدّد الطريق الذي فيه نجاة الدين والأمة... فما ترك فرصة ليشيد به ويعظّم أمره ويبيّن خطره إلّا أقتنصها ووظّفها، إلّا أن ذلك ما كان يجدي نفعاً أمام تصامم القوم وتعاميهم. كانوا يقفزون على مئات بل آلاف المواقف والبيانات التي كانت تهدي وترشد، بما يسع أي مُتحَرٍّ وباحث عن الحقيقة أن يلتقطه بسهولة، ويكتفي به حجة ودليلاً يدرأ أي شك أو شبهة، لكنهم كانوا يتغافلون ويعرضون.

كان «النبي» واضحاً في هدفه، صريحاً في نهجه، في التأكيد على شخصية «علي» وبيان فضائله، لم يكن بذلك يمنح الأوسمة ويخلع الكرامات فحسب، بل كان يوطّئ لمشروع «الإمامة» ويزرع بذرة «الولاية»...

وكما كان يتحيّن المناسبات التي تشير إلى أقتران «علي» به وتلازمهما، وفناء أحدهما في الآخر، كحديث «النفس الواحدة»، وأحداث «المؤاخاة» وتزويجه أبنته «الزهراء» وإعطائه الراية يوم «خيبر»، وهكذا ما يشير إلى أنه خليفته ووارثه، كأستخلافه على «المدينة» مقرناً ذلك بحديث «المنزلة»... كان يكرر: بأن «علياً» هو أحب الناس إليه، وأنه الأفضل والأعلم والأتقى والأشجع والأكرم والأقضى.

والقوم يديرون ظهورهم ويتجاهلون أقواله، ثم يتحركون لإبطال مفعول هذه التصريحات بين عامة المسلمين، عبر عمليات التشكيك.

كان حزب «الشجرة الخبيثة» يمارس التهريج الإعلامي ويجيد الإغواء والإضلال بأمتياز، ويتقن التلوّن والتقلّب، ويتفنن في أقتناص الفرص وأستعمال الوسائل وتوظيف الإمكانيات وأختيار الأهداف... يعرف من أين يأتي فريسته، ويجيد العزف على الوتر الذي يجمع الراقصين حوله ويطرب المتغنين، ويحسن أنتقاء البضاعة التي تلقى أكبر رواج وأوسع قبول في أسواق «قريش» وسائر «العرب».

وكان المحور الذي يعتمده «الحزب» في خلق الأجواء وتعبئتها، والفكرة التي يدور حولها خطابه ويحلّق في فلكها إعلامه، هي الغمز تجاه نزعة «عائلية» تتهدّد الإسلام، والتحذير من منحىً «وراثي» سيتملّك الدين... وهو أمر يبدو في ظاهره منطقياً ومعقولاً، ومنسجماً مع القيم والأخلاقيات التي نادىٰ بها الدين الجديد وحث عليها، رغم أن الواقع الأجتماعي ما كان يرىٰ في ذلك بأساً! فالوراثة في المهام الدينية كالنبوة والإمامة، وحتىٰ العرافة والكهانة والسدانة، كانت بمثابة بديهة، مألوفة لديهم، بل هي المفترض الأوّلي للأمر، فالأنبياء والأولياء لا يأتون إلّا من بيوتات محدّدة ومحصورة في نطاق واحد، يتوارثون المقام والمهام كابراً عن كابر، ولم يكن هٰذا الواقع المعهود المعروف، ليثير فيهم رفضاً أو أحتجاجاً... بل كان هو الفهم الطبيعي والوضع المتناسب مع التركيبة التي عليها مجتمعهم. ولٰكن حزب «الشجرة الخبيثة» أستطاع بوسائله الملتوية وطرقه الماكرة أن يغرس أستهجان هٰذا الأمر ورفضه، وأن يمكّن ذلك من نفوس الناس إلىٰ حد كبير... إذ نجح في أستغلال آفة نفسية وداء أستحكم في ذلك المجتمع، فقد أستطاع توظيف حسدٍ متأصّل قديم كانت تضمره «قريش» لـ «بني هاشم»، أستوقد ضلوع أبنائها بعد أن تلظّت منه أكباد الآباء، فهي متحيِّنة ما يُنزل ويحط من مقام «بني هاشم»، ويصرف بعض عزّهم إلىٰ غيرهم!

وكان «النبي» الأعظم يعاني أشد المعاناة وهو يواجه سلاح «التشكيك» هٰذا، ويكاد يقهر من هٰذا الدغل والمكر والختل. ورغم أنه عمد إلىٰ التصريح الذي لا يحمل أي سعة لتأويل أو مساحة للألتفات والتحايل، ورغم أن ربه سبحانه وتعالىٰ كان معه يعينه، وكثيراً ما أسعفه بقرآن يدعم موقفه ويعضد توجّهه ويقوّي عزمه... لٰكن ذلك كلّه كان يصطدم بمؤامرات القوم وتدبيرهم، ثم عنادهم وطغيانهم.

فقد توالىٰ القرآن الكريم بالنزول، فجاءت «هل أتىٰ» وآيات: «المودة»، و«التطهير»، و«الأعراف»، و«الصادقين»، و«الأصطفاء»، و«الأستخلاف»، و«سيجعل لهم الرحمٰن وداً»، و«الشجرة الطيبة»، و«طوبىٰ لهم وحسن

مآب»، و«الذين إن مكنّاهم في الأرض»، و«علامات وبالنجم هم يهتدون»، و«أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»، و«لكل قوم هاد»، و«شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»، و«يتلوه شاهد منه»، و«اسألوا أهل الذكر»، و«في بيوت أذن الله»، و«أوتوا العلم»، و«للمتقين إماماً»، و«الصديقون»، و«أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً»، و«الأذن الواعية»، و«خير البرية»، و«الراسخون في العلم»، و«الصراط الحميد»، و«العروة الوثقى»، و«قفوهم إنهم مسؤولون»، و«ثم لتُسألنّ يومئذ عن النعيم»، و«يؤثرون على أنفسهم»، و«كمشكاة فيها مصباح»، و«يهدون بالحق وبه يعدلون»، و«مرج البحرين يلتقيان»، و«سلام على إل ياسين»، و«رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»، و«يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً»، و«لتكونوا شهداء على الناس»، و«وأولي الأمر منكم»، و«يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله»...

وغيرها كثير، كلّها في فضل «علي» وولاية «آل محمد».

وقد عمد «النبي» إلى الآيات المتشابهة، فأحكمها بنص ينصب القرينة، وحديث يصرف المعنى إلى ما يريد، وما يريده الله في آياته الكريمة، وعضد ذلك بقول صريح يفسرها، ولربما لجأ أحياناً، حين كانت تضطره الظروف، أو لحِكْمَة لم يرد أن يكشفها ويفصح عنها، يلجأ إلى نقل المراد من الآية، ليجدها أهلها ـ بعد ذلك ـ في التأويل.

ظروف تحسسهم وتوترهم من ذِكْرِه وذِكْرِ «أهل بيته» بأي نحو!... كان يلاحظها «النبي» ويسجلها على أصحابه بمرارة، فقد غلبت الشقوة وتمكّن الحقد، حتى قرّعهم يوماً وزجرهم قائلاً:

" معاشر الناس، ما لي إذا ذُكر إبراهيم وآل إبراهيم استبشرت قلوبكم وتهلّلت وجوهكم، وإذا ذكِرت وأهل بيتي اشمأزت قلوبكم وكلحت وجوهكم كأنها يفقأ فيها حب الرمان! فوالذي بعثني بالحق نبياً لو أن رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبياً ثم لم يأت بولاية ولي الأمر من أهل بيتي ما قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً " !

ورغم هذا التصدّي المباشر والمواجهة العلنية الشديدة، التي تكررت في غيّر موضع وحادثة ومناسبة، إلّا أن «النبي» عليه وآله صلوات ربه، كان يأخذ في الحسبان الأجواء التي أختلقها القوم ويحسب لما أفتعلوه، وما كان ليهمل ذلك وقد بان أثر هذه الأجواء وتأثيرها واضحاً لا يُنكر، حتى فرضت نفسها على الساحة في «المدينة المنورة»، ولعلها تحكّمت في كثير من مفاصل الدعوة، وتدخلت في خطابها، وحكمت حركتها...

كانت حقيقة ماثلة يصعب تجاوزها وتجاهلها.

بل إن القرآن الكريم نفسه لاحظ هذا الواقع المر وأخذه في الحسبان، فأنت ـ على سبيل المثال ـ لا تجد في المصحف الشريف ذكر «آل محمد» مدوّناً في موارده، كآية «الأصطفاء»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾! فقد أكتفى بدخولهم في «آل إبراهيم»، إذ هم من تلك العترة، أو أنه كنّى بـ «آل عمران» لعلمه بأن التصريح بأسمهم الشريف في القرآن، سيورث موقفاً حاسماً ويخلّف نتائج خطيرة... فإن القوم لن يطيقوا هذا ولن يسمحوا به، وسيدفعهم ذلك لرفض القرآن أو تحريفه. في حين كانت إرادته عز وجل قد تعلّقت ببقاء كتابه الكريم مصاناً من التحريف وسالماً من الإنكار، نائياً عن الأختلاف ومترفّعاً عن الصراع، مُحْتَرماً عن أي أستخفاف ومُنزّهاً عن أي أعتراض... ذلك بما يحفظ للحق وأهل الحق الفضاء العام الذي يحتاجون، ويؤمّن لهم أسباب الأستمرار والبقاء، الذي ما كان ليكون لولا هذا النطاق الظاهر، ذلك حتى يحين أوان مُكْنته وظهوره الحقيقي وتجليه الكامل التام.

كان «النبي» يجاهد في أساليب دعوته ويرهق نفسه ويبخع فيَتَحَيَّن ما يقطع عليهم طريق إدانته بممالأة ومحاباة «آبن عمه» وصهره، ويبالغ في الحيطة والحذر من الطعن عليه وتشويه نزاهته وحياده، وتصيّد موارد تذكي الشعور بنزعته العائلية وميوله الرَّحِمِيَّة! فتتسمّم أفكار المسلمين بما يتهدد الدين وأصله... كان ـ عليه وآله الصلوات ـ ماضياً في هذا، معتمداً على جرعات «الولاية» التي كان يبثها بلا أنقطاع، مكتفياً بها، مؤجلاً الصدح الأخير...

حتى «باغته» الوحي وفاجأه! معظّماً ومتوعّداً، ومنذراً بضياع كل جهوده وجعلها كأنها لم تكن! إن هو لم يعلن الأمر ويظهره بها يقطع الطريق على كل مُتآمِر، ويجلي كل غموض، ويتم الحجة على كل متجاهل. وقد تكفّل الباري عز وجل - في المقابل - ما كان يحذره «النبي» الأعظم ويخشاه من «قريش»، وتعهّد أن يكفيَه الناس وأمرهم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾...

عندها بان ووضح أن الأمر يجب أن يأخذ وجهته النهائية، ويدخل مرحلته الأخيرة... هذا ما قرره «النبي» وعزم عليه وجزم، بعد محاورة ومشاورة طالت مع «جبريل»، ختمت بتلك الآية.

فلما أراد «النبي» الأعظم امتثال أمر ربه والبدء بالخطوات التنفيذية لهذا الأمر الخطير، اجتمع مع «علي» وخلا به يومه ذاك كلّه وليلته، وأطلّعه وعرّفه قول «جبريل» عن الله عز وجل، وبين له وشرح، وتدارس معه الأمر، وأعدّ له كما ينبغي، وتهيأ واستعد...

وكانت المفاجأة أن الخبر كان قد انتقل إلى «القوم» وبلغهم!

انتقل خبر هذه الخلوة، وتسرّب - من داخل بيت رسول الله - بعض ما دار بين «النبي» و«الوصي»... وفشا السر! فبلغ قادة حزب «الشجرة الخبيثة»، بل ما سرى وتسرّب إلا إليهم! فبادروا من فورهم، وعقدوا اجتماعاً طارئاً يتدارسون فيه الإجراءات الواجب اتخاذها أمام هذا الخطر الداهم.

وفي ذلك الاجتماع التاريخي، دار كلام كثير وترادفت خطب، وأجال القوم الرأي بينهم، وجعلوا كلّما قال أحدهم قولاً ردّه آخر ونقضه عليه، واحتد السجال واحتدم، وكثر اللغط والحشو، وكاد أمرهم أن يفسد عليهم... لولا أن انبرى «زقلل» وانتهرهم، وحثّهم على إنهاء الجدال وقطع النزاع، والانصراف عن كل شيء غير الخلوص لرأي واحد، ودفعهم نحو قرار ينقذ الوقت الذي يتسارع في غير صالحهم، ويسعف الوضع الذي ينذر بما يُفشِل جهودهم، ويقضي على وجودهم، ويحبط خطّتهم.

ضيّق على هذا وأسكته، وأفسح لذاك وأنطقه، ثم لفّق بين الآراء، جمع المتقارب وطرح المتنافر، أختصر المُسهَب ولخّص المُطوّل، فصّل الخطير وأوجز العارض والهامش... وهم يستجيبون ويمتثلون، ويطاوعونه كأولياء لا يملكون من دونه أمراً! وما لبثوا أن أستقروا وأجمعوا على رأي واحد، فقد قرروا التعديل في أحد أخطر بنود «المعاهدة».

و«المعاهدة» هي «الميثاق الثاني» الذي وضعوه في أوائل الدعوة، وفيه أمهات القضايا وكُليّاتها، إلى جانب بنود تبيّن موقفهم من «محمد» و«أهل بيته»، ومن الإسلام وكيفية مواجهته ومحاربته، ذلك بعد سقوط حصار «بني هاشم» في شعب «أبي طالب»، حين أتت «الأرَضَة» على عريضتهم و«ميثاقهم الأول» وهو رقعة معلّقة في جوف «الكعبة»...

وكان «الميثاق الثاني» صيغة أوسع وأشمل، وأكثر تطوراً وتفصيلاً، وقد ألتزموا العمل وفقه، وتعاهدوه بحرص ووفاء، وكان يخضع للإضافة والتعديل والتنقيح كلما أستجدت الظروف وأقتضت، دون أن تمس بنود محددة صنفت على أنها أُصول وثوابت... و«البند» الذي أختلفوا فيه ودب النزاع بينهم بسببه يتعلق بأمر قتل «النبي»، ويتناول كيفية تدبير ذلك.

فالتعديلات المقترحة تقضي بالمبادرة إلى أغتيال «النبي» والإجهاز عليه بأية وسيلة ممكنة وبأسرع وقت ومع أول فرصة سانحة... لقيت معارضة، إذ إن القتل بهذه الطريقة الأرتجالية سيثير الوضع ويهيّجه، ويقوده إلى ما لا يعلم وما قد لا يحمد عقباه، فلا يمكن التنبّؤ بما ستؤول وتنتهي إليه الأُمور إن قُتل «محمد» جهاراً. وأنفلات الزمام ينذر بإرباك الخطة وأنهيارها، في ضوء البنود الأُخرى التي ترسم الخطوات الأخيرة من العملية الأنقلابية التي يهدفون... وكان «بند الأغتيال» هذا من البنود التي تكرر تغييرها مراراً، وكثُر النزاع فيها والأختلاف عليها، وكانت الصيغة الأخيرة التي تم التوافق عليها، تقضي أن يكون الأغتيال والقتل بدس السم، فيضيع دمه ولا يعلم قاتله، وفي ظل الخطوات التالية المخطط لها، لن يتمكن «بنو هاشم» وصحابة «النبي» من التحرك للثأر، ولن يجرؤ أحد على توجيه التهمة للقتَلَة.

تغيّر هذا القرار وأستُبدل، ورجحت (بعد تدخلات «زقلل») كفّة الداعين إلى المبادرة بأستغلال أية فرصة تسنح لتنفيذ الأغتيال، وتجاوز الحذر من الأتهامات التي ستتوجه للحزب، أعتماداً على ما سيُداريها من تغطية، تصرف الأنظار وتقلب الأمور بما يخلّص الفاعلين ويبرّئهم.

والحق أنهم كانوا من العجلة والأرتباك بما لا يسمح بإطالة البحث في وسائل مدارة الجريمة وتوفير ما يغطّيها، وكأن خبر قرار «النبي» وعزمه أخذ البيعة لـ «علي» أفقدهم توازنهم وأخرجهم من حيطتهم!

في المقابل، وضع «رسول الله» خطّته...

فقد وقع أختياره على زمان ومكان إعلان الخبر وأخذ البيعة. وأنجز المقدمات اللازمة لذلك وأنهى حساباته، وهيأ اللواحق والتوابع التي ستلي الحدث وتعقبه، فدبّر أن يعقد راية لـ «أسامة بن زيد» مولاه، ويندبه للخروج إلى الوجه الذي قتل فيه أبوه من بلاد «الروم»، ذلك لإخلاء «المدينة» ممن كان يخشى أن يتوثب على الأمر ويفسده، من «المنافقين» و«الطلقاء» و«المؤلفة» و«مرضى القلوب»، ويلحق بهم أركان حزب «الشجرة الخبيثة»، يجمعهم جميعاً تحت راية «أسامة»، وأن يشدد على هذه التعبئة ويغلّظ على الألتحاق بهذا البعث، حتى يلعن مَن يتخلّف عن جيش «أسامة»...

كان ـ عليه وآله صلوات ربه ـ قد أعد لكل شيء وحسب، حتى كان الثامن عشر من ذي الحجة، وهم رجوع من «حجة الوداع»، فأوقف الجموع في غدير «خم»، وحبس أغلب الحجاج عن الأفتراق إلى أوطانهم، وخطب فيهم، فأعلن نصبه «علياً» إماماً وخليفة وولياً من بعده، ثم باشر بأخذ البيعة لـ «علي» حتى تمت وأنعقدت في أعناق الجميع، وأنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾.

وفي تلك الأجواء المشحونة المتشنجة، وكلمات القوم تتطاير من هنا وهناك:

' أرأيتم ما فعل اليوم بأبن عمه؟ لو قدر أن يصيّره نبياً بعده لفعل ' !

' تشطّروها يا بني عبدالمطلب، محمد يحلب من النبوة وعلي من الإمامة ' !...

وكأنهم بوغتوا وأُخذوا على حين غرة، فما كانوا يحسبون أن يبادر «النبي» بإمضاء عزمه وتنفيذ خطّته وأخذ البيعة لـ «علي» في هذا الموضع والظرف «الغريب»، وهو بعد في الطريق! وفي مجمع من عامة المسلمين ومشهد وفود الحجيج، إذ كانوا ينتظرون أن يكون الأمر حين يبلغون «المدينة»...

عندها، قرر قادة «الشجرة الملعونة» الذين كانوا حاضرين في الحدث ومشاركين في المبايعة الغديرية، وقد صعقهم الحدث وأستشعروا ضرورة المبادرة وخافوا خطر الفوت، أن يتّخذوا قراراً ميدانياً سريعاً. فعزموا على تنفيذ الأغتيال في الطريق وعدم أنتظار العودة للوطن وبلوغ «المدينة»... كَرَدٍّ من «العيار» والوزن نفسه! إذاً... فـ «النبي» الذي عاجَلَهم بخطوته الأستباقية، وباغَتَهم بحركته وهو في الطريق، يريد أن يبتسرهم ويُخْدج حلهم ويسقطه... سيلقَى حتفه «في الطريق»، قبل أن يبلغ وطنه ومأمنه، وسيُباغَت هو ـ بدوره ـ ويؤخذ من حيث لا يحذر!

وما كانت الظروف تسمح بأنتداب شخص أو فريق وتكليفه أن يباشر التنفيذ، لذا تقرر أن ينهض بالأمر ثلّة من قادة «الحزب» أنفسهم! وكانوا أربعة عشر رجلاً، تسعة من «قريش»، وخمسة من سائر الناس...

وكان «رسول الله» قد سار يومه وليلته، حتى أشرف على «هَرْشى»...

وهي عقبة يقطعها المصعدون من حجّاج «المدينة»، وينصبّون فيها صادرين من «مكة» حين يفرغون من حجّهم، وهي حَرَّة (أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار) قريبة من «الجحفة»، والعقبة شديدة الأنحدار إلى الجنوب، أما في الشمال فهي تظهر في نجد مستو.

تكتنف «هَرْشى» ثنيتان، تسمّى الكبرى: ثنية «هَرْشى»، وتأخذها الركائب والقوافل كطريق رئيس عام، بينما تسمّى الأُخرى «هريشاء»، ولا يأخذها، لضيقها ووعورتها، إلا الراجل أو خفاف المطايا، والطريقان تفيضان إلى مكان واحد. حتى غدت مثلاً:

خذا بطن هَرْشى أو قَفَاها فإنما
كلا جانبي هَرْشى لهن طريق

وعندما بلغ الركب النبوي عقبة «هَرْشى» هذه، أنفصل المتآمرون وتقدّموا «النبي» حتى بلغوا من «هريشاء» موضعاً قطعوه وآرتقوا أعلاه، فصاروا يشرفون على عقبة «هَرْشى» والمسير الذي سيسلكه الركب... وقد آحتملوا معهم وهيأوا دِباباً طرحوا فيها حجارة، وكمنوا ينتظرون مرور «النبي» الأعظم ليدحرجوها عليه، فيسقط عن راحلته، فيتقدموا متسترين بالظلام ويتناوشوه بسيوفهم!

كان «النبي» عليه وآله صلوات ربه، قد لاحظ خطواتهم الغريبة، وآرتاب في تحركاتهم المشبوهة، ولعلّه تجاوز الظاهر ووظّف علمه بالغيب وآطّلاعه على الحقيقة والواقع، فالظرف من الحساسية والقضية من الخطورة ما يسمح، بل يستدعي هذا التجاوز وخرق الأسباب الطبيعية... فنادى، وهم بعدُ في الركب، وأعلن بعالي صوته، وكرر أصحابه النداء وأذاعوه حتى بلغ كل مَن معه، ومنهم ـ بطبيعة الحال ـ المتآمرون:

بأن لا يستبق الركب، ولا يتقدّمن علينا أحد!

فتجاهلوا النداء ولم يستجيبوا للأمر، ولكنهم آضطربوا بعض الشيء وتلكأوا وكادوا أن ينثنوا، وراحوا يتدارسون الأمر بينهم في عجالة: هل علم «النبي» بنيّتهم؟ هل كشف الخطة، وهذه خطوات أمنيّة ومقدمة إجراءات يتخذها لإفشال مؤامرتهم وإبطال تدبيرهم؟

عاد «زقلل» ليتدخل ويقطع التّرديد والتّزاع ويشحذ العزائم:

"إن كان ما تقولون وتخشون حقيقة، فهي أدعى للإقدام والمضي، إذ علينا أن نفتك به قبل أن يفعل هو بنا قصاصاً وعقاباً، وإن لم يكن قد علم، فنحن على ما نحن عليه".

عندها، وكأنه ـ عليه وآله صلوات ربه ـ قرر مقابلة ما يريدون ومواجهة أغراضهم المبيتة ونياتهم الخبيثة، وعزم على التصدي للمؤامرة، ودخل في ذلك مرحلة الإجراءات والخطوات التنفيذية المباشرة... دعا «حذيفة بن اليمان» وسلّمه زمام ناقته ليقودها، ودعا «عمار بن ياسر» وأمره أن يسوقها، فكانا كخفيرين وحارسين شخصيين لـ «النبي» الأعظم.

ومضى في طريقه، يتقدّم بحيطة وحذر، فلما بلغ الموضع الذي كمن له فيه القوم... علت أصوات مرعبة كأنها صيحات جن، وساد فزع أشل الركب! ثم تلاحقت على «النبي» الأعظم الدباب تتدحرج بين قوائم ناقته، ففزعت الناقة وكادت أن تنفر، فصاح بها «النبي» الأعظم:

" أسكني يا مباركة، فليس عليك بأس ".

عندها سمع «عمار» و«حذيفة»، وبعض من كان يقرب منهم، سمعوا ناقة «النبي» الأعظم تنطق بلسان طلق ذلق: " والله يا رسول الله، صلى الله عليك، ما زالت يد عن يد، ولا رجل عن رجل، وأنت على ظهري " !

فلما رأى القوم أن الناقة لا تنفر، و«النبي» لا يسقط، تركوا مواضعهم وانحدروا إليها يَعْدُون مسرعين ليدفعوها بأيديهم ويُسقطوا عنها «النبي» ثم يجهزوا عليه، فجعل «حذيفة» ومعه «عمار» يلوّح كل بسيفه ويضرب في الظلام، عسى أن يصيب وينأش من يقع في طريقه.

وكانت الليلة آخر الظُّلَم وأوّل الحنادس بعد انقضاء الدُّرَع، أو التي قبلها، فقد كانت حالكة، حتى ما يكاد المرء يبصر كفّه*...

وقد اشتد ضرب الصحابيين الجليلين وهياجهما، حتى خشي المتآمرون ودب فيهم الخرع وغلبهم الجبن، فانسحبوا وتأخروا متراجعين، وقد رأوا أن عمليتهم خسرت عنصر المباغتة، وأن «النبي» كان يعلم بها، وقد احتاط لها وأخذ حذره، ونظّم الحماية الكافية... فلن يتم الأمر كما أرادوا، بل إنهم سيفتضحون ويكشفون، فعادوا إلى مواضعهم وقد أيسوا مما دبّروا.

وفي غمرة هيجان الركب واضطرابه، بادر جمع من «الهواشم» و«الصحابة» وتحركوا مستنفرين، حتى أحاطوا بـ «النبي» الأعظم وحفّوا به، فتأمّن الموقف واستقر، وخرج من دائرة الخوف والفوضى...

---

* الليالي الدُّرَع والدُّرَع: الثلاث التي تلي البيض، سُمّيت درعاً لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها، وهي السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة.

والثلاث التي يلين «الدُّرَع» وتأتي بعدها تسمّى «الظُّلَم»، وبعد الظُّلَم تأتي ثلاث تسمّى «الحنادس» جمع حِنْدِس.

وقال «حذيفة»: يا «رسول الله»، ألا تبعث إليهم رهطاً من أصحابك يأتوك برؤوسهم؟

فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ: "إني أكره أن يقول الناس: دعا قوماً إلى دينه، فأجابوه فقاتل بهم، حتى ظفر بعدوّه، قتلهم!" ...

عاد «حذيفة» وسأله: "من كان هؤلاء يا «رسول الله»"؟

أخذ «النبي» الأعظم يعدّدهم ويعرّفهم بأسمائهم واحداً واحداً، حتى عرفهم «حذيفة» جميعاً... ثم قال ـ صلى الله عليه وآله ـ:

"يا حذيفة، أتحب أن أريك الذين سمّيتُم بأشخاصهم"؟

قال: "نعم، فداك أبي وأمي".

قال: "أرفع رأسك إلى القوم"...

رفع «حذيفة» طرفه نحوهم، وهم بعد فوق الثنية، وقد دعا «النبي» الأعظم، فبرقت السماء برقة أضاء لها ما كان، حتى كأنها شمس، فنظر «حذيفة» إلى القوم وعرفهم رجلاً رجلاً كما سمّاهم «رسول الله».

ثم مضى «النبي» ومَن معه حتى خرجوا من «العقبة»، فنزل وتوضأ وأنتظر أصحابه. حتى نزلوا وأجتمعوا لصلاة الصبح، وفيهم القوم، وقد دخلوا مع «رسول الله» إلى الصلاة!

فلما أنفتل ـ عليه وآله صلوات ربه ـ من صلاته، ألتفت إليهم وصار يستجوبهم ويحقق معهم ويواجههم بفعلتهم، وإن أنكروا أمر الدباب ونفضوا جيوبهم من أمر نفر الناقة ودفعها، لكنهم لم يجدوا لإنكار تقدّمهم على الركب من سبيل، فأخذ كل يبرر ويجد لنفسه عذراً...

هذا يزعم أنه أمتثل أمر «النبي» في المؤاخاة بينه وبين صاحبه فلحقه لما تقدّم! وذاك يزعم أنه أراد أن يأنس بصاحبه فما أستطاع أن ينفصل عنه، وثالث يقول إن صاحبه أستنهضه ورجاه ألا يتركه وحيداً في هذا الليل... بينما صاحب كل منهم يرجعها ويلقيها عليه، ويقول إنه هو الذي دعاه ورجاه وأستنهضه للتقدّم... وآخرون زعموا أنهم رأوا أن الطريق ضاقت بالركب، فتقدّموا ليفسحوا فيها!

وبعد أن سمع أقوالهم وأفسح لهم للدفاع عن أنفسهم وتبرير خزيهم وعارهم، أصدر «النبي» الأعظم جملة من الأحكام والقرارات، بعضها أمنية ميدانية، وبعضها الآخر معنوية روحية...

فتوجه إلى المتآمرين، وراح «يخلع» عليهم إلى أبد الدهر:

أما أنتما، يا ــــــ و ــــــ ، فتنحّيا وغيّبا وجهيكما عني.

أما أنت يا ــــــ فجيفة على الصراط يطأك المنافقون بأقدامهم.

وأما أنت يا ــــــ فما نقي قلبك للإسلام، والإسلام بريء منك.

أما أنت يا ــــــ فقد خسرت الدنيا والآخرة.

وأما أنت يا ــــــ فرأس المنافقين، وأما إسلامك فكان هزواً، فأبشر فإن مسكنك جهنّم.

ثم أعلنت «حالة الطوارئ»، وأصدر «النبي» الأعظم سلسلة أوامر وتعليمات، وكأنه يفرض فيها «الأحكام العرفية»، فحظّر التجوّل ومنع التجمّع! وأمر منادياً ينادي: لا يجتمع ثلاثة نفر من الناس، ولا يتناجى أحد فَيُسِرّ لصاحبه ما لا يعلم بقية المسلمين!

على هذا تحرك الركب ومضى حتى وصلوا «المدينة المنورة»...

❁ ❁ ❁

ولكن، هل كانت تلك الإجراءات الطارئة، أو حتى ما سبقها من أخذ البيعة وتوثيق العهد لـ «أميرالمؤمنين»، لتجدي نفعاً مع أُناس عبّر قائلهم وأفصح فنطق بما يضمر البقية وقال:

" والله ما طلعت شمس على أهل بيت أبغض إليّ من «بني هاشم»، ولا في «بني هاشم» أحد أبغض إليّ من «علي بن أبي طالب» " !؟

هل كانت الخطوات الحاسمة الأخيرة، وتلك العظيمة الكبيرة التي اتخذها «النبي» الأعظم على مدى مسيرته وطوال حياته، ليثبّت من خلالها أمر «الولاية» ويجمعه مع «ظهور» الإسلام وثبات النبوة... هل كانت تلك الخطوات قادرة على مواجهة مساعي القوم وإفشال خطّتهم وإبطال مؤامرتهم، بعد الذي قطعوه وأنجزوه؟

كانت الحرب قد دخلت طورها النهائي وفصلها الأخير، وقطعت الجولات والمعارك الأخطر التي رسمت نهايتها وحدّدت مستقبلها، ووطّأت لأمتصاص زخم أية مناورات أخيرة قد يلجأ إليها الحزب «المحمدي العلوي»، ولم تكن خطوة أخذ البيعة في «الغدير» لتعني أكثر من إرباكٍ طارئ، وهزة عارضة لا تلبث أن تَقِر أمام ما أضمروه وأعدّوه ودبّروه!

لقد ألقى «اليهود» بكل ثقلهم وراء «قريش»، وبذلوا غاية جهدهم، ودعموها دعماً خرافياً، مثّل بعض ما تفجّر من حسدهم وحقدهم وأنتقامهم لما أصابهم ونزل بهم لخروج النبوة من «بني إسرائيل»، فما جن جنونهم لشيء مثل هذا، حتى علموا أن الأمر بعد النبوة، إمامة وولاية... و«قربان»! وهي ماضية في «بني هاشم»، نائية عن «بني إسرائيل»!

ورغم الرؤى النبوية، والقرآن الذي توالى في بيان الخطر الداهم لحزب المعارضة، وفضح مؤامراتهم، سواء في كشف أمر «الميثاق» الذي تعاهدوه ودفنوه في جوف «الكعبة»، إذ أنزل فيه الباري عز وجل:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾. وقد توجّه «النبي» الأعظم للمنافق الذي كلّفه القوم بإخفاء العريضة ـ «الميثاق» ودفنها في جوف «الكعبة»، وخاطبه مباشرة قائلاً:

"بخ بخ لك يا ــــــ، من مثلُك وقد أصبحت أمين قوم في هذه الأمة على باطلهم"، ثم تلا ـ صلى الله عليه وآله ـ الآية، وعقّب قائلاً: "ولقد أصبح نفر من أصحابي ما هم في فعلهم بدُون مشركي «قريش» لما كتبوا صحيفتهم وعلّقوها في «الكعبة»، ولولا أن الله أمرني بالإعراض عنهم لأمرٍ هم بالغيه، لقدّمتهم وضربت أعناقهم"!

أو في غيره من الحوادث، كما أنزل تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾، وقد لحق ذلك مباشرة: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾...

هكذا كانت تأتي النقاط وتأخذ مواضعها على الحروف، وتكتمل الصورة وتنكشف الحقيقة المُرّة، بأن ذلك النهي والزجر والتهديد والوعيد لن يجدي نفعاً، وأن المؤامرة ستمضي في طريقها التي أرادها لها «إبليس»، ونفّذها أبناؤه وقادته الميدانيّون المردة، بل أشخاص حل بها اللعين وأشكال تلبّسها، وعلى رأسهم «زقلل» بكل ما مثّله وأدّاه...

هذا ليبقى طريق التكامل الإنساني مُشْرَعاً، الطريق التي قضى الله سبحانه وتعالى ألّا تكون إلّا عبر الأبتلاء والأمتحان، فتبقى سبل الهوى والكفر والعصيان، جنباً إلى جنب العقل والشكر والإيمان، وعلى الإنسان أن يختار ما يريد من سبيل وينهج ما يشاء من نَجْد.

رغم هذا وذاك، مضى الأمر كما أرادوا...

فقد كانت خيوط المؤامرة قد آستحكمت وتوطّدت، وقد أُرسيت دعائم المشروع وأُحكمت عقده، وآشتد بناء الأُسس وثبتت القواعد، وصلُب عود «الحزب القرشي» وتوثّقت أركانه... فما كان هناك من سبيل للنيل منه، ناهيك بإسقاطه والقضاء عليه.

كانوا قد سيطروا على جميع مفاصل الدولة وأرجاء القرار فيها، وشكّلوا الحاشية التي تحيط بمركز الدعوة وتحف به وتطوّقه، وفي الحقيقة تحاصره... ونفذوا في أخطر البطانات وأكثرها حساسية، ودخلوا في الإدارات و«المؤسسات»، ولم يوفروا حتى دُور «النبي» وبيوته!

فقد نفذوا هناك وزرعوا عيونهم وعملاءهم، من خلال ما فرضته المعادلة السياسية ومقتضيات الحرب الخفية، من خطوات الدخول والتداخل في المصاهرة والنسب، وما كان وراء إخماد نيران الحروب العلنية، ويُرجى لتحييد بعض أقطاب المعارضة وأركان «الحزب القرشي»، الذين كانوا منزلة «أغصان» في «الشجرة الخبيثة»، يحيّدهم حياءً أو طمعاً، حين يُشعرهم بالقرب والحظوة، ما يجعلهم شركاء فعليين، فيطمّعهم بحصة ونصيب ودور حقيقي، وبالتالي يجعلهم حريصين على «البيت النبوي» ومستقبله، حين تغدو لهم فيه مصالح ومنافع.

وهكذا ما كانت تهدفه هذه المصاهرات وترجوه تلك الصحبة من تخفيف الأحقاد وتثبيط الهمم والقعود بها عن المبادرة بالفتك والقيام بانقلاب يعود بالقوم على أعقابهم، حتى في ظاهرهم الذي كانت الدعوة توظفه لتأسيس الدولة وحفظ الهوية... ولكن حتى هذا الانقلاب ما لبث أن وقع وتحقق في جوهر القضية وحقيقة «الفساد» المتمثل بالعدول عن «الولي» والركون إلى غيره، ذلك عندما مات «النبي» صلى الله عليه وآله أو قتل، إذ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾.

في هذا القعر الآسن ترعرعوا، وفي هذا المهوى السحيق نجمت قرون الشياطين التي هيأتها «الشجرة الملعونة في القرآن» وأعدّتها لتواجه «القربان»، ومن هذا الخبال، وهذه الطينة الخبيثة، تعاهد الحزب الملعون صنع وتربية وإعداد الأشقياء الذين سيقتلون «القربان»!

لفيف من السفلة، لئام الأصل والمضرب، خبثاء العنصر والمنبت، سلالة خسة وأعراق سوء... ما زال «اللقطاء» و«الطلقاء» يحشدونهم ويعبئونهم، يباشرونهم بالتربية ويتعاهدونهم بالرعاية، ويغذونهم ويذكون فيهم النصب والعداء لـ «آل محمد»...

حتى تقدّموا في اليوم الموعود وبرزوا، ليبرُّوا قَسَمَ ذاك الذي شارَك آباءهم وقاسمهم في أمهاتهم، وعقد نطفهم بماء النيران!

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع: ابن الذبيحين

حـــزّت فلا خـــدُّ الحـــديـــد مخـضّبٌ

بـــدمٍ ولا نحْـــر الـــذبـيح مخضّبُ

فهمه «الفراعنة» انعتاقاً من الخطايا والذنوب، وظنّوه تسامياً على الآلام والجراح، وجعلوه رمزاً للقوة القاهرة والخلود...

كانوا يحسبونه «الطائر المقدّس» الذي يأتي من بلاد «العرب» (حتى «الفراعنة» كانوا يترقّبونه من بلاد «العرب»، لا غيرِها!)، يأتيهم في كل سنة، يخفق بشموخ وكبرياء إلى «هليوبوس»، فيهوي ليحرق نفسه على المذبح، ثم لا يلبث أن ينهض من وسط الرماد المحترق، حياً جميلاً كما كان... كانوا لا يؤمنون إلّا بهذه النشأة وهذه الحياة الدنيا، ويرون أن الموت يعود بهم إليها ـ حتماً ـ متناسخين، متقمّصين أبداناً جديدة، لذا كانوا يأخذون أموالهم وأمتعتهم ويدفنونها مع موتاهم، عسى أن تُبعث معهم فيفيدون منها في دنياهم الجديدة وحياتهم العتيدة القادمة!...

فرمـزوا إلى أفكـارهم في طقـوس «القربـان» وضمّنـوهـا أسـاطيرهم، فصوّروا الطائر يموت وهو «يضحّي» بنفسه ويحترق، ثم يقوم من بين الموتى، وينقلب من الرماد وينهض من الأجداث، ويعود طائراً حياً جميلاً، مُكافَأً على تضحيته بمسحة الجمال التي خُلِعَت عليه وأُلحقت به.

ومن بعد «الفراعنة»، كما هو الحال من قبلهم، من بدء الخليقة...

كان «هابيل بن آدم» قد قرّب كبشاً من أفضل غنمه وأسمنها، بينما غلّب الشحُّ أخاه «قابيل» فقدّم من زرعه أسوأه وأخسّه (يحدوه عذر، وتحكمه مقايسة «منطقية»: لِمَ يبذل الأحسن وهو محترق وتالف لا محالة؟!)، قدّم ضغث سنبل لم يَنْقَ بُرّه، فلم يسمن ويجْرِ الدقيق فيه!

فتقبّل الله قربان «هابيل»، وأكلت النار الحَسَنَ الطيّب، وتركت سنابل «قابيل» الرديئة السيئة...

أستشاط «قابيل» غيظاً وأوغر الأمر صدره وأثار حنقه، ورأى فيه غُبناً وظلماً، وأخضَعَه لموازينه ومعاييره الفاسدة وقاسه بمقاييسه الظالمة، ففسّر الموقف محاباة! فتَجَبَّر وجهل، وعمد فبنى للنار بيتاً، وكان أول من فعل ذلك، وقال: "لأعبدنَّ هذه النار، حتى تتقبّل قرباني"!

ويظن بعضهم اليوم أن الخلاف بين الأخوين كان على زواج كلّ من توأمة الآخر؟! وكانت توأمة «قابيل» (التي تزوجها «هابيل») أجمل من توأمة «هابيل»، فوقع الحسد بينهما وأنتهى إلى القتل... والحق أن البشر، وفيهم خيرة الله وأفضل خلقه، ما كان ليتناسل من أخوات بعضهم التوائم! إنما جيء لـ «هابيل» بحوراء من الجنة أسمها «نزلة»، كما أنزل الله تبارك وتعالى لـ «شيث» من بعده، حوراء أسمها «ناعمة»، أما «قابيل» فقد زُوّج بأنثى من الجان، أظهرها الله في صورة إنسية أسمها «جهانة».

كانت هناك ـ دائماً ـ إشارات تدل على «القربان» وعلامات تحدّده... فيبحث عنه أهل كل زمان وتتحراه كل أُمة في مظانّه، حتى يظنوه شاة ويحسبونه زرعاً، فيهتدون في بحثهم عن «القربان» الذي ينتظره الله بجلاله وعظمته، ويستجلون خطيراً في هذه المنزلة والمكانة، ثم يشخّصونه في طعام ومأكل، وزرع وضرع!؟

ترى هل خفيت حدوده وأنكرت معالمه وضاعت علاماته إلى هذا الحد، أم أنهم كانوا يصلون إلى الحقيقة، ويدركون عجزهم وقصور أيديهم عنها، فيرمزون إلى «القربان» ويُكَنّون؟

وقد كانت علامة النبوّة في «بني إسرائيل» أن تتقبل النارُ «القربان» ممن يزعم أنه نبي، ويدّعي صلته بالسماء... هذا «مالك بن الصيف» و«وهب بن يهوذا» و«زيد بن التابوت» و«فنحاص بن عازار» وغيرهم من «اليهود»، يأتون ليحاججوا «النبي» الأعظم، فيقولون إن الله عهِدَ إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار؟

لعل الأمر كان على سبيل التربية والتعليم، وما يوقد في النفوس شعلة السؤال والاستفهام، ويفتح أمامها أبواب المعرفة، وبالتالي سبل السعي لكشف السر وطُرق إدراك الحقيقة الكبيرة التي تستتر وراء هذه المظاهر الرمزية والتكاليف السماوية «الغريبة»!

لا شك أن التضحية والبذل وتقديم المرء من ماله وزرعه وماشيته ونفسه، لله وفي سبيله، هو أصل يكشف عن حقيقة لا تُنكَر في السير إلى الله، وقاعدة واقعية لها دورها وفعلها الكبير في السلوك إلى رضوانه... كما أن الأمر يتضمّن جانباً آخر يقوم على مفهوم «الفداء»، شيء يفدي شيئاً آخر، صدقة تفدي بلاءً أو مرضاً، طعام يفدي الفقر، كبش يفدي الموت، وهكذا حتى يبلغ الفداء أقصاه ومداه، فيكون لا لشيء ولا لمقابل، بل لمحض وجه الله وتعبيراً عن حبه سبحانه وتعالى. عندها، حين تبلغ العبادة هذه الذروة التي ليس بعدها شيء، وتصل المعرفة هذا الحد الذي ليس وراءه شيء... يتقبّل الله النذر والفداء، وتنتفي فلسفة وجود هذه الدنيا، فتنتهي وتنقضي، ويعود العالم لمبدئه الأول ويتحقق «المعاد».

إن هذا «القربان» الموعود، والأُضحية الإلهية المنتظرة، لها علاماتها، وهي محفوظة بتمامها عند أهلها، ولا يطبّقها على موردها ويشخّصها على مصداقها، إلّا من سيُقدّم «القربان»، وهو نبي آخر الأمم... ولما كانت العلامات المبذولة «ناقصة»، والإشارات المتوفرة غير تامة، والصورة الحاضرة غير كاملة، طاشت السهام عن الهدف، ولم تصب في تحديده وتشخيصه... لذا حسبوه في كل عزيز يفقد، وتطلّعوا أن يكون مع كل عطاء عظيم، وأمّلوا أن ترفعه السماء ويتقبّله الله كلّما بذلوا وقدّموا.

وكلّما وقع حدَث عظيم، ترقبوا أن يكون هو «القربان» الأتم الأكمل... ما كان «البقرة» ولا «الناقة»، وما كان ليكون طوفاناً يغرق ويأكل كل شيء.

ظنّوه «يوسف» إذ «أكله» الذئب، أو غيّبه الجُبّ.

و«يعقوب» إذ كاد أن يكون من الهالكين.

و«أيوب» إذ مسّه الضرّ وأبتلي بالأسقام.

و«موسى» وقد أُلقي في «النيل»، فحمله ولم يبتلعه.

ومنهم من خاله «العُزَيْر» وقد غيّبه الله.

و«يونس» إذ ألتقمه الحوت.

كما توهموه «عيسى بن مريم»، حين أقتيد إلى الصليب فوق «الجُلجُلة»، وما صلبوه وما قتلوه.

و«يحيى بن زكريا»، يُقدَّم رأسه على طبق من ذهب لبغي من بغايا «بني إسرائيل»، فتنقلب الأرض وتضطرب لقطرة من دمه سقطت عليها! فلم تسكن حتى عهد «نبوخذ نصر».

و«جرجيس» وقد وُتِد في رأسه حتى سال دماغه، وصُبَّ فيه المهل!

وحسبوه في غيْر هؤلاء، وفي غيْر تلك الحوادث...

وما زال «والد» «القربان»، المؤتمن عليه، يتدخّل وينقذ هذا «النبي» من محنته وبلواه، وينجي ذاك «الولي» ويخلّصه من مصيبته وشكواه، ويصحح المسيرة عن ذلك الحدث، ويهديها إلى حقيقتها البعيدة والمختلفة عن «القربان»!... كان يعلم متى يكون «القربان» وكيف سيُقدَّم، وكان يدّخر المقام والدور لـ «أبنه»، وما كان ليسمح أن يحيد عنه!

فلما يئست الأمم من قبول قرابينها، أو ما توهمته كل أمة قرباناً يرفع «الإنسان» إلى الله، ويطوي الأرض ويجمعها إلى السماء، وينهي هذه المسيرة الممتدة، كما يشاء سبحانه وتعالى ويريد، عندما سلّموا أنهم ليسوا في ذلك المقام ولا تلك المنزلة التي تجعل «القربان» الأعظم الأتم منهم... أذعنوا للحل الوسط وقنعوا بالميسور، فعمدوا إلى الإشارة والرمز والعنوان، وصاروا يقرّبون الأطعمة والأضاحي، من الزروع والغلال والمواشي.

فرمز «اليهود» للقربان، وأرادوه وأشاروا إليه بتضحية ذبائح الحيوان، وتقدِمة الدقيق والزيت واللبان، وباكورة الثمار، وهكذا ذهب «النصارىٰ» إلىٰ تقديم الخبز والخمر، ليتبدّل ـ في تصوّرهم ـ إلىٰ لحم (جسد) «المسيح» (ابن الله عندهم) ودمه، وفعل غيْرهم من هذا وأضرابه...

وكلّها رموز وعناوين تشير إلىٰ الحقيقة المنتظرة و«القربان» الموعود، والذبيحة الإلهية التي ستقضي علىٰ مقصلة العشق... فتعرج الدماء، ولا تسقط منها قطرة تلامس الأرض، أما الجثمان، فيهوي ويحل في بقعة، لا تنفك ترقىٰ وما زالت تسمو، حتىٰ تبلغ «العرش» وتتربع عليه.

حتىٰ «شيخ الأنبياء خليل الرحمن»، حدس يوماً وظنَّ أن يكون هو «القربان»... ذلك حين أُلقي في نار «النمرود»! أم تراه كان يعلم، في قرارة نفسه، أن «القربان» غيْره؟ ولكن لفرط شوقه إليه، وحبه له ولأهل بيته، أراد أن يفديه القتل ويكفيه البلاء... لعلّ «بَداءً» يَعْرِض فيستبدل، فلا يحل بسبط «خاتم الأنبياء» ما ينتظره؟

إن أول عهد «إبراهيم» بـ«القربان» كان في النشأة الأولىٰ...

في جنان الصاقورة حين ذاق من حدائق «آل محمد» الباكورة، مع «موسىٰ» الذي أُلبس حلّة الأصطفاء لما عهدوا منه الوفاء... وهكذا بقية الرسل والأنبياء، إنما أُدرجوا في مراتبهم، وحظوا بمقاماتهم، وكُلّفوا بمهامهم، علىٰ قدر معرفتهم وولايتهم ومحبتهم لـ «محمد وآله».

إن كل شيء يحمل في جوهره ما ينزع به صوب كماله...

إن هذا القبض والبسط، والعدو والشدو، هذا السبح والعوم، وهذه الحركة الراقصة، والأنجذاب إلىٰ ما به تحيا الكائنات وتؤمّن حاجاتها، ثم الجذبة إلىٰ ما يرقىٰ بها ويحقق كمالها... هذا النازع والمحرك الذي دك الجبل فتصدّع من خشية الله، وحدا الشجر ليضرب بعروقه في أعماق التربة، وساق الفَراش ليحوم حول الشعلة، وألهم الغراب ليعلّم «قابيل» كيف يواري سوءة أخيه، ولقّن الهدهد كيف يتجسس ويتحسس لـ «سليمان»، وأنطق النمل، وأوحىٰ إلىٰ النحل...

هو «الإمامة» و«الولاية»، فالله أعطىٰ كل شيء خلقه، ثم هدىٰ.

«الإمامة» هي قطب رحىٰ الوجود، وقناة الفيض الإلهي... وهي العنصر الذي عُهدت إليه «الهداية» في معادلة الحياة، أي الأخذ بيد الكائنات وقيادتها صوب ما خُلِقت لأجله ووجدت في سبيله، فيتحقق النظام الأكمل الأتم، الذي خلق الحكيم الوجود عليه.

هناك قطب ومحور تحوم حوله الأشياء وتدور، وهو في كل موجود بحسبه، وإن كان في العجماوات يأخذ عنوان الطبيعة والتكوين وما يقتضيه، فهو في الإنسان، هذا الموجود المريد الذي كرّمه الخالق فأودع صفاته فيه، حقيقة وجدانية لا يمكن إنكارها. لذا فهي تخلق صراعاً يقُض مضجع المنكِر ويُسهد ليل المعاند: نفسٌ لوّامة، وضمير مؤنب... وقبل هذا وذاك، عقل مدرك، وقدرة ومَلَكَة تميز الخير عن الشر، والحق عن الباطل.

ولا يغيّرُ مسلك الإنسان إن كفر، ولا حركته اللاعقلية حين يغلبه الهوىٰ، شيئاً من هذه الحقيقة، فإنما يجحد ما أستيقَن، ويكره ما جُبِل عليه وفُطِر، إذ حُبّب إليه الإيمان وزُيّن في قلبه.

وإنما سما الإنسان وكرُم وفُضّل علىٰ غيْره من الكائنات والموجودات، بل سُخّرت جلّها له، عندما حمل العقل وتزين به، هذا الإمام والحجة العظمىٰ، فـ «أنطوى العالم الأكبر في هذا الجرم الصغير».

ولما كان الباري عزّ وجل قضىٰ أن لا يكون الإيمان والتكامل الروحي للإنسان إلّا بالأبتلاء والأمتحان والفتنة والأختبار، زرع فيه النوازع والشهوات، وسلّط عليه الشيطان، أو أطلق له العنان. وهو الخبير بمَن خلق وضعفه أمام الهوىٰ والنزغ. وكان ـ من جهة أُخرىٰ ـ قد أوجَب اللطف، وكتب علىٰ نفسه الرحمة...

كان لا بد لـ «الإمامة» و«الولاية» من ظهور خارج الأنفس، فقد يحجبها الرين ويطمسها الكِبْر فلا تدركها الجولة والسفر هناك، فكان حضورها في الآفاق... فبعث الله الأنبياء، وألحق بهم الأوصياء حججاً ظاهرة وأئمة يهدون بأمره، منذرين ومبشرين، ليقوم الناس بالقسط.

«الولاية» هي القطب الذي دارت على معرفته القرون الأُولى، والمدار الذي نظّم منازل الأفلاك والخلائق، وهي بعدُ سُدُمٌ في الفضاء، ونُطَفٌ في الأصلاب والأرحام، بل «ذرّ»، بل صور وأظلة وأشباح...

فمن عزم على الطاعة وبادر إلى الخضوع لولاية «آل محمد»، كان من «أُولي العزم»، أو نبياً ذا رسالة وكتاب وأُمّة، أو رسولاً إلى قومه وبلدته، في عرض غيْره، أو وصياً، أو ولياً، أو من صالح المؤمنين... فمؤمناً محباً، أدنى ما له، وأقل مراتبه أن يحرم بدنه على النار.

أما أول عهد «إبراهيم» بـ«القربان» في هذه الدنيا... فحين عثرت قدمه، وقد أنتهى به المسير إلى أطراف «الفرات»، فسقط على الأرض وشجَّ رأسه أو جرحت يده أو كَلِمَتْ قدمه، حتى سال دمه. فراح يتفكّر ويتساءل: ألذنب أقترفه، فأقتص الله منه؟ فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه وعرّفه، بل ذكّره، أن «الشجّة» لم تنزل به لسخط عليه أو نقمة حلّت به، بل هي رحمة نالته حين مرّ بأرض سيقدّم فيها «القربان»، وهو سبط آخر الأنبياء...

«القربان» القتيل، السبط الشهيد... يشتاق إلى مذبحه أشتياق «يعقوب» إلى «يوسف»، تتزلزل أركان «مكة» حين يتركها، حتى تتناهبه سيوف البغي بين «النواويس» و«كربلا»، وتقطّع أوصاله عسلان الفلوات من «الشجرة الملعونة»، فيملأن أكرُش الحقد الجُوفى، وأجْرِبَة الحسد السُّغْبى، وتجدد أفواههم عهداً بلفظ أكباد الأزكياء، بعد أن نبتت لحومهم من حصائد ما جنت أيديهم: تمرّغاً وولوغاً بدماء الشهداء.

فـ«مكة» في حداد، و«البيت» مسدود الباب، و«الحِجْر» ممزق الإهاب، و«الركن» متّشح بالسواد، و«زمزم» تذرف أُجاجاً، و«المروة» تصدّعت مرارة، و«الصفا» تكدّر إذ خلا من «الصفوة»، و«ثبير» و«رضوى» تدكدكا، و«عَرَفة» تجلبيت الأسى، و«مِنى» أكتست شملة الدماء... يتقطع قلب «حبيب الله»، فيجزع، وتبكي الجنان وتندب، فتجيبها الأرضون فتعدّد، وتنوح الجن، وتشاركها الملائكة في السماوات، والوحش في الفلوات، والحيتان في البحار... وثلة منتجبة من البشر، ونخبة مصطفاة.

فأحب الله لخليله «إبراهيم» أن يواسي حبيبه «محمداً» وسبطه «الحسين»، فنالته «شجة»، وأريقت من دمه قطرات، عسى أن تربط بينهما وتعقِد... دون حرّ الحديد، بل حتى النار واللهيب، إذ كانت عليه برداً وسلاماً!

كان ـ عليه السلام ـ من «أولي العزم»، عارفاً بالقضية الأولى، مدركاً وجوب تقديم «القربان»، وكان ممن حمل السر، وعرف مَن يكون «القربان»... وكل عزائه أن «القربان» سيكون سليل إمام عدل من ذريته، إذ لا ينال الظالمون عهد الله، وما كان لينالَ الظالمين.

❋ ❋ ❋

هناك عديد كثير من المشاعر التي تلحق الألم وتبعث الأسىٰ في النفس، بعضها طبيعي ينتج عن الرغبات الطبيعية التي جبل الإنسان عليها وخلقت معه، كمعاناته الجوع والعطش والبرد والحر وما إلىٰ ذلك مما يعتري وينزل بكل إنسان، وهناك نوع آخر... إنه لمزيج صعب وتركيب يورث الإعياء والرهق، معادلة قاسية كأن لا تَعادلَ فيها ولا إنصاف أو رحمة:

أن يتمتّع المرء بالموهبة والمَلَكة، ويُلقّن كل فنون الرسم (مثلاً)، ثم يُمنع من الريشة واللوحة. أو أن يحظر علىٰ موهوب في قمة الشاعرية وقوّة البيان ورهافة الحس، يحمل مخزوناً عظيماً من المفردات، يجمع ذلك إلىٰ دراسة وتمكّن من قواعد العَروض والأوزان والبحور، وكل ما يحتاجه الشاعر، مما يصقل موهبته ويفجّرها... ثم يحظر عليه النظم وقول الشعر!

أن يبقىٰ الظامئ علىٰ عطشه والماء ينساب أمامه زلال...

ولعلّ الأمر علىٰ غيْر ما أمثّل هنا، وأن هذه الأمثلة لا تفي ببيان القضية في حال مَن يحمل الهم والنوازع التي أُريد.

أن يُشرّف المرء بمقام الأجتباء والخُلّة، ثم يحمّل عظمة المسؤولية وخطورة الرتبة، من خلال الدور الموكل إليه والمهمة المناطة به، والمتمثّلة في «الإمامة»... ثم لا يبلغ أمله في الوصل ولا يحظىٰ بما يشفي غليله من اللقاء، ولا يتمكّن من العطاء علىٰ القدر الذي يهوىٰ وبالشكل الذي يريد؟ هكذا عاش الكُمّل حياتهم، ومضوا يقطّعهم الشوق ويبريهم العشق، إذ عرفوا أن ثمّة «قرباناً» ينتظره باريهم جلّ وعلا، ولا سبيل لهم لتقديمه!

كان «الخليل»، الذي أستل وجوده الشريف من خيوط «النور الأول» ليصبح من أوائل كمّل الموالين، في ذروة براءته من «الآفلين» قد رأىٰ ملكوت السماوات والأرض، فأيقن أنه أجتباءٌ أكثر مما هو سعي وأكتساب، وأنه أمرٌ يَنال ولا يُنال... وأُعطي «البصائر»، فمضىٰ علىٰ بصيرة تحلّل له الأحداث وسيرها، وبيّنة تفسّر له الظواهر وحركاتها وتضعها في مواضعها، عالماً بأن ما هناك لا يدرك إلّا بما ها هنا، ولعلّ الأمر أيضاً يكون هكذا في معكوسه، فما ها هنا لا يدرك إلّا بما هناك...

ومن هنا كان يتعاطى مع «القربان»!

كان يعلم بأن الدورة الكونية تتطلّب «قرباناً» عظيماً يجب أن تقدّمه البشرية إلى الله، وأن العملية ككل، سواء في تقديم «القربان» أو في تحقيق الوراثة، ستخضع لعالم الطبيعة (الدنيوية) وقانون الأسباب ومتعلّقات تلك النشأة (البشرية)، وأن التدخل الملكوتي لن يكون إلّا لتقويم المسار وترشيده وهديه إذا ما غالى وغالب في شطحه وشططه عن التقدم نحو الهدف، وأوغل في الميل عن الجادة المؤدية له والمنتهية إليه.

وكانت الخطوة الأولى في هذا المخطط - الطبيعي - خلق أب للبشر، من طين، وما قيل إن «الأنوار» قد أُودعت في صلب هذا الموجود الجديد الذي هو بكر حجج الله وأنبيائه ورسله إلى خلقه، وإنها ستتقلّب في الأطهار الساجدين إلى أن يحين ظهورها وتمثلها بشراً سوياً في آخر الزمان... لتقدم «القربان»، فترث الأرض وتحقق الوعد الإلهي، وتكشف سرّ ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، فتكتمل الدورة، ويُطوى الفرش، وتعود «الأنوار» إلى عالمها الأصلي، وتقر وتسكن في حضرتها.

عاش «إبراهيم» حياته يلاحق «سر القربان»...

حتى أصبح هاجسه، وأضحى أمنيته، وأمسى أنيسه وخليله!

❁ ❁ ❁

كانت شمس الثامن من ذي الحجة، الذي صادف في ذلك العام صيفاً لاهباً، تدنو من الزوال، وهجيرها يثير وهجاً يلفح الوجوه، فيعود الفَيْحُ ليسفعها ويجعلها سوداء مشربة بحمرة... عندما وافى «جبريل» «إبراهيم الخليل» في بطحاء «مكة»، وأخذ يوجهه بأوامر محددة وتعليمات مفصّلة، تنبئ عن أمر مبيت، وتضمر خطّة محبكة.

وقد ذكّره أسلوب «جبريل» في إلقاء الأوامر والتوجيهات، بالتعليمات التي كان يتلقاها في المقاطع الحاسمة والمنعطفات المصيرية من مسيرته، كأمر تحطيم الأصنام، والهجرة من «العراق» في جولته التوحيدية وثورته على الوثنية إلى «الأرض المقدسة» فـ «مكة»، فرفعُ القواعد وبناء «البيت»...

ها هو يحاكي أُسلوبه ذاك... يأمر «الخليل» أن يرتوي من الماء، له ولأهله، ولم يكن بين «مكة» و«عرفات» ماء. ثم يأتي به إلى «منى» فيأمره بالمبيت فيها، ثم يغدو به إلى «عرفات»، ثم يفيض إلى «المزدلفـة»، حتى إذا أقام على المشعر الحرام... أمره الله أن يذبح «أبنه» ويجعله قربانه!

صعق «إبراهيم»، ودخله من الوجل ما لا يعلمه إلّا الله سبحانه... ومع أنه كثيراً ما وطّن نفسه وروّضها، لتتلقى من الأوامر أياً كانت، وتنفذه بمنتهى الترحيب والرضا والأطمئنان.

بل إنه حدّث نفسه لمرات بهذا الأمر خاصة:

ماذا لو كان أحد أبنيّ: «إسماعيل» أو« إسحاق» هو «القربان»؟ كيف سيكون تسليمي ورضاي؟ وأين عسى أن يبلغ صبري على بلواي؟ ماذا عن «سارة» و«هاجر»؟ وماذا عن سائر الناس، كيف عساني أفهمهم الأمر؟

ولكنه لم يحتسب لأمر يجعله هو الذابح، والذبيح «أبنه»!

ومع هذا وذاك، ما تلكأ لحظة ولا تردد، ومضى مسدّداً بروح القدس، معصوماً بالناموس الأكبر... خاضعاً مطيعاً مسلّماً، مستجيباً ملبياً، بل رافعاً صوته بالتلبية، صادحاً: " لبيك اللهم لبيك " .

ثم راح يستجلي ويستخبر نفسه، ويسائلها:

هل أنه «أُلهم» الأمر أم «أستلهمه»؟

هل صعد إلى «أمر الذبح» وعرج حتى وافاه، أم هبط الأمر إليه ونزل عليه؟ هل كانت «الرؤيا» عصارة العلم ومنتهى العرفان، وغاية السير والسلوك، وذروة التكامل والسمو، الذي أنتهى به أن «يبذل» ويضحي بأحب الخلق إليه، حتى ينال المحبة المطلقة؟ ويقرّب أغلى ما يملك وأعز ما لديه، ليتسنّم أعلى مراتب القرب ويحظى بأدنى منازل الجوار فيبلغ مقام «الخلّة»؟ هل بدا له الأمر وهو يقلّبه بهذه الصورة؟ وهاتف «القربان» يؤرق ليله ويقلقه، ونازع «خلاص» البشرية وإنهاء معاناتها يقض مضجعه ويسهده... فتناهبته هذي الهواجس حتى أندفع يقدّم ما يجعل الباري يأمر بوراثة الأرض ويختتم هذه «الدنيا» ويعود بالموجود إلى حيث كان؟

أم هو الخاطر الذي ما برح يدهمه والطيف الذي ما أنفك يلازمه مذ ألتقى بـ «حلال المشكلات» و«والد القربان»، حين أُلقي في نار «النمرود»، فخلّصه منها؟ ولم يتحقق ما أمّل، فأنثنى عنها بكفي مُعْدَم؟!... وكان حين أُلقي في النار، قد أمّل ومنّى نفسه، حتى أستقر في روعه وسكن في خاطره، وركن وأطمأن، إلى أن «بداءً» عَرَض ووقع، وحكماً أُمحي وآخر أُبرم وثبت، حتى يجتبيه الله ليكون هو «القربان». ولا سيّما أن النار كانت هي التي تتلقى القرابين وتأكلها، وتسجل علامة قبولها ورفعها إلى الله سبحانه وتعالى أو أخذها إليه! وهذه نار مضطرمة تنتظره، وهذه عرّادة ومنجنيق يلقمه ليقذف به في قلب النيران.

ولكن «عليّاً» جاءه وحال بينه وبينها، فكانت برداً وسلاماً...

معيداً الأمور إلى نصابها، ومحافظاً على نظام الكون الأتم، ومجرياً المقادير كما يشاء الله سبحانه وتعالى ويريد، ومحتفظاً بهذا الدور الأعظم، ومدخراً ذاك المقام الأسمى لـ «أبنه»، ومستأثراً به ومبقيه له، فهو صاحبه الحقيقي ومستحقه الموعود، لا غيْره ولا سواه!

كأنما هاج بـ «الخليل» الوجد، وتأجج الغرام وهو يجول في عرصات «الحرم»، وأدركته الذروة من الشوق والحنين وهو يسرح في تلك الربوع الطاهرة، حتى تملّكته جذبة عشق، وسكرة حق راح في نشوتها الغاية من الصحوة والإفاقة، وبلغ النهاية من الوعي والبصيرة. فعاد «خليل الرحمن» إلى جذوره، وأتصل بأصل وجوده، وما كان فيه قبل نشأته الدنيوية، وأستعاد ما كان منه في تلك العوالم والنشأة النورية، حين عرف من مقامات «الأنوار» ومنزلتهم، وسابق فضلهم وقديم أياديهم، ما عرف وأقر، فأستمد من مخزون «العزم» المدخَر... فأراد ورجا، وأمل وتمنّى أن «يرضى» الله سبحانه وتعالى بأبنه «إسماعيل» بدلاً عن «سبط الحبيب»، فيكفي «القربان» (الحقيقي) الذبح ويقيه، ويكتوي هو بنار أبنه «الذبيح»، دون «الخاتم» في حبيبه و«سبطه» الموعود؟!

* * *

أصبح نبي الله «إبراهيم»، بعد ليلة حندس ما ظن أن فحمتها ستنصرم، وقام مع تباشير الفجر يسوق أمامه «نيّة» جعلت السماء في خيفة وخفر، ويقود من خَلْفَه أغلالاً من «فِطْرَة» ضربت أوتاد «الرحمة» و«الرحم» في أعماق الأرض، فكان يقتلع مع كل خطوة واحدة من تلك الأغلال الموغلة، وقد تدلّت خلفه تجر أذيال خيبتها، حتى انفكّت كلّها وانحلّت صاغرة!... ومضى متحرراً في دربه المقدّس، موظفاً وَتَرَ حُبّه لابنه، نغمةً زادت من روعة المعزوفة التي بدأت حصيات «المشعر» تضرب عليها وتُلَحّن، وأخذ المدَر ينشدها، ترتيلة وداع وأنشودة تعظيم وسلام، تُشَيّعُ «الخليل» في مفيضه إلى «منى» وتجلّ فعلته وتُكْبِر عَزْمَه...

وفي «منى»... احتبس «الخليل» الغلام (الأُضحية)، وأمر «هاجر» بالرحيل، ووجّهها إلى «مكة»، فالخطب أفظع من أن يطيقه قلب أم!

ثم طلب من «إسماعيل» أن يأتي إليه بالسكين، وأردف طلبه معلّلاً:

حتى أقرّب «القربان»!

بادر الغلام المطيع وجاءه بالسكين، ولكنه تساءل أولاً ثم وجه السؤال إلى «أبيه»: ولكن أين «القربان» يا أبة؟

نظر إليه «الخليل» فأطال، وكأنه يعيد اكتشاف ما كان يراه في «إسماعيل» من شمائله وخلائقه، ويتزوّد مما يمثله من أنسه وسلْوَته، ثم رمق السماء، وتمتم بخشوع... حتى جلس متقرفصاً، وأجلس «ابنه» بإزائه، وأمسك بكفيه، ثم قال مجيباً عن سؤال «ابنه»:

ربك يعلم أين هو يا بني... أنت والله هو!

خيّم صمت مهيب، صاحبه هبوب ريح كانت تحنّ كحنين الإبل، ثم زوبعة أثارت غُبَرة، أخذت تديرها في الأرض لا تقصد وجهاً، وقد اقتلعت عرفجة كانت تتدحرج هنا وهناك، وتتطاير معها عيدان أثلة يابسة... هكذا عَبَّرت «الطبيعة» عن غضبها وهَوْلها وجزعها مما يدور، وما سيقع بعد لحظات... فغلب طيشها، وها هي تغالب عيني «إبراهيم الخليل»، عسى أن تحول بينه وبين مُدْيته!

أغمض «الخليل» عينيه وغشّاهما بذراعه، وخفض برأسه، وأنحنى لهذه الزوبعة. فلما أنجلت أكمل «إبراهيم» حديثه، كمَن يفضّ ختم السر عن مقولته الأُولى، ويكشف عمقاً لم يترك لأي أحتمال آخر غيْر الجد، محملاً:

إن الله قد أمرني أن أذبحك، فأنظر ماذا ترىٰ يا بني!؟

لم يفصل بين أنتهاء جملة «الأب» وإجابة «الأبن» البار إلّا ثوان معدودة، ما كانت تدبّراً ومعاودة للنفس، قدر ما كانت أمتصاصاً لزخم المفاجأة... حتىٰ قال «إسماعيل» بحزم وأناة:

يا أبت أفعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين!

وبينا هما في هٰذا... إذ سمعا هاتفاً ينادي، وقد أختلط صوته وتداخل مع صفير الريح، فلم يتبيّنه «إبراهيم»، ولٰكنه كان أقرب للأستغاثة، فأمسك هنيئة وأرجأ ما كان فيه.

ولم يلبث حتىٰ تراءت له سوادة مقبلة من بعيد، ثم ظهر رجل غريب وقور يلوّح بعصاه! وقد بادر دون سلام ولا تحية يلقيها...

: ما تريد من هٰذا الغلام؟

: أُريد أن أذبحه!

: سبحان الله، تذبح غلاماً لم يعص الله طرفة عين؟!

: إن الله أمرني بذلك.

: إن ربك ينهاك عن ذلك، وإنما أمرك به الشيطان.

: ويلك، لا سبيل للّعين عليّ! إن الذي بلّغني هٰذا الموضع من حَرَمِه وبيته، ومن عَهْدِه ورسالته، هو الذي أراني في رؤياي وهتف في مسمعي وأمرني... إنني علىٰ بصيرة من أمري ويقين من ربي.

: لا والله، ما أمَرَك بهٰذا إلّا الشيطان!

: صه، ودع عنك الهذَر والخطَل، والله لا كلّمتك...

قالها «إبراهيم» بغلظة وحسم، أردفه بحصيات رجمه بها، فأَيِسَ «الغريب» وأنقطع رجاؤه حتىٰ قنط وعاد ليبلس، وقد أنثنىٰ «إبراهيم» مغضباً، فأعرض وأنصرف عن «الغريب»... الذي لم يكن إلّا «إبليس» الرجيم!

عندها أندحر «إبليس» خائباً وأنسحب مَخْزِيّاً، وترك «إبراهيم» لسبيله، وأنطلق في محاولة جديدة وسعي أخير، وكان في غاية الحرص، وكأن لم يبق في كنانته إلا سهم واحد، فراح يدق على باب ما زال موصداً في وجهه، ويرمي سوراً عالياً، وحصناً طالما كان عصياً عليه منيعاً...

فظهر لـ «هاجر» أم «الذبيح»، وقد فرغت لتوّها من الطواف بـ «البيت»، وجلست تطيل النظر إلى «الكعبة». فوافاها وسألها...

: مَن يكون هذا الشيخ الذي رأيته في «منى»؟

: ذاك بعلي. ومَن تكون أنت وما شأنك به؟

تجاهل «إبليس» سؤالها، ومضى في ما جاء له، متظاهراً أنه يهم بالطواف، وأن حديثه عابر وسؤاله خاطف، وأن الأمر لا يعنيه كثيراً، فلا ترتاب منه وتتوجس! لكنه ـ في الوقت نفسه ـ أبدى أنه مدهوش وتعمّد أن يُظهِر ذلك، فرسم على وجهه علامات العجب والحيرة، ولف حركته بغموض وضمّنها إبهاماً يدعو إلى فضول تصعب مقاومته، ذلك حتى يبقي على خيوط الحوار، فالتفاهم أو «التفاوض»، دون الصدّ والقطيعة.

ثم عاودها دون أن يجيب على سؤالها عنه "مَن يكون" !...

: فوَصيف رأيته معه؟

: ذاك آبني.

كَبَّر وأبدى من العجب أضعاف ما كان يُظهِر، ثم قال:

والله لقد رأيته أضجعه وأخذ المدية ليذبحه!

ومع أنها آهتزت، بل صعقت ودارت بها الأرض حتى أشرفت أن تسقط مغميّ عليها، إلا أنها تمالكت نفسها وآستجمعت قواها، وردت عليه بلغة قوية ولهجة حازمة، قائلة:

كذبت، ولمَ يذبحه وهو آبنه، ولم يرتكب ذنباً... إن «إبراهيم» لأرأف الناس وأرحمهم، فكيف يذبح آبنه؟

: فورب السماء والأرض، ورب هذا «البيت»، لقد رأيته أضجعه وأخذ المدية ليذبحه!

وراح يغلّظ الأيمان، ويبالغ في وصف الهيئة التي رأى فيها «إبراهيم»، ويسوق من الشواهد والقرائن حشداً... لم يقنع «هاجر»، ولكنه أبقى باب الحوار مفتوحاً والنقاش مستمراً، وهذا غاية ما كان يطلبه «إبليس» ويتمناه حتى ذلك الحين وتلك المرحلة من معركته.

معوّلاً، في فصولها القادمة وخطواتها التالية، على سيل عارم من زخرف القول، ومخزون لا يقاوم من المغالطات والمصادرات، هي صنعته وحِرْفته التي لا يجارى فيها، ثم مراهناً على... «عقل النساء»!

قاطعت «هاجر» آسترساله وسألته...

: ولِمَ يقتل «إبراهيم» أبنه؟

أنتشى «إبليس» من سؤالها، فلعلّه آستفهام حقيقي لا آستنكاري، وأنها لا تقصد التعريض بمقولته والآستخفاف بها، فآثر أن يكون «صادقاً»، فيرسخ «مصداقيته» ويُبْعِد شُبْهَةَ غَرَضِه، لذا أجابها...

: زعم أن ربه أمره بذلك.

أجابته «هاجر» من فورها، قاطعة النزاع ومنهية الحوار...

: فحق أن يطيع ربه!

ألقم الشيطان حجراً، وغلّ... وعاد خاسئاً حسيراً إلى مسرح الحدث وساحته الملتهبة، إلى «الميدان» في «منى»، حيث رُجِم ثلاثاً فما آرعوى! وكان «إبراهيم الخليل» قد أسلم وآبنه للأمر، فتلّه للجبين، حتى أضجعه على جانبه ووسّد خدّه الأرض، وهمّ أن يفري...

عندها تمثل لـ «إسماعيل»، وهو آبن الحليم الأوّاه، الشفيق بأبيه، منظر الذبح، وما سيعانيه أبوه إن آلتقت عيناهما وهو يحز مِنْحَرَه، وما سيكابده إن رآه بعد ذلك يتعفّر من جرحه ونزفه، وصار يرفس برجليه في نزعه! فأشفق على أبيه من هذه وقال مقترحاً...

: يا أبت، خمّر وجهي، وشدّ وثاقي!

أجابه «الخليل»:

أي بني، أوثاق مع الذبح؟ والله لا أجمعها عليك اليوم يا «إسماعيل»!

ثم إنه أضجعه عند «الجمرة الوسطى»، وأخذ المدية فجعلها على حلقه، وأخذ يرتل بنبرة ملؤها التسليم، وصوت يصدّع الجبال، لا من أرتفاعه وقوته، ولا مما فيه من عزم ومضاء، بل من مضمونه ومحتواه، من طبيعة الإرادة وعظيم النية التي قصد، وكأني به يتلو:

بسم الله وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملّة رسول الله،
لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد
والنعمة لك والملك، لا شريك لك...
اللهم هذا فداء «السبط»...
هذا لتمنع فجعة «الزهراء» وثكلها...
ولوعة «المرتضى»، وجزع «المجتبى»...
هذا «القربان»، وهذا الجرح، اللهم لتدفع الذبح عن
«قرة عين» حبيبك «المصطفى»، وتحرر بدنه من حد
السيوف، وتعتق رقبته من حز المدى.

ضجّت السماء وأضطربت، وهبطت الملائكة وتلاحق سكان الملكوت، كل ينظر في خيفة وينتظر وجلاً...

ومع ضغطة «إبراهيم» على العنق، تدخل «جبريل» وقلّب السكين!

فنظر «إبراهيم»، كيف لا تفري؟ فإذا هي مقلوبة، فأعادها على حدّها، فقلّبها «جبريل» ثانية على قفاها، وتكرر ذلك مراراً...

حتى نودي من قِبَل مسجد «الخيف»:

﴿أن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

وأجتر «جبريل» الغلام من تحته، ووضع مكانه كبشاً أقرن تناوله من قلّة «ثبير»، كان قد نزل من السماء عن يمين مسجد «منى».

تلألأ الوادي وأزهر، وأشرقت أنوار وسطعت، فملأت الخافقين، حتى إن «إبراهيم» نفسه و«إسماعيل» بهرا وتملكهما العجب، فلم يسبق أن بلغ سطع النور ـ الذي ما زال فيهما ـ هذا الحد ولا ظهر مرّة بهذا الشكل، ولا أشتد وهجه يوماً كما هو في هذه اللحظات...

وما زال هذا «النور» يتقلّب في الأصلاب الشامخة ويتنقّل في الأرحام المطهرة، وينحدر فيرثه كابرٌ عن كابر. يخفى ويتوارى تارة ويظهر أخرى، يخبو حيناً ويشتد آخر، متّصلاً في هذه السلالة بلا انقطاع، ومتنقلاً في ساداتها وأماجدها صفوة بعد صفوة...

لكن ما رُئي ذلك السطع الذي كان في يوم النحر والفداء العظيم في «منى»، ولا ظهر بذلك الوهج الذي تجلى حينها في «إبراهيم» وابنه «إسماعيل»... حتى بلغ «هاشماً».

❁ ❁ ❁

كان «عمرو العلا»، «هاشم»، خرج من بطن أمّه «عاتكة بنت مرّة»، حين ولد، وله ضفيرتان كضفيرتي جدّه الأعلى «إسماعيل» النبي، يتوقد منهما نور إلى عنان السماء.

وكان أهل «مكة» في غاية العجب من ذلك، فصار حديث مجالسها وذكر نواديها، حتى سارت إليه قبائل «العرب» تقصده من كل حدب وصوب، وماجت منه العرافة والكهّان وحارت، وأوجست «اليهود» وارتابت، وارتبكت «النصارى» واضطربت.

صحب هذا النور «هاشماً» ولازمه، وكان كثيراً ما يتلألأ في غُرّته ويسطع من جبينه في مناسبات شتى وحالات متكررة. وكلّما تمادى به العمر وتقدّم، كانت حالات انبعاث النور تزداد وتَكْثُر، وصارت تعرض من أدنى انفعال وأقل سبب ومناسبة. ولربما عَرَضَتَ في رابعة النهار، فيسفر منه ما يبدي ضياء الشمس باهتاً! أما الليل، فكان إذا مشى في الظلام أنارت منه الحنادس، ويُرى من حوله كما يُرى من ضوء المصباح، فإذا أقبل تضيء «الكعبة» ويزهر حرمها من نور وجهه وضيائه.

وكثيراً ما كانت الأرض تناديه:

"أبشر يا «هاشم»، فإنه سيظهر من ذريتك أكرم خلق الله"!

وكان يأتي «الكعبة» كل يوم ويطوف بها سبعاً، ويتعلّق بأستارها، ويصلي ويذكر ويناجي ربه، مناجاة لم تعرفها «قريش»!

وقد جمع «هاشم» إلى ذلك النور خصالاً وخلالاً زادت في رفعته وسؤدده... كان إذا قَصَدَهُ قاصد أكرمه، وكان يكسو العريان، ويطعم الجائع، ويفرّج عن المعسر، ويوفي عن المدين، ومن أُصيب بدم دفع عنه، وكان بابه لا يغلق عن وارد، وإذا أوْلَم وليمة أو أصطنع طعاماً لأحد، وفضل منه شيء، لم يدّخره، وأمر به أن يُلقى إلى الوحش والطير... حتى تحدّثوا به وبجوده، وتناقلوا خصاله في الآفاق، وسوّده أهل «مكة» بأجمعهم وشرّفوه وعظّموه، وسلّموا إليه مفاتيح «الكعبة» والسقاية والحجابة والرفادة، ومصادر أمور الناس ومواردها، فأستجمع مقاليد الزعامة وأستكمل أُصول الرئاسة. وهكذا سلّموا إليه لواء «نزار»، ليضمّه إلى قوس «إسماعيل»، وقميص «إبراهيم»، ونعل «شيث»، وخاتم «نوح»... فلما أحتوى على ذلك كلّه، ظهر فخره وبان مجده.

وقد بلغ خبره «نجاشي الحبشة» و«قيصر الروم»، فراسلوه خاطبين ومُهْدين بناتهم! وعارضين رغبتهم في «النور» الذي في وجهه، إذ أخبرهم رهبانهم وكهّانهم بأنه نور «النبوة»، وأنها متنقلة عن «بني إسرائيل»، منزاحة عنهم إلى هذا «العربي»! و«هاشم» يأبى ذلك، إنفاذاً لوصية أبيه، الذي أخذ عليه العهد أن لا يودِع «النور» إلّا في أرحام الزاكيات من النساء... فكان يتحرّى «النبوة» ـ طِبْقاً للوصية ـ في قومه، ذلك ما تناهى إليه ويلغه من أجداده، ولا تخلو طبقة منهم من أنبياء أو أوصياء.

وكان يرى أن له تكليفاً محدداً ومهمة مرسومة، ودوراً تاريخياً وأمانة لا بد أن يؤديها كما أراد الله سبحانه وتعالى. وهو يتبع تعليمات تحدد الخطوات التنفيذية لهذه المهمة... وضعتها الوصايا الموروثة، والإيحاءات والإلهامات التي ما زال «هاشم» يتلقاها: نقراً في قلبه تارة، وهاتفاً في أذنه أُخرى، ثم رؤىً ومنامات صادقة.

حتى تزوّج من قومه ورزق منهن ذكوراً وإناثاً... ولكن «النور» في غرته لم يزل وما أنتقل! فعلم أنه لم يودعه بعدُ في أحد من ذريته، فكأنه لم يصب الهدف، وما زالت المهمة تنتظر أداءها.

فأقلقه ذلك، وعظم على «هاشم» وكَبُر...

فمع يقينه بمقامه الذي آختصه الله به، وموقعه في السلسلة المُمَهِّدة، وحظه العظيم، إلّا أنه لا يتجاهل أصلاً من أصول حركة التاريخ، ولا يغفل عن سُنَّةٍ إلهية مطّردة حاكمة، وكيف أنها تتهدده ويمكن أن تصيبه، وهي سُنة «الأستبدال». فلعل الإخفاق في الأداء ينتهي إلى سلب المهمة، وإيكال الدَّوْرِ لغَيْره! بل إن هذا الإخفاق قد يضمر، ويعني في ما يعني، سلب التوفيق، فكيف لم يصب ما أراده الله حتى الآن؟

وبقي في هذا، ولكن دون أن يقوده ليأس أو قنوط، إذ ضم هواجسه إلى ثقة مطلقة بالرب الكريم، وعالجها بسيرة ما زالت تزخر بالجدّ والأجتهاد والطهر والكمال... حتى خرج في بعض الليالي وطاف بـ «البيت»، ثم سأل الله سبحانه وتعالى، وبالغ في الضراعة والآبتهال، أن يهديه إلى المرأة التي قدِّر لها وفيها ما قدّر، وأن يرزقه منها وَلَداً يكون هو الموعود الذي سَيَحِلُ فيه «النور».

وما آضطجع في ليلته حتى أتاه آتٍ في منامه يقول:

" عليك بـ «سلمى بنت عمرو» فإنها طاهرة مطهرة الأذيال، فخذها وآدفع لها المهر الجزيل، فإنك ترزق منها ولداً يكون منه «النبي»، فصاحِبْها ترشد، وآسع إلى أخذ الكريمة عاجلاً" .

فآنتبه «هاشم» فزعاً، وأرسل إلى بني عمه وأخيه «المطّلب»، وأخبرهم بما رآه في منامه وبما قال الهاتف، فقال له أخوه: يا آبن أم، إن المرأة معروفة في قومها، كبيرة في نفسها، طاهرة مطهرة، قد كملت عفة وآعتدالاً، وهي «سلمى بنت عمرو بن لبيد بن حداث بن زبيد بن عامر بن غنم بن مازن بن النجار»، وهم أهل الأضياف والعفاف، وأنت أشرف منهم حسباً وأكرم نسباً، وقد تطاولت إليك الملوك والجبابرة، وإن شئت فنحن لك خطّاب.

فقال ـ عليه السلام ـ لهم:

الحاجة لا تقضى إلّا بصاحبها... لقد جمعت فضلات وبضاعة، وأريد أن أخرج إلى «الشام» للتجارة، ولوِصَال هذه المرأة.

فقال أصحابه وبنو عمه:

نحن لك ومعك، نفرح لفرحك ونَسِرّ لسرورك.

ثم إن «هاشماً» أمرهم أن يعدّوا العدّة ويتأهبوا للسفر.

فخرج العبيد يقودون الخيل والجمال وعليها أحمال الأديم، وخرج هو مع سادة «قريش» بسلاحهم وتيجانهم ولبوسهم، ومعهم الدروع والبيض والجواشن، وأخذوا معهم لواء «نزار»، وهم يومئذ أربعون سيداً من بني «عبدمناف» و«عامر» و«مخزوم»... فأمرهم بالرجوع، وأنفرد ببني عمّه وأخيه «المطّلب» وسار بهم إلى «يثرب» كالأسود، طالبين «بني النجار».

فلما وصلوا «يثرب» أشرق الوادي بـ «النور» المنبعث من غرّة «هاشم»، سبقهم حتى دخل جملة بيوت البلدة! فخرج أهل «يثرب» وبادروا إليهم مسرعين عجلين معجبين، وهم يقولون:

مَن أنتم؟ فما رأينا أحسن منكم جمالاً، ولا سيّما صاحب هذا «النور» الساطع والضياء اللامع؟

قال لهم «المطّلب»:

نحن أهل «بيت الله»، وسكان «حرم الله»، نحن بنو «لؤي بن غالب»، وهذا أخونا «هاشم بن عبدمناف»، سراج «البيت» الحرام، ومصباح الظلام، الموصوف بالجود والإكرام، صاحب رحلة الإيلاف، وذروة الأحقاف... وقد جئناكم خاطبين وفيكم راغبين، وقد علمتم أن أخانا هذا خطبه الملوك والأكابر، فما رغب إلا فيكم، ونحب أن ترشدونا إلى «سلمى».

وكان أبوها يسمع الخطاب فأجابهم...وجرى الزواج.

تزوج «هاشم بن عبدمناف» بـ «سلمى بنت عمرو النجّارية» ودخل بها في «يثرب»، فرأى أن النور الذي كان في وجهه أنتقل إلى «سلمى»! فعلم وأستبشر أنها حملت من ليلتها. وصارت «سلمى» إذا مشت يناديها الشجر والحجر بالتحية والإكرام، وتسمع قائلاً عن يمينها يقول: "السلام عليك يا خير نساء البشر"... وكانت تحدّث أترابها بما ترى، حتى حذّرها «هاشم» فصارت تكتم أمرها عن قومها.

ثم إن «هاشماً» أقام في «يثرب» أياماً حتى أشتهر حمل «سلمى».

فلما عزم على الخروج إلى «غزّة» «الشام»، أوصى زوجته وقال لها:

يا «سلمى»، إني أودعتك الوديعة التي أودعها الله «آدم»، وأودعها «آدم» ولده «شيثاً»، ولم يزالوا يتوارثونها من واحد إلى واحد، إلى أن وصلت إلينا، وشرّفنا الله بهذا «النور». وقد أودعته إياكِ في هذا الحمل، وها أنا آخذ عليك العهد والميثاق بأن تقيه وتحفظيه وتجلّيه، وإن أتيتِ به وأنا غائب عنك، فليكن عندك بمنزلة الحدقة من العين والروح بين الجنبين، وأسعي إن قدرت أن لا تراه عين... وإن لم أرجع من سفري هذا أو بلغك هلاكي، فليكن عندك محفوظاً مكرّماً، إلى أن يترعرع ويكبر، وأحمليه إلى «الحرم»، إلى عمومته في دار عزّه ونصرته.

وكان «هاشم» قد أخبر أصحابه أنه ميت في سفره هذا، وغير عائد من «غزة»! فسمّى ولده العتيد، وأوصاهم بوصاياه، وعهد عهوده... وقد كان ما توقع، فدفن وقبره ما يزال معروفاً هناك ومشهوداً.

ثم لما أشتد الحمل بـ «سلمى» وجاءها المخاض، لم تكن تجد ألماً... وفجأة، سمعت هاتفاً يأمرها أن تسدل الأستار وتغلق الباب وتكتم أمرها، ثم دهمها عمود نورٍ من عنان السماء، أنشغلت بالنظر إليه، وإذا بها تلد «شيبة»، فأخذت تتولى أمر نفسها. فلما وضعته سطع منه «النور» الذي كانت تراه في نفسها وفي «هاشم»... ثم إنه ضحك لها وتبسّم، فزاد ذلك من عجبها! ونظرت وإذا هي بشعرة أو خصلة بيضاء تلوح في رأسه، فقالت: "نعم، أنت «شَيْبَة» كما سُمّيت".

تكفّلت أمّه برعايته، وهي في دهشة تلو دهشة من العجائب التي تصدر من وليدها الميمون، فقد درج ومشى على قدميه وهو أبن شهرين، وكان يرفع، وهو في سنيه الأولى، الشيء والحمل الثقيل بسهولة ويسر، ويأخذ الصبي من أقرانه فيجلد به الأرض ويصرعه من فوره دون مشقة وعناء، حتى إنه هشم يوماً عظام فتىً يكبره من «بني قُرَيظة»، كان قد تعدّى عليه وضربه متطاولاً بعُمْرِه وقامته!

وكانت أُمّه تلتزم وصية أبيه، فلا تأمن عليه أحداً كائناً مَن كان، وتجاهد في إخفائه وكتم أمره، حتىٰ كان أهل «يثرب» يرقبون الأيام التي تُخْرجه فيها ليلعب مع الصبيان، فيأتي الناس بأولادهم ليلاعبوه، وينظرون هم إلىٰ نور وجهه وفصاحة لسانه وقدراته الخارقة...

ومن غريب ما أوقف أهل «يثرب» وأدهشهم:

حنق «اليهود» وكرههم لهٰذا الوليد المبارك؟ وكيف أنهم ما كانوا يطيقون مجرد النظر إليه، ويجاهدون في إنكار عجائب أخباره ونفي غرائب سيرته، والتشكيك بكراماته ومعجزاته!... فكلّما شاع أن أمّه أخرجته يوماً، فيتقاطر أهل الحي والبلد لرؤيته، ترىٰ «اليهود» يغلب حزنهم اضطرابهم، وأذاهم انزعاجهم، كأن مصيبة حلّت بهم، ألزمتهم الضيق والترح.

وقد اشتهر هٰذا الأمر، حتىٰ عُدّ من العلامات... إذ تعارف الناس في «يثرب» وتسالموا، إن أظهر أحدٌ حنقه وكرهه لـ «شَيْبَة» أن يكون يهودياً، وما كانت هٰذه العلامة تخيب أبداً.

وكان «المطّلب بن عبدمناف» في شوق إلىٰ «ابن أخيه» ولهفة، حتىٰ بلغ الأمر من مغيب «شَيْبَة» مبلغه ووصل قدره، فقدم إليه وحمله إلىٰ «مكة». فلما قَرُبا من وطنهما، أخذت الأنوار تتألّق من غرّة «شيبة» حتىٰ أضاءت شعاب «مكة» وأنارت «الكعبة»، فأخذ الناس وأقبلوا ينظرون مَن القادم؟ وإذا «المطّلب» يحمل «ابن أخيه»... فسألوه عنه، ومَن يكون هٰذا الذي أضاءت به البلاد وأشرقت؟ فسكت ولم يرغب في جوابهم، فصاح أحدهم: إنه عبد له!

فسمّاه الناس «عبدالمطلب».

وما زالت الآيات ترىٰ والكرامات تتتابع من «عبدالمطلب» كلّما تقادمت به الأيام وطويت السنين. حتىٰ غدا مهوىٰ أفئدة «قريش» وقبلتها في الرأي والطاعة والزعامة، وفي طلب الرحمة والتماس البركة. وكانوا إذا أصابتهم مصيبة أو نزلت بهم فاقة، وكلّما حلّ بهم قحط، أو دهمهم طارق... لجأُوا إلىٰ «شيبة الحمد» ولاذوا به والتمسوا رأيه وخضعوا لأمره، وتوسّلوا بالنور الساطع من غرّته.

وكانت أعجب واقعة وقعت، وأكبر آية ظهرت من «عبدالمطلب»، ما جرىٰ علىٰ يديه لـ «أبرهة» و«أصحاب الفيل».

ذلك أنه عندما تناهىٰ لأهل «مكة» خبر «أبرهة» وجيشه الجرار الذي نزل ببطن «مكـة»، وقسَمَهُ أن يهدم «الكعبة» وأن يرمي أحجارها في بحر «جَدّة»، وأن يقتل الرجال فيها ويرمّل النساء ويذبح الأطفال... جمعوا أموالهم وأهليهم ودوابهم وهمّوا بالخروج.

فأعترضهم «عبدالمطلب» قائلاً إنهم لن يصلوا إلىٰ «الكعبة»، لأن لها مانعاً يمنعهم وصاداً يصدهم عنها:

" فإن أنتم ألتجأتم إليها وأعتصمتم بها فهو خيرٌ لكم ".

فلم تطمئن القلوب المرعوبة إلىٰ كلامه، وغلب عليهم الخوف والجزع، وخرجوا هاربين يطلبون الشعاب، ومنهم من طلب الجبال، وذهب بها آخرون بعيداً فراحوا ليركبوا البحر!

ولم يبق يومئذ في «مكة» إلّا «عبدالمطلب» وأقاربه من «بني هاشم»، وهم غير آمنين علىٰ أنفسهم... فلما نظر «عبدالمطلب» إلىٰ «الكعبة» خالية، وديارها خاوية، توجه إلىٰ ربه وقال:

" اللهم أنت أنيس المستوحشين ولا وحشة معك، فالبيت بيتك، والحرم حرمك، والدار دارك، ونحن جيرانك... تمنع عنه من تشاء، ورب الدار أولىٰ بالدار ". وعزم علىٰ أمر لم يخبر به أحداً!

لبس قميصه المشهود، الذي كانت الكرامات تظهر علىٰ يدي «عبدالمطلب» وهو يلبسه، حتىٰ عرف به، فصارت الناس تقلد هيئته وتفصيله! وكانت تميزه أزرار منسوجة، تدخل في عرىٰ جيبه عروة عروة، وتعقد أطراف أردانه وتزمّها علىٰ معصميه...

وتردّىٰ برداء «لؤي»، وتحزّم بمِنْطَقَة «إبراهيم»، وتنكّب قوس «إسماعيل»، وأستوىٰ علىٰ مطيته وعزم علىٰ الخروج، فقال له أقرباؤه:

أين تريد يا «عبدالمطلب»؟

قال: آتي هـذا الظالم، الذي أخذ مال الله وتعرّض لحرم الله.

قالوا: ما كنا نطلق سبيلك، فهٰذا بحرٌ مَن دَخَلَه غرق، وقد أعتصمت بربّ «الكعبة» وأعتصمنا معك، ورضينا لأنفسنا ما رضيت لنفسك... أما الخروج من الحرم إلى شر الأمم، فما نسمح لك بذلك.

قال: يا قوم إني أعلم من فضل ربي ما لا تعلمون، فخلّوا سبيلي فإني راجع إليكم عن قريب.

كان العزم يفيض من عينيه، وقد أرتسمت الثقة على تقاطيع وجهه، كمَن هو على بصيرة من أمره ويقين...

ترىٰ هل حدّثته نفسه أن في هدم «الكعبة» زوالاً لبيضة الدين، فلا معنى للبقاء بعدها، وأن البشرية بهٰذا تكون قد بلغت غايتها وكفايتها من هٰذه الدنيا؟ وأن الأرض ما عادت تطيق العَطَش، والسماء ضجّت من الشوق، وأنه آن لـ «القربان» أن يُنحَر، وللهدي الأعظم أن يُقدّم؟ فسئم الأنتظار، وطفح به كيل الصبر والترقّب، فتقدم لينهي فصلاً طال، وقصة تشعّبت؟ هل كان هاجس «القربان» هو الذي يحدو حركته، ويوجه خطواته، فمضى على خطى جده الذبيح (إسماعيل) ودربه، يسلم نحره للمدىٰ وصدره للظبات؟ أم أنه كان مُلهَماً وعلى بيّنة من مصيره ومآل أمره، وكان يباشر دوره كوَليّ لله، ووصي لأنبيائه والماضين من رُسله؟

مضى «عبدالمطلب» حتى أشرف على القوم... فلاحَ لهم كالبدر إذا بدا، والصبح إذا أسفر، فلما عاينوه من قريب، بهتوا وأنعقدت ألسنتهم بعد أن حبس الله أيديهم.

وما زال يتقدم حتى أعترضه الجند والحرس، وقال أحدهم:

إن كنت من هٰذه البلدة، نسألك أن تعود أدراجك، فإن ملِكَنا أقسم بربّه أن لا يترك من قومك أحداً.

فقال «عبدالمطلب»: إني قاصده!

وفي حين كانوا بين هازئ ومسفّه ومنكر، ومأخوذ بجماله ونوره، ومبادر لإخبار الملك... كان «عبدالمطّلب» يشق صفوف العسكر دون مانع ولا معترض، وكأنهم ذهلوا عنه أو أن أبصارهم عميت وأطرافهم شلّت!

حتىٰ بلغ الرحبة التي أمام المَلِك ومَثُل بين يديه...

و«أبرهة» لا يكاد يستقر في كرسيّه من فرط الغضب وشدّة الأنزعاج، وهو يقسم أن لو سأله كل أهل الأرض فيه ما شفّعهم!

دخل «شيبة الحمد» فسطاط الملك، والجند يحفّون به، معتقلين رماحهم، مشهرين سيوفهم، فمصلتيها، وقد أعتمر الملك تاجاً، وشد علىٰ جبينه عمامة، وتدلت من ثيابه قلائد وأوسمة فخر مرصعة بالجواهر.

وفي أقصىٰ الرواق وقف «المذموم»... وهو فيل عظيم، غاية في القوة والبطش، والشراسة والوحشية، ذاع صيته في البلاد وأشتهر، حتىٰ دخل في «منظومة الردع الحبشية»! وقد ركّبوا علىٰ رأسه قرنين من حديد، لو نطح بهما جبلاً راسياً لقلّعه ونَسَفَه، وعلّقوا علىٰ خرطومه سيفَيْن هنديين ماضيين، وقد علّموه الحرب والمناورة. و«عبدالمطلب» علىٰ سمته وهديه، يتقدّم بسكينة ووقار ولا يلتفت إلىٰ أحد، والجند في صفوف باهتين، كأن علىٰ رؤوسهم الطير، ينظرون ويرقبون كيف يصنع مِلكُهم.

وبإشارة معهودة يعرفونها منه، أمر المَلِك الفيّالة أن يطلقوا «المذموم» حتىٰ يدوس بمراديه "هذا المكي الأرعن، ويقابل جرأته وجسارته التي تخطّت الحدود، ويجازي وقاحته التي فاقت كل شيء"!...

أنطلق الفيل يخبط الأرض، يدوي صيتُه في الصيوان، فتنخلع له قلوب أصحابه قبل أعدائه، وتهتز الأرض تحت خطواته فتخال الفسطاط يتقوّض! حتىٰ إذا قرب من «عبدالمطلب» ودنا... برك إلىٰ الأرض وجثا علىٰ رُكَبِه وسكن أرتجاجه، وجعل يهز رأسه ويصفق بأذنيه الكبيرتين، في حركات بدت إلىٰ التحية أقرب منها إلىٰ أي شيء آخر!

وكان قبل ذلك إذا أحضره مروضوه وقدّموه للقتال، تحمرّ عيناه ويضرب بخرطومه وفيه السيفان. لكنه سكن هنا وركن، ولم يفعل شيئاً من ضروب المناورة والقتال التي تدرّب عليها وتمرّن، بل جعل يمرّغ وجهه تحت قدمي «عبدالمطلب»، وقد لوىٰ خرطومه وضمه بين ساقيه، حذراً أن يصيب السيفان «عبدالمطلب» ويلحقا به الأذىٰ!

ارتعدت فرائص «أبرهة» ودخله من الفزع والجزع ما لا يعلمه إلّا الله... وانقلب، فأقبل على «عبدالمطلب» مُرَحّباً وأجلسه إلى جانبه، وهو الذي كان يحلف على هلاكه! ثم قال له: سل ما تريد فأنت مجاب غيْر مردود.

فقال «عبدالمطلب»: إن قومك أغاروا علينا وأخذوا ثمانين ناقة لي، كنت قد أعددتها لإطعام الحجاج وإكرام من يفد إلى هذا «البيت»... فإن رأيت أن تردّها عليّ فافعل.

تعجّب الملك من طلبه، وحَارَ كيف يجمع بين «وهن العزيمة» و«ضعف الرأي» و«سقوط الهمّة» هذا، وتلك المعجزة والقدرة التي رآها تجري على يده منذ قليل؟ فظن أنها صدفة أو أمر عارض في الرجل، لا كرامة إلهية ولا منزلة ربانية، فعاد الملك وقال: لِمَ لا سألتني في بلدك وخلاص أهلها، فإني أقسمت أن أهدم كعبتكم هذه وأقتل رجالكم؟

ردّ «عبدالمطلب» بثقة واطمئنان من يرى الأمور رأي العيان: لا أسألك في شيء من ذلك، فإن لـ «الكعبة» رباً يحميها ومانعاً يمنعها.

استجاب «أبرهة» للطلب على مضض، ورد الإبل على «عبدالمطلب» وصرفه... وعاد ـ عليه سلام الله ـ يسوقها حتى دخل «مكة». وأمر بني عمه وأقاربه أن يخرجوا إلى جبل «أبي قبيس»، معلّلاً ومعلناً:

" حتى ينفذ الله حكمه ومشيته ".

وبينا هم في الدعاء والتضرّع إلى الله، إذ أشرفت عليهم غُبْرة القوم، وقد تقاربت الصفوف وبرقت الأسنة، ثم انكشفت عن الأفيال، كأنها الجبال، وقد ألبسوها الحديد، تقدم زحفاً لا تدرك الأبصار مداه... اشتد قلق بني «عبدالمطلب»، ووجلوا حتى ملكهم اليأس وانهملت عبراتهم، لا يرون من سبيل إلّا الاستسلام وأنهم سيُقتَلون صبراً.

وفي تلك اللحظات الحاسمة التفتوا إلى «عبدالمطلب»، وصاروا يلوذون به، فرفع رأسه إلى السماء كمَن يستجلي علامة أو ينتظر الإذن في الدعاء! ثم هوى بعد هنيئة إلى السجود، وراح يدعو، لكنه دعاء غريب، لم يسبق أن طرقت كلماته آذان قومه وبني عمه.

وقد دخله وهو في حال الدعاء، أن يتقدم بنفسه ثانية، عسى أن يكون هو «القربان» الذي يقدم على أعتاب «بيت الله»!

ولكنه ما أتمّ دعاءه وتضرّعه... حتى ظهرت في السماء أفواج من الطير، أبابيل كالسحب المترادفة يتبع بعضها بعضاً، وهي بأحجام الخطاطيف وهيئة اليعاسيب، يحمل كل طير منها حجراً في منقاره، وآثنين في مخالب رجليه، وقد تعالت الطيور وآرتفعت، وآمتدت أسرابها وآنتشرت حتى ملأت السماء، فظللت الجيش وغطّته وجلّلته من أوله إلى آخره.

ولم تمهل... فما إن هَمّ أحدهم بقوسه ليرمي، حتى تصارخت الطيور، فكانت الحصي التي في مناقيرها تنقذف كالشظايا والشهب، مع دوي الصيحات وقصفها، فتصيب رأس أحدهم، لا تردّها درقة ولا يمنعها حديد، فتخرق رأسه حتى تخرج من دبره.

وأخذ «السجيل» ينهمر كالمطر بقصفه ورعده وبرقه، حتى خرّوا جميعاً صرعى وسقطوا قبل أن يبلغوا «البيت»، وتناثرت أشلاؤهم وقد غدوا كعصف مأكول، لا تفرّقهم عن روث دوابهم!

* * *

كان «عبدالمطلب» عابداً ناسكاً متبتلاً، مواصلاً الأعتكاف في «البيت»، والسياحة في أطراف الجزيرة. وكان كثيراً ما يقيم في بعض كهوف «مكة» ويلزمها... يخلو بنفسه، ويتفرّغ لمناجاته ودعائه.

وكانت قد أخذته يوماً وهو في «الحِجْر» غفوة، إذ أتاه آتٍ يقول: "إحفر زمزم، لا تنزف أبداً ولا تذمّ، تسقي الحجيج الأعظم، عند قرية النمل".

وكانت رؤاه رؤىٰ صدق، ما كانت تخرص يوماً ولا تسلّط عليها شيطان مرّة، وهٰذه جاءته وهو في «الحِجْر»، قد دلّه الهاتف علىٰ موضع الحفر... والبِئر في «مكة» تعني ما تعني، خصوصاً هٰذه المفتقدة: «زمزم»!

فما تواني أن حمل معوله، وجاء معه ولده «الحارث»، ولم يكن له يومئذ غيْره، وأخذ يدق ويحفر... حتىٰ ظهر له البناء.

ما إن علمت «قريش» بذلك ورأت فعله، حتى أعترضوا وقالوا إن هٰذه بئر أبيهم «إسماعيل»، وهم فيه شركاء... لٰكن «عبدالمطلب» أبىٰ عليهم وقال: هٰذا أمر خُصِصْتُ به دونكم. وأشتد النزاع وأحتدم، ومنعوا «عبدالمطلب» من المضي في الحفر... حتىٰ عرضوا أن يجعلوا «هذيماً»، كاهن «بني سعيد»، حكماً بينهم، وكان بأطراف «الشام»، فوافقهم «عبدالمطلب». فخرجوا حتىٰ إذا كانوا بمفازة بين «الحجاز» و«الشام»، نفد ماؤهم، وبلغ بهم الجهد وغلبهم العطش ولم يجدوا ماءً، فسألوا «عبدالمطلب» رأيه؟ فأمرهم أن يحفر كلٌ حفيرة لنفسه...

وركب هو راحلته، وضرب بها في البيداء...

فلحقوه، فرأوا الماء ينبع من تحت أخفاف راحلته وهي تخبّ وتراوح! وهو يُكَبِّر الله، فكَبَّروا، وشربوا جميعاً وملؤوا قربهم. وحلفوا أن لا يخالفوه في «زمزم»، وقالوا: إن الذي أسقاه في هٰذه الفلاة، هو الذي أعطاه «زمزم»، ورجعوا ومكّنوه من الحفر. فلما تمادىٰ في الحفر، وجد تمثالين من ذهب علىٰ هيئة غزالين رابضين. وُضعا بعد ذلك علىٰ باب «الكعبة»، ووجد أسيافاً كثيرة ودروعاً، فصار يفرّقها بين قومه، محتفظاً ببعضها، ومنفرداً بـ «زمزم»، مستأثراً بسقاية الحاج.

وكان «شيبة الحمد» يسجل ما يترىٰ من علامات ويرصد ما يستجد من أحداث، وينتظر العلامة الحاسمة ويرقب الإشارة الباتة والأمر الصريح بتقديم «القربان»... وقد وجد في الرؤيا التي أمرته بحفر «زمزم»، وما تلا ذلك من كشف الكنز المدفون بإزاء «الكعبة» دون تنقيب ولا بحث، علاقة وآرتباط بالبُشْرَىٰ الموعودة، وأن الأمر قرب وأزف.

ومع أنه هدأ وسكن، حين آنتقل «النور» منه إلى آبنه «عبدمناف» الذي يقال له «أبوطالب»، فخبا ضرام قلقه، ونعم عيناً ورضي... ذلك بعد زيجات خمس، جاءه منها «الحارث» و«عبدالعزّىٰ» (أبولهب) و«العباس» و«ضرار» و«الحمزة» و«المقوم» و«الحجل» و«الزبير»، فلم يَسْرِ نوره إلى أي من ولده هؤلاء، حتىٰ تزوج «فاطمة بنت عمرو» فولدت له «أبا طالب»، فرأىٰ «الوديعة» تنتقل إليه، حتىٰ إنه سمّاه «عبدمناف»، لفرط فرحه به وسروره، ولآقتران هذا الوليد المبارك وآتصاله بنور جدّه الأمجد.

ومع هذا الآرتياح وذاك الرضا، كان ثمة ما يكدّر علىٰ «عبدالمطلب» صفوه ورضاه، ويشعره أنه لم يتم رسالته ولم يؤد دوره كاملاً، وأن عيباً ما وثغرة نالت من أدائه، أو أن نقصاً ما زال يكتنف عمله، لم يظهر بعد، يلقي بظلاله علىٰ روحه فيزعجها ولا يتركها تهنأ وتأنس!

وجاءت ولادة آبنه التالي: «عبدالله»، شقيقاً لـ «أبي طالب» من أمّه «فاطمة بنت عمرو»، وما رآه من سريان «النور» وحلوله فيه ـ هو الآخر ـ وتألّقه من غرّته البيضاء... لتزيد من حيرته وتقوي هاجسه، وتؤكد له وجود سرّ خفي: كيف سرىٰ «النور» في آثنين من ولده؟ وهل الوصي هو «عبدالله» أم «عبدمناف» (أبي طالب)؟

كيف تخلّفت سيرة ثابتة وآضطربت سُنّة مستقرة من آلاف السنين، في توارث «النور» بين أجداده العظام؟ الذين تلقّىٰ كلّ منهم «النور» من أبيه عن جدّه، منفرداً دون إخوته!؟...

ذلك من «آدم» إلىٰ آبنه «شيث» إلىٰ «أنوش» إلىٰ «قينان» إلىٰ «مهلائيل» إلىٰ «أدد» إلىٰ «أخنوخ»، وهو «إدريس»، إلىٰ ولده «متوشلخ» إلىٰ «ملك»،

ثم إلى «نوح»، ومنه إلى «سام»، ثم إلى ولده «شالخ»، فولده «عابر»، ثم إلى «أرغو»، ومنه إلى «شارخ»، ومنه إلى «ناحور»، ثم «تارخ»، ومنه إلى «إبراهيم» فـ «إسماعيل»، ثم إلى «قيذار»، ومنه إلى «الهميسع»، ثم «نبت»، ثم إلى «يشحب»، ومنه إلى «أدد»، ومنه إلى «عدنان»، ومنه إلى «معد»، ومنه إلى «نزار»، فـ «مضر»، فـ «إلياس»، ومنه إلى «مدركة»، ومنه إلى «خزيمة»، ومنه إلى «كنانة»، ثم «مالك»، ثم «فهر»، ثم «غالب»، ثم «لؤي»، ثم «كعب»، ثم «مرّة»، ثم «كلاب»، ثم «قصي»، ثم «عبدمناف»، فـ «هاشم»...

كيف تشعّب الآن في أثنين من ولده: «أبي طالب» و«عبدالله»؟

ثم إن حُسم أمر الوصاية والولاية، أو ترك ليأخذ مساره ومجراه، فقررته الأيام، وأسفرت عنه الوقائع... فماذا عساه يفعل إن كان وصيّه هو «القربان»؟ من تراه سيقدم للذبح؟

كان ينوء بحمل ثقيل ينقض ظهره، ويشعر أن مركباً جوحاً تسير به إلى مرقىً كؤود، وأنه كان يتسلّق سفحاً وَعْرَ المُلتَمَس، إلى قمة بعيدة المرام... وكم كان جميلاً أنه لم يسمح لهذا أن يحبطه ويُسري إليه اليأس، بل أتخذه داعياً يحثه على المقاومة والصبر، وباعثاً يدعوه للمزيد من الأنقطاع إلى الله واللّجأ إليه. ومن هنا زاد تجلي الإشراقات في قلبه ونزول الفتوحات عليه، وتقاربت نفحات الوحي والإلهام، حتى صار في أيامه الأخيرة، لا يكتفي بالأستماع والتلقّي، بل أخذ يحدّث رسل ربه الملائكة ويسائلهم عما يشاء.

وفي فجر يوم، قضى سحَرَه وليلته بالإحياء، وبعد أنقطاع ورياضة طالت في «حراء»، حيث دأب يتحنّث... جاءه الإلهام على غيْر ما أعتاد من هيئة وصورة، ولعلّها هيئة تختزن رتبة تتناسب وحاله من الروحانية واللطف والشفافية! وبعد أن أمضى في صحبة هذا «الملَك» طوراً وقضى منها وَطَراً... أُلقي في روعه وبدا له أن يسأل هذا «الوحي» عن «المُخَلَّص»:

مَن يكون؟

فذهل «عبدالمطلب» وصعق حين أتاه الجواب سريعاً:

"إنه الآخِر من ولدك"!

كان «عبدالمطلب» قد سأل المَلَك عن «المُخَلِّص» الذي يخرجه من حيرته وينجيه من تردده وقلقه، ويخلّصه مما أختلط عليه من أمر ولَديه وأنتقال «النور» إليهما معاً، وأراد من السؤال: مَن هو «القربان»؟ فجاءه الجواب عن الذي تعرفه الملائكة وسكان الملكوت بهذا الأسم والعنوان: «المُخَلِّص»، وهو الوارث والمنتقم الذي سيثأر لـ «القربان»، المنجي الذي تنتهي وتختتم الحياة الدنيا على يديه...

سأل «عبدالمطلب» عن «القربان»، فجاءه الجواب عن «المهدي المنتظر»، وهو «آخر» ولده من الأئمة، كما هو هذا «عبدالله»، آخر نسله المباشر وولده وذريته بلا فصل، فأختلط عليه الأمر بين «آخِر» و«آخَر»!

هكذا تتحرك الأمور أحياناً، وتمضي إذا لم تكن الصورة مكتملة...

من السهل أن يحكم المرء على الحدث الذي يعيشه، ويواكب نقلاته وتطوراته... ولكن، كم هو صعب، أن يكوّن الرؤية الصحيحة عن أحداث وقعت في ماض لم يشهده، وما بلغه عنها إلّا شتات مُبعثر؟ والعكس صحيح أيضاً... فقد يتمكّن المرء من جمع الصورة الكاملة لحدث ماض أصبح اليوم تاريخاً، فيقف على خلفياته وتفاصيله التي كانت خافية على من عايشوا ذلك الحدث، وهو يغمرهم بحضوره وقد جلّلتهم معطيات الزمان والمكان، وحكمتهم محدودية الإمكانيات وضيق القدرات، فلم يتبيّنوه كما نفعل نحن الآن!

ولكن كم هو مضن ومعجز أن «يرسم» المرء صورة حدث مستقبلي، سيكون بعد حين، ويعد نفسه ويهيئها لهذا الحدث في ضوء تلك الصورة! ولربما كانت فسيفساء جدارية تناثرت قطعها أو أختلطت، يقضي المرء سنين متمادية ليرتّبها، فإذا حسبها أكتملت، يعجز عن إيجاد مكان لقطعة متبقية ويعسر عليه تركيبها، فيتساءل مستغرباً ثم مستنكراً وجودها:

مَن الذي جاء بها ودسّها هنا؟ هل سقطت سهواً من لوحته أم تسللت؟

ولعلّه يهمل ـ في النهاية ـ القطعة الأصلية ويطرحها جانباً، ويكتفي بما «كمّل» به الصورة: رقيعة من نسج خياله وصنع يديه!

على قدر العلم وحجم الإمكانات، ينجح الأولياء في قراءة المستقبل واستباقه... وبعبارة أخرى، على قدر «نور الله» ينظر المؤمن، فيقهر حجب الزمان والمكان، ويخرق الغيب والمستقبل.

ولست أدري...

هل عجز «عبدالمطلب» عن الوقوف على أبعاد الأمر، وتكوين الصورة الكاملة التامة؟ أم أنه تحرك في طريق ذبح ولَده، وهو على بصيرة بأنه ليس «القربان»، وأنه سيُفدى في اللحظة الأخيرة ويُعتَق ليبقى، ويبقى «النور» في صلبه، حتى يأتي «القربان» الحقيقي... وكل ما عزم عليه، ثم فعله، هو تمثيل دور أدّاه ليسجل ويسطر واحدة من شواهد عظمة القضية وخطَرها؟

لست أدري، فأنا لا أرى الأمر فيه وولده «عبدالله»، يختلف عنه في «إبراهيم الخليل» وأبنه «إسماعيل»؟ فذاك سر كما هو هذا!

لست أدري... ولكنه على أية حال ذهل عند سماعه الجواب، ولم يقوَ على أن يستوضح ويستفسر عن المزيد، ثم ما لبث أن وجد في بدنه ثقلاً وفتوراً، وأحس بتكسّر وأوجاع عمّت جسده، وقد تشرّبته الحمى وتخوّنت جسمه، حتى بدت عليه بوادر النافض.

خرج من كهفه لا تكاد تحملانه قدماه، ولا أن تستقرا على الأرض، التي كانت تدور به وتدور، ودلف، كمَن يحذر أن يُقطع عليه طريقه، مقرباً الخطى إلى بيته... وهناك، تزمّل وتدثر، وراح في نومة عميقة.

وحين أفاق من هذه «النقاهة» وخرج، لم يخرج من حيرته ولا انكشف غمّه وما زال همّه. فها هو يقف أخيراً أمام قدره، ومع أنه هذّب نفسه وروّضها، وأعد واستعد ليومه هذا، ولكنه عرف الآن أن ساعة العمل ولحظة المباشرة شيء آخر. وفي غمرة الصراع مع نفسه، وفورة التصدّي لنوازع مُنىً تحدّثه بلُغة طول الأمل، وبوادر تمرّدٍ وعصيان تُخرج «رغبات» ضامرة، مختزنة في «اللاشعور»... استحضر موقف جدّه «الخليل»، فعاهد ربه أن يوفي نذر آبائه وأجداده، ويذبح «الآخِر» من ولده، ويقدمه قرباناً لله تعالى!

وبعد هذه الجولة العصيبة، لم ينتظر «عبدالمطلب» كثيراً ولا تباطأ، ولا أمهل الشيطان الرجيم ولا أفسح لتسنح له جولة أخرى... وقد غلبت آلامه من تعنيف نفسه اللوامة لمساومته وتلكئها في تنفيذ الأمر، على ما ينتظره من ألم فقد ولده ونحره بيده.

أغتسل ولبس أفخر ثيابه، تردّى برداء «آدم»، وأنتعل نعل «شيث»، وتختم بخاتم «نوح»، وأخذ بيده خنجراً ماضياً، وقصد «الكعبة»، يقود أبناءه التسعة، وقد ساق ولده «عبدالله» أمامه، يتلألأ «النور» من جبينه، ويسطع الضياء من حوله، حتى جلّل الموكب المهيب كلّه بهالة وضّاءة، بدّدت نور الشمس وهي في رابعة النهار.

والناس من ورائهم زرافات وصفوفاً ينظرون ما يصنع «شيخ الأباطح» و«سيد مكة» بولده العزيز؟ ومَن لم يلحق بالركب، أطل من السطوح والمستشرفات... فتطاولت الأعناق، وقد أصفرّت الوجوه، وأرتعدت الفرائص، وفاضت العبرات، وأرتفعت الأصوات من كل ناحية، وضجّت أن أمسك على ولدك يا «عبدالمطلب» ولا تفجعنا بقتله...

وهو ماض بأناة ووقار، مزج بأجواء الحزن والأسى.

وعلى هامش هذا الموكب الإلهي المهيب، الذي حكى تشييع الجنائز، كما صوّر بهاء الأحتفال وبهجة العيد!... كان صاحب القداح يضرب بسهامه ويقترع مرّة بعد أخرى، والعرافة تحسب الطوالع والمنازل، والكهنة تفك طلاسمها وتعقدها. فيأتيها الجواب بما يطير الألباب ويذهب العقول، فمرّة: أن هذا غلام ليس بمذبوح، وأنه سيحيا حتى ينقل «النور» إلى مَن يغسل الأرض من الدنس، ويزيل دولة الأوثان، ويبطل كهانة الكهان، وأخرى أنه «الذبيح» الذي ستنتهي الدنيا وتقوم القيامة إن أُريق دمه!

وهكذا كان «اليهود»، في أختلاف مثّل حيرة الكهنة وأضطراب الرهبان، بل فاقها، فمنهم من غلبته البهجة وتملّكه السرور، وهو يرجو أن يكون «عبدالله» هو الموعود الذي يخافونه على دينهم وأنفسهم، وهذا أبوه يكفيهم مؤونة قتله والتخلّص منه!

وآخرون يتقلّبون في الخوف والحذر، أن تصدق نبوءة «القربان»، فيذبح «عبدالله» وتقوم القيامة! وطائفة تشوب فرحتها الخشية من «بَدَاء» يصرف «عبدالمطلب» عن عزمه وما جاء له.

وعندما وصل إلى المقام، أخذ «عبدالله» إلى المنحر وطرحه أرضاً، وعقل رجليه وأوثق يديه... فتعلّقت به سادات «قريش» وبنو «عبدمناف»، وحالوا بينه وبين «أبنه». فصاح بهم صيحة عظيمة وقال:

ويلكم، لستم أشفق على ولدي منّي، ولكني أُمضي أمر ربي.

فتعالت صيحات تنادي: أي رب بهذه القسوة تعبد يا «عبدالمطلب»؟!

وأخرى تردُّ على الأُولى: خلّوا بينه وبين أمر ربه!

تقدم «عكرمة بن عامر»، وأشار إلى الناس أن أسكتوا، ثم توجّه إلى «عبدالمطلب» بمزيج رجاء ووعيد، فقال:

يا «أبا الحارث»، إعلَم أنك اليوم سيد الأبطح، وقدوة القاصي والداني، لـ «قريش» ولسائر «العرب»، ولكل من يحج هذا «البيت» ويعظّمه، ولو فعلت بولدك ما عزمت، لصارت بعدك سُنّة، ومفسدة يلزمك عارها وشنارها، ولا أظنك ترضى بهذا لنفسك ولا تريده لِغيْرِك.

فقال: أترى يا «عكرمة» أن أغضب ربي ولا أفي بنذري؟

لم تكن «قريش»، على كفرها ووثنيتها، تنكر أتصال «بني هاشم» بالغيب، وتلقيهم عن الوحي والسماء، لكَثْرة ما رأوا من معاجز تجري على أيديهم وكرامات، ولـ «النور» المتألق والضياء الساطع من وجوههم. كانوا يقرّون بعلاقة «ما» تربط هذا البيت من «قريش» بالله سبحانه وتعالى... غاية ما هناك، أن الحسدة الحاقدين منهم كانوا يكابرون، وهكذا أدعياء العلم، ممن كثرت أسفارهم إلى «اليمن» و«العراق» و«الشام»، وألتقوا بـ «الفرس» و«الروم»، وأتصلوا بـ «اليهود»، كانوا يزعمون أنه سحر، عُرِفَ بعد حين بأسمه الخاص: «سحر بني هاشم»!

لذا لم يجبه «عكرمة» ولم يرد عليه، بل ندب الكهنة ودعاهم لمحاجبته وثنيه عن قصده، فألتفوا حوله، كل ينادي على ليلاه:

أترىٰ يا «عبدالمطلب» أن الأمر يعدو «مناة»؟

آندبها منصوبة علىٰ ساحل البحر من ناحية «المشلّل» بـ «قُدَيد»، بين «مكة» و«يثرب»، وتوسّل بها، فما غيْرُها مُنجيك مما أنت فيه!

وأنبرىٰ كبيرهم يخاطب «عبدالمطلب»، وهو الذي عهدوه مُعْرِضاً عن آلهتم ومهملها، بل مُعَرِّضاً بها وبقدرتها، ومستخفاً بدوْر سدنتها وكهنتها، وطالما كان يحتقرهم ويزدري جهلهم وسفاهتهم، وكم نازعهم وأفتعل ما أساء لهم، وعكّر صفو أرتباط الحجيج بهم وأنحدار الصلات العطايا والهبات عليهم... توجه كبيرهم يخاطب «عبدالمطلب» بلغة يعلم أنه يتقبّلها، ومنطق «علمي» يستقيم مع أفكاره النابذة للوثنية:

إنها «منتا» (Menta) الآرامية يا «عبدالمطلب»، و«منوت» (Manot) العبرية، و«ماني» (Meni) هذا، هو إله الموت وإليه الأقدار والآجال... تضرّع له، ونحن نأتيك بردّه وجوابه، فتخلّص «أبنك»، وتخرج الناس مما دخلهم من هول، وتنجيهم مما ملكهم من فزع.

ونطق آخر قائلاً:

هب أن زعمك في «إساف» و«نائلة» صدق، وأنهما «إساف بن عمرو» و«نائلة بنت سهيل»، العاشقين الذين أقبلا حاجين، فوَجدا غفلة من الناس وخلوة في «البيت»، فزنيا في جوف «الكعبة»، فمُسخا حَجَرين، جزاءً وفاقاً لهتك حرمة «البيت العتيق»... فأين أنت عن «اللات»؟

وعاد كبيرهم وتدخّل ليقول: إنها إله الشمس يا «عبدالمطلب»...

دع عنك حديث خرافة الذي يتناقله «العرب» من أن «اللات» صخرة كان يهودي يلِتُّ السويق عندها، فسُمّيت «صخرة اللات»، فما هذا إلّا من عجزهم عن معرفة أصلها، وجهلهم بعلّة وجودها. إنها «أليلات» (Alilat)، أُم الآلهة النبطية... «الزهرة» المتألقة في السماء، شمخت قاعدتها في «الطائف»، وأمتدت هياكلها إلىٰ «بُصرىٰ» و«حوران» و«تدمر»، وقد نقلوا أسمها إلىٰ لغة «الإغريق» علىٰ صورة «أثيني»، وهي عندهم «إله الحكمة»، ولكنها ـ في الحقيقة ـ ليست إلّا «الزهرة».

ومـا كثرة أسمائها كـ «وهب لات»، و«تيم اللات»، و«عمـرو اللات»، و«زيد اللات»، إلا محاكاة لمقتضى أحوال ظهورها في السماء بعد غروب الشمس وقبل طلوعها.

ثم ماذا أنت قائل في «العُـزّى»؟

هلم يا سيد «قريش» نروي منحرها في «الغبغب» من جودك الذي سارت به الركبان، ما شاءت من الأضاحي أو ما شئت أنت. أم تراك منكراً أنها ثانية «بنات الله» بعد «اللات»، و«مناة» الثالثة الأخرى؟

إيه يا «أبا الحارث»...

هـذا «هبل» يعلو «الكعبة»، يحكي البَشَر في هيئته، تواضعاً وشفقة منه عليهم! عقيق أحمر لفرط ما ارتوى من الهدي والقرابين، وإن كسرت يمناه، فقد عوّضته «قريش» بيد من ذهب خالص.

دعنا نضرب بالقداح على «ابنك» هـذا قرباناً لـ «هبل»، وننظر ما يأمرنا!

و«عبدالمطلب» لا يلتفت إليه، ولا يرد قولاً عليه...

فقد كان في شغل عنه وعن حديثه، كان مستنفراً ومنصرفاً يجمع قواه، يركّزها ويصبّها ليخلق في روحه أرضية تستنزل الوحي من معاقده في الملكوت، ملتمساً ما يمكّنه من الاتصال ثانية بالسماء، للسؤال في شأن «عبدالله» واستجلاء الأمر في ذبحه. فما أراد الخوض في حديث تحوم في فضائه النجاسة ويقطر الرجس، ولا أن ينظر إلى وجوه شاهت وقبحت، فيعكّر صفو أجواء يجهد في خلقها، وهو يضخ فيها من الطهارة والتنزيه ما يستطيع. أعرض عنهم وصدّ، حذر أن يحتبس الوحي ويفر من نحسهم وشؤمهم! وراح في ما قدم إليه، وهو يلهج بذكر الله تعالى، يحمده ويمجده ويعظمه ويقدسه، ويطيل النظر إلى «عبدالله» وهو يكرر:

" اللهم تقبل منا هـذا القربان ".

هـذا، و«أبوطالب» متعلّق بأذيال «عبدالله» يبكي ويقول لـ «أبيه»:

خلّ عن أخي، واذبحني مكانه، فإني راض أن أكون قربانك لربك.

فيجيبه «الأب»: ما كنت لأخالف حكم ربي، فهو الآمر وأنا المأمور.

ثم إن «عبدالمطلب» جثا على ركبته عازماً ذبح الولد لا محالة، غير مُصْغِ لعذل عاذل ولا نصيحة مشفق... عندها ضجّت الملائكة ونشرت أجنحتها وهي تستغيث ربها، وأبتهل «جبريل»، وتضرّع «إسرافيل».

وفجأة، توقف «عبدالمطلب» وأمسك!...

أغمض عينيه، وأسبل يديه، وقد سقطت المدية من يمينه، وراح في شبه إغماءة، والعرق يتفصد من جبينه، يرشح كاللؤلؤ الرطب، فذاع عبقه وأنتشر، وفاح شذاه ولف الفضاء، حتى أنتشى كل من تجمّع في ذلك المحيط وحضر، وأستبشروا أن فرجاً لا بد ويعقب هذا الطيب.

فقد جاءه نداء السماء نقراً في أذنه ونكتاً في قلبه، وأُوحي إليه بخفقة أقشعر لها وأخذته رعدة كالتي تأتيه كلّما تحنّث في «حراء»، شعر معها أن الوجود كلّه مثُل في روحه وحضر، أو أنه أحتواه بين جنبيه، فكأن الفيض ما تخطّاه إلى غيْره فأنهمر وأنصب ليملأ قلبه، فأتصل بالسماء كما أراد، بل إن السماء حلّت في منشرح صدره وسامي نفسه يتبوّأ منها حيث يشاء!

شفّ «عبدالمطلب» وسما، ورقّ ورقى، وتألّق ودنا، ليقرب ويقرب... حتى أدرك المأمول وبلغ المقصود، وصار يسمع هاتف السماء وخطاب «العرش» مشافهة، ويقرأ نقش اللوح عياناً...

وقد صدر الأمر أن:

أمسك عليك ولدك، وأفدِه من الإبل حتى يرضى ربك!

وبينما المنجّمون يحسبون في الزيج ويستخرجون من الجداول وحساباتها، والعرافة تقرأ في النجوم وطوالعها والأفلاك ومنازلها، والكهنة تضرب بالقداح، والسَدَنة تستقسم بالأزلام... يستجلون ما يجري وما ينوي «عبدالمطلب»، وإلى أين ينتهي المصير بولده؟!

حقّق «شيبة الحمد» بالإخلاص والطاعة، والصبر والأستقامة أمراً قضاه الله عز وجل فكان مفعولاً... عاد فألتفت إلى قومه، وقد فرغ من مناجاته وأفاق من غشيته، ليصدح بما أوحي إليه الساعة ونزل عليه، ويعلن الأمر الذي تلقّى من ربه.

ضجّ الناس وكَبَّروا حامدين شاكرين، وصاحوا صيحة واحدة فرحين مستبشرين... وانحدروا على «عبدالله» وأحدقوا به، وراحوا يعانقونه ويتمسّحون به ويتبركون، حتى رفعوه على أكتافهم، وصاروا يطوفون به «البيت»، وانعطف جمع على إخوته وعموم «بني هاشم» يعانقونهم مهنئين، بل صار كل يعانق صاحبه ويهنئه، وعمّ الفرح والسرور... ثم ذهب كل يتطوّع أن يأتي بما يستطيع وما تجود به نفسه من إبل يعين بها «عبدالمطلب» على الفداء، ويحظى بشرف الإسهام في هذا الحدث، الذي ما ارتاب أحد أنه سيخلد ما خلد «البيت» وكانت «العرب»...

ثم إن «عبدالمطلب» أعد مصطبة بإزاء «الكعبة» خارج مطافها وحرمها، استوى عليها مستقبلاً، وقد جاء أبناؤه وقدّموا الإبل، وأمر بالنحر والذبح، فجرى كما شاء وطابت له نفسه، وسالت الدماء حتى صبغت الأرض. وما زال ينحر ويلقي للناس، ويأمرهم أن يتركوا للوحش والطير نصيبها، حتى جاء على المئة... إذ سمعوا هاتفاً من داخل «الكعبة» يقول:

" قد قبل الله منكم الفِدَا، وقرب ظهور المصطفى " !

لم يكن الكهنة راغبين أن ينتهي الأمر على غير أيديهم، فإن انتهى، فليس بالصورة التي وقعت... ولا سيّما أنهم تغامزوا وأومأوا مشككين في الوحي الذي نزل على «عبدالمطلب» والغشية التي اعترته، وما أعقبها من أمره بالفداء. ولكنهم أُلقموا حجراً حين سمعوا بآذانهم الهاتف الذي خرج من جوف «الكعبة»، وما كان لهم أن ينكروه ويشككوا فيه وقد سمعه الناس كلّهم بأنفسهم، دون دعوى من «عبدالمطلب» ولا زعم.

وقف «عبدالمطلب» يستريح أو يتفكّر، وبدا كمَن أزال جبلاً عن موضعه، ووضع عن ظهره وزراً أنقضه دهراً...

ثم أخذ ينادي ويستدعي أولاده الذين انتشروا بين الجموع وتفرقوا بين الناس، يتلقون التهاني، ويفرقون اللحوم، يضعون اللمسات الأخيرة على الوفاء بالنذر... وصيحات «قريش» تعلو، ولفيف قرب منه يحدّثه:

بخ بخ لك يا «أبا الحارث»، هتفت بك وبابنك الهواتف.

جمع «أبوالحارث» أولاده وضمّهم إليه، حتىٰ قرّب «عبدالله» وأخاه «أبا طالب»، وألتف البقية حولهم.

وما إن آئتلف الجمع، وأنتظم عقد الجلال والعظمة يتوسطه «شيبة الحمد»، «عبدالله» عن يمينه، و«أبوطالب» عن يساره، حتىٰ شعّت الأنوار وأزهر «البيت» وأسفرت «مكة»، كما لم تفعل من قبل ولم تكن...

ملأ «النور» أركان «الحرم»، حتىٰ ذهل الناس عن تقطيع لحوم الأضاحي وتوزيعها، وأنصرفوا عن ذلك وآنشغلوا بالنظر إلىٰ الجمال الهاشمي، حيارىٰ معجبين مبهورين... حتىٰ ما عادت تُسمع أصوات أفتعلها الكهنة وأعوانهم وأطلقوها من بين الجموع، ليصوّروا أنها تأتي من طبيعة الناس وسجيّتهم، أو من علّة الحدث وسببه:

"أعْلُ هبل، أعْلُ هبل"...

و«عبدالمطلب» يأبىٰ أن تمضي قولتهم هذه وهتافاتهم دون ردّ، وإن أنخفضت حتىٰ كأنها تلاشت، فكان يتبع كل صوت بِرَدّ، وكل قولة بجواب، واحدة بواحدة:

"الله أعلىٰ وأجل"!

وكان «النور» قد أنعقد عليه وعلىٰ «عبدالله» و«أبي طالب»، فشعّ منهم وسرىٰ ليرسم هالة متلألئة، وطوقاً ما زال يكبر ويتسع حتىٰ عم «مكة» والبطحاء، وأنفجر كعمود يعانق الجوزاء... فتناقلت الأخبار ووردت بعدها أن القوافل رأت ذلك «النور» وهي علىٰ مسيرة شهر من «مكة»!

❁ ❁ ❁

أدرك «عبدالمطلب» بعمق، أن هناك أسئلة كُتِب عليها أن تكون حائرة، فهذا قدرها، وهو شأنها الذي لا يمكن أن تمضي علىٰ غيْر مقتضاه، فسكن بعض الشيء وآستقر... ذلك أنها تستفهم عن مواضيع من العظمة أو من التعقيد، ما لا يدركه جواب ولا يحيط به ردٌّ وخطاب، فكأنها تحتفر، وكلّما أخذْت منها، آزدادت عمقاً وغوراً. هناك أسئلة لا يطيقها جواب ولا يستوعبها ردّ، وتعصىٰ علىٰ المعالجة، مصرّة أن تبقىٰ «قضية»...

فما إن يرد جواب ويُطرح ردٌ، حتى تأخذه «القضية» إلى فضائها اللامتناهي، وتتركه هائماً أو طائشاً، لا يجد ما يتلقاه ولا ما يستقر عليه، فيضمحل ويتلاشى، فكأنه لم يكن!

صحيح أن فداء «عبدالله» وما أكتنفه، لم يحسم أمر «القربان»، ولم يخرج «عبدالمطلب» من الحيرة والمعاناة التي كان فيها، ولا حقق ما كان ينشد ويأمل... لكن الحدث نقلَه إلى أُفق جديد جعله روحانياً، يدنو من السماء أكثر مما يسير على الأرض، وكأنه ما عاد من سكانها، فأقدامٌ تطوف وتسعى ولسان يسبّح هنا، وروحٌ تسَبّح هناك وهوىً يحوم في الملكوت.

صارت ذرات بدنه تنازع روحه وتجاذبها آلة الحياة وحلّة الوجود في هذه النشأة، تريد أن تنسلخ، لتعود وتتصل بمصدرها وترجع إلى بارئها، وهذه تأبى إلّا الأجل وما قضاه، ولولاه ما أستقرت روحه في بدنه طرفة عين!

هكذا أنتقل الحدثُ بـ «عبدالمطلب»، وأخذه إلى عالمه الجديد، فما رئي بعد حادثة النحر والفداء ضاحكاً ولا باسماً، وعكف مؤثراً الصمت، وملتزماً الصوم، وكأنه نذر ألا يكلّم إنسياً...

عرف حلاوة مناجاة السماء وأستطعم ذلك البرد وعذبه، حتى هواه، فأنِسَت نفسه بلُغة الوحي ومنطق الملائكة، وأدمنت حديث الروح، فزهد في خطاب الناس وكرهه، وصار يمج حديث البشر ومحاوراتهم، حتى إذا أضطر وألجأته الظروف، نطق كمَن يلفظ علقماً غصٌ فيه، لا كمَن يتلفظ أحرفاً وكلمات يُعبّر بها ويتكلّم...

ما زال في هذا حتى رأى «نور» أبنه «عبدالله» يسري في ولده من «آمنة بنت وهب»... حين ولد «المصطفى»، وكان نور «أبي طالب» ما زال مستقراً فيه، حتى قضى «عبدالله»، فكفل «أبوطالب» الحبيب «المصطفى».

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس: الميلاد

طالَ حَمْلُ النَّوَى به فَمَتى يا
فَرَجَ الله ساعةُ الميلاد

كان سكان الجنان إذا أرادوا أن يجدّدوا بالحُسن والجمال عهداً، وينظروا إلى شيء يفوق ما بين ظهرانيهم بهاءً وروعة، وكل ما حولهم بهيّ رائع، نظروا إلى «ملكة جمال الجنان»، ويمّموا شطر: «العيا»...

يغترفون من مرأى الملاحة أنقى صوَرها، ومن الصباحة أزهى ما فيها، ويشربون أقداح نشوة صِرْف، تسكرهم صَبوحاً وغَبوقاً.

و«لعيا» حوراء لها سبعون ألفاً من الوصائف والقصور، ومثلها غرف مرصعة جدرانها، مكلّلة أسقفها بأنواع الجواهر والمرجان... وقد اختصّت لنفسها من بينها بمنزل هو أعلى من كل القصور، بحيث كانت إذا أشرفت نظرت جميع مَن في الجنة، وأضاءت الجنة من ضوء خدّها وجبينها.

وكان أهل الجنان لا يعرفون لهذه الحوراء دوراً، كما كانت هي لا تعرف لنفسها وظيفة وعملاً، إلّا هذه الإطلالة...

أن تطلّ بين فينة وأخرى، فيمتلؤن من جمالها العذري، وينتعشون من حسنها البديع. ترقّق إدراكاتهم، وتصفّي أحاسيسهم، وتشفّ ملكاتهم... فالجمال صيقل القلوب ومجلى النفوس ومشذّبها.

ورغم وضوح هذا الدور، وأقتناع «العيا» به، وهي قناعة ترسّخت من تقادم الأيام وتكرار الأداء، لا من أسباب عقلية وأدلّة علمية... إلّا أن نفسها كانت تحدّثها بأن القدر يخفي لها شيئاً آخر، ويدّخرها لمهمة أعظم.

ولم يخب ظنّها، فها قد أزف الموعد وظهر الموعود...

فقد فوجئ «رضوان» يوماً، بأن الأمر صدر لتخرج «العيا» من قصرها، ولكن، لا لتطلّ على الجنان وسكّانها هذه المرّة، بل لتغادر الجنة، وتطوي السماوات، وتهبط إلى الأرض!

وعلى طريقة صدور الأوامر والتكاليف، كان هذا الأمر مجملاً مختصراً يخلو من التفصيل وحتى التوضيح، بل كان غامضاً بعض الشيء، تلفّه عمومية وإبهام، إذ لم يعلّل إلّا بعبارة مقتضبة:

"حبيبة الله، وأبنة حبيبه، سترزق بمولود".

ولما ألحّت الحاجة وأصرّت، صدرت مذكرة (يفترض أنها تفسيرية!)، تقول: لقد تقرر أن تكون «العيا» في قوابلها، وعليها أن تهبط لتخدم «أبنة الحبيب»، تؤنسها وتسلّيها...

لا يظننّ أهل الأرض ولا يَحسَبُنّ أن أهل السماء يعرفون تمام علل الشرائع وأسرار التكاليف الإلهية؟ كلا، فالأمر هناك مثله هنا، تسليم وأنقياد، لا يخلو في الأكياس من سعي للكشف عنها وأجتهاد للوقوف على فلسفتها. من هنا تدفّقت التساؤلات:

لماذا تحتاج «أبنة الحبيب» للسلوة، ولمَن يمدّ إليها يد العون؟

ماذا دهاها حتى تنبري الحور لنجدتها؟

وماذا أصابها حتى تخفّ الملائكة لإسعافها وإعانتها؟

أليست هي من «الأنوار» التي تهبنا الفضل، وعنها تصدر الخيرات؟

هل ثمة تغيّر في النواميس وأنقلاب؟

ومن التساؤلات يعود الأمر إلى التحليل والبحث والدراسة:

ترى، هل عاودتها ذكرى أمها «خديجة»، وتداعى لها ما جرى عليها، حين هَجَرتها نساء «مكة» عندما وضعت أبنتها؟

بينما هذه «صفية بنت عبدالمطلب» و«أسماء بنت عميس» و«أم سلمة»، يحضرن «فاطمة» في ولادة آبنها، ويحففن بها، يرعينها ويسلينها... فأدخلت المقارنة عليها الهمّ، وجدّدت الحزن؟

أم هو «الأصل البشري»، الذي غرَس في «كل» امرأة وزرع فيها الرغبة، قبل الحاجة، إلى من يعينها، فبان أن غياب الأم في هذا الظرف يخلق في الفتاة ويخلّف ثلمة لا يسدّها شيء؟

ترى، هل أبرزت عملية الوضع والولادة تلك الطبيعة؟ وسلّطت الضوء على الجانب «البشري» لهذا الوجود الأقدس، وجعلته يزداد تألقاً وظهوراً، وبعثته وهيّجته، فتداعت معه لوازمه ومقتضياته الطبيعية، كالحاجات النفسية، ومنها، الرغبة في وجود الأم؟

وعن هذا ومنه، نشأ الحزن ودخل الهمّ، فكانت الحاجة إلى «العيا»؟

ذلك رغم خصوصية هذه «البشرية» وطبيعتها، و«التناسل» الأعم من الحمل والمخاض والولادة، وتميّزه في هذا النسل الطاهر، بميزات وخصوصيات تستل من عالمهم الأول ونشأتهم النورية...

فلا دم هنا ولا حيض، واللقاء إيماءة وتداخل نوري، والوضع يكون من الخاصرة اليمنى، أو يُشقّ له في الرجل اليمنى، ولا أثر للحمل إلّا في ساعة الوضع أو قبيله، ثم لا نفاس للأُم ولا ختان للوليد، ولا حدَث ولا خبَث، ولا نجاسة ولا قذارة.

إنه «ضحضاح البشرية» والحدّ الأدنى منها، وما يناسبها لأبدان الكمّل. أو قُل الخط الأخير من نطاق التجرّد والكمال المطلق، وما هم عليه في وجودهم الأول وخلقهم النوري... الخطّ الذي يضطر متجاوزه ـ المسافر، والداخل في عالم العنصر والمادة ـ أن يضع بعض «ثيابه» الأصلية، ويرتدي ما يناسب هذه النشأة الدنيا.

لا شك في أنهم «بشر»... لكن كيف «بشر»؟

يأكلون الطعام... لكن دون أن يخلّفوا فضلات، ويؤتى لهم بالغذاء الذي ستتكوّن منه نطفهم من طعام الجنة وثمارها!

ويمشون في الأسواق... ولكن دون أن تترك أقدامهم أثراً على الرمل والتراب، بينما تجدها تؤثر فتنطبع على الحجارة والجلاميد!

وينامون... ولكن أعينهم، دون قلوبهم وأسماعهم!

يُرَوْن ويُشاهَدون لكثافة أجسامهم... ولكن لا يُرى لهم على الأرض ظِلاًّ إذا طلعت عليهم الشمس (التي يبدو أنها تعرفهم جيداً!) أو سقط عليهم الضوء من أي مصدر للنور!

ولهم وُجهة وسَمْتٌ... فيستقبلون الأشياء والناس بوجوههم ويستدبرونهم إذا مضوا عنهم وعاكسوهم في الوجهة، ولكنهم ينظرون مَن في القفا، ويرَون عكس وجهتهم كما يرون مَنْ أمامهم!

أما الطاقات والقدرات الروحية والكمالات النفسية، فلم تنل منها هذه النشأة شيئاً يذكر، فقد حلّوا بين ظهرانينا وتمثّلوا لنا، وماثلونا في الأشكال والسلوك، فسكنوا البيوت، حتى صارت أسماؤهم في الأسماء وأجسادهم في الأجساد، وشُخّصوا وأشير إليهم... وهم في عليائهم التي لا يقربها أحد، وذُراهم التي لا يدانيها شيء.

بل إننا إن قلنا بأن «البدن»، هذا الجسد المرئي المؤلف من لحم ودم، وعظام وعروق، وعصب وجلد... هو ميدان تجلّي «النفس الناطقة» وساحة ظهور القوة العقلية، وهو الحق. كونه فرع الصيصة الإنسانية، أي البدن الإنساني الذي خُلق تامّ القوى والآلات، الذي هو باب الأبواب لحياة جميع الأبدان العنصرية.

فإننا نكون قد ألتزمنا قانوناً سيحكمنا في طبيعة هذا البدن...

تجعله، في شرفه ورفعته وسموّه، وفي قدراته ومَلَكاته، متناسباً مع شرف النفس، وعظمة القوى العقلية، وخطر الطاقات الروحية الحالّة فيه، أو المتعلّقة به... وعندها لا يمتنع عن أبدانهم شيء من الكمال، ولا عجب!

فكلّما عظمت الروح وكمُلت النفس وسمَتْ في وجودها، صار البدن أصفى وألطف، ولحقه من تنامي الإمكانات و«كمال» الطاقات، ما يجعله متمتّعاً بأوصاف تدرجه في التفوّق والخصوصية.

فلا عجب لبدن شفّ ورقّ ولطُف، أن نَظَرَت عينه الملائكة ورأت الجن وغيْر الجن من عوالم الغيب... لم لا وهذا البصر يغدو حديداً حين ينفصل عن البدن بالموت ودخول البرزخ.

ولا غرابة أن يبلغ صوته أقصى البلاد، فيخاطب أهل المشرق ويرد عليهم جواب أهل المغرب! أو أن يتنقّل بطيّ الأرض، فيقطع الفيافي ويجوب البلاد التي بينها مسيرة أشهر في لمحة بصر، ويسافر بالأشياء ـ مهما عظمت ـ وينقلها... كما جيء بـ «بلقيس» وعرشها من «سبأ» إلى «بيت المقدس». ولا غضاضة أن تنبعث في عضده طاقة تقلع باباً يعجز عن هزّها أربعون من ذوي الأنفس الغليظة والعقول الواهية أو الناقصة، وبالتالي الأبدان الضعيفة والقوى الخائرة، وإن كانوا من العمالقة والأبطال...

ولا غرو أن يصبح ريقه وسؤره شفاءً يفوق عقاقير الأطباء أثراً ونجعاً، ويخترق قواعدهم وضوابط صنعتهم. ولا أن «ترشح» منه «البركة» فتسري في يده ومسحتها، وفي ثوبه وملْمَسه، وفي تربته والبقعة التي يحلّ فيها...

بالله كيف تنفعل هذه الأنفس الكاملة وكيف تتفاعل؟

كيف تعيش بشريّتها وتجمعها بنورانيتها الأصلية؟

حقّ أن تتساءل الملائكة وتكرر وهي أعرف بـ «فاطمة»:

هل دخلها الهمّ والوَجَل من التحسّر على حال أمها «خديجة»، أم من غيابها وفَقْدِها الساعة؟

وهل أن الحزن على غيابها لنزعة بشرية وحالة دنيوية، اقتضتها طبيعة هذه النشأة، أم أنها لأمر معنوي، وحالة مرتبطة بالدور الرسالي، والحسرة على عدم شهود «خديجة الكبرى» وحضورها هذا الحدث العظيم، الذي اضطربت له السماوات وانقلبت؟!

أم ترى أن استدعاء «العيا» من الجنان هو مجرّد تشريف ومحض تعظيم، ومراسم احتفالية ينبغي إجراؤها على أية حال، أي أنها قضية شكلية ومسألة «بروتوكولية»! وأنه لم تكن هناك حاجة لمدد ولا مقتضٍ لِعَوْن ونجدة، ولا دعا الداعي لشيء من هذا؟

ثم ماذا لو كان السرّ في المولود المنتظر... لا ٱلأم، ونحن مستغرقون في البحث عن وضعها والحَوْم حول حِمَىٰ حالها؟

المولود الذي «بشّر» بشهادته قبل ٱستهلاله وولادته!

لعلّه هو الذي ٱستنزل الملائكة من الجنان، وقلب الدنيا، وأربك السماوات، وأذهل سكانها... أم أن هذا «البيت»، من الأم إلىٰ أبيها، فبعلها وبنيها، «بيت» يحلّق فوق البحث والتحليل ولا تطاله دراسة وتفسير؟

❋ ❋ ❋

وبين إعجال تحفّزه فطرة جُبِلت عليها الحور، من طاعة الأمر وٱمتثاله، وٱعتياق تبطؤ به البغتة والمفاجأة... كان شوق «العيا» لرؤية «ٱبنة الحبيب» والتلهّف للتعرّف عليها، هو ما يشغلها:

متىٰ ألقىٰ مَن ينتدبني الله، ويخرجني من الجنان لخدمتها وتسليتها، ويحرم أهل الجنة نعيم مرآي في سبيلها؟ مَن تكون هذه المعظّمة؟

وما إن عرض لها السؤال، حتىٰ أُلهمت الجواب!

فصارت تنادي في وصيفاتها وتصيح:

إنها «الزهراء»، ربّاه إنها «الزهراء»...

بهذا الأسم - دون سواه - يعرف سكان الملكوت «فاطمة»...

إذ ٱنجابت الظلمات وأشرقت السماوات بنور «فاطمة». ولم يكن قبل ذلك ثمّة منظر ولا مرأىٰ، ولا لموجود صورة تُدرك، ولا شكل يُعرَف، بل ظلمة حالكة فوقها ظلمات.

حتىٰ «العيا» نفسها، ما تألقت وأزهرت إلّا من ذلك «النور»، الذي شعّ من قنديل علّق في قرط «العرش»، أضاء به الوجود وأزهر.

فعرفت «فاطمة»... بـ «الزهراء».

لذا تراها إذا قامت في محرابها لتُصلي، أي لـ «تتصل» بالسماء، عالمها الأول ووطنها الأصلي، وهكذا عندما تلتقي بَعْلها «علياً»، شقيق النور الأول، بل نفسه... عاد نورها ليزهر، وضياؤها ليتألق، فتضيء «المدينة» وتطفأ السرج والمصابيح، حتىٰ إن النساء لتغزل في الليل الحالك علىٰ ذلك «النور».

أخذت «العيا» تفخر، وتصعّر على الحور خدّها، وتشمخ على الملائكة بأنفها، ولعلّه «زهو» لا يحبه الله إلّا في مثل هذا الموضع...

فمَن مثلها، وقد غدت هي «الخادمة»، لا سواها!

زُفّت الحوراء «العيا» في موكب ملائكي عظيم، خرج من الجنان إلى السماوات فالأرض، تحفّها وصيفاتها، يُسَرِّحْن شعرها المتهدل فوق كتفيها العاجيتين، ثم المنثور المتطاير من فرط نفرتها وسرعة نهضتها، ويصلحن هندامها الذي أهمله انشغالها بالمبادرة وإسراعها بإنفاذ الأمر. فتدلف بينهن بقدّها الأهيَف، في خفة ورشاقة، غرّاء غيداء، باسمة الثغر، وضّاحة الجبين... فكلّما خطت خطوة، قبّلت الأرضُ قدميها المعروقتين، وكلّما مرّت ببلقع اهتز وربا، واعشوشب وأزهر.

وفي حين كانت الشغل الشاغل لكل مَن مرّت به ورآها، كانت هي في شغف ولهفة أذهلتها، وترقّب وفكرة صرفتها عن كل ما ومَن حولَها، تسرع الخطى، وتطوي الطريق، لتبلغ مرامها بأسرع ما يمكن... فقد تحققت غايتها من الخلق، وبلغت مناها، وأدركت السرّ الذي كانت تبحث عنه عمرها كلّه... ها هي على خطوات من كمالها وتمام شرفها!

وفي الطريق إلى «البيت»، أزاحت «العيا» أستار دمقس مُوَشّىً بخيوط العسجد عن عربتها المطهّمة، وهي تعرج في قبة زرقاء من اللازَوَرْد، فوجدت الكمالات ورأتها متجسّمة، ناطقة، متجلّية بأروع صورة ومنظر:

«العدالة» تواكبها على ظهور الرياح،

و«العفّة» تقودها على الغمام،

و«الجود» يسوقها على «البراق»،

و«الجلال» يخفرها من فوقها ومن تحت موكبها...

و«العزة» ترفل في أثوابها الزاهية، تكلل المشهد بأجمعه.

وعلى أعتاب «البيت» وقفت «الفضيلة» تفرش لهذا الركب العظيم بساطاً من الورود، والملائكة ترفرف وتحييه بالحمد والتهليل والتسبيح، والصلاة على ربّ «البيت» وقاطنيه.

وعلى الباب...

تلقّت «العيا» التعليمات النهائية من «جبريل»، وأُفهمت أن هذا الميلاد ليس كغيْره من المواليد، فقد كان الحمل يحدّث أمّه، ويكرر عليها:

"أنا القتيل، أنا الذبيح"!

إنه ميلاد ومأتم، فرحٌ وتَرَح، سرور وحزن...

فعلَيها أن تحسن أداء مهمتها في السلوى، وأن تشغل «الأم» وتصرفها عن الفكرة في ما ينتظر مولودها الأعظم من البلوى.

وعلى مشارف الطَوْر الأخير من طقوس اللقاء وإجراءات الدخول، وقفت «العيا» تنتظر جواب الإذن الذي رفعه «جبريل»...

وقد رأت اضطراب الملائكة وإهطاعها، وارتباكاً وهلَعاً يعمّ الأجواء ويلفّها... هذا يعرج وذاك يهبط، وطائفة متحفّزة وأُخرى في خفر، وقبيل يترقّب وآخر يستعد ويتهيأ، والجميع في هيجان واستنفار.

فجثت على ركبتيها، ونشرت جناحيها، ستراً، أو مبالغة في الضراعة وفي ما هي مقبلة عليه! وأمسكت بعضادة الباب، وأسندت رأسها على رتاجه، وأخذت تقبّله، وأرسلت زفرات وتنهدات وأطلقت عبرات وأخلت سبيل دموع طال حبسها... وقد سجى طرفها الأخّاذ، فترقرقت من بين أهدابها الوطفاء عبرات لؤلؤية، تتقاطر على صفحة خدّ مورّد أسيل، وراحت مَلِكة الجمال وأميرة الحسن وربة الدلال تتمتم:

رحماك يا رب... ويح قلبي، أين أنا من هذي الدروب؟

أنا ما عرفت إلّا الجنان، والراحة والاطمئنان... وهذه مصائب وويلات، وقلل دونها تنقطع الأنفاس، وهموم ومحن تندك لها الجبال.

إنها أهوال هذي التي يعيشها هذا «البيت»، وعظائم يُدَبّر من خلالها الوجود، ورحى تدور عليها النواميس والأقدار، هذا قطبها. وأنا لا عهد لي إلّا بركن أنفرد به، وزاوية أنطوي فيها.

فأي معترك هذا الذي أقف على أعتابه؟!

لعمري، أهذه هي حياتكم يا «أهل البيت»؟

أي قلب يطيق هذا؟

إنني أعجز عن تدبير أموري وشؤوني الخاصة، على صغرها وتفاهتها، ولربما وَهَتْ أركاني وتداعت، وشَرُفَتُ على الأنهيار، إن علِمْتُ بخلاف عارض بين أثنتين من وصيفاتي؟

فكيف تعيشون يا سادتي؟

وكيف تمرّ الأيام عليكم وتتوالى الليالي؟...

أي قلب حول للنائبات يخفق في هاتيك الصدور؟

أي روح مضطلعة بالشدائد تدبّ في تلك الحنايا؟

أي جأش تثبتون به على النوازل والخطوب؟...

أي عرىً للجَلَد، وأساطين للصبر، وأطواد للأناة قامت هنا؟

فإن أشرق صباح البِشْرِ يوماً، وتهلل وجه الدهر، عن ميلاد تقرّ به الأعين، وتسكن به النفوس... نَعِبَ غراب البين، ورفرفت الهموم، لتخلط سروركم بالمرارة والأسى؟!

أميلادٌ وقتل؟!... إيه يا مولاتي يا «زهراء»!

وكانت قد أهوت إلى الأرض، وأستقرت على هيئة السجود، وصارت تقبّل أعتاب الباب، قبل رتاجه وعضادته... عندما أبلغت الأستجابة لطلبها، وتلقّت صدور الإذن بالدخول.

دخلت، ليتفتّح فمها الأحوى ومبسمها الجميل، عن تحية عطرة، وسلام كامل تام وشامل عام.

وإن وارت الحزن وغالبت الكمد، وتصنّعت الجلَد وإظهار البشر والسرور، وفقاً لما تقتضيه «المهمة» المناطة بها... فقد قالت في رقّة وعذوبة، ودلال مطبوع، ما تكلّفت منه شيئاً:

"السلام على الصديقة الطاهرة فاطمة الزكية، حبيبة حبيب الله ونبيه، وأم أحبائه وأصفيائه، التي أنتجبها الله وفضّلها وأختارها على نساء العالمين... ما قرّت عيني ولا هنئت، منذ كنت، كما أنا الساعة في حضرة مولاتي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين".

أجابتها «الزهراء» وردّت السلام... وقد لحقها الحياء من «العيا»، إذ لم تَدْرِ ما تفرش لضيفتها الجميلة الكريمة، وبم تستقبل هذه المترفة المنعّمة، القادمة من الفردوس الأعلى؟!

إذ ليس في هذا «البيت»، من أثاث ومتاع إلّا فراش من جلد كبش، ومخدّة من ليف، وقدر وخوان، وجرّة وكوز، وعود نُصِبَ هنا تتدلى منه قربة وسقاء، ولوح سُمّر في الجدار هناك تُعلّق عليه الثياب... هذا والبيت مهبط الملائكة، ومعدن الوحي والتنزيل، وفي أكنافه مقاليد السماوات والأرض، وإليه تهبط ومنه تصدر مقادير الرب الجليل!

وبينما «سيدة النساء» متفكرة في ما تصنع بضيفتها، حان منها ما صرف شيئاً من إرادتها، دون أن تلتفت، ولا أن تومئ وتشير، ناهيك بأن تأمر أو تطلب... إذ حضرت ـ في الآن ـ حور لتسعفن الموقف، وهن يحملن درنوكاً من درانيك الجنة، بسطنه في رحبة الدار، لتجلس عليه «العيا».

❁ ❁ ❁

كانت الحركة بين بيت «النبي» ودار «علي» قد تكثّفت، حيث تقاطر «الأصحاب» واجتمعوا، وكأن نفيراً للتعبئة، ضرِب لل «خواص»...

هذا «الحمزة» و«جعفر»، و«الزبير» يتلو «حذيفة»، وذاك «أبوذر» يحدّث «ابن عباس»، وقد انفرد «عمار» بـ «أبي أيوب» يتناجيان، وطفق «جابر» يسأل «سلمان»، وهذا «المقداد» قد وصل لتوّه.

و«النبي» يسعى بين الدارَيْن عبْر مسجده، لا الطريق العام...

حتى دخل على «ابنته»، فتبسّم في وجهها، وراح يشمّ عرفها ويقبّل جبينها، ثم التفت إلى النساء من حولها، وأصدر قراراً باتاً، ألقاه بلهجة حاسمة لم تقبل حتى الاستفهام:

لا ترضعنّه أمّه يا «صفيّة»... فإذا وَضَعَتْه فَأْتني به.

وكان قد سبق منه مثل هذا لـ «صفيّة» في ميلاد «سبطه الأكبر»، ولكنه خرج في بعض وجوهه، فأخذت «فاطمة» «الحسن» من «صفيّة» وله ثلاث بعد مولده ما أرضعته، فما استطاعت ـ وقد غلبتها رقة الأمومة ـ منعها.

فلما بلغ ذلك «جدّه الأعظم»، قال: أبى الله تعالى إلّا ما أراد.

ها هو ـ عليه وآله صلوات ربه ـ، يكرر تعليماته، بحسم، ولكن بأناة وهدوء وإبطاء ينأى بتسلسل الحدث عن الجبر والإكراه، وتترك لحركة الغيب مداها المريح وفضاءها الطبيعي الذي يلتقي مع المقدّرات بيُسْرٍ وسلاسة، لا تعوّقه رغبة تهز العرش، ولا يربكه دعاء يأبى الله ردّه، بل تسليم مطلق... فلا يشاؤون إلّا ما يشاء الله عزّ وجلّ.

ثم يخرج «النبي الأعظم» إلى بيته، ويختلي بـ «ابن عمه»، ووالد سبطه العتيد... ويستغرقان في حديث طويل لم تفقه منه الملائكة المتزاحمة، ولا الأصحاب المجتمعون في تلك الأكناف شيئاً.

ويُخرج «علي» سجلاً، يقلّب فيه أوراقاً ويطويها، ويشير لـ «النبي» إلى مواضع فيه، ويتلو منه بالسريانية، ثم مقطعاً بالعبرية، وآخر بالقبطية لغة أهل «مصر» و«الحبشة»، ويستمر الحديث باسماً مستبشراً...

ثم يشار إلى «سلمان» لينضم إليهما، ويشركانه في حديثهما.

تقدّم «سلمان» وشارك في الحديث، ولكنه كان في واد آخر، يصارع نفسه في معترك الجهاد الأكبر! كان يجاهد ليستجمع كلّ طاقته، ويركّز ويصب تفكيره ليرقى إلى مستوى الحدث... الحدث الذي قادته المقادير، أن يكون أحد حضّره وشهّده، جنباً إلى جنب هذا الحشد المعظّم، وفي هذه الأجواء المفعمة بالقداسة، المحفوفة المستغرقة بغاية «الخصوصية».

«الخصوصية»، هذا ما كان يربك «سلمان»، ويشوّش عليه صفاء اللحظة ونقاء المناسبة وقدس الواقعة، وينقله إلى شُبهة «الأنانية» والنزعة الشخصية التي تفصله عن الحدث، تنتزعه من رحابها الملكوتية إلى نطاق ضيّق ينفرد فيه مع نفسه، نزعة تفصله وتقوقعه داخل ذاتيته... إنه يُستخلص من بين الصفوة، ويحظى بهذا القرب ويستأثر بهذه المنزلة دون بقية الأصحاب، بل دون الخواص المقرّبين!

إن هذي الهواجس والوساوس تفقده وقاره واتزانه، وتلقيه في دوامة حرجة من القلق والاضطراب:

هل القضية عندي هي هذا المولود، والحدث الذي تنتظره الإنسانية ويرتقبه الله منها؟ أم القضية: «أنا»؟ «أنا» المحور، بحضوري ووصولي ودوري ومقامي وحظوتي وخطري و...؟!

كان شعوره بالأستئثار والحظوة، ونشوته البالغة من هذا الأمر الجلل، في حقيقته وواقعه، يكاد يشغله عن الحدث نفسه، ويغلبه على ضرورة ووجوب أندكاكه فيه، ويهدّد بفقده سعادة معايشته، وينذر بخسرانه حصائد مواكبته الروحية... فيلحقه الغُبْن وتلزمه التعاسة البؤس أبداً!

لم ينقطع نداء نفسه إليه:

مَن يساميك مجداً ويطاولك شرفاً يا «سلمان»، مَن مثلك وأنت في هذا المحفل إلى جوار «محمد» و«علي»، وهذا الرعيل من الملائكة، تنتظرون ميلاد الذبيحة الإلهية و«القربان» الأعظم؟! أين بلغتَ يا «روزبه»؟ وإلى أين عسى هذا الحدث أن يرقى بك ـ من بعد ـ ويبلغ؟

ثم يعود ليردّ على نفسه ويدفع:

لعمري، ماذا يعيب هذه الأفكار، أن يفرح المرء بتوفيقاته كما يحزن لسقطاته وزلاته؟ أن يعيش همومه ويقلق على وضعه؟ لماذا يتعبّد العُبّاد إذاً؟ أليسوا يرجون أجراً وثواباً أو حظوة ومقاماً؟

ولا يضرّ بعد هذا أن يتفاوتوا في نوعية الأجر:

هذا يريد القصور، وذاك الحور، وآخر يصبو إلى رضوان من الله أكبر. ولكنه ـ على أية حال ـ يريد الرضوان لنفسه، يريد أن يبلغ «هو» هذه الأهداف ويحقق لذاته هذه الغايات، فهل من ضير في هذا؟

هل هي أنانية ممقوتة وذاتية منحطّة؟

لله درّ هذا الصراع، لا يكاد ينتهي منه فصل حتى يبدأ آخر!

وبينا «سلمان» في هذا، يقلّب الأمر وقد أستعجم وغام أفقُه...

إذ قطع عليه «المولى» حبل أفكاره، ماداً إليه يد العون بل الغوث، خالعاً عليه بُردة أخرى من جديد نعمه وآلائه... قحم عليه بواطن نفسه، وكشف مكنون سرّه وصار يحدّثه عما يختلج في صدره، مرشداً وهادياً:

هوّن على نفسك يا «سلمان»...

إن هذا المولود الذي ترتقب، سيُكمِل لكم مسيرة السمو ويتمّم معالمها، سيعلّمكم كيف يكون الخلوص، وكيف يكون الانقطاع إلى الله والفناء فيه بأجلى صوره وأتمّ حالاته، وكيف تُنكَر الذات، وكيف يخلو القلب من كل شيء ليصبح «عرش الله»...

ثم سيفتح لكم ويشرع أمامكم أبواب العشق المطلق...

سترثون وتندبون «القربان»، وستبكونه دون أن ترجون مثوبة وأجراً، فيتحقق في أنفسكم سموٌّ يعمر البيد والفدافد، ويخضر الفيافي والأجارد، ويدكدك الأطواد ويطوّع القلل الشمّاء! عندها، بين رغبة وإرادة وعزم صادق، يخلق فيكم لطفاً ويوجب عناية وآجتباءً وآصطفاءً، ستتكاملون وترقون، وعندها ستحلّقون في سماء المجد الأتم، بعيداً عن أية «إنيّة» و«ذاتية»، وتبلغون من الخلوص مداه الأنقى الذي لا يشوبه شيء...

ستنتهي هذي الهواجس يا «سلمان»، وتبدأ روحك مسيرة أخرى تختلف عن هذه في كل شؤونها!

هكذا آستعاذ «سلمان» بربّه من الشيطان، وآستل نفسه من أضطرابها وتلاطم أفكارها، وآنصرف إلى الفكرة في الوليد «القربان»، وما ينتظر البشرية بقدومه، وكيف سيغدو الكون وتصبح الحياة بوجوده، ثم:

كيف ستكون مراسم تقدّمه للمذبح؟

وكيف سيتلقّى الله هذا «القربان» ويرفعه إلى جواره؟

ما فرغ «سلمان» من تلقّي درسه حتى كانت الدار قد آنقلبت، وكأنّ الحدث المنتظر قد وقع، وأن «القربان» قد أطلّ على الدنيا، والفداء الأعظم قد جاء ووُلِد... آرتفعت أصوات وعلَت جَلَبة، وسُمِع رنين وحنين، وآلاف الملائكة ترتل وتشدو بصوت واحد:

طُهْرٌ طاهِرٌ مُطَهَّر، من طُهْرٍ طاهرٍ مُطَهَّر، طَهُرْتَ وطَهُرَت بك البلاد، وطَهُرَت أرض أنت فيها...

شهيد مقتول، عطشان مظلوم...

ليل طويل، وصرخة وعويل... كُرَبٌ وهموم، وأتراح ووجوم... غصص وحسرات، وآهات وزفرات... قيامة الأحزان، ولهيب النيران... ندبة وأسف، حرقة وتلف، شجن وأفتجاع، وكمد وألتياع...

ثم يقتسم الصوت السماء فيدوي في جانب:

نور الله الذي لم يطفأ ولا يطفأ أبداً...

فيرد الجانب الآخر:

وجه الله الذي لم يهلِك ولا يهلِك أبداً...

يأتي الجواب بما يطير العقول:

قتيل الله وأبن قتيله...

فيرد الجانب الآخر:

ثار الله وأبن ثاره...

ثم يعود الصوت ليشترك من جديد في صرخة واحدة، تخالها نفخة الصور التي سيهلك بعدها كل شيء:

دماء تسكن الخلد وتقشعرّ لها أظلة العرش...

صريع العبرة الساكبة وقرين المصيبة الراتبة...

إجابة تحت القبة، وشفاء في التربة، وفوز في الأوبة...

لُعنت أمة تقتله، وأمّة تخالفه، وأمّة تجحَد ولايته، وأمّة تُظاهر عليه، وأمّة تَشهَد ولا تُستَشهَد...

أنهارٌ من دماء، وجند من السماء، يثخنون فيجزلون للحق العطاء! حتى يدركوا الأوتار ويثأرون للثار ويُرضون الجبار، صلى الله عليهم مع آختلاف الليل والنهار.

اللهم بوّئنا معه دار الكرامة ومحل الإقامة.

اللهم كما أكرَمتَنا بمعرفته، فأرزقنا خدمته، وآجعلنا ممن يحيي ذِكْرَه ويديم ندبته والتفجّع لمصابه والجزع عليه، وأجعلنا ممن يكون ذلك شعاره ودثاره.

كان الفجر قد أنفجر وأسفر، وقد أستطار فملأ ضوؤه الأفق، يعلن عن غدوة ما رأت البسيطة ساعة بين الطلوعين مثلها، مذ أشرقت شمس ودارت أرض وكانت حياة. والتباشير تحملها تضوّعات عطرة، وحلّة قشيبة كست كل شيء هنا... والدار تموج بأفواج الملائك، قبيل يتلو قبيلاً، هذا على خيول بُلْق مُسرَجة، وذاك في هوادج مجلّلة بقباب الدُرّ والياقوت، وملائكة بأيديهم أطباق من نور لا يُعلم ما يحملون فيها وما يقدّمون! ورعيل كان غريباً في شكله وهيئته حتى على بني جنسه وأقرانه!...

يهنون «النبي» و«الوصي»، ويباركون ويتبركون.

وبين هذه الجموع تقدّم «فطرس»...

ناكس الرأس، مهيض الجناح، مقيّداً مكبلاً، لا يقدر على حراك، ما كان يدري ما يقول، وماذا عليه أن يفعل في هذه الحضرة، فتعلّق بأذيال «جبريل»، وصمتَ! ولكن روحه كانت تتألق وتسمو كأروع ما يكون...

وكأنه نسي مطلبه الأصلي وغرضه الأول:

ألتماس الشفاعة للعفو والغفران، فالخلاص... وراح يتأمل في وجه «النبي» الخاتم ويملأ عينه من هذا المرأى الزاهر، لا يلتفت ولا يطرف إلّا إذا ألتقت عيناهما، فما كان يطيق النظر، فيغض ويكف في مزيج أدب وحياء، أو خجل، ثم يعود ليسترق ما يتيسّر له من جديد!

أراد «جبريل» أن يشرع في بيان حال «فطرس» ويشرح ما نزل به ثم يدعو ويرجو ويتوسّل، وإذا بـ «النبي» الأعظم يكفيه السؤال، ويبادر قبل الطلب، ويشير إليه بأن يدخل به الدار ليتمسّح بمهد «الوليد»، ففيه ما يكفيه!

تقدّم «فطرس» ودخل الدار أول الأمر زاحفاً، فلما قرب من المهد، حمله «جبريل» ورفعه، ثم أدناه وأدناه، حتى لامَس القماط...

فصار يتمسّح، ثم أخذ يعفّر وجهه ويمرّغ ناصيته، فما زالت كسوته تظهر، وريشه ينبت ويطول ويكبر، حتى أكتمل جناحاه، وعادت إليه قدراته كاملة! و«الصدّيقة الكبرى» تنظر مشفقة مستبشرة فرحة، وقد بان فضل ولدها وظهرت كرامته من لحظة ميلاده، فبرق ثغرها وقرّت عينها...

ثم نادىٰ «النبي» الأعظم وأمر بـ «سبطه الأكرم»، فلما جيء به، شمّه وقبّله ووضعه في حِجْرِه، وصار يلقمه إصبعه تارة فيمصّه، ويضع لسانه في فمه أُخرىٰ فيمكّه ويمزّه كمَن يرتضع، حتىٰ يروىٰ!...

وهٰكذا كانت حاله معه حتىٰ فُطِم وفُصِل، ولم يرتضع من «فاطمة» ولا من غيْرِها لبناً قط، إنما نبت لحمه من لحم جدّه «الرسول» مباشرة وبلا واسطة، إذ كان يأتيه كل يوم ويلقمه إصبعه أو لسانه.

و«روح القدس» ينظم، ويملأ الأجواء بنشيد عذب:

لله مـرتـضعٌ لم يـرتـضع أبـداً
من ثَـدْيِ أنثـىٰ، ومن طه مـراضِعُه
يعـطـيه إبهـامه آنـاً فـآوِنَـةً
لـسـانه فـاسْتَـوَتْ مـنه طبـائعُه

ورغم زخم الفرح المتفجّر في الأنحاء، الحاكم على الأجواء، بين الوفود المهنئة والأفواج المتبركة التي تطفر بلَجاً، والبهجة التي تقطر من السماء وتفيض من الأرض وتنضح من الجدران وتعبق في الأرجاء...

رغم كل ذلك، كان بادياً على طائفة من الملائكة والأصحاب، وحتىٰ علىٰ «أهل البيت» والأرباب، أن طوقاً من الحزن يلف هٰذه الفرحة، ووشاحاً من الغم والكمد يغطّيها ويحيط بها من كل جانب...

إن حزناً مريراً يقيم هنا ويقبع جاثماً علىٰ كل شيء، يبدو أنه كان قد انزوىٰ وانحسر إلىٰ حين، ولٰكن ها هو يتحيّن ليعود ويظهر ويفتك بكل شيء، منزعجاً من ساعة الفرح التي مرّت، وكأنها تطاولت علىٰ حقّه وقهرته ملكه وأزاحت سلطانه المهيمن!

❁ ❁ ❁

عاد «سليمان» وقد وجد الحزازة في نفسه، وهو يرىٰ ألهمَّ يرتسم في هـٰذا المحيط. فهاجت فيه تساؤلات، ما وجَدَ بُداً أن يطرحها علىٰ مولاه ومعلّمه، رغم إدراكه بأن المقام لا يحتمل بحثاً وطلَباً، ولـٰكنه يعلم ـ أيضاً ـ أن أهل هـٰذا «البيت» لا يكلّ فيهم حدّ ولا تضعف لهم همّة، ولا يصرفهم صارف عن الأصل الذي له يعملون، أو يزويهم عن الرسالة التي يبلّغون.

فتوجّه إلىٰ «المولىٰ»:

أليست هي ضالتنا جميعاً، وقد أدركناها؟

لِمَ نحزن إذاً وعلامَ نأسىٰ؟

أنَقضي حياتنا نرتقب ونترصّد وننتظر، نلاحق العلامات ونتتبع الإشارات، ونعدّ الليالي ونحسب الأيام... فإذا حانت الساعة وآن الميعاد، بِتْنَا وكأن طامّة نزلت بنا ومصيبة حلّت علينا؟

إنه «القربان» يا مولاي، ولا بد له أن يضحّىٰ به، أو يتقدّم لحتفه، أليست هـٰذه إرادة الربّ ومشيئته، ألسنا نتَحَيَّن ـ منذ كنّا ـ لهـٰذه ألتقْدِمة وهـٰذا «الشَّبَر»... فأي بأس في هـٰذا؟

وأيم الله إنه ليعزّ عليّ، وودت لو أني أفدي ولدك بمئة ذبحة تنحرني، وأنت أدرىٰ بحالي مني... ولكني لأحار فهماً وتفسيراً: يُخرج هـٰذا الحزن ويدرأ عنه «السخط»، إلىٰ ما عرفته فيكم وأخذته عنكم من «الرضا».

لقد وجدْتُ فضل «الرضا» وعظمته في سيرة المتقدّمين، ورأيته مدوّناً موصىً به في صحف الأولين، كما أخذت ذلك عنكم، فعرفْتُ مقام «الرضا» وخطَره، وإن كانت حقيقته غامضة علىٰ الأكثرين، فإنه عند العارفين من ثمرات المحبة، وهو أعلىٰ مقامات المقربين...

إن الحب يورث «الرضا» بأفعال الحبيب... ذلك لأنه إما أن يُبْطِل الإحساس بالألم من فرْط آستغراق المرء في معشوقه وشغله عما يعتريه من موجبات الآلام، أو أنه يحسّ بالألم ويدركه، لـٰكنه يريده ويرغب فيه لغلَبة العقل، كمَن يطلب العلاج فيرغب في الكي ويتحمّله، أو يريد الكسب فيتجشّم عناء السفر ويكابد أخطاره.

ثم راح «سليمان» يسرد كعاشق يتغزل!:

إنه سرور القلب بمُرّ القضاء، إنه التلذذ بالبلوى، وهو الأنقياد المطلق وترك الأختيار، وإذا أتصل «الرضا» بالرضوان أتصلت الطمأنينة ودامت، فطوبى لهم وحسن مآب، فإن «الرضا» في الدنيا تحت مجاري الأحكام، يورث «الرضوان» في الآخرة بما جرت به الأقلام ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾...

إنه تمام علامة الإيمان، وشعار الحكماء العلماء الذين كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء: يصبرون عند البلاء، ويشكرون في الرخاء، ويرضون بمواقع القضاء. والخطبُ خطير لم أتخطّه منذ علمته جلّ وعلا يقول:

أنا الله لا إله إلّا أنا، مَن لَمْ يصبر على بلائي ولم يرضَ بقضائي ولم يشكر نعمائي، فليتّخذ ربّاً سواي.

كان «سليمان» مسترسلاً في نثر ونشر ما يعرف عن «الرضا»، ماضياً في تلمّس مساغ يحثّ «المولى» على البيان والتوضيح وكشف اللبس عما يجري. ولعلّه ـ من جانب آخر ـ كان يُرْسِل، من موقع خفي لطيف، ما يرجو أن يُفرح «المولى»، ويزيح بعض كَمَدِهِ ويبث فيه السرور والأنشراح، فهو يعلم أن لا شيء يفرحه كتفقّه أصحابه وإتقانهم ما علّمهم.

و«المولى» في صمت وإطراق، كشارد الذهن، أو كمن يتفكّر في الجواب أو يتمهّل لينتقي أحسنه... وما كان في هذا ولا ذاك، بل كان ينتظر من نفس «سليمان» رقياً يؤهّله للأنتقال إلى مقام أرفع، ويُدْرجه في مرتبة جديدة فوق التي هو فيها الآن، فليس لمثل «سليمان» أن يبقى على ما هو عليه، ولا أن يمرّ على هذا الحدث دون حصيلة ونتاج، وجَنْي وحصاد! فالفيوضات المتدفّقة الساعة كالسيل المنحدر، ورشحات العناية التي تعمّ أجواء الحدَث وتصبغها، تسمح لـ«سليمان»، بما يكمن في نفسه وينطوي عليه من ملَكَات، وبما يتمتّع به من قابلية ويحمل من أرضية... تسمح له أن يرقى ليباشر بنفسه تلقّي العلم من مكامنه النورية، ويكمل ما ينقصه من صفات!

نعم، إن بإمكانه أن يدخل قلب «مولاه» ويرتبط بروحه، فيرد النبع ويتّصل بالنبراس ويشرف مباشرة على كنوز العلم وذخائر المعرفة ومعاقل الحكمة، وينهل منها ما يشاء، وسيغترف على قدر ما يحمل من وعاء.

فالقابل حاضر والمقتضي موجود والمانع مرفوع، وباب العلم وسادنه، سيّده ومولاه، سخيّ كريم لا يعرف الشحّ، يُغدِق بلا ضنّ وإمساك، ويُنعِم بلا إبطاء ولا منّة في العطاء، ولا يريد شكراً ولا جزاء.

ولبلوغ هذا المقام ونيل هذا المرام، كان «سلمان» بحاجة لتدخّل ما من «المولى»، يسعفه ويأخذ بيده ويسنده، فإذا رفع قدماً وهمّ ليصعد، تقدّمت منه الدَرَجَةُ التالية بنفسها، حتى صارت تحت قدمه، فوضعها وأوطأها، فأرتقى... وبلغ! كالنفساء المروعة التي «هزّت» إليها بجذع النخلة، وأين هي عن هزّه؟ فتساقط عليها رطباً جنياً!

فُتح له الباب، وبدأت الصورُ ترتسم أمامه وتحضر في نفسه.

لا يكاد يسأل ويستفهم أو يتساءل ويستعلم عن شيء، حتى تمثّل الجواب أمامه صورة تامّة كاملة، تحضر وتنطبع في ذهنه، فيتهافت السؤال ويسقط، وتمتلئ مساحات الفراغ والجهل في نفسه.

عندها، وقد حضر جواب سؤاله فعلمه...

شهق «سلمان» وتأوّه، بل زَفَر زفرة كاد ينشقّ لها ويَهلَك، وعاد وقد أستوطنه الحزن الذي كان يشكوه من الآخرين وفيهم! ويستجلي أسبابه ويستكشف أسراره متعجباً أو حتى مستنكراً... عاد من مطّلعه وقد صار فيه أضعافاً مضاعفة عما كان في غيْره، وصار يراهم مقصّرين!:

آه آه، رحماك ربي، ألهذا كانت همومهم، ومن هذا يألمون؟

بعد أن كانت قضيتهم وكان همّهم، عليهم صلوات ربّهم، في الملكوت الأعلى إطفاء نائرة الشرك، وتنزيه الباري عن التعطيل والتشبيه، أصبح همّهم في الدنيا أن تمضي المسيرة دون إعاقة وإرباك، فلا يعرض «بَدَاء» يكشف ما لم يظهر مما أَستُتِرَ في مُستسر علم الله... يخسف الدنيا، وتتعطّل الحياة دون أن يتحقّق «القربان» والوراثة الموعودة.

ستكون في تقديم هذا «القربان» أهوال وفجائع يهتزّ لها «العرش» حتى ينصدع، وسيصحبه عصف وقصف، لا يأمن أن يحلل معه السخط وينزل الغضب، ولربما طُويت البسيطة، وأرجأ الله تعالى ما يريد إلى غيْر هذا الأجل... إلى حياة أخرى، و«آدم» غيْر آدمنا! وما يدرينا، لعلّ المسيرة توقفت في الحيوات السابقة عند هذا المشهد؟ فلم يَسَع الوجودُ هولَه ولا طاقَ الموجود فجعتَه! فعادت الكَرَّةُ من جديد لتبدأ الدنيا حركتها على حياة أخرى، ويشرع العالم في مسيرة جديدة، ستتقادم وتمضي حتى تبلغ الموضع نفسه، فنرى كيف تصنع مع الفداء وتتعاطى مع الأضحية و«القربان»، ليأتي ـ بعدها ـ ويتحقق الوعد الإلهي بوراثة الأرض ومَن عليها.

على «القربان»، كما على قادة المسيرة البشرية وأئمة الوجود، الذين هم أرباب «القربان» وأهله وحمَلَة القضية وأصحابها، أن يسلكوا بها، ويتقدّموا معه، على الغاية في الدقة والنهاية في الحيطة والحسم، ما يُسكّن نفوسهم عن الفجعة الكبرى ويوازن مشاعرهم عن الغضب المطلق.

وهكذا عليهم أن يحملوا عن البشر، الذين تصدّوا لهديهم، وأمرَهم الله أن يستقيموا معهم، يتحمّلوا غدرهم وخذلانهم، وكل موجبات قطع الإمهال وأسباب تعجيل العذاب... فلا يعرِض في تلك العرصة والساعة الموعودة ما يمسّ الله في ذاته المصونة، وينال من جبروته وكبريائه، فيحلل غضبه الأكبر، وتنزل نقمته العظمى، ويقلب عاليها سافلها...

بل أن يتقدّم «القربان» لمصرعه، وفقاً لعناية الله سبحانه وتعالى الأزلية ومشيئته الماضية القديمة، ويُقَدَّم على «المذبح»، و«يُنحر»، كما يطيق الوجود ويتحمّل، وبما يحفظ العالم عن الفناء والدنيا أن تتقوّض...

فلا تستقبل الأرض قطرة من دم الأضحية، بل تنثر دماؤه في الفضاء لتتلقّفها الملائكة وترفعها إلى السماء. ولا تكشف عورة. ولا يهتك حجاب الظعن المصون عدوٌ أو جَزَعٌ. ولا يبلغ «القربان»، وهو وعاء مشيئة الله وعيبة إرادته، مبلغه من الأذى! *

---

* سيأتيك ذلك في سرّ إظهار الانبساط والتبسّم وما قام به «القربان» لحظة ذبحه!

وهنا معنىً لطيف وسرّ دقيق يخفى على غيْر أهله...

أن ينصهر العنصر أو الفِلِز دون أن تحترق البوتقة، ويغلي السائل ويفور فلا تنال الحرارة من المرجل، كما تقسو ألياف الثمرة وتصلب فتكوّن طبقة القشرة لينعم اللب بالطراوة واللين.

أن يلتقي هذا وذاك في عملية واحدة وينهضا شراكة بالمهمة نفسها، دون أن يطغى أحدهما على الآخر ويزيحه أو يلغيه، فتختل الموازين وتضطرب النتيجة؟... أن يأتيك النور من قنديل، أو مصباح في زجاجة، يرسل الضياء وينشر الإشعاع عبر «الزجاجة»!

ترى أين الوعاء هنا وأين المحتوى، مَن له أن يميّز ويفرّق؟

كيف للآنية أن تدرك حدود ما يكفي من الطاقة والحرارة لغليان محتواها، أو للبوتقة ما يفي بانصهار ما فيها، فلا يبلغ الانفعال ما ينال منها هي، فيختلط الأمر ويفسد؟

إن هذه الذوات العظيمة المقدّسة، «القربان» وأهل بيته الأطهار، هم ـ في حقائقهم ـ وعاء إرادة الله عز وجل، إنهم يشكّلون «المشيئة» التي خلق الله الأشياء بها، بعد أن خلقها بنفسها... إنها القنطرة التي تتجلى الأشياء وتُخَلَقُ الموجودات وتتحقق إرادة الله عبرها.

فإلى أي حدٍّ ومدىً عليها أن تكون دقيقة في حساسيتها، وشفّافة في تلقيها عن ربها؟ كيف عساها أن تجمع هذه الشفافية مع نشأتها الترابية وحياتها في هذا العالم، وهي بهذه الكسوة ومن هذا العنصر؟

ثم كيف لها أن تسمح للأمر أن يمضي بأسبابه الطبيعية، دون أن تلجأ إلى قدرات تخرق العادة وتأتي بالمعجز؟

كيف لها أن تعيش الحدَث وتمارسه، تتصدّى لقيادته وتنهض بإدارته، ثم تقرن إلى ذلك، بل تمزجه بدورها الأصلي وحقيقتها النورية المتسامية فوق المخلوقات والكائنات؟ فتقف برزخاً بين الخالق والمخلوق، وجسراً يوصل بين الذات المستترة المحجوبة بغيب الغيوب، وبين الممكنات والمخلوقات التي وجدت و«كانت» بقدرته جلّ وعلا؟

إن التألق في إدارة الحدَث، يجب أن يكون في ذروته وأقصاه، والعظمة في أوجها ومداها، والمجد والكمال في غايته ونهايته...

لا بد أن ينعدم فيهم الهوىٰ فيكونوا عقلاً محضاً، ويُعصَم الفكر وهو يرسم خطاهم فيكونون علماً مطلقاً، ويسمو الإحساس وهو يهدي انفعالاتهم، حتىٰ يُخلق في أنفسهم سراط كحدّ السيف مضاءً وسُمْك الشعرة دقّة ورقّة، فتتوازن ملَكات الغضب إلىٰ الحلم، والغيرة والهم إلىٰ التعالي والأنفة، والعدالة إلىٰ الرحمة، والنقمة إلىٰ العفو، والمكر إلىٰ الإعجال، وكل ما إلىٰ ذلك...

لا بد أن تتجلىٰ فيهم حقيقة "لا يشغله شأن عن شأن" في حدّها النهائي القابل لـ «حادث» لا «قديم»، وتظهر بطاقتها القصوىٰ لـ «ممكن» لا «واجب»، فيتمكّنوا من جمع شتات مَهام، وتحمّل ثقل أمانات، لو عرضت علىٰ السماوات والأرض والجبال لأبَيْن أن يحملنها وأشفقن منها... فمَن يُقدّم في تلك الساعة هَدْياً يُنحَر، عليه ـ وهو علىٰ المذبح ـ أن يعيش مصيبته ويترك العنان لغضبه وسخطه ما يطفئ غضب الرب ويسكن سخطه ويخفف اهتزاز «العرش» وفورته، ثم يضبط إرادته ويحكم انفعالاته، بحيث يجمع إلىٰ ذلك عزماً وهِمّةً وإرادة تحفظ المسؤوليات وتمضي بالمهام وتؤدي الأمانات الأخرىٰ: كمهمّته ودوره في حفظ الأرض وقيامها علىٰ أركانها ألّا تميد وتسيخ بأهلها، واستقرار السماء في أبراجها فلا تنهار وتقع علىٰ الأرض، وإبقاء النجوم في أفلاكها فلا تنتثر وتنكدر، والكواكب في مداراتها فلا تنفطر، والبحار ألّا تنفجر. يجمع ذلك مع مصابه ولوعته من مصرع أبنائه وصحبه وأعزته، ومع تفجّر حِرْصه وغيرته في صون حجاب حريمه، لا يهتكنّه الألم حين لا يطاق، فيفجع ويجزع ويخرج عن خدره، أو يكشفنّه عدو بوضاعة وطيش، وبشقاء لا يتناهىٰ، ولا يقف عند حدّ أو حرمة.

هذا هو همّهم، وعلىٰ هذا حرقتهم وغُصّتهم وحرصهم، أن يبلغوا بالمهمة غايتها التامّة الكاملة، ويؤدوا دورهم علىٰ أحسن وجه وصورة، كما أراد الله سبحانه وتعالىٰ، دون أن يحول مانع ويعرض ما يوجب «بَدَاءٌ».

أما حزنهم وأساهم...

فليس لـ «خسارة»، و«ضياع» هـذا العزيز...

كيف وهو «قربان» يقوم حين يقضي، لله، يندفع ليعانق الموت، راغباً عن الدنيا، مُعرضاً عن الحياة عازفاً عنها، ويسعى لحتفه طوعاً، بل شوقاً ولهفة. ولو كان عاشق ليأسى على بذله في سبيل محبوبه وتضحيته لمعشوقه، لشحّ وبخل، وما قرّب ولا ضحّى.

إذاً فالحزن هنا ليس من حرص وبخل، ولا لفقد وخسران، ولا أسفاً على عطاء وندماً على تضحية، ولا من أذىً وألم، وهو ليس ـ بما هو معلوم بطبيعة الحال ـ لجهل بقيمة الدنيا وحظّها أمام الآخرة والجزاء الموعود فيها... فهم أعلم الناس وأزهدهم، وهم الأصبر والأشجع والأكمل، ولو قُطّع أحدهم إرباً إرباً ما ازداد لله إلّا رضاً وحباً.

إن لـ «القربان» خصوصيّاته التي لا تخضع إلّا لقوانينه، له فقهه، وله أحكامه، وله شأنه، وكلّها تميّزٌ وخصوصية. لا يمكن قياسها بغيرها ولا تصحّ مقارنتها بسواها.

وناهيك بهذه الخصوصية، من أن الحزن على «القربان» أمر يحلّق فوق القوانين والسنن التي نعرف... فإن ما يَقبحُ من الحزن والأسى، هو ما كان راجعاً إلى السخط على قضاء الله وقدره مما ينزل بالمرء من نوائب الدهر ومصائبه في دنياه. أما المصيبة إذا حلّت في الدين وعليه، فهُتِكَ حكم الله، وانتُهكت حرمة لله، فإن الحزن والأسى ليحسن ويكون كمالاً وطاعة.

فكيف بالمصيبة العرشية الملكوتية؟ وكيف بالنازلة الأعظم؟

إن الحزن على «القربان» حزن على هتك أعظم حرمة لله، والألم والأسى عليه تألم وأسىً على فقد أعز ولي لله، واللوعة لوعة على ضياع الحق الإلهي الشرعي وغلبة الباطل الشيطاني... والجزع مكروه مرفوض إلا في هذا، فهو حسن جميل وطاعة للجليل. إنه أمر في صميم «الرضا»، ومورد لا يدور إلّا في فلكه، فلا يُقابل به ولا يُعارَض... ولا يخضع لقوانين «السخط» أو ما يضاد الصبر وما يدخل في الاعتراض على قضاء الله بأي نحو.

بل على قدر ما ٱنطوى في تقديم «القربان» من «الرضا»، وما تجلّى في سعيهم الممتد والمتواصل لحتفه ومصرعه، بل لهفتهم وشوقهم للمذبح ولقياه... على ذلك القدر يأتي الحزن عليه وتنفجر اللوعة والأسى.

كان «سلمان» يعجب من توالي جديد الصوَر في نفسه وتدفّق الإجابات والمعلومات عليه بخصوص الأمر الذي سأل، رغم سرعة ٱقتناعه وكفايته من الدليل وسكون خاطره مما عرف...

وقد دخل في الدهشة حين وجد هناك، في مخزون العلوم الذي ٱنفتح أمامه، ردوداً تدحض تشكيكات وتعالج شُبُهات، لا مجرد إجابات عن أسئلة وٱستفهامات! فكأنه سيكون في آتي الأيام، مَن لا يقنع بهذا ويرفضه، وسيُحارِب «الحزن على القربان»، ويُبقي على مناورته وقفزه على مفهومَي «الرضا» و«السخط»، ويزيّن لنفسه ولأتباعه، أن في الحزن الممتد ومظاهره، سخط مُستبطَنٌ على قضاء الله، وٱعتراض على قدَرِه، ومبالغة لا تنبغي!

عاد «سلمان» من جولته الآفاقية، وقد ساءه وأقلقه أمر تلك الشبهات التي ستثار في آتي الأيام، إذ قرأ فيها جرماً عظيماً وخطباً فظيعاً سيخلّف في أداء البشرية تقصيراً وهضماً لحق «القربان» وحظّه من الحزن على مصابه، وسينال من وفاء الإنسانية بواجبها على هذا الصعيد، ما سيؤثر في المسيرة ويؤخر في الوراثة الموعودة التي ستلي وتلحق بتقديم «القربان»...

فٱلتفت إلى إخوانه من الصحابة، وقد دخله الخوف والحذر أن يصاب أحدهم بهذا الداء، فأراد وقايتهم، فراح يحدّثهم:

إيه أيها الإخوة، أتدرون لم شيبت فرحتكم الساعة بالحزن؟

لأن الله في عليائه قد سخط وغضب، وحزن في عرشه حتى تزلزل وتصدّع... فسخط سادتنا ـ تبعاً لذلك ـ وحزنوا، وسيغضبون ويبكون حتى يظهر فيهم الجزع! فٱتبعنا نحن سنّتهم وٱقتفينا آثارهم ووافقناهم.

إن الحزن (في القلب) ومظاهره (على الجوارح) جزء رئيس من المهمّة المنتظَرة، وجانب أساس في الدور المناط بهم على هذا الصعيد، ويدخل في صميم ما أراده الله منهم وكلّفهم به.

إنما يحزنون على «القربان» ويجزعون على فقده، ليؤدّوا بذلك حقاً، وينهضوا بواجب، ويوفوا دوراً، لو تخلّفوا عنه لحلّ على الدنيا ما يخشون، ووقع على القضية ما يحذرون. ولا بد أن يتبع الألم والحزن، عَبْرَةٌ ساكبة ومصيبة راتبة، وندبة ورثاء، وصرخة تملأ الخافقين، وتضجّ بها ومعها السماوات بسكانها والأرضون بما فيها. وإن بُخس «القربان» حقّه هذا، لا يأمن أن يقع من الله عزّ وجلّ ما يخشون ويحذرون.

لقد قدّر الله لهذا المصرع حزناً ولوعة وحرقة، لا بد أن تبلغ مداها، وتستوفي أجلها، وتحقق غايتها ونهايتها. إنه مما يريده الله لحبيبه، المظهر الأتم لأسمائه وصفاته: أن يُعرف، ويظهر للخلائق قدره، ويخرج من خفاء الكنز. وها هم سادتنا يسنّون ويشرّعون ويرسمون هذا السبيل، لتتخذهم الخلائق أُسوة تُقتدىٰ وقدوة تُتبع.

* * *

كان «سلمان» في غاية التأثّر والأنفعال، وقلّ أن يظهر «الحكيم» على هذه الحال... آستولت عليه الأحزان وخيّمت، فأطرق ووجم، كأنها هزمته وخلّفته أسيراً مكبّلاً قد أخرسه الخطب حتىٰ عن الندبة والجزع، ولعلّه تمنّىٰ لو لم يطّلع على هذا الأمر وأنه بقي عليه غيباً مطوياً!

لقد شاهَدَ (في ما أطّلع عليه من مخزون العلم الذي آنكشف له) بعض صور «المصرع» وما سيجري على «القربان» وأهل بيته، ووقف على أبعاد المصيبة التي ستحل وتنزل، وقف على بعض الأسرار وعرف شيئاً من الأسباب، فهجمت عليه الأحزان وآستولت الأشجان. فما خرج على رفاقه من «غشيته» هذه إلّا كمدهوش أو مصروع أفاق للتوّ من صعقته، ولا آنتقل من الصمت إلىٰ الحديث والكلام، إلا على صوت مُنادٍ منهم رأىٰ «الصعقة» في وجهه، فخشي عليه وأشفق.

فأخذ «سلمان» يحدّث بما رأىٰ، وقد جمع إلىٰ ذلك وأبقىٰ على توجُّسه وقلقه، فخرج حديثه ككلمات متقطّعة، وظهرت عباراته كألغاز! لذا لم يفهم جُلّ الأصحاب ما كان يقول...

وفيها كان يجول ببصره يبحث ويتحرّى عن شخص أو أشخاص معينين، كأنه رآهم أو رصد لهم موقعاً ودوراً، وعرف لهم شأناً «هناك»... دنا منه صاحبه «حذيفة بن اليمان»، فقبض «سلمان» على عضده مستنجداً طالباً أن يعينه في العثور على ضالته، وقام ليمضي معه في شأن له.

فمضى وهو قابض على «حذيفة»، يتوكأ عليه أو يجرّه معه، يتقدّم وسط الجموع المحتشدة خارج الدار، يتخطّاها وهو يمدّ عنقه ويستطلع، بحثاً عن «آخر» أو «آخرين». لقد شاهد «هناك»، في مخزن العلوم والأسرار الذي آنفتح له... ورأى أشخاصاً وعرف أسماءً سيكون لها شأنٌ مع «القربان»، ودور وحظوة في مراسم تقديمه، ومقام ومنزلة لا يدركها مَن سبق ولا ينالها مَن لحق، وعلم أنهم «الأنصار»، وكأن بعض الوجوه كانت مألوفة لديه، فراح يبحث عنها أو عن واحد منهم، في الأقل!

لحق بهما «جابر بن عبدالله الأنصاري» وأدركهما...

وقف «سلمان» حين رأى هذا الفتى، كأنه يراه للمرة الأولى! وراح يحدجه ويدير فيه النظر، يتأمّله ويعاينه ويتفحّصه، و«جابر» في حيرة يتلفت مستنجداً بـ «حذيفة» ليُفهِمَه ما يجري الساعة، وما وراء هذه النظرات والتفرّسات؟... حتى قرّ «سلمان» بعض الشيء وسكنت نفسه، لكنه أبقى على تطلّعه وبحثه، وكان يتمتم:

«حبيب»، «بُرَيْر»، «عابس»... آه يا «حبيب»!

ثم سأل: هل تعرفون «حبيباً»؟

لم يفهما هل كان يريد الصفة أو آسم لعلَم؟ فلم يجيبا، وحَسِبا أنها واحدة من تلك «الحالات» التي حدّثهما «عمار بن ياسر» أنها تعقب خلوات «سلمان» فغشواته، نزلت به، فالأفضل أن يخلى وحاله!

فلما يئس «سلمان» وتعب، أو علم أنه لن يجد ضالّته الساعة، مضى يتحرّى ركناً ينفردون به. وبينما كان يمهّد لينقل السر إليهما، كان الصاحبان يهوّنان عليه، ويسألانه عن الخبر وما قصد من كلامه «الأنفعالي» الذي لم يُرَ منه من قبل، وعن هذا الأقرب إلى «الهذيان»!

زفر «سلمان» زفرة، وقال:

إنه «القربان» يا إخوتي...

بنفسي الذبيح، سبط «النبي»، ابن الذبيحين!

لست أدري... وأخذ يكررها، وقد ارتسمت على وجهه علامات الحيرة والعجب، ما غيّر سحنة كانت تلازمه، تجعل الناظر إليه يخرج بانطباع عن امتلاء الرجل حكمة، واستيعابه لشتى العلوم، وإحاطته بجميع القضايا، فكأنه يعرف كل شيء، فلا يفاجأ ولا يتردد ولا يؤخذ. وإذا به، حين بلغ ذلك الموضع، في غيّر حالة! وقد شهد صاحباه تعجّباً وحيرة لم يعهدوها في قسماته، فكأنها من المواضع والقضايا النادرة التي لم يحر لها ـ رغم غزير علمه ـ وجهاً يفسرها، أو أنه وقف على أسرارها وعلِمها، فعاد يحمل إرث تلك المعرفة: حيرة وذهولاً!

حارَ في كُنْهِهِ الملائكُ عَجْزاً ... عنه والأنبياءُ والأولياءُ

بهَرَتْهُم أنوارُهُ حيَّرتْهم ... حبّذا حَيْرَةٌ هي الأهتداءُ

اتكأ «سلمان» وأسند رأسه إلى الجدار، يريح عوداً ـ من قامته ـ ذوى، وعموداً ـ من جنبه ـ خوى، وقناة ـ لظهره ـ اعوجت وتقوّست... وأخذ يمرس بكفين، نفرت فيهما العروق دهراً ثم ضمرت، ركبتيه ويدلكهما، عسى أن يطرد أو يسكن ألماً مزمناً ما برح يسري في بدنه فتوراً وفي عظامه وَهْناً. وراح مطرقاً في صمت طويل، انزاحت معه، شيئاً فشيئاً، تقاطيع الحيرة من وجهه، وحلّت مكانها مسحة أنس وشوق لا تراها إلّا في وجوه العاشقين، وقد أرخى أجفاناً يبست أشفارها من كثرة البكاء وتقرّحت من جفوة النوم وذهاب الكرى، فلا هدبة بقيت هنا ولا شعرة!

كان يستذكر أيام صباه وصبوته وليالي هيامه، حين كان يتتبع العلامات ويترصد النبوءات، ويلاحق أية قصة وحكاية، تسرد بعض ما تختزن الأيام وتضمر، مما تنتظر البشرية وترجو لخلاصها...

ويتفكّر: كيف طبّقت وتحققت في المآل، وكيف صار يعيش أحداثها، بل يشارك فيها ويلعب دوره... ثم كيف لها أن تتوقف قبل نهايتها، ويخرج هو من مسارها قبل أن يكمل دوره فيها أو يحضر ويشهد ختامها؟!

أليست سنة إلهية وحكماً ربانياً أن يحقق المرء الأمل الذي عاش له، إذا كان صادقاً في سعيه، جاداً في عزمه، فجعله قضيته التي من أجلها يحيا ويعيش؟ ألم يقض الله أن يمتد العمر بالعبد حتى يرى تحقق قضيته، أو أن يعود ليلقاها و«يرجع» ليعيشها إذا دهمه الموت وأدركه الأجل؟

كان متأملاً في هذا، وقد نفذت عبر كوّة في الجدار حزمة من أشعة الشمس، تطايرت في مجراها وسبحت أجسام أشبه بخيوط قصيرة ملتوية، وذرّات دقيقة، وكُرات جوفاء، ما كانت لتُرى في غير هذا النطاق...

فأستوى الحكيم في جلسته باسطاً كفه، كمَن يلتقط هذه الأجسام ويمسكها، أو يصنع لها مهبطاً تحطّ فيه... وقال: ترى هل كنا لنعلم عن هذه الأجسام شيئاً لولا ما سُلِّطَ عليها من ضوء كشَفَها؟ وهل نعلم الساعة ما يدور حولنا ويلتف ويملأ هذا الفضاء، مما لم يُسَلَّط عليه ما يكشفه؟ إن حجم المجهولات ونسبتها لما نعلم لمهول... ولا شيء أعظم قبحاً من إنكار المرء ما لا يدرك بحواسه، فينفي ما لا يسمع أو يلمس أو يرى، ولم يهلك من هلك إلّا حين فعلوا وأنكروا.

ومضى مسترسلاً حتى قال:

إيه أيها الكرام...

لو تعلمون ما في «القربان» من أسرار وغرائب، لدهمكم من الحيرة ما دهمني، ونالكم من العجب ما نالني، ولو علمتم ما سينزل به ويصيبه، لحل بكم من الحزن ما حل بي وأصابني.

هذا ونحن فلَك ونظّارة، فكيف بالقطب الذي يتحراها في نفسه وولده؟ كيف بالأنبياء والأوصياء، ومن أُنيطت بهم مسؤولية الخلق وهدايته، ووكّلوا وراثة الأرض وقيادة مسيرتها إلى الله؟ أتعلمون ماذا أعترى تلك الأنفس، وكم عانت، وأي غمار خاضت، ومخاض عاشت؟

هناك أُمور لا يمكننا الوقوف عليها دون مقدمات، وأُخرىٰ لن نستوعبها إلّا إذا قحمنا تفاصيلها، وولجنا جزئيات قد لا نرىٰ لها طائلاً، أو ترانا نضجر من سردها ونمل، فنتركها ونتخلىٰ عنها بلا غضاضة، وكأننا لم نقترف ذنباً ولا أرتكبنا جريرة وجرماً، في حق الإنسانية، وفي حق أنفسنا تجاه ربنا، وتجاه القضية التي من أجلها خلقنا.

لكن أعلموا أنه ما عاش قضية «القربان»، ولا عانىٰ ولا قاسىٰ، ولا حمل همّها أحد مثل أهل هذا «البيت»، الذين كانوا يرتقبونه جيلاً بعد جيل، ويتحرونه في أبنائهم وذراريهم.

كانت العلامات ومؤدىٰ المقاليد التي يحملونها من مواريث أجدادهم الأنبياء والأوصياء تشير إلىٰ أن «القربان» سيكون من ولد «هاشم»، لكن غموضاً لف أسمه، فألتبس ولم يتبيّنوه، حتىٰ ظنّوه العاشر من ولد «عبدالمطلب»: «عبدالله»، والد «النبي الأعظم»!

ولعمري، فما تاهوا ولا شط بهم الفكر، بل كانوا حول الهدف يدورون، وفي فضاء «أبي عبدالله» يحومون ويسبحون... إنه أبن الذبيحين، «إسماعيل» و«عبدالله»، وسليل «هاشم» والندىٰ، وحمىٰ الذمارين الرضا والسؤدد.

❁ ❁ ❁

لم يتعرف أحدٌ على سبب تجهّم «سلمان» وسر ٱنتكاسته... ما هي حقيقة الأمر؟ لماذا يضطرب شخص بلغ هذه المرتبة من العلم والحكمة؟ إنه شيء غيْر الحزن والفجعة على تقديم «القربان»، شيء آخر... لقد رأىٰ «سلمان» في إطلالته الأخيرة علىٰ «الملكوت» و«كتاب الغيب» ما أدخَلَه في حالته الغريبة، وخلص من قراءته في «ألواح القدر» ما أضناه وأربكه؟

فما هو يا ترىٰ؟

هل رأىٰ «سلمان» في ما رأىٰ، ووقف في ما علِم وخبر، علىٰ ما جعله يشعر ويدرك، بل يتأكد ويجزم أن المسيرة آخذة في الأنتقال إلىٰ مرحلة جديدة: من غلَبة الطور العلمي وتألّقه وتصدّره، إلىٰ هيمنة طور «العشق» ونفوذه وحكومته... وأن ذلك قد يحرمه شهود الفداء وحضور المصرع وصحبة «القربان»، فلن يؤدي به الطريق ولن ينتهي المسير إلىٰ ما تطلّع وأمّل وأرتقب وعاش ينتظره عمره كلّه؟!

وكان قد بدأ يشعر بهذا، منذ فترة سبقت «الميلاد»، لعلّها مقدمات كانت توطّئ وتهيّئ لإفهامه وتلقيه هذا الأمر العصيب. أما الآن فقد أنجلىٰ له وٱتّضح بما لم يعد فيه سعة للشك والظنّ، ولا محمل للتفسير والتأويل، ولا فرجة يخرج منها أو مشجب يعلّق عليه بصيص أمل...

إنه لا محالة خارج تلك الدائرة، وليس في وارد ذلك النطاق!

ورغم أنه عاشق مستهام، لا يشكو في الحب عيباً ولا في الولاء نقصاً وقلّة باع، ولكن «العلم» له سلطانه وهيمنته علىٰ حَمَلته، وله تأثيره علىٰ أصحابه، في تركيب ذهنياتهم وخلق شخصياتهم وروحياتهم، وبالتالي كيفية تعاطيهم مع الأحداث والقضايا التي يعيشون والأخبار التي يتلقون، ما يطبعهم بصبغة خاصة.

ومما يبدو من القرائن والشواهد، أن الطَّوْر القادم من المسيرة يتطلّب تمحّضاً في «العشق» وٱستغراقاً من نوع فريد، وإن كان ـ هو الآخر ـ نابعاً من علم وناتجاً عن معرفة، لكن الغلَبة والسبق في أنفس حملته ستكون له، دون أية قيمة أُخرىٰ، مهما سَمَت وشرُفت وعظُمت كـ «العلم»!

فعَلِم أنه لن يحظى بتمام «الأمر» ولن يبلغ ذروته، وأنه سيسلّمه لغيْره، أو أن غيْره سيتسلّمه منه ويحمله عنه، وأن هٰذا الغيْر هو الذي سيكون في «الأنصار»، شاهداً مع «القربان» وشهيداً... إذ هناك «أمر» ينطوي على دور ومهمّة، ويختزن مقاماً ورتبة ومنزلة، تأتي من صحبة «القربان» وخلّته، وشهود مصرعه ونُصرته.

مقام سيدوّي في الفضاء وتحمل الرياح نداء الدعوة إليه، نداء الأستغاثة وطلب النُصرة، الذي سيملأ الآفاق ويطرق كل أُذن ويبلغ كل مَسمَع، ويقع في كل قلب وخاطر، لا من أهل ذلك الزمان فحسب، بل من جميع الخلائق، في كل العوالم، وعبر جميع الأجيال! حتى لا تبقى للناس على الله حجة في مَن أجتبى وأصطفى لهٰذا المقام وأختار.

"هل من ناصر ينصرني"...

وإن أطبق الخذلان وعمّ شقاؤه أهل ذلك الزمان، فإن كوكبة دون سائر الخلق أستجابت ولبّت، ونهضت للنجدة وقامت للنصرة، تجدّ السير إلى مصرعها بشوق ولهفة! ولن يستجيب لهٰذا النداء حين يصدر، إلّا من أجاب وأستجاب من قبل في «الذّر»، وقد كانت الفرصة مؤاتية ـ في عرض واحد ـ للجميع، والظروف الباعثة على الإقدام، أو الداعية للتخلّف والإحجام، متساوية في الجميع.

* * *

لقد كنا جميعاً سواء في عالم «الذّر»، سواء في أشكالنا وإمكانياتنا وقدراتنا، وفي مواقعنا ـ قرباً وبعداً ـ من الأوامر والتكاليف التي توجهت إلينا، فأخترنا منها ما شئنا طاعة وعملاً، أو تَكَبُّراً وعصياناً... وما نراه في دنيانا هٰذه هو تطبيق وأنعكاس ـ بنحو ـ لما جرى ووقع وكان هناك، وما هٰذه الحياة إلّا «فرصة ثانية» لتصحيح الأخطاء أو تحسين الأداء وأستدراك ما فاتنا من خيارات في حياتنا الأولى. ومن بعد الحياة «الثانية» تتحقق الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

إن الإنسان، في كل حياة، يختار شكل حياته القادمة، وقد آخترنا، حين كنا في عالم «الذَّر»، آخترنا لأنفسنا ما نشاء أن نكون عليه في عالمنا القادم (دنيانا هذه)، آختار كلٌ منا الشكل والصورة والوضع والحال التي أراد، حتى نواقص الخلقة وعيوبها من قُبح أو تشوّه أو إعاقة، كانت خيارنا، وهكذا نواقص المعيشة وأسباب المعاناة فيها من فقر وتخلّف أو تردٍ آجتماعي... كل هذه الأمور كانت خياراً أقدمنا عليه بملء إرادتنا وكامل وعينا وأهليتنا! لم يظلم الله أحداً، لقد آختار كل «موجود» شكله وهيئته، وطبيعة الحياة التي يريد أن يعيشها، فهناك من آختار أن يكون حيواناً أو جماداً، وهناك من آختار أن يكون إنساناً سوياً، وآخر آرتضى أن يكون ناقصاً في خلقته!

ليس لأسود البشرة أو المعوّق وناقص الخلقة، ولا للجميل المبتلى بحسنه وملاحته، ولا للعقيم المحروم من الذرية، ليس لأحد على الله حجة في شيء... كل ما يتوهمه المرء خلقاً لا إرادياً فُرض عليه، ووضعاً أُجبر ليكون فيه، هو في الحقيقة آنتخاب صدر عن حرية كاملة.

لقد آختار كل منّا المرتبة والمقام الذي هو فيه اليوم، وحدّد ما يكفيه من علم ومال، وآنتخب الوطن الذي سيعيش فيه والأصل الذي سينحدر منه، وأختار الدين والمذهب، وأختار مَن يوالي ومَن يحب... كل ذلك كان آختياراً منّا وإرادة محضة، وقراراً آتخذناه!

وبتعبير آخر، فإن الإنسان أقدم في عالم «الذَّر» على الآختيار، وآتخذ هناك قراراً أدّى للظهور في الدنيا بهذا الشكل، والآنحدار من هذا الأصل والنسل، والترتب في هذه الطبقة الآجتماعية... إن الأمور «القهرية» في حياتنا والمواقع «اللاإرادية» و«الجبرية» التي نعيشها ونتلقاها كقَدَرٍ لا خيار لنا فيه، هي مقتضيات خيار واحد أقدم عليه المرء في ذلك العالم فلزم كل ما ترى. فتسقط حجة القائلين: ﴿إنمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلونَ﴾، بل أنتم من فعل وآختار وأراد وقرر أن يكون كافراً، فلزم (وفقاً للقانون والطبيعة التي تنظم الخلق) أن ينحدر من هذا النسل ويولد في هذا البلد، وعلى هذا القدر من المال والجمال والمكانة و...

لكننا الآن ننسى ما فعلنا في عالمنا الأول...

فيعجب الفقير: أيعقل أن أكون قد آخترت لنفسي التعاسة والشقاء؟ ويشكك الجاهل: أيعقل أن أكون قد آثرت البلادة على الذكاء والجهل على العلم؟ ويعترض القبيح: أيعقل أنني فضّلت هذه الطلعة النكراء الشوهاء على الحسنة الجميلة؟ ويستنكر ابن الزنا: أيعقل أن يختار المرء لنفسه هذه الصفة ويعيش حياته في معاناة؟ ونتساءل: لماذا أعرض مَن أعرض عن خير وافر مبذول أمامه، وجمال وكمال متاح في متناوله، ومالَ إلى الشر والسوء والقبح والنقص؟!

إن البشر اليوم ينسون ويشككون ويحتجون...

تماماً كما سيَعتَرِضون في الحياة القادمة، في القيامة، وينسون أو يتناسون، أن قصور الجنة ونعيمها كانت خياراً مبذولاً في الدنيا لمن شاء، وأبواب درجات القرب واللقاء كانت مشرعة لمن أراد!... فأبى من أبى إلّا أن يختار الجحيم والعذاب والشقاء، ثم تراه يشكو ويضج (من خياره، ومما كسبت يداه)، وينفي ويعجب ويستنكر، حتى تشهد عليه جوارحه فتحجّه وتفحمه! إننا الآن نحدد أشكالنا التي سنحشر عليها (حين تتجسم الأعمال وتأخذ أنفسنا الأشكال المتناسبة معها لذلك العالم وتلك النشأة)، ونحدد موقعنا في الجنة ودرجاتها أو جهنم ودَرَكَاتها، ونحدد حتى شكل الدُور والقصور التي نريد أن نسكنها في الجنان، ونحدد مواقعها بُعداً وقرباً من المناطق الأغلى ثمناً والأعز منالاً! تماماً كما كنا قد آخترنا من قبل (في «الذَّر») وحددنا شكل وطبيعة حياتنا ومواقعنا في هذه الدنيا!

في «الذَّر» لم ينهض ليُجيب «نداء القربان» إلّا ثلّة، ما زالت منذ ذلك الحين تتحرى وتتحيّن ساعة لقائها، وتتلهّف إلى البقعة التي ستجمعها وتلتقي فيها، وتجدّ السير وتهرع إلى مصرعها لا تلوي على شيء، ببصيرة تستقي من أعماق اليقين وترقى إلى أكمل إيمان، وهمّة تحلّق في قمة المجد وذروة الإباء، لا يعوقها طمع في حطام، ولا يثبّطها خوف من جبابرة وطغاة ولئام، ولا يُبطئ بها جهل أو شك، ولا تثنيها رماح وسيوف وسهام.

ليخلع عليها ـ عندها ـ الوسام الأعظم وتحظى بالتتويج الأكبر وتخاطب بـ «الأفضل والأبر» وتعرّف بمن "لا يسبقهم مَن كان قبلهم، ولا يلحقهم مَن بعدهم"، من شخص العرفان وعين العيان، من نور الله وسرّه الأتم، نقطة دائرة الأزل والأبد، المتوحّد بالهمة العليا، المتوسّد بالشهود والرضا، «سيد الشهداء» على الإطلاق، المنزّه عن كل عيب وشَيْن، «أبي عبدالله الحُسَيْن».

لقد كان لـ «سلمان» شأن من «الشأن»، وكان من أصحاب «الأمر» ومن «أهل البيت»، إذ صار محمدياً بعد أن كان فارسياً، وكان يرى أنه معنيٌّ بأمر «القربان»، متّصل مباشرة بقضيته... لِمَ لا، وقد تشرّبت القضية وجوده واندكّت في كيانه، وغدت جزءاً لن ينفصل عنه إلّا بالقهر والرغم أو بالموت والأجل؟ وبالتالي فهو ممن يقع في دائرة المظان الأولى، ومرشّح متقدّم في طليعة القائمة... فلِمَ لا يكون في نخبة «الأنصار»؟

لِمَ يحرم هذا الكمال والجلال؟

لِمَ لا يحظى بهذا التاج والفخار؟

ولولا قوة ومكنة النفس المهذّبة المرتاضة، والعلم، والطمأنينة التي يورثها في حَمَلته، لأهلَكه الذي بلَغَه وعرفه عن إخفاقه في إدراك مُنيته، وقضى عليه قصوره عن تحقيق أمله وبلوغه غايته.

وكانت سلوة «سلمان» أنه رأى الميلاد وشهده، وأدرك «القربان» وعرفه، وعزاؤه أنه سيعود يوماً و«يرجع» ـ في ختام المسيرة ـ ليكون في «الرجعة» من الثائرين والوارثين والآمين مع خاتم الأوصياء لخاتم النبيين، ابن «القربان» ومهديّه الموعود.

ولكن ذلك لم يَحُلْ دون أن يكرر مع كل شهقة:

"يا ليتنا كنا معكم، فنفوز فوزاً عظيماً"...

لم يذهب الأصحاب الثلاثة بعيداً عن الدار، فقد آثروا أن يكونوا قريبين من مركز الحدث وقطب الرحى والمحور الذي يدور حوله كل شيء الساعة، وأن يجدوا في المسجد ركناً يختلون به ويتحدثون.

ومما كان قد عُرِف بين الأصحاب عن «سلمان»، أن آثار الشيخوخة لا تظهر على جسمه العاجز ولا تبدو في شيء من حركته وقيامه وقعوده، إلّا من أمرٍ روحي وإثر حالة نفسية، فيعرفون أن همّاً نزل به أو أن خطباً دهمه فشغَلَه وأقلقه... أما وجهه فما كان يظهر عليه إلّا بِشْره وسروره، دون حزنه وقلقه. وها قد توكأ، حين همّ بالجلوس، على جدار بأزاء أسطوانة «أبي لبابة»، وقد ألقى عصاه أمامه، حيث أستقر به وبصاحبيه المقام.

جلس مريحاً ظهره إلى الجدار، مستقبلاً «البيت» و«أهل البيت»، وكان هذا دأبه حيث كان في «المدينة المنورة»، يجعل وجهته إذا جلس، ويختار موقعه من المجالس دارَ «النبي» الخاتم، أو (إذا كان في محضره) يجعل شخصه الشريف قبلته، دون «الكعبة» و«مكة» المكرمة!

وكان قد هوى للجلوس كمن يترجّل من دابة عجفاء أعتلاها بلا وطاء، بعد سفر شاق مضن! ما زال يسند رأسه، بعد ظهره إلى الجدار، ويسدل جفنيه بين مقاطع كلامه، وقد تطول الإغماضة هذه حتى يخالها صاحباه غفوة أو سنة، لا يُعلم أمن ألم أو إرهاق، أم هي تأمل وفكر وأستغراق...

بقي على هذا برهة من الوقت، حتى بعد أن أستقر به مجلسه، فإذا فتح عينيه كان يرشق «جابر» بنظرة باسمة، دون «حذيفة»! ثم ربَتَ على ظهره وتلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾... لم يعرف «جابر» القصد أو المناسبة، ولكنه أدرك من أبتسامة «سلمان» وطريقته المشفقة في تلاوة الآية والنظر إليه، أن في الأمر بشارة. وتمادى الأمر في «جابر»، حتى ظن لوهلة أنه «حبيب» الذي كان يناديه ويبحث عنه منذ لحظات! خصوصاً وأنه عجز عن ربط وجه البشارة، بالآية، وبكلام «سلمان» وتبسّمه.

بادره «سلمان» بما زاد في حيرته: أرأيت يا «جابر» حبيباً لا يجيب حبيبه؟

ستبكيه يا «جابر» حتى تكون حرَضاً أو تكون من الهالكين، وسيغمى عليك حتى تكاد تزهق نفسك وتموت، وستحظى بالأجر والجزاء كاملاً، ستشاركهم بالنيّات وستحشر معهم لحبّك إياهم ورضاك بفعلهم، ولكنك لست من تلك العصبة الخاصة والنخبة المستأثرة... «الأنصار».

ثم شرح له ظاهر الآية وتفسيرها، وأطلَعه على باطنها وتأويلها، ونقَل له عن «النبي» و«الوصي» الخبر، وما سيكون من أمر الصالحين الذين محضوا الإيمان محضاً، وهكذا حال أئمة الكفر والجور الذين أبغضوهم وناصبوهم العداء، الذين غصبوا وحرفوا وأضلّوا، وظلموا واضطهدوا ونكّلوا... من «الرجعة» إلى هذه الحياة الدنيا بعد موتهم، وقبل يوم القيامة، ليروا إنجاز الله وعده، وتحقيقه نصره عباده الصالحين، وإعزازه جنده وأولياءه، وهوان أعدائه وذلّهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة. شرح له ذلك شرحاً وافياً، وأوقفه على أسرار الآية وكنوزها، حتى عُرِفَ «جابر» واشتُهر بين الأصحاب، وصار يُشار إليه بعدها، بأنه من العالمين بتأويل هذه الآية المباركة.

وبينما كانت الحيرة ما تزال مرتسمة والأسئلة متلاحقة على وجهي «جابر» و«حذيفة» على السواء، فهناك أمر أكبر من بيان هذه الآية، رغم عظمتها وخطرها، وهناك سرّ أخفى وأمر أدق مما بيّنه وكشفه حتى الآن... أخذ «سلمان» يحدّث صاحبيه بمزيج إيمان وتسليم وحسرة، كمن يريد أن يلقي أو يخفف ما ينوء بحمله، أو كمن يُفرغ جعبته ويخلي مسؤوليته في الإبلاغ... ويوصي وصيته! حتى بلغ الكلام قوله: إيه يا صاحبي... إنه نبيكم هذا العربي التهامي، القرشي الهاشمي، المكي المدني، وأظننا شهدنا الساعة ظهور «القربان» في ميلاد سبطه هذا... عندها تناهى إلى أسماعهم أن الروح الأمين أبلغ «النبي» بأسم «سبطه»، وأنه «شُبَيْر»، فأبى «النبي» الأعظم «العبرية»، وسمّاه بالعربية «حُسَيْن»! تبسّم «سلمان» وقد تذكر «الشَّبَر»، وها هو بين يدي «شُبَيْر» بعد أخيه الأول «شُبَّر» فتوقّف عن الحديث برهة، ثم عاد، عاد مُقسماً: وأيم الله إنه هو، لن يعدوه إلى غيْره!

ومضى من جديد يحدّث صاحبيه عن «القربان»، كيف سيتقدم لمصرعه طَوْعاً، ويمضي وهو عالم بمصيره، متيقّن من أمره، وسيسلم المذبح عنقه، وهو يرتل أُنشودة العشق ويناجي ربه مناجاة اللقاء! ومَن الذي سيقتله ويُفجِع أبويه وجدّه به، ويحدثهم عن غدرٍ وخيانة، وسيوف بغي وحقد وحسد، وأن قتلته هم «حزب الشجرة الخبيثة الملعونة»...

وصاحباه («حذيفة» و«جابر») في حيرة وغضب يطير العقل:

كيف سيتمكّن هؤلاء من ابن «النبي»، وهو الموعود بالفتح والظفر، والمُبشّر باستقرار دولته وشمول سلطانه وعلو شأنه؟ أين أمّته وأين صحابته؟ كيف يخذلون سبطه وحبيبه ولا يذودون عنه؟

و«سلمان» يؤكد لهم وجوب الصبر والتزام «التقية»، وأنها دين «آل محمد» عليهم صلوات ربهم، ودين آبائهم الأولياء وأجدادهم الأنبياء... وأن لا يأخذ الغضب مؤمناً ولا تتقدّم الغيرة والحمية به على إمام زمانه فيهلك، ولا تتأخر به عنه فيزهق، بل يلزمه فيلحق. حتى يأمر الله سبحانه وتعالى بالقيام، وينهض وليّه «القربان» ليستنقذ عباده من الجهالة وحيرة الضلالة، فيقوم معه مَن حضر. فإذا تقدم لمصرعه وقضى، أُجّل الأمر، ولن يعجل، إلّا بظهور ولي الدم، الآخذ بالثار فيملأُها عدلاً وقسطاً بعدما تملأ ظلماً وجوراً.

وأن دولة الضلال وغَلَبة الباطل ليست عن ضعف الإيمان وعجز الحق، بل لأن الله سبحانه وتعالى أبى أن يجري الأمور إلّا بأسبابها، وليس في شريعته عز وجل أن يقتل أحدٌ نفسه، ولا أن يقتل غيْره...

لكن «المؤمن» يتقدّم للجهاد والدفاع، ويقدّم نفسه ويبذلها في سبيل الله تعالى، فتمضي الأقدار وتنجز المشيئة - إن أذن الله سبحانه وتعالى بالعمل وزكا العطاء - لتتناوشه سيوف البغي وتصرعه.

عندها سيتقبل الله هذه «الأضحية» ويناله التقوى منها والإخلاص، فيرفعها إلى عرشه لتتربع في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس: ركْبٌ حجازيّون

شَمْلٌ تجمّع حينَ حانَ شتاتُهُ
وَيَزيدُ إشراقُ السراجِ إذا خَبَا

كنت قد عرفت منذ اللحظة الأولى التي أنتقلت فيها من دُنياي وصرت أجول وأتنقّل في السماء، أن رؤية أحداث الأرض ووقائعها والإطلالة عليها من هنا يجعل المنظر مختلفاً، لا في شكله وصورته فحسب، حين تُنزع عن الأشياء حللها وتكون أبعد عن أرْديتها وظواهرها، فتصبح أقرب إلى حقائقها... بل في الحيثيات المعنوية التي تكتنف الحدث، والعناصر غيْر المرئية التي تلعب دوراً «خفياً» في حدوثه وتكوينه، إذ تتقولب القوى الدافعة وتظهر العوامل الغيبية، الخفية وغيْر المشهودة ولا المحسوسة في ساحة الحدث (في دنياها)، تظهر ـ لمن ينظرها من السماء ـ في هياكل وأجسام وأشكال متنوعة، وتنعكس في صور، فتكوُّن للحدث صورة جديدة تكاد تكون مختلفة تماماً عن التي ظهر عليها في نشأته الدنيوية وصورته الأولى.

حتى إنك ستعاني في أول الأمر من تداخل الصور وضياع معالم الحدث، وتظنها فوضى عارمة، وكأنها سوق مكتظة أختلطت فيها البضائع وتداخل الباعة والمشترون وأشتركت الحوانيت... إلى أن تتعلّم كيف يكون التلقّي والأخذ هنا، فترى الأنتظام وتعرف الروعة والعظمة كما لم تعرفها من قبل.

كنت أسبح وأتجوّل بحُرّية تامة، حتى ظننت أن لا حدود للحركة والتنقّل هنا، وأن في وُسعي أن أتبوّأ من هٰذي الربوع حيث أشاء وأنى أريد، وأقلّب من صفحات التاريخ أيّها أحببت... مأخوذاً بحجم ما صرت أرى وأشهد، غيْر متصوّر ولا متعقّل أن وراء هٰذا شيء، بل لا ظرف ولا وعاء يمكنه أن يستوعب هٰذا الكم المهول من الصور والمعلومات والتفاصيل التي تبدو لا متناهية، فكيف بموضع أو موقع وراء ما آرتحل بصري وأقصى مما رمى ووقع؟ لكني آكتشفت متأخراً، أن في رحاب العالم الذي آنتقلت «نطاقات حظرٍ» زمانية ومكانية، هناك حواجز وسدود، وأختام ومغاليق على كثير من الأزمنة والفترات، تحول دون الأتصال بها، وهٰكذا على أحداث وأماكن لا يسع أي أحد أن يقترب أو يدنو منها...

لا يمكن حتى لمن خلَع بدنه وتجرّد، وحلّ في قالب لطيف، فآخترق الزمان وتمكّن من الأنتقال إلى الماضي أو آستشراف المستقبل، وصار يجول في تلك الربوع ويتنقل... لا يمكنه أن يصل إلى بعض المواقع، والأطّلاع على الأحداث التي وقعت هناك، أو المستقبلية التي ستقع فيها.

وفي مواضع ومواقع أخرى تبدو الصور مشوّشة وضبابية، أو باهتة المعالم، تفتقد النقاء والوضوح، فعليك أن تكافح لتستجليها وتستوضحها وتكمل مقاطعها المستترة، فإذا فعلت، بقيت معانيها ومداليلها على إبهامها وعُجمتها، ولم تنطلق هوامش الغيب فيها لتتمثّل وتتجسّم وتُشهَد... لذا فإن حقائقها تبقى خافية عليك، محجوبة عنك.

آكتشفت هٰذا، حين هممت أن أنتقل لأرى حقيقة بعض الأحداث التي حكاها التاريخ ونقلتها كتب السِيَر والأحاديث، وبقيت عصيّة على فهمي وآستيعابي، تحفّ بها الأسرار ويكتنفها الغموض والإبهام، فما عرفت لها وجهاً ولا وقفت على تفسير...

هناك مواضع في التاريخ ونصوص في التراث لطالما شكّلت لي لغزاً مُحَيِّراً، كونها لا تستقيم مع الثوابت والأصول التي أُذعن لها وألتزمها، ولا تتوافق مع المجموع العام الذي كوّنت وِفْقَه معتقداتي.

من هذه المواضع: الحوار الذي دار بين «أميرالمؤمنين» و«سيدة نساء العالمين»، الذي وقع بعد عودتها من خطبتها في مسجد «النبي»، إثر غصبها نحلة أبيها (فدك)... إذ آنكفأت ـ عليها صلوات ربها ـ تقول:

يا «ابن أبي طالبَ»! اشتَمَلتَ شِملَةَ الجنين، وقَعَدتَ حُجرَةَ الظنين، نقضتَ قادِمَةَ الأجدل، فخانَكَ ريش الأعزَل. هذا «ابن أبي قُحافَة» يَبتَزني نِحلَةَ أبي وبُلغَةَ ابني! لقد أجهَرَ في خصامي، وألفيتُه ألدَّ في كلامي، حتى حَبَستني «قَيلَةُ» نصرَها والمهاجِرَة وَصلها، وغَضَّت الجماعَةُ دوني طَرفَها، فلا دافعَ ولا مانع، خَرَجتُ كاظِمَةً وعُدتُ راغِمَةً.

أضرَعتَ خدَّك يومَ أضعَتَ حدَّك، افترَستَ الذئابَ وافترَشتَ التراب، ما كفَفتَ قائلاً ولا أغنَيتَ باطلاً ولا خيارَ لي، ليتَني مِتُّ قبل هَنيتي ودون ذلّتي، عذيري الله منك عادياً ومنك حامياً. وَيلايَ في كل شارِق، وَيلايَ في كل غارب، مات العَمَد ووَهَنَ العَضد، شكواي إلى أبي وعَدوَايَ إلى ربي، اللهم إنك أشدُّ منهم قوّة وحَولاً، وأشد بأساً وتنكيلاً.

فقال «أميرالمؤمنين» علية صلوات ربه:

لا وَيلَ لكِ، بل الويل لشانِئك، نهنهي عن وَجدِكِ يا ابنة الصفوَة وبقيَّة النبوَّة، فما وَنَيتُ عن ديني ولا أخطأتُ مَقدُوري... وما أُعِدّ لكِ أفضَلُ مما قُطِعَ عنك، فاحتسبي الله.

فقالت: حسبي الله، وأمسكَت.

أما الصدور، فليس لغيرِ «فاطمة» أن تفصح عن مثل هذا، هل في غيرِ الذين «أعطوا الفصاحة» إعطاءً وكان فيهم غرساً إلهياً، إلى جنب العلم والحلم والشجاعة والمحبة في القلوب... هل لغيرِهم أن يفرغ مثل هذا؟

ما شككْتُ لحظة، ولا أحتجت لبحث في الأسانيد حتى أنسب «الخطبة الفدكية» لـ «الزهراء» عليها صلوات ربها، فهذا مما يغني متنه عن البحث في سنده، ومضمونه عن طريقه... لذا فقد كنت أتساءل، وقد فرغت من أصل الصدور والنسبة:

ما هذا الحوار الملتهب الذي يظهر في أقسى صُوَرِ العتاب، وما يناهز حدود الزجر والتقريع؟ أ«عليٌّ» يخاطَب بهذا؟ أمثل هذا يصدر عن «فاطمة»؟ ما السرّ في هذا الخطاب والحوار؟ وهو ـ بلا شك ـ ليس على ظاهره في الملامة والعتاب... فلا «علي» قصّر في واجبه وأبطأ في أداء تكليفه، ولا «الزهراء» يخفى عليها الدور الذي يؤديه «علي» في هذه الفتنة، ملتزماً بوصية أبيها عليه وآله صلوات ربه.

أطّلعت إلى عديد من الإجابات ووقفت على غيْرِ ردّ، وفيها ما يفحم الخصوم ويقطع الطريق على كل متربص مُتَصَيِّد، لكنها رغم ذلك، ما شفَت غليلي ولا حسمت تساؤلي... كنت أشعر أن هناك أمراً أعظم من هذه التفسيرات والتأويلات التي يعالج بها العلماء ما يصطدم بثوابت العقيدة، ويتعارض ومسلّمات مقامات وكمالات «آل محمد» عليهم الصلوات. هناك أمر آخر جعل «الزهراء» تخاطب «الأمير» بهذه الكلمات وتوجّه إليه مثل تلك العبارات، أمر يحمل من الأسرار ما أحسب أن الدنيا، وهذه المرتبة المتدنية من الوجود، لا تطيق كشفه ولا يمكنها بيانه، ولا تسمح له بأن «يشف» فتنفتح عليه وتطّلع...

ومثل هذه الواقعة، أخرى شبيهة، نُقلت عن «آهات وزفرات» كان يبثّها «أميرالمؤمنين» صلوات الله عليه، بئراً بظهر «الكوفة»... يتوارى عن الأعين في جوف الليل، فيدلي رأسه في البئر، ويخاطبها بأسراره التي لا يجد لها حمَلة، وهمومه التي لا يجد إلى بثها سبيلاً! ما كنت أعجب من أسباب هذا الفعل ودواعيه، فحقّ لـ «علي» أن يكون في شِقْشِقَةٍ دائمة من فرط همومه وآلامه، لا واحدة تهدر ثم تقر!... قدر ما أحار من المعنى الخفي الذي ينطوي عليه، وما يكتنفه من غوامض وأسرار.

لعمري، كيف يضيق صدر يحمل الوجود بما فيه، وقلب هو «عرش» الله بجلاله الأتم، ونفس تمثل إرادة الباري، وروح هي قناة فيضه جل وعلا... كيف تضيق عليه الآفاق ويأخذه الأمر ويبلغ مبلغه، فلا يجد من سبيل غيرَ آهات وزفرات يبثّها بئراً؟!

كانت هاتان الصورتان، «الخطبة الفدكية» و«زفرات البئر»، تحيَيان في خاطري، ويشكّل فهمهما أُمنية أتحرق لتحقيقها وقد قتلني الشوق إليها وبراني. ولي غيرُهما من الصور والأماني ما أخشى من مجرد ذكره أو الإشارة إليه، فكأني ـ لو فعلت ـ ما صُنْتُ الأمانة ولا رعيت الوديعة، فهذه نفحات لا تأتي من فراغ ولا تسوقها إليك الصدف، لذا حق أن تضِنَّ بها وتَشُحّ، بل وجبت الدقة ولزم الحرص، حذر أن تسقط في يد غيرِ أهلها، وإلّا لفقدتها ولما فتح الله عليك، ولا جاءتك مثيلاتها من اللذائذ والطيبات ثانية!

أردت أن أنظر صور هذه الحوادث هنا، وأطل عليها من حيث أنا، عسى أن أقف ولو على بعض حقيقتها، فما أستطعت. اللهم إلّا إشارات تلقيتها، وعلامات ألتقطتها، أخالها تهديني لكشف بعض الحجب وإماطة بعض الأستار وفتح شيء من المغاليق... كل ذلك بما يسمح به الحال، وأُطيق:

لعل «الزهراء» كانت تخشى أن تودي بها الآلام وتجهز عليها، كانت ترى في سكوتها هلاكاً وفي كتمانها موتاً ـ في هذا الطريق ـ محققاً، فخشيت أن تتقادم الأحداث وتطوى المراحل فتصبح هي ـ دون «أبنها» ـ «القربان»!؟

أدركت وجوب تنفيس هذا الهم، بثّه ونشره، بعرضه شكوىً وضجة، وصرخة «ملامة» و«عتاب»، عبر هذا الحوار الملتهب الذي تفجّر بين «قمّتين» هما في الأصل نور واحد؟ فكأنه ضرب من «نزاع» الشيء مع نفسه، في نفسه، كما يتجاذب قطبا الذرة الواحدة ويتنافران، فيخلق هذا التجاذب والتنافر الحركة حول النواة، وتتولّد من هذه الحركة الحياة؟ أرادت أن تسكّن ما يعتلج في صدرها وتخفف أواره وفورته، فلا يبلغ مبلغه ولا يصل ما يجعلها تهلك من جراح الباب والجدار والمسمار ومصرع «المحسن»، وآلام الغدر ولوعة الهوان... فتتحقق فيها الأضحية الإلهية وتكون «القربان»!

وهكذا الأمر في آهات «أمير المؤمنين» وزفراته... فقد كان يمنع نفسه الهلاك ويقيها التلف، ويحول بينها وبين أن تكون هي «القربان»! تماماً كما أنقذ سفينة «نوح»، ومنع النيران عن «إبراهيم»، وأنجى «ذا النون» من بطن الغموم، و«عيسى» من الصلب، و«محمداً» من حد السيف... كذلك وقى نفسه من الموت غماً بشجاه وحسرة على منهوب تراثه ومضيع حقه!

وبعد، فقد كان ينفخ في «القربان» من روحه ويناوله أسراره، ليكتمل ولتتم أسباب ظهوره وأنبعاثه! أما كيف يكون ذلك، وما الصلة بين هذا الأداء وذاك المرتقب؟ فهذا مما لم ينكشف لي، فلم تنفتح لي أبواب هذه المعرفة، ولا أطلعت عليها، ولا سبيل للتحاذق والمغالبة واللجاج، فالأمور هنا تلقائية لا تتطلّب تكلّفاً ومماكسة ولا تحتمل مواربة والتفافاً...

من هنا وجدت نفسي أنصرف من هذين الموقعين مكتفياً بما عرفت، قانعاً بما أعطيت، متوجهاً تلقاء «مكة»... مستجيباً لهاتف يهديني ويستحثني لأيمم شَطْرَها، مُجْمِلاً: إن تمام ما أريد وغاية ما أبحث وأتحرّى، أنا والبشرية جمعاء، سأجده هناك.

* * *

هذه «مكة»...

إنها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان، من العام الحادي والستين للهجرة، وقد بانَ الهلال في أُفقها مطوّقاً مرتفعاً، طال مكثه حتى فرغ الناس من صلاة العشاء وأنفضوا إلى دُورِهِم وبيوتهم... وقد بدأت «مكة» ليلها الساكن، وهي تتهيأ لتستريح من عناء يوم طويل، وتغطّ في نومها لتستقبل في غدها يوماً جديداً حافلاً بوفود المعتمرين وما يصحبهم من صفقات وتجارات ومصالح. فقد كان «المكيّون» يأملون موسماً زاخراً، ويتباشرون بأخبار القوافل والحجيج وهي تترى يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

ها أنا أُطل على «مكة» وقد وافاها «الركب الحسيني»، ينحدر في إبطاء وتهوّد، ألّا ينال من جلاله وخفره شيء، وكأن ليس ثمة هارب من القتل، طريد من وطنه يبحث عن ملجأ، على رأس هذا «الركب»!

أشرف «الركب» على «مكة» وآثار الرحيل عن «المدينة» ما أنفكت عالقة به، وأصوات «الوداع» ما زالت متّصلة، تردد أنشودة «الدمستاني»، يلقيها «روح القدس» عن لسان حال بطل الحدث مع «جدّه» الأعظم:

ضمّني عندك يا جداه في هذا الضريح
علّني يا جدُّ من بلوى زماني أستريح
ضاق بي يا جدُّ من فرط الأسى كل فسيح
فعسى طودُ الأسى يندك بين الدكتين
جدُّ صفوُ العيش من بعدك بالأكدار شيب
وأشاب الهمّ رأسي قبل إبّان المشيب
فعلا من داخل القبر بكاء ونحيب
ونداء بأفتجاع: يا حبيبي يا حسين
أنت يا ريحانة القلب حقيق بالبلا
إنما الدنيا أعدّت لبلاء النُبلا
لكن الماضي قليل بالذي قد أقبلا
فأتخذ درعين من صبر وحزم سابغين

ما أنقطع هذا الصوت ولا فارق سماء المسرى، يشدو للركب ورفاقه من الملائكة والجن وبعض البشر، بل كأن الملائكة والجن هم الذين كانوا يشدون وينشدون ويرددون الأبيات، وأهل الركب يسمعون وهم في صمت... إلّا فارس هنا يجول بين الظعن حارساً، وراجل هناك يلزم زمام ناقةِ خادماً، يردّد معهم ويترنم بمزيج أسىً وأعتزاز!

ما قطع الصمت ومعه إنشاد الوداع المَدَني، إلّا صوت تلاوة الآية الكريمة ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، يجوّدها «أمير الركب» مذ ظهرت له جبال «مكة»... وكانت أشياء كثيرة تصاحبه وتشاركه في تلاوته، منها أطيار تحوم في السماء، وجبال تطل عليه وتشرف، ونبت وشجر، ونوق ودواب ومحامل، بل حتى الهلال في برجه، كان يتلو ويجوّد مع «سيد الشهداء».

وراح الصوت يسري ليملأ الفضاء ويصبغه بمسحة عجيبة أمتزجت فيها العذوبة بالبشر والتفاؤل!... عذوبة من الصوت وقدس الأنفاس وشجوها، وبشر وتفاؤل بأن ما سيلي هذه «الوُجهة»، هو وُرود ماءٍ وقِرَان، وقَبَس، وبقعة مباركة ونداء، فمعجزة وعصا، ومن بعدها أخ يعضد، فنصر وظفر.

لكن هذا الفضاء وتلك الأجواء لم تكن لتؤثر في «أهل الركب»، ولا تأخذهم بعيداً عما هم عليه من المعرفة والكمال وما يجعلهم يقفون على الحقائق كما هي، غيْر متأثرة ولا منخدعة بأية أعراض مخدّرة وظواهر مزيّنة... كانت لا تزال تحكمهم غُصّة ومرارة من نذير فراق يرفرف على رؤوسهم مذ فارقوا «المدينة»، ووكْز ينال القلوب أنه آخر العهد بهذا الصوت وصاحبه!

الحق، أن الأستقبال الحافل والحفاوة البالغة التي لقيها «الحسين»، والفرح الشديد الذي أظهره الناس من حُلوله بين ظهرانيهم، حتى كانوا يختلفون إليه بكرة وعشياً، يحضرون مجلسه، ويحيطون به ويلتفون حوله يسألون عن أحكام دينهم وأحاديث نبيّهم ويضبطون ما يروون عنه... جعلني أشك في سابق علمي وما كان مرتكزاً في ذهني، من أن «قريشاً»، وهي الغالبة في «مكة» آنذاك، كانت تتبع حزب «الشجرة الخبيثة»، وكانت «أموية» الهوى، توارثت من أسلافها الحقد على «بني هاشم»، والقدْر المتيقَّن عندي أن «مكة» لا شيعة فيها لـ «أهل البيت»، وظننت أنني مخطئ.

ولكن شكّي لم يكن في محلّه، إذ تبيّن أن من أحتفى بـ «الحسين» وحفّ به وفرح بقدومه وأختلف إليه، كانوا من المجاورين والحجاج والمعتمرين من سائر أهل الآفاق، لا من «قريش» وأهل «مكة» أنفسهم!

وقد نزل «الحسين» دار «العباس بن عبدالمطلب»...

ولست أدري لماذا هذه الدار دون غيْرها؟ أتراه كان يحذر أن يُخرج أحداً ويعرّضه لملاحقة السلطة، إن أستضاف «الشخصية الأخطر» على كيان الدولة وأستقرارها؟ أم أنه ما كان يريد هذه الكرامة لأحد من «قريش»، يشرّفه بها، فيستغل ذلك لأغراض شخصية ومكاسب يوظفها في صراعات كانت قد أحتدمت داخل حزب «الشجرة الخبيثة» بعد تولي «يزيد»؟

لِمَ لَمْ ينزل داره أو دار «أبيه» أو دار «جدّه»؟
فإن عزّ ذلك لسبب أو آخر، إذ لم تكن لـ «بني هاشم» في «مكة» من دار غيْر دار «العباس»، ذلك أن «عقيل بن أبي طالب» كان قد باع بيوت مَن هاجر من «بني هاشم» (أوّل البعثة) خشية أن تستولي عليها «قريش» وتصادرها (ولم يكن «العباس» قد هاجر في حينها بعد)... لماذا لم يشْتَرِ «الحسين» ويهيئ بيوتاً يستقر فيها ومَن معه، وقد كان مقتدراً ذا سعة؟
ولست أدري لماذا أطَلْت الوقفة والفِكْرة في قضية «الدار» التي نزل بها «الحسين» في «مكة» وظروف هذا المنزل، ولماذا رحْتُ في الحيثيات والتفاصيل وتحليل أسباب هذا الخيار وموانع ذاك، ودراسة الأحتمالات. وقد تكون القضية في مجموعها ـ وفق رؤية ـ مسألة عابرة لا تستحق هذه الوقفة، ناهيك بالإطالة والبحث والتركيز؟...
لست أدري، لعلّه تعلّقٌ منّي بالذات «الحسينية» الشريفة، وبذوات الأئمة من «آل محمد» صلوات الله عليهم، لا بمجرد الدّوْر والهدف والرسالة التي يحملها كل «مولىً» منهم.
فأنا متعلّق بـ «المولى» هو، عاشق لِذَاتِه المقدسة، متيّم بنفسه المعظّمة، ومغرم بشخصه الشريف، فهو عندي القضية الكبرىٰ التي يجب أن تُلاحق وحقيق أن تُتابع في كل جزئياتها وشؤونها، ناهيك بهديه وشريعته ورسالته. لذا تراني أعنىٰ بأخص شؤون كل «مولىً» في هذا «البيت»، به وبأبنائه وأقاربه وأصحابه، وأتعب نفسي في رصد ومتابعة كل ما يتعلّق به من قريب أو بعيد، أستجلي ميوله ورغباته، وأدرس ما يريحه وما يغضبه، وما يؤذيه وما يرضيه وما يفرحه... وأمضي وأستغرق حتىٰ أعرف نقش خاتمه، بل أسم دابته وفرسه وبغلته، وفسطاطه، وقَصْعَته وقُعْبه ومِغْفره، وسيفه ورمحه، وعمامته ودرعه، ولوائه ورايته. وهي أمور يصنّفها بعضهم تَرَفاً فكرياً، أو غلُواً عاطفياً، وآنشغالاً يُبْعِد صاحبه عن «الحق». فـ «الأولياء» ـ عند أولئك ـ مجرد أدلّاء إلىٰ الله، وهداة لدينه وشرعه، نأخذه منهم ونتلقاه عنهم ونمضي لحالنا وسبيلنا، لا نتوقف عندهم أكثر من هذا ولا نطيل!

أما أنا فممن ينزل بفنائهم وينيخ ببابهم، لا لأتلقى معالم ديني وشريعتي فحسب، ولا لأجعلهم الوسيلة إلى ربي في قبول أعمالي وقضاء حوائجي فقط، بل أنيخ وأنزل نزول عاشق وَلِهٍ، لا تقر نفسه إلّا بالوصال، فإن عز، تراه يحوم حول الأسماء والآثار، يقبّل ذا الجدار وذا الجدار...

من هنا تجدني متوجهاً ـ دوماً ـ لهذه الأمور، الجزئية أو الصغيرة العابرة عند (أولئك القوم)، لا يصرفني عنها إلّا شأن آخر من شؤونهم، فأنا بين هذا وذاك أسعى، وحول هذه الأقداس أطوف أبداً. وقد وَجَدْتُ هنا أن الحق في ما ذَهَبْتُ إليه، وتيقّنت من ذلك وجزمت، إذ تجلّت لي هذه الحقيقة كاملة وأنا في هذا المقام... فلو أطلع (أولئك القوم) على ما صرت أرى هنا وأنظر، لو علموا كيف تنعكس السِّيَرُ هنا وتغدو الصُّوَر، لما أمكنهم البناء على رؤاهم: أي النطاقين الأصل وأيها الفرع؟ وأين الأخطر من الخطير، ولأي الأمور الأولوية والأفضلية والسبق والتقدّم؟ حتى يهملوا هذا ويتهاونوا فيه، ويركّزوا على ذاك ويمعنوا فيه.

نعم، إن للعبادات والامتثال لأوامر «الولاة» في هذا النطاق صورة ملكوتية من أنور وأزهى ما يكون، ولكنها ـ رغم ذلك ـ تبقى كقطرة في بحر، بل محيط، إذا قِيسَت بما ينعكس عن مظاهر الحب و«الولاء» الذي يصدر من «المُوالين» تجاه «مَوَاليهم».

فإذا قارنت ـ على سبيل المثال ـ بين مئة عام من الصلاة والصيام والحج وما إلى ذلك من أشرف العبادات وأعظم القربات، بدمعة واحدة تقطر من عين المؤمن حزناً على مصاب «السبط الشهيد»، أو إيماءة منك إلى حرمه الشريف بقصد السلام والزيارة من بعيد، فستقف على الفرق والهوّة الشاسعة، فالفضل بين النطاقين: الحب والولاء، أو العبادة والعمل.

كنت أرصد حركة «المولى» في «مكة»، وأُتابع كل شؤونه وشجونه بما أُوتيت من عزم ودقة، بل شوق ولهفة، ولا سيما أن الأمر في شكله الملكوتي يبدو معجزاً في الروعة والألق، متفوّقاً ـ بكل المقاييس ـ على حدود الحسن والجمال، فيخطف الأنظار إليه ويحتكرها وقفاً عليه...

أن تسمع عن الأمر شيء، وأن تعيشه وتشهده شيء آخر...

حقاً "إن أهون مرقاةٍ منه، ما تراه"!

إنني أرىٰ الساعة مناظر وصوراً لو اطلع أهل الأرض علىٰ واحدة منها لما صرفوا أنظارهم حتىٰ يموتوا لهفة ونشوة أو تغيب الصورة! إن تحوّل الأفعال والسِّيَر المُلكية الأرضية إلىٰ صوَرٍ ملكوتية سماوية، أمر لا يطاق، لا يطاق في جانبيه: القبيح أو الحسن! لذا تراني أعود لذكر هذا كلّما سنحت لي الفرصة، وأُقحمه سواء اقتضىٰ أم لم يقتض السرد.

إن الصيحة تأخذ أقواماً بعد أقوام مصبحين، وهم ما زالوا في معيشتهم يمضون وعلىٰ الأرض يدبّون وعلىٰ معاصيهم مقيمين، صمٌّ عمي لا يشعرون! و«الجنان» ترسل ظلالها الوارفة علىٰ آخرين، وهم يكابدون وما زالوا يجاهدون، ولو علموا لاكتفوا وارتحلوا مسرعين إلىٰ نعيم مقيم.

بماذا عساني أشبّه الأمر؟

دعني أقرّبه بفعل واحد صغير، يمثل ضغطة علىٰ مفتاح في لوحة حاسوب، لثانية واحدة، تشغّل معملاً لتوليد الطاقة، فتضيء علىٰ إثر تلك «الضغطة» مدينة كاملة بِدُورِها وشوارعها وأسواقها ومعاملها، وتدب فيها الحركة والحياة... هذا في الكم والحجم.

أما في النوع والكيف، فنحن نرىٰ البذرة تتحوّل إلىٰ نبتة وشجرة، فثمار وغِلال، ونرىٰ النطفة تتحول إلىٰ جنين فإنسان، ولكن التراخي الزمني يسلخ عن هذه الآيات عجبها ويجعلها أموراً عاديّة... أما إذا اقترن فعل صغير قصير، بنتائج فورية عظيمة، فقد يأخذك العجب، كأن ترمي إلىٰ الأرض حبة قمح واحدة، فتموج - في الآن - ملايين الهكتارات من حولك بأمواج السنابل الذهبية المستغلظة (دون حرث ولا بذر ولا ري)، ثم تنفخ، برقّة ولطف كمن يصفر أو يريد أن يذكي شرارة باهتة يخشىٰ أن تنطفئ، فتحصد الريح من تلك النفخة اللطيفة كل تلك الحقول (دون مناجل ولا محاش) حتىٰ لا تودع لُقاطة لطير، وتفصل بُرّها عن تبنها (بلا درس ولا دق ولا دياس)، وتجمعها (بلا مذارٍ ولا مناسف) في بيادر تناطح الجبال!

إن الصورة تختلف قلباً وقالباً والمنظر ينقلب شكلاً ومضموناً، إذا شاهدت كيف تتحوّل «إيماءة» بالسبابة تريد السلام والزيارة، تنقلب إلى أفواج لا متناهية من الملائكة تملأ الخافقين، تضج بالدعاء لـ «ذي الإيماءة»، فترتفع في لحظة واحدة مليارات الدعوات، التي تستجاب ـ بدَوْرِها ـ فوراً فتتحول إلى حقائق ماثلة حاضرة من الأجر والثواب لـ «ذي الإيماءة»...

فتصوّر أن ٱبتسامة بِشْرٍ في وجه مؤمنٍ، تخلق هنا جِناناً مترامية الأطراف تتخلّلها الأنهار والثمار وتملأ أرجاءها الحور والقصور، وأن ٱبتسامة سخرية، أو ثني عطف من كِبْرٍ وتعالٍ، ينعكس هنا طوفاناً وإعصاراً يقتلع ويدمر كل شيء، ويفضي إلى فراغ وٱنعدام تكاد تتفتت معه ذرات وجود المرء، فيتحلل ويفنى هو الآخر، ولك أن تتصور حجم الألم من نزوع كل ذرة في الجسم إلى الأضمحلال والخروج عن نطاقها والأنخلاع عن هيكلها وقالبها.

وإن أنصفت وٱلتزمت الأمانة، فعَلَيّ أن أقر بأن ما أسوقه من أمثلة وتشبيهات إن قرّبت المعنى إلى حقيقة ما ها هنا خطوة، فهي تبعده من جانب آخر خطوات وأميال. ولو شاركني ما أرى أحد لعذرني وأقالني، سواء لعجز البيان وقصور التعبير، أو لعظمة البرهان وصدق اليقين.

فتجسّم الأعمال لا يكون بالكيفية التي وَصَفْت! فلا النعيم حورٌ وقصور، ولا العذاب نارٌ وحَرور فحسب!... إنما شيء آخر، لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب، ولكنها حيلة من ضاقت عليه العبارات وعجزت الكلمات عن إدراك المعاني ووصف الوقائع.

لذا، كنت عاكفاً على التزوّد ما ٱستطعت من الصور المنعكسة في السماء، لأحداث الأرض وأفعال سكّانها... هذه واحدة، أسرتني وملكتني:

صورة خلّقها فعل «المولى» تجاه أهله وعياله، حِرْصُه على إعدادهم وتهيئتهم للحدث الجلل الذي سيقدمون عليه، مع حزنه وإشفاقه مما ينتظرهم، ورعايته التي تصدر من موقع المسؤولية والولاية العظمى، وتفيض عن مقام العطف والرحمة المطلقة... وٱستطرد لأسجّل: كأن هذا أيضاً «حِرْصٌ» ٱمتزج فيه «الشخصي» وتداخل بـ «الرسالي»!

آه لـو رأى هـذه الصـورة المنكـرون علينـا أستغـراقنـا في «الـذات» وفي «الشخص» دون الرسالة والهدف، العاتبون أنصرافنـا إلى الحب والـولاء وجعله الأصل، والنزول بـالعبادة والرجوع بهـا إلى الفرع والتبع... لرأوا عجباً عجاباً، ولعذرني العاذل وصحّح موقفي وأقرّ معي أن أمر «آل محمد» وشأنهم لا يقاس بعبادة، ولا يناهز بفعل، ولا يقارن بشيء.

وما صرفني عن هـذه الصورة المتلألئة، الحاكية عن شأن «الدار» وما حل بالركب والظعن، والمأوىٰ الـذي أصبـح يضمّهم، ومـا أنثنيت عن الصـور المتجلّية لحالتهم وكيف يلوذ أحدهم بالآخر، يتنافسون في الخدمة ويتبارون في إكرام بعضهم بعضاً، فيفيضون جلالاً وقدساً ويتألقون جمالاً وسحراً... إلا ما كان ينعكس ويتجلّى عن حركة «المولى» ومقدمات قيامه ونهضته.

فقد هالني ما يستتر وراء الظاهر الذي نعرفه، وبهرني ما أطلعت ووقفت عليه من حقيقة «الحركة»، وعجبت من الصورة التي ظهرت لي وأنعكست هنا عن هـذا الفعل «الرباني» الذي كان يجري على يد «بشرية»!

إنها هنا شيء آخر يكاد يكون مبايناً للظاهر الدنيوي.

كان «المولى» عليه صلوات ربه، قد بدأ «حركته» السياسية، وما شكّل إعلان «نهضته» المقدسة.

فبعد رفضه بيعة «يزيد» وواليه «الوليد» وخروجه من «المدينة» حذر الغيلة أو الإكراه والإرغام... بدأ، مع أستقراره في «مكة»، تحركه السياسي بشكل مكثف ووتيرة تصاعدية، وقد كانت طليعة تحركه توجيه الكتب والرسائل، وأبتعاث الرسل والممثلين والسفراء إلى مختلف الأقطار، ومنها: «البصرة» و«الكوفة» و«المدينة» و«الشام».

والعجيب أن الكتب والرسائل ضمن ما كانت تحويه من طلب النُّصرة وشحذ الهمم وأستنهاض المخاطبين، ومن بيان فلسفة الثورة ومرتكزاتها، وعرض لمشروعية الحركة وما هو بصدده من القيام والنهضة، من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحياء السنة وإماتة البدعة والدعوة لعودة الحق إلى أهله وإرجاعه إلى نصابه...

كانت تتحدّث عن أمر آخر، بدا غريباً بعض الشيء، بل كل الشيء! ولو أن قائله كان غيّره ـ عليه صلوات ربه ـ، لحُمل على الشطح والخلط، أو على الوهم والهجر! ولكنه السبط العالم، والإمام الكامل، المعصوم من الزلل، المبرأ من السهو والخطأ... ذلك أنه قول مع غرابته، كان يشكّل نبوءة وقراءة للغيب، وزعماً عما ستؤول إليه الأُمور في عواقبها. والأعجب من هذا وذاك أنها نبوءة تحمل ضد مضمون الرسالة، وعكس ما يرجوه القائد الذي يعبئ لثورته الأنصار، ونقيض ما يستخدمه من يدعو للنهضة والقيام!

فقد صرّح «الحسين» في كتابه الذي بعثه إلى «المدينة» يستقدم فيه أخاه «محمد بن الحنفية» ومن خف من «بني هاشم»، صرّح قائلاً:

"إنّ من لحق بي أستُشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح"!

إلى أي «فتح» يشير «الحسين»، وعن أيه يتحدث؟

أي «فتح» يكون قرين موت وملزوم هلاك؟ وأي «وعيد» ونذير هذا لمن يتخلّف؟! أيتوعّد أحد مخاطَبه بأنه سينجو من الموت والحتف والشهادة، إن لم ينزل على قوله فيطاوعه ويمتثل طلبه؟!

كانت الصورة الملكوتية لهذه الأفعال الحثيثة والخطوات المتلاحقة ترتسم بشكل بعيد كُلياً عن الظاهري، فهذه الأجتماعات والخطب والكتب والرسل والرسائل، وكل ما يدخل في النشاط السياسي والتعبئة الجماهيرية لحركة ثورية تريد إسقاط أعتى الأنظمة وأكثرها بطشاً ودموية...

كانت في جوهرها حركة غيبية محورها «التمحيص والغربلة» و«الأجتباء». ولم يتّضح لي ولم أتبيّن، لأسباب أجهلها، أو لخفاء الأمر، أو عدم وجوده أصلاً، أن عملية «الغربلة» التي كانت تتوالى مع كل خطوة ومنزل وخطاب، كانت فعلاً مباشراً مقصوداً من «المولى» يمارس فيه أمتحان الناس وأختبار الأُمة أم لا؟... إذ بدت لي أمراً تلقائياً ونتيجة طبيعية لحركته، وسنة من سنن التاريخ وطبيعة صيرورته، لا أنه كان يقصدها وينويها، فيبتلي الناس ويفتنهم، إنما كانت حركته هي التي تنتهي بنتائج ينفصل فيها الحَبُّ الجيد عن الرديء، وينسحب مَن لا حظّ له وينكفئ.

إنما الواضح والبيّن هنا أن «المولى»، كحقيقة كبرى ومحور وأصل أول، كان يلاحق «كوكبة» يعرفها، ويسعى ليلتقط من الدرر والجواهر، وينتقي من معادن الرجال أنقاها وأخلصها، ما يكمل عقد «القلادة» أو رصيعة «التاج»... فيزيل العوائق ويشق الطُرق ويمهد السبل حتى يتواصل مع «ثلة» يعرفهم بأسمائهم وأسماء آبائهم منذ صبح الوجود.

لقد كان يدعو «الأصحاب» ويجتبي «الأنصار»، ليس إلّا!

ها قد أنكشفت لي صورة جديدة الساعة...

إنه ـ عليه صلوات ربه ـ يلتفت إلى ما يكتنف حركته ويصاحبها ويلزمها من أبتلاء وأمتحان يقع فيه الناس ويهلكون... لم يكن غافلاً عن هذا، ولكنه يتركه لـ «قانونه» فلا يتدخل بقهر يسلب الأختيار، كما لا يميّز بلا حق أو يفضّل بِلا فضل. وهكذا كان ـ عليه صلوات ربه ـ ملتفتاً ومحيطاً بل ناظراً ومشرفاً على مئات بل آلاف وملايين النتائج والعواقب التي تترتب على قيامه وفعله، بل إنه يدير ذلك كلّه ويدبّره، بإرادة لا تلبث ولا تزال تخلق ملائكة مدبّرات، وقوىً أخرىٰ لا أدري ما هي، أمواج مهولة من «الطاقة» المتعددة في نوعياتها غير المتناهية في حجمها وكَمّها.

لكن الجلي البيّن هنا، والمشهود الذي لا يعتريه شك، أن «المولى» عليه صلوات ربه، يأمر فتتابع العلل وتنبعث الأسباب فيمتثل كل شيء وينقاد، وتتحقق من بعد ذلك الأشياء وتكون، ثم تجري الأحداث وتتوالى... وهذه العملية (الموازية) كلّها، بحجمها وعظمتها التي تبدو وكأنها تملأ كل شيء هنا، هي في حقيقتها مجرد «هامش» لا يسمح له «المولى» أن يطغى ويتجاوز حدوده فينال من الأصل.

وهذا من عجيب الأمور هنا...

فكما هو النظم المطلق، والآلية والتلقائية، والتتابع الذي تتلاحق فيه مليارات العمليات فلا يخترم في جزئية واحدة، فقد لاحظت أن «الأولوية» ومسألة تقديم الأجدر على الجدير، وأصل «التفاضل»، أمر مُلتَزَم به هنا بشكل صارم، ولا يسمحون بتخلّفه ولا يتهاونون في تطبيقه بتاتاً.

كان «المولى» ـ في حقيقة الأمر وأصله ـ يجتبي أعوانه وأنصاره.

لقد كان يلتقطهم من شتاتهم، ويناديهم ويستقدمهم من أقاصي بلادهم ومواطنهم، يجتذبهم بالأسباب الطبيعية ويجمعهم حوله... مكملاً قلادة العز والمجد والشرف والفخر والكرامة التي ستطوقهم أبداً، وقد قضى الله أن تكون الفتنة والابتلاء حلقته الرئيسة، بل خيطه الناظم عقده.

كان «المولى»، بكتبه ودعواته ورسائله ورسله، يسقي تلك البراعم الطاهرة ويرعاها بخاصة عنايته، لتنمو سريعاً وتَيْنَع، أو أنها كانت قد أينعت بالفعل وأكملت نموها، فكأن «المولى» يجنيها وينهض بالحصاد، كان يفلق القواقع والأصداف ليستخرج منها الدرر المكنونة في أجوافها، ويفك عن الأبواب ويزيح أقفالاً طالما حبست الرجال وجعلتهم أحلاس البيوت... فيجمعها لتلتقي مع «القربان» وتوافيه، وتكون معه في مذبحه، وتشكل «فرقة الحرس» و«جوقة الشرف» المواكبة في مصرعه ومصرعها، فيرفعهم إلى مقاماتهم المدّخرة في ذرى المجد وقمم العز، لا يساجلهم في الفخر صحبة، ولا يطاولهم في الوفاء رفقة.

وكان «المولى» يخلق ـ في الوقت نفسه ـ أسباب التدافع الذي تبرز وتنجم من تلقائه قرون الشيطان! نعم، كانت حركة «المولى» تفجّر مكنون الشرّ في حزب «الشجرة الخبيثة»، كانت تستفز «اللقطاء» وأبناء «الطلقاء»، لينبعث الأشقى منهم والأرذل، وتستنفرهم لينحدروا من كل حدب وصوب ويجتمعوا... فيلتقوا مع كوكبة الحق في تلك العرصة الموعودة ويتواجهوا ويتصارعوا، لتسطر وتكتب في الوقت نفسه: أروع ملاحم الجهاد والتضحية والإباء، مع أقذع جريمة وأشنع جناية تقترف، ويتحقق أخطر حدث ينتظره الوجود، عن طريق أفظع خطب يمكن أن يقع.

بدأت، وأنا في مستشرفي، أشعر أن هناك المزيد لأتلقاه وأفهمه، ولكني بحاجة إلى مزيد من التجرّد، وأن عوالق نشأتي ما زالت تجول في نفسي، والحق أنني أضمرت بعض ما كنت أرى واقتطعت جانباً من الكرامة التي خبيتُ، لأفتخر عند عودتي وأباهي... فعوقبت في الآن، حجباً عن المزيد!

أمام مثل هذه الصور الباهرة، وسِجِلّ لا تدري: أتطوي منه هذه الصفحة لتنظر ما يليها، أم تمكث وتطيل فتشبع وترتوي ما شئت؟ أمام هذا وذاك، لا تعود تسأل وتعبأ كثيراً:

هل أحرم «المولى» للحج، أم لنيّة عُمْرَة مفردة؟

كيف ينثني عن «مكة» في يوم «التروية» فلا يدرك «الموقف»؟

الناس يتوجهون إلى «منى»، وهو يروح إلى «العراق»!

إنني أرى الآن بوضوح أن كل شيء خاضع لهم وتابع! كل شيء يستل وجوده منهم وينبثق ويتكوّن ويصدر عنهم... القيم والمُثُل، الفضائل والكمالات، الفضلاء والكُمّل، الأولياء والصفوة، الأحكام والتشريعات، كل الخير منهم، وكل الشر من أضدادهم ونقائضهم.

لقد انكشف لي هنا أن «الحج» لم يُشرّع إلّا ليقصدهم الحاج ويتوجّه إليهم الناس ﴿لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ولم تكن «الكعبة» «قبلة» إلّا لأنهم أحبّوا هذه البقعة وتعلّقوا بها وعظّموها، فهي أول معبد وُجد على وجه الأرض، وكانت منزل جدهم الأعلى حين انثنى عن «بيت المقدس»، رغم أن لا زرع فيها ولا ماء.

فلما أحبّوها... كرّموها وشرّفوها، فكانت دار ميلاد «علي»، وكانت «القبلة» التي ارتضوها.

كنت أظن أن التشريعات السماوية خضعت، منذ الأزل أو منذ حان حينها واقتضى وجودها وحكَم، خضعت لدقة النظام الأتم، مستقلة، قائمة بذاتها، أخذت موقعها في ذلك المدار والتحقت بتلك المنظومة العظمى... وإذا بها، مثل كل شيء آخر في هذا الوجود، تابع لـ «الأنوار» منقاد لهم، مفوّض في تقديره وصدوره وإمضائه وإنفاذه وإبرامه، أو تغييره ونقضه وحذفه وإلغائه ونسخه، وكل شؤونه إليهم ـ صلوات الله عليهم ـ.

ولك أن تطّلع على حقيقة تشريع نافلة صلاة المغرب، على سبيل المثال، لتقف على أبعاد هذه الحقيقة الخطيرة، فتعرف الفلسفة والعلّة، ولعمري أسيُبطل ذلك العجب أم يدفعه ليزداد، لست أدري؟...

فالحقيقة أن هذا التشريع لم يكن إلّا تحفة أتحفها «النبي» الأعظم سبطيه الحبيبين على قلبه. فالناس يصِلون أبناءهم ويُتحفون أطفالهم بالهدايا والألعاب، يبتاعونها لهم من خالص أموالهم أو يصنعونها بأيديهم، وإن سَمَتْ فيهم الروحانية وتألقت تجدهم يعقّون ويتصدّقون عنهم، وكل ذلك أيضاً مما يملكون وجاز لهم أن يتصرّفوا فيه ويبذلوه... أما «أهل البيت» فهداياهم لأبنائهم وتحفهم لمواليدهم: تشريع ينعقد فرضه في السماء، ويمضي مُقرَّراً على البشر ما دام الدين ودامت الحياة، ويدخل في منظومة العبادات والطاعات والقربات لكل مسلم!

هذا «النبي» الأعظم بُشّر بميلاد «الحسن» وقد فرغ لتوّه من صلاة المغرب، فألحقها بركعتين وأمر أن تعقبا فرض المغرب أبداً، تحفة منه لسبطه الأكبر، ومضت نافلة المغرب ركعتان حتى ولد «الحسين»، فألحق بها ركعتين أخريين لتصبح أربعاً، لا تسقط حتى في السفر، لأنها «هبة ذي رحم»!

وهكذا الأمر في بقية معالم الدين ومعانيه ومفاهيمه...

فالفضائل والكرامات والمستحبات والحسنات، لها حقيقة واحدة هنا، لا تتجاوز شأناً من شؤون «الأنوار»، كما إن للمحرمات من الرذائل والقبائح والسيئات صورة أخرى، لا تعدو أعداءهم ومناوئيهم!

ورغم أن حجم الشهود هنا مطلق، مهيمن وحاكم، لا فرجة فيه لما يتخلّله أو ينال منه، فهو يجلّلك ويطبق على وجودك ويملأ أركانك حتى لا ينتابك أدنى شك أو ترديد، فهو وجدان وعرفان، وحضور يغني عن كل دليل وبرهان... ولكن رغم هذا، ومن فرط حيرتي وعجبي بالصور التي أرى، وما أشهده من انعكاسات الأعمال وتمثّلها هنا، دخلني الشك:

هل أنا واهِمٌ، أم شاهد واقع وكاشف حقيقة؟

فأوحي إليّ علاجٌ يخرجني مما انتابني، فأتأكّد من نفوذ الوهم ومدى الواقع في ما أشهد وأرى: أُلهِمْتُ أن أروح في الأماني والآمال، أنسج لها وأتصوّر، أسبح في فضائها وأتخيّل، أتنقّل بين كمال أصبو إليه ومقام أطلبه، بين جاه يراودني وثراء تحدّثني نفسي به!

فلم تتحقق لشيء من هذه الأوهام صورة، ولم تتراءىٰ أي منها في شكل وهيئة. ما أنعكست ولا تجسّمت ولا تمثّلت... اللهم إلّا بضباب باهت أو غبار طائر، كهباء منثور، لا وجود له ولا حضور إلّا بما أُتلف في العمر وضاع في الحياة وأُهدر من جهد ووقت!

لا شيء هنا إلّا الحقائق، كما وَقَعَت وكانت، وكما هي في دنياها، ثم كما أنعكست وتُرجمت، كما هي في صورتها الملكوتية.

* * *

كان الناس في حمّىٰ «التصعيد» و«التروية» والأستعداد لـ «الموقف»، وزحف متصاعد نحو «عرفات»، وقد دخل ليل الثامن، بزحام وضجيج فاق ما عهِدَتْه الليالي الخالية وما مضىٰ من ذي الحجة حتىٰ الآن، فكأنها الذروة التي ستنحدر عنها الأفواج التي تسعىٰ لتبلغها. فإذا فعَلَتْ، عادت لترقىٰ ذروة أخرىٰ تحين عند الإفاضة إلىٰ «مِنىٰ»، وهكذا حتىٰ يفرغوا من حجّهم ويعودوا إلىٰ أوطانهم ومعايشهم، وهم في طول ذلك وعرضه، قَبْلَه وبعده، وعلىٰ مدىٰ حياتهم: بين «قمة» يتهالكون ليبلغوها ثم يتعجّلون ليفرغوا منها وينحدروا عنها، و«قاع» يجاهدون ليتخلّصوا منه ويخرجوا عنه ثم تنقطع أنفاسهم ليعودوا إليه... ولا «نهاية» يتوقفون عندها ليقولوا: ها قد وصلنا!

هذا «الحسين» عليه صلوات ربه، يقف في طريق الجموع الزاحفة من الحجاج، يعترض ضمائرهم ويصدم ذممهم، وإن لم يزاحمهم المسير ولا ضيق عليهم الدرب والمسلك، لكنه «قطع» طريق السعي المتواصل، وهذا اللهث الدائب الدائم، والحركة الأشبه بدوران البهائم حول السواقي، تنضح المياه وتفرغ القِرَب وتعود فتدليها من جديد لتزعب وتسقي...

وقف «المولىٰ» عليه صلوات ربه، علّه يوقف ما كانوا فيه، ويخرجهم من النسق المتكرر الذي كان يلاحقهم ويستوطنهم، وينقذهم من حالة «كثرة الضجيج» إلىٰ حقيقة «قلّة الحجيج»، وهكذا ما كانوا فيه من تقلّب ومطاف، وسعي وكدح لا يهتدون فيه إلىٰ نهاية... وهم في غفلة عن كل ذلك، لا يشعرون ولا يلتفتون ولا يستنكرون.

وقف حتى إذا تجمّع حوله أكثر الناس، بل كلّهم، وهم بين:

قلِق وَجِل، بل فَرِقٍ وَهِل، منقاد في واقعه لـ «عقل جمعي» يحكمه ويُخضعه من «اللاشعور»، وهو يرى ـ مع ذلك ـ في نفسه قمّة الوعي وذروة الحكمة، وغاية الفهم ونهاية المعرفة! فيترفّع عن «العوام» وينزّه نفسه عن «الغوغاء»، ويتحدّث بمنطق العالم الخبير والناقد البصير:

ماذا يريد هذا الرجل؟ (دون أن يطعن في شخص «المولى» أو يمسّه في قدسه، فهو لا يحيد عن مقتضيات النقد العلمي وأدب الحوار والجدال، ولعلّه آستبدل تعبيره «الرجل» في بعض المواضع بـ «العبد الصالح»!)، ماذا يريد وماذا عساه يستطيع؟ أما آن أن نقر بعض الشيء ونسكن ليستأنف الخليفة «الفتوحات» ويعود على المسلمين تدفق الخيرات؟ لقد ملّت الناس النزاع والفرقة والصراع ومالت إلى الوئام والوحدة، وسكنت إلى الراحة بعد الحرب والفتنة، ورغبت في طي هذه الصفحة وعدم العودة إليها؟ فمَن له أن يخرجهم مما دخلوا فيه ورغبوا إليه؟ إلامَ سيفضي هذا «القيام» غير أن نحقق فينا قول الله تعالى: ﴿ولا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلوا وَتَذْهبَ رِيحُكمْ وآصْبِرُوا إن ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؟ أما قعد أخوه «الحسن» وهو السبط الأكبر، فصبر وهادن «معاوية» وصالحَه، فحقن الله به الدماء، وكف الأذى عن الناس؟ بل أما قعد أبوه «علي» عن حقه من قبل وآلتزم داره أكثر من عشرين عاماً، فصبر وفي العين قذىً وفي الحلق شجىً يرى تراثه نهباً؟! فما الذي تغيّر اليوم من الظلم والغصب فأسقط حجج أبيه وأعذار أخيه في الصلح والصبر لحفظ الدين وبيضة الإسلام وحقن دماء المسلمين؟

إنّ حمَلَة هذا المنطق ودعاة هذا الفكر وإن كانوا شريحة محدودة، لكنها كانت نافذة ومؤثرة، إذ ناهيك عن الخلط والمزج الذي يتضمّنه خطابها، مما يوهم ويُلْبِس، فقد كان كثير منهم منصرفاً للعبادة وشؤونه الخاصة، غير داخل في السلطان والسياسة، مما كان يخلع عليهم مصداقية مُغرِرة. لم يكن حضورهم في «الموقف» واضحاً، ولكن دورهم وقدرتهم في ثني الناس عن الثورة، أو دفعهم إليها وحضّهم عليها (إن أرادوا)، كان كبيراً وفاعلاً...

وبعد هٰذا المتشدّق... ترىٰ متشوّق لحديث «المولىٰ» متلهّف لسماعه، لا موقف مسبق يحكمه، فهو مستفهم وباحث، يطلب الحق. ولٰكن لا يُعلم بعد هٰذا، هل سيعرفه إذا سمعه ويعيه إذا بلغه، أم سيجهله كما جهله من قبل؟ ثم إذا وعيه وعرفه، هل سيصيب في تشخيصه ويحسن تطبيقه ويهتدي لإمام زمانه، أم سيطيش سهمه ويخطئ كما عاش من قبل طائشاً ضالاً؟

وهنا ترىٰ مُتبرّكاً قيل له: هٰذا سبط «محمد» الرسول، وابن «الزهراء» البتول، هٰذا نجل «علي» المرتضىٰ، وشقيق «الحسن» المجتبىٰ، إنه خامس «أصحاب الكساء»، وبقية من باهَل بهم «النبي» نصارىٰ «نجران»، ونزل في أبياتهم القرآن، ومَن قيل فيه سيد شباب الجنان، وإمام قام أو قعد سيّان... فوقف يغترف من فيض أنواره ويمتّع نواظره ويشنّف مسامعه. ولعل في المتبركين هٰؤلاء مَن كان أقصىٰ همّه أن يحدّث أهله إذا رجع إلىٰ وطنه أنه رأىٰ هٰذه الشخصية العظيمة وقابلها وأخذ عنها وسمع منها!

وفي الجمع طائفة ضجرة...

لا يدري مَن حولهم لِمَ يتململ هٰؤلاء ومِمَّ يشكون؟ بل لا تدري هي ما تريد؟! تنمرّ وإبطاء، أو ضيق وإعجال، ذلك في كل شؤونهم! يغالب أحدهم علىٰ أمر وينازع ويصر، فإن أصبح الأمر كما يريد والحال كما يطلب، أنقلب وتنمّر ومط شفتيه غيْر راض أو غيْر عابئ، ثم عائد ليطالب بالوضع الأول السابق، وكأن غيْره الذي دعا وألح! نقد دائم وشكوىٰ لا تنقطع، مُركّب سلوكي غريب وروح مريضة ونفس عليلة، تجده في كل موقف وجماعة، كالبَثْرَة أو الثؤلُول ينفر بين أصابع الأقدام، لا يداويه حتىٰ الكي! أعداء النجاح والتقدم، بل الحركة والتحوّل، ركون وتثاقل، عراقيل وموانع، تثبيط وتقاعس... ولا شيء سوىٰ هٰذا!

وجماعة أخرىٰ حبسهم الفضول، فوقفوا ينظرون ما يريد هٰذا الهاشمي الشامخ الأنِف، والعلوي الأبيّ المتعالي، والفاطمي الواثق المعتز، والشجاع الثائر علىٰ «بني أُمية»، وهم في أوج طغيانهم وغطرستهم، وأقصىٰ كبريائهم وذروة شقوتهم، وأين سيبلغ به الأمر وينتهي؟

وفي الأفق الآخر...

أصطفّت حشود الملائكة والجن وسكان الكواكب والنجوم، تطبق السماوات وتملأُها، حتى بدا الجمع البشري أمامهم كحفنة، بل حبة رمل في صحراء مترامية، أو كغرفة، بل قطرة من محيط متلاطم.

وقد كانت السماوات السبع بما فيها تئط وتهتز ترقّباً وتحسباً، وكانت تغلي كالمرجل، ولكن بحراك مكبوت وأنفاس مكتومة وزفرات محبوسة، لا تريد أن يعلو منها صوت أو تحين منها حركة فتفقد شيئاً من أجزاء هذا الموقف، ويضيع عليها بعض ما سيصدر عن «المولى» بعد قليل، وهم في وَجَل وأضطراب لا يعرف جلّهم له سبباً ولا منه مخرجاً.

بين كل هؤلاء قام «المولى» يلقي خطابه الأخير.

كان قد علا صعيداً يقرب من «أبي قبيس»، وقد حفّ به مَن حضر من «بني هاشم»، يحكي جدّه الأعظم حين صدع في قريب الموضع نفسه بدعوته العلنية، وأطلق نداءه الخالد: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"...

وقف «السبط» هنيهة، طالت بعض الشي وأمتدّت، كمَن ينتظر من الجموع أن تستقر وتكف عن الضوضاء والحراك، مع أنها كانت قد قرّت وسكنت وصمتت منذ حينٍ تنتظره، وأنا أستعجله ـ في نفسي ـ وأستحثه أن لا «يتباطأ» أكثر من هذا حذر أن يفقد الموقف أنتظامه بصيحة طائشة في أقصاه تغرر بالجموع وتشتتها، أو حركة مُفسدٍ أو حماقة جاهل تأتي على الوقار الذي جلّل الموقف وحكَمَه بغرابة. ولكن «المولى» كان ينظر وينتظر برَوِيّة، من غير إعجال ولا أعتياق، ولا توجس ولا قلق، ولا كان متحفزاً أن يفسد عليه أحدٌ خطابه، وكأنه الذي يسقي الموقف ويمدّه بوقاره ويخلع عليه هيبته، فلا خشية من شيء ما دام الأمر منه: يصدر عنه ويعود إليه!

وقد أمتزجت في محياه الشريف معاني الخوف مع الأمن، كما تجلّت في قسماته علامات الحزن مع آيات السرور! والمعية هنا أندكاكية إلى حد بعيد، فأنت ترى الخوف من حيث تدرك الأمن، لا قبله ولا بعده، لا أمامه ولا وراءه ولا إلى جانبه، بل مع هذا وخلاله يأتيك ذاك!

ولست أدري حال الجموع الشاهدة للحدث الناظرة والمنتظرة هنا، هل أدرَكَتْ ما أدرَكْتُ أم لا؟ هل يجدون في وجه «المولى» ما أجد؟ فأنا أرى عجباً من تداخل المشاعر والتقاء النقائض واجتماع الأضداد... أرى خشيةً وترقّباً ورَوْعاً ووهلاً، وإذا في طيّاته وفي أثنائه، وفي فضائه ومن خلاله، أجد سكينة وطمأنينة وأمناً يذهب بكل رَوْع ويبدّد كل حذر وخوف! أنظر في صفحةِ الكآبة والغصّة والحزازة والكرب، ومن خلال ذلك أرى فرحاً وغبطة وبهجة وبِشْراً!

كان ـ عليه صلوات ربه ـ يجول بنظره في الناس، يستعرضهم، وقد أدار وجهه الشريف فيهم مرّة إلى أقصى اليمين، ثم عاد أُخرى ـ ببطء ومَهَل وأناة ـ إلى أقصى اليسار، حتى «مسح» الحضور كلّهم...

وأخاله كان يرسل من عينيه أو من قسمات وجهه وصفحات محياه، لا أدري، المهم أنه كان ينبعث منه «شيء» من نور أو ضياء غيْرِ مرئي، وإن جاز لي أن أصفه بلغة زماننا فأنا أشبهه بالإشعاع أو «الطاقة».

كانت تخترق المشهد والموقف والمكان والزمان إلى ما ورائه، كأنه كان يُعمِل ـ بولايته ـ ما يُنفذ قوله وصوته ويحمل نداءه ليشمل «الجميع» ويبلغهم دون استثناء، ولعلّه أرادَ مَن وراء الجمع هنا أكثر مما توجّه إليه! فيعمّ ما سيلقيه بعد قليل مَن في الدور والبيوت، ومَن لم يحضر «الموسم» من المسلمين وهم في بلادهم، بل مَن في الوجود من أقصاه إلى أدناه!

كان كل مَن حضر، من جن وملائكة وبشر، يحسب أن «المولى» ينظر إليه دون سواه، وكل من غاب ولم يشهد، أدرك في خاطره ووقع في نفسه ووقر في أذنه وتمّ في وجدانه، أن «المولى» يناديه ويحدّثه، فمنهم من سمع الخطاب كاملاً، ومنهم من سمع مقطعه الأخير، ومنهم من أقضّه الوقر وأقلَقَه الخاطر، فخرج ليسمع أو يسأل مَن سمع، ولو بعد حين.

لعمري، لقد تمّت الحجة ومضى الأمر وتحقّق وكان، كما شاء «المولى»... لقد أصغى كل شيء في الوجود وسمع، فبُلّغ. حتى الحجر والشجر والجماد والحيوان، والرضّع والأمّهات والغيادق والمخدّرات!

فإذا اكتملت الأسباب واستقر كل شيء في موضعه، بدأت الكلمات تنطلق من شفتي «الحسين» تحمل شحنة قصوىٰ من سحر آسر، ومع كل مقطع كانت الأرض تتزلزل، والجبال تتدكدك، والنجوم تنتثر، وهو ماض بوقار وأناة، ينعىٰ نفسه، ويتمّ الحُجّة علىٰ كل من يطمح إلىٰ المقام الأسمىٰ، أو يرجو النجاة من السخط الأكبر، ويرسم المعالم النهائية للصورة التي سيقدم فيها «القربان الأعظم»!

خُطَّ الموتُ علىٰ وُلْدِ آدم مَخَطَّ القِلادة علىٰ جيدِ الفتاة، وما أوْلَهَني إلىٰ أسلافي اشتياق يعقوب إلىٰ يوسف، وخِيرَ لي مَصْرَعٌ أنا لاقيه، كأني بأوْصالي تُقطّعُها عُسلان الفلَوات بين النواويس وكربلا، فيملأن منّي أكْرُشاً جوفاً وأجْرِبة سُغُباً، لا محيصَ عن يوم خُطَّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نَصْبِرُ علىٰ بلائه فيُوفينا أجورَ الصابرين.

لن تشذّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعةٌ له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينُه، وينجز بهم وعدُه.

ألا مَن كان باذلاً فينا مُهجته، موَطّناً علىٰ لقاءِ الله نَفْسَهُ، فليرحل معنا، فإني راحلٌ مُصْبِحاً إن شاء الله تعالىٰ.

تكاثر المحاجِجون المتفلسفون، والنّاصحون المُشْفِقون، و«المعذّرون».

وبين هٰؤلاء معذورون حقاً... لم يجدوا في ظرف زمانهم ولا في ممكن قدَرِهم ما «يُحمَلون عليه» وما «ينفقون» ليلتحقوا بـ «الرّكْب» ويفوزوا بالصحبة والنصرة. وأنا لم أتبين حقيقة المعذورين هٰؤلاء، فقد كانوا صادقين في نياتهم، مخلصين في محبّتهم، فهل كان لهم في ذلك مساغ عذر؟ قد يستثنيهم هٰذا ويخرجهم عن نطاق اللعنة التي صدرت فيما بعد وحلّت على كل «مَن خذل»، ولٰكن هل يُسَلِمهم من الملامة وينجيهم من المؤاخذة؟ لست أدري، فالأمر خافٍ حتىٰ من مطّلعي هنا!

وطائفة تكتم نصبها وتخفي عداءها، تريد أن تثبّطه وتوهن عزمه، مُسْدِية «النصح» ومحذّرة إياه قوة «يزيد» وقسوته وغدر «الكوفة» وخذلانها، وأخرى تتقلّب: بين إظهار الإشفاق والخوف على «المولى» أن يصيبه مكروه، فتحثّه على البقاء وترك الخروج، وبين آحتمال الظفر وأن يؤول الأمر إليه، فتؤيد الثورة وتدعم القيام، تؤمّن لنفسها موقعاً في النظام العتيد!

و«المولى» يجيب كلاً بما يليق، ويملأ له ما حمل من إناء وقدّم بين يدي سؤاله ونقاشه من وعاء... يداري هذا ويواري عن ذاك، يخفي أمره ويكتم حقيقة قصده عن فريق، ويصارح آخر ويخبره، يتّقي فئة، ثم ينفتح ويشف على أخرى، يعذر بعضاً ويسلّيهم ويقرّع آخرين ويوبّخهم.

فما كان يلقى به «عبدالله بن الزبير» و«عبدالله بن عمر» و«عمرة بنت عبدالرحمن» و«عبدالله بن مطيع العدوي» و«مسور بن مخرمة»، مما ختمه وفصلَه بقوله الساخط!: "أف لهذا الكلام ما دامت السماوات والأرض". يختلف عما كان يجيب به «الفرزدق» و«أبا هرّة الأزدي» و«الأوزاعي» و«عمر ابن عبدالرحمن بن الحارث المخزومي» وأخاه «عمر الأطرف» ويتلقّاهم به. وهذا يختلف ـ بدوره ـ عن حديثه مع «أبي سعيد الخدري» وأخيه «محمد بن الحنفية» وردّه على آبني عمّه «عبدالله بن عباس» و«عبدالله بن جعفر»، وعمّته «أم هاني»، وأم المؤمنين «أم سلمة»، مما ختمه بقوله: "يا أمّاه، قد شاء الله عز وجل أن يراني مقتولاً مذبوحاً ظلماً وعدواناً، وقد شاء أن يرى حَرَمي ورَهْطي ونسائي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مظلومين مأسورين مقيّدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معيناً".

آنفضّ الناس بعد الخطاب وآنصرفوا إلى وجهاتهم، وتركوا «الحسين» في آستعدادات سفره، وكأن شيئاً لم يكن! إلا آحادٌ يسلّمون ويبايعون. ويبدو لي أن لا أحد هنا، غير هؤلاء الآحاد، تأثّر بالخطاب! فصرف قصده عن حج «البيت» إلى الرحيل مع أهل «البيت»، حتى بعض «آل عقيل»، ممن بدا وكأنه آلتحق بـ«الركب» في «مكة»، كانوا في حقيقة الأمر في حكم الملتحقين سلفاً، قبل الخطاب والنداء الصاعق، ولم يكونوا ممن تأثّر وآستجاب ساعتها.

وهذا مما صدّق ظنّي وأكّد لي أن مخاطَبي «المولى» لم يكونوا في هذا الحشد، بل لم يحضروا الموسم أصلاً، ولعلّ ما شهدناه الساعة من خطاب، كان جزءاً «شكلياً» من طقس يرمي ما وراء المشهد والحدث، ويطال رجالاً في أصقاع أخرى، يكمل معادلة تكوينية «جفرية» في الاتصال بهم وإبلاغهم «ساعة الصفر»... لقد كان الخطاب «بطاقات دعوة» و«رسائل مشفّرة» إلى أولئك حيث هم في مكامنهم!

* * *

كان «القمر» يعدو بفرسه ويراوح بين محامل «الركب» وحولها خَبَباً، حتى إذا بلغ محملاً ضربت عليه قبة عالية فصارت هودجاً عظيماً، وقف بحذائه واتكأ على عوارضه وأزاح الذباذب والأستار، وأطل برأسه في الهودج وتبادل مع من فيه الحديث، ثم انثنى متبسماً، لا أدري ماذا قال وماذا سمع، (فهذه مناطق حظر ومنع على كل ناظر ومطّلع)...

كان يغيب هنيهة فلا يلبث أن يعود ويلوذ بالهودج ويؤمُّ به من جديد، يلتمس عذراً من تفقّد الحال واستطلاع الشأن والسؤال!

ها هو يأتي بعد جولة سريعة له في أرجاء القافلة، إلى الهودج الأول، فيتوقّف بإزائه ثانية ويترجّل من فرسه ترجّل الثبيت، وراح يسوّي القتد ويشدّ النِسعَ والحَقَب والظُعان، رغم أنه لم يكن قد نالها استرخاء، ولا شكَت رَعناً ولا قلقاً، وما كانت تريد شداً ولا إيثاقاً! ثم يعود ثانية فيعلو جواده ويتعمّد أن يحاذي مَطَلّ الهودج المهيب، ليكون في مرآه إن حانت ممن بداخله نظرة عبر أستاره... أرادها أن تقع عليه، وتملأ عين الناظرة منه!

ومنذ اللحظة التي نهضت فيها القافلة وسارت الإبل مطاريق، عزف في الفضاء لحن جنائزي رهيب بإيقاع بديع، صحبه صوت هبهبي شجي رنين، يحدو «الركب» ويسوقه بـ «أنشودة الخروج» من نظم «الروح»... فطرب كل شيء هنا وانتشى، طرب شوق ولهفة، ونشوة عشق وصبوة، حتى تلاشى هميس أخفاف الإبل، فكأنها ما كانت تطأ الأرض، أو كأن الخفة أخذتها وأطارتها فغدت تسبح رغم أحمالها وأثقالها.

ومن وراء نسق الإيقاع وعذوبة الإنشاد، ومع الطرب والنشوة، من بين طيّات هذه ومن تضاعيف ما يكتنزه ذاك من شوق ويختزنه من لهفة ويبعثه في النفوس من سُمُوٍّ ورقّة... رِكْزٌ وحسيس لبكاء نسوة يأتي من بعيد، جرْسٌ لأنين وهزج بحنين، يفطر الصخور ويصدّع الجبال، لا أدري أمن ضعف كُبِتَ أم من إعياء؟ ولكنه رغم خفوته وخفضه كان ينشر الألم ويبث الحزن فيخلّف اللوعة والأسى في كل قلب:

خَرَجَ الحُسَيْنُ مِن ٱلمَدينَة خائفاً
كَخروجِ مُوسىٰ خائفاً يَتكتَّمُ
وَقَد ٱنجلَىٰ عن مَكَّةٍ وَهوَ ٱبْنُها
وَبِهِ تَشَرَّفَتِ ٱلحَطيمُ وَزَمزَمُ
لَم يَدْرِ أينَ يُريحُ بُدْنَ ركابِهِ
فكأنما ٱلمأوىٰ عليهِ مُحَرَّمُ
فَمَشَتْ تَؤمُّ به العِراقَ نَجائبٌ
مثلُ ٱلنَعام به تَخِبُّ وَترسُمُ
حفَّته خيْرُ عصابةٍ مُضَريَّةٍ
كَٱلبَدر حين تحُفُّ فيهِ ٱلأنجُمُ
رَكْبٌ حِجازيّون بَين رِحالِهِم
تَسْري ٱلمنايا أنجَدوا أو أتْهَمُوا
يَحْدُون في هَزَجِ ٱلتلاوة عِيسَهُم
وٱلكلُّ في تَسبيحه يَترنَّمُ
وَتباشَرَ الوَحْشُ المثارُ أمامَهم
أنْ سَوْفَ ويَكْثُرُ شربُه وَالمطعمُ
طَمعت أميَّةُ حينَ قلَّ عَديدُهم
لِطَليقهم في الفَتْح أن يَستَسلِموا
وَرَجوا مذلَّتهم فَقُلن رِماحُهم
مِن دُون ذلك أن تُنال الأنجُم

لا يغالب النشيد الحزين وما وراءه من البكاء والأنين، إلّا ذِكْرٌ وترتيل ودعاء وتهليل، يدوّي من بين المحامل ويعلو من على الجياد، ويرتفع في أطناب الأخبية والفساطيط كلّما حطّوا ونزلوا، وكأن الركب لملائكة تمثلوا بشراً أسوياء، أو هم رهبان أكرهوا على الخروج من صوامعهم، فأعتكفوا في الهوادج والمحامل، وجعلوا من صهوات الجياد محاريب، وراحوا يتبتّلون في إخبات، ويسبّحون ويحمدون في هزج أخجل العبّاد...

وهاتف يذيب لفائف القلوب، ينعاهم بحسرة وأفتجاع، كغمامة تظللهم وتلاحقهم أينما حلّوا وأرتحلوا، حتى سرى إلى مناماتهم ونفذ فيها وراح يراودهم كلما هجعوا:

"القوم يسيرون والمنايا تسير معهم"!

❁ ❁ ❁

إنني أُطل الآن على «منازل» الركب المتتالية:

بعد أن مرّ بـ «التنعيم» فـ «الصّفاح» فـ «ذات عِرْق» فـ «الحاجِر» فـ «بعض العيون» فـ «الخزيمية»... بلغ «زَرُود». وفي «زَرُود» ظهر «سلمان» وعاد ليسجّل حضوره، ولكنه كان حضور وداع وظهور إيذان بأنتهاء دوره!

وقد تداخلت أمامي صورتان لمشهدين...

هذا «زهير بن القين البجلي» يقفل راجعاً من غزو «باب الأبواب» (في «بلنجر» بـ «أردبيل») عام أثنين وثلاثين للهجرة، وقد فتحوا وأصابوا من الغنائم ما أثلج الصدور وأبلج النفوس. وأرى «سلمان» يجول بين صفوف العسكر الظافر الفَرِح الجَذِل، وهم يتفقّدون غنائمهم، هذا يقلّب ما وقع في يده، وذاك يحصي ما سلب، والآخر يصلح ما نهب، يتجاذبون أطراف الحديث ويتناقلون الأخبار ويسرد كلّ لصاحبه ما فعل في معركته...

أستوقفهم «سلمان» وهو ينظر في الأُفق كأنه يستشرف الآتي، وقد شخص ببصره وتسمّر وسط الجموع، ثم توجّه إليهم قائلاً:

أفرحتم بما فتح الله عليكم وما أصبتم من الغنائم؟

قالوا: نعم.

فقال: إذا أدركتم «سيد شباب آل محمد» فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه، بما أصبتم اليوم من الغنائم... أما أنا، فأستودعكم الله!

كان وهو يلقي كلامه قد كسر إطراقه وخرج من شيصه، وراح يجول ببصره يتشوّف ويتطلّع، يستنفض ويتصفّح، حتى إذا وقع على «زهير»، أنصرف عن الجمع كلّه وأقبل عليه، وأخذ يحدّ «زهيراً» ويجلّيه ويشتافه بنظرة عَلَق ما أنصرف عنها ولا أعرَض قبل أن يفرغ من إلقاء كلامه!... حتى تعجّب الناس وأرتابوا، فخاوص «سلمان» أو تخاوص، كمن يغمض بصره عند النظر إلى عين الشمس وأقفل.

وما كانوا أكثَرَ عجباً وتحيُّراً من «سلمان» نفسه، وهو ينظر أسم هذا «العثماني» ورسمه في أطهر صحيفة، ويراه في أسمى درجة، يتسنّم أعلى مرقاة... أعثماني الهوى يدخل في المخلَصين ويبلغ مقام الصدّيقين؟!

حنانيك يا رب ورحماك، كيف تنتخب وتختار، ومتى عقد السبق وثار الغبار؟... أخُلُقٌ أصعده هذا المقام، أم نجابة أدركته فحطّت به في هذا القرار؟ عجباً للشرف والطّهر كيف يصنع بصاحبه وأين يبلغ بأهْلِه؟

أم تراه قلبٌ خفقَ هناك فأحَبَّ، وروح هَفَتْ فهوَت، حين اتّصل في النشأة الأولى ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أجاب حين لم يجب غيْره، فاستحق بجدارة ما قصر عنه سواه، وزُوي عن الآخرين؟

كانت صورة المشهد ترفرف على سماء «زرود»، وترتسم في أُفقها حين بلغها «سيد الشهداء» وأناخ بها رحله، تتراءىٰ كخلفيّة غريبة مدهشة وحضور يُصِرّ على الربط، أو كاقترانٍ تلقائي تراه يتجلّى في الحوادث ويظهر كلّما اقتضى وحق...

ومما يحلّق في أفق «زرود» إلى جوار هذه الصورة «السلطانية»...

صدى «النداء»، يجول كمسبار يستَحِثّ «اللاقطات» ويستقصي مهابط الأصطفاء ومنازل الأجتباء، ينقّب عن «المجيبين» ويستكشفهم، ثم يلتقطهم كما يلتقط الطير الحب من بين رمل وحصباء، بل من تحت الجنادل والرّضام، وينتزعهم من محيطهم كما يُنتزع الجنين من بين مشيمة ورحم، ويستخلصهم من مناجمهم كما يُستخرج التبر من الرِكاز... ثم يحشدهم إلى مصارعهم ويسوقهم، يتسابقون كما يتهافت الفراش إلى النور، فلا يقر أحدهم حتى يسحق كل «أنا» فيه وينكر كل «ذات»، ويهوي إلى النار، كما فعل في النشأة الأولى وبادر في عالم «الذر».

في «زرود» الساعة جماعة من «فزارة» و«بجيلة»، فيهم «زُهَيْر بن القَيْن» عائد بأهله من الحج، وقد حطّوا إلى جوار «الحسين» مُكرهين! أجبرهم على «المنزل» وأرغمهم الماء، فأقصوا ما استطاعوا وابتعدوا ما تمكّنوا، لينأوا عن هذا «العلوي» الثائر على «بني أمية» ينازعهم الملك.

كانوا مجتمعين على طعام أعدّوه، إذا برسول يسلّم عليهم، ويتوجّه من بينهم إلى «زُهَيْر»: "إنّ «أبا عبدالله» بعثني إليك لتأتيه"!

طرَحَ كُلَّ ما في يده، وخيّم على الفسطاط صمت وسكون حتى كأن على رؤوسهم الطير. وتوقف «زهير» عن الإجابة، بل الجواب، فتدخّلت امرأته «دلهم بنت عمرو» وقالت: سبحان الله، أيبعث إليك «ابن بنت رسول الله» ثم لا تأتيه، لو لا أتيته وسمعت كلامه؟

قام «زهير» متثاقلاً، وتوجّه إلى مخيم «الحسين»...

لم يستغرق مسيره خطوات محدودة ودقائق معدودة، وما لبث أن رجع بعد مَكْثٍ لم يَطُلْ... رحلة ما تجاوزت في مراحه وغدوّه نصف ساعة، هكذا ظهر المشهد لأهل الأرض، ومَن حضر من البشر.

أما حقيقته، وما تراءى لـ «زُهَيْر» ويظهر لي الآن، فشيء آخر...

كما لو كان فجراً شاتياً تتطاير في سمائه النجوم وتطيش النيازك فتحسبها ستهوي لتقصفك، ويلمع البرق في أجوائه يشق صفحة الفضاء المسود فتظنه سينهال عليك ويصعقك، وتهدّ زَمْزَمَةُ رُعُودِهِ جوانب الأفق وتصك مسامعك وتأخذك وكأنها تجلجل بجوارك، بل تنبعث من داخل أذنك!... وقد انتصب «زهير» على شاطئ صخري لبحر لجي غزير يتقلّب ويرتعد كأن زلزلة ضربت أعماقه، وإعصاراً يأخذ بأمواجه يصنع منها جبالاً تتطاول على الجبال! قد تقرقف الرجل وأخذه الشفيف إلى الرعدة والتشنج، ولعبت به الزمهرير فصَرِدَ وقَرِس، فأخذ يذرع الشاطئ جيئة وذهاباً، لا تدري أمن خوف وقلق، أم ليدب في جسمه بعض الدفء ما يغالب هذا القرس وينفي هذا الصقيع... كان يحملق في آخر البحر ويتطلّع الساحل المقابل الذي انتصبت عليه «منارة»، ولعلّها «سفينة» راسية بأمان، مستقرة في مرساها باطمئنان، تتجاهل كل الاضطراب الذي يحيطها، وتعلو على كل العواصف من حولها.

وما كانت الريح تمهل «زهيراً» لمزيد تفكّر وتدبّر... كانت تصفر وتدمدم في جنبات الصخور والآكام ممتدة على الساحلين، وهكذا الموج، يزخر في غيران شاهقة فينحدر قَيْضُه في أغوار، فيختلط الأمر وتضيع حدود البحر ـ الفتنة ومعالمه، ولا يعود أحد يدري أين يبدأ وأين ينتهي.

ومـا زال اليَمُّ الهائج يقذف سراطينه وسلاحفه الصغيرة ويلفظ حيّاته وثعابينه على كثبان بعيدة نائية، فتهوي الكواسر بمخالبها العقبان وتنقض تقتنصها. والسحب تركض في الفضاء الغاضب مذعورة، تأخذها ريح وتردّها عاصفة، فتدور في متاهة لا تدري كيف تخرج.

والصراع في نفس «زُهَيْر» يحتدم في أوْجِهِ ويغلي في قمّته ويفور ويقذف حممه... «هوىً» ينازعه، من هويّة ٱلتصق بها ونزعة ٱلتزمَها كأعرافٍ قَبَلِيّة وٱعتبارات عائلية، تُثقله إلى الأرض وتركز قدميه حيث يقف. ويعاسيب «الدنيا» تطنّ في أذنيه، ودِلاء ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ وغيرُها من متاع الحياة تصب في مستنقع ضعفه وتعيد ملء آبارَ رغباته، وقد تأصّل مع هذا أُنْسٌ بِدِعَةٍ غُرِست فيه، وتعمّق إلى جوار ذاك ركون إلى سلامة فُطِرَ على حبّها وٱلتمسّك بها... كلّها تحثه أن ينكفئ ويرجع القهقرى، وترجوه أن ينصرف إلى أهله وعياله وشأنه، وينأى بنفسه عن أهوال هذا البحر والليل الحالك وينجو من أمواجه العاتية وعواصفه الهوجاء.

وفي المقابل، كان «جنود الرحمن» قد ٱستنفروا، وقوى الخير قد تداعت وتضافرت، فنهضت عزيمة الرجل وٱنتفضت همّته، وثارت النخوة في نفسه وشاعت الكبرياء في جسمه، وٱستشعر العزة والإباء، فأنِفَ أن يَجْبُنَ أمام الطبيعة الغضبى، أو يهزم أمام إغراءات الدنيا وإغواءاتها الخرقاء...

ثم أدركته رقّة، وٱنتابه شعور لم يتبيّنه!

إلّا أنه ملَكَ عليه قلبه وصرفه عن كل شيء، ودَفَعَه بقوة و«فَتَحَ» له، فرأى باباً مُشرعاً وفناءً رحْباً، وأطل على «حضرة»، عَزَمَ من فوره وقرّر أن تكون خياره دون ما كان ينتاب خاطره من خلجات وتتناهبه من أفكار.

عندها صار يصغي إلى العقل ويلتزم الحِجا، وينظر من لبٍّ ويقيس من حق، فحكّمَ العلم في وجوده وٱنتفى الجهل من قراره... كأن اللطف مدّ يده العظيمة وٱستلّه من تسويلات الهوى، وترفّق فٱحتمله على أكفّه البيضاء لينجيه من إغواءات الشيطان وإغراءات الدنيا.

عندها لمع «نور» في رأس المنارة وتلألأ...

فأنفلت «زهير» من ثيابه يعدو بين الصخور البركانية المدببة، تجرح قدميه وتدمي وتسحج في ساقه وتَنْتَع، فلا يبالي، ولا يعنيه أن مزق أكمامه وشقّ جيبه وقذف بقميصه هنا وبِبُرْدِه هناك، فتعرّىٰ و«خلع»، ثم أنقذف في الماء وأخذ يسبح، ترفعه موجة حتىٰ ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء، وتخفضه أخرىٰ حتىٰ يخال البحر ينشطر بحرين، يهوي في الأعماق فتلقاه فكوك الكواسج كالمناشير وأذرع اللخم كالخراطيم، ويعلو فتتخطّفه الشهب الغاضبة والنيازك الطائشة، والبرد ينهل من السحب القاتمة ويحتلب من فوقه صقيعاً يجمد علىٰ رأسه، يذكره ببرودة الموت وجموده...

وهو يجاهد الأمواج ويكافح ليلاً كلّه ظلمات... حتىٰ خارت قواه وأخذه رعش الإعياء، وأستنفد حتىٰ الثمالات من قوته الفانية، فأسلّم جسمه للموج يعلوه كألواح من الجليد تتكسر علىٰ ظهره وتصدّع ذراعيه وترتطم برأسه، وأبىٰ الماء إلا أن يشارك في محنة «زهير» فلا يبل ريقه المُتيبّس، فقد جمع إلىٰ ملوحته مرارة، فكأن كل الصبر قد ذاب فيه.

ولكن روحه لم تهزم ولم تخضع، وعزيمته لم تخنع ولم تضرع، فكان يتطلّع وهو يحتضر إلىٰ «المنارة» ويتحسّر عليها، بل إن العجز زاده حباً لـ «النور» وشوقاً! لم يُهزَم... فأنبرىٰ له «زقلل» بنفسه وظهر له من بين يديه الشلاءتين:

أتترك قومك وتلحق بالعبيد؟

: العبيد؟ إنه أشرف «العرب»، إنه سيد «قريش»!

: نعم صدقت، ولكن القضية ليست في شخصه، القضية حكمه وفكره، إنه علىٰ خطىٰ أبيه وجدّه، يساوي بين الناس، يريد أن يسقط ما يميّز «قريش» و«العرب» في المقام والعطاء، يريد أن يساويهم بـ «الموالي».

: دعني أسمع ما يقول، ذرني أرىٰ ما يفعل.

: لا سبيل، إنه ساحر، سيسحرك يا «زهير»، بمجرد أن تراه، سيستدر عواطفك، ويلعب في خيالك فينسج فيه عهداً يوهمك أنك قطعته بنصرته!

: وي، أوَيقدر علىٰ هذا؟

: بلى، وأكثر من هـذا!

: لم لا يفعله بغيري، لم لا يسحر الناس جميعاً فيستغني عني؟

: آه، هـذه هي لعبته، هـذا هو فنّه، إنه يلعب على «الأنا»، إنه يخاطب فيك هـذه النزعة، يذكرك بها، فدعوتك دون سـواك هيّجت فيك التميّز وأشعرتك الحظوة والتفوّق، إنك ـ في الحقيقة ـ تجاهد لنفسك وتُشبع ذاتك!

: لست أعاني عقدة في هـذا، ما زلت سيّد قومي...

ثم أنظر هنا، وأومأ برأسه إلى موضع قريب على الساحل، هـذه «أناي» خلعتها في صراع خضته منذ ساعة، قبيل أن تظهر لي وألقاك، فلفظتها الأمواج وقذفت بها على ذلك الشاطئ.

إنني أحبه يا هـذا، إنه معشوقي الأول الذي رانت على حبه الأيام فشغلتني عنه، وهو الذي بحلمه أمهلني وبلطفه سترني، ومن عقوبات جفوتي جنّبني حتى كأنه أغفلني، فهل أُعرض الآن وقد تذكّرني؟ هيهات، والله لا أبغي عنه بدلاً، ولو قطعت في حبه إرباً...

ومع هـذا الرد، كان «زُهَيْر» قد وصل إلى فسطاط «الحسين»، فأستأذنوا له، ودخل عليه وأستوى جالساً أمامه!...

لم أطّلع على ما دار بينهما، ولـكنه ما لبث أن خرج من اللقاء، وسرعان ما عاد إلى أهله طلقاً مستبشراً، قد أشرق وجهه وتلألأ تلألؤ العبّاد، وأعتراه شوق ونشاط، ودخلته همّة الشباب وحماسة الأبطال والفتيان، وأنتابته خفة الأنعتاق ولهفة العشاق، وأخذ في تحركات مصيرية وقرارات ثورية قلبت كل شيء، بعد أن قلب «اللقاء» كيانه!...

أمر بثقله ورحله ومتاعه ينقل إلى معسكر «سيد الشهداء»، وتوجّه إلى عياله وأمرأته وقال: أنت طالق، ألحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلّا خيراً. ثم قال لأصحابه ومَن معه من عشيرته: من أحب منكم أن يتبعني، وإلّا فهو آخر العهد. وجعل يحدثهم بنبوءة «سلمان المحمدي» وخبر عودتهم من غزو «بلنجر».

❁ ❁ ❁

هذه «دُرّة» ٱلتحقت بـ «العقد»، وٱكتمال نضده ينتظر أخريات...

إنني لا أرى الأحداث هنا إلّا سعياً لجمع قطع «الفسيفساء» والأجزاء التي ستصنع اللوحة المنتظرة، لا ٱنعكاس ولا تفسير ولا تأويل لها إلّا كونها شيئاً يقفز على الجزئيات والتفاصيل، ولعلّه يركبها ويمتطيها لتبلغ به مقصده المتمثل في إكمال الأسباب وإتمام العوامل، فظهور الحدث الأصلي ورسم صورته التامة، على الهيئة التي أرادها الله سبحانه وتعالى.

إن هنا «غرفة عمليات» عظيمة في تجهيزاتها وإمكانياتها وفي تتبُّعها ورصدها، تحسب لطرفة العين ونكت التراب، وشعرة تسقط من دابة وحبة رمل تطير من وقع حافر، تخطط وتدبِّر، تحرِّك وتقدِّم، تنسحب وتؤخر، ومحور كل ذلك دعوة «الأنصار» وجمعهم، وطرد الأغيار ونفيهم... وهي راضية قانعة بأدائها وبتتابع الأحداث وتواليها بما يخدم ويصب في النهاية التي تأمل وترجو... لا خوف ولا قلق فالأمور كلّها تحت السيطرة.

ما زال «المولى» يصطفي وينتقي ويستخلص ويجتبي...

ففي «زرود» هذه جاءه خبر قتل «مسلم بن عقيل» و«هاني بن عروة»، فٱسترجع كثيراً وترحّم عليهما مراراً وبكى، وبكى معه «الهاشميون» وكثُرَ صراخ النساء حتى ٱرتج الموضع وسالت الدموع كل مسيل... فٱهتز «عبدالله ٱبن سليم» و«المنذر بن المشمعل» الأسديان وقالا له: ننشدك الله يا «ٱبن رسول الله» إلّا ٱنصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك في «الكوفة» ناصر.

وكان ردّه ـ عليه السلام ـ في «الصفاح» على «الفرزدق» الذي ٱستقبله بقوله: قلوبهم معك وسيوفهم مع «بني أمية»، تضمّن الرسالة نفسها التي ردَّ بها على المقبل من «الكوفة» الذي رآه في «الشقوق» بعد «الثعلبية» وقد سأله عن أهل «العراق»، فقال: إنهم مجتمعون عليه. كان ردُّ «المولى» في مضمونه ورسالته واحداً على مَن تشاءم ورأى العاقبة خذلاناً وهزيمة، ومَن تفاءل فظنها نصراً وغلبة، فقال لذاك: "لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن"، ما قاله لهذا: "إن الأمر لله يفعل ما يشاء"! لا يُمَنّي بفتح، ولا يغري بغنيمة، إنما هو عرض طارد وخطاب منفر لا يُبقي إلّا الخلّص.

ها هو في «زبالة» يُعْلِم مَن معه بقتل رسوله «قيس بن مسهّر الصيداوي»، وقد أذن بعد ذلك للناس بالأنصراف، فتفرّقوا عنه يميناً وشمالاً! ولم يبق في أصحابه إلّا الذين جاؤوا معه من «مكة»، وكان قد تبعه في الطريق خلق كثير من الأعراب لظنّهم أنه يأتي بلداً أطاعه أهله ويستقر فيه أمره.

وفي «بطن العقبة» قال لأصحابه: ما أراني إلّا مقتولاً، فإني رأيت في المنام كلاباً تنهشني، وأشدّها عليّ كلب أبقع. فأشار عليه «عمرو بن لوذان» من «بني عكرمة» بالرجوع إلى «المدينة» لما عليه أهل «الكوفة» من الغدر والخيانة، و«المولى» يجيب: إن الله لا يغلب على أمره! ثم صرّح لـ «جعفر بن سليمان الضبعي»: إنهم لن يدَعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذل من فرام الأمَة.

كل ذلك تصفية وغربلة، تدعو الذين ينتظرون ولم يبدّلوا تبديلاً، فتنتدبهم وتستدعيهم وتلتقطهم، وتُقصي من لم يُعِدّ للخروج عدّته، فـ ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾، فلا يشهد «القربان» إلّا نخبة مُصْطفاة، وكوكبة يليق أن تفترش «كربلاء»، لترقى السماء وتعلو «العرش»!

ومن «بطن العقبة» قصد «شراف»، وهناك أخذ «المولى» في تنقية وصقل جوهرة أخرى وتصفية معدن نفيس ليصوغه بعد تخليصه من شوائبه، ويُلحقه بنظم عقده الفريد، درة ثمينة...

هذا «الحر بن يزيد الرياحي» يحصر «الركب الحسيني» ويقصيه عن طريقه، و«المولى» الواقف على فضل هذا العبد الصالح ونجابته، وكريم نفسه وعظيم خلُقه، يتعمّد إثارة مكامن الشرف والنبل فيه، يدغدغ مشاعره ويجتذبه من حيث يحب ويهوى فيتأثر وينفعل، فيزيل الغشاوة عن عينيه ويزيح السدود عن دربه. من هنا عرض «الحسين» عليه أن يتركه، وطلب إليه أن يخلي سبيله عسى أن يرجع إلى «المدينة»! لعلّه يحرر شيئاً من قيود «الحر» ويقرّب انعتاقه حين يراه لا يطلب حرباً. ثم سقى جيشه الماء، وهو جيش معادٍ، فشهد شهامة خصمه وعظمة «عدوّه»، فتهافتت أسوار أخرى في نفس «الحر» وسقطت حواجز.

أما إمضاء صك الخلاص، فقد حررته السماء حين أبى «الحر» أن يرد على «المولى» دعوته بشكل أمّه! فتأدب مع ٱبنة النبي الأعظم وروحه، «الزهراء» عليها السلام وقال: "أما لو أن غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل هذا الحال ما تركت ذكر أمّه بالثكل، كائناً من كان، ولكن والله ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلّا بأحسن ما أقدر عليه"!

هنا، ٱضطربت «غرفة العمليات»، إذ لا شيء يؤثر فيها ويفعل فعل التأدّب مع «أهل البيت» ومراعاة حقّهم ومقامهم، إنها السلعة الأكثر رواجاً وطلباً، والأكثر قيمة وقدراً هنا... صدر قرار الأجتباء، وأمضي القضاء: أن لا يُستبدل «الحر»، فهو ممن أجاب، ولا «بَدَاء»!

وفُرش بعدها تحت قدميه بساط «التوفيق»، فأُثقبت الشرارة الأولى في نفسه، وأُقدحَ زند التوبة، فٱنكسر كل الشر في قلبه وأناب، حتى صار إلى ما صار إليه حين توجّه إلى «عمر بن سعد» في «كربلاء» قائلاً:

أمُقاتل أنت هذا الرجل؟

قال: إي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي.

فتنحّى جانباً حتى وقف من الناس موقفاً، ومعه «قرّة بن قيس»، فقال له «المهاجر بن أوس»: يا «ٱبن يزيد» لو قيل لي مَن أشجع أهل «الكوفة» ما عدوتك، وإني لمرتاب بك!

فقال: إني أخير نفسي بين الجنة والنار، وإني لا أختار على الجنة شيئاً!

ثم قال لـ «قرّة بن قيس التميمي»: يا «قُرّة» سقيت فرسك؟

قال: لا.

قال: فما تريد أن تسقيه؟

فظن أنه يريد أن يتنحى ولا يشهد القتال، وكَرِهَ أن يراه يصنع ذلك فيرفعه عليه. قال: وأنا منطلق لأسقيه.

وٱعتزل «الحر» المكان الذي فيه.

و«قُرّة» يقول بعد ذلك: ولو أنه أطلعني على سرّه وكشف نيّته لخرجت معه إلى «الحسين» وٱلتحقت!

وأخذ «الحر» يدنو قليلاً، فقال له «المهاجر»: أوَتريد أن تحمل؟ فسكت، ثم أخذته الرعدة، فوكز فرسه وأنطلق فكان في الجبهة الأخرىٰ!

فلما دنا من «الحسين» ترجّل من فرسه وطأطأ، وجعل يحثو تراب الندم والحسرة على رأسه، وقال: جعلني الله فداك يا «أبن رسول الله»، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك إلىٰ هذا المكان، وما ظننت أن القوم يبلغون منك هذه المنزلة، فهل لي توبة؟

قال: نعم، يتوب الله عليك.

وكان قد كشف عن «سرّه» فقال:

حين وجّهني «عبيدالله» إلىٰ هذه الوجهة، خرجت من القصر فنُوديت من خلفي: "أبشر يا حر بخير". فألتفت فلم أرَ أحداً! فقلت: والله ما هذه بشارة وأنا أسير إلىٰ قتال «أبن بنت رسول الله»! وما كنت أحدّث نفسي بأتّباعه. فقال له «المولىٰ»: لقد أصبت أجراً وخيراً.

أنضم إلىٰ «الركب» فارس جديد، وألتحقت بـ «العقد» «دُرّة» أُخرىٰ...

وبعد «البيضة» فـ «الرهيمة» فـ «القادسية» نزل «الحسين» «العذيب»، وهو وادٍ لـ «بني تميم» علىٰ حد السواد، كانت فيه مسلحة (حامية) للفُرْس، بينه وبين «القادسية» ستة أميال، وقيل له «عذيب الهجانات» لأن خيل «النعمان» مَلِك «الحيرة» ترعىٰ فيه.

وهناك وافاه أربعة نفر فيهم «الطرماح بن عدي الطائي»، فلما وقع نظره علىٰ «الحسين» أنشأ:

يا ناقتي لا تذعري من زجري
وأمضي بنا قبل طلوع الفجر
بخير ركبانٍ وخير سفر
آل رسول الله آل الفخر
الماجد الجدّ رحيب الصدر
أتىٰ به الله لخير أمر
عمّرَهُ الله بقاء الدهر

فقال ـ عليه صلوات ربه ـ معقباً على البيت الأخير:

إني لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا، قُتلنا أم ظفرنا. ثم سألهم عن رأي الناس بـ «الكوفة»، فأخبروه بما يعلمون من حالها وما نزل بأهلها، وصارحوه بيأسهم من نصرتها وجزمهم بخذلانها...

ثم قال له «الطرماح»:

سِرْ معنا يا «ابن رسول الله» لتنزل جَبَلَنا الذي يدعى «أجا»، فقد امتنعنا به من ملوك «غسان» و«حِمْير»، ومن «النعمان بن المنذر»، ومن الأسود والأحمر، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى تأتيك «طيّئ» رجالاً وركباناً، وأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم، إلى أن يستبين لك ما أنت صانع.

فجزّاه «الحسين» خيراً، لكنه رفض عرضه وأبى أن يغيّر وجهته.

فاستأذنه «الطرماح» أن يوصل الميرة إلى أهله ويعجل المجيء لنصرته، فأذن له وصحبه الباقون... ففعل ذلك وعاد مسرعاً كما وعد، ولكن «الأمر» كان قد قضي، فلم يدرك «الطرماح» «الفتح»!

وقد استوقفني المشهد هنا طويلاً، في جانبي: الحسم في الاجتباء والتشديد المفرط في الالتحاق... فلم يكن الأمر لنقص في «سلمان» و«الطرماح» فهما على خير، إنما هو شيء آخر، فترى يُعطاه من جعجع بـ «الركب الحسيني» وأنزله بعيداً عن الورد، ويُحْرَمه عظيم مثل «سلمان»!

شيء أشبه بالدخول في «أهل البيت» الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، واللحوق بـ «العترة» النبوية و«القرابة» المحمدية... أمر خاص مخصوص، مُتعيَّنٌ منصوص، لا يشمل إلّا مَن وجبت مودتهم، فلا تدخل فيه «نساء النبي»، وإن كانت «أم سلمة» على خير!

واستوقفني كذلك الأمر في جانب الهدف ومنطلقات الحركة، مما كان ينحو بعيداً عن أي مُعطىً ميداني، ويتجاوز أي سبب طبيعي يدخل في الأداء السياسي والتحرّك العسكري، ورأيت في هذا تأكيداً على أن الهدف المعلن للقيام والحركة لا يشكل إلّا غطاءً للهدف الحقيقي والغاية الأصلية.

لم يكن الأمر إذاً مجرد ثورة وقيام ونهضة تريد إسقاط حاكم ظالم وسلطان جائر، ولا حركة إلهية تريد الإصلاح بإحقاق الحق وإقامة الشرع وإفشاء العدل فحسب... وإلّا فالعرض «الطائي» كان أكبر من أن يُرفض، وكان مؤاتياً مناسباً، ولعلّه كان مخرجاً ممتازاً للألتفاف على الظرف الذي طرأ في «الكوفة» والأنقلاب «الأموي» الذي وقع فيها.

إنما هو مشروع مختلف في كنهه وطبيعته، فريد من نوعه وخصوصيته، فكان حقاً أن لا يخضع للأسباب الطبيعية التي تحكم في غيْره، ويقفز على معطياتها، وكان لزاماً أن يستلهم آليته في الحركة ويستوحي طريقته في التفاعل والأنفعال من جوهره الغريب... "إنهم فتية برزوا إلى مضاجعهم" في حركة تمضي على طريقة «عبدالمطلب» وهو يتقدّم ليذبح ويقرّب «عبدالله»، ومن قبل «إبراهيم الخليل» يقدّم جدّهم الأعلى «إسماعيل». ولكن هل من ذِبْح ينفلت من «ثبير» «كربلاء» ليفدي «القربان» العتيد؟... هيهات!

* * *

مضى «الحسين» في طريقه متمسكاً بِهَدْيِه ملتزماً نَهْجَه، حتى بلغ «الركب» «ذا حسم»، وهناك أطلق «المولى» نداء:

إن هذه الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يُعمَل به وأن الباطل لا يُتَنَاهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برَماً. إن الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحّصُوا بالبلاء قل الديّانون.

ما إن أتم «المولى» نداءه في هذا «المنزل» الأخير، حتى أمتلأت سماؤه بصُوَرٍ تداعت من فورها، وأرتسمت تملأ الأفق، تستحضر أحداثاً سابقة وأخرى مقارنة، تقع الساعة في غيْر مكان...

ها هو «سلمان» يظهر من جديد.

وكنت ظننت أنه قد ودّع المشهد وفارق الحدث، والأمر كما ظننت، لكنه الآن يعود لوداعه الثاني!... فلم يكن مَن مثله ليقنع بالوداع ويقطع من العَوْدِ الرجاء، بل هو متعلّق بأدنى سبب، متمسك بأقل ذريعة تسمح له وتجد لوصله عذراً ولعوده سبيلاً. وقد صار يجمع إلى حسرته من «فقد النصرة»، حزناً على حال «سيد الشهداء» وما هو فيه من الظلامة وقلّة الناصر، وجزعاً على مصرعه المنتظر.

عاد «سلمان» إلى المشهد ليطل ويحضر من جديد ولسان حاله:

لا عُـذرَ لِلقَلـبِ إن لَمْ يَـنفَطِـر كَمَـدا
وَلا الجُفـونِ إذا مـا سَيْلُهـا جَمُـدا
وَلا أرى الـصَـبرَ في مَعنـاكَ مَحْمَـدَةً
ذَمَّ الـوَفـاءُ عَلَيـكَ الصَبرَ وَالجَلَـدا
بَقِيَّـةٌ مِن دُمـوعـي كُـنـتُ أذخَـرُهـا
حَتى دَهـاني ما يَسـتَـنـزِفُ الكَـبِدا
يـا جَفنُ لا تَـدَّخِـر دَمعاً تَـريقُ غَـداً
وَيـا حُـشـاشَـةُ ذُوبي قَـد أمِنتُ غَـدا
حُـزني وَحُزن صَـديقي فـيـك مُختَلِفٌ
إن صـاحَ يـا وَاحِـدي نـادَيتُ وا عَـدَدا

عاد «سلمان» عوّدَ معني بما يجري في هذا المشهد، وكنت أظن أن المشهد هو الذي أعاده، وأن الأحداث هي التي تعيد مَن فيها، لا أنه عاد من تلقاء نفسه، وفقاً لإرادته وتحقيقاً لرغبته... فالأمور هنا ليست على هذا النحو، فهي غاية في الدقة والضبط والحسم. ولكن تبيّن لي أن في وسع مَن مِثل «سلمان» أن يعود إلى الحدث الذي يريد وإن لم يكن جزءاً منه وعنصراً فيه، وله أن يواكب ما يشاء من الأحداث أو يتجنب ويغيب، بل هو قادر على الفعل والتأثير، والقلب والتغيير، ولكنه لا يفعل، لأنه منسوب إلى ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، ملحق بهم.

عاد تتناهبه مشاعر الحسرة على ما فاته، إذ ها هو يرى «حبيب» «القربان» الذي طالما سأل عنه وتحرّى، وبحث ونقّب، فظنه أول الأمر «جابر بن عبدالله»، ثم تنبّه وتبيّن له أنه غيّره، لكنه لم يهتدِ إليه سبيلاً! وقد جمع إلى حسرته هذه أسىً على ما ينتظر «القربان»، إذ علِم أن السماع والإخبار غيّر الوقوع والتحقق، ها هي الأحزان تنفجر فيه وتأخذه ليجزع جزع الثكول، بعد أن كان يلوم سادته على ما كان منهم!

هذا «صبي» في جمع من الأخدان في بعض طرق «المدينة» يحيطون بسبط «النبي» الأعظم يلاعبونه. وقد ترك ما فيه الأتراب من التسلية والترفيه، وعمد إلى الأرض، يرفع التراب ليقبّله ويمسح به وجهه والعينين، كلما وطأته قدما سيّده ومولاه «الحسين».

وهذا «الرسول» الأعظم عليه وآله صلوات ربه، يسير مع جمع من أصحابه، إذا هم بصبيان يلعبون، فجلس عند صبي منهم وجعل يقبّل بين عينيه ويلاحظه، ثم أقعده في حِجْره وأخذ يُكْثِرُ تقبيله! فلما سُئل عن ذلك، قال: إني رأيته يلعب يوماً مع ولدي «الحسين»، ورأيته يرفع التراب من تحت قدميه ويمسح به وجهه وعينيه، فأنا أحبه لحب وَلَدي.

شبّ الصبي وكبر حتى احتاج الخضاب، وهو الساعة في «الكوفة» يلتقي «مسلم بن عوسجة» عند العطار يبتاع صبغاً لكريمته. والناس من حولهما يموجون في السوق، هذا يشتري سيفاً وذاك يُعِدّ ترساً، وفوج يلحق براية عقدت هنا، وآخرون يسألون أين عساهم يدونون أسماءهم؟...

كلّهم يريد اللحاق بجيش «يزيد»!...

ما لهم، وماذا دهاهم حتى لا يكفيهم خذلان الحق فيتكالبون على نصرة الباطل؟ ماذا نزل بهم وحل عليهم ونال منهم وقد عرفوا الحق ووعوه؟ أكُلّ هذا مما حلي في أعينهم من الدنيا وراقهم من زبرجها؟ أم هو انحطاط همم وسفه عقول ووهن عزيمة جعلهم «أشباه رجال» لا رجال، حلوم أطفال وعقول ربات حجال؟ كيف يعيش مجتمع كامل الهزيمة، ويسقط شعب بأسره في هذا الحضيض؟

إنني أرىٰ أن قلّة قليلة منهم دفعهم المال وحثّهم، وأغراهم الجاه وحفّزهم، أما البقية فالداء فيهم غيرُ هٰذا!...

إنهم يريدون أن يلتحقوا بـ «الجماعة» وينضموا إلىٰ سواد الناس، لا يطيقون أن يكونوا في «الأقلية»، يريدون أن يحسبوا على «الأكثرية» ومنها... ليس إلّا! فانبعثت فيهم نزعة تأصلت من الصَّغار والدونية، وتسرّبت من رسيس خسة قديمة ووضاعة متجددة. لا يجنّبها إلّا الأوحدي الذي نَجُبَ وكَرُم ونَبُل، ولا يتحصّن منها وينأىٰ عنها إلّا مَن امتلأ إيماناً فكمل خُلُقاً وارتفع شرفاً وعزاً... ولا يلقّاها إلّا ذو حظ عظيم.

إنها أزمة هوية وانتماء... ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، مَن عساه أن يكون في ذلك المقام من القنوت والتوحيد والحنيفية والانقطاع إلىٰ الله؟ يحمل نفساً تنفصل عن محيطها، وروحاً تتمرّد علىٰ مجتمعها؟ مَن له أن يُعرض عن قومه ويستقل، وهو في بلاط الملك، فيقوم ويقول: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، فيُلجئهُ الرفض إلىٰ الكهف سنين عدداً!؟

إنهم لا يطيقون أن يكونوا «أقليّة»، يُشار إليهم في مجتمعهم فيُعَيَّرون ويُضطهدون. فإذا غلبت هويتهم علىٰ مجتمع وما عادوا أقلية في بلد، طوّقتهم «الأمة» بأكثريتها، وتسرّب إليهم الوهن والضعف من ذلك المجموع الكبير! فيتحايلون ويتنازلون: يسقطون معْلَماً من مذهبهم ويخفون آخر، يسايرون في عقيدة ويداهنون في أُخرىٰ، يتّقون في حكم ويوارون في موضوع، وما يزالون في هٰذا، بين إكراه لهم فيه العذر، وتسويف وإغراق يلتمسون منه الفرج والمخرج، علىٰ طريقة مَن فقد الماء فثمل من الخمر كي لا يقتله الظمأ، وشبع من الميتة وأتخم حذر أن يموت جوعاً!...

حتىٰ ينتهي الأمر بهم إلىٰ الوقوف في وجه إمام زمانهم!

لا ضَيْرَ إن كان أهل الحق قليل، لكن الداء أن يستوحش المرء الطريق لقلّة سالكيه فيؤثر «الجماعة» ويلتحق بالعامة ولا يأبىٰ أن يكون من «العوام»، ويرغب عن «الخاصة» ويتنازل عن الخصوصية، وهي أغلىٰ ما يملك.

إنهم يتخلّون عن درر وجواهر بأيديهم لأن الناس تقول عنها حجارة، ويحتفظون بحجارة يقبضون عليها لأن الناس يعدّونها جواهر!

وبعد هذا العامل الذي رأيته مرتسماً هنا بوضوح... ها أنا أشهد عوامل أخرى وأسباباً ثانية منتشرة بين الناس، تتجسّم فوق رؤوسهم، تفضحهم لناظريهم من هنا، وهم في غفلة، يخوضون في عالمهم، يكذبون ويزيفون، ويجادلون ويحاججون، يحسبونها تخفى أبداً!

فالجبان فيهم يصوّر الشجاعة تهوّراً، والمتثاقل يزعم علو الهمّة والمبادرة تسرّعاً، والبخيل يرى الكرم إسرافاً وتبذيراً، والجاهل البليد ينظر العلم والنباهة شيطنة ومراءً، والوضيع يصنّف الشرف زهواً والعز تكبراً وغروراً، والماجن الخليع يعرض الزهد تنسكاً والتقى رهبانية مبتدعة، والسفيه يظن الحلم غفلة والصبر ضعفاً!

ولا يكتفي هؤلاء حتى «يستدلّوا» لآرائهم ويحتجوا ويجادلوا، ويصنعوا المبررات ويضعوا «أدلّة علمية» و«حججاً منطقية» تُبرّئ ساحتهم وتدفع عنهم، وتظهرهم على حق!

وبين هذا وذاك، وأولئك وهؤلاء، تجد من يقول ويعتذر بأن:
سيقوم الأمر بغيري، وما هو متوقّف عليّ.

وآخر يتحايل: ماذا عساني لأُقدّم أو أؤخر في قبال هذي الجموع؟

ومَن يحدث نفسه أن: لن يعطّل الأمر تخلّفي، ولن ينجح لتحفزي!

وطائفة تبرر لنفسها: أما «الحسين» فنعم، ولكن ما يدريني ما بيني وبينه من بطانة وحاشية، رسائل ووسائل، حُجّابٌ ووكلاء، أينقلون رأيه أم يجتهدون من لدنهم؟ ولست ملزماً بهم.

وأخرى مسكونة بهاجس قاتل: ما يدريني أن الأمر كلّه دسيسة ومؤامرة، لا علاقة لها بـ «المولى» ولا صلة! خطّة خبيثة ورسم وتدبير وخطوط متقاطعة. ألا يحتمل أن «يزيد» يريدنا أن ننهض ونثور ليجتث شأفتنا ويقضي علينا، وأنه يستدرجنا إلى حتفنا استدراجاً ويسوقنا إلى ما يريد سوقاً، فتنتهي الأمور على ما يهوى وينزل بنا الخسران المبين؟

كان «حبيب بن مظاهر» قد أشترىٰ الخضاب، حين ألتقىٰ «مسلم بن عوسجة» في السوق فأعتنقه وبكيا، وصار كل يحدّث صاحبه عما فيه الناس من فتنة وبلاء؟ حتىٰ ألقىٰ «حبيب» ما في يده من خضاب، وقبض علىٰ لحيته وقال: والله، حتىٰ تصبغ هٰذه من دم منحري!

وخرج متكتماً إلىٰ بستان له يعد العدّة ويهيّئ لسفره المنتظر.

وكان قد أخفىٰ الأمر حتىٰ عن أهله وعياله وبني عمومته، فقد أستفحل داء العيون والجواسيس، وغلب أنتشارهم وحضورهم، حتىٰ ملأُوا «الكوفة» وأطبقوا عليها، فكان الناس يتبارون بالبراءة من «الحسين»، ويزايدون في إظهار الولاء لـ «يزيد»! علّهم يخلصون من رفع أمرهم إلىٰ «عبيدالله بن زياد» وينجون من تبعات ذلك.

وهٰذه أمرأة «حبيب» النجيبة، تلقي عليه خمارها وتأخذ سيفه، تُعيِّره بِجُبْنِه وتخاذله، وتتهدده بالخروج إلىٰ «كربلاء»، بعد أن أظهر لها أنه لن يجيب كتاب «الحسين» ولن يلحق به! ثم أخذت تبكي وترجوه: بالله يا «حبيب» لا تقصّر في نصرة «أبن بنت رسول الله». فما قرّت حتىٰ كشف لها عن سرّه وأخبرها عن عزمه وقصده، فباركت له، وحمّلته أمانة: السلام علىٰ «الحسين»، ولثم أنامله الطاهرة.

ثم إنه مضى راشداً إلىٰ قصده...

وفي هٰذه الأثناء، كان «المولىٰ» يعقد الرايات في «كربلاء»...

وقد عقدها آثنتي عشرة، قسّمها بين أهل بيته وأصحابه، وبقيت واحدة، وكلٌّ يتطاول إليها ويتطلّع، بل إن بعض الأصحاب صارح «المولىٰ» وطلب إليه: مُنْ بها عليّ يا «أبن رسول الله»! فيجيبه ـ عليه صلوات ربه ـ:

يأتي إليها صاحِبُها!

وما زالوا في هٰذا حتىٰ ثارت غبرة من جهة «الكوفة»...

وإذا بـ «حبيب» ومعه غلامه يَقْدمان، فقام «المولىٰ» وأصحابه يستقبلانهما. فلما قرُب «حبيب» من «الإمام»، ترجّل عن جواده، وجعل يقبّل الأرض بين يديه وهو يبكي.

ولمّا علَت الأصوات وارتفعت، سألت «زينب» عن الأمر، فقيل لها: إن «حبيب بن مظاهر الأسدي» قد أقبل ليلتحق بعسكر أخيها «الحسين»، فقالت ـ عليها السلام ـ: أقرِئوه عني السلام.

ما إن بلغه سلام «زينب» حتىٰ اضطرب «حبيب» وانفعل وخرج من وقاره، وأخذ يلطم وجهه ويحثو التراب علىٰ رأسه وهو يقول:

مَن أنا وما أكون، حتىٰ تسلّم عليّ «ابنة أمير المؤمنين»!؟

إن لـ «حبيب» حضور غريب في الملكوت...

لقد تسنّم لقب «شيخ الأنصار»، وتولىٰ مهمة تسجيل المعزين والزوار.

فانفرد اليوم في «كربلاء» بضريح يطل علىٰ مدخل الحرم الشريف، وكأنه البواب الذي يتعرف علىٰ كل زائر، والحاجب الذي يسجل الطلبات ويرفع الحاجات ويبلّغ التحيات، ويثبت الصِلات ويوثق القربات.

وبعد، فهو الذي يجول علىٰ المآتم والمجالس و«الحسينيات»، وغالباً ما يكون مع «مولاه»، يستعرض الخدام والراثين، ويتفقّد المعزّين، ويرصد الجازعين، من باكين ولاطمين ومُطَبِّرين.

إنني أنظر إليه الساعة يجتمع ببقية «الأنصار»، يحدّثهم ويشحذ هممهم ويقوي عزائمهم ويشجعهم، يستنهضهم ويحذرهم أن يتقدّم عليهم «الهاشميون» وهم سادتهم، فيقتل واحد منهم، وهم بعد أحياء...

ومحور فعله وقوله وجل همّه وغمّه، أن يخلق مظهراً ويصطنع أجواءً تخرج الرَّوْع وتزيح الوَجَل والفزع عن قلوب «الفاطميات»، وتدخل الطمأنينة والسكينة في نفوسهن، ذلك إذا شعرن بأن «الحسين» ليس وحيداً، وعرفن بأس رجاله وعزم أصحابه وشجاعة أنصاره.

كنت أنظر إليه، يخف بين الأطناب ويجول بين الأصحاب في أريحيّة مَن يستقبل النصر في ساعته ويستشرف الظفر في يومه وغده، وكأن الآلاف في عسكره لا عسكر عدوّه... بل كان يدري ويعي ويعرف مصيره، ولكن الموت الذي ينتظره هو ما أرهف طبعه وصقل ذهنه وشرح صدره، وأطلقه من عقال الحزن والسأم والفتور، إلىٰ الهمة والنشاط والسرور.

كمن يسابق أجله ويستبشر بحتفه، غلبته النشوة وبرقت في وجهه أسارير البلج والغبطة... لا يكدر صفو ذلك إلّا ما يخشاه على سيّده وأهل بيته، ولا يحذر إلّا ما سينالهم من بعده.

وبعد هذا، فأنا لا أرى في نفسه من حسرة على شيء، إلّا:

أنه لن يكون في مَن ينصب المآتم ويقيم العزاء على «الحسين»!

* * *

الفصل السابع: المذبح

عَجّتْ أساقِفُها في بَيْتِ مَذْبَحِها
وَعَجَّ رُهْبانُها في عَرْصَةِ الدّارِ

ليس «السواد»، من كثرة بساتين النخيل المتشابك سَعَفُه، ووفرة الكلأ وحقول القمح والأرز العطر، ولا من جري الأنهار وفورة الينابيع وتدفق العيون وتراكم السحب وثج منهمر... فحسب، بل هي أرض مكتظّة بالحضارة، متخمة بأسبابها، وفِرَة بمظاهرها، ممتلئة بالمَدَنِيّة، نَدِيّة بمعالمها، إنها بيئة مزدحمة بالمعارف، متجذّرة بالفكر وتعدد مشاربه، غَدِقة بالمعتقدات وتنوّع اتجاهاتها، غنية بالمدارس، زاخرة بالأديان.

وكما ألَقته وأفرزته التربة الخصبة المريع في أعين الناظرين، وخلّفه نتاجها الغزير في مرأى العابرين والقادمين، حتى أصبح علَماً في هذه البلاد، فصارت «بلاد السواد» أو «سواد العراق»... فهو، من جهة أخرى، «سواد» أصطنعه في الأذهان، وسجّله في ذاكرة التاريخ، وأطلقه على موائد البحث والتحقيق، أساطين العلم ورجالات الفكر ومبشرو الأديان ومبتدعو الأفكار، وهم يصولون في معترك قديم للفلسفات والمقولات، وميدان أصيل لأصطكاك العلوم وتكامل الدورات الحضارية، ويتبارون في حقل خصب (هو الآخر) للتلاقح الفكري والأزدهار المعرفي والتطور والرقي الإنساني...

هذه حاضرة حاضنة، وأرض نشدت العمق ونأت عن الضحالة والسطحية، وأرادت المَدَنية والحضارة، وترفّعت عن التصحّر والتعرّب والبداوة، وآلت إلّا أن تكون كنفاً للفن والإبداع، ومَهْداً للعلم والعلماء، ومرتعاً للمعرفة وحقلاً للفضيلة، وإن كلّفها ذلك ما كلّفها!

كانت الكنائس والفرق والمذاهب «الغُنوصية» Gnosis والمصنفة «مهرطقة» وخارجة عن السائد والمعهود والموروث، ذات الأصل المسيحي أو اليهودي، وهكذا «المانوية» و«المندائية»، وكل نِحْلَة ومدرسة فكرية ودعوة دينية تبحث عن مأوىً يكفل لها التحرر ويؤمّن لها الأنعتاق من الحجر والقهر والأضطهاد الديني والأجتماعي والسياسي الذي تمارسه «الأكثرية»...

تجد ضالتها وتوافي مأواها هنا، في ربوع «ما بين النهرين».

خارج حدود الإمبراطورية «الرومانية»، وعلى الجهة الأُخرى للفرات، حيث لا تطول يد كنيسة الإمبراطورية «البيزنطية»، وفي ظل حكم الملوك «الساسانيين»، في «بابل» وغيرها... وجدوا حاضنتهم وملجأهم.

هنا أزدهر «دين الحكمة» Pistis Sophia، الذي يقول إنّ تكوين الكون جاء من جرّاء سقوط الحكمة (Sophia) من السماء. وراجت «الإبيونية»: والأصل فيها يرجع إلى «إبو - نيم» وهي عِبْرية تعني الوديعين أو الفقراء (هكذا في الترجمة، وأظنها «المستضعفين»)، وهم «يهود» دخلوا في الدين المسيحي، فَرَحّلوا من «فلسطين» إلى شمال «الأردن»، وظلّوا في هذه البلاد حتى القرن الخامس الميلادي، وهؤلاء يقولون إنّ «عيسى» هو المسيح وليس «أبن الله». وأنتشر مذهب «أخنوخ»: وهو شخص ذُكر في التوراة وبعض من أسفار العهد القديم، ومعنى أسمه: العارف، أو من أُبيح له بشيء، وفي «سِفْرِ التكوين» أنه سار مع الله ثلاثمئة عام ثم أصعده الله إليه!

وبعد أنتصار الجيش العربي بقيادة «سعد بن أبي وقاص» على «الفرس» بقيادة «رستم» في «القادسية» الشهيرة، غرب الفرات، في الأول من حزيران لسنة ٦٣٧م، أصبح «العراق» مكشوفاً للفاتحين «العرب». وما لبث أن سقطت «قطسفون» العاصمة الساسانية بعد ذلك بأشهر دون قتال.

ولسِرٍّ خفي، لعلّه من أسرار التاريخ ومن غيب صيرورته وحركته، عزف «العرب» عن «قطسفون» التي أطلقوا عليها «المدائن»، فلم يستوطنوها بشكل يُذكر، حيث حل مكانها المعسكران العربيان: «البصرة» التي أُنشئت في نفس العام، و«الكوفة» التي لحقتها في التأسيس بعد عام، ومنها تابع «العرب» فتح «فارس» والهضاب الإيرانية في السنين التالية.

لم تكن الديانات المتعددة والفرق (المنشقة أصلاً عن أصولها لتطرّفها وغلوّها)، لتأمل في «إسلام الفتح» كثير خير وأمل، بل إنها توجّست وتموضعت، ومن ثم صارعت الدين الجديد ونبذته. فـ«الثنوية» القائلة بشكل ظاهر، أو مستتر، بوجود إله للخير وآخر للشر، أو إله أول وآخر صانع، وهكذا المذاهب والأديان القائلة بتعدد الفيض والمفيضين، وبتعدد الأقانيم... وَجَدَت نفسها تشكّل بمقولاتها هذه النقيض الأتم لمنطلق الإسلام وشعاره في مواجهة بقية الأديان، أي «التوحيد». خصوصاً في عرضه الساذج وتقديمه الضحل، وآلية التبشير المتواضع به، الذي جرى على أيدي أناس مقاتلين - في واقعهم وحقيقتهم - أكثر من كونهم علماء متخصصين أو مفكّرين أو روحانيين، قادرين على تقديم وعرض الكنوز التي جاؤوا يحملونها (وهم لا يعلمون!)، وإقناع الآخرين بها.

وإن تخلل العسكر صحابي أو عالم تلمّذ على «أهل البيت»، أستقى منهم وأخذ عنهم وتأدب بآدابهم وحمل قِيَمَهُم وتعاليمهم، ليكون موضع أمل ومحل رجاء... فما كان عساه أن يبث في جيش بهذا الحجم، ويقدّم لبلاد عريضة شاسعة خارجة من حرب طاحنة؟ ذلك في ظل أنعدام آلية تنظم الدعوة والتبليغ، وأمام تراجع دور الكلمة والموعظة لصالح السيف والقوة، ثم هامشية مواقع أمثال هؤلاء في الإمرة والقيادة غالباً، بل دائماً.

كانت عساكر غزو وإغارة لا محل فيها للتفاهم والحوار، اللهم إلّا ما يدخل في التفاوض على شروط الأستسلام وما سيفرض على العدو من جزية ومَكْس. فبعد القتال وعُدّته ولوازمه، فإن عمدة الجهد في حركة هذه الجيوش وعملها وتنظيمها كان يتوجّه إلى تقسيم الغنائم وتوزيعها.

إن جوهر «الفتح» في الإسلام يكمن في الدخول السلمي الطوعي في دين الله، وسبيل ذلك الرحمة وطريقه لين الجانب وشعاره العدالة والمساواة، وأداته ونهجه الحوار والجدال والإقناع والدفع بالتي هي أحسن. وهو ما أسس له «النبي الأعظم» وأصر عليه يوم «الفتح»، فلم يكن إصراره على السلم والدخول السلمي حفظاً لحرمة «مكة» فحسب، بل لأنه ـ صلوات الله عليه وآله ـ كان يضع لبنة الفتوحات ويُرْسي أساس نشر الدعوة، بعد ثبات الدولة وسقوط آخر قلاع الكفر... كان يريد فتح العقول والقلوب، لا الغنائم والثروات، ويهدف الضمائر والقناعات، لا الحكم وتوسيع الملك والبلاد.

أما القوم في حروبهم وفتوحاتهم، وفي دعوتهم ونشرهم الدين وتبشيرهم بالإسلام، فلم يأخذوا بما آتاهم «النبي» ولا حملوا إلى الأمم الأخرى ما جاء به، ولا انطلقوا من سيرته وسنته، ولا استلهموا من هَدْيه...

لقد طغى على حروب الفتح وغلب محورا: القوة والعنف، ثم التمييز العنصري والطبقي. فأنزلها ذلك ـ في واقعها ـ من العمل الدعوي والتبشير الديني والخطاب الإنساني، إلى الغزو والإغارة. مما أزرى بقِيَم العدالة والمساواة التي شكّلت محور الانتشار الأول في الجزيرة العربية، التي جاهد صاحب الدعوة في سبيلها وكابد وعانى الأمرّين.

وقد أوغل «المُلك العضوض» بعد «الخلافة» في هذا الأداء، ومضى في الناس وسرى في البلاد وفشا، حتى أصبح ثقافة وسِمَة. فالناس على دين ملوكهم، والشعوب تتعرف على فكر الفاتحين ودين الحكام الجدد من خلال سلوكهم، وقد تلقت شعوب بلاد الفتح أول ما تلقت: العنف والقسوة، وسجّلت على الفاتحين (أو لهم، لست أدري؟!) أنهم «عرب» أو طبقة راقية من «العرب» (قريش)، وأن غيرهم «موال» أو «عرب» من طبقة أدنى!

من هذه النافذه أطلّت الشعوب على الإسلام، وعلى هذا المنظر فتحت أعينها، ومن هذه الكُوّة انحدر عليها وتلقّته! فمضت على هذه «القِيَم»، تشرّبتها وتوارثتها، حتى فُطمت عليها وطُبعت بها، فصارت سِمَةُ المسلمين اليوم هي العنف والغلظة، وحياتهم كلّها ظلم وقهر وتمييز وسطوة.

حاكم يظلم الرعيّة، و«عسس» يكمم الأفواه ويبطش بالمعارضة، وأكثرية تضطهد الأقلية، آستئثار ومحاباة وفساد، إثراء غير مشروع وبطر، تعصّب طائفي وقبلي ومناطقي وقومي ينخر في كل أساس للرقي فيقوّضه، ويعمد إلى كل مشروع يريد أن ينهض لهذه الأمة بقائمة ويبني لها مجداً حقيقياً فيهدّه ويهدمه... تمسّك أجوف بالمظاهر، وآلتزام أخرق بالشكليات والطقوس، وتجاهل قاتل للعمق العلمي لهذه المظاهر، وتنكّر فجٌّ لجوهر تلك الطقوس ولبّها الذي يمثل حقيقة ما أراده الله وشرع له الدين...

و﴿وَأَن لوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ على ٱلطرِيقَـةِ لأَسْقَيْنَـٰهُم ماءً غَدَقًا﴾، و﴿لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُـم بِمَا كَانُـواْ يَكْسِبُونَ﴾... نعم، كذّبوا وتنكّروا للحقيقة، فضلّوا وتاهوا، وما زالوا في التيه، لا يعون حقاً ولا يهتدون رشداً.

ما زالوا يجهلون سبب آنحطاطهم وسر فشلهم وتخلّفهم...

بل يكابرون ويتجاهلون تحذير «واسطة الفيض»، ويتناسون خطابها المدوّي، وهم يعيشونه جيلاً بعد جيل وخلَفاً بعد سلف:

أما لعَمْرِي لقد لقِحَتْ، فنَظِـرَةٌ ريثما تُنْتِج، ثم آحتَلِبُوا طلاع القَعْبِ دماً عبيطاً وذعافاً مُمْقِراً. هنالك يخْسَرُ المبطلون، ويعرف التالون غِبَّ ما أسس الأوّلون. ثم طيبوا بعد ذلك عن دنياكم نفساً وآطمئنوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم وهَرَج شامل وآستبداد من الظالمين، يَدَعُ فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً.

فيا حسرة لكم وأنّى بكم وقد عُمّيَتْ عليكم أنُلْزِمُكُموها وأنتم لها كارهون!

فدونكُموها فآحتَقِبوها دَبِرَة الظَّهْر، نَقِبَةَ الخُفّ، باقية العار، موسومة بغضب الله وشَنَار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقَلَب ينقلبون، وأنا

أبنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فأعملوا إنّا عاملون، وأنتظروا إنّا منتظرون.

ما زالوا يمجّدون دُوَلاً وحكومات ورموزاً وشخصيات حق أن يدسُّوا رؤوسهم في التراب حياءً من أن تحسب على الإسلام، ما زالت الكُتب تؤلّف والمقالات تسطر والمناهج تدرّس وبرامج التلفزيون تثقّف والأعمال الفنية تجتذب: لتعظّم الفسقة وتدافع عن القتلة، وتفخر بطغاة غاصبين وطواغيت مستبدين، وتبرر للزناة وتمجّد المترفين!

هكذا حُرِم الإسلام والمسلمون فتحاً حقيقياً كان في متناولهم عبر محاججة تلك المدارس ومقارعتها بالدليل والبرهان الذي يدحض مزاعمها ودعاواها الباطلة، ويعيد ترتيب أفكارها بما ينسجم مع التوحيد الخالص، فتهتدي وتدخل الإسلام عن علم وقناعة. ولا سيما أنها مدارس أنشقت وتكوّنت لنزعة الحرية التي كانت تهيمن على أربابها، ومنطلقات تحكيم العقل وطلب الدليل الذي لم تجده في دياناتها الأصلية... مما كان يبسط أرضية رائعة لكسب هؤلاء وإقناعهم بدخول طوعي وفتح عقلي يعيد صياغة أفكارهم ويصلح شططهم، ببيان العمق الفكري العقلي الذي يعالج شبهاتهم في مسألة الأقانيم، وإشكالاتهم في قضية الفيض والمفيض، وكل ما إلى ذلك، فيعيد أنشقاقهم لصالح الفكر الإلهي الصحيح ويروّض تمردهم ليصبّه في نفع الإسلام.

إن مباحث العدم والوجود، في إمكانه ووجوبه، وقدمه وحدوثه، ومباحث صفات الخالق الثبوتية والسلبية، والقول في ذاته وأفعاله، ومباحث المبدأ والمعاد، والنبوة والإمامة وما إلى ذلك من أبواب المعتقدات... كانت كفيلة بمعالجة أغلب معاناة هؤلاء وشبهاتهم، والرد على أكثر تساؤلاتهم وإشكالاتهم، إن لم نَقُلْ كلّها. لقد كانت الإشكالات ـ في جلّها ـ وليدة حركة العقل ونشاطه من أجواء الأحتكاك بأرباب الأديان والفلسفات والتعرف والأنفتاح على مقولاتهم، ثم عدم الأقتناع بها، ورفض الأستقرار عندها والإذعان لها والركون إليها... وعمدة السبب في هذا الضلال وأنتشار الأباطيل، هو أنقطاعهم عن الولي المنقذ، وغيابهم عن الهادي المرشد.

ولكن أداء القوم جرى بالأمر وأخذه في مسار بعيد كل البعد عن هذه الأماني والآمال، التي تبدو نرجسية حالمة في ظل قيادات الفتح وعساكره! مما أثمر - بعد أجيال - وأدى لتسرب «الإسرائيليات» وتوغلها ونفوذها في التراث الإسلامي، وأنجر إلى ظهور «الزنادقة» وفرق «الغلاة».

❋ ❋ ❋

لعمري، ماذا تحمل هذه الأرض وماذا يختزن تاريخها؟

كيف تكوّنت هذي البلاد وماذا جرى في ربوعها وأكنافها؟

ماذا في «قطسفون» عاصمة الساسانيين، التي فتحها «العرب» وأطلقوا عليها «المدائن»، وكانت من قبل «سلوقية» (بالآرامية: «مديناتا» = المدن) التي أنشأها «الهيلينيون» على ضفة «دجلة» الغربية، في المنطقة التي يوازي فيها مجراه «الفرات». أنشأها «سلوقُس»، أحد قادة «الإسكندر الأكبر» سنة ٣١٢ ق.م. بعد عشرين عاماً على موت «الإسكندر»، كامتداد لـ «بابل» المنهارة (جزئياً)، وبمواد بناء من أنقاضها.

كان يقطنها، إلى جانب مستوطنيها «اليونانيين»، و«البابليين» الذي أسكنهم فيها «أنطونيوس» الأول، قسم كبير من «اليهود» الذين طبعوا أحياء المدينة على الضفة الشرقية بطابعهم. كانوا هناك في زمن حكم «الفرثيين» و«الساسانيين»، وبقوا حتى أوائل العصر الإسلامي.

هل انحصرت عوامل الجذب ودوافع الهجرة إلى هذه البلاد في خصوبة التربة ووفرة المياه وتسامح السكان والتنوع الحضاري الذي يكفل الخصوصيات وهامش الحريات؟ وهل انحصرت أسباب الطرد من حيث جاؤوا بعكس هذه؟ هل كان «اليهود» هنا حقاً لأنهم سبي «نبوخذ نصر» الذين أسرهم في دفعات ومراحل في أواخر المئة السادسة قبل الميلاد، ثم أطلقهم «قورش الكبير» وسمح لهم بالعودة إلى «أورشليم»؟ أم أنهم كانوا هنا لأنهم ينتظرون حدثاً موعوداً في هذه الأرض الممتدة، ذكرته كتبهم وتناقله أخبارهم وأحبارهم، عجزوا عن تحديد دقيق له، فانتشروا في تلك الأرجاء، واستوطنوها لأجيال متعاقبة؟

بقيت أحياء المدينة القديمة على الضفة الغربية في زمن حكم «الفرثيين» (منذ ١٤١ق.م.) وكذلك «الساسانيين» (منذ عام ٢٦٦م) تُشكّل المدينة الأصلية: «ماخوزا» (بالآرامية). يحمل حيّها الجنوبي منذ حكم «أردشير» الأول الساساني، الأسم الفارسي: «وِه أردشير» (بيت = بناء «أردشير»)... هنا كان ينعم رئيس طائفة «اليهود السبي» Exilarch (بالآرامية: «ريش جلوته»، بالعربية: «رأس الجالوت») بمقرّه. وهنا أيضاً كاتدرائية بطريرك «النساطرة» Katholikos، رئيس الكنيسة «النسطورية» التي أنشقت عن «الأرثوذكسية» على إثر مؤتمر كَنَسي عقد في «سلوقية» عام ٤٨٥م.

وقد ظلت البطريركية «النسطورية» (كان يتبعها في العصر الإسلامي ما لا يقل عن خمس وعشرين مطرانية) ترسل حتى القرن السادس الميلادي حملات تبشيرية ظافرة وفعالة أجتازت آسيا الوسطى، وكانت تُحتَرَم جلّ أحترام في عهد الملوك «الساسانيين»، بل حتى في عهد «الخلفاء الراشدين».

علاوة على ذلك، فقد شكّلت المدينة ولفترة، مركزاً لـ «المانوية»، إذ أستُقبل فيها «ماني» شخصياً من قبل الملك «شابور» الأول (٢٤٠ ـ ٢٧٢م) عدّة مرات. ولكن أندماج الكهنة الإيرانيين المتعددين الذي تحقق في ظل قيادة «كرتير» الذي جمعهم في دين زرادشتي «ساساني» واحد رسمي للإمبراطورية «الفارسية»، أودى ـ بلا ريب ـ بـ «ماني»، الذي مات سنة ٢٧٧م في سجن «بهرام» الأول، وعانى أتباعه أضطهادات شديدة، (حتى إن «كرتير» شخصياً كان يتفاخر، وفقاً لمدوناته في المعبد المجوسي في نقش «رستم»، بأنه أضطهد وطرد «الزنادقة»).

لست أدري ماذا تختزن هذه الأرجاء؟

إن هنا لسحر خفي، تسري به أجواء معتّقة مثقلة، لا تدري بِمَ؟

أجواء ضبابية، تجمع الغرابة والسر، إلى النشوة والأنس، فلا تمل ولا تضجر رغم أنزعاجك وحيرتك! هنا شيء لا تحر له وجهاً ولا تفسيراً... أشبه باللغز والأحجية. شيء غامض يشدك ويأسرك، فتلاحقه وتتابعه، كأنك تريد أن تغوص وتسبر أعماقاً تتحداك أن تبلغها؟

كانت منطقة قصور الملوك «الفرثيين» و«الساسانيين»، شأنها شأن «بغداد» التي أُسست بعد ذلك بعهد، تواجه المدينة على الضفة الشرقية لـ «دجلة»، ويصلها بالمدينة القديمة جسر حجري عظيم. وكان يُطلق على مقر الملوك الشتوي هذا أسم «تُسفون» (بالعربية: «طُسفون» أو «طَيسفون»، وباليونانية: «قطسفون» Ktesiphon). في جنوب هذه البقعة قام القصر الساساني الذي ما زال جانب منه قائماً حتى يومنا، والذي يرجع إلى زمن «شابور» الأول.

وبالرغم من أن «قطسفون» كانت في عهد آخر ملوك «الساسانيين» مهملة بعض الشيء وثانوية في المقام والخطر، ونادراً ما تستخدم كمقر للرئاسة، وبشكل خاص خسرو الثاني «برويز» (٥١٩ ـ ٦٢٨م)، إلا أن عاصمة بلاد الرافدين هذه كانت ما تزال بالنسبة لـ «العرب» وفي نظرهم معجزة من الجمال والغِنى ولعلّها أول حاضرة ومدنَية حقيقية يشاهدونها!

وعندما أستولت جيوش الفتح العربي بقيادة «سعد بن أبي وقاص» على هذه المدينة، أستخدم البهو المقبب (طاق كسرى) من قبل المحاربين المسلمين كمسجد مؤقت. ثم أمر بعد ذلك «سعد» ببناء مسجد في المدينة العتيقة على الضفة الشرقية، أي في مدينة القصور «تسفون/ قطسفون». وكانت غنائم هذا الفتح هائلة جداً، وقد أوحى وصف هذه الغنائم إلى المؤرخين «العرب» أستعراضات حماسية، بعد أن أخذوا بجمال المدينة وعظمة العمارة فيها! وما زالت تفعل في الساسة «العرب»، فعلها على صعيد التباهي بالأمجاد، وأختلاق الحروب، وتوظيفها في النزاعات. *

---

* وكان «طاق كسرى» أو إيوان كسرى كما سماه العرب (والإيوان هو القبة أو البهو، وكانوا يقصدون «قصر كسرى»)، يستخدم لأستقبالات الملك الرسمية. وقد أمر الملك «خسرو الأول» «أنوشروان» (٥٣١ ـ ٥٧٩م) بترميم القصر، وأضاف إليه حياً جديداً من أحياء المدينة، «المدينة الجديدة» (بالآرامية: «ماخوزي خدهتا») «إسفانبر» والتي سميت أيضاً بـ «وِه أنتيُخي خسرو»، (أي: «بيت أنطيوخيا كسرى»)، لأن الملك أوطَن بها سكان مهاجرين من «أنطاكية» الآرامية التي هدمها عام ٥٤٠م.

أنظر «الغنوصية في الإسلام»: هاينس هالم Heins Halm، ترجمة «رائد الباش»، منشورات «الجمل»، كولونيا ـ ألمانيا.

كان الفتح العربي لـ «قطسفون/ المدائن» بمنزلة الضربة القاضية التي لم تتعافَ منها أبداً. وإذ أنتهى دورها كمقر ملكي لـ «العراق»، لم يُبْقِ لها الفاتحون الدور البسيط كعاصمة إقليمية للمنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين. فقد أنتقل دورها إلى المعسكرين الذين أسسهما العرب: «الكوفة»، على الضفة الغربية، و«البصرة» على ملتقى النهرين ومصبهما في الخليج.

ولست أدري:

أي عظمة في هذه البلدة، وأي سر تخفي؟

لماذا أختار «سلمان» الحكيم «المدائن» مثوىً له وآخر مطاف؟

هل من خصوصية فيها ورابط يجمعها مع أرض «المذبح»؟

هذه الشامخة بتاريخها، المفتخرة بأمجادها، المحظية في أعين ملوكها وحكامها، المُبجّلة لسكانها وقاطنيها؟

هل كانت تشكل شيئاً من نطاق أو مِصْرٍ أو حَيِّدٍ تجاه «كربلاء» وحول «المذبح»، فصارت آخر مطاف الصفوة المصفاة، والنخبة المستخلَصة من الصحابة النجباء: «سلمان الفارسي» و«حذيفة بن اليمان»، في جولتهما وسعيهما لملاحقة «القربان» والأمل بموافاته في أرض تحققه وميعاد مصرعه، فحجبهما القضاء وصدّهما القدر، لتصبح «المدائن» بمثواهما: «سلمان باك»، أي «سلمان الطاهر»، فهذا هو أسم المدينة اليوم؟

ألهذا قَبِل «سلمان» أن يكون والياً عليها ولحقه أخوه «حذيفة»؟ أراد أن يطل على الموقع ويشرف على ساحة الحدث، ويجاور «القربان» من أقرب ما أمكنه؟ أم أنه قصدها لسر آخر وحكمة خفية؟... ما زالت أرض الأسرار تنتج وتأخذ زوارها والمتجولين في أكنافها في متاهاتها وغامض أحوالها!

كانت «الكوفة» عاصمة العراق العربي الإسلامي ذات طابع آخر، مختلف تماماً عن «قطسفون» مقر حكم «الساسانيين» القديم، وغيرها من مدن وعواصم العالم. تأسيس جديد ليس ذا عراقة (مدَنية) تذكر، مدينة عربية إسلامية منذ بداياتها، أُنشئت كمعسكر (مِصْر) على ضفاف الفرات الغربية، وعلى أطراف بادية «الشام»، تجاه «الجزيرة العربية».

أنعكس تشكيل الجيش العربي الفاتح ومكوناته على طبيعة «الكوفة» (السكانية، ثم المدَنية)، ذلك أن كل بطن من بطون القبائل العربية الشمالية والجنوبية حصل على قطعة أرض: «خطّة» يقيم عليها مضاربه التي حُوّلت فيها بعد، وتدريجياً، إلى دور بُنيت من الآجر.

وإذا صح إطلاق التخطيط على هذا التوزيع، فإن «الكوفة» خضعت لمخطط محدد المعالم وخارطة مدَنية واضحة بعض الشيء، صارت تنمو وتتكامل تدريجياً، حتى غدت مدينة عظيمة.

كان كل بطن من القبائل العربية التي سكنت «الكوفة» يملك على حِدَة مقبرته الخاصة في خطّته (قطعة أرضه) تتوسط بيوته المنتشرة فيها، وكانت البطون قد خصصت مواضع أخرى صغيرة تلتقي فيها للصلاة وسط هذه التجمعات، شكّلت مساجد أنتشرت في مختلف أحياء المدينة.

هكذا سكنت قبائل «قيس» (عبس وذبيان) شرق المركز صوب «الفرات»، في المنطقة التي عرفت بعد ذلك بـ «الميدان»، وسكنت قبيلة «بكر» في الجنوب الشرقي على طريق «البصرة»، ونزلت قبيلة «كندة» وبطونها في الجنوب على طريق «الحيرة».

وعلى أمتداد الغرب توالت قبائل: «مذحج» و«الجعفي» و«النخع»، وأقامت «الأزد» و«بجيلة» و«تميم» و«أسد» في أقصى الغرب على طريق القوافل المتجه إلى «الشام».

وهنا، في هذا الموقع على التحديد، كان يقع حي «الكُناسة» الشهير (كُناسة بني أسد)، الذي تحولت وظيفته وتغيّرت مهمتة من مجمع للمزابل والنفايات، إلى موضع لتحميل وتنزيل قوافل البضائع والمسافرين، ومحطة رئيسة آوت الحِرَف المتعلقة بذلك والمناسِبة: كسوق الدواب، والحدادة والنخاسة، مع جموع الصيارفة والوسطاء والسماسرة.

وفي شمال «الكوفة» أقامت قبيلة «همدان» الجنوبية (اليمنية)، وإلى جانبها «ثقيف» الطائفية، و«طي» التي من شمال الصحراء العربية، و«عبدالقيس» من الساحل الغربي للخليج العربي.

وإلى جنوب «الجامع الكبير» كانت «القلعة» أو «قصر الإمارة»، الذي كان في البداية حصناً يتخذه قائد الجيوش وحاكم البلاد مقراً. وعلى ضفة الفرات، شمال شرق المدينة عند رأس الجسر العائم، كانت تقع «دار الرزق»، وهي بمكانة بيت أجور الجنود، وكانت عبارة عن مخزن للضرائب المجباة من الأقاليم المجاورة بقِيَم عينية من المواشي والأرزاق والغلال والمحاصيل.

كان أبناء القبائل العربية، المحاربون (المقاتلة) المسجَّلون في لوائح الجيش (الديوان)، يتقاضون منحاً محددة لكل رجل (ما كان يُعرف بالعطاء)، مما يكفل قوتهم، بمبالغ تدفع نقداً حيناً، وأحياناً على شكل غلال ومحاصيل «دار الرزق». وكان سكان المدينة العرب يعتاشون من هذه الإعانات أو المخصصات المالية الكافية، بل الجزيلة الوفيرة. (وقد أضطربت منظومة العطاء هذه في عهد «علي»، إذ خضع التقسيم للعدالة والمساواة بين العرب والموالي). وفي زمن تأسيس المدينة، وضمن سياسة ذات جذور عميقة في بنية النظام السياسي الذي قام على أستئثار «القرشيين» وتمييزهم، أقتُطع لنحو من عشرين صحابياً (منهم «طلحة» و«الزبير») قطع أرض خاصة بهم!

وإلى جانب «العرب» والمقاتلين، كان هناك غير العرب الداخلين حديثاً في الإسلام، الذين عرفوا بـ «الموالي»، كونهم كانوا ينزلون في مختلف أحياء «الكوفة»، وكان يُسمح لهم إضافة أسم القبيلة التي نزلوا حيّها إلى لقبهم، فيلحقون بها أو ببطنها، ولكن لا كعبيد مماليك، بل أتباع.

وفي حين كان المحاربون العرب (المقاتلة) يعتاشون من «بيت المال»، من المنح والتجهيزات التي كان يدفعها الخليفة لهم من غنائم الحرب وعوائد الدولة الأُخرى، كان «الموالي» المتدفقون على الكوفة من السهول المجاورة، أو من «قطسفون/ المدائن» يشكلون الطبقة النشطة أقتصادياً، حتى صارت التجارة والمعاملات المالية والأعمال الحرفية بأيديهم.

وبالرغم من كون «الموالي» «عجماً» (ليسوا من العرب)، ومسلمين من «الدرجة الثانية» (ملتحقين جدد ووافدين لا مؤسسين)، غير إنهم أستطاعوا أن ينموا بسرعة مشكّلين عنصراً لا يُستغنى عنه في المجتمع الكوفي، وما

لبث هذه الطبقة أن تصدّرت المجتمع الإسلامي في أطواره التالية على الصعيد الفني والحرفي والثقافي والعلمي والحضاري، بل حتى السياسي الذي تشكّل وبرز في فجر الإسلام وما تلا عصر الصدر الأول.

وكانت في «الكوفة» جماعات غير مسلمة أيضاً. من قبائل «بادية الشام» الذين وصلتهم المسيحية قبل الإسلام فأعتنقوها، وهي جماعات من «مذحج» و«عجل» و«بكر» و«تغلب» من شمالي ما بين الرافدين. وكان للمدينة أسقف «يعقوبي» وآخر «نسطوري»، وفي شمال المدينة كان يقع حي «اليهود».

هذا ظاهر الأمر من تشكيل هذه المدينة ونظمها...

أما واقع «الكوفة» فيحلّق فوق البناء والتخطيط والسكّان والمستوطنين، سواء كانوا من جند الخليفة ومرتزقته، أو من المهاجرين الملتحقين. وهكذا حقيقتها، تتخطى الحضارة والمدَنية بمعانيها ومعطياتها الدنيوية، إلى ما تقصر عنه «بيبلوس» و«الإسكندرية» و«طروادة» و«إسبرطة» و«روما».

إنها بقعة عرشية وعرصة ملكوتية... كأنها سنام الحيد ومرتكز الجناح الغربي الذي يحدّ «المذبح»، آستقرت هنا لتجاور موضع الحدث المنتظر، إذ لها الشأن كل الشأن في سياق تقادمه وتكوينه! قطعة من «طور سينين»، آختارها الله تعالى، حرماً له وحرماً لـ «رسوله» وحرماً لـ «أميرالمؤمنين»... التصدّق هنا بدرهم يعدل التصدّق بمئة في غير مكان، وركعتان هنا تعدل مئة في غيرها من البلدان! وإذا كان للبناء والعمارة والفنون والهندسة على هذه البسيطة عجائبها السبعة، فإن للغيب والمعنى عجائبه في مواقعه ومساجده الأربعة...

وفي هذه البلدة واحدة، فيها: «مسجد الكوفة»، «الجامع الكبير»...

الصلاة المكتوبة فيه تعدل حجة مقبولة، والنافلة تعدل عمرة مع «رسول الله»، والمسافر بالخيار في هذا الجامع بين القصر والتمام، كما هو الحال في «الحائر» من «المذبح»، وفي المسجد النبوي، وفي بيت الله الحرام. هنا صلى ألف نبي وألف وصي، هنا مقام توبة بِكْر حجج الله، «آدم» أبي البشر، ومقام لـ «نوح»، ومصلىً لـ «إبراهيم»... هنا قدس يفوح وعظمة تتفجر.

* * *

تختلف البقاع وتتفاوت العَرَصات...

دعقاء لا نَبْتَ فيها ولا ماء، وجَدَلَة ذات رمل دقيق، ووخيمة لا تُستمرأ، وجدبة تيهاء، وأخرىٰ مُجمعة خصباء، ندية مِعْشاب، وغوطة مِرباب... بِيدٌ وفلَوات، كثبان وسِباخ، باعِجات وواحات، جُرود ومَوات.

هٰذا في طبيعتها وتكوينها... أما لمدارجها في دنيا المعنىٰ والكمال، حقائق أُخرىٰ، وتسميات وتصنيفات، وشؤون وتعلّقات.

ورغم أن الأرض والشجر والحجر والمدر، والسهول والجبال، والبراري والقفار، والأنهار والبحار، وكل «الجمادات»، لها أرواح و«عقول» تفكّر بها وتدرك، ولها نُسُك وعبادة، وذِكْر وتسبيح وإرادة، وإلّا لما عُرِضَتْ عليها «الأمانة»، ولما آختارت وأبَتْ، وردّتها عن نفسها وأشفقت... لكني لست أدري كيف تُجتبىٰ البقاع، وكيف يختارها الله سبحانه لأيامه ومشاهِدِه، وكيف ولِمَ تصبح مواطن لحضرات أوليائه، ومنطلقات و«رؤوس جسور» ومعارج إلىٰ رضوانه ولقائه؟

لست أدري ما هي أسرار الترجيح والخيرة الإلهية في تفضيل أرض علىٰ أُخرىٰ وبقعة علىٰ بقعة؟ ولا أريد ما يصعد من هٰذه الكائنات إلىٰ باريها ويكسبها الفضل والرتبة، بل ما يهبط عليها آصطفاءً وآجتباء.

وإذا كان الأمر محل جدل بين الوثنيين واليهود والمسيحيين، إذ آرتكز عداء اليهود لـ «الرومان» لأنهم آحتلوا «فلسطين»، وهي «أرض يهوه»، أي أرض الله، وكانوا يحاججونهم ويصرّحون لهم بذلك. بينما ذهب المسيحيون إلىٰ أن «يهوه» غير مرتبط بأرض ولا الأرض مرتبطة بـ «يهوه»، بل هي مرتبطة بعقل الإنسان وقلبه وما يتفرع عن العقل والقلب ويترتّب عليهما من قيمة إنسانية تُتَبنّىٰ، كحب الوطن والتعلّق بالديار والأنس بمعالم مدَنِيّة أو طبيعية دون غيرها، تهدي الولاء وتصرف التعلّق إلىٰ أرض ما. أو من مذهب سياسي يُعْتَنَق، يحدد للأرض موقعاً ويجعل لها قيمة ومقاماً ودوراً... ويزعم المسيحيون أن «السامرية» عندما سألت «المسيح» أين سنتجسّد، علىٰ الجبل أم علىٰ الساحل؟ قال لها «المسيح»: لا هنا ولا هناك.

وقد أسسوا من هذا المنطلق لموقع «الروح» على حساب الموقع المكاني والبقعة الأرضية، وخلطوا لذلك في ماهية الدور الروحاني: حقيقته وعطاءه أيما خلط! وأرى أن الأمر خضع ـ في حقيقته ـ وعانى من آرتباك واضح وتموضع مُستفَز في معالجة «الوثنية» والرد عليها ورفضها، عمد إلى إعدام الحس مقابل الغيب والتنكر للأثر مقابل المعنى، ولتعسّف بيّنٍ في عرض الدين (الحق، مقابل اليهودية الباطلة)... مما كان وما يزال يصطدم في جوهره مع طبيعة الإنسان وفطرته.

إذا كانوا كذلك، وهم كذلك، فنحن بعيدون عن هذا النزاع وخارج هذا الجدال، ولسنا معقّدين ولا مُستَفزّين ولا أسرى أوهام...

إننا نعتقد أن لله سبحانه وتعالى أولياء، ولله أياماً، ولله بيوتاً، ولله بقاعاً وعرصات. وهذه النسبة أمر آخر غيْر الملكية (بطبيعة الحال)، إذ هو عز وجل المالك، والمُلكُ كلّه له، كما هي غيْر التجسيم والوثنية وكل ما يخل بالتنزيه ويدخل في التعطيل والتشبيه، فلا يلزم من هذه الملكية، ومن نسبة بيت أو أرض إلى الله سبحانه أن يحلّ فيها، ولا من نسبة يوم أو عيد أو زمن معين إليه تعالى أن يقطعه ويمضي فيه حتى يخلو منه ويمتلئ آخر!

ونحن نرى أن الأرض، مثلها مثل أي موجود آخر (إنسان أو حيوان أو جماد)، مريدة مُكَلَّفة مسؤولة بقدرها، تخضع من جانبها للنمو والسمو والتكامل، ومن جانب الله سبحانه للآجتباء والآصطفاء.

وبعد هذا نرى أن هناك نطاقاً للأشياء وطاقة، ووُسْعاً وقدْراً وقُدْرَة، فإذا آستنفد الأمر وسعه وضاق عن نطاقه، خرج عنه وصار يبحث عن بديل يحويه وإطار يضمه ويتجلى فيه.

فـ «النبي الأعظم» عليه وآله صلوات ربه، عندما هاج به الحنين إلى «وطنه»، وغلَبه الشوق إلى أصله ومنبعه، وشاء أن يبلغ ـ بنشأته الدنيوية وعنصره البشري ـ مقامه الأصلي من القرب ومنزلته الأولى من الوجود، ويعود من دنيا الكَثَرَات التي صار يعيش فيها إلى الحضرة الأحدية التي آنحدر منها، حيث لا آلتفات ولا آنشغال إلّا بالواحد القهّار الأحد...

كان لا بُدّ له أن يبلغ «مكاناً» ويحل في بقعة و«ظرف» يطيق هذا المقام المعنوي ويتحمّل ذلك القرب الروحي ويسمح بإدراك تلك «الحضرة»، فهناك تناسب بين المكان والزمان والهيئة، وبين القرب المعنوي والروحي، فالإنسان أقرب ما يكون إلى ربه وهو في حال السجود، وإذا ما قطع أمرؤٌ نفس الشوط من السلوك وبلغ نفس الحد من التفاعل في عبادة ما، وهو في داره مثلاً، وفي ليلة من سائر الليالي، فإنه سيبلغ بنفس الجهد والتفاعل مقاماً أعلى وأرقى من القرب فيما لو كان في بيت الله الحرام، وفي ليلة القدر.

ولمّا لم يكن في الأرض ومَسْرَاها وعلى هذه البسيطة من أدناها إلى أقصاها، ولا في أيامها ولياليها، متّسع للرقي الذي أراده «النبي الأعظم» ولا نطاق للسمو الذي يلحقه بمقامه الأصلي، عرج - صلى الله عليه وآله - بجسمه وعنصره البشري إلى السماء، وتحرّى الأمر في مراقيها هناك، عندَ «سدرة المنتهى» و«قاب قوسين أو أدنى».

وفي مشهد يبدو أنه معكوس المعادلة أو سابق طور ومرحلة...

هبطت من السماء كائنات مقدّسة، وانحدرت من عالي مقامها وشريف مرتبتها «وجودات» ملكوتية نورية... ما زالت تتنزل من سماء وتهبط من أخرى، تأتي من مقام وتُقبِل من درجة، حتى تقولبت عند أسفل قوس النزول في هيئة تُوافق النشأة الدنيوية وتناسبها، واكتست لباس عالمنا وتشكّلت - بعد صورتها الأصلية - وظهرت في صورة جديدة تسمح لها أن تكون «مشهد» أحداث «سماوية» عظيمة قُدِّر لها أن تقع على هذه البسيطة، وعرصة تضم في أكنافها «أهل السماء» الذين سبقوها في النزول إلى الأرض، وبادروا قبلها لتحمّل الرسالة في هذه الدنيا!

هنا، على هذه الأرض، بقاع هبطت من السماء وحلّت على كوكبنا، لتكون مسرحاً لأيام الله، وميداناً لجولات أوليائه... عَرَصات نزلت من سامي قدسها وشريف مقامها وعظيم حضرتها، لتكون مشهداً لأحداث لا تطيقها التربة السفلى، ولا يمكن أن تحويها هذه الأرض وتضمّها بين جنباتها برتبتها الدنيا وعنصرها وسنخها المتواضع.

كما يعرج «النبي الأعظم» (ويعرج وصيّه الإمام المعظّم)، وكما يصعد الكَلِمُ الطيب ويرقى العمل الصالح حتى يتجسم في المعاد بأبهى الهياكل والأجسام وأروع الصور والأشكال... فإن أمواج النور، تتلاطم في بحور حظيرة القدس، وتخلع نفسها عن عالمها بنزعات العشق ودفعات الطاعة وتتولّد من مخاض الولاء، فتنطلق وتهوي وتهبط وتنحدر إلى الأرض لتنهض بمهمة ملكوتية، وتقوم بدور سماوي على هذه البسيطة. بل لتحظى بشرف الدوْر، وتلتقي في الأرض وتعثر على مفتاح المغاليق، وتتلقى الإكسير الأعظم الذي يكمّلها ويعود بها إلى عالمها الأصلي، وقد تسنّمت أعلى الرتب وحظيت بالشرف كل الشرف.

هكذا هبط نورٌ أقدس من بُطنان «العرش» ليصبح عَرْصَة على هذه البسيطة... كانت «كربلاء». ومن ذلك «المعدن» الأنفس الأسمى تشكّلت واصطُنِعَتْ ومزجت تربتها الطاهرة، فحق أن تخرق الحجب السبعة، وتختم جباه المؤمنين بميسم النور والصلاح وتطبعهم بخاتم السعادة والفلاح، فيتميّزون على «الأعراف» ويُعرَفون بسيماهم هذه.

* * *

هذه «كربلاء»...

تنبسط أمامي بنهرها المفيض المتدفق كأفعى تزحف بتعرّج والتواء، المنسابة مياهه في جداول متفرعة عن يمينه وغدران متشعّبة عن شماله، تتلاطم أمواجه كبطون الحيات أو رفيف وخفق الرايات...

كأن هذا النهر غلبه الخجل فأخذ ينطوي على نفسه وينحسر في وسط مجراه عن ضفافه، وصار يتوارىٰ ويغور ليداري حياءه من مالكه ووارثه... فهو مهر «أُمّه» وصِداق قرانها بـ «أبيه»! والمفترض أنه إرْثٌ حصْر ومُلْكٌ خالص وحق مطلق لهذا «الركب» الممنوع من النزول على جوانبه، المحال بينه وبين وروده! ولعلّ القبض والبسط في هذا النهر رعدة من خوف ورجفة من هلع، لهول ما سيقع قريباً منه بعد حين، فتراه ينثني ويتراجع على نفسه وينقبض وجلاً، ثم يضيق ذرعاً فيمتد وينبسط بل ينفجر ضجراً.

هٰذه «كربلاء» بباسقات نخيلها...

باسقات رغم أعوجاج نال قاماتها وركوع أصاب هاماتها، فلا تدري أثقل الرزء المقدر أمالها؟ أم هي أنحناءة أحترام وتعظيم وإيماءة سلام وتحية وتبجيل للسادة المقبلين عليها والأشراف القادمين إليها والعظماء النازلين في أكنافها؟ أم هو ألم ووجع بلغها مما كان يتقدّم «الركب» ويصاحبه، ويسري في الأجواء ويملأ الفضاء، يواكبه حيث حل وأرتحل... أصابها ونزل بها، فجعلت تتلوىٰ علىٰ نفسها حتىٰ مالت وأنحنت؟

أم تراه ثقل الحمل وعبء النتاج؟...

فعثوق النخيل في «كربلاء» لا تحمل خَلالاً وبلَحاً ولا بُسْراً ورُطَباً، بل تموراً رواها العز والفخر وأنضجتها الكرامة والشهامة، و«حَيْساً» عُجِنَ بسَمْنِ المجد وإقْطِ الإباء، حتىٰ النفاض المتساقط هنا واللقاط المنثور في الأصول، هو بقايا تبذلها هٰذه الأرض لمن عزّ عليه السمو وبلوغ المعالي، وعجز عن نيل العز من معاقده وتناوله من معاقله... و"للأرض من كأس الكرام نصيب"، ممن عاش حسرة: "يا ليتنا كنا معكم"، وأمل الأسوة والأقتداء والألتحاق بأبي الأحرار، ففتح له الباب في عزائه وإحياء ذكراه.

هٰذه «كربلاء» بصحرائها الملتهبة تحكي «مِنىً»، في هجيرها ورمضائها، وجدبها وقسوتها وجفافها، وهٰكذا في قدسها وهيبتها... من هنا يزدلف الكرام للحرب وينفرون للقتال، كما يزدلف الحجيج هناك وينفرون يسوقون هَدْيَهُم، ثم يُضحّون ويذبحون، فيحلقون ويحلّون. وهنا في «كربلاء» مذبح ومنحر، مسرىً ومعراج، وهنا إحرام مقيم، لا يحل بحلق ولا تقصير، فهو لا يفك إلا بأداء، ولا شيء يؤديه ويوفيه حقه!

وهٰذا لحن غريب يصاحب المنظر ويلازمه، ليس لحناً جنائزياً، ولٰكنه مفعم بروح الجنائز وهيبة الموت وجلال المصاب، لحن يجمع الحزن والحماسة، ويقرن القوة بالألم والعزم باللوعة. قد تصدّه بعض الأصوات المرتفعة هنا حيناً وتمنعه الضوضاء الغالبة هناك حيناً آخر، ولٰكنه لا يلبث أن يغلب من جديد، ويعود كلّما صفا الجو وسَكَن...

إيقاع يتكرر على وقع خَفْقِ القلب وضرَبانه، كقرع الطبول، متقارب بـ «مفتاح» أو «سلّم» مُزْدَوَج، يفصل بين الضربة والأُخرى، أو بالأحرى بين كل ضربتين وتالِيَتَيْها، هاتف يأتي من بعيد، خافت بعض الشيء، ولكنه متحفّز متطلّع، كأنه قرأ الحدث مسبقاً وعرفه وعلم بما سيكون، فأراد أن يكون تصاعدياً، يتناسب طرداً مع سخونته وتقادمه صوب نهايته:

حيدر... (الإيقاع المزدوج)

حيدر... (الإيقاع...)

يفرش أرضية موسيقية للمشهد، ويشكّل خلفية صوتية للحدث، ترسله الريح، وينشده الحضور من «شُهَده»، ويردده الجن والملائك والشجر والحجر والركائب، وكل شيء هنا... يتقدّمهم في الإنشاد فتية «الركب» ورجاله، وهم يجولون أمام مصارعهم المعدّة الموعودة، يستعرضونها كمَنْ يدعونها ويطلبونها قبل أن تطلبهم! وقد شدّوا الحيازيم وجمعوا الأذيال، وراحوا يتهيأون كما الفتى لعرسه وزفافه، يصلحون هيئاتهم: يشمّرون عن سواعدهم لضرب السيوف، ويكشفون صدورهم لطعن الرماح، ويُشْرِعون نحورهم لتلقّي النصال، ويحسرون رؤوسهم ويحلقون شعورهم لمهاوي أعمدة الحديد، ويبرزون أعناقهم لحز المُدى، ويعيرون جماجمهم للرفع على الأسنة!

ولست أدري لمَ كان الهتاف بهذا الاسم دون سواه: «حيدر»...؟

ألأنه مجمع القيم والمثل وملتقى الفضائل والكمالات التي من أجلها كانت «كربلاء» وسيكون «القربان»؟ هل لأنه شعار الحق وقطب الرحى الذي تدور عليه المعركة ويحتدم الصراع؟ هل لأنه مفترق الطريق بين «العرب» في تموضعهم وترتيب جبهاتهم الداخلية، بعد أن التقوا عند «رسول الله» واتفقوا عليه (مُرْغمين مُكْرَهين)؟ هل هو عنوان الصراع بين الجبهتين، والفيْصل الذي يميز المعسكرين: الإيمان، عن الكفر والنفاق؟

لقد أخبر «المصطفى» عليه وآله صلوات ربه، من خفي علومه وعجيب إنباءاته، وهو يعرض أدق أسرار البحث عن حقائق النفوس، ويقدّم أخفى خفاياها، ويكشف عن أغرب أحوالها...

أن أمـر «المنـافق» قـد يخفـى ويخفـى حتـى لتراه يحب «الحسن» و«الحسين» حقاً لا زعماً... ولـكنك لن تجده يحب «علياً» أبداً، لن يتمكن هـذا الحب من قلبه، وسيبقى يبغض «حيدراً»!

إن المنافق قد يحب الخير كلّه:

يعطف على الفقير ويتحنن على اليتيم، يؤدي الصلاة ويقوم بالصيام ويمارس البذل وينهض بالجهاد ويعيش الزهد ويلتزم كل عبادة، حتى يبلغ الجود بـالنفس فيقدم عـلى حتفه فرِحاً مستبشراً... كل ذلك عن صدق وٱعتقاد، لا رياءً ولا تظاهراً.

وقـد يحب (غيْرُ العلماء والـدعـاة من المنـافقين) في قلبه وأعماق سريـرته الأنبياء والأولياء والصلحاء، يحب «رسول الله» ويحب من أهل بيته سبطيه «الحسنين»، وقد يحب ٱبنته المظلومة «الزهراء» أيضاً... ولـكنه لن يخلص الحب لـ «علي» أبداً، وسيبقى يبغضه ويحمل عليه الأضغان، ولو قليلاً!

وهنا وقفة مع سؤال وشبهة:

كيف تجتمع العقيدة الراسخة المستقرّة، المقترنة بالحب والولاء، المكلّلة بالعمل والطاعة، بل الجد والإخلاص في العمل، مع الكذب والنفاق؟ كيف يكون الرجل معتقداً جازماً، وعاملاً مخلصاً، ومع ذلك يكون منافقاً كافراً، لمجرد تخلّفه عن مفردة واحدة من منظومة الحق والخير؟

هل يمكن أن يـستقر القلب عـلى فكرة ويـذعن لها حتـى يـتـعـهّـدها ويلتزمها ويعمل وِفْـقَها، وهو يذعن في الوقت نفسه لنقيضها، ويلتزم العمل بهـذا النقيض ويتعهّده بكل جِدٍ ومثابرة!؟

هل يصح أن أصف مَن يشكو الجوع ويعاني العطش، وما يزال يشرب ليطفئ ظمأه ويأكل ليسد رمقه... أصفه بالكذب في دعواه، وأحكم بأن ما به ليس من الجوع والعطش في شيء، ولـكنه داءٌ ٱتّخذ هـذه الهيئة وعلّة ظهرت بهـذا الشكل؟! ألستُ ـ بهـذا ـ أتجاهل الحقيقة وأقفز على الـواقع وأتنكّر لـه؟ ألستُ أتنـاقض في قراءتي للقضايا وتحليلي لها؟ ألستُ أغالط في تلقي الأمور وفهمها وأتعسّف في تفسيرها؟

إن الردود على هذه الشبهة كثيرة والأجوبة متعددة، أغلبها يصب في نفي الفرض ومصادرة الموضوع. وبعضها يرتكز على أن الخير والحق «مجموعة» و«حزمة» واحدة، ليس لك أن تختار منها وتنتقي ما تشتهي أو ترفض وتلفظ ما تشاء، إنها «حزمة»، إما أن تُقبَل كلّها أو ترفض كلّها، خصوصاً على صعيد المعتقد (دون العمل). وهناك من ركّز في ردّه على محورية تلك المفردة (حب «علي») وعظمتها، موقعيتها وقطبيتها بالنسبة للإيمان والكفر، ما يتضاءل أمامه أي معتقد آخر وأي عمل وطاعة...

ولكني أقر بأن الجواب الحَلّي المقنع (لا المفحم) عن هذا الإشكال، غيْر متاح لكل وارد، أما النقضي فمبذول ببابك...

إنه طارف وتالد من «إبليس» وماؤه الذي خالط نُطَفَهم، فشارك آباءهم فيهم! بل غدوا أبناءه ونسله، انحدر فيهم خيط من رداء الكبرياء الذي تردّىٰ به اللعين فكان منه ما كان، ونزل به ما نزل، وحل حيث هو إلى الأبد... شمّة من «إبليس» وخيْطٌ اَستُلّ من ذلك الوجود الشيطاني المتمحّض في الشر والسوء والقبح، ولج في سَمّ خياط أنْفُس دنيئة فخاط لها أثوابها وألبسها أرديتها. تسلل إلى مكامن الزهو والغرور فيها فحل هناك ورابط، واَندس وتوغل حتى بلغ الحسد فعشعش واَستوطن... سال لعابه من أفواههم ـ كما العناكب ـ خيوطاً تبني البيوت، وتقاطر من أطراف أصابعهم كما دماء الأبرياء من أيدي قتلتهم تصبغ الأثواب وتلطخ الوجوه، ونضح من جلودهم كما المسوخ، ورشح من كل ذرة في كيانهم، وفاض عنهم بعد أن ملأ أنفسهم مما جمعته الأهواء الخفية وخزّنته الشهوات المضمرة في اللاشعور، فتناوله وليّهم الرجيم: يخيط منه ويسلك، ويحيك على منواله وينسج... ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

لقد قدّم «إبليس» في سبيل خروجه من محنته وخلاصه من ورطته، عرضاً سخياً بديلاً (ظنّه مغرياً!) عن الأمر الذي صدر إليه وإلى الخلائق أجمعين، فعرض أن يعبد الله عبادة يعجب منها الخلق وتذهل الملائكة، على أن يعفيه الله سبحانه وتعالى من السجود لـ «آدم»!

لقد آمن بالله وقَبِلَ توحيده، بل ٱلتزمه وٱشترطه «خالصاً» غيْر مشوب بشِرْكٍ، لا لِوَثَن ولا لخَلْق وبشر: لا أحد مع الله، لا في الربوبية ولا في الطاعة ولا الخضوع. وقد ٱلتزم عبادة ربه فعلاً، وتعاهد العمل وفقاً لإيمانه...

لٰكنه لم يسلّم... فما أسلَم!

لقد ٱشترط على الله، ولم يسلّم تسليماً... فما أسلَم!

بقي في النفاق، إذ كان ظاهره غيْر باطنه، وإن أخلص في ما يظهر وصدق في ما يبطن، فإن هٰذا لا يغيّر من حقيقة التفاوت والمفارقة بين الظاهر والباطن، ليتلبّس به النفاق ويصدق عليه.

ذلك حين أبى «الولاية»، وعصى وٱمتنع ولم يخضع ويمتثل أمر السجود لـ «آدم»، لأنه مخلوق مثله. ناهيك بمرتبة الخلق ودرجته، وصدق معايير التفاضل في هٰذا الميدان، أحقٌّ أن مادة خلق الجن (النار) خير وأسمى من مادة خلق الإنس (الطين) أم لا؟ لٰكن الحق الذي لا مراء فيه أن «آدم» كان مخلوقاً كما أن «إبليس» مخلوق، حادث مثله لا قديم، فقير مثله لا غني... فلماذا يسجد له ويقرنه بعبادة ربه عز وجل؟!

إن هٰؤلاء (مبغضي المولى) يمضون في حبّهم وولايتهم، في «توحيدهم» وطاعتهم وعبادتهم على خُطى أبيهم «إبليس»...

قد يحبون الخير كلّه، يصلّون ويصومون ويبذلون ويضحّون، قد يصدقون في عقيدتهم ويخلصون في عملهم وعبادتهم، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم حتى يُعجِبوا الناس ويحيروا الملائكة والأولياء من ٱندفاعهم وتسابقهم على الموت في ما يحسبونه «سبيل الله»... ولٰكنهم يعجزون عن حب «علي»، تماماً كما أبى أبوهم من قبل السجود لـ «آدم» وعصى!

ولعمري، ما كان أمر السجود في الملأ الأعلى لـ «آدم» في شخصه، بل لما يمثله ويرمز إليه، ولما يحمله من نور «علي»... حتى جلجل الحق في «ٱبن أبي الحديد المعتزلي» فنظم:

هٰذا هو النورُ الذي عَذَباته
كانت بجَبهَةِ آدم تتطلّعُ

وحلّق الولاء في «الميرزا إسماعيل الشيرازي» وأزهر فأنشد:

هٰذه فاطمـة بنـت أسـد * أقبلَت تحمـل لاهوت الأبد

فأسجدوا ذُلاً له في مَنْ سجد * فلَه الأملاك خرَّت سُجَّدا

إذ تجلـى نـوره في آدم

ولا تسلني بعد هٰذا: هل لهٰؤلاء «المبغضين» «الشيطانيين» وجود وتحقق خارجي؟ هل هناك ـ اليوم ـ في منظومة الباطل مَن يبغض «علياً»؟ وقد أُبيد «الخوارج» وقضي عليهم، وأنتهى «النفاق» كظاهرة سياسية (كما يزعمون)؟ كيف يكون ذلك، وأنت إذا واجهتهم بالأمر تنكّروا له ونفوه، وتبرأوا منه وأبَوْه؟... لله در العقلاء، متى بنوا على محض المدّعيات ورتّبوا الأثر على المزاعم دون الأفعال الدالة والمواقف الموثقة؟ إن كشف خفايا الأنفس والتعرّف على حقائق مكنونات الصدور، كان وما زال مطلباً حثيثاً ومغنماً عزيزاً، طالما تحراه الحكماء وشقّوا لكشفه الطرق ووضعوا المناهج، فنظروا في المصالح والأهداف والموانع والقدرات، وفي الحيثيات... وكثيراً ما تُعرف الأشياء بأضدادها، وتظهر المضمرات في فلتات الألسن وصفحات الوجوه! وإذا أردت أن تعلم حقيقة ما يحمله المرء من قبيح رأي وفاسدِ مُعتقد، عليك بتتبع سلوكه ومواقفه، ورصد أفعاله وردودها، لا أن يغرك المدّعى ويكفيك النفي زعماً والإنكار قولاً. ثم تعال إلى القوم وأنظر إلى موقفهم في إنكار «بغض الوصي»، وأستكشِف المضمر وتحرَّ الحقيقة...

سبحان ربي...

قد يمتدحه أحدهم بما ليس فيه، أو يُعظّم أبنه أو أخيه.

وقد يُمتَدَح غيْره وغيْرهم، أو أية شخصية حاضرة أو غائبة، معاصرة أو في التاريخ غابرة، بل حتى لو آمتُدِح أحد «الصحابة» وبالغ قائل في منزلته ومقامه، وخلع عليه الكرامات وألصق الفضائل وألحقها، وهٰذا مما يرتبط بالدين ويمس العقيدة ويؤثر فيها (إن عَزَوْنَا السلبية في الحالات الأولى إلى كونها مبالغات وشطحات شخصية تُعدّ شأناً دنيوياً لا دينياً، فلا ضرورة ولا مقتض لمواجهتها والتصدّي لها)...

لا تـراه يبـالي أو يكترث، لا تأخـذه حمية ولا تهيجه عصبية... وإن فعل بعضهم وصدرت عنه عناية وأظهر حرصاً وتحفظاً، فبهامش علمي بحث، وتدخّل فنّي صرف.

ولكنك تعال وأنظر إليه أمام فضائل «علي» ومناقبه؟!

أنظر كيف يخرج عن وقاره وأتزانه، ويغلي في داخله ويضطرم حتى يفقد صوابه ويفلت من عقاله ويجن جنونه!

يستنفر ويحشد قواه، ويجهد ويتهالك علّه يجد زلة هنا وخدشاً هناك يطعن في نص المنقبة وينال من دليل الكرامة... ثم لن يقر له قرار ولن يهدأ له بال، ولن يسكن ويكف إلّا وقد أنكر الفضيلة وأسقطها (في نفسه وفي أعين الناس) وطمسها، أو في أقل تقدير شكّك فيها وغمز ولمز؟! وإن عجز وأعيته الحيلة تراه «وَضَع» وأخترع مثلها، و«جعل» لـ «آخرين» على غرارها، فلا ينفرد «المولى» ويختص!

لماذا لا يطيقون مدح «علي» وذكر فضائله؟

ترى هل لهذه الحالة أسم غيْر الحقد والبغض؟

هل من وجه لها إلّا مرض الصدور وأستبطان الفجور؟

هل من قراءة لها غيْر خبث السرائر ووقر الآذان وعمى القلوب؟

هل من تفسير لها وتبرير إلّا الأنتساب (الروحي، إن لم يكن التنظيمي والعضوي) إلى «الشجرة الخبيثة»؟ والأنتماء الواقعي الفعلي، والدخول العملي في «حزب الشيطان»؟...

إن العبادة والزهادة، والصلاة والمراوحة فيها، والجهاد بالمال والنفس، كلّه «ليٌّ» وآلتواء لا ينطلي على ذوي الألباب والأفهام فـ "يحسبوه من الكتاب" ولله وعلى الله!... إنها أحقاد بَدرية وحُنَيْنية، وأضغان قرشية وإِحَنٌ أموية، معروفة عند أهل العلم، معلومة عند أهل المعرفة، لا تداريها عن يقظة الوعي عبادة يظهرون بها وزهادة، ولا يواريها عن عرفان البصيرة ظاهر براق من البذل والجهاد والعطاء.

❋ ❋ ❋

هنذه «كربلاء»...

وأنا أطل على «الركب» المهيب، المتألق جلالاً وعظمة، يحطّ هنا، وقد آختلط أمره بين الكتيبة والرَحْل، بين كوكبة برزت لحرب وقتال، وقافلة تريد السفر والنوال؟... فهنذه رماح يهزها فرسان، وصوارم مشهرة بأيدي كماة، ورايات خفاقة يحملها أبطال، ثم هنذا ظعن وخدر وهنذه أستار، وهوادج وحرائر يجللهن خَفَر تتزلزل له الأرض وتميد الجبال، وترتجف السماء ويتصدّع «العرش»!

ولن يتكلّف الناظر المطل من مستشرفي أو المشاهد الذي يتصفّح الحوادث من هنا، كثير جهد أو وقت ليجد «الركب» في هنذه الدنيا العريضة، ولا أن ينتقل إلى الموقف من بين مليارات الصور والحركات والأحداث والمشاهد. هنذا نور «إبراهيم» و«إسماعيل» الذي رأيته يسطع في «منىٰ»، وتحرّيته بعد ذلك ولاحقته حتىٰ وجدته أنتقل إلى «هاشم»، وحل في «عبدالمطلب»، ثم تشعّب بعد ذلك في «عبدالله» و«أبي طالب»، لينحدر في «محمد» و«علي»، وعاد ليلتقي من «علي» و«فاطمة» في «الحسن»...

ها هو الساعة يتلألأ في «كربلاء»، يلفت كل نظر ويستقطب كل قلب وبصر، وهو في أوجه، والسنا يخطف الأبصار ويبهر القمر ويخجل شمس النهار، وكأن الأمر بلغ ذروته ووصل مداه وغايته.

الرؤية هنا واضحة ترسم معالم «كربلاء» وتحددها بجلاء...

وكنت قبل هنذه الإطلالة، في دنياي، أقرأ الحدث في الكتب وألاحق النصوص والآثار وأسمع السيرة من الخطباء، فلا تكتمل الصورة عندي، بل تحضر متداخلة مشوشة في كثير من مقاطعها وفصول المشهد...

لا أدري ـ على التحديد ـ أين حطّ «الرحل الحسيني» ومن أين آرتحل؟ وأين «المشرعة» عن «المخيم»؟ وكم يبعد «التل الزينبي» عن مواضع العدو وخطوط الحصار؟ وأين الميدان عن المعسكرين؟ أين وقعت المعركة، وأين آلتحم الجيشان وآلتقى الفرسان في البراز، وسقط الرجال صرعىٰ وشهداء؟ ومن أين كان فرار النسوة والأطفال ومسار الأسرىٰ ومساق السبايا؟

إنني أرىٰ الصورة الآن محددة المعالـم...

كأن «الركب» قد دُفع بٱتجاه الشمال، بعيداً عن «الكوفة» دفعاً، فطوىٰ المنازل الأخيرة، من «النخيلة» حتىٰ «عذيب الهجانات» فـ «قصر بني مقاتل»، حتىٰ ٱستقر بعد «قرىٰ الطف» وحلّ في «كربلاء».

وهو الآن مطوّق من الجنوب تماماً ومحاصر من تجاه «الكوفة» بجيش ينقطع عنه النظر، يقل تركيزه وتضعف كثافته كلما ٱتجه نطاق دائرته إلىٰ الغرب فالشمال، بل أنا ألحظ هنا مسارب وطرقاً تخرق طوق الحصار، لا أدري أعن عمدٍ تُركت لتُتخذ مهارب تفرّق المجتمعين حول «المولىٰ» وتقلل عديد الثوار الملتحقين وتخفف ـ بالتالي ـ وطء المعركة، أم هي عيوب وثغرات نتاج فوضىٰ قيادة الجيش «الأُموي» وٱرتباكه الشديد.

ليس الحصار مطبقاً كما كنت أظن...

فالشمال يكاد يخلو من جند الشام، والشمال الغربي كما وصفت من ثغرات التسلل ومسارب الهروب و«النجاة». وقد أوقع هذا في نفسي أن الحصار إنما هو علىٰ «قائد الثورة» بشخصه، لا يقصد منه سواه ولا يتوجه إلّا إليه، كانوا يريدونه هو، دون مَن معه من أهل وأصحاب، لا شأن لهم بغيْره ولا غرض في سواه، مطمئنين بأن أمر غيْره والبقية من جنده وصحبه سيهون من بعده، فكل جمع من بعد «الإمام» إلىٰ شتات وضياع.

وبينا أنا في هذه القراءات والتحليلات إذ عادت لي الحالة الأُولىٰ التي ٱنتابتني أول ٱرتفاعي عن الأرض في سفري هذا، حين عرض لي «الخلع» وعرجت في السماء، وصارت الصور تنبجس أمامي علىٰ حقائقها، والمعلومات تظهر وتتكامل فيتجمّع شتاتها بٱلتفاتة، ويتركز حتىٰ دون أمر وإرادة! ظهرت لي صورة جديدة ألحت بحضورها وألزمتني النظر إليها وفيها، ومن ثم قراءتها والوقوف عندها وعليها، وقد مثلت أمامي وٱنتصبت، وحضرت في نفسي وهيمنت، لائمة عاتبة، بل معترضة مستنكرة:

أين تأخذك الأفكار وتذهب بك الآراء؟

ليست هذه دار ٱجتهادات وٱفتراضات وٱحتمالات!

إنما أنت هنا لتلقّي النقي الذي لا يخالطه كدر وأخذ الخالص الذي لا يشوبه زيغ، وإدراك ما وراء الظاهر الذي غرّ وألبَسَ الأمر ساعة وقوعه فأضاعه، وبقي على إبهامه وغموضه كلّما تناوله أحدٌ في تاريخ يُذكر وسيرة تنظر، بل حتى في بحث يستقصي ودراسة تحقق وتَستجلي... فآبق في ما أتيت له وجئت تقصده، ولا تسمح لنفسك أن تضيع حيث لا يضيع شيء. إنها هنا حال «علم» ورحاب «عصمة»، فلا تخرمها بخطأ من جهل أو غفلة أو سهو، ولا تحرج عنها بإثم وأنت تظلم «الأشياء» حين لا تراها على حقائقها، فتبخسها حقها.

لعمري إن للأحداث صوراً مثالية تتكون من المجموع المركب لهيئاتها وأرواحها، لتكون أنفساً، وهي تعاني من غربتها وتشويه حقيقتها والجهل بقَدْرِها! إن لها أرواحاً وحياة وصورة، لها وجودها التام المتكامل، ولها شخصيتها وكيانها الأعتباري بعد الحقيقي، وهي لا تسمح أن تضيع هنا من جديد كما ضاعت ساعة خلقها ووقوعها وخفيت على شهودها، ثم خفيت بعد ذلك على أهل عالمها الأول...

إنها تريد أن تثبت نفسها وتحتل موقعها، فلا يشطط عنها فكر ولا يزيغ بصر، ولا تطيش سهام العقول عن إصابة حقائقها وإدراكها. فتراها تبادر إلى إلفات الفكر وتنبيهه، بل زجره وتعنيفه، وتتمثّل له بأبهى صورة تَسَعُها، وتمثل أمامه بهيبة، وتعبّر بوضوح وتنطق ببلاغة، وتفرض وجودها وتملأ الحيز والموقع الذي لها في عالم الحقائق، بعد أن تُبْطِل الأوهام وتفنّد الأكاذيب وتنبذ التزييفات وتزيح الجهالات التي حُمَلتها دهراً، وترسخت في أذهاننا فصرنا نعرفها بها.

ها هي تخبرني وتعلمني بأنّ الأمر في هذه المسارب والمهارب لم يكن من غفلة العدو وضعفه وتراخيه ولا من قصده ونيّته، ليست سياسة مقصودة منه ولا تخطيطاً وتدبيراً... إنما هي إرادة تكوينية من «المولى»، إنها حرص منه أن لا يبقى في «الركب» ممن لحق به إلّا مَنْ أُذن له وقُدِّر، إنها من صميم حركته وأكبر همومه، ولطيف إدارته وأسرار إرادته.

لم تكن عملية الأجتباء منفصلة عن الأبتلاء والأمتحان، ولا آلية الأصطفاء متوقفة ومعطّلة عن التمحيص والأختبار، لقد أراد «المولى» أن يستخلص أصحابه وينتقيهم ويجتبيهم بعد أن يبتليهم ويمحّصهم، وأراد لهذا أن يستمر ويمضي فلا ينقطع حتى اللحظة الأخيرة...

مشرعاً أبواب الرحمة لدخول الطالبين الراغبين، عبر نداءاته المتكررة بطلب النصرة، وإعماله الإعجاز في إبلاغ صوته إلى كل قادر متمكّن، ومخلياً سبل «الخلاص» ودروب «السلامة» و«النجاة» لخروج التعساء المنكفئين، حتى إنه وَفّر لهم الغطاء العرفي الأجتماعي، والأخلاقي الشرعي، عبر إسقاط التعهد ومستلزمات البيعة وكل ما إلى ذلك، مما لم يُبْقِ في «الركب» إلّا العارف المُمَحَّص والعاشق المُنْتَجَب والسعيد المستخلَص.

إن تلك «المسارب والمهارب» كانت في حقيقتها دروباً فتحها «المولى» لمصداقية كلمته التي سيلقيها في الليلة الموعودة:

"من أراد أن يتخذ هذا الليل جملاً"...

هكذا تجسمت لي «المسارب والمهارب»، ومثلت ونطقت بلغة أبلغتني وأفهمتني حقيقتها، وهي تجلي عنا ريناً طال على أذهاننا وقلوبنا، وتزيح عن كاهلها أثقالاً وتحرر نفسها من أغلال قراءات المحللين، وتستريح قليلاً من صفاقة نتائج (بعض) دراسات «الباحثين»!

آه، كم تعاني المفاهيم والأحداث والأفكار من الغربة والوحشة، جرّاء الجهل بها وإفراغها من حقائقها وتحميلها ما ليس فيها؟

كم تقاسي وتعاني وتشكو وتتألم وقد بان لي أن لها ماهياتها ووجوداتها المستقلة، إن لها أنفُساً وكيانات، إنها تشعر بجور الناطقين الكذابين بأسمها، وتتألم من تزييفات المغرضين، وتعاني من تحريفات المتآمرين، كما تشكو تدخلات المتطفّلين وإفسادات الجاهلين وتشويهات الطامعين.

إن كل شيء هنا، مادياً كان أو معنوياً، شخصاً كان أو فكرة أو حدثاً، لا فرق... له صورة ووجود وموقع من عالم الحقيقة، وتبعاً لذلك، تجده يعاني ويشكو من إغفالها وتجاهلها وتشويهها في عالمنا.

يا للهول، يا لحجم الظلامات والشكايات التي سنلقاها إذا أنتقلنا وجئنا إلى هذا العالم، عالم الحقائق والصور الواقعية للأشياء... لا أدري لم دفعني هذا للفكرة في غربة القرآن الكريم بيننا وشكواه في غَدِهِ منّا، أن ضيعناه في عمقه وتجاهلناه في أصل رسالته وأكتفينا بظاهره عن لبابه، أغفلنا تأويل آياته وإرجاع ظواهر ألفاظه إلى أصولها، ومعاني كلماته إلى حقائقها، وقد كشفها لنا «الراسخون في العلم»، وبثها بيننا وبذلها لنا «الذي خوطب به».

ما إن عرض لي هذا الخاطر حتى أخذت الصور تتداعى أمامي وتتلاحق مستعرضة نفسها وكاشفة عن حقائقها... :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، الأئمة هم النحل، و«علي» أميرهم... ﴿يَخْرُجُ﴾ من علومهم ﴿شَرَابٌ﴾ تتشرّب به قلوب المؤمنين ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ في شتى الفروع والحقول ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ من داء الجهل والألتباس. و﴿ٱلْجِبَالِ﴾ شيعتهم، فهم الأوتاد الذين تحفظ الأرض بهم، المرتفعة درجاتهم عند ربهم عن غيرهم من الأنام، و﴿ٱلشَّجَرِ﴾ النساء، يسقون من ماء الفحول فتتفرع أغصانهم عن النسل والذرية...

لقد أوحى الله لـ «أهل بيت الوحي» أن يأووا إلى شيعتهم يعلّمونهم ويؤدون إليهم ويُودِعوهم كنوز أسرارهم، بلا خشية منهم ولا تقية.

ثم أرتسمت أمامي رقعة خضراء كتب فيها بخط مذهّب ونقش رائق مليح، كأنه جرى على يد أخبر الناس بحل الأصباغ وإنزال الذهب... قَدُمَتْ أو شعّت من خزائن الحضرة الغروية، فيها:

اللهم صلِّ على الفئة الهاشمية، والمشكاة الباهرة النبوية، والدوحة المباركة الأحمدية، والشجرة الميمونة الرضية، تنبع بالنبوة، وتتفرع بالرسالة، وتثمر بالإمامة

وتتغذّى ينابيع الحكمة، وتسقى من مصفى العسل والماء العذب الغدق الذي فيه حياة القلوب ونور الأبصار، الموحى إليه بأكل الثمرات واتخاذ البيوت من الجبال والشجر ومما يعرشون، السالك سبل ربه التي من رام غيرها ضل، ومن سلك سواها هلك.

وتتالت بعد ذلك الصوَر من حقائق الآيات والسُّوَر، وصارت تتجلى وكأنها تتنافس وتتبارى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ أميرالمؤمنين، ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الأئمة، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ أعداؤهم، فهم مكنون كل رذيلة وحقيقة كل منكر وباطن كل قبيح ومثال كل سوء وجوهر كل شر.

وهكذا: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أمير المؤمنين، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ الأول، ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ الثاني، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ الثالث.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، شينبويه وجبتر يعذبان في جوف تابوت في «برهوت»، ينا‌ديان «أميرالمؤمنين» أن ردنا إلى الدنيا نقر بفضلك وولايتك، فتأتيهما الآية جواباً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، الوالدان «محمد» و«علي»، هما أبَوا هذه الأمة، ذاك اصطفي للنبوة وهذا اجتبي للإمامة، ذاك صاحب التنزيل وهذا صاحب التأويل.

ما كنت لأخرج عن هذا وأنتهي، وأمضي لأكمل دربي وأواصل مسيرتي، إلّا بصرف فكري عن الآيات القرآنية وعما يتجسد من حقائق المفاهيم والأفكار والأحداث، ويشكو ظلامته وتجاهله في الدنيا...

كان لا بد أن أُشغل نفسي بأي شيء آخر، ولكن هل يمكن الخلاص من عِبء عالم الحقائق والخروج من أثقاله وقد أنفتح وأنكشف؟ هيهات، كنت كلما نظرت إلى شيء أو مررت به، أنبجس من مكانه وتجسّم ومثل بقالب غيْر الأول، وظهر ونطق بحقيقته!... فصرت أتعمّد السرعة والإعراض وقطع الصور وبترها بإجهاض، فالجولة بهذه الأحمال وهذه الكيفية من الأثقال تورث رهقاً ونصباً لا طاقة لي به. صرت أراها عقبة، وكنت أرجو أجتيازها سريعاً بأي نجو ووسيلة... إنه أمر غاية في التعب والنصب، يدعو إلى الخبل والجنون، ويورث الأنهيار والهلاك لي ولأمثالي! أن تتلاحق وتتوالى على الحضور في نفسك حقائق بهذا الحجم، وتقف وجهاً لوجه مع كل هذه الصور النقية الخالصة، الصرف القراح، اللامتناهية؟!

عدت لأُسلّط نظري إلى «كربلاء» وأصب همي عليها...

ينفصل «محط الركب» عن النهر وجداوله المتشعبة، بعد مَيْسَرة الميدان، بنطاق عريض بعض الشيء بما يناهز الميل من بساتين النخيل، التي شكّلت سواداً تخللته كتائب من الفرسان، وأنتشر فيه رجّالةٌ مدججون بالسلاح، لا يعرف عددهم، وقد تخندق بعض وتمترس آخرون، وعلا الرماةُ النخيل وكمنوا هناك، يحرسون الماء أن يرِدَهُ وارد من «الركب»، أو أن يطمو ويفيض فيَصِل واحداً منهم! وتجد أن شريط النخيل هذا يكبر ويأخذ في العرض كلّما أنحدر جنوباً، وأنه يتكثّف ليظلل بسواده أجزاءً من معسكر «الأمويين»، وينتشر شتاته بين خيامهم، حتى إنهم أوتدوا وشدّوا الأطناب في جذوع النخل... خلافاً لحاله في الشمال، إذ كان يضيق وينحسر مبتعداً عن مضارب «الركب الحسيني»، اللهم إلّا نخيلات معدودات توزعت هنا وهناك.

أما «المخيّم» نفسه، فقد ضربت أخبيته ونصبت خيامه وفساطيطه ـ رغم تقاربها في التوزيع ـ على أرض رحبة، شكّلت حمىً لا يتناسب مع حجم «الركب» وقليل عدده، ولا مع قدراته على المنع والرد! فهل كان «المولى» ينتظر لحوق وأنضمام المزيد؟ أم أنه بصدد إبعاد أهله وعياله ما آستطاع؟ أم هو شأن العلية والأشراف، تتسع دورهم ويمتد حماهم على أية حال؟

وقد أقيم «المخيّم» على أرض جرداء إلّا من شتات أثل هنا وهناك ونخيلات متفرقات، وكثبان صغيرة اتخذت سواتر. وخلف الكثبان وبعدها من جهة الشمال والشمال الغربي، بل حتى في الشرق، على يمين المخيم من جهة «المشرعة»، نبشت حفر تعيق تقدم الرجالة والفرسان، صنعت خندقاً يحمي ظهر «المخيّم». وفي وسطه بُنيت أخبية شكّلت سوراً أُريد له أن يقسم المخيم ويفصل كل جانب عن الآخر دون أن يعزله ويجعلها مخيمين اثنين. فصار «أهل البيت» في اليمين و«الأصحاب» إلى يسارهم، واستقر «المولى» في القلب، يتوسط القسمين، يستقطب قلوباً تخفق وأفئدة تهوي.

وهناك تلّة عالية بعض الشيء، تصلح مَرْصداً أو موضع استطلاع، وهي أشبه بمطّلع يشرف من يرتقيه على الساحة ـ الميدان، فيُشخّص المقاتلين ويتعرّف أخبار المعركة ويقف على أحوالها ونتائجها.

ولكن الواقع الذي تمثل لي بعد ذلك، أظهر أن «التل» كان بمنزلة مستشرف أو منصة و«عرفة» تنبسط تحتها «منى» «كربلاء» وصحراؤها، وقف عليها ثلة من الأنبياء ورؤساء الملائكة والأولياء، يشاهدون المعركة ويرقبون سيرها، يسجلون ويشهدون، يصنّفون كل حركة وفقاً لدورها وتأثيرها، ويتعرّفون على كُلٍّ «بسيماه»... وقد كانوا ـ عليهم صلوات ربهم ـ رغم حظر دخولهم ميدان القتال وعدم تدخّلهم في سير المعركة والنزال، شعثاً غبراً، فهل كان ذلك من عج الخيل ومثار الغبار، أم أنهم تعمدوا تلطيخ وجوههم وثيابهم حتى يواسوا «الركب» في هيئتهم؟

كان يضربهم شحوب وتعلوهم صفرة ويلفهم وجوم وإطراق، بُهْتٌ صمٌّ قد أذهلهم الحدث وأطار أعينهم، وأشخصهم بلا حراك! كانوا يحيطون ويحفون بـ «أم الأحزان» وشقيقة «القربان»، وقد شبكت عشرها على رأسها وهي تنادي من بينهم أملها المفقود، وعقد جمانها المنضود، فلا يجيب، وتنظر تجاه الحشد النبوي والملائكي فلا ترى أحداً، أو لعلّها كانت تراهم، ولكنها لا ترى منهم فعلاً وغوثاً فيعود ناظرها بمزيد حسرة من الآلام وتراكم الأحزان، يميد بها شجوها، فتقلّب كفيها وتصفق.

ولك أن تعرف عظمة الحدث وجلالته وفظاعة الخطب من خَفْتِ أَلَقِ هٰذا الحضور النبوي والملائكي المعظّم، وتراجع موقعه في صورة الحدث من حيث البروز إلىٰ الهامش، وكأنه ـ بجلالة قدره وعظمة شأنه ـ أمام «المولىٰ» وحركته، كمصباح أُسرج في رابعة النهار، بل شمعة في عين الشمس!

أما الأنبياء فلم يظهر لي أنهم يتطلّعون لموقع وحضور يُعرف فيه قدرهم ويظهر فضلهم، وقد اْحْتَضَرَتْهُم الهموم وجاشت بهم الغُصص، وبدا لي ـ لوهلة ـ أن بعضهم كان يحدّث نفسه، ولٰكن الواقع أنهم كانوا يتأمّلون ويتذكّرون، فيقرنون الساعة بالماضي الذي ربطهم وجاء بهم إلىٰ هٰذه العرصة أول مرة، فيحدثون مَن حولهم بما جرىٰ لهم...

هٰذا «آدم» أبوالبشر يستعيد ذكريات هبوطه إلىٰ الدنيا، ومروره هنا. وكيف أنه اْفتقد «حواء» وأضاعها ولم يعد يَراها، فصار يطوف الأرض في طلبها، فبلغ موضعاً اْعتَلَّ فيه واْغتَم ولم يجد لذلك سبباً، حتىٰ إنه عثَرَ وسقط وسال الدم من رجله، فجعل يناجي ربه ويسائله عن سبب ذلك وسره: هل صدر عنه ذنب آخر يستحق المؤاخذة والعتاب؟

فأوحىٰ إليه ربه أنّ السرّ في هٰذه الأرض، إنها أرض مصرع «القربان» علىٰ يد ألعن الخلق، والجرح الذي أصابه كان لشرف موافقة الشهيد وكرامة مواساة أصحابه، ففاز «آدم» بالكرامة وحظي بالسعادة، بمجرد هٰذه المشاركة والموافقة والمواساة.

وهٰذا «نوح» يحدّث إخوانه عن بلوغه هٰذه البقعة المعظّمة...

وكيف أن الأرض أخذت سفينته ففزع وخاف الغرق، فهبط «جبريل» يخبره بسِرّ هٰذه العرصة، وأنها مذبح «القربان»، فلعن «نوح» قاتله أربعاً فسارت السفينة حتىٰ بلغت مرساها واْستقرت علىٰ «الجودي».

وهٰذا «إبراهيم» خليل الرحمٰن يستحضر ذكرىٰ مروره، وكيف عثَرت به فرسه فسقط وشُجّ رأسه وسال دمه لما مَرّ هنا... وأنه خاف ووَجِل وصار يناجي، وأخذ يتضرّع أن لا يكون قد صدر منه ما أوجب غضب ربه أو كان منه ما أسخطه عليه؟

فأتاه الوحي ونزل «جبريل» يخبره أن لا ذنب صدر منه، ولكن يقتل هنا سبط خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء، فسال دمك موافقة لدمه.

وهذا «موسى» الكليم يخبر الجمع أنه كان ذات يوم يسير ومعه وصيّه «يوشع بن نون» عليهما السلام، فلما بلغ هذه الأرض انخرق نعله وانقطع شراكه، ودخل الحسك في رجليه وسال دمه...

فقال: إلهي، أي شيء حدث مني؟

فأوحى الله تعالى إليه:

أن هنا يقتل «الحسين» ويسفك دمه، فسال دمك موافقة لدمه.

فقال: يا رب ومَن يكون «الحسين»؟

فقيل له: سبط «محمد» المصطفى، وابن «علي» المرتضى.

قال: ومَن يكون قاتله؟

فقيل له: هو لعين السمك في البحار، والوحوش في القفار، والطيور في الهواء. فرفع «موسى» يديه ولعنه ودعا عليه، وأمّن «يوشع» على دعائه ومضيا لشأنهما.

وهذا «عيسى» المسيح يخبر أنه كان سائحاً في البراري ومعه الحواريون، فمرّوا ببقعة رأوا فيها أسداً كاشراً من غير زئير وصوت، يأخذ عليهم الطريق، فتقدم «عيسى» للأسد وسأله:

لم جلست في هذا الطريق ولا تدعنا نمر؟ فنطق الأسد بلسان فصيح:

لن أدع لكم الطريق حتى تلعنوا قاتل «الحسين»!

فقال: ومَن يكون «الحسين»؟

قال: سبط «محمد» النبي الأمي، وابن «علي» الولي.

قال: ومَن قاتله؟

قال: لعين الوحوش والذئاب والسباع، في أيام «عاشوراء».

فرفع «المسيح» يديه ولعن «يزيد» ودعا عليه، وأمّن الحواريون، فتنحّى الأسد جانباً، فمضوا لشأنهم. وصار بعد ذلك يتعاهد تلك البقعة بالزيارة ويجلس فيها للبكاء وإقامة المأتم، وتعريف حوارييه بـ «القربان».

ولست أدري... لمَ كان كلٌّ من الأنبياء العظام يسرد للآخرين قصته مع هذه البقعة ويسهب في ذلك؟ يصر على ذكرها وحكايتها بتفاصيلها، وكأن هذا «القول» له موضوعيته، بعيداً عن مسألة توصيل المعلومة وإبلاغ المستمعين بها وإخبارهم عنها. والأغرب من ذلك عندي أن البقية كانوا ينصتون بحرص وعناية، أو بصبر مَن ينتظر دوره ليسرد هو قصته، لست أدري! ترىٰ هل كانوا يتشاغلون، أم يتفاخرون ويتباهون ويزهون؟ أم أن العجب من تكرر نفس الواقعة بحيثياتها مع كل منهم، كان يستحث الآخر ويدفعه ليدلي دلوه ويروي قصته؟... لقد كانت قصصاً مكررة وحوادث متشابهة، حتىٰ في بعض تفاصيلها، فلماذا طال المقام في تناولها وتداولها؟ لماذا تكرار السرد وإعادة القول!؟ أتراهم كانوا يَرْثون ويندبون ويعمدون إلىٰ ما يرقق القلب ويهيج الدمعة علىٰ المظلوم، ويثير الغضب وينزل اللعن علىٰ الظالم؟ هل كانوا ينظرون إلىٰ تلك القصص ويتعاملون معها وكأنها ذِكْرٌ وَوِرْد؟ نعم، هذا ما انكشف لي وبان... إنها إذاً سيرة قديمة موروثة هذه التي تجري في مجالسنا اليوم، ويستنكرها بعض السذّج ويشكون!

وقد استوقفني في أداء الأنبياء شيء آخر...

لعمري، كيف ينتقل الأنبياء في سلوكهم إلىٰ التحليل الغيبي قبل أي شيء؟ لا يسألون عن وعورة الأرض ولا يبحثون عن حفرة جنحت بها ساق الفرس أو حجر أعاق الدابة أو أي عنصر حسي مادي سبب لهم السقطة والعثرة والجرح والنزف... بل يبادرون إلىٰ ما يحذرون: ألذنب اقترفته؟ هل حل غضب وسخط إلهي تجلىٰ في هذه العقوبة؟

«إسماعيل» أيضاً مرَّ بـ «كربلاء»...

كانت له أغنام ترعىٰ بشط الفرات، فأخبره الراعي أنها لا تشرب الماء من هذه المشرعة، وقد مضت عليها أيام وهي عطشىٰ، وهي رغم ذلك العطش الشديد تحجم عن الشرب! فسأل «الذبيح» ربه عن السر والسبب.

فنزل عليه «جبرئيل» وقال:

يا «إسماعيل» سل غنمك فإنها تجيبك وتخبرك!

فسألها «إسماعيل»، فنطقت بلسان فصيح: بلغنا أن ولدك «الحسين»، سبط «محمد» يقتل هنا عطشاناً، فنحن لا نشرب حزناً عليه! يقتله لعين أهل السماوات والأرضين والخلائق أجمعين.

فقال «إسماعيل»: اللهم ألعن قاتل «الحسين».

وهكذا «سليمان»، كان يحلّق ببساطه يوماً منطلقاً تحمله الريح في الفضاء يتفقد مملكته العريضة، إذ دار البساط ثلاثاً وكأن الريح قد سَكَنَت من تحته، حتى هوى وهبط على الأرض...

فخاطب «سليمان» الريح وسألها: لم سَكَنْتِ؟

فقالت: هنا يقتل «الحسين». فقال: ومَن يكون «الحسين»؟

قالت: سبط «محمد» المختار، وابن «علي» الكرار. قال: ومَن قاتله؟

قالت: هو لعين أهل السماوات والأرضين.

فرفع «سليمان» يده ولعن «يزيد» ودعا عليه، وأمّن على دعائه الإنس والجن، فهبت الريح وسار البساط وأقلع من جديد.

و«النبي الأعظم» لحقهم وزار «كربلاء»... خرج ذات ليلة من دار «أم سلمة»، فغاب عنها طويلاً، فلما رجع، جاء أشعث أغبر، ويده مضمومة.

فسألته: يا «رسول الله»، ما لي أراك شعثاً مغبراً؟

فقال: أُسري بي إلى موضع من «العراق» يقال له «كربلاء»، فرأيت فيه مصرع «الحسين» ابني وجماعة من ولدي وأهل بيتي، فأتيت تربتهم ولم أزل ألقط دماءهم، فها هي في يدي... وبسطها.

وقال: كأني أنظر إلى كلب أبقع يلغ في دماء أهل بيتي...

«يزيد» لا بارك الله في «يزيد» الطعان اللعان، والله الذي نفسي بيده لا يقتل حبيبي «الحسين» بين ظهراني قوم لا يمنعونه، إلا خالف الله بين صدورهم وقلوبهم، وسلّط عليهم شرارهم، وعمّهم بعقاب.

ومر بها «علي» مرة ومعه «الأصبغ بن نباتة»، فقال: ها هنا مناخ ركابهم وموضع رحالهم، وها هنا مهراق دمائهم، فتية من «آل محمد» يقتلون بهذه العرصة، تبكي عليهم السماء والأرض.

وأُخرىٰ في منصرفه من «صفين» ومعه «آبن عباس»، لما نزل بـ «نينوىٰ»، وهي شط «الفرات» قال بأعلىٰ صوته:

يا «آبن عباس»، أتعرف هٰذا الموضع؟ قال: ما أعرفه يا «أمير المؤمنين».

فصار ـ عليه صلوات ربه ـ يبكي بكاءً عالياً طويلاً حتىٰ أخضلّت لحيته وسالت دموعه علىٰ صدره وهو يقول: أوّه أوّه... ما لي ولآل «أبي سفيان»؟ ما لي ولآل «حرب»؟ حزب الشيطان وأولياء الكفر، صبراً «أبا عبدالله».

ثم أخذ يحدث «آبن عباس» ويجول معه:

هنا رأيت رجالاً نزلوا من السماء معهم أعلام بيض، تقلّدوا سيوفهم وهي بيض تلمع، خطّوا حول هٰذه الأرض خطة، فصارت هٰذه النخيل تنحني وتضرب بأغصانها الأرض تضطرب بدم عبيط، وكأني بـ «الحسين» قد غرق فيه يستغيث فلا يغاث، والرجال البيض ينادونه: صبراً «آل الرسول»، هٰذه الجنة يا «أبا عبدالله» إليك مشتاقة، ثم يعزونني ويقولون: يا «أبا الحسن» أبشر فقد أقر الله به عينيك يوم القيامة.

ثم قال ـ عليه السلام ـ لـ «آبن عباس» : آطلب لي حولها بعر الظباء، فوالله ما كذبت ولا كذّبت، وهي مصفرة لونها لون الزعفران.

فطلبها «آبن عباس» فوجدها علىٰ الصفة التي وصفها له مجتمعة. فقام «علي» إليها فشمّها وقال: هي بعينها، أتعلم يا «آبن عباس» ما هٰذه الأبعار؟ هٰذه شمّها «عيسىٰ بن مريم»، مر بها ومعه الحواريون، فوافتهم في هٰذه الأرض ظباء، فجلس «عيسىٰ» وصار يبكي، فبكىٰ الحواريون وهم لا يدرون لم جلس ولم بكىٰ؟ حتىٰ سألوه، فقال: هٰذه أرض يقتل فيها فرخ الرسول «أحمد»، وفرخ الحرة الطاهرة «البتول» شبيهة أمي، ويلحد فيها، طينته أطيب من المسك لأنها طينة الفرخ المستشهد، وهٰذه الظباء تكلّمني وتقول: إنها ترعى في هٰذه الأرض شوقاً إلىٰ تربة الفرخ المبارك. ثم ضرب بيده إلىٰ هٰذه الصيران فشمّها وقال: هٰذه بعر الظباء علىٰ هٰذا الطيب لمكان حشيشها، اللهم فأبقها حتىٰ يشمّها أبوه فتكون له عزاء وسلوة.

* * *

وممّا يلفت ويستوقف ويخطف الأنظار هنا، أضطراب حركة «النور»...

فبعد التركيز والشدة في الإشعاع، والسطع الباهر الذي بلغه «النور»، نور «المولى» الساطع من غرّته وجبينه الوضّاء المبارك... وما كان «النور» قد رُئي بهذا الحد من الوهج والسطع من قبل، على مدى تقلّبه في أسلافه وعلى مر توارثه بين آبائه كابراً عن كابر. بدت الهالة النورية تتوقّد من حول «المولى» وتظهر بتأجج وأضطرام، حتى صارت تسري وتنتشر، وتعم المضارب والخيام وكل هذه البقعة والعرصة!

كانت الأنوار ترشح وتفيض من وجود «المولى»، وتندس في التراب وتتغلغل في الأرض من مواطئ قدميه ومواضع خطاه، بل من مغرس حوافر فرسه، وتسري من مرتكز رمحه، وكل ما يتصل به ويمس بدنه أو ثوبه. كأن الأرض ألتقت شقيقاً جاء من عالمها وصنواً من سنخيتها، فهذه التربة ملكوتية أيضاً، وتعود في أصلها هي الأخرى إلى النور، فأنِسَتْ بـ «المولى» أي أنس وتناغمت معه أي تناغم (تماماً كما أوحشت بخروجه هضبات «يثرب» والمقام الأرفع)...

ضرب الأرض بكفيه كمَن يتيمّم، فأودعها أو أستثار نوراً توغل فيها وأنتشر، وصار يتصاعد من غبار الضربة، ويسري في حسك السعدان ويرقى في النبت والشجر والنخل الباسق... فصار كل شيء منوراً. سَطَعٌ وبَهَرٌ وتلألؤ وإشعاع وضياء وإبراق، ما زال يرخي الأستار على أشخاص النساء وحول أخبيتهن! فلا يرى شخص من حقيقة، ولا يميز الناظر وجهاً من قامة، ولا جالسة من قائمة، أو ذاهبة من قادمة.

وهنا أنوار أخرى تنبعث على شكل ذرات وقطرات تتصاعد، لا تلبث أن تصنع ضباباً أو سحباً من نور، ولكنه ضباب وأنوار تخترقها الأنظار وتشف عن الساحة ومنظر الحدث، فيمكن للناظر من هنا أن يتخللها ببصره وينفذ فيها ليشاهد ما يجري... دون الأنوار الأولى، فلا يخرق تلك ولا يهتكها ولا يزيحها شيء. ولكني أكتشفت بعد ذلك أنها تحجب أنظار البشر والجن، دون الملائكة وسكان الملكوت الأعلى.

يبدو أن الأمر يتسارع نحو اكتمال الصورة والتهيّؤ للحدث... فالأضطراب والقلق والأنقلاب والتغيّر ليس من «الأنوار» وفيها فحسب، هذه خيل تحمحم، وريح تدمدم، ورعد يعصف وبرق يجدع، وسباع تخرج من أخياسها تطوق الموقع من بعيد، وكواسر تحوم في أعالي الفضاء، وهذه الأرض تهتز، لا أدري هل تريد أن تخرج أثقالها وتقوم قيامتها؟ أم أن «الأنوار» التي دبت فيها ونزلت عليها هيجتها وأخرجتها عن همودها، فأهتزت وربَتْ وتفتحت، وأنبتت هذا الفرع النجيب: أصوات تعلو وتهليل وتكبير... لقد ترك «الحر بن يزيد الرياحي» معسكر «بني أمية» وألتحق بمعسكر «الحسين»!

أبهذه البساطة تنقلب الأمور وتنعكس؟

هل الأمر بهذا الحد من اليسر والسهولة؟!

بعد ذاك الدور الحاسم في مصير المعركة، وقد جعجع بالركب بعيداً عن «الفرات» وحال بين «العترة» والماء... يعفىٰ من كل شيء وتسقط عنه كل التبعات وتتهاوىٰ أرتال الظُّلْمة وتنجلي عن رأسه وكاهليه، ويلحق تائباً طاهراً بالنور، وينضم إلىٰ لائحة الشرف الأسمىٰ؟!

نعم، ﴿هذا عطاؤنا فأمْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغيْرِ حِسابٍ﴾... الأمر لهم، يَقْبَلون مَن يَقْبَلون ويجلون من لا يحبّون! الأمور طراً بأيديهم، لهم أن يهبوا لمن شاؤوا ولهم أن يمسكوا عمّن أرادوا، وكل شيء بقدر وحكمة، لا يشاؤون إلّا أن يشاء الله، ولا يريدون إلّا ما أراد الله.

لقد كانت «كلمة» واحدة جاء بها «الحر»: «حطة».

قالها وقدّمها بالعربية، لسان هذا الدين ولغة قرآنه، ورسالة هذه الأُمة وقطب رحاها، لا بعبرية قوم «موسىٰ»، أي أنه قال وقدّم «آل محمد» فهم «باب حِطة» هذه الأُمة...

بهذه «البساطة» و«السهولة» غُفر له وكُفّر عن سيئاته وأهتدىٰ بعد تيهه. ولست أدري كم يستغرق المجاز ويبلغ التسامح في وصف «الكلمة» والإتيان بها بـ «البساطة» و«السهولة»، وهي أعظم سهل ممتنع!

قال «حِطَّة»، كلمة واحدة، كلمة الخضوع للولي وباب التسليم لأمره، فكَفَتْهُ وأنجته... حتى أن ما تبع الكلمة ولحقها ولزمها كان عظيماً في العطاء والتضحية والثمن حتى بلغ بذل النفس، ولكن لا يمكننا أن ننسى ما سبقها، فقد كان أيضاً عظيماً ومن أكبر حُوب عند رب الحرمين، تهافت وتساقط وأمحي حتى كأنه لم يكن.

ما أعظمها من كلمة وباب... «حِطّة»!

❀ ❀ ❀

كنت قد شهدت في حياتي حروباً عدة، في إيران ولبنان، وفي بلدي، وعايشت معارك طاحنة شرسة، سمعت فيها أصوات المدافع وانفجارات القذائف، وامتلأت أذني من هدير أرتال الدبابات بعجلاتها الكثيرة، تزحف على شريط الحديد وتتقدّم بنطاق من الفولاذ الصلب تتأت فيه شفرات سميكة غليظة، تنتق أحجاز الأرض وتنقفها، وتقلع الأشجار والمرصوف من الشوارع وتخرّب المعبّد من الأرصفة والطرقات، وتدعس الوعر من الدروب: تطوّعها أو تسحقها وتدمّرها... وكأنها تُرْغِم كل شيء تمر عليه، تهينه وتُكْرِهُه.

سمعت أزيز الطائرات وهي تغير وتقصف، وشاهدت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان، وما تخلّف من ردم وركام وحطام... ورأيت قتلى شوّهتهم الشظايا مما بَتَرَتْ معها وأطارت، وأسعَفْتُ جرحىً مضرّجين بدمائهم، يئنون ويستغيثون حتى يفقدوا وعيهم، فيفيقون إلى التوجّع والأنين حتى يُغمى عليهم من جديد!

لست غريباً عن الحروب ولا غِراً على الأهوال، ولا حديث عهد بما ينخلع له الفؤاد ويجف منه الريق وترتجف له الأعضاء وتصطك منه الركب وتتزلزل له الأقدام. وبعد الحروب وغيرها، فإني رأيت هَوْل البحر وهَوْل الليل، وفجائع تذيب الحديد ويبيض لها رأس الوليد ...

ولكن كل هذا بدا شيئاً ضئيلاً حقيراً أمام ما انتابني من هَوْل المطّلع، حين شعرت أنني أقف على أبواب «عاشوراء»!

هنا تعرف ماذا يعني الرعب...

فمع الأضطراب والتغيير المتلاحق في المشهد، كما كان النور ينبعث من كل شيء ويتقاطر، فإن الرعب أصبح يتفجر من كل شيء ويحيط بكل شيء، ويخلع كل فؤاد ويزلزل كل قدم...

أنتابني فزع وأعتراني هَوْل وجزع، وخارت قواي وكدت أهوي!

رباه، إن في الخدور نساء وأطفال، وفي الركب صبيان وفتيان لم يبلغوا الحلم، وهذا الرعب يفتك بالحديد، فكأن السيوف تنثلم قبل أن تلتقي، والدروع تتصدع قبل أن تتلقى، والرماح تميل وتنثني قبل أن تطعن!

لولا هذه الرقة التي دخلتني، والحزن الذي غلّبني لما بقيت في مكاني، ولغلبني الرعب فزويت وأقصيت وحرمت الحضور...

لكني خرجت منه وكأنني تهيأت للموقف ولبست له إحرامه!

عندها جاءني هاتف: إنك لم ترَ بعدُ شيئاً!

❁ ❁ ❁

الفصل الثامن: إذن الدخول

لله مِـنْ سَعْـــدِي وقُـــوَّةِ طَـــالِعـي
لـــو كـــان لي في لَـثْـمِ تُـــرْبَـتِهِ إذْنُ

أينقضي هـذا الليل وينصرم أم يبقى جاثماً سرمداً؟
أيستطير ضياءٌ وينفلق صبح بعد هـذا البهيم الداجي، أم أبقى وما أنا فيه؟ إنني عالق هنا في منطقة غريبة، أو قُل حال غريبة...
من الواضح أنني أقحمت نفسي في ما لا طاقة لي به ولا قدرة، ولا عزم عليه ولا وسع، فضقت لـذلك ذَرْعاً وعجزت، وخارت قواي فنكصت وخنست... خضت عباباً وتطاولت غمرات ترسب أمهر السابحين فتغرقه، واقتَعَدْت ظهوراً جموحة تطيح بالأبطال فتسقطهم، وركبت شروداً شَمُوساً تمتنع عن الفرسان فتركسهم، وتسلّقت أكتافاً وتسنّمت مدارج يتزلق عنها أشد الناس وأشجعهم ويهوي أمضاهم وأثبتهم.
فهل أنا أدفع كلفة «النقلة ـ الجذبة» التي أخذتني دونها اجتراح منّي وسعي؟ فرُمْتُ أقاص لا تُدرك إلّا بعد سير وسلوك، وتكلّفت ذُرىً لا تُنال إلّا برياضة وجهاد، وكدْح وكـدٍ وجد... وقبل الرماء تملأ الكنائن وتُراش السهام، وقبل العراك تفتل السواعد وتبنى الأجسام، وأنا لم أمهّد لهـذا ولم أعِدّ، ولا هيأت لذاك ولا حشدت.

هب أني أحمل روحاً محبة موالية عاشقة، ونفساً مؤمنة مسلّمة خاضعة... فهل يغني هذا أن تتهذّب وتتقوّم وتزكو، فتُعدّ لهذه العوالم وتتهيأ؟ وتأخذ بأسباب الحياة في هذه السوح وتتسلّح؟

صحيح أن لـ «الجذبة» قانونها، ولكن ما يبدو لي الآن أن طي المنازل بلا كلفة ولا سعي أمر له ثمنه وآثاره وتبعاته. كما يبدو لي أن أمر المراحل والمدارج، أو المقامات والمنازل و«المدن» التي ينبغي أن يمر بها السالك ويقطعها العارف، يحط فيها وينزل فيتزوّد، ويدْرُجُ في مراقيها ويتدرّج... حق يفرض نفسه وواجب يخيم بظلاله حتى على مَن تنكّر له وأسقطه وتجاهله، وظن أنه كَسَرَه وتجاوزه واخترقه.

اللهم إلّا أن أخرج مما أنا فيه، وأعلم أن العلّة غيّر هذا!

نعم، ها قد بان لي وانكشف، أن العلّة في غيّر هذا!

فـ «الجذبة» لا تـؤتى اعتباطاً ولا تكون محاباة، وهي ـ إذا جاءت ـ تأتي متحصنة منيعة، عصية على مثل هذه العوارض والمعارضات.

نعم... إنها بقايا معصية اجترحتها في صباي وإثم اقترفته في شبابي!

حب عذري ما تجاوز نظرات نتبادلها في لقاءات عفوية عرَضيّة بريئة، لم تبلغ يوماً مجرد خلوة، ناهيك بلمسة حرام، بل إننا لم نتصارح بحبنا هذا مشافهة قط!... ولفرط الكبت والحرمان، لجأت إلى كتابة الرسائل، ضمّنتها ما شئت من أشعار، وما اكتفيت أن افتتحها، حتى ملأتها بالتشبيب! رسائل لم تُرسل، فإذا أرسلت بعضها لم أتلق رداً ولا رأيت استجابة، فأحمل ذلك على أنها لم تصل الحبيب ولم يقرأها ليجيب. وأظن أن جل ما لحق روحي من العطب كان مما لزم هذا الحب من فتون بالسماع والطرب.

تبت من ذلك كلّه واستغفرت، ولكنها لم تكن نصوحاً! لم أعد ولم أقصد العَوْد، وعزمت الترك والتزمته، ولكني لم أبلغ حقيقة الندم، كنت ما زلت أتلذذ من ذكراها. رغم أنني أستحي وأستغفر كلّما مرّت في خاطري، ولعلّ الخجل داراها حتى عن هواجسي، ولكني في قرارة نفسي أنتعش من استعادة عبارات الغزل وأفتخر بانتقاء الأشعار وأزهو بما كتبته لتلك الفتاة وتغزلت

به، وكنت أسعد من ذكريات لقاءاتنا القصيرة العابرة، وكيف كنت أختلق الأعذار وأفتعل أسباب تبادل الكلام، وأتعمد الصدام فالخصام، ثم الصلح بعد ذلك والوئام، ومن مجمل تلك الأيام وجميل أجواء الهوى والغرام.

لم أندم (في الحقيقة)، إذ ما زلت أحسبها «جميلة»، ولا أريد أن أخسر اللذة وأفقد الأنس الذي يعاودني من ذكراها. لم أرَ بعْدُ قُبْح ما فعلت، وما كنت أحسب أني تلوّثت وأتيت كبيرة، بإبقائي على هامش اللذة والنشوة في أعماق نفسي، وعدم مَسْحِه بالندم، مما يستبطن تَوَقاً للعود، وحنيناً يبعثه هاتف ويجتذبه نداء وشوق... والفتاة اليوم زوجة غيْري وأم غيْر أولادي! ما حدّثتني نفسي يوماً ولا حاسبتني، وأنا آنس من تلك الذكريات وأنتشي لها وأطرب: أترضى أن تقع بعض محارمك في ما وقعت فيه تلك الفتاة؟ ولو فعلت لوقفت على سوء الفعل وقبح العمل، ولرأيت صورته الملكوتية المؤلمة وانكشفت لي، فانزعجت وقذيت وتنفّرت، وتبرّأت وندمت، حتى تكون توبتي نصوحاً، وأسفاً حقيقياً على ما كان مني.

ترى أيكون سر هذا اللغب والرهق والنصب النازل بي الآن، بقايا هذا الإثم ورواسب هذا اللوث في نفسي؟ فالطور يستنفد كل الوسع والطاقة، ويفجر كل الذخائر ويستنهض كل مخزون، ويسبر أعمق أغوار النفس ودفائنها وأخفى أسرارها المستسرة... فلعلّه عثر هناك وكبا من هذه الحفرة، فنزل بي ما نزل، وصرت في هذا البؤس والفقر، وتحيط بي نزلة وتلزمني أزمة لا أدري كيف الخلاص منها أو الفرار من وطأتها، فالقرار؟

ولكن - ولله الحمد - فإن مجرّد التنبّه إلى هذا والخروج عن الغفلة، دون العمل وقبل مباشرة التطهير، أخذ بيدي صوب خلاصي، وأنهى شيئاً من محنتي، وأرشدني إلى صحيح وجهتي.

ما زلت مُجْهَداً مُنهَكاً مهدوداً، مخذول القوى، محلول العرى، أتأفف من كلال وأئن من تعب، عاجزاً مصدوماً، عالقاً متورّطاً، أخشى المضي في دربي أن يقتلني رَهَقاً مما أكابد، كما أخاف التراجع والانسحاب أن يجهز عليّ حسرة لما سأخسر وأفقد ويهلكني غماً مما سيَفُوتني ويضيع.

إن المَشاهد التي أرىٰ هنا، تنزل بي رهقاً وتورثني حمّىً تنخر عظامي وضَرَبان يُسكِتُ قلبي، بل هي فالج يشل أعضائي، ويلقيني أتلوىٰ كصَرِع جمع الذبحة والجُناب. كأن شيئاً يدفع في صدري ويصدّني، يأخذ بمخنقي ويقبض علىٰ لهاتي... والداء العياء والورطة والشراك، أنني لا أُطيق لهٰذه الصُوَر هَجْراً، كيف وقد ذقت نشوة مرآها فملَكَتني وأسرَتني، وما زال الشوق إلىٰ تاليها يبريني واللهف إلىٰ بقيّتها يأخذني ويلتزمني فلا يتركني.

إن الأحداث هنا لا تُشهد كما لو تحضر فيلماً سينمائياً في الدنيا، ولا حتىٰ كعرض مسرحي حي تواجه أبطاله، ولا تُدرَك كما تحكيها قصة وتصوّرها رواية، أو تصفها قصيدة وتعبر عنها قطعة نثرية، أو ترسمها لوحة وتجسّمها منحوتة... لا فن في الدنيا يمكن أن يصف ما يجري هنا، إن الأحداث هي التي تحضر في نفسك، فتثقلها وتنهكها وتهدّها، أو إنها ترققها وتشفّها.

كأني عمّرت آلاف السنين...

ولٰكن أتدري، إن مع كل هٰذه الآلام والأوجاع والرهق والضياع... لنشوة ولذة وأُنس وغبطة، ولعل أقرب التشبيه لها يكون في: الدلك والهمز الذي يدغدغ مفاصل المحموم الكَسِل، فيتأوّه لوجعه، ولٰكنه يطلب المزيد الذي يورثه الخَدَر والفتور والنعش، ولسان حاله:

أتظنُّ أني بالإساءة مُقلِعُ ؟

كيفَ الدّواء وقد أُصيبَ المَقْتَلُ !

أمِن بدء «الهداية» و«التوبة» هٰذا، ما أعقب يقظتي من غفلتي، فأدلىٰ لي بأهداب الأمل، وأرسل نسائم الرجاء وتباشير الفرج؟ أم هو طور جديد وعهد معهود من مسيرة ما زلت أجاهد أن أقطعها قبل أن تقطّعني؟

آه كم أنا منهك ومضنىً... أما من سمير هنا أبثه شكواي، أما من مغيث يسعفني بعون ومدد؟ من المؤكد أن هناك مَن سبقني إلىٰ مثل هٰذه الجولة، فناله ما نالني، وحلّ به ما يتكأدني ويبهضني، فماذا تراه صنع وكيف تداوىٰ؟

كنت أترنّح بين هٰذا وذاك وأجول هنا وهناك، أبحث وأنقّب، علّني أجد مرشداً أو معيناً... فاستوقفتني أضواء تراءت من بعيد، وآنست ناراً، قلت:

مضارب كرام، لعلّي أجد فيها مراغماً وألقى فيها خبراً أو آتي بشهاب قبس فأصطلي من برد الوحشة، وأدفأ من صقيع الكدر ورعاش الهموم.

إنني الآن رهن إيماءات قلبي، أمضي تبعاً لهَدْيِهِ، مستسلماً منقاداً، في «جبْرٍ» أدركت نفعه فـ«أردته»، و«قَهْرٍ» علمت ما فيه من خير فـ«ارتضيته»! إن بصيص النور الذي يحمله المرء في قلبه من حب «الحبيب»، هو الذي يُلحقه بـ«النور»، يُتبع «الصادر» بالمصدر ويُرجع «الفرع» إلى الأصل ويعيد «الفضلة» إلى المنبع... فالشعاع يتبع القنديل ويلحقه حيث يمضي؟

دنوت واقتربت... وإذا أنا بِسُرُرٍ مرفوعة وأرائك موضونة، وجلسة ملَكية وثيرة، تحفها الفخامة والتبجيل، ويلفها الترف والألق والنعيم، و«ثلة» وإن كانت وجوههم نضرة مستبشرة، إلا أنهم كانوا مثلي، أمالتهم النشوة وأتى عليهم الإعياء من الإدمان والثمل فصاروا يميدون!

متقابلين على مائدة تتوسطها دِنانٌ تشفّ عن معتّقةٍ قانية، تصب من تلقائها في قوارير فتملأ الأقداح كلّما فرغت، ثم تكف بلا سداد ولا صمام! متكئين على نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ورفرف خضر وعبقري حسان... ونثار الورد والزهر غمار، وعبق الند والعود أريج ودثار. كأني على معرفة بهؤلاء عمري كلّه، فالتحقت بجمعهم غيْر واغل ولا وارش، وجالستهم غيْر متكلّف ولا حرج، بل دونما استئذان واحتشام، وما شعرت بأني جاوزت حداً وأسأت أدباً وتعدّيت على مقام، ولا شعروا ... وما إن أخذت مجلسي واستويت حتى ناولوني، ورفعوا إلي أكؤساً دهاقاً مُطْفَحة، فرفعت كأسي، وشربوا على نخبي حتى الصبابة، فأمالت الأقداح رؤوسهم وقرعت الأواني جباههم، وأنا أكترع معهم، فنزل بي ما بهم، وصرت في الحال مثلهم!

هكذا اعتراني وَجْدٌ جديد، ودخلتني حال مستحدثة، واستصرخني هاتف سرعان ما تملّكني، وأخذ يدعوني وينزع بي إلى...

«الشكوى»

: عليك بالشكوى، اجعل نجواك شكوىً...

سلواك في شكواك يا مسكين!

نعم، إنه لأُنس خفي ولذة مجهولة أن تبث الشكوى... تخلطها بالنجوى وتمزجها بالملامة والعتب، وتقدّمها على طبق العجز والأعتراف، مشفوعة برجاء الفضل والخشية من العدل والإنصاف! تضم ذلك كلّه وتجمعه في باقة من تصابٍ وغزل، ما تستميل به الحبيب وتتقرب من الأمل.

ضربٌ من الأستسلام والإقرار بالعجز، ما يخلع عنك ثوب الكبرياء، وينضو خيوطاً لعلّها ما زالت عالقة على أعطافك من ذلك الرداء، تبعثك مختالاً دون أن تدري، فتعثُر وتسقط حيث لا منجىً ولات حين مناص.

رحت أشكو، وكأن «إقبال اللاهوري» أفرغ على لساني ونظم:

شكـواي أم نجـواي في هـذا الـدجـى
ونجـوم ليلي شُهَّـدي أم عـوَّدي؟
قيثـارتي مُلِئَتْ بـأنّـاتِ الجـوى
لا بــد للمكبــوتِ من فيـضــان

مضيت في الشكوى حتى:

بزغ الفجر وأمتد الشفق، ثم عاد وأستدار على نفسه، فتقعّر أسفله وضاق في قاعه، وأنفرج أعلاه وأتّسع في قمته... وصنع قدحاً. وقد أستجمعت الشمس أشعّتها ولمْلَمَتْ ما ينبعث منها، ثم هوت من برجها مُساحة مذابة، وأنسكبت في قدح الفجر سُلافاً سالَت من غيْر عصر... صَبوحاً يصل السمّار فيها ليلهم بنهارهم.

صرنا نتعاطى الشمس ونشربها حميًا! وأنا أرتشف منها حَبَبَ الكأس وأتمزمز بمرير المذاق...

فإذا أرتويت منها ما أكتفيت، حتى سألتها فأجابتني وألتمست فما خذلتني، فطوّحت بي ودارت برأسي حتى ناولتني الدواء وسقتني الترياق من يد الطبيب، وأخذتني لأدخل الحضرة وأرى وجه الحبيب.

* * *

في تلك الصبيحة: رأيت الخيزران بعد أن قفَّ وقبَّ وجَفْجَفَ وقَفِل، وصلُح لصنع الناي وترجمة الآهات حكايات وأشعاراً، والزفرات والأنات ألحاناً وأسفاراً... رأيت هشيم الخيزران قد أزهر، ورأيت الورد تفتّح على قفيل أعواد القصب!
نعم، ساحت الشمس وآنصهرت، وغدت صَبُوحاً في القَدَح... ونَضَرَ القَفْر، وعلى يابس عود الخيزران، أشرق زَهْرٌ وآنفتح.

* * *

قد أبصرتُ يقيناً وتراءى لي النور، وتلألأ الفجر مشرقاً وضّاءً، كما الأصداف في الماء الزلال، وجوهرة تتراقص فيها الأضواء وألوان قزح، فتختطف الأنظار عن الشموع والقناديل، وتبهت السرج والمصابيح.
أفقت عن طيف:
كأني رأيت الشمس في منامي تعلو رمحاً!
: الشمس تعلو رمحاً؟
نعم، هذا ما رأيت، واقعاً لا في الخيال!
والسحب تركض من وَجَلٍ وخوف، والنجوم من طيش وآضطراب.
كم مهول رؤية الشمس على رأس السنان، ترتل من آي القرآن ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾؟
قد ترى الماء يسيل من صماء صيخد عذباً أجاجاً، وترى النبت يبسق عنها، فتورق وتزهر وتثمر. وقد ترى أرضاً تتزلزل وبركاناً يتفجّر وإعصاراً يضرب ويهدر ونجماً يهوي وقمراً ينشق وشمساً ترجع.

وقد ينفلق البحر فترىٰ كل فرق كالطود العظيم، وقد تنقلب العصا حية تسعىٰ تلقف ما يأفكون. وترىٰ في الكهف رقوداً من سنين، تحسبهم أيقاظاً يتقلّبون، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، فتعجب حتىٰ تولي فراراً وتملأ رعباً...

ولٰكن عز أن ترىٰ الشمس علىٰ رأس السنان!

لن ترىٰ الشمس ترتل آيات القرآن!

* * *

أدرها أيها الساقي وابتدئ بي...

هلمّ، وتولّني بمزيد رعايتك، ودَعْ صحبي وقدّمني. حنانيك، أسقنيها شَمُولاً تعمّني بعصفها، وتُفْهني عن غيرها. أأخي قدّمني الساعة وأرفق بي... فالسبق علىٰ الموارد والعيون حق للظماء، والأولىٰ أن يُفْسَحَ للعُطاشىٰ ويُقدَّموا علىٰ سواهم. إن صحبي ليسوا في الغرام مثلي ولا هم علىٰ حالي، فلا تبالي... إن هٰؤلاء الندامىٰ يسعهم الصبر ويطيقون الانتظار.

* * *

لا تؤخذنّ بسماحة هٰذي الوجوه ونضارتها، ولا يغرّنك لطفها ورقتها، ولا تتوهمن من ملاحتها بطراً أو ترفاً... إنها وجوه عركتها السنون بمِحَنِها وصقلها الدهر بصروفه وعتّقتها الأيام بمصائبها.

هٰذه الوجوه السمحاء النضرة التي ترىٰ، طالما تحمّلت خذلان الأقربين وتعنيف المحبين وجفوة الأوطان وجَوْر الأهلين. وطالما قاست من ظِنَّة الشكاكين وسهام المتصيِّدين المتربصين وكيد الحاسدين، ولسع سياط الشامتين والمستهزئين.

وجوهٌ طالما اكتوت بفساد العلماء المتهتكين وعانت من الجهلة المتنسكين، وابتليت بالعوام المتفقهين والفقهاء من وعاظ السلاطين!

لقد قُتل هؤلاء الأخلّاء السُجَراء مئات المرات بطعنات غدر المجاملين المتملّقين، وأُخذوا بخِسّة الوصوليين المتسلّقين، وتجرّعوا المرارة حتى الثمالة من كاسات ذل القاعدين وجزع الخروعين وجُبْن الرعاديد المرعوبين.

لقد ضجروا مما تحمّلوا وسئموا مما كابدوا...

إنما الرقة التي ترى هي من فيض أرواح سَمَتْ وأَنْفُس عَظُمَتْ، فصبغت الوجوه بأنوارها، ومسحت عليها من طبعها، فأزهرت ولَطُفَتْ وشفّت ورقّت.

رقة تحكي النُبْل لا الترف، ولطف يعود إلى الشرف لا السرف. إنها ملاحة الزهد وصباحة التقى وجمال العفّة وزهرة الطهر وشفافية النجابة...

إنهم يا صاح من «الأوّلين» و«السابقين السابقين»...

إنهم السائحون العابدون، الراكعون الساجدون، الماشون على الأرض هوناً، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر... هؤلاء هم العارفون العاشقون، الأخلّاء المتحابّون، الخُلصاء المتآخون، "ثلة من الأولين وقليل من الآخرين".

وإن تراهم يميدون من نشعة، ويترنّحون من سُكْر، فحالهم غيْر ما ترى، كما هي وجوههم غيْر ما تنظر:

ورحنا وفي أفعالنا صحوة الحِجى
وإن كان في ألبابنا نَشْوَةُ السكْرِ

* * *

كيف لجريح مثخن أن لا يقيم على السهر؟
مَن لي بسامر أصل معه ليلي بالسحر؟
سيطول هـٰذا الحديث ولن يأتي إلّا على نزر مما أُعاني!
فإذا بزغ الفجر ولاح النور، وأنا لم أفرغ من بث شكوىً تؤرقني، وبوح أنّاتِ جوىً تعتصر أضلاعي، ولم أنشر قصة حبي... دهمني الظلام!
جثمت الظلمة وأطبقت...

* * *

طوبى للعُمي بعد الشُّل والكُسح، وسعداً للأضراء بعد الصُّم والصلُخ، والبشرى للمكافيف بعد البُهم والخُرْس والبُكم!... ها قد جثمت الظُّلمة وأطبقت، فلتقر عيون العُمي وتهنأ!
أوَتقر عيون كفّت وذهب ماؤها فبصرها؟
إنها لا تعمى الأبصار ولا تكفّ العيون، ولٰكن تعمى القلوب التي في الصدور، فتذهب العقول وتغشى البصائر وتكف الأفهام وتموت الألباب.
طوبى للعُمي، فهم والبصراء في ظلمة هـٰذا «المنزل»، وفي دهماء هـٰذه «المدينة» وبهمتها... سواء! وأنت أيها الساقي، هنيئاً لك كَلَلُ الشاربين من أهل الديار وملل السكارى من سكّان هـٰذا الحي، فقد أعفوْك من رهق مجاراتهم وأراحوك من نصَب متابعة طلباتهم...
ولست أدري... أدلالٌ ذاك منهم أم مَلال؟ أم تجنٍّ على الطريقة، وضلال وانحلال؟
أما أنا، فماض في شرابي، لا أُطيق صبراً ولا أُحسن تجمّلاً، ولا أُريد نجاة ولا أنشد سلامة!

* * *

أريد أن أفنى وأتلاشى وأندك في مَن أهوى فلا يبقى منّي شيء! أريد أن أموت وأحيا، أدفن وأُنشر، أُذرى وأُبعث، فلا تبقى مني حتى «السويداء»!

إيه يا صاح، أسقني...

فلا طِبٌ لهذا الداء العياء المدنف ولا شفاء من هذا المـرض المخـامـر المضني، ولا شيء يـدمل هذي الجـراحـات القـديمـة الغـائـرة، ويبرئ هذي الكلـوم ويرأق نزفها... إلّا هذه الحميّا.

أسقني، فأنا جزوع أنفصمت عُرى أحتـمالي ووَهَى جأشي، ونضب معين صبري ونفد، وَبِتُّ في أضيق من سَمِّ الخياط وآزف من بياض الميم.

أسقني فقد تداعت حصون مناعتي وتهدّمت أركان عصمتي... فأنا في غربة موحشة.

أنا غريب في هذي الديار، رغم الصحب والأقران، والندامى والخلّان... إنني في غربة!

* * *

أهلكني الصبر وأمضّني...

إن لي والصبر أحقاداً وضغائن، وتِرَاتٍ وثارات!

مـا زالت حـرقـة «آدم» وحسـراته عـلى فـراق الجنـان تستعر في حنايا صدري وتكوي أضلاعي.

مـا زلت أنـزف من ضربـة «قـابيل»، وأحتمل وزره، وأتحمّل كلفة تبعة فعلته.

مـا زلت أنظـر إليه مع المظلـوم «هـابيل»... وأتجرع الغُصص بحسرة يكتنفها إشفاق، وغضب يقودني إلى إطراق، فخوف وتشاؤم يغالب أملاً ورجاء، من عاقبة أخ، ومصير نَسْلٍ وذرية عظيمة ستنحدر منه.

كنت هناك، أكابد وأعاني...

عشت كل الآلام، وتلقيت الجراحات، وتجرّعت المحن والويلات وقاسيت البلاءات...

كنت شقيق «يوسف» في الجب، يعلّمني النجوى والشكوى، وأسرار الصبر، وكيف يكون الأبتلاء والأجتباء، ويلقّني أدب الرضا والتسليم وثقافة الأنتظار والفرج... عسى أن يدلي مُدْل دَلْوَه.

وشقيق «يحيى» في «نهر الأردن»، يهدي ويبشّر، يعمّد ويطهّر، حتى حُمِل رأسه إلى بغي من بغايا «بني إسرائيل»، وأنا أحوم فوق منديل يجلل الطبق، وحين أُزيح وطرح لتتشفى العاهر من مرأى الرأس القطيع، هويت مع الغطاء وطرحت جانباً، مُهْمَلاً تدوسني الأقدام، ويسحقني العجز ويُمرّغني الألم.

كنت مع «النيل» أحمل «التابوت» برفق وأناة، أرجو هبوبه أن لا تعصف وتخرق، وأتوسل إليها أن تكون نسائم رخاء، فلا يغدف هذا العظيم ولا يجيش، وأن ترقرق أمواجه فتسوق التابوت يتهادى إلى مستشرف «فرعون» ليلتقطه.

و«النيل» ماض كما أشاء، لا أدري أكان يسبقني بإرادته، وما الأمر بيننا إلا توافق والتقاء؟ أم كان يطاوعني ولاء؟ لا يصر أن ألقمه «عروساً» من أجمل قيان «مصر» قرباناً يسكن غضبه، فلا حاجة، إذ هو مثلي «مُوَال» يتقطع حباً ويجيش عشقاً...!

وكنت مع «موسى» أمجُّ المراضع وألفظها، وأدوّي بالصياح حتى يضج القصر، فلا يسكن إلا عن مرضعة تقر عينها ولا تحزن.

وقد لازمته وصاحبته بعد التابوت والقصر، في الثورة والنصر... وهائماً يبحث في «سيناء»، يتحرّى الخطاب، ويتمنى الرؤية، ونظرة إلى الأحباب.

وعلى «الجُلجُلة» لَقّنتُ الصمت عن الشكوى وتعلّمت كتمان الألم! هناك كنت أقرع الناقوس وأُنذر مع «عيسى»، أحمل الصليب، وأذود عنه ما أمكنني من العصي والحجارة والسياط، وأُشاطره ما يتحمل عن البشرية من آلام وأوجاع وتبعات خطايا وآثام.

إنه عهد وميثاق أمضيته منذ اليتم مع «محمد» في «بني سعد»، إذ زهدت فيه المرضعات... يخرج بغنم «حليمة»، وقد سرت «النسمة المباركة» حيثما حل «القرشي اليتيم»، فأعشوشب المرعى في مضاربهم بعد جدب ومحول، وأسمنت الأغنام بعد هزال ورعام، ودرّت الألبان بعد شحص ومكود.

إنه عهد العشق المعمّد بالدم، وميثاق الحب المؤكّد بالروح، وقَسَم بعزم وحسم، أمضيته مع «الأب» و«الجد» من المهد، لأُوفيه لـ «السبط» مع «المهدي».

كنت مع السحابة أسبح وأزهو، ومع الأطيار أرفرف وأرنو... أظلل له عن الشمس وأقيه من حرّها.

وعلى باب «ثور»... كنت أتدلى وأهتمش مع العناكب في الليل الحالك، أحوك ستراً وأنسج واقية تواريه في الغار وتصرف عنه الأنظار.

في «أُحد» شققت جيبي وأعولت إعوال الثكلى، حتى رأيت «اليعسوب» يذود عنه ويقيه بنفسه، فقرّت نفسي وسكن روعي وعلمت أن نداء الموت الذي دوّى في الميدان لم يكن إلّا حرباً نفسية أو امتحاناً.

كم يهون أن ترى الحدث ماضياً وتقرأه تاريخاً، فتقلّب
صفحة أو أثنتين، لتتجاوز الكدر وتتخطى الحزن...
ولكني عشته وأنفعلت به وأندككت فيه، فأنتقلَتْ إليّ
الآلام وسَرَتِ المعاناة، تهد أركاني وتذوي كياني.

في «الكوفة» كنت أنتظر لألتقط، فأسمع من البئر
رَجْعَ آهاتٍ تلَجْلَجَتْ في الحلق من «شجىً» أليم،
وأستشعر نداوة عبرات أسالها «قذىً» مقيم... فكأني
حملت شيئاً فخفّفت عن «مولاي»! إذ لم يَضِعِ الصدى
في فضاء البئر، ولم تختلط النداوة بمائه، يمتص الجدار
هذا ويخفي القاع ذاك فيضيع عن البشرية، فلا تعرفه
بعد الرشا والدلو والجدران، إلّا الجن والغيلان!

لقد حضرت أنتفاضة الجياع المظلومين وثورة الفقراء
الـمُعْدَمين، ورأيت صَوْلَتهم على «قارون» عصره،
حين قام نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه
بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع!

كما شهدت غضبة الطاغوت وسطوة بطانته المستأثرة،
تنكّل بصحابة «رسول الله»: تكسر أضلاع هذا،
وتفتق بطن ذاك، وتطرد وتهجّر...

هكذا طويت صحراء الـمنفى مع «أبي ذر»، وكَوَتْ
قدمي حصاه اللاهبة، تدوسها وتقلّبتها مع أبنته حتى
«الربذة»، ومعنا جميعاً كل ما تبقّى في ذلك العهد من
عز ومضاء، وشرف وكرامة وإباء...

والناس تواسيه وتقول: يا «أبا ذر» أبشر فهذا قليل في الله تعالى. وهو لا يعبأ بشيء مما نزل به، ويمضي يبشّر أو يُنذر، ويقتنص المقام ليبث أخطر رسالة حملها ويبلغ أعظم خطاب عرفه، يغمض ويداري فيه جانب «القربان» ويركز على البلاء والأمتحان!.

"ما أيسر هذا، ولكن كيف أنتم إذا قتل «الحسين بن علي» قتلاً أو ذبحاً، والله لا يكون في الإسلام أعظم قتيلاً منه، وإن الله سيسل سيفه على هذه الأمة لا يغمده أبداً، حتى يبعث قائماً من ذريته فينتقم من الناس.

وإنكم لو تعلمون ما يدخل على أهل البحار، وسكان الجبال في الغياض والآكام، وأهل السماء من قتله، لبكيتم والله حتى تزهق أنفسكم!

وما من سماء تمر بها روح «الحسين» إلّا فزع له سبعون ألف ملك، يقومون قياماً ترعد مفاصلهم إلى يوم القيامة، وما من سحابة تمر وترعد وتبرق إلّا لعنت قاتله، وما من يوم إلّا وتُعْرَض روحه على جدّه «رسول الله» صلى الله عليه وآله فيلتقيان".

هذا بعض ما يسهدني ويملأ قلبي... ولكن هل لي أن أترك الدرب وأتخلى عن المسيرة؟

هيهات هيهات، ما كنت لأفعل ذلك، وما كان لي أن أفعله، إنه خياري «الجبري» وإرادتي «المفروضة»، مشيئة حرة أختارت الخضوع لهذا القدر وأرادت الأمتثال لهذا القضاء، وهو «قضاء وقدر»!

فأين الإرادة فيه وأين الخيار!؟

دع عنك هذا وأمض مع «عمار»...

مع «عمار» تلقيت ركل الغلمان وضربهم، مثلما رأيت الخضراء تبكي وتنعى، والغبراء تندب وتنتحب، وهي تنظر وتشهد كيف يفتقون بطن ولي "ما أقلت ولا أظلّت ذا لهجة أصدق منه ولا أبرّ"!

كالسحب كنت أهطل وأدمي، أبكي وأسبح، لأطوي الفيافي والقفار...

وكالبحار، كنت أتمدد لأحتضن الشواطئ، أضمّها وأغسلها، ثم أنحسر عن جرف خلا من كل الهموم الرابضة، وأعود بكل الآلام المستلقية هناك!

كما «الأشتر» ومعه كنت أجاهد وأُقاتل، تدفعني نيتي فتسوقني، ويسبقني عزمي فيقودني...

أبى السُكْرَ من زهرة الحياة الدنيا أو الأفتتان بحطامها، وأصر أن يخلع أثواب الغفوة وينضو أغلال الأسْرِ ويقطّع قيود الخوف، ويخف فلا يخلد ولا يثقله إلى الأرض شيء. ينطلق في الميادين يطلب الشهادة فلا يصيبها، ويخوض السوح يطارد الموت فلا يدركه... فيوقعه متعثراً، وينزله كخبط عشواء بكل مَن برز إليه ولقيه ووقف في دربه! يفرّقه في أعداء «مولاه» بِعَدْلٍ، وينشره في جموعهم، فلا يغادر نغلاً.

وكأنه أبى إلّا أن يشارك «خازن النيران» فعله بعد أسمه، فكان يحصد لجهنم ويملأ، فيتلقاهم «مالك» هناك ويزجّهم في دركاتها، وينادي: هل من مزيد!

* * *

كنت مع التمار «ميثم»، أشدو وأُناغي للعروج.

وعلى مقصلة الشهادة ألهج بمدح «مولاي»، أُغنّي، ولعرسي أترنّم...

وكان قد وقف يوماً على دار «أميرالمؤمنين»، فنادى بأعلى صوته: " والله لتخضبنّ لحيتك من رأسك " . فأنتبه «الأمير» وقال: أدخلوا «ميثماً»!

فلما دخل قال له: صدقت، وأنت والله لتُقطَعَنْ يداك ورجلاك ولسانك، ولتُقطَعَنّ النخلة التي بـ «الكناسة»، فتُشَقّ أربع قطع فتُصلّب أنت على رُبْع، و«حجر بن عدي» على رُبْع، و«محمد بن أكثم» على رُبْع، و«خالد بن مسعود» على رُبْع.

فكأن «ميثماً» توقف شيئاً، فقال: أوَكائن ذلك يا «أميرالمؤمنين»؟ فعلّمه وأخذ بيده وأنجاه من شكّه: " إي ورب الكعبة، كذا عهده إليّ «النبي» صلى الله عليه وآله " . فسأله: ولِمَ يُفعل ذلك بي يا «أميرالمؤمنين»؟

قال: ليأخذنّك العتل الزنيم، أبن الأمة الفاجرة «عبيدالله بن زياد».

وكان «أميرالمؤمنين» يخرج إلى الجبانة و«ميثم» معه، فيمر بـ «النخلة»، فيقول له: يا «ميثم»، إن لك ولها شأناً من الشأن!

فلما دخل «عبيدالله» «الكوفة» عندما وليها، تعلّق عَـلَـمُـهُ بـ «النخلة» التي بـ «الكُناسة» فتمزّق، فتَطَيَّر من ذلك، فأمر بقطعها. فأشتراها رجل من النجارين، فشقها أربع قطع. فأمر «ميثم» أبنه «صالحاً» أن يأخذ مسماراً من حديد، فينقش عليه أسمه، ويدقّه في بعض تلك الأجذاع.

ومضت الأيام حتى أتى قومٌ من أهل السوق، فقالوا: يا «ميثم» أنهض معنا إلى الأمير نشكو إليه عامل السوق، ونسأله أن يعزله ويولي علينا غيْره. وكان خطيب القوم «ميثم»، وقد أنصت له «عبيدالله» وأُعجب بمنطقه.

فقال له «عمرو بن حريث»: أصلح الله الأمير، تعرف هذا المتكلم؟

قال: مَن هو؟ قال: إنه «ميثم التمار» الكذاب، مولى الكذاب «علي بن أبي طالب»! فأستوى الخبيث جالساً وقال لـ «ميثم» رضوان الله عليه: ما تقول؟ قال: كذب أصلح الله الأمير، بل أنا الصادق مولى الصادق «علي بن أبي طالب» أميرالمؤمنين حقاً.

فقال له: لتبرَأنَّ من «علي» ولتذكُرَنَّ مساويه، وتتولى «عثمان» وتذكر محاسنه، أو لأقطعن يديك ورجليك ولأصلبنّك.

فبكى «ميثم». فقال له «عبيدالله»: بكيت من القول دون الفعل؟!

فقال: والله ما بكيت من القول ولا من الفعل، ولكن بكيت من شك كان دخلني يوم أخبرني سيدي ومولاي.

فسأله: وما قال لك؟ أجابه: قال لي: والله لتقطعن يداك ورجلاك ولسانك ولتصلبن، فقلت: ومن يفعل ذلك بي يا «أميرالمؤمنين»؟ قال: العتل الزنيم أبن الأمة الفاجرة «عبيدالله بن زياد»!

فأمتلأ اللعين غيظاً، ثم قال: والله لأقطعن يديك ورجليك ولأدعن لسانك حتى أُكذّبك وأكذّب مولاك! فأمر به فقطعت يداه ورجلاه، ثم أُخرج فأمر به أن يصلب فصلب.

فأخذ «ميثم» ينادي بأعلى صوته: أيها الناس من يريد أن يسمع الحديث المكنون عن «علي بن أبي طالب» عليه السلام؟

فأجتمع الناس، وأقبل «ميثم» يحدّثهم بالعجائب.

وخرج «عمرو بن حريث» وهو يريد منزله فرأى تجمّع الناس حول «ميثم» وإنصاتهم لحديثه. فأنصرف مسرعاً إلى أميره وقال: أصلح الله الأمير، بادر فأبعث إلى هذا مَن يقطع لسانه، فإني لست آمن أن تتغيّر قلوب أهل «الكوفة» فيخرجوا عليك.

فألتفت إلى حَرَسي فوق رأسه فقال: أذهب فأقطع لسانه.

فأتاه الحَرَسي فقال له: يا «ميثم» أخرج لسانك فقد أمرني الأمير بقطعه.

قال «ميثم» ، ألا زعم أبن الأمة الفاجرة أنه يكذّبني ويكذّب «مولاي»؟! هاك لساني. فقطع لسانه، فتشحّط ساعة في دمه، ثم مات.

قال «صالح» (أبنه): فمضيت بعد ذلك بأيام فإذا هو قد صلب على الربع الذي دققت فيه المسمار.

* * *

ماذا تقول يا هذا وماذا تزعم؟

أين أنت عما أنا فيه؟ آه لو تدرك شيئاً أو تعلم...

إنها غصص مرارة «صبر الله» في حلقي ما ساغت منذ كانت، وشجىً حرقة وحسرةٍ ما جازت وما زالت منذ عَرَفتني وعرفتها.

ما زال رَشْحُ سَمْ «جعدة»، ولوعةٌ تقطّع كبد «السبط المجتبىٰ» تلهب أحشائي وتمزّق أمعائي، وتضرب وجهي بصفرة وتصبغ محياي بذبول... فيسألني من يراني عن علّتي ومرضي؟!

إنني مثخن بالجراح، مثقل بالمحن، مهدود الأركان، مضعضع الأعضاء، مُدْمىٰ القلب، مفطور الكبد، مشلول الجوارح، منهوك القوىٰ...

إنني مرابط في «كربلاء» مذ خُلِقَتْ، فدخلت باء العقد من الكرب في باء البلاء... كَرُبَتِ الأرض وأنعقدت البقعة على البلاء، فلا أنفصام ولا فكاك. ظهرت الرزايا وبانت أم توارت فكأنها ليست هناك!

إنني مقيم فيها مذ أناخ الركب، وَقَفْتُ عليه وعليها، مستوطن مجاور هاتيك الديار، هائم على وجهي أقبّل ذا الجدار وذا الجدار.

أشم الثرى وأطوف في الأكناف...

إنها مذبح «القربان».

إنها أرض من الجنان... تدعوها للعَوْد وتطلبها حثيثاً، بل تتحرق شوقاً إليها وتتقطّع حسرة عليها، وهي تأبى أن تعود إلى مقامها، وترفض وتمتنع أن تلحق بأصلها، إلّا أن تطوي هذا الطور العصيب، ويقتل صاحب الأرض ومالك النهر الغريب، ويتلقّى صعيدها دماء الحبيب.

* * *

في صبيحة اليوم الذي ساحت الشمس وأنصهرت، وغدت صَبُوحاً في القَدَح...

نَضَرَ القَفْر، وعلى يابس عود الخيزران القب، أشرق زَهَرٌ وأنفتح.

* * *

رباه... كيف لتوجّعات متكتّمة وأنين، وتألّم مكبوت وحنين، كيف لصيحات خافتة ونداءات ضعيفة خفيضة لا تكاد تحس ولا تسمع... أن تعلو وتصعد وترتفع وتضج، فتنتشر في الفضاء وتملأ الآفاق، لتقرع الآذان وتصك سمع الإنس والجان؟!

كيف لقطرات زاكية من دماء الأطهار، شربتها الأرض
بقعاً صغيرة متراميـة، ثم عـادت بلقعـاً، أن تفـور
وتتفجر، حتىٰ تغمر أمواجُ الدماء السهولَ والوديان،
وتنذر بالعصف والطوفان!؟
تسيل السهول وتجري بالدماء، وتتلاطم الأمواج
وتتدفق في واد بعد واد، وتصبغ الحمرةُ الأرض
وتسري لتطال الأُفق وتطمو علىٰ السماء، وتضرب
الشفق بلونها القاني وتخلفه مُدْمىً ما بقيت أرض،
وأشرقت شمس ولاح فجر.*

❁ ❁ ❁

بالولاية تتم النعمة: بتصحيح البدايات تُنال الغايات، وبتأسيس القواعد تعلو السريات، ومَن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومَن يخطب الحسناء لم يغلها المهر، وإذا سئم الفتىٰ رقي المعالي...

سَمَتْ بي الآلام وأخذت بيدي المعاناة وقادني حبي وعشقي، فخلَعْتُ «نعل» الضياع والتيه من قدمي، ونزعت ثوباً يرفل بالشهوات والأهواء، بل الآثام عن بدني، وفرغت من غُسل أذهب الأرجاس عني، فأزاح كل درن وعيب وسوء، وأبقى الحزن... عجباً أن أبقىٰ علىٰ الهموم والأحزان فما زالت ولا انصرَفَت!

لم أطل الوقفة عند هذا العجب، ولم أُسرف في الفكرة فيه والسؤال عنه، إذ شغلني الشوق ودفعتني الرغبة وأذهلني تحفزي، فلم يسمح بمراجعة ووقفة تستوفي جواباً عن هذا، وتخرج بتفسير حتىٰ ينقضي هذا العجب:

كيف أقام الحزن ـ دون سواه ـ ولم يبرح؟...

فمضيت لأقدّم عريضة الشكوىٰ، مشفوعة بما تيسر لي من نجوىٰ، ورفعت التماساً كلّه اعتذار ودعاء، وأمل ورجاء.

---

* اقتباس من مقطوعة بالفارسية للشاعر الإيراني المعاصر: علي معلم دامغاني، (منشورة في موقع للشعر الفارسي علىٰ شبكة الإنترنت) لحنها وأنشدها حسام الدين سراج.

فكأن ما ٱنكسر من نفسي بالتسليم والخضوع والٱستكانة والخشوع، وما طَهُرَ من روحي بالحب والولاية والعشق والإنابة... شفع لي، وكأن التوسل والتشفّع قوبل بالقبول، فخرج الإذن بعد الٱبتهال والضراعة بالسماح وعدم الممانعة، وصدر الأمر بعد التهوّد والأوْبة بالرضا والموافقة...

فلبست إحرامي بميقات، ودنوت من «الحرم» ملبياً بآهات وزفرات... وكنت كلّما قربت من «البيت» وشرفت من بلوغه والوصول إليه، تحوّلت التلبية عبرات، صار يعقبها أنين وصرخات!

هٰكذا بدأت أطل على «كربلاء»...

إنني أطل الآن على هٰذه العرصة الملكوتية، وأشهد مزيجاً متضاداً من نور وتربة، هٰذه حلّت في تلك، وتلك ٱرتفعت إلى هٰذه، وٱختلط الأمر وتمازج، حتى تهدأ النفس وتستقر من بعد إذن الدخول، وتخرج من فُجَاْةِ المنظر الأول والصعود بعد النزول... فتبدأ الصور تنفرز والمناظر تتتابع وتنفصل.

وأحل في «كربلاء»...

* * *

الفصل التاسع: النقاء والارتقاء

وَمِنَ العَجائِبِ أنْ تَرُومَ لِمِثْلِهِ
طُهْراً، وَكَيْفَ يُطَهَّرُ الأطْهارُ

رغم اللهف إلى قراءة الغيب وكشف المجهول، ورغبة مستحكمة - في كل نفس - أن تعرف ما ينتظرها في آتي الأيام وتتطلّع إلى ما ستؤول إليه في مستقبلها، مما يجعل حُمّى التنبؤ فاشية على الدوام، وسوق العرّافين رائجة بآستمرار، لا تكسد من فاشل يواري تواكله، وكسول يداري عجزه، ولا تخلو من نهوم شغوف يُلحِق الأسباب الطبيعية بالغيبية، ويُحْكِم خططه في العمل وحركته في الحياة، وكل شؤونه، بما يجمع ويوفّق بين هذا وذاك، ولن تُعْدَم فضولياً يحدوه حب الأستطلاع، وعابثاً يلهو ويمرح.

رغم هذا وذاك، فإنني لم أكن أستوحي كهانة ولا أطلب طالعاً...

وحتى أصدق القول ولا أُجانب الدقة في الزعم والحكم: لم أكن في هذا الوارد وأنا متوجّه إلى قصدي، ولا حكَمني هذا الهاجس وأنا ميمم شطره. كنت أجمع مادة لكتاب أعدّه، وأبحث عن أمور آلتبَسَتْ عليّ، وأستجلي عوالم غريبة وطرقاً مبهمة غامضة، شدّني إليها الشوق من كثير ما أسمع، وغلّبني الفضول للتحقيق في ما يبلغني عنها، وآلتحقّق مما ينقل إليّ منها.

بعد سلسلة من العناوين الصحيحة والأُخرى الخاطئة، وعدد غير قليل من الأدِلّاء المتاجرين والأُجراء الأستغلاليين المضللين، وآخرين من المشفقين والخدومين الطيّبين، وأيام من الجهد والعناء والمشقة...

مشقة خففت منها قليلاً، ورهق بدّده بعض الشيء، إقامتي السياحية الرائعة في «البيوت العائمة» الراسية على ضفاف بحيرة «نكين» الجميلة... حيث تطوف عليك القوارب، تكسر سكون الصباح لتفيقك من غفوة أخذتك بعد تعقيبات الفجر، بلطف ورقة، على ضرب مجاديفها الصغيرة صفحة الماء الثمل (فالآلات والمكائن محظورة هنا)، تأتيك بباقات الزهر النضر، تتخللها بواسق الأُقحوان بنورها الأبيض المنظوم حول براعمها، كأنه ثغور الجواري الحواري، تقبّلك كلّما دنوت لتشمّها...

تحمل إليك إفطاراً شهياً تفوح منه وتسبق أنتقاله إلى قاربك رائحة الخبز الطازج المستخرج تواً من الفرن، وهو فرن يوقد ويسجر من الخشب بلا شك (لا من غاز ولا نفط ولا شيء من مشتقاته)، وهذا ما أميزه من رائحة نضج العجين وأدخنة الفطائر الساخنة، بل هو ـ على التحديد ـ من خشب الصنوبر، المبذول بوفرة في هذه الغابات، تحتطبه صبايا «كشمير» من كسير الأغصان المتساقطة في موسم الشتاء الذي أثقلها بالثلوج...

أهتديت إليه أخيراً وألتقيته هناك، في أطراف قرية صغيرة، لا ينال من سكونها ورتابة الحركة فيها إلّا الغرباء من زوارها. لا تبعد كثيراً عن الطريق العام، تتوسط المسافة بين «سيرينگر» و«گلمرگ»، على سفوح سلسلة «الهملايا» الشاهقة الشامخة، تطاول السماء، على تخوم «الصين»...

وأنا أمتنع الآن عن تحديد الشخص بعينه، وأتجنب سرد تفاصيل اللقاء نزولاً عند طلبه وأحتراماً لرغبته. والحق أنها رغبة لم يلح عليها كثيراً، وقد أبداها في حياء وعرضها برجاء بعيد عن صيغة الأمر ولحن الشرط، ثم أعقبها بكلمات أشعرتني أن في «الحظر» حرص عليّ أكثر من الحرص على شيء آخر، فـ "لا مصلحة في إفشاء هذه الأمور، وإن حكّمت ضرورة، فلا مقتض لتحديد الأشخاص وتعيين الأسماء، أليس كذلك؟" ... هكذا قال.

ورغم أني فهمت من ذلك تحفّظاً محدوداً، بل رخصة ولكن مشروطة، تسمح لي (في أقل تقدير) بالنقل في ظروف وبقيود معينة، إلا أنني ألتزم الامتناع طوعاً وإن لم أتعهد له ولا تقيّدت بشيء، ذلك أداءً لأمانة المجالس وحفظاً لحرمة المحاورات الخاصة، وتقديراً وإجلالاً لشخصه الكريم، ثم امتناناً للفضل واليد التي أصبحت له عليّ... وسأكتفي هنا بالرمز إلى اسمه بـ «آغائي خان»، لمناسبة أذرها هي الأخرى في «سنبلها»!

ولا يظنَنّ ظان أن هذا الكتمان مما يسهل عليّ ويهون.

كلا، فهو من أشد ما أعاني وأصعب ما أطيق وأكابد، ولو خُلّيتُ ورغبتي، لألّفت في هذا الرجل كتاباً مستقلاً، وشيّدت بأسمه مدرسة ومعهداً، وأذعت أمره ونشرت أخبار عظمته وقدراته للقاصي والداني. لا لأني مذيع مُفَش، ليس من شأني الكتمان ولا من ديدني حفظ الأسرار، بل لأن الأمر يبلغ مراحل ومناطق حرجة، يصعب (على أمثالي) تحمّلها، وكأنك تريد مَن يسعفك ويعينك عليها، أو أن حلاوة ما ذقت ورأيت، وجمال ما بلغت وعرفت، لا يكتمل إلا أن يشاركك الخلق كلّهم، فيعرفونه ويرونه، ويعجبوا به ويبهروا... فإذا فعلوا، قلت لهم: هل ترون هذا العظيم، بعلمه وورعه وزهده، وبكراماته وفيوضاته، لقد قبلني طالباً وأفادني متعلّماً، بل قال لي إنه يتشرّف بمعرفتي وصحبتي، وقد حمّلني بعض علومه ولقّنني بعض فنونه وأطلعني على بعض أسراره!

إذاً، فالأمر يعود إليّ، ويرجع إلى ذات لم تروّض كما يجب؟!

نعم، هذا شأن من لم يؤدب نفسه ويهذّبها... يبقى أسير «الأنا» والذات، تبقى هي محور حركته ومنطلق فهمه للأمور وتقييمه للحوادث. والويل له إذا تركّبت في نفسه الجهالة، فاختلق العناوين، وجعل لهذا الضعف والعجز وجهاً إلهياً وعنواناً أخلاقياً ينزّهه ويزكّيه!

آخر الأدِلّاء إلى دار «آغائي خان» كان تلميذه المقرب، أو خادمه الخاص، كما أحبّ أو أصرّ أن يُعَرِّف نفسه... لست أدري أتواضعاً منه، أم زهواً واعتداداً، أم كلاهما؟

لم تُرخِني قسمات وجهه، فهجست وأوجست بعض الشيء من شكله وهيئته... كانت أظافره طويلة لم تُقلّم منذ أسبوعين (في أقل تقدير لمن في عمره) وبعض القذارة تتجمع تحتها، أرخى شاربه حتى تقوّست شعراته داخل فمه، بعد أن حجبت شفته العليا، وقد ضربتها شقرة وغلبتها صفرة، لعلّها مِن إدمان التدخين، وإلّا فهي بقايا خضاب وحنّاء!

كان نحيفاً ضامراً ناحلاً، ربعة إلى الطول، مقعد الأنف، كث اللحية، أشعر الرقبة، غليظ الحاجبين. وكان صغير العينين، شديد سوادهما، ذو نظرة حادة متفحّصة ثاقبة، توحي بالترصد والمتابعة والملاحقة، بل بالشغف والحرص والفضول، مما يضعف جانب الزهد والترفّع واللامبالاة الذي يحكم هؤلاء ـ عادة ـ لفرط انشاغلهم عن عالمنا ودنيانا، وانصرافهم عنّا.

فيه شيء من غلظة وجلافة، يداريها بخل وحرص أن لا تفوته منفعة، وقسوة ولؤم، تخفيها لباقة مصطنعة فرضها دوره وعمله، كأن لافتة نصبت فوق رأسه تدعوك للتعوّذ من الحسد وشر الحسود... وقد خرجت بانطباعي هذا رغم ما تلقّاني به من بِشرٍ وتبسّم، وتملّق وتزلّف، بل بصبصة!

وكنت أراهن على فِراستي وأطمئن إليها، وكانت تترك أثرها في نفسي، ارتياحاً يجتذب واطمئناناً يؤنس، أو وخزاً ينفّر وضيقاً يدفع ويُبعِد، وتوتراً وحَسَكاً يبعث الريبة ويورث الاشمئزاز، أراه يصدّني إذا أرَدْت مخالفتها والبناء على غير قرارها، سواء تجاه مَن ألقى من الأشخاص وأواجه من الأحداث، أو من أماكن أدخلها وأمر بها!... في العموم، ما وجدت في هذا الخادم أو الصاحب، خيراً أو شيئاً مما انتظرته وتوقعته وافترضته في أجواء «آغائي خان» وما سَبَقَتْه من سمعة وتقدّمه من صيت.

ولكني لما التقيت الرجل بعد ذلك وتعرّفت عليه، علمت أنه فوق أن يخضع لقاعدة "المرء يُعْرَف بقرينه"، وأن هناك من هو «أمّة» في رجل، وليس بالضرورة أن يتمثّل المرء في صاحبه، ويتطابقا، ولا حتى أن يتقاربا في السجايا والأخلاق والخصال... فلربما اقتضت الظروف وفرضت الصحبة نفسها على طرف أو على الطرفين.

وقد تأكّد لي فيما بعد ما صدّق ظني وصحّح حدسي وأمضى فِراستي، واتّضح أن بين الرجلين بُعْد المشرقين، وأن هذه الصحبة لم تكن لانسجام في الميول والتقاء في الأهواء، ولا لائتلاف في الأرواح أو تقارب في الأخلاق، ولا لتناغم في الأمزجة والأذواق.

كان بيته أشبه بمغارة أو كهف في ظهر القرية، يشرف على سفح قليل الميل بطيء الانحدار... تجويف اخترق تكتلاً حجرياً مهيباً في الجبل، عميق بعض الشيء، يشاع أنه ينتهي إلى مسرب ضيق مخيف يقود إلى جوف الجبل وعمقه العميق، حيث "تكتنز الجن والغيلان كنوزها"! ورغم أن «الشيخ» أعلن مراراً أنه سبيل مشرع أمام كل راغب مستطلع، فإن أحداً لم يجرؤ على الدخول. والقصص كثيرة حول محاولات استكشاف هذا النفق ونهايته، منها قصة مجموعة من الشباب غامروا فدخلوا، ثم لم يلبثوا ساعة أن عادوا وقد اصفرّت وجوههم وابيضت شعورهم (حتى رموشهم وحواجبهم!) وجحظت عيونهم واحدَوْدَبَت ظهورهم واقشعرّت جلودهم وانعقدت ألسنتهم، وخرسوا وبكموا فما عرف أحد ما لاقوا وشاهدوا!

وقد بنى عليه عريشة، واتّخذ له باباً، وأضاف سقيفة، واستصلح بقعة إلى جواره زرع فيها حاجته من حبوب وخضار، ومهّد أخرى لربيضة مَعِزِه وأغنامه، وألْحَقَ إلى هذه وتلك حجرة رحبة واسعة يستقبل بها زواره ويقري أضيافه، ويتذاكر بها مع بعض طلابه ومريديه.

لاحظت أن بقاءه في خارج داره أكثر من سكنه ولبثه فيها، فقد سبقتني إليه في المضيف جماعة كانت تنتظر عودته... فهو بعد الظهيرة على الربوة القريبة، يرصد انعكاس أشعة الشمس على صخورها، واللون الغريب الذي تخلّفه عليها، يستلهم من ذلك ويستوحي. وفي الصباح يطلب لأغنامه المرعى، ولنفسه فسحة يروّح بها عن ليل أضناه من ذكر وتهجد وقيام. وفي فترات الرعي هذه، كان ينصرف إلى خلوات تطول من التفكير والتأمل، ينتظر نفحات ويترقب إشراقات تنزل عليه في نقاء العزلة وصفاء الوحدة، وغياب مواطن الإثم وأسباب الحجب من مشاغل الدنيا وملاهيها.

كنت أجمع مادة لدراسة أُعدّها حول «التصوف الشيعي»، ولما بلغت في بحثي «العرفان العملي» (السلوكي) بعد العلمي (النظري)، سعيت أن ألتقي أحد أتباع هذه المدرسة الواقعيين الحقيقيين لا المدعين المنتحلين، وأجتهدت أن أزور هذا الرجل وأتعرّف إليه عن قرب، بعد ما بلغني عنه من خواص أهل الفن والحرفة، وعلماء متخصصين بعيدين عن خرص العوام ومبالغاتهم.

كان قد سبقني في مواعيد لقاءاته وترتيب الدخول عليه خمسة أشخاص، كنا ننتظره في غرفة الأستقبال، وهي خارج الكهف، تكاد تكون منفصلة عن داره... وعندما حضر، رفض أن يختلي به أحد فيفرغ له المكان، وأمر أن يعرض كلٌ حاجته أمام الآخرين، ولم أتبين الحكمة في ذلك، ولكني أظنه أستثقل أن يُخرج مَنْ دخل، مما ذكرني بعيادات الأطباء في بعض البلاد، حيث لا غضاضة أن يفحص الطبيب المريض أمام بقية المرضى، كأن المعاينة درس عملي في كلية الطب وبقية المرضى طلاب!

كنّا: فتىً وسيم لا يتجاوز الثامنة عشر، مُقْعَد على كرسي متحرك يدفعه خادم، ومعه كهل عليه علامات الترف والثراء الفاحش، وهكذا بعض الغطرسة والكبر، عرفت أنه ينحدر من سلالة «راجا» من كبار حكام ولايات «الهند» السابقين، كان يتعالى على المكان والأثاث وعلى بقية الحضور، حتى أنه بقي واقفاً وأبى أن يفترش الأرض أو أن يخلع حذاءه، يتمطمط كأنه طاووس، ولكنه بقدر ما كان متعالياً وضجراً من وجوده هنا وأحتكاكه بهذه «النماذج» و«النوعيات»، منزعجاً ومُرْهَقاً من الجهد الذي بذله للوصول إلى هذا المكان بعد أن أوقف سيارته في مدخل القرية حيث تنتهي الطريق المُعبَّدة، ولا سبيل بعدها إلّا للأقدام والدواب... رغم حالته هذه، فقد كان متأدباً في تعاطيه معنا، ملتزماً أن لا يسيء إلى أحد، حتى إن تحيته وسلامه والكلمات القليلة التي سُمِعَت منه كانت غاية في اللطف والدماثة، مما يكشف أصالة ونبلاً حقيقيين. والفتى أبنه، جاء يلتمس له العلاج من فالج أقعده وأخوَاه وأضرّعه، خَبْخَبَ بدنه ولَصَبَ جلده، أعضل الأطباء وغلبهم... فلجأ إلى «الشيخ» مستسلماً.

أنزل «الشيخ» الفتى من مقعده وجعله يستلقي على الأرض، وجلس إلى جواره متربعاً وقد أسند ساعديه إلى ركبتيه بحيث أبقى إبطيه مفتوحتين فشكّل بمجموع وضعه دائرة، فظهر على هيئة المتأملين في «الكونفوشوسية» أو المرتاضين بـ «اليوغا»، وراح في إغماضة طويلة بعض الشيء!

وعندما أفاق، أصدر قراره الصاعق:

لو كنتم سبقتم هذا القدَر بصدقة أو خير بذلتموه في وجه، لأندفع عنكم إلى أرَضَةٍ تضرب زرعكم أو سوسة تأتي على حصادكم، أو لحلّ في أرض لكم تبور، أو بئرٍ تنضب، أومتاع في داركم يضيع أو أثاث يخرب أو آنية تكسر، أو لأنصرفَ إلى حيوان ينفق أو مال يتلف. ولكن هذا البلاء قُدّر مرضاً يُشِل وفالجاً يُقْعِد، وقد حل ونزل، وكان ذلك في إنسان، فلا سبيل الآن لإخراجه إلّا أن ينتقل ليحل في آخر... ائتوني ببديل يقبل ذلك، وأنا أنقل الداء إليه، وسيقوم هذا الفتى مشافىً معافىً!

بعد أن صرفهم، ألتفت إلى البقية...

رجلان، عرضا عليه صورة شخص، حرصا ألّا يسترق أحد النظر إليها، سألا عن مكانه، وقد صاغا سؤالهما في البداية وكأنه مفقود أو تائه، ولكن سرعان ما تغيّر اللحن والقول. نصحهما «الشيخ» أن يعفوا عنه وينصرفا عن عزمهما... فلما أبيا، حدّد مكانه وأرشدهما إلى مخبئه. كانت الصورة لشخص فرّ بعد أن نال من قريبة لهما، فجاءا يسألان عنه ليقتصا منه وينتقما.

العجيب أنه عرف القصة دون أن يخبراه، رغم سعيهما للتمويه. كما عرف مكان الهارب وحدّده لهما بمجرد أن أغمض عينيه لثوان معدودة، بسرعة فائقة ودقة متناهية، حتى إنه بعد أن ذكر الحي والشارع والدار، نبّه إلى تشابه بين باب الدار التي يتوارى فيها الجاني وباب الجار الملاصق!

بل إنه أضاف لما خرج الرجلان: ما كانت الفتاة رافضة ما فعل بها الشاب، بل راغبة ومطاوعة. ثم قلّب يديه ومطّ شفتيه ورفع حاجبيه وأضاف: لم أرَ أغتصاباً وإكراهاً ولا إرغاماً ولا حيلة... لكنها صغيرة غُرّر بها، فلا يُعتد برضاها، ولو عفا أهلها وأصلحوا لكان خيراً لهم.

والأعجب ـ عندي ـ من هذا وذاك، وَقْعُ الخبر والطريقة التي تلقّى بها الرجلان الأمر، فبعد الثقة المطلقة بصحة إخباره، بدا الأمر لهما وكأنه عادي طبيعي، لا يشكل معجزاً ولا خارقاً، بل لم ألحظ أنهما آستغربا ولا دُهِشَا، رغم أنهما سعيا لإخفائه وحاولا التمويه عليه.

وعندما جاء دوري وحان وقتي، كانت الحجرة قد خلت إلّا من خادمه أو تلميذه الغث الغليظ! ولكن سرعان ما جاء الفرج، إذ ما لبث أن أشار إليه بالخروج لإصلاح شيء في مربض الغنم. أحتمل أنه قرأ في وجهي آنزعاجي (الشديد) من حضوره ورغبتي بأن يخرج فأخلو به وأنفرد، فتعمد أن يصرفه في ذلك الوجه، أو أنه بادر إلى ذلك بعد أن آستمع إلى سؤالي الأول، فوقف على أني طالب علم وناشد معرفة.

جاء ردّه على سؤالي قوياً جازماً، بل آنفعالياً وغضوباً بعض الشيء... نزّه نفسه عن التصوّف، وأكّد أنه متشرّع وملتزم بالفقه وأحكامه، وأسهب بعض الشيء في التفريق بين المدرستين، وتقديمه الشريعة على الطريقة.

وعندما واجهته بما بلغني عنه، من أنه أنهى لتوّه فصلاً من الصيام عن الكلام (أربعين يوماً لم تنبس فيها شفتاه بشيء، كما أفضى إليَّ الوسيط الذي دلّني والمرشد الذي رتّب الموعد!)، فكيف كان يصلّي ويتلو ويذكر ويأتي بالتكاليف التي تأمر بها الشريعة، وكيف كان يتعبّد ويدعو ويخاطب ربه؟

قطّب حاجبيه، وبان آنزعاجه جلياً من سؤالي الفج، وشعرت أنه سيقوم الساعة من مجلسه وينصرف عني!

ولكن ـ فجأة وعلى حين غرة ـ تغيّرت حاله، وكأنه رأى الساعة شيئاً أو بلغه في الحال أمر، أو حضر في ذهنه ما يدعوه للبقاء وآستمرار جلسة الحوار بيننا، فكأنه ألجم غضبه فآنبسطت أساريره... وآبتسم، ثم قال:

كنت أكفّر عن زلّة أزلقتني وعثرة أسقطتني، حديث ما كان ينبغي أن أخوض فيه، وسرٌّ ما كان لي أن أفشيه، فعزمت أن أكفّر عما فعلت بآلتزام الصمت وحرمان نفسي الكلام... وقد آستثنيت الصلاة من هذا الصيام، وهكذا الواجب كَرَدّ السلام.

: كيف يكون تكفيرك عن الآثام بالسكوت والصيام عن الكلام؟ أليس هذا مما تسرّب إليك من «البوذية» و«الهندوسية»؟ لماذا لم تعمد ـ كما يحث الدين وتأمر الشريعة ـ للآستغفار وتلاوة أذكار التوبة؟

: بلى، كنت أفعل.

: كيف وأنت صائم عن الكلام؟

: بـ «الذكر الخفي» أو «الباطني»...!

وكان قد آستعاد حلمه وأناته، وضبط آنفعاله بعد فجأة السؤال، وما أُخذ به وصدم من دهم المبادرة. مما أدخل الحوار بيننا في منحىً جديد ونقلَه إلى طور آخر، أخذ ـ من جانبي ـ شكل التلقّي والأخذ والتعلّم، بعد أن كان في دائرة المناظرة وهيئة المحاججة.

وراح يشرح لي كيف يكون «الذكْر»، ومن بعده «الذكْر الخفي»...:

للآشتغال بـ «الذكْر» يلزم مراعاة أمور عدّة، وأصولها ثلاثة:

الأول: أن يحبس المرء عند الذكْر نَفَسَه، ولذلك فوائد منها أنه مانع من التشتيت وباعث على تركيز الآنتباه. ومنها أنه ممد ومعين للقوة، ألا ترى حامل الأثقال والمصارع يحبس نَفَسَه قبل أن يشرع بفعله وينهض بعزمه؟ ومنها أن الرئة تدفأ بحبس النَفَس، فيَصِل دفؤها وتبلغ حرارتها القلب، فيكون ذلك مهيّجاً ومحركاً للحرارة الغريزية، وباعثاً على نضو التكاسل وترك الخمول، ويظهر الشوق والآلتذاذ في صاحب الذكْر. ومنها أنه يساعد على نضج البخار الحار في الرطوبات الدماغية الفاضلة وتصاعدها، ما يثمر الصوَر ويبعث الأفكار الحسنة الملائمة.

الثاني: التربيع في الضرب، وهو أن يتربّع بعد أن يُنْزِل رأسه حتى محاذاة السرّة، ومن ثمّ يرفعها إلى الأعلى حيث تستوي فقرة الرقبة مع الظهر، وذلك ضرب واحد. ثم ينزل حتى يستوي محاذاة الكبد، بل قريب من محاذاة السرّة، وهذا هو الضرب الثاني. ثم يرفع رأسه مرّة أخرى حتى تستوي فقرة العنق مع الظهر، وهو الضرب الثالث. ثم يُنْزِل رأسه على الجانب الأيسر ويُوجِد فيه الحركة حتى يصل إلى محاذاة السرّة أيضاً، وهو الضرب الرابع.

ويكمُل الذكر في هذه الحركات الأربع: كل ضرب بكلمة. ثم يستأنف على الطريقة ذاتها، وفي ذلك فوائد جمّة وحِكَم كثيرة سيدركها الذاكر ويبلغها بالوجدان قبل البيان.

الثالث: الخفي ومحادثة القلب، أي أن يلتفت إلى القلب وإلى الطرف الأيسر من الصدر، ويمرر الذكر في خاطره وكأن جميع حروف ذلك المؤلَّف تخرج من القلب، وقد انطلق لسان الباطن وتحرر. والحكمة في ذلك أن يمنع حبس النفس ويسلم من شائبة الرياء، ويصقل القلب، وتسطع عليه أشعة الأنوار، فيفتح سريانه منافذ الأذن والوعي فتحاً بحيث يسمع الإلهامات الربانية. وفي هذه الأثناء، ومن خلال هذه الحالة، يطرد ويخلي استيلاءُ حرارة الشوق ويشرى غلبة الذكْر فضلات رطوبات القلب بالوجه المناسب، ويستقر بدلها الهواء اللطيف ويحلّ في تجويفات الفؤاد، فتنبعث لذة الصفاء ونشعة السكون من حنايا القلب. وعلامة بلوغ هذه الحال هي استماع نغمة من القلب أشبه بهديل الحمام.

ولهذا الضرب من الذكر شروط أخرى أيضاً تؤثر في كماله وتمامه، منها: أن يتمّه الذاكر بعد هضم الطعام وقبل التخلّي، فإن حبس النَفَس في حين تعديل المزاج وبعد الهضم يؤدي إلى أمراض كالقولنج والفتق وألم المعدة واللقوة والاختلاج. والثاني: أن يزيد من وتيرة تلك الأذكار تدريجاً ويمضي في الذكر على نحو تصاعدي. والثالث: أن يستقبل القبلة. الرابع: أن يضع يديه على ركبتيه، ويبقي إبطيه مفتوحتين فيشكل بوضع جسمه دائرة، وأن يكون على وضوء. والأفضل أن يشتغل بهذا الذكر بعد أداء الطاعات المفروضة، ومن الشروط أن يكون مغمض العينين، وأن يكون في زاوية خلوة مظلمة، بعيد عن مخالطة الناس.

كنت مأخوذاً بعرضه، متفاجئاً من أن للذكْر قواعد وضوابط بهذا التفصيل، تجعل منه علماً وفناً، بعد كنت أحسب نفسي من أرباب الذكْر، لأوراد مخصوصة علمنيها أحدهم، وقراءة في أسرار بعض الكلمات وخواص الأذكار، ولإجازات حظيت بها في هذا الحقل.

أردت أن أسأله، فأشار لي بالإمساك والصبر، وألحق ذلك بأبتسامة تتدفق عطفاً وحناناً، أورثتني الطمأنينة فالصبر، ومضى يقول:

«الذكر الخفي»... أن «ينطق» الذاكر بأنفاسه دون كلامه، داخل فمه دون أن يتلفّظ، يدير لسانه و«يقول» ما يريد دون أن يحرّك شفتيه، ولا يكون ذلك إلّا بتفعيل البدن وأستنهاض أعضائه كلّها. وهو شيء آخر غيْر «الذكْر الذهني» الذي يتحقّق بالأنصراف عن كل أمر، وإشغال الفكر ومرور الكلمات في الذهن وتلاوتها في الخاطر، دون أعضاء وجوارح النطق. إنه ذِكْر قَوْلي أنفاسي، يتحرّك فيه اللسان ويعمل تجويف الفم، بل البدن كلّه، ولكن تبقى الشفتان مطبقتين...

وكمثال راح يشرح طريق «الذكْر الخفي» في «كلمة التوحيد»، فقال:

هناك عدة أنواع نقلت عن مشايخ الطريقة في هذا الخصوص:

الأول: أن يفرض الذاكر من سرّته حتى حَلْقِهِ قُطْر دائرة، تكون خاصرتا الذاكر من الطرفين قوسي تلك الدائرة، ويقصد الكلمة الطيبة «لا إله إلّا الله»، هكذا بأن يبدأ من السرّة بـ «لا إله» حتى يجعله منطبقاً على القوس الأيمن المتعلّق بنفسه، ليرجع نفي ذلك إلى قطع تعلّق الذاكر من مشتهيات ومألوفات النفس. ويبتلع «إلا الله» من بداية الحلق ويجعله منطبقاً على قوس اليسار المتعلّق بالقلب. وينبغي أن يحبس النَفَس ما وسعه، ويؤدي بقوة بحيث يتأثر القلب، وأن يكون مقصوده إثبات الوحدانية وأنحصار المطلوبية في الذات الأحدية.

وبعض يؤدي هذا الذكْر بحركة الرأس والبدن قريباً من هيئة الدائرة المحسوسة. وبعض يكتفي بتصوّر الحركة، وهي طريقة مشايخ «النقشبندية»، ويُسمُّون هذا الذكْر «حمائلياً» و«هيكلياً».

ونوعه الآخر: هو بجلب الرأس مقابل السرّة مع رعاية قوة وحفظ النفس، ساحباً «لا» على القطر المذكور، ونازلاً بـ «إلّا» على الجانب الأيمن بالقصد المذكور، ثم الصعود بـ «إلّا» على نفس القُطْر، وإنزال «الله» من الجانب الأيسر إلى القلب. وهذا النوع يُسمُّونه الخفي، و«چهارضرب».

وهناك نوع آخر يُسمىٰ «مجمع البحرين»، وهو أن يُقسّموا الجنبين (أي طرف السرّة والحلق) إلىٰ دائرتين كاملتين، إحداهما «دائرة النفي» التي ترفع «لا» بالقاعدة المذكورة وتنزل بـ «إله» من الطرف الأيمن، بحيث لو ٱتصلت بالسرّة أيضاً تكوّنت علىٰ هيئة دائرة تكون هاتان الكلمتان قوسيها، وهي دائرة الإمكان، التي لا يخرج منها ممكن بحيث تدخلها كلّها «دائرة النفي». والدائرة الأُخرىٰ «دائرة الإثبات»، وهي رفع «إلّا» بنفس قاعدة إنزال «الله» من الجانب الأيسر علىٰ الهيئة المذكورة، وهما قوسا هذه الدائرة التي هي في التصوُّر «دائرة الوجوب».

وكأنه أراد أن يدعم قوله بأدلة «علمية» تربط «العالم» الذي صرنا فيه من خلال هذا العرض الغريب، بالذي كنت فيه من قبل، فذكر كتاباً لـ «نجم الدين الراضي» (دايه)، ٱستند إليه، أو ٱستأنس، ولعلّه كان علىٰ ٱسترساله وسجيته، ولم يكن ناظراً إلىٰ ربطي أو الإرفاق بي... وقال:

وفي «مرصاد العباد»، أن هذا الذكر علّمه «جبريل» الأمين لـ «سيد المرسلين»، وكان ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ يشتغل به بعد فريضة الصبح، وعلّمه صاحب سرّه وولي عهده «علياً» المرتضىٰ، وٱنتقل منه ـ عليه السلام ـ إلىٰ الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام. وقد فسّر أرباب العرفان الآية الشريفة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ بهذا الذكر، وجعلوا عطف «دون الجهر» غيْرَ «ٱذكر ربك في نفسك»، وجعلوا «دون» بمعنىٰ القريب، وفسّروه بالذكر الإخفاتي الذي هو واسطة بين الجهري والخفي.

وأثناء عرضه هذا وخلال بيانه ومتابعة لشرحه، كنت أحاول أن أقول شيئاً دون أن أحرّك شفتي، وهممت بتجربة حبس أنفاسي وإمرار الذكر في أرجاء بدني، وإجالته من اليمين إلىٰ اليسار ومن الصدر إلىٰ القلب، وسعيت في متابعته وفق الطريقة التي كان يشرح ويبين...

فعجزت في أول الأمر وآخره، وتبين لي كم هي شاقة صعبة، بل ممتنعة، فكيف إذا كان الذكر يتكرر فيه الورْد آلافاً؟!

قام «الشيخ» إلى صندوق مُركَن في جانب من الحجرة، فتحه ودسّ فيه شيئاً أخرجه من جيبه ـ لم أتعرّفه ـ ثم عاد إلى جلسته. ثم توجّه إليّ وقال بشيء من حزم جمعه بلين:

لا تسل عن أشياء إذا جاءك جوابها والردّ عليها لم تفهمه، أو أسأت فهمه، فإذا فهمته وعرفته عجزت عن العمل به فصار حجة عليك. ولا تسألني ممتحناً، لا أنا ولا غيري، بل مستفهماً متعلّماً.

ليس من شيء في هذه الدنيا على ظاهره... إنما هي صور وتمثّلات وانعكاسات لحقائق لا تبلغها العقول المحدودة. دعني أُمثّل لك، هل رأيت «الراجا» الذي كان هنا، إنه يتمتّع بقوة، إنه يملك المال، والمال في هذه الدنيا قوة خارقة، وإن كانت الملكيات اعتبارية كلّها، إلّا أنني أُريد التشبيه والتمثيل وأن أضرب مثلاً، فلا تقف عند المثل فتجادلني فيه!

إنه الآن يملك رقماً في مصرف، مجرد رقم، ولكنه «شيء» و«طاقة» و«قدرة» قابلة للتحول والظهور بعدّة أشكال، إن «الراجا» قادر على تحويل هذا الرقم إلى سلطة ونفوذ يؤثر في الواقع الاجتماعي والحركة السياسية للملايين، بإشارة منه وتوقيع يترجم «الرقم» إلى طعام وسلع وكماليات وماشية ومراع شاسعة وحقول ومكائن زراعية تستغني عن ثيران الحرث وتقلب حياة هؤلاء الفلاحين رأساً على عقب... والحال أن لا سنخية في المادة والطبيعة، ولا في الشكل والصورة بين ما كان بالقوة (الرقم) وما ترجم إلى الفعل من نتاج القوة الشرائية للمال. والأمر كذلك في المال نفسه وهو على صورة النقد، ورق يتحول إلى خبز أو قماش ولبس، وجودان من مقولتين مختلفتين جوهراً وصورة.

وهكذا الأمر في كل ما ترى وتشهد في هذا الوجود، فكرة تخطر في الذهن، تنتهي وتتحول إلى اختراع جهاز كأنه استُحْدِث من عدم، لم يكن فكان، فيدر هذا الجهاز المال على صاحب الفكرة، ويودع في سجلات المصرف وحاسوبه رقماً، في حقيقته وجود ذهني يؤنس صاحبه بنزعة الملكية ويدغدغ مشاعره بالثراء، ويسكّن قلقه من العَوَز وخوفه الفقر؟!

الحضور، والجوار، واللقاء، والقرب، والبعد، وما إلى ذلك... مقولات مترجِمة لحقائق أخرى، إذا حضرتها في عالمٍ غيرِ عالمنا هذا وشهدتها خارج نطاق الدنيا، لن تجد بينها وبين صورتها وآلية تحققها التي تظهر فيها هنا سنخية ولا تَنَاسُبٌ يُذْكَر! العملية والقضية تكاد تكون شيئاً آخر تماماً، مثلما هي الأرقام المصرفية المدونة في سجل خاص أو في حاسوب، والطعام المعد على المائدة أو الدابة الحية المتحركة أو الأرض والعقار والبستان، وهكذا المخدومية والسلطة والأمر المطاع.

إنني في الواقع قاصر عن عرض الأمر بحقيقته الكاملة عليك وبيانه بصورته التامة إليك، فأنت عاجز عن فهمه وأعجز عن إدراكه. ولكني أحدّثك وأعطيك من وقتي ونفسي لما رأيته فيك وعلمته الساعة عنك، فاعرِف قدرك، وهكذا الزَمْ حدودك.

إن لك لموعداً مع ملَك كريم يأتيك من مكين أمين، فدع عنك هذا وذاك، وسلني عن رؤياك؟! ولا تتلف وقتك وتهدر جهدك في ما لا يعنيك، فإن كان يعنيك فهو - بلا شك - ليس أولوية وضرورة.

: أية رؤيا تقصد يا شيخ؟

: الرؤيا التي رأيت عشية خروجك من السجن، السجن الذي دخلته في حب «الشهيد المظلوم» ونصرة دينه ومذهبه...

رؤيا «الطف» عصر «عاشوراء»!

سُقط في يدي، دهمني قوله وهالني، وباغتني من حيث لا أحتسب، وقد كنت في غفلة عن المنام والرؤيا التي أراد وعنى، شغلتني عنها الشواغل وعرضت لي من دونها مشادةٌ وصروف، وأنستْنيها عَوَادٍ ومنغّصات... رغم أني أفقت منها - في حينها - على وقع صاعقة راجفة.

كانت رؤيا مروعة، يصعب علي بيان حجم الهول ووصف الرعب وعميق الأثر الذي تركته في نفسي، كأنها الجاثوم كبس عليّ وربض على صدري ممسكاً بخناقي. أشلّتني عن الحركة والفكرة في غير شأنها، بل حتى في شأنها، فما رضيت مني إلّا بالبهت!

وما خلّفتني حين أفقت ولا تركتني حين أستيقظت، إلّا وقد بلّل نضح العَرَق فراشي ودثاري وكأن دِلاءَ أهرقت عليّ وغمرتني، فقمت غرقاً لاهثاً تتراعد فرائصي وتصطك أسناني، وما نهضت من رقدتي ولا قمت من نومتي إلّا: بدناً مقشعراً متراجفاً، ولوناً مصفراً، وصوتاً متهدّجاً، يحكمني فزع مَن روّعته الأسود، وذعر يخرج القلب من الصدر... ما ألزمني الأضطراب لأيام والأرق من بعدها لليال، بل كانت شغلي الشاغل لشهور.

من أين أستخبر هذا المنقطع هنا في أقاصي بلاد «الهند» وأعالي «الهملايا» عن هذا المنام، وما أدراه برؤياي وأنا لم أخبر بها أحداً؟ اللهم إلّا واحداً من أهل التفسير والتعبير، لا يعرفني بشخصي ولا يطبقني بأسمي وصفتي، ولا يُحتمل ـ بأي نحو ـ وجود صِلة ورابط أوصل إلى «آغائي خان» هذه المعلومة عني، ولا مناسبة تدعو لذلك!

كنت في أوائل التسعينات قد سجنت جوراً لموقف حق آمنت به فألتزمته، ورأي صدق تبنّيته فأعلنته، ومقولة ذاعت عني حول التقليد والمرجعية والحوزات العلمية الشيعية، حملت رفضاً قاطعاً ومواجهة صريحة، بل حادة وشديدة لتدخّل الأحزاب ونفوذ السياسيين وسلطة الأنظمة وتأثير الحكومات وعبثهم في ذلك الشأن المقدس. ولمقولة ثانية وصيحة حق أخرى جاهرت بها في «نصرة المظلوم»، أنتشرت حول أعتراضي على حظر ممارسة بعض ضروب شعائر إحياء ذكرى «القربان» ومنع بعض طقوس يوم «عاشوراء»، وملاحقة العشاق والتنكيل بهم...

لم يَرُقَ للسلطان قولي وفعلي، وأغضبته مواجهتي وجرأتي، فأمر شرطته تكبس داري، ورجاله فأعتقلوني.

وهناك، في زنزانتي الأنفرادية الموحشة، وأمام عجز وأنكسار، وذل وهوان ما رأيت نظيره في حياتي، توسلت بأوليائي الأئمة واحداً بعد واحد، فلم يأتني الفرج. عندها خطر في ذهني وتذكّرت قول عالم رباني من عشاق «سيد الشهداء»، تلقيت منه وحضرت عليه رَدَحاً، هو شيخي «المنصوري» (عبدالأمير)، ينقل ـ بدوره ـ عن أحد مشايخه:

أن الخطيب الراثي والذاكر المنشد إذا جاء على ذكر المصيبة وراح في إنشاد الرثاء، ولم تفض أشعاره لإبكاء الحضور ولم تنجح أطواره في تهييج المجلس، وأعيته الحيلة من تحقيق غايته، فإنها إشارة من «المولى» للتوجّه إلى باب من أبوابه: «العباس» أو «زينب» أو «الرضيع» أو «القاسم» أو «الأكبر» أو «مسلم بن عقيل» أو «حبيب بن مظاهر» أو غيرهم ممن يعز عليه ويكبر عنده، فيذكرهم ويتناول مصابهم، ويجعل ذلك مدخلاً لذكر مصيبة «الحسين»، فإن الخير سيُقبِل والفيض سيغدق والدمعة ستنحدر...

عندها، لا أدري ما دفعني للربط بين ذلك وما أنا فيه؟

ولا كيف، ولِمَ برق في خاطري أسم أبنة «الحسين» وعزيزته: «رقية»؟ فنذرت من فوري أن أبذل شيئاً في سبيل الله بأسمها وعلى نيّتها، أو لحَرَمِها وزوارها، إن كُتِبَ لي الفرج سريعاً وأُطلق سراحي قريباً.

ومع هذا البارق ومقترناً بهذا الخاطر، وعقيب نية النذر مباشرة، دون أن أكون قد أجريت صيغته على لساني بعد... بدأت أسمع نزيل الزنزانة اللصيقة (وما كنت أستطيع رؤيته) ينشد أبياتاً في رثاء مولاتي «رقية». وللدقّة، فهي لم تكن أبياتاً وأشعاراً بذلك الشكل والمعنى، بل مقطعاً من «النسخة»، وهي من موروث الأعمال الأدبية الفنية الرائعة، تمثل حوارية أو تمثيلية مسرحية تسرد فيها سيرة «كربلاء» على لسان أبطالها، إنها «حوار» منظوم في كثير من مقاطعه على شكل أرجوزة، منثور في بقيّته، يتناوله الممثلون في تشابيه الملحمة الحسينية (المسرحيات التي تحكي واقعة الطف). وهو فن قد يقابله «الفخري» الذي كان يُقرأ في بلاد الخليج (بضفتيه الفارسية والعربية) في مجالس «العشر الأوائل» من المحرم، قبل أن يرقى الخطيب المنبر، كسرد قصصي أدبي للسيرة الحسينية...

سألت «الجار» عما دعاه لتلاوة وإنشاد هذا المقطع من «النسخة» الذي يمثل حواراً بين السيدة «رقية» وعمّتها «زينب» حول مصير والدها، يحكي أنها كانت تظنه مسافراً أو أسيراً... لماذا هذا المقطع دون غيره من «النسخة»؟ فقال هو الآخر بأنه لا يدري كيف ولم جاءه هذا الخاطر!

عندها علمت أنها إشارة وتوجيه منهم - عليهم الصلاة والسلام -، وتيقّنت أنها بشرىٰ خلاص ونجاة. وما طال عليّ الانتظار ليصدق ظني ويتحقق رجائي، فما تجاوزت الدقائق العشرين، حتىٰ جاء السجّان يبلغني بأمر الإفراج عني، ويدير مفاتيحه في أقفال زنزانتي ويخلي سبيلي.

بعد خروجي من السجن، كنت حزيناً قلقاً مضطرباً، بل هائماً علىٰ وجهي، وقد شعرت بالغربة لأول مرة بعد سنين من الهجرة، وكانت الحادثة قد حتّتني أن أرجع عيالي إلىٰ وطنهم، فأضيفت إلىٰ آلامي ومعاناتي، الوحدة والوحشة من انقطاعي عن أهلي وولدي، ولا سيما أن زوجتي كانت مقرباً، (وقد ألحقت بِنَذْري الأول، إن كانت أنثىٰ أسمّيها «رقية»، تيمناً وتبركاً، وعرفاناً وشكراً، وهكذا جاءت وكانت)... كنت لا أدري أين ألجأ وماذا أفعل، وقد شعرت بضعف غريب ما تصوّرته يوماً فيّ، وعجزٍ ما وجدته وأنا أقارع أشرس أعدائي وأخوض أعنف معاركي.

كنت جريحاً تقطّعني اللوعة من الظلم، ويبهضني الأسىٰ من الخيانة، ويمضني الداء من مرارة الغدر ووجع الخيس والختر، ولا سيما أنني أرىٰ في كل ساعة آثار هجوم القوم علىٰ داري وعبثهم بكتبي وأوراقي، ونهبهم كثيراً من أدوات عملي وأجهزة بحثي وكتابتي، وأعيش استمرار الملاحقة والإصرار علىٰ إلحاق الأذىٰ والإمعان في الإذلال...

وفي ليلة بت فيها علىٰ تلك الحالة... رأيت الرؤيا العجيبة التي أشار إليها الشيخ «آغائي خان» وسألني عنها.

: قل لي علىٰ وجه التحديد ماذا رأيت؟ فأنا مَن سيُعبّر لك رؤياك.

: رأيت كأنني في عرصة «كربلاء» عصر العاشر من المحرم، أو لعلّها صبيحة الحادي عشر، لا أدري، ولكني رأيت أجساداً طريحة، وصرعىٰ انخمدت فيهم الأنفاس، وجرحىٰ مثخنين قضوا من شدة النزف، ورأيت رماحاً مهشمة وأسَلاً مكسرة، وحراباً مغروسة في الصدور، وأخرىٰ ما عادت إليها حاجة فركزت في الأرض، وسيوفاً ملقاة، وأغماداً وحمائل مقطّعة، ورايات هوت علىٰ الأرض هنا وهناك.

وكلّما جلت بنظري ٱلتقتني أدخنة تتصاعد من بعض الأخبية، ومزيد من الدرق والأتراس شكّت فيها السهام، ودروع وقلانس ومغافر وخُوَذ صدعها ضرب السيوف وفلّها خبط أعمدة الحديد، وكنائن مبعثرة هنا وهناك، ونبال نضت من كثرة ما رُمي بها، وأخرىٰ مَرِطَت بسقوط أنصالها وتناثر قذذها وتبدد ريشها، وقسي تقطّعت أوتارها... وبقي نئيمها يفجع وهَزْمها يدوي ويرعب!

ورغم ٱنتهائها وٱنقضائها، كان صوت المعركة وجلبة الحرب ما تزال تملأ الفضاء بدويها ورعدها المخيف، فمع نئيم الأوتار وهزمها، كان صهيل للخيل وضبح يأتي من ورائي، وهيعة للرجال وجهجهة تستقبلني، وصفير للسهام وأزيز يعلوني، وقعقعة للسيف والحديد تحيط بي!... مما أمعن في رعب المنظر وهول المحضر.

ثم رأيت أنني صرت أعين في جمع شتات الأطفال، وأخذت أهدي النسوة الثكالى النادبات المعولات إلىٰ خارج الميدان، وقمت بنقلهن بعيداً، إلىٰ حيث أخليت لهن فسحة ومأمناً وراء ربوة، يندبن ويبكين قتلاهن.

كنت ـ وأنا في المنام ـ أعتصر من الألم، وأكاد أهلك من اللوعة...

كانت النسوة قد تجللن بالسواد، تجر إحداهن أذيالها وهي تتنقل بين مصارع القتلىٰ، وتعثر أُخرىٰ وتكبو بالحجارة والحفر، وثالثة تحثو التراب، ورابعة تهيله مدهوشة كأنها تواري فقيدها من هذا العراء! مما أثار نقعاً وغبرة زادت من عجّ الفضاء وقتامة السماء. وكنت أُناديهن وأرجوهن أن يتجمّعن ويركبن وسيلة أعددتها لأنقلهن إلىٰ حيث يأمنّ الأعداء وينأين عن هذا الموقع. فقد بدا لي جلياً أن لا أحداً يطيق المكث فيه ساعة أُخرىٰ، ولو أنهن أطلن البقاء لزهقت منهن الأنفس وغادرتهن الأرواح... لست أدري، كأنه دور تم وحلقة ٱتصلت بسلسلة عظيمة كانت تفتقدها، وصفحة لا بد أن تطوىٰ ليأتي ما بعدها، وإلّا فإن عجلة الأقدار وناموس الكون سيخرج من نظامه، ويحل خسف ودمار وهلاك، وتقوم قيامة تُفني كل شيء إلّا وجهه، ويبقىٰ رأس «القربان» يعلو رمحاً عالية.

كنت أستحثهن على المغادرة، وأرغبهنّ أنني أعددت موضعاً نائياً يُقِمْنَ فيه العزاء ويقضين وطرهنّ من الجزع والبكاء. لا أدري مَن الذي كلّفني بهذه المهمة وأوكل لي هذا الدور، ولا ما جاء بي هنا هذه الساعة، إلّا أن الأمر بمجموعه أورثني شعوراً نادراً ما زلت عاجزاً عن وصفه والتعبير عنه، مزيج من زهو الأنتساب والفخر بالقرب والحظ بالخدمة... كان هذا أبرز ما بقي في روعي وصاحبني عند إفاقتي، إلى جانب المنظر المهول للميدان بعد أنقضاء القتال، والرعب والأسى الذي كان يخيم هناك ويضرب أطنابه في قلوب البقية الباقية من الركب... ويغرس وتداً في قلبي.

: أبشر وهوّن عليك، ستزور «المشهد» وتراه عياناً، هذا تأويل رؤياك.

ما شدّني جوابه ولا ألفتني، فلم أتلقه بكثير أكتراث، ولا سيما بعد أن جدد عليّ السرد الهم، فأجبته وأنا شارد في صُوَر الرؤيا التي أستحضرتها بعد هجر وغياب: نعم ولله الحمد، لطالما تشرّفت بزيارة المشهد المنيف وحظيت بأيام في جوار المرقد الشريف، في صغري وشبابي وكهولتي، وما زلت آمل أن أقضي شيخوختي في تلك الديار، وأنزل في رقدتي الأخيرة تلك التربة الطاهرة فتكون مثواي، ومأواي وملاذي في أخراي.

: كلا، ليس حيث ذهبت، ما عنيت هذا. إن الزيارة التي بُشّرت بها في رؤياك ليست كسابقاتها التي قمت بها، إنها زيارة حضور وشهود، وموافاة لقاء وعيان، ستخرق روحك الزمن وتعود لتشهد الحدث ساعة وقوعه، وستلقى في نهاية تلك الرحلة وتوافي من تحب وتهوى، وسترى ما جرى عليه وعلى أهله وعياله وصحبه، ستعاين ما وقع في «كربلاء»... وتكون معهم، معيّة تمكنك أن تفوز بنزر يسير من فوزهم العظيم، كما تمنيت دائماً ورجوت أبداً. كل ذلك شهود صدق وحقيقة وواقع، لا رؤيا ولا منام!

أضطربت بعض الشيء، وأردت أن أكابر وأتصنّع، فأتجاوز حديثه وأعود لما جئت له وأنقل الحوار إليه، ولكني ما ملكت إلّا أن أستسلم، ورأيت أن اللقاء خارج لا محالة عن أهدافه وأغراضه الأولى التي قصدت، وأن لا سبيل للمكابرة ولا طائل، فرجوته أن يخبرني عن المزيد مما ينتظرني.

: ما لَكَ وهذا... فضول العوام وآمال العاجزين وأماني الجهلاء وحلوم النساء! لستَ بحاجة إلى الإخبار والإنباء وقراءة الطالع، القادم سيأتي والمقدّر سيكون، عليك أن تعد نفسك وتتهيأ لما أنت مُقْبِلٌ عليه، وجل التهيؤ والاستعداد هو في ما يعينك على مزيد من الفهم والمعرفة والنيل والاغتراف من تلك الحضرة حين وصولك إليها وشهودك الحدث الأعظم.

عليك أن تجد الإجابات وتعالج الإشكالات وتفهم المشكلات، فلا تدخل هناك وفي نفسك شيء من شك أو ارتياب... قد يطاق اللوث السلوكي لفرط ضآلته وهوانه، أما العقائدي المعرفي فمما ينال سلامة القلب ويزري بالروح ويتلفها أيما تلف، فتفقد ما أعد لك وأخفي، وما بذل لك ووضع بإزائك وفي متناولك من لذة ونعيم وقرة أعين.

عليك بالاستعداد، حتى تكون الرؤية والشهود ميداناً لتألق المعرفة فيك وجني البواكير والتقاط الدرر. وحذار أن تُغْبَنَ، وأنت تستغرق تلك الحضرة العظيمة في الفهم الأولي البسيط والإدراك السطحي الساذج، فتكون كمن عاد من مائدة عامرة بصفاح مترعة وجفان زاخرة من أنجع الطعام وأهنأ الزاد وأسوغ الأكل وألذ الطيبات وأشهاها... عاد بشق تمرة!

إياك أن تبلغ تلك الحضرة وتصل ذلك المشهد وفي نفسك شيء من التوقف والتردد في مقامات سادتك وفضائل أوليائك، أو الشك في ما أعطاهم الله وحباهم، حذار من الجهل المركب، والبناء على أسس رسّخَتْها في عقلك المادية، وقواعد واهية دعمتها في نفسك الحسية، وعلوم عصرية انغرست في تكوينك ونَشَأْتَ عليها، فترى الحق كل الحق فيها وإن خالفت معطيات العلوم الإلهية والمعارف الربانية.

ابدأ من الساعة البحث والتحقيق ما استطعت، وحصّل ما أمكنك من المعارف والعلوم الحقة، وتهيأ بطي المقدمات وقطع المداخل واجتياز المدن والمراحل والمنازل، حتى إذا بلغت موعدك ووصلت إلى غايتك كنت على بيّنة من أمرك، فتنهل ما شاء الله لك وتتزوّد لعودتك بما المقام أهله ومحله من الجود والفيض والعطاء، لا بما تستحقه أنت.

سكَتَ قليلاً ونظر إليّ، يرى وَقْعَ حديثه عليّ، ثم عاد ليقول:

العطاء يا هذا العطاء... آه لو تعلم ما في العطاء، أتظن أن في وقتي وساعاتي سعة؟ وفي طاقتي وجهدي مندوحة للقاء الناس وإجابة طلباتهم والأنشغال بحاجاتهم، لولا هذا السر وهذا الأصل الخطير: «العطاء»؟!

إنها تَرِقّ القلوب وتكبر، ويشف الحس ويرهف، وتتكامل النفوس وترقى، وتسمو الأرواح وتتعاظم... بهذا. وبهذا يقيّمُ الناس ويُنَزّلوا في مراتب الفضل التي يستحقون، وتُعرف معادنهم وتكتشف جواهرهم وتظهر مكنونات ذواتهم، وتتبين حقائقهم.

بحجم العطاء وقدر السخاء ودرجة البذل تعرف النجابة والنُبل، وكم أثرت الصلاة والصيام والحج والخمس والزكاة في فاعلها، وأنتجت العبادات وفعلت في نفسه فعلها، فإذا رأيت الشح ما زال حاضراً في نفس عابد، والبخل حاكماً في روحه، فأعلم أن تلك العبادات ما كانت إلّا طقوساً شكلية تطفو على السطح وتصنع الظاهر، وما نفذت إلى العمق ولا مسّت القلب، لا تزيد في فعلها ولا يتجاوز أثرها إسقاط التكليف وحجب العقاب.

لم ترقَ العبادة ـ في الحقيقة ـ بنفسه، فتأخذها إلى حيث ينبغي. لم تحقق لها ما تنشده من كمال وتتطلّع إليه من سمو وتتعطّش إليه من تزكية. ولو خرجت هذه النفس من الدنيا وتوُفيت وهي على حالها هذه، فستحشر في معادها على هيئة دونية حقيرة، مُطوّقة بنطاق الشُحّ، متجسمة بقالب البخل الدنيء وصورته القبيحة ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلوا به يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾...

فهذه الطقوس ليست المراد الجدّي (في عمقه) لمشرّعها الغني عن العالمين، عنهم وعن أعمالهم وعباداتهم، ولا هي العلّة الغائية لها، إنما أراد الله للناس أن يفلحوا بها ويزكوا بأدائها، ويسموا ويرقوا بممارستها... ولن يفلح إلّا من وُقي شُحّ نفسه، وكسر طوق البخل والمنع، وخرج من نفسه وأنانيته إلى الآخر، إلى غيْره من البشر والحيوان والنبات والجماد، وكل مظاهر الخلق والحياة، فيعرج من ذلك إلى الله. ولن يتحقق هذا ولن يكون ـ بعد الألتزام بالشريعة والسمع والطاعة والتقوى ـ إلّا بالبذل والإنفاق.

وإذا كان أوّل درجات البذل ومراتب الأنفاق والعطاء: حب الخير للآخرين، وتمنّي السعادة والأزدهار لهم، ما يطرد الحسد وينفيه، ويخلّص الروح ويعتقها، ويهدم أخطر آفات النفس وأمراضها...

فإنه يتدرّج في مراتبه ويتطوّر، ويرقى في منازله ويتقدم حتى يبلغ في حالات القمة: تحمل الألم ومقاساة اللوعة وتجرع المصيبة، بل وبذل النفس، فداءً للغير، ودرءاً للخطر ومنعاً للألم عن الآخرين، وفي سبيل خلاصهم! ويتدرج هذا المستوى من العطاء ـ بدوره ـ ويتفاوت في مراتبه ومقاماته، على قدر الألم وحجم المعاناة، في حركة نسبية ومفهوم مشكك يخضع للشدة والضعف في الكم والكيف.

وكما للعبادات باطن مقصود وغاية منشودة تتجاوز الظاهر وتتخطّى الطقس الذي يمارسه العابد والشعيرة التي يؤديها الملتزم، سواء كانت عن فقه وشريعة أو عرفان وطريقة، تتخطى ذلك إلى حقيقة... فإن الأحداث، بل كل الأشياء، تخفي وراء ظاهرها باطناً محجوباً وتختزن في جوهرها حقيقة أخرى، يشير إليها الظاهر أحياناً ولا يشير في أحيان أخرى، ولكنه (الظاهر) دائماً أقل حجماً وأضعف قدراً من الحقيقة الخفية.

فلم يكن «الظاهر» يوماً يعني كل شيء، ولم يكن ليغني عن شيء ويفي بحق، ولم يكن لخلق أو لحدث أو لشيء أن يتجاوز هذا الأمر ويتخطاه... فكيف بأعظم أسرار الوجود، وغاية غايات الخلق، وذروة الأسباب ونهاية سلسلة العلل، بعد الباري عز وجل؟

كيف بـ «كربلاء» ومَن حل فيها، وما جرى عليها؟

* * *

في «كربلاء»، بلغ العطاء الذروة وحط في المطلق.

كان «المولى» يعيش صراعاً مستتراً في نفسه منطوياً عليها، إلى جانب الذي يخوضه بجسمه وسيفه وعياله وصحبه. وكان «الصراع الخفي» أشد وطأة من الظاهر المشهود، وكانت المعركة الغيبية الخفية، أكثر ضراوة وقسوة من الحاضرة الماثلة...

مع الأنفاس المتصاعدة من لَغَب، والعيون الغائرة من قلق، والشفاه الذابلة من ظمأ، والأعضاء المرتجفة من تحفّز وخفر، مع العَرَقِ والعَلَقِ والدماء القانية المسفوحة على تربة «كربلاء» تصبغ كل بقعة وصعيد، والأعضاء المبتورة والأشلاء الموزّعة، والأجساد الطريحة المبعثرة، مع السماء المنشقّة من غضب، والنجوم المنكدرة من سخط، والكواكب المنتثرة من حزن وقلق، والبحار المنفجرة من جزع، مع القيامة القائمة هناك... مع بخار الحجارة الملتهبة بِحَرِّ الظهيرة القائظ ووَهج هجيرها اللاسع، ونزاع الخيل الجامحة الحَرون مع ألجِمَتِها وأعِنّتها، ومغالبتها فوارسها فوقَمِها وكَبْحِها، والزبد المتناثر مع صهيلها والمتجمّع حول سُمومها من فرط نحيمها وشدة نَهَزِها، والحصن المتطاير من ركضها ورَمْحِهَا.

مع حز الجواشن والدروع على الصدور، وضغط القلانس والخُوَذِ على الرؤوس، وثقل يهد المناكب والظهور، ويكل الأذرع والسواعد، ورعب يفل العزائم، وهول يهزم الشجعان... مع بريق السيوف وصليلها، مع النقع وعثير غبرة هاجت من نفرة البراز، وقعقعة الحديد ودوي النبال المتطايرة والسهام المسددة، وتخطّف أرشية المنايا الأصحاب تنثر الموت فيهم، مع ألسنة اللهب المضطرم في الخنادق، والأخرى التي طالت الخيام وبلغت الرحل.

مع كل هذه وتلك، وإلى جانب كل هذا وذاك، كانت هناك معركة أعظم شأناً وحرب أحْمَىٰ وطيساً ونزاع أشد ضراوة وقسوة... صراع عاشه «المولى» في «نفسه»، التي وسعت الوجود كلّه، صراع شكل قمة أنتصر فيها «المولى» على الدنيا وكل ما يحمله أهلها، فرقى وآرتقى، حتى طال أو صار «العرش»، وأستل «القلم»، وأخذ يخطّ في «اللوح» ما يشاء! هنالك، في قلب «الحسين»، قام وعاء مشيئة الله... ولست أبالي بعد هذا ولا أحرص: هل كان، يستشير القدر ويستخبره فينفذ أوامره، أم أن القدر هو الذي يطاوعه ويَنْصَبُّ في القالَب الذي يريد، فيسكبه ليُصاغ ويُستَبَك على يديه كما يشاء؟ هل هو وعاء الإرادة وقناة المشيئة، أم أن قلبه أرتاض وآرتاض حتى تلاشى وجوده وفني في الله، فما عادت له إرادة ومشيئة إلّا ما يشاء الله؟

كان هناك أصطكاك وأضطراب، وزلزلة وهدّة تكاد تخل بأنسجام الوجود وقانون الطبيعة ونَسَق الحياة، وتسقط النظام الأتم الذي خُلِقَ الكون عليه ووِفْقه، و«المولى» يخوض تلك المعركة. وما كانت عرصة «كربلاء» وما يحتدم في جنباتها، ومشهد الميدان، إلّا قنطرة توصل ونفق يتصل ومظهر يشير.

كانت الهواجس تضطرم في قلب «المولى»:

أن لا يظهر منه ما يغري ويبعث على الغلو، فيُعبَد من دون الله...

أن لا يجيش الغضب، فتحل النقمة وينزل السخط...

أن لا يعرض «بَدَاء» يصرف الحدث عن نهايته المرجوّة...

كان «المولى» يعالج القضية الكبرى ويذهب في ما يثبت للناس بحجة بالغة، ويسلّم للباري عز وجل بعبودية مطلقة:

إن هنا وجوداً وماهية، جوهراً وعَرَضاً، صفة وموصوفاً، موضوعاً ومحمولاً، تفاعلاً وأنفعالاً... كان ينادي بأن هنا «تركّب» ينفي «البساطة»، و«حدوث» يخرج عن «القدم»، و«حاجة» تنفي «الغنى». كان ينادي بأعلى صوته، ويصرخ في الوجود من عشق وإشفاق: بأنه عبد، وأن فوقه رب يؤوب إليه، ويضج أن نزّهونا عن الربوبية... ثم قولوا فينا ما شئتم.

تماماً كما أراد جدّه «النبي الأعظم» أن يعفي الناس من الأبتلاء بطبيعته، وينجيهم من الفتنة في سر خِلقته، وهو رسول السماء إلى الأرض، وهم يرون قدراته الخارقة وطاقاته المعجزة، ما لا يكون في بشر، أرادهم أن ينجوا ولا يقعوا في ما كان من قوم «عيسى» وقولهم فيه. فعمد إلى ترسيخ بشريته وتثبيت عبوديته، وهو يبذر لقالب أبدان الأئمة من نسله المنحدر من أجتماع «أبن عمه» و«أبنته»، ويعد لصنع هياكلهم البشرية وصورهم الدنيوية، من خلال تمازج بدنه الشريف بمادة الجنة... فلجأ إلى أعتزال «خديجة الكبرى»، وهو الطهر الطاهر المطهر، النقي المستخلَص في جسمه كما روحه، بل «اللطيف» في بدنه وعنصره، وأنقطع عن طعام الأرض أربعين ليلة، كان يفطر فيها على تمور الجنة، حتى تكون الأخيرة فيؤتى له بمائدة تتكوّن منها في صلبه نطفة «فاطمة» والمادة التي ستنبثق منها الذرية الطاهرة.

كان ـ صلى الله عليه وآله ـ يعالج ويعمل على إظهار جواهر «الأنوار» في أعراض تطيقها الدنيا، تحل في الطين وتتمثل بشراً سوياً، ما يعني «الحدوث» وينفي «القدم»، ويكشف «التركّب» ويبطل «البساطة»، كان يفنّد أسباب الغلو ويهدم علل الشرك والتأليه، ويصد رائيه عن القول فيه بما يغضب الرب ويشرك به ويجعل له ولداً وبنات كما صنفوا الملائكة وقالوا في «المسيح». وما كان «النور» في تجسمه وظهوره الدنيوي و«تمثّله» ليطيق ما هو أدنى من عنصر الجنان، وأقل من تلك المادة الشريفة السامية.

إنه الدين الأخير، والرسالة الخاتمة، ولا سبيل بعدها لإصلاح وتقويم، ولا مندوحة لبعث جديد ورسول تال يكمل الناقص ويصحح المشوّه والمحرّف وينفي المكذوب والمزيّف.

كان هذا هو هاجس «النبي» وما يتخوّفه على دينه وأمته، وهكذا كان «علي» و«فاطمة» و«الحسن»، وكان «القربان»، وهو عمدة ما تخوّفه في «كربلاء»، ومن بعده أبناؤه التسعة في كل سيرتهم...

وبعد صراع الهواجس والأفكار التي تطال تنزيه الباري وتدور حول إمضاء إرادته وتحقيق غايته وبذل قربانه، وقطع الطريق على أسباب التغيير والأستبدال، والإرجاء و«البداء».

بعد هذا الخطير وإلى جواره...

كانت في «كربلاء» جبهة أخرى من الصراع الخفي المحتدم. آلام ومعاناة عاشها «المولى» وتحمّلها، ونهض بها وأدّاها بما أضناه وأنقض ظهره. كانت هناك حرب ضروس لقمع المطامع والأهواء، وملحمة عظيمة لقتل النوازع الدنيوية والشهوات النفسية، وتكامل يتصاغر أمامه كل سير وسلوك... عاشه «القربان» ومارسه نيابة عن البشرية، ليجعل منها ويصنع «الإنسانية». وقد تحَمّلها من فرط الحب والإشفاق والرحمة، متطوّعاً متكرّماً!

كان «المولى» يعاني ويتألم، والألم يرقى بالإنسان والمعاناة تصنع كماله وتبني مجده. فهل يمكن ذلك في «الحسين»؟ هل يمكن تصور التكامل في الكامل؟ هل من رقي بعد «المطلق» الممكن؟...

كلا، فقد تحقق الكمال المطلق لهذا البرزخ بين «الواجب» و«الممكن» لحظة أنبثاقه وتشعشعه، وحين صدوره وظهوره، ولم يعد للمزيد معنىً وفسحة، ولا للتقدم ميداناً وسعة. وما سوىٰ ذلك وبعده فهو تحصيل حاصل، ولعلّه ـ إن شئت ـ نور على نور، كالوضوء على الوضوء، بلا حدث ولا ناقض سبق. وأين عسىٰ أن يبلغ مَن بلَغ كماله الممكن ووصل غايته القابلة؟ إن الحركة بعد التصاعدية (العمودية أو الأفقية) والتكامل بعد الطي والرقي، يغدو دوراناً وطوافاً (دائرياً حلَقياً)، لا تقدماً وآجتيازاً ولا تصاعداً يطوي المراحل والمنازل... ليس ثمة حاجز يتجاوزه، لا عائق يتخطّاه، ولا مسافة يقطعها، ولا حفرة ومهوىً ينصب فوقه قنطرة ويقيم صراطاً؟

هٰكذا تنقلب الحركة وتنتقل من «السعي» إلىٰ «الطواف»، من سعي دؤوب لا يكل ولا يمل، وجهاد وعطاء وفداء، وصبر على المحن والآلام، إلىٰ طواف سرمدي، يحكي بعضه «الفناء». ولا تسل عن تلك المرتبة والمنزلة وذلك المقام وما بعده، وكيف ستكون حال «المولىٰ» في تلك الحضرة وما بعدها. إذ عن الأدنىٰ من هٰذا والأقل: ضلّت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب وخسئت العيون وتصاغر العظماء وتحيرت الحكماء وتقاصرت الحلماء وحصرت الخطباء وجهلت الألباء... فكيف به؟!

لم تكن المحن والأرزاء لتصقل نفساً تولىٰ الله رعايتها على عينه فأحسن، ورياضتها وصنعها فأتقن، خُلِقت نوراً، فأحدقت بالعرش، وبلغت ـ مذ خلقت ـ أشرف محل المكرمين، وأعلىٰ منازل المقربين، وأرفع درجات المرسلين، لا يلحقها لاحق ولا يفوقها فائق ولا يسبقها سابق ولا يطمع في إدراكها طامع. ما كانت المعاناة لتصفّي روحاً هي جوهر الصفاء والنقاء، ولا كانت الآلام لتطهّر نفساً هي الطهر ومنبعه.

إن الآلام المتلاحقة على بدن «المولىٰ» وروحه من ضرب السيوف وطعن الرماح وحز المدىٰ، وحر النيران المضطرمة، ولهيب الأحشاء من العطش، وآلتياع الأنفس من فراق الأحباب، وتفاقم الهموم والغموم من فقد الأهل والولد، ووحشة الوحدة، وغصة الخذلان وقلّة الناصر، وسُحُب الخوف

والرعب المتراكم، ثم الجزع من مرأى الأجساد الطريحة، وهواجس الأسْر، وكل ما عاناه «المولى» في «كربلاء»... لم تكن لترقى بنفس هي في الذروة والقمة من الأصل، منذ كانت وكان الكمال. ما كان «المولى» يحتاج في نفسه إلى رقي وتكامل ولا سمو وأرتقاء، وما كان يعاني من إغواءات، ولا يصارع شهوات ويغالب مطامع، ما كان للدنيا في تلك النفس الأبية شيء، فيحتاج «المولى» لجهاد ومعاناة ينتزعه به منها! كانت نفسه ـ عليه صلوات ربه ـ مستقرة مطمئنة، متربعة منذ كانت على مطلق السمو والسكينة...

هكذا كان «الحسين»... في قمة المجد والعظمة، وغاية الكمال ونهاية القرب من الله عز وجل، قبل «كربلاء» وميدانها، وأثناء معركتها وخلال ملحمتها، حتى اللحظات الأخيرة منها وهو يسلم الروح وينتقل إلى باريها، وهو كذلك الآن مع ربه عز وجل.

إنها المعركة المحتدة هناك، كانت نيابة عن البشرية ولخلاصها ونجاتها.

كان يتجشم العناء ويتحمل الآلام ويقاسي الجراحات ويتجرع الغصص ويكابد الويلات، ويبذل ويصبر... حتى ضجت السماوات وهوى العرش على الثرى، لتكمل النفوس القاصرة والمقصرة من البشر، من محبي الخير (محبيه)، وترقى إلى خلاصها ونجاتها من الجحيم المعد لأعدائه ومبغضيه.

وإذا كان أبوه «أميرالمؤمنين» مثّل في «الخندق» الإيمان كلّه، والإيمان مصدر يستغرق فيه كل فعل إيماني من عقيدة وعبادة وجهاد وخير يمكن تصوّر وقوعه في الوجود، كل ذلك لُخّص في ضربة واحدة، وآختُصر في ساعة أو يوم واحد، وتجلى في مبارزة ونزال واحد.

الإيمان كل الإيمان، مثّله «علي» وآحتواه في يوم «الأحزاب»، حين آستطاع جماعة فيهم «عكرمة بن أبي جهل» و«نوفل بن المغيرة» و«ضرار بن الخطاب»، أصابوا مضيقاً في الخندق أكرهوا خيولهم فيه فعبرت، وجعلوا يجولون بين الخندق و«سلع»، والمسلمون وقوف، و«عمرو بن عبد ود العامري» يهدر كالبعير المغتلم على فرسه، يدعو إلى البراز ويرتجز، ويخطر برمحه مرة وبسيفه أخرى، ويعرّض بالمسلمين ويهزأ:

ألستم تزعمون أن القتيل منكم راحل إلى الجنة؟

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟!

فَجَبُنَ المسلمون جميعاً ونكلوا وخرعوا، ووقفوا أذلّة، لا حميّة تهيّجهم ولا بصيرة تشجعهم، بل لا حياء ولا مروءة، وراح بعضهم يلتمس لنفسه من الزحار والهكوك مخرجاً!... حتى تقدّم «علي» وبرز، ونساء «المدينة» ورجالها بواكٍ إشفاقاً، إنه مقتول لا محالة، فمَن لمثل «عمرو»؟ فما أسرع أن هيج عفراً وأثار غبرة، ما أنقشعت إلّا وقد حز «ذوالفقار» رأس «عمرو»، ففر مَن عَبَر معه، وأعتبروا فعادوا أدراجهم. وإذا كان ـ عليه السلام ـ برز حتى عادَل فعله وفاقت ضربته عطاء «الثقلين» الإنس والجن على مدى التاريخ والوجود، وبكل من طوى وأنطوى فيه من أولياء ورسل وأنبياء وعظماء وعلماء، عبدوا الله وبلّغوا وأنقطعوا وأخلصوا وجاهدوا وأستشهدوا...

فإن «الحسين» في «كربلاء» مثّل مجمع الآلام ومركز الهموم والغموم ومحل الرزايا والخطوب، وكل أسباب التطهير والخلاص وبواعثه في فعل الثقلين. هكذا نهض بالجانب الآخر والمظهر المكمّل لتلك الرسالة العظيمة: تحمّل كل ألم من نقص في الإنسان، ودفع كل ثمن لخطيئة وقعت من البشر على مدى التاريخ... تولى التكفير عنها والنهوض بخلاصها.

كان «المولى» ـ في الواقع ـ يطلق الفلك، يحررها من مرساها، يسحب أنجَرها، وينشر قلاعها، وينادي بركابها، ويمخر بها في متلاطم «الطوفان» لينجي البشرية ويخلّصها. إن ما شوهد من بذل «المولى» في «كربلاء»، كان أنعكاساً لعطاء مُضْمَر سَبَق، وبذل خفي تقدّم، لم تره العيان ولم يشهده الحضور، ولعلّه أُغفل حتى في التاريخ، فسقط عن الذكر والتدوين.

كانت هناك جبهة أُخرى في نفسه الشريفة...

عاشها «المولى» في «عاشوراء» آلاماً وقاساها محناً وتحمّلها ويلات، ما كفّر عن البشرية وخلّصها... فكأنه أدّى عنها واجباتها، وتحمّل عنها آثامها وذنوبها، ودفع ثمن خطاياها وكفّر عن سيئاتها، وطهّرها ونقّاها وأرتقى بها، حتى فتح لها أبواب الجنان.

في «كربلاء» طهّر «المولى» البشرية من أرجاس الدنيا، واستخلصها من وُحُول آثامها، ونقّاها من أهوائها، وأنقذها وأنجاها، وقضى على إغواءات شياطينها، وأرغمها في منازلتها وتحدّيها الله عز وجل، فهزمها ودحرها وأجهز عليها.

هناك خلّص الإنسان وارتقى به ورفعه، وأعلى شأنه وكرّمه وكمّله. أسرج للأجيال في ظلمة الضلال من شهوات النفس وزيف اللبس، والهلع من سطوة الطاغوت وسيوف البغي التي سلّطها أئمة الجور... تشعشع ـ عليه السلام ـ بنوره الأزهر، فكان قبس الجذوة في صحراء التيه «مصباح الهدى»، ورفع أعلام التقى ولوّح برايات الحق منارا، اجتذب كل من لم ينسلخ عن إنسانيته ويستولي الشيطان عليه، وبقيت فيه بقية من حب وحياء، نشر أشرعة الخلاص، فقاد البشرية وأمّها وأركبها «سفينة النجاة».

كان «الحسين» وقد بلغ الغاية وحقق الأمل بـ «القربان»، وتربع على العرش وحكَم وملَك وتسلطن، يملك أن يُمسِك عن البشرية عطاءه، ويخليها لسبيلها مع أهوائها وشهواتها وآثامها، كان له ذلك: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يُحاسَب ولا يُلام أو يُؤاخَذ، لا في الإقدام والعطاء وحدَه، ولا في الإحجام والإمساك وحجمه، ولكنه أبى إلّا أن يعطي ويبذل ويمنن، أبى إلّا أن يشفع للبشرية فيخلصها ويعتقها من الجحيم.

وهذا من الحب وتاجه... السر الذي فتق الوجود، هو الذي يحدو الكُمّل ويبعث فيهم شوق الحركة وينزع بهم إلى العطاء.

قلوب امتلأت بحب الله عز وجل، والخلق عيال الله، وهم رعية تكفّلها أُولئك السادة الولاة عليهم الصلوات. فكما هم هداة، فإنهم آباء شفعاء، كما يتفجر العلم منهم وتنحدر الحكمة عنهم، فإن الشفقة والرحمة تسبق غضبهم، وغضب الرب أن ينزل بأُمّتهم ورعيتهم.

بقي سؤال يتلجلج في صدري، ينطلق من سر الجوهر المزدوج:

روح وجسد، معنىً ومادة، حس وغيب، بشرية في الذروة تحكي بتجسّمها العجز والفقر والحاجة، ونور يشير إلى المطلق، يتألق وينجذب

حتى يعود إلى مصدره ويتصل بالله... ألا يتعارض هذا الأزدواج العظيم مع خلوص القلب وكونه نور صرف؟

أوَتمتلئ القلوب حباً لله وتترع من عشقه فلا تجد فيها شيئاً غيْره عزّ وجل، وهي بشرية طبعت على الجمع بينه وبين غيْره، إنسيّةٌ جُبلَتْ على حب الشهوات ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾؟ فإذا أخلص ناسك وأرتقى زاهد، وسما عالم عابد، ووصل عارف وبلغ مجاهد سالك، كان ملتمساً كل ذلك لـ «نفسه»، فهي ما يحدوه للعلم ويدفعه للعمل... فهو ـ إذاً ـ يحب «نفسه»، وإنما فعل كل هذا لنجاته وخلاصه ورقيّه، وكأنه عاد من سفره ورحيله عنها، عاد إليها!؟ فكيف يخلو قلب من كل هذا وذاك، ولا يبقى فيه إلّا حب الله عز وجل؟ هل يعقل هذا ويكون؟

في هذا الخضم يتجلى خبر «أبنة عمران»...

سيدة نساء عالمها، وهي قانتة في محرابها متبتّلة إلى ربها، تخرق قانون وأصل وجوب السعي في طلب الرزق وتعطّله! منقطعة عن كل شيء، فينزل عليها رزقها من السماء بلا سعي منها ولا طلب، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إن هذا الرزق المنزل من السماء مباشرة، مخترقاً القوانين والسنن (في ظاهرها) يكشف عن حالة قلب العذراء «مريم» عليها السلام، ويقرر المرتبة التي بلغها خلوصه ويكشف عن رقته وشفافيته وسعته وعظمته... قلب كبر بالعبادة والتبتل، وطهر بالإخلاص والتطهر، حتى أمتلأ حباً، لم يشغفه، بل لم يشغله شيء غيْر الله، فكانت النتيجة أن تكفّله الله وتولاه.

ولا عجب، ولو كشف لنا وظهرت الحقيقة لَبان أن ذلك من طبيعة الأمر ولازمه، ولكننا محكومون ملزومون بقانون السعي ووجوب الكسب، لأفتقارنا إلى تلك القلوب. ولو حققنا غاية الخلق في العبودية الحقة والأنقطاع إلى الله، لأغنانا سبحانه عن كل شيء، ومنه السعي للرزق!

فلما رزقت «العذراء» بوليدها المبارك «عيسى» عليهما السلام، شغل من قلبها شيئاً، فكأنه نال من امتلاء القلب بحب الله عز وجل، وأفرغ منه بذلك المقدار وأزاح. و«الشيء» هنا غير حب «النبي» وعشق «الولي»، فهذا من ذاك وفي طوله، لا يعارضه ولا ينازعه، إنما شغلها ما نزع بها إلى طبيعتها البشرية وأحيا فيها عاطفة الأمومة وحب الولد، لمجرد كونه ولدها.

عندها، وعلى الفور وفي الآن، عاد قانون السعي في طلب الرزق ووجوب الكسب والتسبب ليحكم من جديد، وإن كان بمراتبه الابتدائية ودرجاته الأولى، إذ ما زال القلب من «مريم» (إلّا تلك المساحة القليلة) مفعماً بحب الله عز وجل... فجاءها الأمر أن تهز إليها بجذع النخلة تساقط عليها الرطب جنياً، فتقر عينها ولا تحزن. وإن كانت الأيدي أعجز من أن تهز جذوع النخيل وأضعف، خاصة مَن ولدت لتوّها ووضعت، لكنها إشارة إلى «مريم» وإشعار، و﴿ذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أن القضية محكمة، وفي غاية الدقة والنظم، حتى تكاد تكون آلية وتلقائية تراتبية لا تتخلّف ولا تنخرم.

هذا قانون خاص، ماض في ميدانه، حاكم في حقله: إذا أخلص القلب وصفا واعتمر بحب الله، فإن الوجود كلّه يسخر له، لا رزقه فقط، فالطاعة عن معرفة تحيل العبد مثل الرب، يقول للشيء كن فيكون بأمره.

نعم، يمكن أن تمتلئ قلوب الكُمّل وتصمد من حب الله عز وجل، فيستغرقها حتى يملكها، قد يعرض ذلك لأي بشر يتقي ربه ويستنير بنور العلم والمعرفة، يجمع إليه الإخلاص والتوفيق... ولكنها حالة خاصة لن يطيقها الإنسان إلّا لفترة محدودة، ولن تدوم إلّا ثوان معدودة أو دقائق، ولعلّها تبلغ في بعضهم كـ «سلمان» الحكيم و«همام» المصعوق أكثر من ذلك!

ولكن أن تكون نفس دائماً بهذه الكيفية، وأبداً على تلك الحالة، فهذا مما يحير العقول ويذهل الألباب! ولن يكون حتى في الأوحدي من البشر، اللهم إلّا تلك القلوب التي تولى الله رياضتها، وكانت معادن لعلمه ومناجم لفضله ومحال لمعرفته وخزائن لمجده وعظمته.

ذلك أن هذا الخطير، ليس "شرعة لكل وارد"، حتى الكُمَّل من الأولياء والأوصياء وأبناء الأنبياء، "إلّا واحداً بعد واحد"، فهو «عهد» لا حظ فيه للخطّائين، ولا ينال الظالمين، والظلم حكم يثبت لكل من زلّ ولو لثانية واحدة في حياته، أو في قيد أنملة من مسيرته! ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. و«العهد» هنا هو الفاعل، هو الذي يأتي، لا المفعول الذي يؤتى، هو الذي يجلل ويستوي على من هو أهل... لا يُدّعى بزعم ولا يُنال بغَلَبة وحشد وسعي.

ذاك قلب العذراء «مريم»، التي أصطفاها الله وطهرها وأصطفاها، فغدت سيدة نساء عالمها... لم تطق إلّا أن تنزع بها طبيعتها البشرية، وتنقاد لعاطفتها وتغلبها الأمومة، فترق لوليدها «المسيح» عليه السلام وتتعلّق به، ويشغل قلبها، فيفرغ بذلك المقدار.

فكيف تراه كان قلب «الحسين»؟

قلب لم ينل منه ولد، ولا شغله أهل، ولا دخلته دنيا لتخرج، ولا شهوة لتكبح وتروّض؟ ولم يفرغ منه حب الحبيب عز وجل لحظة ولا قيد أنملة؟ قلب وسع الوجود والموجود، لم يخترم الحب فيه بقدر سم إبرة أو حبة خردل أو ذرة، ولم يخل أو يفرغ طرفة عين أبداً؟ يتدفق الحب منه وينحدر، ويتفجر ويفيض، حتى يبلغ العطف وتصل الرحمة أن تنال القتَلَة وتدرك مَن تكالب عليه وعلى أهل بيته، فتشفق حتى تبكيهم وتتحسر على ضياعهم، وتتألم أن جعلها الله أبتلاءً لهم وأمتحاناً، سقطوا فيه وهَوَوْا؟!

إنه القلب الذي أحترق من «العطش» فلم يعبأ، وأكتوى بفقد عزيزه «الأكبر» فلم يهتز، وأنصدع من مصاب أخيه «العباس» فلم ينصرف، وأنفطر لطفله «الرضيع» فلم ينثني، وجزع لأبن أخيه «القاسم» فلم يستسلم، وأضطرم من لوعة «حبيب» و«عابس» و«برير» فلم يغفل، وأنهاث مما ينتظر أخته «زينب»... فلم يمسك أن يخفق بحب حبيبه وينصرف عنه.

* * *

أوّل لي «الشيخ» رؤياي، وأرشدني لخيري، وصرفني لوجهي، ولم يخل الحال من غبطة أظهرها، تعمّد أن يصارحني بها، وهو يقول: "كما تقول العرب: اللهم غبطاً لا هبطاً"، كأنه ينفي ما قد يداخلها في نفسه، أو أن يحذرني من البوح بها وإفشائها، فتكون في معرض العين وشر الحسد.

أوصاني بجملة وصايا، أذكر منها (من الذكر لا التذكر):

* إذا عفوْت يوماً عمّن ظلمك وأمر بحبسك، فلا تتخلى عما سُجنت له، وتمسّك به، بل عض عليه بالنواجذ.

* أحْسِن إلى أهل البرزخ، من صالحي أموات المؤمنين، من أرحام أو علماء وعرفاء، بما تيسر لك من ختمات القرآن أو استنابات الحج والزيارات أو عموم البر، فهم أقدر الخلق على رد المعروف.

* الكِبْرُ مثل الشرك، أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، تراه في الأمراء والأعيان، وفي الأغنياء والميسورين، مَن أعماهم المال وأصمّهم الجاه، كما تجده في أقل الناس علماً وأدناهم شرفاً وأضعفهم مالاً وسلطة وأحقرهم مكانة وقدرة وأخسّهم شأناً وقيمة!

رجعت أحسب الساعات والأيام، وأرتقب المناسبات، وأتحيّن الفرص والمظان، من رقي الحال وتحسن المآل...

ولكنها لم تأت حين أتت، إلّا على حين غفلة، ومن حيث لم أحتسب.

* * *

الفصل العاشر: العقود العشرة

العقد الأول: الماء والعطش

عَجباً له يشكو الظَّماءَ وإنّه
لو لامَسَ الصَّخرَ الأصمَّ تفجَّرا

"فكأن الدنيا لم تكن وكأن الآخرة لم تزل"...

بهذه الجملة المقتضبة القصيرة، بكلماتها المعدودة، لا أكثر منها ولا أقل، ما زاد عليها ولا أضاف إليها، كتب «المولى» إلى أخيه «محمد بن الحنفية» وجماعة من «بني هاشم»، أول نزوله «كربلاء»، لم يسبقها إلّا: "أما بعد"، ولم يلحقها إلّا: "والسلام"... ملخّصاً الموقف ومختزلاً الحدث.

وكان هذا الموجز خطاباً شاملاً وبياناً شافياً يجمع كل ما أراده «المولى» من «الرسالة» التي حملها في الحياة. فقد بلغت الحركة ذروتها ومداها، حتى «سكنت» فكأنها لم تكن! فالسرعة، في كل متحرك مطّرد، تتزايد وتتزايد حتى تدخل في اللانهاية وتصل ما وراء المعدود، فلا يعود لها رقم ولا تسجيل عَدَدي، وتعود «صفراً» من جديد، ويرسم لها الرياضيون خطاً منحنياً يمتد ليلتوي على نفسه ويصنع دائرتين متلاصقتين أفقياً (Infinity)... وكأن الجسم المتحرك أصبح في سكون، بل كأنه تلاشى وانعدم، قد انعتق من كل قيد وانسلخ من كل اعتبار، وتخلّص من كل تعدد وكثرة وازدواج!

وقع «الوصل» والأتصال، وكان الوصال... لا بزعم ليس له حاصل، ممن ظن أنه طوى المراحل والمنازل، فحرم الوصول لتضييعه الوسيلة والأصول:

وَوَصْلُكُمْ هَجْـرٌ وَوُدُّكُمْ قِلَـىً
وقُـرْبُكُمْ بُعْد وسِلْمُكُمْ حَـرْبُ

لكن بتحقّق الأنقطاع عما سوى الحق. ومَن لم يغض الطرف عما تحت «العرش» لم يصل إلى ما فوق «العرش»، ومن لم ينفصل لم يتّصل. وليس المراد أتصال الذات بالذات، مما يكون بين جسمين، فتوهم هذا المحال في حقّه تعالى كفر، إنما الأتصال بالحق على قدر الأنفصال عن الخلق.

لقد وقع وتحقق مظهر الوحدة الحقيقية الواصلة بين الظهور والبطون، وقد سبقت المحبة الرحمة، إذ أحب سبحانه أن يُعْرَف، فخلق الخلق لكي يُعرف، أي أن الرحمة كانت تالية ومتأخرة عن المحبة، هكذا تكون قيُّوميّة الحق للأشياء، فإنها تصل الكَثْرة بعضها ببعض حتى تـتّحِد، وبالفصل يتنزّه العارف عن الحدوث. ومن عرف الفصل من الوصل، والحركة من السكون، فقد بلغ مبلغ القرار في التوحيد. إنه فناء العبد بأوصافه في أوصاف الحق، وهو التحقق بأسمائه تعالى المُعَبّرُ عنه بـ «الإحصاء».

لقد وُصِل الفصل، وشُعِبَ الصدع، وجُمِع الفَرْق، وظهرت الوحدة في الكَثْرة. فإن الوحدة واصلة لفصولها بأتحاد الكثْرة بها وجمعها لشتاتها. كما أن فصل الوصل هو ظهور الكَثْرة في الوحدة، فإن الكَثْرة فاصلة لوصل الوحدة، مُكَثِّرة لها بالتعينات الموجبة لتنوّع ظهورها في القوابل المختلفة، أختلاف أشكال الوجه الواحد في المرايا. لقد تحقق الوصل، وكانت العودة بعد الذهاب والعروج بعد النزول. فـ «الإنسان» الذي نزل من أعلى المراتب، من الوصل المطلق في الأزل إلى أدنى المهاوي، أي عالم العناصر المتضادة، ليقيم في حضيض «الدنيا» ويسير في خلق ربه، ها قد رجع عبر هذه العرصة الملكوتية (كربلاء) إلى مقام الجمع، ومن هذه الساعة العرشية (عاشوراء) من السلوك إلى الله وفي الله، والأتصاف بصفاته والفناء في ذاته، حصل على الوصل في الأبد، فعاد كما كان في الأزل وإلى الأرض بَعْدَ ما نزل.

لعمري، ماذا أراد «هوميروس» في «نشيد الزمان»، صدّر به ملحمته الخالدة «الإلياذة»؟ لماذا يتداعى لي نشيد «الإغريق» هنا فأستحضره الساعة وأنا في هذا المقام المهيب والمشهد الرهيب؟ أهو وجدان البشرية النابض بالحق وبالإنسانية في كل أمة وحضارة؟ هل هو عين «الحياة» وشلّالها المنحدر ونهرها المتدفق يصل الماضي بالحاضر، ويقوده ليأخذ بيده نحو القادم؟ يقع على الحدث الأعظم «حياةً» و«نبضاً»، يَمُرُّ به أو يحاذيه، فينظم له وينشد، ويتغنى به ويهيم، دون أن يدري أو يعي؟

قصيدة الماضي وغناء السلف، وحداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد، ركبانها الآلهة، و«أبوللو»، و«كيوبيد»، وملؤها ولدانها المخلّدون.

أنشد يا «هوميروس»! وأملأ الأحقاب موسيقى، واللانهاية جمالاً وسحراً. فالأرواح ظامئة، والقلوب متعبة، والإنسانية واجفة، والآذان مكدودة من دوي العصر، فهي أبداً تحن إلى سكون الماضي.

لن تصمت يا «هوميروس»! فالقيثارة الخالدة لا تزال بيديك. والقلوب هي القلوب، فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً، فقد أوسعتنا هذه الدنيا أنيناً، ورنينك العذب أَذْهَبُ لأنين الشاكين ولوعة الباكين.

إنه صدى الحق يدوي كلّما اعترضت جبالُ الحب موجات الإبداع وجالت بأوديته، وأينما ترقرَقَت نسماته وتخلّلت الأوراق والأفنان، أرسلَت ألحان الجمال، ورتّلت أُنشودة العشق وعزفت لحن الخلود...

كل جميل في الوجود يهتف بأسم «المولى»، ولو كشف الغطاء لسمعنا، ولكن غلبتنا طينتنا وأثاقلت بنا شقوتنا فأصمّتنا وحجبتنا عن هذه المزامير والتراتيل. فإذا عُدْنـا في معادِنا لندق ياقوتة حلقة باب الجنة الحمراء، على صفيحتها الذهبية، طنّت ونادت، وسمعناها تهتف بأسم «المولى»!

آه من هذا المشهد والمحضر، ماذا في هذه الأرض والتربة من مثير أحزان ومهيج كمد؟... زفرات تضرم الأنفاس وتستوقد الصدر وتصلي الضلوع، وتمزق الأحشاء، وأنت لم تطّلع على شيء بعد!

آه آه، هنا تعرف ماذا تعني أرض الكرب والبلاء...

ها قد عاودني الأمر من جديد، بل غلبني!

لن أفلح في الثبات، هذه الهموم تهجم عليّ وتستحوذ، والضيق يدهمني ويحاصرني، والأحزان تنحدر وتنصبّ لتسكنني... ذلك بمجرد الإطلالة على هذه البقعة، وما رأيت بعد إلّا «الركب» وقد آتلف كجُمّاع الثريا.

لطالما آثرت في أيامي الأخيرة الأنفراد، وكنت أميل إلى الخلوة وأخلد إلى الوحدة والعزلة، حتى صرت حلس داري وجعلت من بيتي صومعتي، لا أُخالط إلّا نزراً من الأصحاب ونخبة ممن آتلِفُ معه في الفكر والعقيدة وألتقي في الهموم والمعاناة، متجنباً ومتحاشياً كل من يخالفني، ولو كان ذلك في أدنى رأي، مما ينشأ من التفاوت في طرق الفهم!... ولكني الساعة أُريد مَن يصحبني ويخرجني من وحدتي، بل أنا أستجدي أي أخ يمُتّ لي بصِلة ولو بعدت، كائناً مَن كان، ولن أسأل عن قوله في الولاية التكوينية، ورأيه في الشفاعة، وموقفه من الرثاء واللطم والبكاء! يكفيني كونه محباً موالياً... أُريد ركناً آوي إليه، يقاسمني قلقي وأضطرابي، ويشاطرني خوفي وهلعي، فهنا أيضاً بعد القلق، وحشة وخشية، وخوف ورهبة، ورعب ووجل.

لا سبيل، لا أحد هنا... ما زلت بالخيار، بإمكاني الأنصراف.

هنا، وأنا في قاع اليأس والإحباط، تحسّست وَسْمَةً من لسعة كَوَتْني بها جمرة في أخمص قدمي، شعرت أن البرد بدأ يتسرب إليّ ويدب في بدَني منها، وندوباً في ظهري خلّفتها شقوقٌ وجروح، أخذت السَّكينة تنفذ فيها وتتخللها، وتلمّست شَجَجاً من آثار فَلَق و«طبر» في هامتي وصلَني المدد ونزلت عليّ الرحمة عبرها، وحطّت النُصرة وجاءني الغوث والأمان منها... فأنقَلَبَتَ حالتي وتغيّرَت نيتي، وعُدْتُ ماضي العزم، ممتلئاً بالصبر، جازماً على الثبات، متمسكاً بالبقاء، مصراً على المضي في ما قدمت إليه.

آثار خلّفتْها على بدني (المترف)، طقوس إحياء ذكرى «عاشوراء»...

كانوا قد احتفروا حفيرة ناهز طولها عشرين ذراعاً وعرضها ثلاثة، ملؤوها حطباً وأضرموا ناراً احتدمت، ما سكَنَتْ شعلُها ولا خمدت إلّا على لهب يستعر وجمر يتلظّى، ولفح وسَفع ينال مَن تباعَد ونأى، ووهج وإحراق يصيب مَن قَرُب وتداني. وكانوا كلّما باخَتْ وخف حرّها وصلاها وهمد لهيبها، عمدوا إلى المنفاخ لحَضْوِها وحَشّها!

ثم نادى المنادي بأن: حرارة الهجير والحصى الملتهب، كهذا الجمر المستعر أمامكم، كانت تلسع في رمضاء «كربلاء» قدمي مولاتنا «زينب» عليها السلام وقد أذهلها الروع، فاحتفت حين خرجت إلى مصرع أخيها «سيد الشهداء». أو كأنه قال إن الحصى في البيداء، في طريق السبي بين «الشام» و«كربلاء» كانت تكوي أقدام بنات «النبي» صلى الله عليه وآله.

ونحن الساعة سنواسيهن، وندخل هذه النار ليكوينا جمرها!

أبكاني القول، وهيجني مرأى طفل لا يتجاوز العاشرة تلا: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وهزّني وهو يقحم بقدميه الصغيرتين الحافيتين الحفرة المضطرمة، يتقدّم بزهو وأناة كباسل يخطر بين الصفوف يطلب البراز... فلحقته ودخلت مع الباكين اللاطمين، وخرجت معافىً، إلّا من جمرة صغيرة التصقت بباطن قدمي، تركت فيها تلك الوسمة.

من ذلك الأثر، ومن نُدَبِ ضرب «الزنجيل» (وهي سلاسل تنتهي بأمواس يضربها النادب على ظهره، فتجرحه وتدميه)، وبقايا شقوق «التطبير» في هامتي، تراها في رؤوس «المحلّقين» صبيحة كل «عاشوراء»!... من هذه وتلك، تخلل إليّ الساعة البرد، وتسرّبت نسمات الرَّوْح والرحمة، والغوث والنجدة، أعقبتها الطمأنينة والسكينة.

وقفت من جديد أتأمل المشهد، وقد فرَغْتُ من حالي وانتهيت من انشغالي بنفسي... رباه، كم هو خطير هذا الانشغال، يكاد يحرمك أعظم النعم، ويفوّت عليك أكبر الفرص.

❁ ❁ ❁

كان نزول «الركب» «كربلاء» في الثاني من المحرم.

وكان أول ما واجهه من المحن والأرزاء: «الماء»...

أصرّت أوامر «عبيدالله بن زياد» وشدّدت، وأكّد اللعين على أمرائه وغلّظ، أن ينزل «الركب» بعيداً عن الماء، ويُصَد عن ورده بلغ الأمر ما بلغ.

آه، أين تراه سيأخذنا هذا «الماء» ويبلغ بنا؟

ألا ليتها غاضت كل مياه الأرض، وجفّت الأنهار، ونشّت الغدران، ونضبت الآبار، وغارت العيون... ألا ليت العطش ما كان ولا الصدى، ولا كان الارتواء والندى، ولا جعل الله الماء سر الحياة وعَصَبه، فأحيا منه كل شيء وأمات! ليتَهُم ما عطشوا ولا ألتهبت منهم حشىً ولا ساحت دمعة وذبلت شفة، ولا طلب أحد الماء... ليته ما نفر «حامل اللواء» إلى المشرعة لتهوي به أعمدة الحديد، ولا رُفِعَ «الرضيع» لترويه السهام وتفطمه من الحياة على راحتي أبيه!

لعمري ما الذي سعّر الظمأ وأوقد الجفاف ونشره هنا كالهشيم؟

أمِن تضافر: فرط الإرهاق، والعَرَق، والبكاء؟

هذه طفلة لـ «الحسين» تدعى «رقية»، أيقظ صراخها الخدم وأفزع الإماء، فأقبلن مسرعات إلى الفسطاط الكبير وفي أيديهن القناديل والشموع، فوجدن سيدتهن الصغيرة تخمش وجهها وتضرب صدرها وتشد شعرها! وهي تبكي تارة وتصرخ أخرى، والخدم واقفون في ذهول وشَدَه، لا يدرون ماذا يقولون... حتى وصلت «عمتها» الكبرى وسألت عما هنالك؟

فتجيبها الطفلة:

لقد أودى أبي، لقد قتل وحز رأسه!

لقد زارني طيفه الساعة، مضرجاً بدمه، وكان يبكي، أتسمعين يا عمة؟ لقد كان يبكي، وطلب إليّ أن أبكيه، وأذرف عليه صيّب دموعي، وقال إنه يحزنه ألا يكون له بواكٍ، ويحزنه أن تضيع مصيبته فلا يعلم بها أحد، فجاء ينبئني بها بنفسه، ولكن في الحلم. لقد كان هو الذي يكلّمني يا عمة، وقد حاولت أن أضمه وأرتمي في أحضانه، ولكنه كان طيفاً، طيفاً مكتئباً تترقرق

في عينيه الدموع، لم يذهب عنه جماله ولا غاب نوره وريعانه، ولكنه كان مبتئساً، كان يقف هنا، في هذا المكان، (وأشارت إلى جوار مدخل الفسطاط) حزيناً، يطلب أن أبكيه، وها أنا ذا أبكي، فأبكوا معي، وليبك كل أحبابه والأوفياء له، أبكوا الوحيد الغريب، أبكوا الشريف النجيب.

ثم أغمي عليها، فما أفاقت حتى عادت إلى نحيبها ولهفتها. وعمّتُها تسليها: هذا أبوك يا «رقية» بخير وسلامة، مجتمع الساعة مع رجاله في مخيم «الأنصار»، سأرسل في طلبه فتقر عينك ويزول أثر رؤياك.

كانت مثل هذه المنامات تتكرر في غيْر طفل وطفلة، وهكذا أسباب البكاء وبواعث الجزع، لا تدري من أين تنحدر وكيف تتقاطر وتنصب، تشق مسارب نفوذ الدمع وتستنزفه، وتورث الصدى والجفاف.

وإذا كان البكاء من الحزن والخوف والقلق، يأخذ بعض نداوة البدن، ويأتي على جانب من رطوبة الأعضاء وينخفض بنسبة البلل في العروق... فإن قيام الليل وتهجد الأسحار وقرآن الفجر، وما كان يبعثه من بكاء ونشيج ونحيب، إذ كانت الأعين تفيض من تضرع وخيفة، وحب ومعرفة، وشوق ولهفة، ورضاً وتسليم، حتى لتخشى أن يكون حتف أحدهم في صلاته، وموته وهلاكه في نوبة بكائه... كان هذا يأتي على بقايا الطاقة في تلك الأبدان النحيلة، ويستنفد مخزون الريّ ويبدد النقعة والنجعة.

أما البقية الباقية والثمالة المخلّفة في تلك الأجساد، فكانت تتولاها الشمس ويعالجها الهجير، وحر يصهر الحصى ويذيب الجلاميد...

كنت في هذا، إذ رأيت ما أذهلني!

هذا إبليس الأبالسة، هذا «زقلل» ومعه رؤوس الشيطان كلّها... ينقز بين الجموع ويطمر، ويتردد بين الصفوف ويطفر؟!

ثم يعود إلى الحلقة التي جمعت الأبالسة يدور فيها، يمد عنقه إلى هذا ثم يلويها إلى ذاك، وجسمه في مكانه، ثم يقوم ليشاغل بيديه ويعالج شيئاً، بينما رأسه يحدّث شيطاناً آخر! يأخذ من هذا ضغث ليواطئ ويطبّق، ويطرح من ذاك ليؤلّف ويوفّق، يميل ويمالئ، يرتف ويدمج، يتبع ويؤاتي.

ألم يمت هذا اللعين؟ ماذا جاء به من جديد، ماذا يفعل هنا؟ كنت أظنه هلك، صُرع وآغتيل، ولكنْ ها هو يظهر من جديد! يبدو أن هذا الشخص الشيطاني لا يموت، وهو مُنظَر، وسيبقى ليمارس دوره إلى يوم يبعثون!

لم أتعرّف «الرؤوس الستة» الأخرى لـ «إبليس» ولم أميزها جيداً، ولكني رأيت «شمر بن ذي الجوشن» متنحياً في جانب، يستند إلى عمود خباء قريب من مصطبة الشياطين، بل كان مستلقياً كمصروع تتلاحق عليه نوبات الإغماء، تتخلّلها إفاقات يرقبك فيها بما يشبه نظرات السكارى، فما تدري هل أفاق أم أنه في إغماءته يخمد. وكان وجهه يتبدّل بين لحظة وأخرى وما زال في كل نوبة يتلبّس بوجه أكثر قبحاً وكرهاً من سابقه، فتعتريه رعدة ونفضة، ثم يعود إلى حالته الأولى، حتى أنخلع عليه ـ بعد موجات تتالت ـ وجه «عندق»، أو أنه «زبل»، لست أدري، ولكن المؤكد أن شقوته أفسحت لطائفٍ من «إبليس» أن يمسّه، بل كأنه حلّ فيه وتلبّس.

حل فيه الشيطان وهيمن وآستحوذ عليه، فقام منتفضاً من مكانه كأنه أنفلت من عقال، وعاد إلى نشاطه وصحته و«صحوته»، وآنصرف إلى موضعه في المعسكر وموقعه بين القادة إلى جوار «عبدالله بن الحصين التميمي» و«شبث بن ربعي» و«حجار بن أبجر» و«يزيد بن الحارث» و«قيس آبن الأشعث»، وهو على حالته الجديدة وهيئته المتغيّرة، مسخ مشوّه في أنكر خلقة، دون أن يثير في أصحابه آستغراباً، وكأنهم ما زالوا يرون بشراً!

ما الذي جمع هؤلاء هنا، وماذا يدور بينهم؟

كان «إبليس» بصورة من القبح والنكير، أقرب ما تكون إلى التي رأيت وأنا بصحبة «فطرس» ـ أول جولتي ـ في ذلك الوادي السحيق... ها هو ينزل هنا، في قلب معسكر «بني أمية»، إلى جوار فسطاط القيادة، حيث «عمر بن سعد» يذرع المكان جيئة وذهاباً.

هناك نزاع محتدم بين «رؤوسه الستة» وجمعٌ من كبار الأبالسة وعتاة الشياطين ومردة الجن، حتى كأن الرؤوس تتناطح، وقد آحمرت الأعين وجحظت، وآرتفعت القرون وآنعقفت!

كأنهم تشاقُّوا وتنادَوْا، واختلفت كلمتهم وانشقت العصا بينهم:

بين متخوّف حَذِر، ومرتاب يخامره الشك، ومُنكِر مُتوجِّس، فمحذِّرٌ متوعّد، أن ليس الصلاح في ما هم مقدمون عليه، ولا الصواب في ما يريدون إنفاذه الساعة من قتل «الحسين»! إنه «القربان» الذي ينتظره الله وترقبه قوى الخير منذ خلقت وكانت، الموعود أن تطوى بعده الحياة وتنتهي، ويعود الجميع للقاء الله ويمثلوا للحساب والجزاء. إنها الخطوة الأخيرة من نهايتهم، والجولة الفصل في معركتهم التي دامت الحياة كلّها.

فلماذا يُقْدِمُون على ما «يريد» الرب ويحقق غايته ورضاه؟!

لماذا يسمحون لـ «التكامل» أن يبلغ مداه، والتضحية أن تصل أوْجها وتبلغ ذروتها التي يباهي بها الله ويشكر، وتزهو ملائكته وتفخر، وتقر أعينُ أنبيائه ورسله وتهنأ، وكل الأولياء والصالحين من العباد، الذين طالما خاضوا معهم الحروب وناصبوهم العداء؟ إنها عقبة لا تُرتقى إلّا عن سفوح هزيمة «الشيطان»، وقمة لا تُبلَغ إلّا وقد خلّفت وراءها منحدَراً يضم كل مجد وقدرة ودَوْرٍ لـ «إبليس»... فصاروا يتنادون: أدرِكوا عظمة ستُداس وتُسحق، وبأساً سيوهن، وعزماً سيُفَل، وأنفاً سيُمرّغ ويرغم...

أوَنكون مجرد أداة تحقق إرادة الباري؟

أوَنلحق بالبشر ونجاري ونُماهي بقية الكائنات ونصير مثلها؟

أننقاد إلى مشيئة قاهرة ونخضع لقدر ماض؟

بهذا «القربان» ستحقق الغاية من الخلق ويقع المحذور الذي كان موضع التحدّي الأول بيننا وبين الله، والرهان الذي استبعد وأنكر أن يسمو «مريد» «ترابي» «دنيوي»، فيكون في مقام «خليفة الله» من دوننا معاشر الجن والملائكة المقربين من سكان الملكوت الأعلى، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويثبت بالنتيجة ويبرهن بالتحقق والتنجز أن ثمة «إنساناً كاملاً»، وأن الله استطاع أن يجعل من خلق ترابي مريد، يعيش في أرض، «خليفة» يحمل صفاته ويحكي كماله.

أين إذاً بأسنا، وأين كيدنا، وأين سطوتنا؟

إنه أستدراج، والمضي فيه يعني الأستسلام وإعلان الهزيمة!

كانت طائفة تنادي بهذا، وأن عليهم أن لا يسمحوا لهذا الذبح أن يقع ويكون، ولهذا «القربان» أن يُقدّم ويبذل، بل عليهم أن يحولوا دون ذلك بكل ما أُوتوا من عزم وقوة، ويمنعوه أن يكون بكل بأس وسطوة، وأن يزيّنوا لهذا «الركب» ويحتالوا ما أستطاعوا ويغروهم ويغووهم، حتى يثنوهم عن قصدهم.

ومقابل هذه الرؤوس الشيطانية الحذرة المتوجسة، المعترضة والممانعة، رؤوس أُخرى موافقة ومرحِّبة، تزعم أنها فرحةٌ ما بعدها فرحة، وعيد حق أن تتخذ فيه الزينة، ولمن شاء، ممن ركب على أسم الله وتقدّم على تكبيره وتهليله، أن يصوم أمتناناً لربه وشكراً!:

كُفّوا، كفتكم المنية والهلاك!

ما هذا الهذي والخرص والهراء؟

أيرضى الله بقتل حبيبه والفتك بأوليائه؟

أن تقتل أمّة أبن بنت نبيها، وتهتك حرمته وتسبي نساءه؟

ماذا بعد هذا وفوقه؟ لا أدري ما أعتراكم ونزل بكم حتى صرتم تختلفون في أوضح الواضحات، وتجعلون منها معضلات؟!

ألا تعساً للحمق والسَّفَه، وسحقاً للجهل والغباء!

ستنتهي بعد قليل حياة أحب خلق الله إليه وأقربهم منه وأعظمهم منزلة لديه، وأنتم مختلفون مترددون؟... بعد ساعات سيهوي «ولي الله»، فيفجع «جده» نبي الله، ويصاب «أبوه» خيرة الله، وتثكل «أمّه الزهراء» ويهتك حجاب الله، هل من داع للفرح والبهجة أكبر من هذا؟ فسادة «جبهة العدو» وقادتها في حزن ومأتم، وعزاء مقيم لا يخرجون منه ما دامت السماوات والأرضون. أي نجاح وظفر، وأي عز وفرح وبلج يفوق هذا؟ أوَتزعمون أن الله يريد لهذا أن يتحقق وينجز ويكون؟ أوَتظنون أن شيئاً يغضب الله ويسخطه، ويزلزل عرشه ويهتك حجابه أكثر مما أنتم عليه مقدمون؟

لعمري، حق للشياطين أن تعجز عن الفهم وتختلف فلا تستقر على رأي! كم هي صعبة وممتنعة هذه المعادلة: قدرٌ وإرادة، قضاء وخيار؟

أمور جرت في علم الله وتحققت وكانت، ثم يُخلىٰ لها السبيل لتجول في قضائه وتتقلب في مدارج عجلة الأقدار، مريدة مختارة، لا تقهر على فعل تأتيه ولا تجبر على قرار تتخذه، حتىٰ تحاسب وتثاب وتعاقب!؟ حق أن تبلغ الأقلام هنا فتجف، وتنثلم أسنانها وينضب منها الحِبْرُ والمداد، وتطوىٰ الصحف ولا تنشر إلّا علىٰ تسليم وانقياد، بعد عجز ونفاد...

أكثر ما كان يغيظ «زقلل» ويقطّعه، يوقد للحسد في نفسه ويسجره فيكبته، حتىٰ يجرض بريقه من كمد، ويتوغر من غيظ، ويستوقد من حنق... شعوره بالصّغار والذلة، والهوان والحقارة، رغم الحفاوة والتبجيل والخضوع والانقياد الذي يلقاه من معسكر «بني أُمية»، ورغم كل العزم والقوة التي يتمتع بها الساعة، عُدّة وعديداً، موقعاً وحالاً.

كان في داخله مهزوماً وفي نفسه مُهاناً، ضربت عليه ذلة لا سبيل للخروج منها، واستوطنته دناءة لا مفرّ منها ولا مهرب، وتملّكته ضراعة لا منجىً منها ولا خلاص! جيش جرار لا يُرىٰ آخره، وحصار محكم فرض على عدوه، وهلاك ينتظر هذا «الركب» بكِبَاره قبل صغاره ونسائه بعد رجاله، نصر لا محالة واقع على يديه وظفر متحقق متىٰ شاء من إصدار أمر: "يا خيل الله اركبي"!... لكنه، رغم كل ذلك، كان يشعر أن عدوه أكبر منه شأناً وأعلىٰ كعباً، لا عند الله وفي مقاييس الغيب وقوانين السماء فحسب، بل في وقائع الأمور على الأرض، وفي موازين الدنيا وضمائر الأمم وقيم المجتمعات. ما كان لينفك من عقدة موصوم أصله ولئيم حَسَبِهِ وخسة قدْرِه، ولا ليخرج من النظرة إليه والصورة التي لصقت به وتأكدت فيه كلّما تأكدت قيم الدين وترسخت في الإسلام معايير التفضيل، إذ كان يشار إليه ويصنّف: دون، وغد، جلف، نذل، دعي، عرّة من الحشو والزنمات، وخالفة من الأسقاط والحثالات، رغم ما تبوّأه من مناصب وبلغه من مقامات، وما انتهت إليه من السلطات ووصلته من الزعامات... كان دنيئاً في نفسه.

ومما زاد في هذا الطنبور نغمة، أن الرجل كان «مثفاراً»!... ما أوغل من تركّب العقد وتشابكها فيه، ورسّخ من تجذّرها وآستحكامها، وأورثه حقداً عجيباً على الأطهار والشرفاء والنجباء!

و«المثفار» هو المَأبُون الذي يُؤتَىٰ في دبره. وهو داء سرىٰ وتمكّن في الذين يعادون «آل محمد»، حتىٰ صار عنواناً لهم يعرفون به من بين الرجال! وقد آشتهر عن «أبي جهل» وذاع أنه كان مثفاراً، كأنه لشدة الأُبْنَةِ به وميله إلىٰ الفِعْل به، صار كمَن يطلب ما يُرمىٰ في مُؤخره، لكثرة شَبَقِه. وهكذا كان أعيان «الشجرة الملعونة» وكبراؤها، وكل من كان يكيد «محمداً» وأهل بيته عليهم صلوات الله. وقد رَوىٰ أبوعمر الزاهد في «أماليه»، عن السّيَارِي، عن أبي خزيمة الكاتب، قال: "ما فَتَّشْنَا أحداً فيه هذا الداء إلّا وجدناه ناصبياً. وما كانت هذه الخصلة في وَلِيٍّ لله قطّ، وإنما تكون في الكُفّار والفُسّاق، والنّاصب لأهل بيت النبي الطّاهرين".

كان هذا الواقع المرير يورث الرجل حزازة تحز قلبه في كل حين فلا يهدأ، وتخلّف فيه غصة تنكأ جروحه، يود معها لو يشق عن صدره بمدية، كمن دخل جوفه الحسيك وقد قبع وتكوّر بأشواكه! كان الحقد فيه يتراكم والغل يتدافن... وكثيراً ما كان يتساءل في نفسه:

إنها شهوة فُطِرتُ عليها، لا خيار لي في ردّها، ولا أملك لها دفعاً إلّا أن أشبعها، فأي ضير في ذلك؟ مَن له أن يربط فعلاً يمارسه البدن، بحالة قلبية تعيشها الروح؟ ماذا في الأُبْنَةِ واللواط حتىٰ يجعله الإسلام علامة للنفاق وفساد النفس وإكنان البغض والنصب لـ «آل محمد»؟ أي سوء في هذا الفعل حتىٰ يشرع له الله حكماً بهذه القسوة (يلقىٰ من يفعله من شاهق ويُرَض حتىٰ يموت)؟! إنها شهوة بدَنِيّةٌ ورغبة جسدية وحاجة فرضتها «طبيعة» ما، شيء أشبه بالمأكل والملبس، ماذا علىٰ مَن عاشها وفعلَها، دون آغتصاب المقابل وإكراهه؟ أتكشف شهوة آمرئ في تناول طعام ما، ولنفترض أنه طعام كريه، عن خسة ودناءة في نفسه تستدعي حكماً بقتله أو نبذه من المجتمع وآحتقاره بهذا الشكل؟

كان الرجل يراها مؤامرة قَصَدَتْه، وأحكاماً ما جُعلت إلّا لتهينه وتشنّع عليه، إذ الأمر ما كان ينبغي أن يتجاوز ـ في واقع الحال وأسوأ المواجهات ـ في تصنيفه والنظرة إليه: داء لا حيلة لمن نزل به، ومرض ينبغي علاجه وتطبيبه، لا أن يهتك المصاب به، بل يقتل!

كانت هذه التراكمات تتوثب شراً مستطيراً، وتعلو نائرة، متحينة أية فرصة للانتقام، وسانحة تبرد ذاك الغليل الذي يجيش.

كان الرجل معقداً من الشرف والشرفاء والنبل والنبلاء...

فطيب الأصل وشرف المحتد، والنبل والكرم والشجاعة والصدق والأمانة وما إلى ذلك، قِيَمٌ تفرض نفسها، وتُرغِم مَن أمامها ـ كائناً مَن كان ـ وتحكم وتعلو حتى في أخس البيئات وأدنى النفوس.

هناك سُراة وأجلّة، وغطاريف وعِلْية، وهامات وأشراف، أعيان فضل وأقطاب فخر وسادة عز، يَعْظُمون في عيون الناس وينبلون، ويكبرون في الأنفس ويسمون... وهناك سقّاط وطغام، حثالات ولئام، أراذل وأقذاء، حشوة وغثاء، أوْغاد وغوغاء، زَمَعٌ وبوغاء. هكذا كان الناس وما زالوا، يُصنّفون في مراتب ويُنزّلون في منازل، وإن اختلفت المعايير بعض الشيء بين مجتمع وآخر وتفاوتت من ملّة إلى أخرى، فإن هناك كمالات إنسانية مشتركة وقواعد مطّردة، لا تكاد تتخلّف إلّا في شواذ البيئات ومنكَر الجماعات.

كان «زقلل» يتميز غيظاً ويتقطّع حنقاً من عدوه، ويتقطّع من علو تلك النفس الأبية والروح المطمئنة، ويتلمس الفارق والبون، كلّما قارنها بنفسه الدنيئة وروحه المضطربة.

وإذا كان ينشر بين جنده خطاباً مؤداه:

سيُهان هذا الثائر ويصغُر، سَيُرْغم ويستسلم، سيبايع «الحسين» وينزل على أمر «الخليفة»، ويتخلى عن هذا التعالي والشموخ ويترك المكابرة والعناد. أو أنه سيُقتل فيفنى، ويسحق وأهل بيته فلا تبقى لهم باقية؟...

فقد كان يعيش في نفسه حقيقة أُخرى، واضطراماً من أوار يختلف، فرضه الواقع بمفارقته والحال بآثاره على سلوكه، يحكيه خطاب:

أبيت اللعن، كم أنت عظيم يا «أبي الضيم»، من أين تأتيك هذه العظمة؟ أفِطَرة فُطرت عليها، أم إرث بلغك من آبائك؟ أم إكسير جرىٰ في غذاء فطمت عليه، سرىٰ في دمك وخالط لحمك حتىٰ بلغ روحك؟ من أين تتعالىٰ علىٰ كل شيء؟ كيف ترقىٰ وتسمو وتحلّق حتىٰ ترىٰ كل شيء - سوىٰ الله - حقيراً وضيعاً تافهاً؟ بل تصنفه وَهْمٌ وخيال وأعتبار زائل؟...

كان هذا الخطاب يدوّي في داخله ويهيمن علىٰ روحه، وربما تلجلج فخرج منطوقاً وجرىٰ علىٰ لسانه ولسان غيْره؟!

كان النزاع بين الشياطين ما يزال محتدماً، وهو سر التردد الذي كان يُرىٰ في موقف القوم، وسجّله التاريخ في معسكر «يزيد»، بين مَن كان يريد القتال ويصر علىٰ قتل «المولىٰ»، ومَن يريد لـ «الحسين» مجرد الاستسلام والنزول علىٰ أمر خليفة المسلمين وأخذ البيعة!

الأمر في حقيقته نزاع بين الأبالسة ورؤوس الشياطين:

أيقتلون السبط المنتجب، فيتحقق «القربان» وتنتهي الحياة إلىٰ ما قصد «الولي» وأراد؟ أم لا يفعلون، فلا يوجعون قلب «النبي» ويبقون علىٰ «الولي»، يقود الخلق ويهدي إلىٰ الحق ويدير المعركة ضدهم؟

ما كنت أعلم أن الشياطين تخطئ، أو تجهل، فلا تدري ما يصيب دورها ويحقق غايتها ويخدم مهمتها، ولا تعرف كيف تصنع! كنت أحسب أن علمها الغزير لا يناله شك ولا يعتريه ترديد، وأنها ماضية متسلّحة بخبثها ومكرها ودهائها لما نذرت نفسها له من إغواء وإفساد، بعزيمة وجدٍّ ووضوح لا يقف أمامه مانع، فكأنها في واقع الأمر معصومة، لا تخطئ ولا تزل. لكن النقاش والجدال بينها كشف لي أنها ليست كذلك...

أم هو الخطب، أذهلها عن علمها وصرفها عن تدبيرها، وفل عزمها وأبطل كيدها، فطوّح بها في هذه الدوامة؟ لكن يبدو أن «إبليس الأبالسة» حسم النزاع وحزم أمره، فقد غلب الحسد تدبيره وأعماه الحقد عن دهائه، فما مَلَكَ إلّا أن يختار ما يؤلم «النبي» ويجرح «الوصي» ويثكل «الزهراء» ويفجع «الحسن»... ويقضي علىٰ «الحسين»!؟

إنني أرى الشياطين مجتمعين الساعة في باحةِ خَرْبَةٍ، على طَلَل ومصطبة، كأنها منصة، أو خشبة مسرح أعد لحفل راقص، يلوح الشر والإثم في سمائه وتتفجّر الخلاعة والمجون من خلاله، ويفيض الفسق والفساد من جوانبه، والحفل في مقدماته ولما يبلغ مبلغه بَعْد! وقد كان الطَلَل متأرجحاً غيْر مستقر، كأن بانيه ما أحكم ركزه وتثبيته، أو أن العجلة ما أمكنته من دق ورصّ مساميره، بني من خشب أسود معتّق، رغم غلظته وسمكه وقوته وصلابته إلّا أن شقوقاً وثقوباً نالت منه بعض الشيء، فبدا بهيئته ولونه مهترئاً لا يعول عليه، مثل قوائم أرصفة الموانئ القديمة...

قام وسط معسكر «أبن زياد» ونصب هنا، حيث تتصل الشياطين بالجميع وتنفذ حيث شاءت. وقد فرش بنمط وضعت عليه طنافس ومناضد ومقاعد وثيرة، أشبه بالعروش وكراسي الملوك، ولكن لا أحد من الشياطين أستوى في جلسته على واحدة منها! إنها تنزو كالقردة، بعض تقرفص على أذرع المقاعد، وآخرون على ظهورها، وبقية أفترشت الأرض! كأنهم لم يكونوا أهلاً لمثل هذه المقاعد الفخمة، أو أن الوسيلة كانت من الخبث والإغواء والتغرير ما جاوز حتى الشياطين في طموحهم ورغباتهم، فبدوا كقرويين في مدينة أو محدثي نعمة في قصر باذخ.

الحق أنهم كانوا في غاية الأضطراب، رغم ما بدا من سلوكهم المغرق في الغرور، المفرط في الأعتداد من أنهم يسيطرون على الموقف ويمسكون بأزمة الأمور حيث أرادوا ومتى شاؤوا، لكن الواقع أنهم كانوا في أضطراب وأرتباك، بل في خوف شديد ووجل، وما كانت بعض الحركات والتصرفات الغريبة إلّا لهذا اللبك والخلط الذي جاءهم مما لم يعهدوه من تداخل مشاعرهم، فهم - دائماً - يمضون بثقة وأقتدار، ينجزون مهامّهم ويحققون أهدافهم، وقلّ أن غلبهم إلّا مؤمن شكور. هذا ما ظهر لي من مكتوم مشاعرهم ومضمر رأيهم بأنفسهم. ويبدو أنهم يتعمدون النسيان، ويمحون من ذاكرتهم مواقع أندحارهم أمام أولياء الله، ومَن لا سلطان لهم عليهم... فلا يستشعرون الهزيمة ولا يدركون السقوط، فيبقون في غرورهم!

هذا «شيطان النوم»، الذي يرسل أبناءه وأعوانه يغوون الناس بالنعاس، يرخون الأعصاب ويبعثون الخدر في الأجسام، كلّما همّ أمرؤ بعبادة مقرُبة، يمنونه بالراحة والنشوة من دفء الفراش ساعة السحر والفجر، وهنيء الرقدة بين الطلوعين... إنه يقلّب نظره في الجموع المحيطة به ويتصفّح وجوهاً طالما تعهدها برشاش بوله! أراه الأكثر وثوقاً بعمله من بين أقرانه وزملائه، وكان يرسل إلى كل من تقع عليه عينه ويخاطبه، حتى أنا، وأنا أنظر إليه من مطّلعي: أن لك بي عهداً، وقد نلت منك يوماً! ها هو يخطر بردائه المخملي الزاهي، ويتقدم إلى الشيطان الأكبر بتقريره وصحيفة يُبَيِّنُ فيها إنجازه مهمته وإتمامه دوره كاملاً مُتقَناً.

وهذه زمرة تشحذ الظُبات وتسن الرماح وترهف حدود السيوف، تغري بالضرب، وتمنّي بالطعن، وتستهوي بالسفك، ما شاء لها الطيش، وأراد الجهل، وتحفَّزَ الغضبُ، ورغبت القسوة، وأشتهى الحقد.

وأخرى أنتشرت، حتى وقف كل شيطان منها ممسكاً بعضدي جندي في هذا المعسكر المشؤوم، يؤزه أزاً، يحفّزه ويشجعه ويوقظ فيه كل رذيلة في نفسه خَبَتَ، ويستوقد كل دنيئة من خصاله تَوارَتْ!

إنني أرى «عمر بن سعد»... وهو ينزوي جانباً، وقد غار في فكره وأطرق، يتأمل الأفق مرة والعسكر أخرى، ثم يعود ليجلس على صخرة وينكس طرفه ويأخذ بنكث الأرض بِعُودٍ في يده.

وها قد دنا منه «زقلل» معتذراً متذرعاً بسؤال عارض عن بعض شؤون العسكر، وعن أمر جرى في «الكوفة» وخبر ورد لِتَوِّه منها، يتخذ ذلك مدخلاً للحديث و«خطوات على الطريق»، حتى إذا أستحكم مقعده من مسمعه، وتوثق من تأثيره ومغنمه، شرع في حديثه وبدأ ببيان غايته:

ما لي أراك شارداً هائماً يا «عمر»؟

حالة لا تكون لمثلك، لا سيما في هذا الظرف العصيب...

إنما " خلق الله للحروب رجالاً، ورجالٌ لقصعة وثريد " ! مه يا «عمر»، ما لك مطرق ساهم؟! كأنك في ريب من أمرك؟!

ليس الأمر قصة وحكاية، ولا تمثيلاً ورواية، فتجهد حتى تأتي لها بإرهاص وتمهّد بآستباق، وتفكر بما يربط فصولها ويحبكها، وتعمد أن تقتبس وتسرد، وأن تصطنع لها أبطالاً وعناصر تشويق... إنه ميدان يا هذا، إنه حدث يخط التاريخ، وملحمة سيهتز لها الوجود، كان وما زال يخفق به، وأنت من سيخنقه ويجهز عليه، وتنهي نزعه وحشرجته.

أنت صانع الحدث يا «عمر»، أنت بطل الساعة ورجل الموقف. ما هكذا تكون طبيعة الأبطال وسجية العظماء، ولا هذه حال خائضي الدهماء الصامين عن الطماطم، ولا مفجري عظائم الخطوب وصانعي الملاحم. تنح إن شئت وأرجع إلى صفوف الجند، أو عد أدراجك إلى «الكوفة»! ولكني أعرفك، لن تطيق ذلك، لست أنت مَن يعيش حياته في آنزواء، ولا على ضفاف أفعال غيْره، لست أنت من ينجر ويتبع ويقاد، بل أنت من يتقدم ويقود ويُتَّبَع. وما قيمة الحياة دون قتال وإغارة ومجازفة، وخوض الفتن والخروج منها بالنصر والغلبة؟

إن «الحسين» خارج على قومه وبني عمومته، متمرد على إمام زمانه، الذي سبقت له البيعة فآنعقدت، وأجتمعت عليه الجماعة وآتفقت، فأبى إلّا أن يفرق الأمة ويبدد شملها، وينهض بالفتنة ويثير نارها، ويفسد النظم ويخل بآستتباب الأمن... صدّقني يا «عمر»، ما يريد «الحسين» إلّا أن يزيح عِلية «قريش» وأشراف «العرب» عن منازلهم التي أنزلهم الإسلام فيها، فتبوّؤوها عن جدارة بسبقهم أعتناق هذا الدين ونشره، وأستحقوها من حصاد أيديهم في بناء هذا الملك العظيم وتثبيته. يريدها أن تعود للموالي والغرباء، وأن يرجع سيرة أبيه «علي» في العطاء، فيمنع «قريشاً» ما أعطاها الله من تمييز، ويساوي الصحابة بالتابعين بل بعامة المسلمين!

ليس لها غيْرك يا «عمر»، أنت لها لا سواك!

إن «الري» لك، حق خالص وعطاء غيْر مجذوذ، لا ينازعك عليها إلّا مخذول، ولا ينافسك إلّا مهزوم. لا تكون «الري» يا «عمر» إلّا لأبن بطل «القادسية» وفاتح «قطسفون» (المدائن).

ما زالت العرب تفخر بـ «ذي قار» وتزهو بـ «بني شيبان»، حتى جاء أبوك بـ «القادسية»، فغمر مجدها ذلك الفخر، وعمّ عزها ذلك الزهو. إنك ابن «سعد بن أبي وقّاص» الذي أرغم «الفرس» وقهر الأكاسرة، ودشّن فتح «فارس» كلّها، بل أسس للفتح الإسلامي كلّه... حتى أوقفه «علي» وعطّله، ونقله حروباً داخلية وفتناً بين المسلمين! فمَن غيْرك يعيد لدولة الإسلام استقرارها وازدهارها؟ مَن غيْر ابن «سعد بن أبي وقاص» يعيد سيرة الفتح والظفر، ويستأنف نشر الإسلام ويحيي الأمجاد، من ينعش بيت المال ويرجع تدفق الخيرات ويعود بـ «العطاء» إلى سابق عهده؟ من غيْر العظماء يصنع البطولات ويخط التاريخ ويأخذ الثارات؟

لن تسمح يا «عمر» أن يُرغَم «الخليفة» باسم «المقدّس» والقداسة، أليس كذلك؟ لقد أمر «علي» قبلك رماته أن يوجهوا سهامهم في «صفين» إلى المصاحف المرفوعة على رؤوس الأسنة حين رأى فعلها في عسكره، ولكن الوقت كان قد دهمه والحيلة كانت قد انطلت على جنده... والقرآن الكريم أعظم حرمة من «أهل البيت» وأشد قداسة! لا يأخذنك «الشيعة» بهذا الشعار، ولا يغرنك «الحسين» بمقامه من «رسول الله» ومنزلته في الإسلام.

لست منكراً قداسة إمام ولا جاحداً مقام ولي، ولكني منبّهك إلى علّة هذا الحكم وفلسفة السر الإلهي الذي رفع بعضاً من البشر وحط آخرين... إنما جعل الله الحرمات والمقدّسات لتحفظ الإسلام، ولم يكن لها هذا الموقع حتى يفديها الإسلام ويبذل من وجوده في سبيلها! ليس «الحسين» شخصاً، ولا قيمة له في ذاته، إن كان لـ «الحسين» شأن فبقدر ارتباطه بالدين ودوره في خدمته، وهو الساعة يقطع هذا الرابط ويخون هذا الدور، ويتحول إلى مُفْسِدٍ مخرّب يتهدد الإسلام ويعيق حركته وازدهاره. إنه باب يا «عمر» لو فُتح فلن يُغلق، لا بد من حزم وشدة تقطع هذا الطريق. إذا سمحنا اليوم لهذا فسيقوم غداً ذاك، ومن بعده آخرون، وتعود المحن والفتن وتسقط الدولة ويضيع الأمان! سترى «ابن الزبير» يلوذ بقداسة «الكعبة»، وسيتشدّق الأنصار بحرمة قبر «رسول الله» وقداسته... فإلى أين سننتهي!

ثم أعلم يا «عمر» أن «عبيدالله بن زياد» ومن ورائه أميره «يزيد بن معاوية»، وجميع «بني أمية» ماضون في هذا الأمر بحزم لا ترديد فيه ولا توان، وجزم لا كلال يعتريه ولا إعياء... فإن لم يجدوا فيك القدرة والكفاية ولا من ولائك الغاية والنهاية، عمدوا إلى سواك وأستبدلوا بك غيْرك. فالأمر آت بلا ريب، واقع بلا شك، تام متحقق لا محالة، بك أو بغيْرك، لا يؤخره إحجامك ولا يصرفه إبطاؤك... فهل أنت تارك هذا المجد، وزاهد في هذا الدور؟ هذا «شمر بن ذي الجوشن» يغلي على «بني هاشم»، وهذا «خالد بن عرفطة» بباب «بني أمية»، وقد جعله «عبيدالله» على المقدمة، ومعه «حبيب بن جمار» صاحب رايته، وألوف في هذا الجيش وفي غيْره، تتمنى أن يشير إليها الخليفة إشارة فتمتثل، ويومئ إيماءة فتلبّي، ويوجه لها الأمر فتطيع، ثم تحظى بملك «الري» وما وراء «الري» وبعده.

ثم أستطرد «زقلل»، وجاء «عُمَرَ» من بين يديه، بعد أن كان يوسوس له من خلفه في أذنيه، ونقل له ما زلزله وأقشعر له شعر بدنه:

أتعلم يا «عمر»، إنني شاهد حاضر إذ أخبر «علي» يوماً بموت «خالد بن عرفطة» هذا، فقال «علي»: لم يمت، وسيقود جيش ضلالة، وصاحب لوائه «حبيب بن جمار»! فقام إليه «أبن جمار» وقال: إني لك محب. فقال له: إياك أن تحمل اللواء، ولتحملنها وتدخل من هذا الباب، يعني «باب الفيل»!

إنه قدر مقدّر يا «عمر»، لا مرية أن «الحسين» مقتول، لا يملك أحد خياراً أن يصرف هذه المشيئة القاهرة! ما أنت إلّا لوح عائم تتقاذفه الأمواج أو تسبح به وتسوقه، فيُلقى حيث تنتهي به، لن تقدّم أو تُسرع في شيء سيكون، ولن تؤخر في كائن. أوَيستطيع إنسان أن يُغيّر قدراً إلهياً مقدوراً، أوَتريد يا «عمر» أن تقلب علم الله جهلاً؟! عَلِمَ الله منذ الأزل أن قتل «الحسين» على يدك، فهل لك أن تُغيّر ذلك؟ هل تطيق أن تخطّئ الله؟!

وراح «زقلل» في هذا ما شاءت له الفسحة من تفكّر «عمر بن سعد» وإطراقه، يغوي بـ «القضاء» ويغري بـ «القدر»، ويزين له سلب الإرادة والقهر، فالجبر والعذر!

ثم بان لي وظهر بجلاء، من طيات هذا الحوار (أحادي الجانب)، وتجسّم وانكشف بها صورَ الحقيقة كاملة: من أين جاء «المذهب الجبري» وكيف تأسس أو تبلور كمدرسة، وأربابه اليوم يحتالون في التنكّر له ونفي لوازمه والالتفاف على معطياته، حتى أنشد «عمر الخيام» بعد قرون متمادية في «رباعياته»:

درى الله قِدَماً بارتشافي للطِلا

فإن اجتنبها ينقلب علمه جهلا! *

ومضى «زقلل» غيّر متوانٍ عن عزمه ولا متهاون في دوره:

إنك لا تملك من الأمر إلّا ما يرفع حظك ويأتي بعزك ويسمو بمجدك... لطالما أرغمت الأنوف يا «عمر» في «فتح مكة» ومُرّغت في وحل «الغدير» الذي أذلّ «العرب» ووسمهم عبيداً مدى الدهر لـ «بني هاشم»! ومن قبل مُلئت القُلُبُ في «بدر» من صناديد «قريش»، وطارت الرؤوس في «الخندق» و«حنين» و«بني المصطلق»، وأريقت الدماء في «الجمل»، وعصفت أمواج الموت في «صفين»، وقتل حفظة القرآن في «النهروان»، لست بدعاً من القادة ولا خارقاً لعرف وعادة... فهل أنت فاعل؟

عندها قام «ابن سعد» ينفض ثوبه من غبار مجلسه، وروحه من بقايا إنسانيته، وقد عقد العزم وصرف كل ترديد من نيته التي كانت تنشد:

فوالله ما أدري وإني لواقف

أفكر في أمري على خطرين

أأترك ملك «الري» و«الري» منيتي

أم أرجع مأثوماً بقتل «حسين»

وهو يجهر، كأنه يعمد إسماع مَن حوله: والله كأن قَتْلَتَه وأهل بيته عندي كأكلة آكل أو شربة شارب!

---

* التعريب لـ «الصافي النجفي». والأصل الفارسي من «رباعيات الخيام»:

مى خوردن من حق ز ازل ميدانست

گر مى نخورم علم خدا جهل بود

وقد رأيت في حنايا نفسه بيتاً آخر، أضمره وما أظهر معناه ولا أنشده، يستل من قوله "حسين آبن عمي" هو الذي آستدر منه الدموع فيما بعد:

قَطَعَتَ يدي عمداً يدي وتوهمي

من قبل أنَّ يداً لا تَقطَعُ

ولعل هذا مما يكون في كل عاص وجبار، يتم عليه الحجة ويحقق في نفسه ما يسقط «معاذيره» التي يبرر بها ويلقيها في العلن، فإن ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

وأمر من فوره أن يوصل كتاب «آبن زياد» إلى «الحسين»، وفيه:

"أما بعد يا «حسين»، فقد بلغني نزولك بـ «كربلاء»، وقد أمرني أمير المؤمنين أن لا أتوسد الوثير ولا أشبع من الخمير حتى أُلحقك باللطيف الخبير أو ترجع إلى حكمي وحكم «يزيد بن معاوية»".

فلما قرأ «الحسين» عليه صلوات ربه الكتاب، قال:

ليس له جواب، فقد حقّت عليه كلمة العذاب.

عندها رأيت مصطبة الشياطين تضطرم وتثور، وكأنها تلقت كلمة السر وإشارة البدء، وقد هاجت برقع الدفوف ونفير الأبواق، تتقاطع دون وزن أو تناغم، كما هو الحال في مهرجانات الآنتصارات الرياضية والآحتفالات الجماهيرية إذا بلغت الذروة من الحماسة مع كثافة الحشود والجموع، ما يفقدها النظم ويدخلها في الخلط والفوضى... ماجت المصطبة بالصياح والغناء وهتافات الرجز، يصاحب ذلك كله دبك ورقص وصفيق، وبين الصياح تهليلٌ وتكبير، ودعاء للخليفة والأمير. كأن المصطبة دخلت بأهلها وأصحابها طوراً جديداً، وأن الحدث آخذ في آلتحقق شيئاً فشيئاً، والعجلة شرعت في الحركة والتسارع بآتجاه ما كانت ترجوه «الأكثرية»... إنها تحتفل مبكراً بالمجزرة المرتقبة والفاجعة المنتظرة!

ما سكنت الأجواء ولا هدأت إلا على صراخ «زقلل» وصياحه بهم، يزجرهم ويعنّفهم، أن ينصرفوا إلى ما جاؤوا له، وينشغلوا بمهامهم، ويتركوا الآحتفال لساعته الحقيقية.

راقت المصطبة وصفت، وأخذت الشياطين تتحرك بهدوء:

هذه شيطانة لعوب، هيفاء ناهد فاتنة، تتغايد بينهم في ثوب مُرخىً يحكي ويشفّ ما يغطّي، ويكشف بشقوقه وفتحاته أكثر مما يستر، تقوم على خدمتهم. إنها مومس الأبالسة وعاهرة الشياطين، تسقي أربابها خمراً، وقد زخرت بهم المصطبة وازدحمت...

هذا واحد منهم أراه - دون سواه - مستوٍ في جلسته على عرشه المرصّع بالجواهر واللآلئ. وهذا «زبل» يوقع على قيثارته أنكر الألحان، أو أعذبها، لست أدري، فالموسيقى سحر يُلبِس! وهذا الحداد القذر الذي صنع لهم الأسلحة، وهو ماض في شحذ السيوف وسن الرماح، خلع ثوبه القذر وبدا في حلّة قشيبة ذات ألوان صارخة، كغجري في العيد، أو مهرّج على مسرح! وهذا «عندق» يتلاعب بمُدْية، ويداعب ظبية وديعة تربض بين يديه، ثم يباغتها فيطعنها لتفحص بأرجلها وتتمرغ، فيقهقه حتى يستلقي على قفاه! وهذا «دلام» يتفحّص الملأ بنظراته الساخرة الخبيثة، ويلقي مزحاته المنكرة، لا يتوانى عن إقحام الفحش وبذيء القول فيها. وهذا شيطان أو هو واحد من أنصاف الشياطين، لا أعرفه، يصمت طويلاً، صمتاً مرعباً مخيفاً، صمت هو أبلغ من وحي المصطبة كلّها، كأنه يوفر طاقاته، يختزنها ويستجمعها ليرسلها من عينيه، سحراً: بسواد وجهه المظلم، ملتوياً بتجعد شعره، يقطر دماً بحمرة عينيه المشقوقتين طولاً، ما يخدّر الجموع ويأسرها.

والشيطانة اللعوب تخطر بغنج، تدور بأكؤسها الدهاق، تسقي الشياطين ومَن حف بمصطبتهم العامرة خمراً... ولخمرتها سكر وسحر، وخدَرٌ وخَتَر، ونشوة وسَوْرَة، ولها على رؤوس أربابها سلطان وصَوْلة، وهي ترويهم حتى تبلغ منهم المشاش، وتتغلغل حتى تخالط أرواحهم، بعد أن تمتزج بدمائهم، وتروي عظامهم، ثم تنضح مع نتن عَرَقِهم الذي سرت رائحته فلوّثت الفضاء هنا وأزكمت الأنوف.

ألتبس الأمر عليّ لوهلة، فظننت أن الصور تداخلت من جديد، ولكني تحققت سريعاً من صحة ما أرى وعلمت أنها مجلاة حقائق...

كنت أرىٰ الشياطين تبدو بهيئات متعددة وأشكال مختلفة، ما بدا أنها صور تتناسب مع وظائفها وما تقتضيه التكاليف الخاصة المناطة بكل منها. ثم أعود فأراها كلّها ذات وجه واحد ولكن بأجسام متفاوتة وأزياء متباينة! ثم لا تلبث أن تكون متماثلة تماماً ومتطابقة في كل شيء، لا يختلف شيطان عن آخر، كأنها صورة مستنسخة ونسخ متكررة لموجود واحد لا غير... فلا أنشغل وأصرف نظري عن صورتها هذه لحظة حتىٰ تعود إلىٰ حالتها الأولىٰ من التعدد والتفاوت! ما أكّد أنه: اتحاد في الحقائق اختلاف في الصور.

ثم دب في المشهد ما قلّبه وجذب الأنظار وسلّطها علىٰ بقعة واحدة...

هذا «زقلل» احتفىٰ في رحبة أمام الطلّل، ألقىٰ رداءه وكشف رأسه وشق جيبه، وثوىٰ يُغوِل بصيحة شديدة، أقرب إلىٰ ما تسمعه في ليل البراري من عواء، جمعت له جنده من كل جانب، وأخذ علىٰ وقع رقصة غريبة مخيفة، يلوّح فيها بيديه وقد فرق بين أصابعه وهو يقلّبها، وأفرج ساقيه ما استطاع، أخذ يهز رأسه كأنه ينفض عن وجهه شيئاً، وراح ينادي بمنكر صوته، يرفعه في مقاطع، ويخفته في أخرىٰ كمن يحدث نفسه:

الساعة تفشل أصناف حيلتي، وتنبو كل مكايدي،
وتذرو الرياح جني عمري وتضيع حصائدي...
من شِغْبٍ وصحيفة، إلىٰ هرشىٰ وسقيفة، وكَبِدٍ
ومُثْلة، فيٰ سيّدٍ لا مِثْله، والباب والجدار، والسّقط
والمسمار، فقميص يُرْفَعُ راية، وحرب أسست غواية،
وامرأة علىٰ جمل، وقاتل وما قتل.

ثم توقف هنيئة بعد أن أخذت منه الرقصة ما أخذت، فبلغ شبه الغشية، كأنه يداري إغماءة قد تنزل به من فرط جهده وحراكه وانفعاله... أرخىٰ يديه، وأدلىٰ برأسه وطأطأ إلىٰ الأرض، بعد أن وقف منتصباً مستوياً، وصار يلهث ككلب عقور، ويرغو كبعير جرب يلسعه لطخ القار، ويحمحم كخيل أنهكها الطرد والسباق، والزبد يحيط بشفتيه ويتساقط من فمه، وصديد ومخاط، ومضىٰ ينفث ويزحر:

وضربة أنهت سلام فجر القَدَرِ، والخير كلّه لا ألف
شهر وشهر، وسم جعدة كبد السبط يفتك، وسهام
حقد في نعشه تشك.

ما إن أنهى اللعين استعراض سجل أخطر أفعاله وسرد قائمة أهم إنجازاته، حتى بدأ في دعائه ومناجاته... وَيْح قلبي وويل قلبه، حتى الشيطان يلجأ إلى ربه، يدعوه ويناجيه!

:أي رب، أما أنظرتني ومكّنتني من هؤلاء البشر، أستفزز مَن أستطعت بصوتي وأجلب عليهم بخيلي ورجلي، وبسطت يدي أشاركهم في الأموال والأولاد وأعدهم غروراً؟... أريد الساعة شروطي وحقوقي!

إنك لم تجعل لي سبيلاً على هذه العصبة الماثلة بإزائي هنا، لقد حصنتهم من بأسي وعصمتهم من سلطاني... فأنا أريد الساعة أن أستنفد آخر ما في كنانتي من سهام، أريدك أن تسخر لي الأفلاك والأجواء، والطبيعة والهواء، أديرها كيف أريد وأشاء، وأمضي بها عسى أن أفلح وأتمكن هؤلاء.

❁ ❁ ❁

كانت الشمس في «كربلاء» لاهبة غاضبة، ارتفعت وعلَت، حتى توسطت السماء واستقرّت في كبدها، أزالت كل فيء وبددت كل ظل، ثم كأنها ـ بعد أن أخذت برجها ـ صارت تقترب إلى الأرض وتنخفض ما أمكنها وتحنو! ثم توقفت في أقرب مواضعها إلى البسيطة، كأنها أضربت عن الحراك وتعطّلت، فلم تمل لغروب تخفف معه بعض حرّها ووقعها، ولا لبُعد تكف فيه ويضعف صَيْهَبها.

أليست الأفلاك والنجوم طوع أمر السادة الولاة؟ ما لها الشمس قعدت لهم اليوم بمرصد، أرسلت لُعابها يبرق ويحدر من السماء، يكللهم ويجللهم ويخيم فوقهم! ما لها ناصبَتْهُم وأعانت عليهم كأن لها ثاراً عند «الهاشميين» وتراً؟ أليست الرياح تهب على أيدي ملائكة مدبرات، أو قانون الطبيعة الذي يحكم تخلخلات الضغط وارتفاعاته... ما لها احتبست عن البليل والصبا والنسمات، تروّح بها عن هذا «الركب» المضنى الحزين؟

أليست المياه ـ في أصلها ـ من هاطل السحب، يسوقها فيض جُودهم وتهديها بركة وُجُودهم؟ أليس الله ينزل الغيث فيحيي ميت البلاد بيُمْنِهم؟... ما للغيوم إذاً ارتحلت بعيداً، فلا تنجد هذه الكوكبة الملكوتية بمزنة ترويهم، أو جَهام ـ إن عدم السقي والماء ـ تظلل لهم؟ أما أنبع أبوهم «أميرالمؤمنين» هذه الأرض وفجّرها وهو عائد من «صفين»، إذ اشتد العطش بعسكره، فأمر أن تكشف بقعة من صعيد «كربلاء» بالمساحي حتى ظهرت صخرة بيضاء كبيرة أزاحها، بعد أن عجز كل الجند عن تحريكها، فانفجر من تحتها ينبوع شربوا منه وارتووا... وراهب في الجوار يقسم بنبوءة تجزم: إن هذا فعل وصي النبي الخاتم، ومعجز لا يكون إلّا من خلَف رسول آخر الأمم.

وهنا هيف ولهاب، وقد أخذ الأطفال الظمأ بعد اللواح، والغلّة بعد الصدى، ثم هيام وأوام، فراحوا يمصون الفصوص والحصى ويحتضنون الأواني والقرب... و«روح القدس» يملأ الفضاء وينشد بافتجاع:

عجباً له يشكو الأوام وبالندى * جرت الأنامل منهم أنهارا

إن شعر السيد «رضا الهندي» يُتلى هنا... ولست أدري كيف تردد الملائكة الآن، ونحن في هذا المشهد (٦١ هـ)، ما سيُنظم ويُقال بعد قرون قادمة؟ هل يستحضرون في علمهم ما سيلحق؟ أم أن الزمان طوي لهم فعرضت عليهم أشعار العصور الآتية؟ أم أن الحقائق تتداخل وتمثل، وكأن كلّ حاضر هنا مع مَن يحب وحيث يتمنى وفي الجبهة التي يعتقد ويناصر؟:

حتى إذا أسفت علوج أمية
أن لا ترى قلب النبيّ مصابا
صلّت على جسم «الحسين» سيوفهم
فغدا لساجدة الظُّبا محرابا
ومضى لهيفاً لم يجد غيْرَ القنا
ظلاً ولا غيْرَ النجيع شرابا
ظمآن ذاب فؤاده من غلّة
لو مسّت الصخر الأصمَّ لذابا

بدأ السر ينكشف، وأخذت الأسباب تظهر من سر امتناع «المولى» عن مس الحجر وإحجامه عن أمر السحب وعدم الطلب من العيون أن تسقيه وعياله وصحبه، سر بقائه في هذا العطش القاتل رغم أنه كان قادراً على الخروج منه بكلمة واحدة ينطقها فتمتثل الطبيعة، أو إشارة وإيماءة، بل بمجرد الرغبة القلبية، كان الكون سينقاد لوعاء المشيئة الإلهية ويمتثل، فتتفجر الأرض وتمطر السماء فيروى الظمآن ويخمد اللهيب والضرام...

هل الأمر مجرد التزام العمل بالأسباب الطبيعية والأخذ بها، ما ينأى بالحدث وتسارعه وتشكّله بصورته النهائية المقدّرة منذ الأزل عن معجزة تبطئ به وخرق يغيّره؟ بمعنى أنه ـ عليه صلوات ربه ـ كان يريده «طبيعياً» يجري كما اجترح «بنو أمية» وأجرموا من الهول والقسوة والفظاعة، بعيداً عن أي مؤثر قد يستغلّه العدو، يشكل مدخلاً يتخذه للمَسّ بفجعة الحدث وخدش وَقْعِهِ الذي سيزلزل الوجود ويسوّد التاريخ؟

هل كان «المولى» يخشى «البَدَاء» أكثر ما يخشى؟ ويحذر أن يقدم على ما قد يحققه، ويوقف عجلة تسارع الحدث عن سيرها الذي كانت فيه وما ستنتهي إليه، فأحجم عن استعمال أية قوة خارقة يمتلكها أو قدرة يتمتع بها، أن يورث ذلك ويسبب «البَدَاء» ويوقعه فيتأجل تقديم «القربان»؟

أم أن «المولى» كان يتعاطى مع الحدث كميدان لإظهار صفاته وقدراته، وحقل لاستعراض المَلَكَات المطلقة التي يتمتع بها من البأس والصبر والتحمل والاستقامة، ثم الرضا والحرص على أن لا يمس ذلك بأي فعل يؤوّل ويساء فهمه؟ ما يبعث العجب في الملائكة وسكان الملكوت، أن يبلغ «عبد» لله هذا المبلغ، فيتحقق وعده سبحانه وتعالى وتثبت صحة استخلافه وقوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟

لقد كان لكل من هذه الأسباب والمبررات دوره وموقعه في حقيقة الحدث وما وراء ظاهره المؤلم، ولكن إذا رأيت النتيجة التي كانت تتكون منه وتُخلق، والإفراز الذي كان يتمخض عنه، لرأيت ما يكشف الأصل والمنطلق الذي يجعل بقية الأسباب هامشية جانبية.

لقد كان «المولى» ـ بذلك الصبر ـ يصنع الكمال للطائفة التي كُلّف «جدّه الأعظم» صلى الله عليه وآله هديها وتكفل استقامتها وفلاحها ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ والتزمَ ذلك لربه وتعهده. آلى أن يبقى معه «ثلّة» ويتولّى «طائفة»، يتعهدها بالتربية والرعاية، ويأخذ بيدها في الرقي والسمو حتى يدخلها الجنة معه... لقد كان «الحسين» يدّخر ظمأه نهراً سيجري لشيعته ومحبيه في الجنان، وبامتناعه عن خرق سنن الطبيعة وإتيان المعجز الذي يحرره من العطش، كان يفجر ينبوعاً ليشرب منه «الإنسان» في عرصات المحشر اللاهبة، كان بعطشه ـ عليه صلوات ربه ـ يكفي محبيه عطش يوم القيامة وظمأ ذلك المحشر المذهل والموقف العصيب.

تماماً كما حمّل عياله وأهل بيته وأصحابه الرعب والهول، ليكفي تلك «الجماعة» (شيعته) التي نأت بنفسها عن الشر، ومالت إلى الحب والولاء، فزحزحت عن الشقاء... يكفيها أهوال يوم القيامة وخوف يوم المحشر.

وتحمّل العذاب والآلام والأوجاع وحمّلها أهله وعياله وأصحابه، فداءً وقرباناً لخلاص «الإنسان» ونجاته من عذاب وآلام الجحيم.

كانت الروح الحسينية تحلّق في هذه السماء العالية من البذل العطاء، بكرم لا يتناهى وجُودٍ حيّرَ الملكوت بسكّانه ونظامه أن يكون هذا من «موجود»، أن تحل هذه الصفات المطلقة غيْر المسبوقة في «حادث» لا قديم، و«ممكن» لا واجب! وهي ترقى وترقى حتى كانت تحيط بهم وتهيمن عليهم وتبهتهم وتذهلهم وهم في عليائهم من القرب والحضرة.

والمنظر في الأرض ما زال كما كان:

لا نهر يفيض، ولا سحاب يسح، ولا عين تنبع، ولا حجر ينبجس، ولا سقف خباء يكف، ولا قربة تسرب، ولا إناء يرشح... بل ما عادت حتى الجروح ـ من فرط الجفاف ـ تثع، ولا الدموع تنسكب!

وذاك جيش كلّه رجال، يغترف ما شاء من «الفرات»، ويترك كلابه تلغ مع دوابه، تسرح في مجراه، تكرع وترتطب... وهذا ركب يضم نساءً وأطفالاً، يتلوون من العطش، وقد شهقوا حتى كأنهم زهقوا؟!

هكذا صهدت الشمس على الرؤوس، وقاظ النهار وأستعر، حتى تجد الأوار يخنقك، وتحسه في مداخل أنفك يكويها، وقصبة صدرك يقبض عليها ويسد مجراها، وقاظت الأرض والتهبت حتى إن لظاها يتسرّب إلى الأقدام من ثقوب خَرْزِ النعل، وينفذ من مواضع خصف الخف، بل يسري من أرض الحذاء وإن غلظ جلده وسمُك دبغه، لتحترق القدم وتكتوي.

والوَهج يتصاعد من أديم الأرض فَيْحاً ووَهَراً كأنها الأبخرة التي تراها في القدور والمراجل قبيل أن تغلي وتجيش.

لا تدري أين تسدر في هذه الحمارة وماذا تصنع...

تخرج من الخباء تلتمس نسمة... فإذا هي صَخَدٌ بِهامة خانق من سكون الريح، عكيك من الهمود يأخذ الأنفاس ويحبسها، لا ينكسر إلا عن ريح وزوبعة تثير العجاج والسَفْساف، وحاصِب تقشر الحصى عن وجه الأرض، وتتلقاك بها رجماً وقصفاً، فلا تدري أترضى بهذا وقد كَمِه النهار فاعترضت الشمس وحُجِبَت، أم تضجر من الغبرة والعكرة وكَتْح الريح، تعمك بالغبار وتسف عليك التراب وتنازعك الثياب، فتعود إلى الخباء، وتلوذ من الرمضاء بالنار؟!

دَمِيَ الرمل، وأرمض الحصى، وتصوّح كل زرع في هذه الأرض، وجف كل ضرع على هذه العرصة، وقَفَّ كل نبت وقب، وأصبح هشياً تذروه الرياح، إلا ما لاصَقَ النهر وغدرانه، وأكثرها نضبت، فأصبحت بعض الغدران المتسربة هنا قلاعاً من الطين المتشقق وصلصالاً.

كانت الأجسام تلجأ إلى مخزونها لمعالجة هذا الحر الشديد، من أسباب الترطيب والتبريد... تنضحه عرقاً تتحلّبه من مناتح الجلد كلّها، بعد أن سالت أعراضه ومعاطفه، فصار يرفَضّ ويتصبب.

في اليوم الرابع من نزول الركب «كربلاء» وتنفيذ الصد وإحكام الحصار، وقد علم جيش «بني أمية» وتيقن من أنقطاع الماء في معسكر «الهاشميين»، ونفاد المخزون في الأواني، والمدّخر في القِرَب... سرت همهمة في عسكر «الأمويين» أخذت تعلو شيئاً فشيئاً:

لماذا هذا الحصار، خلّوا بينهم وبين الفرات؟ أيُمنَعون الماء وهم قلّة قليلة، لو شئنا لأهلَكهم رُماتنا بسهام تنهمر عليهم كالمطر، أو لأخذناهم في حملة واحدة دون جراحة تنالنا أو قتيل واحد يسقط منا؟... أيُمنعون الماء وفيهم نساء خدّر وأطفال رُضّع، أتطيق «العرب» هذا العار؟

عندها أنطلقت الشياطين من المصطبة وتفرقت وأنتشرت بين الجند.

كما فعلت في «صفين» حين رأىٰ عسكر «الشام» «عمار بن ياسر» في قتلىٰ «علي» وتذاكروا حديث «رسول الله» عليه وآله صلوات ربه، بأن «عماراً» تقتله «الفئة الباغية»، ودخلهم من الريب في أنفسهم والشك في موقفهم ما دخلهم، فأنتشرت الشياطين تنقل رد أميرهم «آبن أبي سفيان» وتعمم معالجته وطمسه لتلك «الصحوة»، وما عرضه دحضاً لتلك «الشبهة»: "إنما قتله من جاء به إلىٰ القتال، وهو «علي» وأصحابه" !...

ها قد أنتشرت الشياطين هنا في «كربلاء»، وتخللت العسكر الذي بدأت أنفاس المعارضة تتصاعد فيه وأصوات الأعتراض تظهر، ولعلّها تنذر بتمرد وعصيان، إذ صار في ريبة من أمر الحصار ومنع الماء... فبادرت لتستدرك وتتلافى ما يفسد عليها الحال، وتجهض ما يبطل الكيد، فأخذت تكرر وتنشر مقالة «عمر بن سعد» وجوابه علىٰ شبهتهم ورده علىٰ توقّفهم:

"والله لَيُحاصَرَنّ «الحسين» ويمنع وأهله وعياله الماء فيعطشون، كما حوصر «عثمان» وعطشت نساؤه وعياله وأهل بيته" !

سرىٰ القول فيهم كالنار في الهشيم، أرتفعت به الأصوات وتعالىٰ به العسكر وتهاتفوا، وصار كل ينادي به ويصيح علىٰ معسكر «الحسين»، ما كأنهم كانوا الساعة يستنكرون ويعترضون! لقد وجدوا المسوّغ الأخلاقي والمسكّن الوجداني الذي يبرر فعلتهم وينفي عنهم عارها، فهم منتقمون ورادون بالمثل! بل أخذت الحمية بعضهم، وأستفزتهم الحماسة أن يُمْعِنوا في هذا الحصار ويشددوا فيه ويُحْكِمُوه، وهم بين مقسم بأغلظ الأيمان وموقع أعظم العهود أن يقطعوا الطريق علىٰ أي طالب يمكن أن يَرِدَ المشرعة، بل يصرعوه ولا يخلّوا له سبيلاً لعودة ورجوع.

ولم يتذكّر أحد ولا تساءل:

ألم يكن «الحسين» وأخوه «الحسن» ومعهما «أبن الحنفية» على باب «عثمان» يمنعون عنه الثوار «المصريين»، حتى أضطروا للوصول إليه وقتله أن يتسوّروا الجهة الأُخرىٰ من داره؟ ألم يُرْفع هٰذا «القميص» من قبل في وجه «أميرالمؤمنين» فدفع المسلمون عشرات آلاف القتلىٰ ليُبيِّن ما فيه من أفتراء، ويظهر كم هي دعوىٰ باطلة ظالمة تستبطن الفتنة وتريد الفساد؟!

كانت السماء تقبّح هاتيك العقول المُسيَّرة كقطيع الأبقار، وتسفّه الحلوم المتقلّبة في جهلاتها وأهوائها، القابعة كربيضة الغنم، الضارية في توثّبها وقسوتها كـزِمزِمة الضباع، وتلعن النفوس الموبوءة بالحقد والعصبية، التي عثر فيها الشيطان وباطله على ما شاء من مرتع خصيب يلهو فيه ويلعب، ووجد أكثر مما رجا وأمّل من وَكرٍ يعشعش فيه ودار يقطن فيها ويستوطن.

لعمري لو كان شيء لينافس الحَرّ هنا ويغلبه في شدّته، والجفاف في مداه وسطوته، والعطش في أحتدامه وغلبته، لكان سواد أكباد هٰؤلاء القوم، وواغر صدورهم، ودفين أحقادهم، وإحَنة وغِلّ وغِمّر، يفيض ويتفجّر من جوانبهم، وتجليح في وجوههم لا تراه إلّا في سباع ضارية!

• • •

غاض الدمع ورقأ، ونزِفت العبرة ونفِدت، وذبل الفم، ويبس الريق، وعصب اللسان وعصر، وجدب كل شيء هنا وأمحل، وكأن الكَلَب الذي وزعته الأقدار على الدهر كلّه فضج منه ولم يطقه، أجتمع كلُّه في نهار، بل في سويعات من نهار... وحلّ هنا!

كان العطش يصنع في عين «المولىٰ» السحب، وما زالت هٰذه السحب تتراكم، لا يحجب ألمها إلّا وقع حدث آلم، وقد يبس الريق بفيه وعلا لسانه بياض وأصبح كالخشبة... وما زال وجهه يشرق ويتلألأ، وينحو بقسماته منحىً زهريٍ، كانت الملائكة تراه يدنو بشبهه أكثر من ذي قبل بأُمّه «البتول» وجدّه «الرسول». والأطفال تلوذ به وتشكو ما نزل بها من اللهبِ والسُعار والغُل، وقد طنّت آذانهم وصوتت أصمختهم وأصطلت أضلاعهم.

والنسوة في الخيام لوّحها العطش بعد الظمأ والصدى فالأوام، فضجّت وسقط بعضهن وبلغن الاحتضار والنزع، وأخريات لا يدرين أيشكين ما بهن لرجالهن فيزدن عليهم الكرب والأسى، أم يدارين ما بهن ويكتمن ويخفين، فيهلك الرضع في أحضانهن!؟

وهذه الرواحل ترغو كأنها تحدو بأسىً وشكوىً وحنين، وقد صوّتت أجوافها والتهبت أخفافها! والخيل تصلّ عطشاً، وقد لابت وحامت حول مشاربها الجافة وأوعية سقيها الفارغة اليابسة، فتعود لترمح وتضرب بسنابكها الأرض كأنها تحتفر، أم هو الهجير أدرك نعلها وأثر حتى في حوافرها الميتة؟ لست أدري!

و«زقلل» ينادي بـ «الحسين»:

لن تذوق الماء حتى ترد الحامية وتشرب من حميمها!

فينظر الناس ويتساءلون: من أين يأتي الصوت ويخرج هذا النداء؟ فلا يميزون شخصاً ولا يعيّنون، فعَلِمْتُ أن من يرى «اللعين» هم قلّة قليلة من أوليائه، والبقية العظمى لا تراه!

❀ ❀ ❀

العقد الثاني: الغربة بعد الصحبة

وَحَبيبٌ أراهُ واجِباً بَعْدَ سادَةٍ
تُغادَرُ صَرْعى وَالجَميعُ غَريب

في بعض منازل الطريق إلى «كربلاء»...

كان «المولى» قد دنا من خيمة ضُربت منفردة في الصحراء، حتى وقف خلفها أو بإزائها، ونادى على مَن فيها: لمن الخباء؟

أجابته عجوز خرجت إليه ومعها امرأة شابة:

لأبني، «وهب بن عبدالله»، وهذه زوجته، نحن نصارى من «كلب».

سألها: من أين يأتي ماؤكم؟

قالت: لا علم لي، ولكني أظنه بعيداً... إن أبني يخرج بأغنامه مبكراً، يهرع كأنها يسابق الشمس أن تبزغ قبله، فتصل ذلك الوادي المُرْتِع وتوافيه فتلهبه بحرّها، قبل أن يدرك لأغنامه ما يريد من لطيف النسائم وهنيء المرعى. ولا يصدر إلّا والشمس تؤذن بغروب، يقبل حثيثاً كأنه يستبق الظلمة أن تغشى منزله وتلجه قبله، يعود ومعه ماء يكفينا ليوم أو أثنين.

ترجّل «المولى» عن فرسه، وأشار برمحه إلى الأرض، ثم أختط به دائرة بجوار الخباء، ما لبث أن أنبجست فيها عين أنفجرت وجرى الماء!

صاحت المرأة عجباً: من تكون يا هذا؟ أقدّيس أم ولي؟ أمن حواريي «عيسى» أنت؟ أم تراك «المسيح» نفسه؟

أجابها «المولى»: أبلغي «وهباً» سلامي، وأخبريه بأنني الذي طلب إليك «المسيح» نصرته!

فلما عاد «وهب» وأخبرته أمه بالأمر... تهلل وجهه وجرت دموعه، وحكى لها ولزوجته رؤياً قضى يومه في طلب تفسير وتكلُّف تأويل لها، فإذا الحقيقة تأتيه إلى داره، وها هي ماثلة تنتظر عودته.

لقد رأى «المسيح» البارحة... كان في مجلس ملكوتي مهيب، يتصدّره عظيم تهوي إليه القلوب وتميل منقادة لسحر جماله وبهاء أنواره، يجتذب الأنظار كأنها تتزوّدُ من مرآه وتغتنم، عن يمينه ويساره فَتَيَان يشعّان نوراً وألَقاً، يخضع لجلالهم كل مَن في المجلس من أنبياء وملائكة وقديسين. وأن «المسيح» أشار إليه وقرّبه منه وأدناه حتى أجلسه إلى جواره، وأمره أن يسلّم على ذلك العظيم ويخاطبه بـ «خاتم الأنبياء وسيد المرسلين»، وطلب إليه أن يؤمن به وينتحل دينه، فهو نبي آخر الأُمم، وعلّمه كيف ينطق الشهادتين ويدخل في الإسلام. ثم أشار إلى أحد الفَتَيَيْن وقال له: هذا سبطه من ابنته «فاطمة»، وهو داعيك إليه فلا تقصر في نصرته يا «وهب»!

أجهشوا جميعاً بالبكاء، وقوّضوا رحلهم وألتحقوا بـ «المولى».

❋ ❋ ❋

ماذا في الصحبة؟...

هذه الضرورة، الأصل والطبع الأجتماعي الذي فُطر عليه الإنسان وجُبل... إذ حكمت الطبيعة البشرية أن لا يعيش الإنسان في عزلة ووحدة، وقضت أن لا يكون للحياة طعم ولا للعيش معنىً دون أختلاط بالآخرين وسعي بينهم وعِشرة معهم. فالمجتمع هو الرحم الثاني للإنسان، كما هي الأرض التي يدب عليها ويسير فيها ويعيش، لينتقل بعد أجَل إلى باطن الأرض رحماً ثالثة تحتضنه ميتاً ـ مستوحشاً... بل إن قوام إطلاق «الإنسان» يعود لـ «أُنسه» بالآخر ونبذه الأنعزال والتوحش.

وللإنسان أن ينتقي ويختار البيئة التي يريد للعيش، والمجتمع الذي يفضّل للحياة، والنطاق الذي يحب للأختلاط والأنفعال والتمازج، سواء «العام» كوطن: فيهاجر من بلاده ليخرج من الظلم والأستضعاف، ويضرب في الأرض ليجد مراغماً كثيراً وسعة تؤمّن الفضاء الذي يرجو، أو «الخاص» كبطانة: فيلقى الصحبة والجماعة والرفقة التي تناسبه ويتكامل معها، توفر أجواء السمو والرقي الذي ينشد ويأمل، ويحقق من خلاله غاية خلقه وفلسفة وجوده في الدنيا، أو يجد أنسه وسلوته وسعادته وراحته.

وكأية ضرورة حياتية وأصل معيشي، من مأكل ومشرب وأرض وبلاد ومسكن، فإن للصحبة صفاتها ومعالمها، ولها مميزات ترفعها وأخرى تهوي بها. فكما هناك ماء عذب وشراب سائغ وطعام طيّب لذيذ هانئ، هناك القضض الجشب، والأجاج المرير. وكما هناك أرض سهلة رحبة، هناك الوعرة الكؤود، وكما هناك بلاد طيبة هناك الطاردة الظالمة.

هكذا البطانة والأصحاب... فيهم الكَلّ المُثقِل، والمترصّد المحصي، والطامع الحاسد، والخؤون الشامت، ومَن إذا أحتاج إليك سلّبك، فإن أحتجت إليه منعك، مُغْتابٌ معرِّض، منّان مُشهِّر، إذا لم يحرقك بناره شغلك بألسنة لهبه وآذاك بدخانه، حق فيه:

احذر عدوك مرةً * وأحذر صديقك ألف مرّة
فلربما أنقلب الصديق * فكان أخبَرَ بالمضرّه

وقول «إبراهيم بن العباس»:

لو قيل لي خُذ أماناً * من أعظم الحدثان
لما طلبت أماناً * إلّا من الإخوان!

وفي المقابل... في الإخوان مَن يكون لصديقه عمدته وعدّته ونصرته وعقدته وربيعه وزَهرته ومُشتريه وزُهرته، والصديقَيْن كاليد تستعين باليد، والرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال. الصحبة في محمودها وممدوحها: وِفاق في الرأي وأجتماع على القول، أُنس بالمحضر وسلوة في الملتقى والمحشر، ثم بذل ونصرة وعطاء وتضحية، زينة في الرخاء وعدّة عند الشدة والبلاء.

حتى قيل إن الود أعطف من الرحم، وغزل المودة أرقُّ من غزل الصبابة. وليس سرور يعدل لقاء الإخوان ولا غم يعدل فراقهم. فأبحث عن: نبيل الشمائل، مصروف الغوائل، طيّب الأخلاق، سري الأعراق، مكتوم السر، كثير البِر، صحيح الأمانة، مأمون الخيانة، مضمون العون، كامل الصون، ثابت القريحة، مبذول النصيحة، مستيقَن الوداد، حسن الأعتقاد، صادق اللهجة، خفيف المهجة، عفيف الطباع، رحب الذراع، يألف الإمحاض، ولا يعرف الإعراض... فإن ظَفَرت به يداك فشدّهما عليه شدّ الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتالدك، فمعه يكمل الأُنس، وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال.

ولا أدل على كِبَر الأمر وجلله، وعظم مقامه وخطره، أن جعله الله تعالى من نعيم الجنة وخير وَعْدِه المؤمنين، فرغّبهم ووصف مقامهم فيها: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

فإذا أفتقد الرجل الأخ والرفيق، وأعدم السامر والصديق... تراه أقام الوحدة مقام الأُنس، وأنفرد نازحاً يناجي الهواء ويكلّم الأرض، يطلب في ذلك الراحة والسلوة، كما يطلبها المريض في التأوّه والمحزون في الزفير، فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها، فإن لم يفض منها شيء باللسان ولم يُستَرَحْ إلى الشكوى، لم يلبث أن يهلك غماً ويموت أسفاً.

بل إن ما يرجى في الخلّة والصحبة يفوق هذا ويتخطّاه، إذ هي في الكُمّل تحمل قيمة تسبق هذه كلّها وتتقدم عليها... فالصديق الحق هو «الصدوق»، والصداقة من إصداق القول وإمضاء الزعم. إذ الوحشة في الكُمّل وحشة الفكر والمعتقد، والغربة غربة الرسالة والمقصد، والعناء عناء إفهام المحيط وإقناعه، وتخطّي الشكوك والطعون والغمز واللمز. إن أكثر معاناة العظماء، من أنبياء وأوصياء وأولياء، وعلماء وحكماء ومصلحين، وأشدّ مقاساتهم تأتيهم من تكذيبهم في أهداف دعاواهم والطعن والتشكيك في غاياتهم، والغمز: أن الأغراض الشخصية والمصالح الدنيوية من مال وشهرة، وسيادة وإمرة، هي ما يحركهم في دعوتهم ويُنهضهم في قيامهم!

فيأتي من الناس ويخرج مَن يؤمن بالولي المصلح ويصدقه. هنا يلقي «الغريب» أحماله ويخفف عن كاهله أثقاله وتقر نفسه وتسكن... في رحاب الأصحاب الصدّيقين، لا يعود المرء بحاجة لينهض بإثبات ويقيم برهاناً ويتجشّم عناء دليل، وإن كان ذلك، توقف الأمر عنده، وأنتهى إلى التصديق، دون ريبة في النيّات وأفتراض لمآرب وأحتمال مرامات مشبوهة.

من أفظع ما يعانيه الكرام ويقاسيه النبلاء العظام: الوحشة في غربتهم... أن تضطرهم رسالتهم في الحياة إلى الخضوع لما يتطلّبه الناس من إقامة الدليل ومماشاتهم في ما يعوزهم من الإثبات، وأن لا يكون ذلك للرسالة وأحقيّتها، بل لما يثبت حسن نيّاتهم ونبل أهدافهم وسلامة أغراضهم! فينفوا الريبة عن أنفسهم ويزيحوا الشكوك من أنفس الآخرين فيهم، ويجهدوا في تفنيد المزاعم الباطلة وتكذيب الظنون الفاسدة.

من هنا تظهر قيمة الخُلّة والصحبة، ومقام الصديق الصدّيق...

أن يجد المصلح ـ في الناس وبينهم ـ مَن يكفيه هذه المؤونة، يوفر عليه وقته وجهده، ويتركه يصرف طاقته في أصل الرسالة وأهدافها، وهو يزيح أبرز عوائقها وموانع أنطلاقها وتقدّمها.

يصعب أن نحيط بإحساس «الولي»، والشعور الذي ينتاب مَن هو في الذروة من العلم والمعرفة، والغاية من الوعي، والقمة في البصيرة، والنهاية في الحكمة، ما بلغ به «العصمة» الواجبة. ما عرف الخطأ مذ خُلق، ولا دنا إليه الجهل مذ كان وكانت الحياة، ولا قربه ذنب ولا مسّه طائف، ولا ألمَّ به لَمَم، فقد خرج من بطن أُمه طاهراً ساجداً، مهللاً مُكَبِّراً مسبحاً، يتلو آيات القرآن... (ناهيك بوجوده الأصلي وحقيقته النورية).

تُرىٰ ما حال مثل هذا الشخص حين يُشكَّكُ في علمه ووعيه؟ ويُنسب إلى الجهل والتخبّط أو الشطح والشطط (والعياذ بالله)! سواء في الحكم أو في الموضوع، في جواز الخروج ومشروعية القيام كمسألة فقهية شرعية، أو في صحة تقديره للواقع وأنطباق رؤيته عليه كدراسة للميدان وفهم وإدراك للحقيقة الخارجية...

لا يمكنني أن أقف على حجم المعاناة والآلام، ومدى وَقْع المحنة على قلب «المولى» من حاصل هذا الطعن والتشكيك، فهذا لا يظهر لي هنا، ولا يمكنني آستشرافه من موقعي، ولا أن أُحيط به وأنا على حالي هذه ورتبتي، ودرجتي من الحضور والشهود. نعم، يمكنني أن أقرأ الأسى والحزن واللوعة والغصص باديةً على قسمات وتقاطيع ذلك الوجه الزهري المفيض ألقاً، المشع ضياءً ونوراً... أما حجم ذلك الأسى ودرجته وعمقه، فهو مما لا يستوعبه الإدراك البشري، لذا فهو لا يتمثل ولا تتجسد حقيقته. هذا ما كنت أحسبه... حتى عرض لي خاطر أنه متجسد ومتمثّل وظاهر، ولكني أنا القاصر عن مشاهدته والعاجز إدراكه، ناهيك بالإحاطة به!

أن يكون آمرؤ في علمه على حد المطلق الذي آستوعب كل ما في الوجود، ما كان ويكون وما هو كائن، ولديه من الأسباب والطرق ما يقرأ به الغيب ويطّلع على اللوح المحفوظ. «إمام» يأتيه ما يشاء من علم متى شاء، يحضر في نفسه حضوراً، لا حصولاً بكسب ووصولاً بتعليم، حتى تكون نفسه عَيْبَة علم الله وخزينة غَيْبه، ويكون صدره وعاء إرادته ومجلى مشيئته وقناة فيضه، ما يعني الإحاطة بجميع ذرات الوجود وأسبابه، بل التسلّط والهيمنة والولاية المطلقة عليها...

ثم يأتيه مَن يحاوره ليُحجّه أو لينصحه ويرشده! فيُبيّنَ لـ «الإمام» آحتمالات خطئه وشواهد عدم آنطباق رؤيته على الواقع، ومجانبة نظرته الصواب! ذلك لما جاءه من معطيات الظروف الخارجية وبلغه عن واقع الحال في «الكوفة»، وما إلى ذلك من أسباب القيام وعوامل النجاح، مما كوّن من خلاله موقفه وبنى تقديراته ورتّب حساباته. أو يزعم زاعم فيه عدم إحاطته بالشريعة، بل مخالفتها وآفتقاده أدلة إباحة النهضة وجواز القيام!؟ فإذا تجاوز «المولى» بحِلمِه وأناتِه ذلك كلّه، وتخطّاه بتواضعه وصبْره، وتنزّل وبيّن جوابه وعرض ردّه، وآستدل بما يتم الحجة على الناصحين المشفقين، ويدحض شبهات المعترضين المتفقّهين، وأثبت حقه في القيام وصحة موقفه من الطغاة اللئام، وقطع الطريق على كل لجاج وخصام...

ظهرت حسيكة النفاق طعناً في أغراضه النزيهة وغمزاً في أهدافه النبيلة، وأخذوا يشكّكون في نيّات أخلص الناس وأزهدهم وأعبدهم وأتقاهم وأقربهم إلى الله سبحانه وتعالى.

أرتابوا في أمر «الإمام»، وخامرهم فيه الشك، وخالجهم الظن، وتوهموا السوء... حتى نأت عن نصرته طائفة تنكّبت الوعي والفِطنة، فزعمت أنها لن تكون غَرَضاً لحاشد طامع، ولا سواداً لمغامر جامع، ذلك أن الأمر - في فهمها ووعيها الخارق (بل الأخرق!) - دخول بين السلاطين! مُلوِّحَة أنه نزاع سياسي وطلب للملك، وغامزة أنه تعصب قَبَلي بين «هاشم» و«أُميّة»... ما لنا وله؟! وتنسّكت أخرى وترهبنت مرتدية مسوح التقى وجلابيب الورع، هاربة من الوقوع في «الفتنة»، مترفعة عن الخوض فيها، زاعمة حفظ الحرمات والحيطة في الدماء والحرص على الوحدة والعُصبة!

لا يمكنني أن أتبيَّن حجم معاناة «المولى» ومدى شعوره بالأسى، وبالسخط على هذه الأمّة... ولكني - في المقابل - كنت ألمس نفحات العزاء التي تهب من تلقاء إخوته وخلانه، وإشراقات الأُنس المفيضة من لقائه صحبه وأنصاره، وسلوته بالموعودين المعدودين، وراحته من الجلوس إليهم ومحادثتهم ومسامرتهم في فسطاطه على سُرُر متقابلين.

ترى، هل أكتسب أصحاب «المولى» مقامهم الشامخ وتوّجوا بتاج «الأفضل والأبر» وتقلّدوا وِسام " لا يسبقهم مَن كان قبلهم، ولا يلحقهم مَن بعدهم "، مما أورثوه «المولى» من أُنس وخروج من الوحشة؟ أم من مردود المعاناة التي لقوها ومن نتاج حجمها الكبير كمّاً ونوعاً، في أدائهم حق «الإمام» بالنصرة والتضحية بعد التسليم، ومن العطاء والبذل بعد المعرفة؟ أم من أشياء أخرى في «الصحبة» تتجاوز هذا وذاك، وتكاد تجعل جريها فيهم وإطلاقها عليهم مجازاً، فلا مصالح متبادلة هنا، ولا حتى حقوق تفرض وواجبات تؤدّى... أُمور ترسم للصحبة وللأُخوّة شكلاً جديداً أو تنتقل بها إلى معنىً خاص يستمد من الغيب ومما وراء المحسوس والمشهود، قد تجد بعض معالمه في أسرار الصحبة وغرائبها، وعجيب ما فيها.

سرٌّ يكشف لك كيف تكون الأرواح جند مجندة، ما تعارف منها أئتلف وما تناكر تنافر وآختلف. ويفسّر لك كيف: "إن روحَي المؤمِنَين ليلتقيان من مسيرة يوم، ما رأى أحدهما صاحبه"! وكيف يدخل الإنسان هَمٌّ وغم لا يدري له علّة ولا يعرف وجهاً ولا سبباً، فإذا هو مشاركة لأخ له في أقاصي البلاد، ما عرفه شخصاً ولا آلتقاه يوماً، نزلت به - حيث هو - مصيبة أهمّته ونالته فاقة أحزنته، فأثر ذلك في أخيه فسَرَىٰ إليه الحزن.

إنها كوكبة تحلّق في سماء أرقى من كمال الخلّة وتمام الصحبة...

أمر يدور في مدارات العلم والمعرفة، ويحلّق في عوالم «الذر» والروح، والقضاء والقدر، ويكتنز من الخفايا ما لا يحيط به عالم جليل، وينطوي على مكنون من أسرار لا تدركه دراسة ولا يبلغه تحليل. ولعلّنا يمكن أن نستل بعضاً من خيوط «الأمر» ونتلقّىٰ شذرات من فيضه، ونفض الخاتم عن شيء من أسراره ومطاويه وبعض مما حوله وفيه، عبر مواقف في سيرتهم، ومن خلال مشاهد مما كان يكتنف حركتهم...

هذا «ميثم التمار» صاحب «أميرالمؤمنين»، يمر بـ «بني أسد» في «الكوفة»، فيستقبله «حبيب بن مظاهر» شيخ أنصار «أبي عبدالله»... فيتحدثان ساعة في ما لم يفهمه أحد، حتىٰ يقول «حبيب»:

لكأني بشيخ أصلع ضخم البطن، يبيع البطيخ عند «دار الرزق»، قد صلب في حب «أهل بيت» نبيه (صلىٰ الله عليه وآله)، فيصلب ويبقر بطنه علىٰ «الخشبة».

فيَردّ عليه «ميثم»: وإني لأعرف رجلاً أحمر له ضفيرتان، يخرج لنصرة «آبن بنت نبيه»، فيقتل ويجال برأسه في «الكوفة».

ثم ينصرفان... فيقول أهل المجلس: ما رأينا أحداً أكذب من هٰذين.

فلم يفترق أهل المجلس حتىٰ أقبل «رُشيد الهجري» يطلبهما، فسأل أهل المجلس عنهما، فقالوا: أفترقا وسمعناهما يقولان كذا وكذا.

فقال «رُشيد»: رحم الله «ميثماً» نسي أن يقول: ويُزاد في عطاء الذي يجيء بالرأس مئة درهم. ثم أدبر والقوم يقولون: هٰذا والله أكذبهم!

وما أردت من هذه الصورة أن الأمر مجرد الإحاطة بعلم «المنايا والبلايا»، أو أنه يأتي من الأطلاع على بعض الغيب ومُقبل الأحداث... وإن كان ذلك معلَم في طريق كشف الحقيقة، ومما يُعين على بيانها.

إنني أرى الأمر بصورة أعْجَزُ عن وصفها، إنني أُدركها وأفهمها، حتى أني نقلتها إلى «ملَك» يشرف معي على المنظر ويقرب من مطّلعي، شاركني الحيرة والأستفهام، ألتقت عينانا في نظرة واحدة، فأنتقل الفهم إليه، أم تراه سرى منه إليّ؟ والله ما عُدْتُ أدري! ولكن لغة العيون بيننا أكتفت عن كل نطق وإشارة، فحضرت في نفسي صورة وقفْتُ منها على جانب من حقيقة الصحبة والخلّة التي رفعت هؤلاء «الأنصار» وسَمَتْ بهم. وأنا عاجز عن شرح هذه الحقيقة وبيانها، فلا لغة تحيط بتلك المعاني، ولا وسيلة تنقلها ولا فن يبلُغها فيبلّغها... بل إن الشك عاودني: أأدركتُ حقاً حقيقتهم؟ فإن غالبت اليأس وصارعت العجز قلت: إنها شيء من السهل الممتنع، عظيم بعيد، وقريب بسيط، مهول كبير محيط، كما هو لطيف دقيق حاضر في النفس... إنه «أمر» يتعلّق بالمعادلة الأولى والإكسير الأعظم الذي فتق الوجود، ويمضي ليرتقه بعد حين، الأمر في «الأصحاب»، في عظيم مقامهم ومنزلتهم، يستل من «السر»، قدّس الله أسرارهم!

بـ «السر» بلغ «حبيب بن مظاهر» و«زهير بن القين» و«برير بن خضير» و«جون مولى أبي ذر» و«عابس بن شبيب» و«الحر» و«عامر العبدي» و«سلمان البجلي» و«مسلم بن عوسجة» و«نافع بن هلال» وغيرهم من الصفوة النجباء ما بلغوا، وأرتقوا وسموا ليحلّوا في «كربلاء» ويكونوا في عداد «الأنصار»، ومنه أستمدّوا اليقين الذي واجهُوا به الحدث الأعظم: يستقبلون جبال الحديد، ويتلقّون الرماح والسيوف، ويُعرِضون عن الأمان والأموال، ويستبشرون بالشهادة والأهوال. نزعوا كل لباس، وتنكّروا لكل ما في الأنا والذات، حتى قربوا ودنوا من «الولي»، فكانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يقربوا من صفاته ويندكوا في وجوده، تعرّضوا لنفحات فيضه فنالوا وتشرّفوا، إذ هو مَن يخلع الشرف ويغمر بالفيض.

هذا «حبيب بن مظاهر» يمزح، واليوم يوم «عاشوراء»! فيقول له «يزيد ابن حصين الهمداني» وهو من «سادة القرّاء»: يا أخي ليست هذه بساعة ضحك، فيجيبه: فأي موضع أحق من هذا بالسرور؟ والله ما هو إلّا أن تميل علينا هذه الطغام بسيوفها، فنبلغ مبلغنا.

بهذه النفس المطمئنة وافَوا مواعيدهم وبرزوا إلىٰ مضاجعهم...

نعم، لقد ظهر لي وبان أن أمر هؤلاء «الأصحاب» وشأنهم يحلّق في ذرىً بعيدة لا تُنال وقلل شامخة لا تُطال، أو أعماق لا تُبلَغ وأغوار لا تُسبر، إنني عدت الآن لأقف علىٰ هذه الحقيقة بجلاء، دون أية مواربة... إنها «أسرار»، لا أحاجٍ وألغاز، أو طلاسم ومواربات، بل «أسرار»، كأنك عرفت موقعها وحددتَ مكمنها، ولكنك تعجز أن تصل الحمىٰ أو تبلغ ذلك العرين، فتطل وتطّلع عليها وتتعرف إليها، ناهيك بإدراكها والألتحاق بمنزلتها. والغريب في هذا الغموض المتولد من هذه «الأسرار»، أنه لا يسبب لك أنزعاجاً أو يورثك قلقاً، بقدر ما يبعث الإعجاب ويحفّز فيك الشوق واللهفة، ويشحذ أسباب الغبطة ويذكي الحسرة...

لعمري، ما علمت ما جرىٰ علىٰ «سلمان المحمدي» ساعة ميلاد «القربان» إلّا الآن، وما أحطت بما ناله ولا دريت ما نزل به وأصابه وعمق ما حل به وأنتابه، إلّا وأنا أرىٰ الساعة مقام «الأنصار» وأنظر المنزلة التي يتسنّمون والدرجة التي يتبوّؤون، وما زالوا يصعدون ويَرْقُون كلّما دنا الميعاد وأزفت لحظة اللقاء. بلىٰ والله، حق لـ «سلمان» الذي أبصر الأمر في حينه وعلم به، أن يتحسّر علىٰ ما فاته، وكيف أن القدر صرّده وحرَمَه وبَرَض له، وأن يشهق ويزفر ويصفق كفاً علىٰ كف، أن زوي عن هذا الندىٰ وحرم السعادة، فلم يكن في هذه الكوكبة...

هذا ما أنتزع الآهات من صدر «لقمان» هذه الأمة وحكيمها، وأخرجه من وقاره إلىٰ سعي العشاق ولهفة المتيّمين وصبابة كادت أن تودي به، لهذا أضطرم وتحرّق فكاد أن يتلف ويكون حرضاً أو يكون من الهالكين، فلما يئس، جهد ليتعرّف علىٰ واحد منهم فيزوره ويلقاه...

فلا غَرْوَ ـ بعد هذا ـ أن ترى الملائكة تُكْبِر هذه «الكوكبة» وتجلّها، فلا تخرج من إكبارها إلّا حين تُكْبَّر ربها... ولا عجب إن رأيتها توقّرهم وتفخمهم وتقدّسهم وتُعظّم خطرَهم، وهي تلاحق حركتهم وترصد توافدهم وتقاطرهم وتتابع أستعدادهم، بمزيج حزن وحسرة وغبطة، تخشع لها العيون وتعنو الجباه، حتى تنتزع منها صرخة: "يا ليتنا كنا معكم".

فإذا دوّىٰ النداء وملأ المسامع في الأرجاء، أندفع رعيل تعقبه أفواج، خارجة عن أطوارها، متمردة على تكاليفها، ومنفلتة من مدارجها، لتصل الأرض وتلحق بـ «الركب»... فتُصَدُّ وتُحْبَس في اللحظات الأخيرة وتُرَدّ على أعقابها! فتبقى حبيسة في سماء «كربلاء»، تندب «القربان» وترثيه مع ثلة من الجان، وتؤمن على دعاء زوّار تلك البقعة مدى الأزمان.

«الأنصار» أرواح ٱلتقت «الحسين» في النشأة الأولى فعشقته وهامت به، وصارت تطوف بجلاله وتسعى بين صفا قدسه ومروة عزه ومجده، وهي بعدُ أظلة وأشباح وذرٌّ وأرواح، وأعتصمت به في باكورة حدوثها ووجودها، بعد أن كانت نسياً منسياً، فتعلّقت بأهداب كماله وتمسكت بحبال جماله، ثم لجأت إليه وتوسلت وتمسّحت ـ مع «فطرس» ـ بمهده... فأعتقها يُمْنُ «المولى» من رَيْنِ الأغترار والغفلة، وحرّرتها بركاته من أسر الجهالة والغواية، وبرّأها نوالُه من مساقط الأهواء ومزال الأقدام، وأنقذها لُطفه من قادم معصيتها ومقبل عقوقها، فكأن الله سبحانه وتعالى غفر لها ما تقدم من ذنبها وما تأخر، إذ كانت سنام «الأمّة» وغرّتها التي مَنَّ عليها بالفتح المبين.

لقد أصطنع «المولى» هذه «الكوكبة» لنفسه، وتولى تربيتها على عينه، وتعاهدها من تقاذفات أمواج الدنيا وظلمات عوالم النشآت المتلاحقة، ورعاها من متلاطم بحور الفتن وأهوالها المضلّة، فحصّنها بلطفه ومنعها بعطفه وتكفّلها بجوده وكرمه، ولقّنها فهمه... وقد ٱلتقطها بعهد معهود، وسابق إرادة منها وطاعة وأمتثال، فعمّها بوافر حبه وجلّلها بمغدق حنانه، وأولاها خاصّة عنايته، فأودعها «التابوت» وأئتمنها حرز حريز، وقد ضمّنه «السكينة» وبقية مما ترك آل «محمد» و«علي» تحمله الملائكة.

فقذفه في «نيل» الوفاء، يسوق الوديعة بتهويد وأعتياق، لا تدري أمِنْ حذر الأعداء أم من ضنّة عن سريع الفراق، يَدْلِف بها تارة وكلّه حرص، ويتهادىٰ بها أخرىٰ وهو في غاية الخفر، ليبلغ بهم خاتمتهم السعيدة، «الساحل» الموعود في الساعة الموعودة:

عرصة «كربلاء»، في يوم «عاشوراء».

نعم، كان «المولىٰ» يدعو الناس إلىٰ نصرته ومبايعته، ويبيّن أهداف خروجه ويبشّر بشهادته، ويسعىٰ ـ في هٰذا السبيل ـ ليجتذب الأنصار والأعوان ويعبئ العساكر والجيوش، حتىٰ إنه خاطب «عبدالله بن عمر بن الخطاب»: "يا أبا عبدالرحمن، لا تدعن نصرتي"، وكتب إلىٰ «بني هاشم»: "ومن تخلّف عن نصرتي ما أفلح"، وتراه يرد علىٰ «عبدالله بن الحر الجعفي» الذي رفض دعوة «الإمام» لنصرته، فيتلو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾... ولٰكن ذلك لم يكن إلّا لإتمام الحجة، والعمل بظواهر التكاليف، والأخذ بالطبيعي من الأسباب. أما بواطن الأمور وحقائقها، فقد كانت تتسرّب من أشباه كلمات «أبن عباس»: "إن أصحاب الحسين لم ينقصوا رجلاً ولم يزيدوا، نعرفهم بأسمائهم من قبل شهودهم"، وقول «أبن الحنفية» في أخيه الشهيد: "إن أصحابه عندنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم". كان «المولىٰ» عليه صلوات ربه سبق أن أحصىٰ «أصحابه» وعدّهم، أختارهم وأصطفاهم، ومضىٰ يُعِدّهم ويربيهم، ويلقّنهم الأسرار، ليكمّلهم ويبلغ بهم أقصىٰ ما يرجىٰ في الأصحاب والأنصار...

فإذا أتمّوا دورتهم من السير والسلوك، وبلغوا مبلغهم من الكمال والنبوغ، وقد حرّموا علىٰ أنفسهم المناهل و(المراضع)، وصدّوا وأعرضوا وصاموا عن كل عين وَوِرْدٍ، إلّا معين مولاهم... بلغ حب «المولىٰ» لهم أقصاه ومداه، وتعلّق بهم وكانوا أنسه وسلواه. كملت في الأماجد السماحة والمروءة والأريحية والندىٰ... فهشّ «المولىٰ» إليهم وفَكِه، وتمكّن حبهم من قلبه، وطاب له معشرهم ومال إليهم، فقد أصفوه الود وأصدقوه الإخاء، وأخلصوا له الخدن، وأشتد منهم الود حتىٰ بلغ الخلّة، وكانوا حوارييه.

بل إن الأمر لماض في دربه وعلى طريقته التي بدأ بها، لم يعطل الغربلة ويوقف التفحّص لحظة، ولم ينته من التمحيص والأختبار فالأجتباء، ولا من الأمتحان والأبتلاء فالأصطفاء، وما زال يُدخل الأشباه ويُخرج الأغيار، موغل في كل ذلك حتى اللحظات الأخيرة، وفي خضم المعركة ومحتدم الصراع، حتى لتميز «الناصر» من «المستشهد»!

هذا «الضحاك بن عبدالله المشرقي» أقبل إلى فرسه، حين رأى خيل الأصحاب تعقر، سواء بفعل بعضهم حين عرض عليهم «المولى» أن يتخذوا الليل جملاً فيفرُّوا، أو في المعركة من فعل العدو... أقبل بفرسه حتى أدخلها فسطاطاً بين البيوت، وأمّنها أن يصل إليها سوء.

فلما رأى (المسكين) أصحاب «الحسين» قد أصيبوا وأبيدوا واحداً تلو آخر، وقد خلص إليه وإلى أهل بيته، فبقي ـ عليه السلام ـ وحيداً فريداً، اللهم إلّا «سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي» و«بشير بن عمرو الحضرمي»... عندها توجه إلى «المولى» وخاطبه:

يا بن رسول الله، قد علمت ما كان بيني وبينك، قلتُ لك: أُقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أر مقاتلاً فأنا في حل في الأنصراف، فقلتَ لي: نعم.

فأجابه «المولى»: صدقت. ولكن كيف لك بالنجاء؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حل.

وكان قبل ساعة يقاتل مع «الحسين» راجلاً، حتى قتل بين يدي «المولى» رجلين من «الأمويين»، وقطع يد آخر، و«المولى» يشجعه ويكافئه مراراً، ويخلع عليه الوسام تلو الوسام، علّه يستنقذه من بقايا الجهالة ويلحقه بالشرف الأسمى، فيهتف به مع كل ضربه ويدعو في كل حملة:

" لا شللت. لا قطع الله يدك ".

" جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيك صلى الله عليه وآله "!

فلما أذن له «المولى» وجعله في حل، وأخلى بينه وبين زعمه، أستخرج الفرس من الفسطاط، وأستوى على ظهرها، ثم ضربها حتى إذا قامت على السنابك، رمى بها عرض القوم، وقحم عليهم خطوط حصارهم.

فأفرجوا له حتى نفذ من بين صفوفهم، فأتبعه جماعة حتى أنتهى إلى شفية قرية قريبة من شاطئ «الفرات». فلما أدركوه عطف عليهم وأستقبلهم بوجهه فعرفه «كثير بن عبدالله الشعبي» و«أيوب بن مشرح الخيواني» و«قيس أبن عبدالله الصائدي»، فقالوا: هذا «الضحاك بن عبدالله المشرقي»، هذا أبن عمنا، ننشدكم الله لما كففتم عنه. فقال ثلاثة نفر من «بني تميم» كانوا معهم: بلى والله لنجيبن إخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبوا من الكفّ عن صاحبهم. فلما تابع «التميميون» أصحابه، كف الآخرون أيضاً... «فنجا»!

كان في «الأصحاب» ومن «الأنصار»، وفي من قاتل وجاهد... لكنه لم يستشهد! لم يكن ممن سبق منه العهد وأكتمل فيه الحب والولاء، ولا نضجت نفسه وأستوت على ذلك الحد الذي يجعله يبذل مهجته ويكون في النخبة التي أصطنعها «المولى» لنفسه. تلك التي جرت مقادير «القربان» لتستنفد أبعادها وتستوفي حقها وتستغرق من وجودها ما يحققها بالتمام والكمال، فتأخذ من «المولى» شغاف قلبه، وتقطع من أنسه وأُخوّته وخلّته ما يفري كبده، وينافس الغلّة والظمأ في تقطيع أحشائه وإضرام أنفاسه!

لم يكن «المولى» يصطنع هذه «الكوكبة» ويعدّها لتخرق محاصرته وتكسر طوق جفوته ومقاطعته، فتخرجه يوماً من وحشته القاتلة وتنجيه من وحدته وأستفراده، ولا لتسلّيه في بلائه وتزيل عنه غربته، ولا لتؤنسه عند ضيقه وتواسيه في كربته، وتخفف عنه شيئاً من آلامه ومعاناته، مما سينزل به ويلقاه من أمة جدّه، وينتظره من الغدر والخذلان، والجفوة والنكران. كما لم يفعل ليتّخذ منهم يوماً جنداً يدفع بهم شر أعدائه، ورجالاً يكفّوا جور «بني أمية»، ويذودوا عنه سيوف بغيهم... ما كان الأمر حديث أماني وهمس أحلام، ولا تعلّق بهُدب آمال، ولا لاحَتْ في سمائه بوارق الرجاء.

كان «المولى» عليه صلوات ربه، يمضي على بصيرة من أمره وبيّنة من مصيره ومآله، ويتقدّم بخطىً ثابتة، أستقى المضاء فيها من عهد معهود، ونبوءة وعلم لا يخيب، ورسالة ودور لن يتخطّاه ولن يزل عنه ويحيد، وأجل مرسوم وقضاء مبرم، لن يزحزح عنه، حتى في تفاصيله.

إنها أصطنعهم وتعاهدهم وآتخذهم ليقطّع ـ بهم ـ أوصال بشريته!

ينفيها عن روحه ويبدّدها ويعدمها ويفنيها... فينضو عن نفسه كل كسوة ورداء، ويخلع كل ثوب ألجأه لـه وآضطرّه إليه «عالم الكَثَرات»، مما حاكته لوازمه، وآقتضته طبيعته، وفرضته هـٰذه النشأة.

كـان «المولى» عليه صلـوات ربه، يتوغل في دفـائن النفس البشرية، ويغوص في أعماق مشاعرها، ويخوض في غمار الأحاسيس ومعتركها، ويقف على أدق مسارب توغّلها، ويرصد آندساسها ونفوذها في الحنايا ويلاحقها في الزوايا والخبايا والأركان... ليخرج بعد ذلك ويستخلص، يستنفد وينقّي، ينفي ويزكّي، فتصفو وتخلو وتبرؤ وتنقى من كل شيء، وتتهيأ لتندك ـ من جديد ـ وتعود إلى «وطنها» الذي هجرته من فرط العشق، وديارها التي آرتحلت منها، وأقبلت إلينا وجاءتنا لتهدينا... تعود كما كانت، وما زالت، منتشية في حضرة الأحدية، «ممسوسة» في «الذات» الأزلية السرمدية!

دون أن يعني هـٰذا أن شيئاً أعترىٰ نقاء «المولى» للحظة في حياته، أو مسّ طُهرَه قيد أنملة في وجوده الشريف، ناهيك بنقص ناله وسوء عَرَضَ عليه، حاشاه... ولـٰكنها طريق الخروج من هـٰذه النشأة (الدنيا)، والقنطرة التي لا بد من آجتيازها والمرور عليها (بعد ورودها)، إذ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

لا بد لـ «القربان» الذي سيفدي «المُحِبِّين» وينقذهم، ويضحي بنفسه لينجي «المؤمنين» ويخلّصهم... أن يستوفي عنهم كل أهوائهم وتعلّقاتهم، ويتكفّل ليدفع الأثمان ويمسح الآثار ويسقط التبعات وهو يكفّر عنهم كل خطاياهم وزلاتهم ويسدد ديونهم لبارئهم.

إن «القربان» الذي سيُؤْمِن «الإنسانية» المنبثقة من «محبّته» والمتكوّنة من «فاضل طينته»، يُؤْمِنـها من وحشتها ويجيرها من غربتها، سواء في عرصات المحشر وضنك يوم القيامة وأهواله، أو في القبر وضغطته ونيران حفرته، بل حتى من وحشة بعض منازل الدنيا حيث يُستَضعَفُ الموالون لقلّة عددهم وكثرة عدوهم وشدة الفتن بهم وتضافر الزمان عليهم...

لا بد لـ «المولى» أن يتولى عنهم ما يجبر سقطاتهم ويقوّم شطح أهوائهم، ويسد ثغرات سلوكهم، ويدفع عنهم ثمن تعلّقاتهم، حتى الطبيعي منها والمباح! فيتحمّل - صلوات الله وسلامه عليه - آلام الوحشة والوحدة ومرارة الغربة والجفوة، ويدفع ويسدد أغلى الأثمان وأقسى كُلفة، في أعلى حد ودرجة ورتبة، غُرم كل أنس وعِوَضَ كل سعد، ومقابل كل فرحة ونشوة عاشها المحبّون في دنياهم، سواء كان ما ذاقه الموالون من الأنس والفرح والسعد حصائد ملاهٍ ومعاصٍ وآثام اجترحوها، أو من اغترار بالدنيا، وركون إلى لذّاتها وزائل نعيمها، مما صرفهم - بنحو وآخر - عن المحبوب الأصلي، وزوى «الإنسان» عن عشق الكمال المطلق.

والحتمية هنا حتمية تراتبية طوعية، نتجت عن اللطف والرأفة، وتفرّعت عن الحب والرحمة، لا أنها حق على «الإمام» وواجب وفَرْض. فتعبير «لا بد» جاء مما التزموه وكتبوه على أنفسهم من الرحمة والرأفة بمحبيهم.

كان «المولى» يحمل هذا الهم ويعيش هذه القضية، وقد طلب طريقاً وسلك درباً وأراد لتحقيقه وسيلة (طبيعية)... كانت اجتباء هذه «النخبة» وإعدادها وتربيتها. أن تملأ قلبه أُنساً، وروحه تعلّقاً وحباً، ثم يفتقدها ويراها تضيع على مرأىً منه ومنظر، وهو لا يطيق دفعاً، بل يطيق، ولكنه يحجم امتثالاً وطاعة، واستغراقاً في الحب والعشق، وتفانياً في البذل وسخاءً في العطاء، ما يبلغ بالأمر مبلغه وغايته. فتحرق الآلام قلبه، وتصلي الغصص صدره، وتكوي اللوعة كبده... ثم يضج من فرط حسرته ووحشته، وعظيم غربته ووحدته، حتى لينصدع لحال قلبه الوجود!

هكذا دخل «الصحب» عنصراً جوهرياً في تكوين «القربان»...

كانت هذه «الكوكبة» جزءاً في قوام الحدث، وركناً في تحققه وكينونته، لست أدري كيف كان الأمر سيبدو أو ليكون دون وجود هذه «الكوكبة»؟ ولكن ما أراه هنا صورة متكاملة متداخلة مندكّة، لا على نحو الفسيفساء التي تجمع أوصالها وتلحق أجزاؤها بعضها ببعض لتتكوّن أو لتكتمل وتكون، بل تمازجٌ ووحدة وعضوية جعلت من:

صفحة وجه «جون بن حوى النوبي»، مظهراً لتجلّي «القربان»، ساعة وافاه «المولى» في مصرعه ووضع خدّه على خدّه... وقد ٱستجاب الله تعالى دعاء مولى «أبي ذر الغفاري» رضوان الله عليهما، وحقق رجاءه إذ قال وقد ٱرتمى على قدمي «أبي عبدالله» يقبّلهما حين أعفاه من القتال، إعفاءً ما زال يكتنز الأمتحان ويختزن الغربلة والأجتباء: "يا جون، أنت في إذن مني، فإنما تبعتنا لطلب العافية، فلا تقتل في طريقنا".

كان «جون» عارفاً بـ «العافية» وسرّها الأعظم، واقفاً على معنى «الأتباع» ودرجته التامة ورتبته الكاملة، متفوقاً في نتيجة «الأمتحان»، فقال لـ «المولى»: "يا بن رسول الله، أنا في الرخاء ألحس قِصاعكم، وفي الشدّة أخذلكم؟ إن ريحي لنَتِن، وإن حسبي للئيم، وإن لوني لأسود، فتنفّس عليّ بالجنة، ليطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض لوني". لم يكن ليخفى على هذا العارف الكامل مفهوم المساواة في الإسلام، ولا ليلتبس عليه الأمر في أوّليات ما جاء به هذا الدين، ليهوي بمعيار التفاضل وملاك الكرامة، عن التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ويحيد عنها إلى مقاييس الناس وأقوالهم، فيرى في عرقه ونَسَبِه معرّة، وفي طبيعة جسده منقصة، إنما كان يشير إلى حقائق أخرى، ها هي تظهر أمامي الساعة وتتجلى حين سقط صريعاً شهيداً... إذ تجلّل ـ سلام الله عليه ـ ببياض المعرفة والولاء، عن سواد الشر وظلمة العدم، وطابت ريحه بمِسك حب «الحسين» وذكَت أنفاسه بِضَيَاع عشقه، عن نَتَن البعد عن الحق وصَنَقِ مفارقة «آل محمد»، وزكا حَسَبُه بطاعة لـ «أهل البيت» وٱتباعهم فالأنتساب إليهم، عن لؤم النَّصب ودَنَس مفارقتهم.

ترى، أمِن هذا التداخل والتمازج عظُم مقام هؤلاء العظماء وسما شأنهم وٱرتفعت رتبتهم ومنزلتهم على غيرهم من أصحاب رسول الله وأصحاب الأئمة المعصومين عليهم صلوات الله، بل على الشهداء منهم؟... فلا شيء فوق أن يكون المرء جزءاً وعضواً في عملية تقديم «القربان» الذي يحقق غاية الخلق ويطوي الفرش ويرقى «العرش»؟

❋ ❋ ❋

هذا «زهير بن القَيْن» أراه يخرج على فرس له ذنوب، وهو شاك في السلاح، عليه سيماء الشرف والنبل، تجلّله هيبة ظننتها من مقامه في قومه ومنزلته في «العرب»، لكنها كانت لشيء آخر!... تقدّم حتى أعترض الجموع الزاحفة بأتجاه معسكر «سيد الشهداء» عليه السلام، فأنبرى لهم ووقف في وجههم، ثم خطب قائلاً:

يا أهل «الكوفة» نذار لكم من عذاب الله نذار!

إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد، وملّة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف. وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف أنقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة.

إن الله قد أبتلانا وإياكم بذرية نبيه «محمد» صلى الله عليه وآله، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية «يزيد» و«عبيدالله بن زياد»، فإنكم لا تدركون منهما إلّا سوء عمر سلطانهما، لَيَسملان أعينكم، ويقطّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلون أماثلكم وقراءكم، أمثال «حجر بن عدي» وأصحابه، و«هاني بن عروة» وأشباهه.

تعالت أصوات كثيرة من قبل جيش «بني أمية»، كانت تحمل فحشاً وسباً قذعاً لـ «زهير» عليه السلام، وثناءً على «عبيدالله بن زياد»، ودعاءً له. وقد ميّزتُ من بين الأصوات صيحة منكرة تقول:

والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومَن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير «عبيدالله» سلماً!

فعاد «زهير بن القَيْن» يخاطبهم:

عباد الله! إن ولد «فاطمة» رضوان الله عليها، أحق بالود والنصر من «أبن سمية».

فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم! فخلّوا بين
هذا الرجل وبين «يزيد بن معاوية»، فلعمري إنه
ليرضى من طاعتكم بدون قتل «الحسين».

فرماه «شمر بن ذي الجوشن» بسهم، وقال:

أسكت أسكت الله نامتك، أبرمتنا بكثرة كلامك!

وعندما أرهَفتُ السمع وأصخت للصوت، وجدته «زقلل» الذي اعترض «زهيراً» وقطع عليه كلامه، لا «شمراً». وحق له أن يفعل! فقد كان صدى كلام «زهير» ـ على ضعفه في جلبة الميدان ـ يخرق جموعهم كنئيم الأسد، أو نئيم القوس، يشق الصفوف ويسري بين العسكر، فينذر برعدة أشد من الصواعق وهزة أعظم من الزلازل.

فرد عليه «زهير» وقال: يا بن البوال على عقبيه! ما إياك أُخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له «شمر»: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال «زهير»: أفبالموت تخوفني؟ والله للموت معه أحب إليّ من الخلد معكم. ثم أقبل على الناس ثانية رافعاً صوته، قائلاً:

عباد الله! لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي،
فوالله لا تنال شفاعة «محمد» صلى الله عليه وآله قوماً
هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا مَن نصرهم وذبَّ
عن حريمهم.

ثم نادى «زهيراً» رجلٌ من أصحابه، وأخبره أن «أبا عبدالله» عليه السلام يدعوه ويقول له: أقبِل، فلعمري لئن كان مؤمن «آل فرعون» نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، فقد نصحت لهؤلاء وأبلغت، لو نفع النصح والإبلاغ!

لست أدري لماذا يجري الأمر ويتسارع على هذا النحو الغريب؟

لماذا يُخلى له السبيل لينحدر إلى هذه المهاوي المؤلمة؟

أقدرٌ أن يجرح «المولى» في دعوته كما في بدنه؟

أن يستحكم الجهل في القوم وتطغى الشقوة وتطمو الخسة إلى هذا الحد: فيرفضوا الحوار، ويسوّفوا في الحل، ويقارعوا الحجة بالسخرية، والدليل بالهزء، والموعظة بالإعراض والتسفيه؟

ثم أن يضطر «المولى» عليه صلوات ربه، إلى سماع منحط الخطاب وما في كلام القوم من التجريح والصفاقة والوقاحة، ويكابد من جراح اللسان ولسع القول مثل ما ينتظره من طعن السنان وحزّ الحديد؟

إننا نسجل تراشقاً لا يوفر مبتذل كَلِم ولا ركيك حديث، ومحاججة في الخطاب تسبق البراز والقتال وسفك الدماء، يبدو فيها القوم على حال غريبة من التعاسة والشقاء، يتلفّظون بما يظهر هنا وكأنه تحدٍّ للسماء، وأستفزاز، أن تخرق السنن والنواميس وتخل بالموازين، فيرجأ الحدث ويُؤخر، أو يعتريه ما ينال من كماله على صعيد طبيعة المعاناة والألم واللوعة التي يلقاها «القربان»، وردّه على ما يترادف ويتقاطر وينصب عليه ساعة بعد ساعة...

فيقتل «المولى» ويصرع، بعد أفعال وردود أفعال تنال من الرتبة المطلوبة، ولا تستوفي الشروط اللازمة، فلا يتحقق جوهر «القربان» على مستوى طبيعة العطاء ودرجته... فتفوز الشياطين وتحقق غايتها!

يا للمكر والدهاء...

هذا ما يرومون، أن تتسارع الأحداث، فيكتنفها خلط وتداخل وفوضى، ما يخرجها عن التحكّم والسيطرة، بمعنى ضبط الحدود وحفظ الموازين، خصوصاً على صعيد التفاعل القلبي ودرجة التأثر، سواء في «المولى» عليه السلام نفسه، أو في أهل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار. أن يتجاوز الغضب الرضا، ويغلب السخط الصبر، ويطغى الألم على الحلم، أو أن تجيش الصدور بـ «الأنا»، وإن كانت «الأنا» ذاتاً مقدسة، لا ضير ولا غضاضة أن يكون الغضب لها، إلا أن ذلك سيخل برتبة النيّات ويهز درجة الخلوص والمرتبة المطلوبة لتحقق «القربان»!

لعمري، كيف تعمل الشياطين وكيف تخطط وتدبر؟ لقد خفي الأمر حتى علينا، ونحن في مطّلع التاريخ ومستشرف المشاهدين ومَطَلّ الباحثين!

لكنها غفلت ونسيت أن والد «القربان»، كان قد دفع الثمن سلفاً في «الخندق»، وهو يعرض عن قتل «عمرو بن عبد ود» حين طرحه أرضاً، وجثم على صدره ليجهز عليه، فعمد الخبيث للبصق، فأنصرف «المولى» وأجّل قتله ساعة حتى يزول أثر ذلك من نفسه، فيضربه ضربة واحدة، سَمَتْ وأرتقت لتعدل أو تفضل عبادة الثقلين.

هٰذا «برير بن خضير» وهو شيخ تابعي ناسك قارئ للقرآن، ومن شيوخ القراء في جامع «الكوفة»، وله في «الهمدانيين» شرف وقدر، يستأذن «المولى» أن يكلّم القوم، فيأذن ـ عليه السلام ـ له...

ها هو يقف قريباً منهم وينادي فيهم:

يا معشر الناس إن الله بعث «محمداً» بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً، وهٰذا ماء «الفرات» تقع فيه خنازير السواد وكلابه، وقد حيل بينه وبين «أبن بنت رسول الله»، أفجزاء «محمد» هٰذا؟

فقاطعه أحدهم وأوقف أسترساله في خطابه قائلاً:

يا «برير»، قد أكثرت الكلام، فأكفف عنّا، فوالله ليعطش «الحسين» كما عطش مَن كان قبله (يريدون «عثمان بن عفان»)!

فأجابهم ـ رضوان الله عليه ـ: أتقوا الله، فإن ثقل «محمد» قد أصبح بين أظهركم، هٰؤلاء ذريته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم؟

فقالوا: نريد أن نمكّن منهم الأمير «أبن زياد»، فيرى رأيه فيهم.

فقال «برير»:

أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟ ويلكم يا أهل «الكوفة»، أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها وأشهدتم الله عليها، يا ويلكم، أدعوتم «أهل بيت» نبيكم، وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتى إذا أتوكم أسلمتموهم

إلى «ابن زياد»، وحلأتموهم عن ماء «الفرات»؟ بئس ما خلفتم نبيكم في ذريته، ما لكم لا سقاكم الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم.

فقال له نفر منهم: يا هذا، ما ندري ما تقول؟

فأجابهم «برير»:

الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة، اللهم إني أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم، اللهم ألقِ بأسهم بينهم حتى يلقوك وأنت عليهم غضبان.

فجعل القوم يرمونه بالسهام، فرجع «برير» إلى ورائه.

عندها تقدم «المولى» حتى وقف بإزاء القوم.

كأني به متوكئاً على قوس له، و«حبيب بن مظاهر» يسوق راحلته، قد تأخر عنه بخطوات، فجعل ـ عليه السلام ـ ينظر إلى صفوفهم كأنهم السيل العُرام، وقد سكنت الضوضاء وأنخمدت الجلبة، حتى من خفق الرايات ورفيف أطراف الأخبية، وأنقطعت حمحمة الخيل، بل وأنفاس الجند!...

وهذا «عمر بن سعد» واقف في صناديد «الكوفة»، ملبيين بالسلاح، مدججين بالعتاد، مقنّعين مكفّتين، وفيهم مَن تلثّم وتنقّب... كنت أظنهم يدارون العجاج ويقون وجوههم الحاصب والسفاف، أو أنهم ممن أخذهم الخجل وغلبهم الحياء، ممن كاتبوا «المولى»، فما أرادوا أن يتعرّف عليهم ويلقاهم بكتبهم ويذكّرهم ببيعتهم. ولكن تبين لي أن فيهم ـ غيْر أولئك وهؤلاء ـ نفر من «النكرات»، من مجاهيل الرجال، لا يعرفهم أحد، كأنهم ما أرادوا أن يشغلوا الجند بالسؤال عنهم، والتفرّس في وجوههم ومَن يكونون؟ فحطّوا اللثام، وشدّوا على وجوههم المقانع!

نكرات؟ كيف إذن يصطفون في مدارج القادة وأُمراء الجند؟

ها قد ظهر لي وبان، أنهم ليسوا من البشر!... إنهم قادة «كتيبة» قوامها شرذمة من فسقة الجن ومردتهم، وسرية من سفلة الشياطين وعتاتهم، تشكلوا على هيئة البشر، فكانوا نكرات، ومنهم من تمثّل خيلاً وكلاباً!

لم يطل «المولى» وقفته حتى خطب في الجمع، وقال:

الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور مَن غرّته والشقي مَن فتنته، فلا تغرنكم هذه الدنيا، فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد أجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحل بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم! أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول «محمد» صلى الله عليه وآله، ثم إنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم! لقد أستحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون... هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم، فبعداً للقوم الظالمين.

كان «المولى» يمضي في خطابه، لا يتلكأ ولا يتلجلج، لا يعترضه حصر ولا ترهقه عقلة... حتى ملك أعنّة القلوب، وردّ شارد الأهواء، وقاد حَرون الشهوات، وقوّم زيغ النفوس. فكأن الحيرة تسرّبت إلى العسكر، فأكثرهم لم يَرَ «الحسين» في حياته ولم يعرفه، وفيهم مَن لم يسمع به ويأمره!

فصاروا يحدّثون بعضهم: مَن يكون هذا العظيم الذي ملأ الأسماع والقلوب بينابيع الحكمة المتفجّرة على لسانه، وسيول البلاغة المنحدرة عنه؟ وقع في أنفسهم أن هذا ليس قول خطيب مصقع، ولا السر في تأثيره من طلاقته وبلاغته، إنه إما أن يكون ساحراً أو نبياً أو ولياً؟!

أدرك «زقلل» المحنة ووقف على المعضلة، فنفث على لسان «عمر بن سعد» ليقطع على «المولى» حديثه، فأنبرى اللعين:

ويلكم، كلّموه فإنه أبن أبيه! والله لو وقف فيكم هكذا يومكم كلّه لما أنقطع ولما حصر.

فتقدم «شمر» فقال: يا «حسين» ما هذا الذي تقول؟ أفهِمْنَا حتى نفهم.
فقال عليه صلوات ربه:

أقول: أتقوا الله ربكم ولا تقتلوني، فإنه لا يحل لكم قتلي، ولا أنتهاك حرمتي، فإني أبن بنت نبيكم، وجدتي خديجة زوجة نبيكم، ولعله قد بلغكم قول نبيكم: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة".

ثم دعا «الحسين» عليه السلام براحلته فركبها ونادى بأعلى صوته:

يا أهل العراق ـ وجلّهم يسمعون ـ: أيها الناس أسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم عليّ، وحتى أعذر عليكم، فإن أعطيتموني النصف، كنتم بذلك أسعد وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

ثم حمد الله وأثنى عليه، وذكر ربه تعالى بما هو أهله، وصلى على نبيّه وعلى ملائكته وعلى أنبيائه... وراح في خطبة عب فيها عُبابه، وألّف لها من النفيس الجامع والغزير السديد، ما أحكم نسجه وأجزل لفظه وأساغ مورده، فلم يُسمع متكلّم قط قبله ولا بعده، أبلغ منه في منطق ولا أفصح في بيان، فكأنه أرسل الصبّا في ذلك الهجير وحطّ بالندى على الرمضاء الملتهبة.

كان «المولى» في قمة الإشفاق ونهاية الحرص، وفي منتهى اللوعة والأسى على ما سيلقى هؤلاء بسببه، وما ينتظرهم من بلائه! وقد غلبته الرحمة وملكته الرأفة، حتى فاضت على كل شيء هنا وغمرته، وكأنها شملتنا في مطّلعنا، فأنقلب ما فينا من حنق وغضب على أولئك القتلة الفجرة رحمة ورأفة! ومضى ـ عليه السلام ـ يشع ويفيض، حتى قال:

أنسبوني فأنظروا مَن أنا، ثم راجعوا أنفسكم وعاتبوها فأنظروا هل يصلح لكم قتلي وأنتهاك حرمتي؟

ألست ابن نبيكم، وابن وصيه وابن عمه؟ وأول مؤمن مصدق لرسول الله صلى الله عليه وآله، بما جاء به من عند ربه؟

أوَليس «حمزة» سيد الشهداء عمي؟ أوَليس «جعفر الطيار» في الجنة بجناحين عمي؟ أوَلم يبلغكم ما قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله لي ولأخي: "هذان سيدا شباب أهل الجنة"؟

فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، وإن كذبتموني فإن فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم، أسألوا «جابر بن عبدالله الأنصاري» و«أبا سعيد الخدري» و«سهل بن سعد الساعدي» و«زيد بن أرقم» و«أنس بن مالك»، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من «رسول الله» صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!

فما فرغ من هذا الخطاب المفعم بالسلم، المفيض حجة ونصحاً، المتدفق حناناً وعطفاً، بسط فيه «المولى» لأعدائه جناح رحمته، وألان أعطاف رأفته، عسى أن يستنقذهم من الجهالة وينجيهم من الهلكة والضلالة...

حتى طَفَر له «شمر بن ذي الجوشن» قائلاً إنه يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول «الحسين»! كمَن يقول عليّ اللعنة إن كنت فعلت كذا أو كان مني كذا... و«شمر» (في ردّه هذا) ينسب نفسه ويقر، أو أنه يدعو على نفسه أن يكون ممن تشمله الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إن كان فهم شيئاً من كلام «المولى» وخطابه!... كل ذلك تعالياً واستكباراً، وطمساً وتلبيساً على عسكره، ممن ـ قد يكون ـ تأثر بشيء من منطق «المولى».

فقال له «حبيب بن مظاهر»: والله إني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

ولكن «المولى» عليه السلام مضى في ما كان فيه، وأكمل:

فإن كنتم في شك من هذا أفتشكّون أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم، ولا في غيْركم.

ويْحَكُم، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته؟ أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟

فأخذوا لا يكلّمونه، فنادى ـ عليه السلام ـ:

يا «شبث بن ربعي» ويا «حجار بن أبجر»، يا «قيس بن الأشعث» ويا «يزيد بن الحارث»، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار، وأخضر الجناب، وإنما تقدم على جند لك مجند؟

فقال له «قيس بن الأشعث»:

ما تدري ما تقول! ولكن انزل على حكم «بني عمك»، فإنهم لن يُرُوكَ إلّا ما تحب.

فرد «الحسين» عليه السلام:

لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد.

ثم نادى: عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، وأعوذ بربي وربكم من كل متكبّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم إنه أناخ راحلته، وأمر «عقبة بن سمعان» فَعَقَلَها.

هذا «زقلل»، وقد أدرك أن حديث «المولى» بدأ يفعل فعله ويخلّف تأثيره، وقد ألقوا إليه وأرعوا لحديثه، حتى عمّهم كنسيم خضل يطفئ حراً يصلي رؤوسهم وغلّة تسعر قلوبهم. يكتسح ضمائرهم، ويطهّر نفوسهم، فكاد أن يتضعضع وضع الجند، وتهتز عقيدته وتسقط فكرته...

فانتفض اللعين، يعضّض شفتيه من الغيظ، وقد نزت في رأسه فورة الغضب، وهاج واستطار حتى كأن شِقّة منه طارت في السماء وأخرى في الأرض. ورم أنفه، وانتفخت أوداجه، وجحظت عيناه واحمرّتا، وظهرتا في شكل مخيف (يبدو أنه حالها الأصلية!)، كأن مال شق العين عن حاله العرضي الأفقي إلى الطولي الرأسي!

أخذ يجمع الشياطين ويستنفر الأبالسة ويحشدهم، وينادي فيهم أن لا يعود «المولى» إلى الخطاب بأية حال، ويجهدوا - إن عاد رغماً عنهم - أن لا يسمع كلامه من العسكر أحد، ولا يصغي إليه قائد آمر ولا جندي مقاتل! ثم يعود فيجول بين الجند والقادة، كأنه يفرغ بعض غضبه ويخفف ما أعلجه، ويصرخ فيهم، وقد حمل في يد درّة وفي الأخرى سوطاً:

صُمُّوا آذانكم عن حديثه وأعرِضوا، ما لكم وله؟ أحبسوا ألسنتكم عن مخاطبته، فيرد عليكم وتجيبونه، ويفتح باب البلاء، بل أعرِضوا حتى عن النظر إلى وجهه، أن يسحركم مرآه ويفتنكم جماله! أريدكم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عمْيٌ﴾... لا ينجز هذا الأمر الخطير ولن يتم إلّا بطريقتي وعلى شاكلتي!

وأخذ يهجوهم ويعنّفهم:

كم لهذا الحمق والسَّفَه، والطيش والنزق، أوَجئنا هنا لمخاصمة ومحاججة، أو لمناظرة وحوار ودراسة؟ إنه ميدان أيها الطغام، قتال سيقوم بعد حين ودماء ستراق بعد ساعة. تعساً لكم وسحقاً، لعمري إنما أنا من يُعذَل ويُلام أن جئت بكم وانتخبتكم واخترتكم أيها السفلة الأوغاد! ولَسرية من ألف فارس كفيلة بإنهاء الأمر وإطفاء النائرة من هذه العصبة التي لا تتجاوز المئة، وفيهم نسوة وأطفال... إنما أردت أن أعلي كعْبكُم وأرفع شأنكم، فتكونون من أهل الحظوة والمنزلة عند الأمير، وأنتم أحقر من قراضة وأخسُّ من قُلامة، ليس فيكم إلّا قميء صاغر! وأيم الله لو سمعت صوتاً يخاطب العدو، أو رأيت عيناً تنظر إلى وجه «الحسين»، أو لمحت أذناً تسمع حديثه، أو رأيت في عسكري غيْر الشرس الشكس والفج الضرس... لفتكت به وأداً، ونخعته سهفاً، بعد أن نكّلت به جدعاً وسملاً، ثم أشبعته مُثْلَة!

فأقبلوا يزحفون نحو «المولى»، حتى ظننت أن فسحة الحوار والمحاججة وبرهة التفاوض والمساومة، قد طويت وأنقضت، وأن القوم عزموا على بدء هجومهم... لكن الأمر لم يكن كذلك.

وكان «عمر بن سعد» قد هيأهم للقتال ورتّبهم في مراتبهم، وأقام الرايات في مواضعها، وعبأ أصحاب الميمنة ونظّم الميسرة، ثم قال لأصحاب القلب، وقد جعل فيهم النخبة من كتيبة «المتنقبين» من المردة والشياطين، أن يطوّقوا «الحسين» من كل جانب حتى يجعلوه في مثل الحلقة! وأمَرَهُم أن يعمدوا إلى الصفير والضجيج، وقرع الألواح والصفيح، وأن يرفعوا أصواتهم بالصياح واللغط... كلّما أراد «المولى» الخطاب والحديث.

فخرج «المولى» حتى أتى الناس وهم في ضجيجهم ولَجَبهم، كأنما يجأرون ويرغون ويعوون، وما إن رأوه قادماً حتى أرتفعت صيحاتهم أكثر من ذي قبل، ما أستلفت بقية العسكر في الميمنة والميسرة، وأسترعى مَن تأخر عن حلقة الحصار وطوق كتيبة «المتنقبين»، من جند القلب وقادته، فجرى الأمر على غيْر ما خطط له «زقلل» وأراد!... أستنصتهم «المولى»، فلم يسمعوه لينصتوا، ومَن سمعه منهم أبى السكوت ومضى في صدّه وهرجه. عندها أشار ـ عليه السلام ـ بيده، رفعها ومدّها حتى لتراجع ردن قميصه إلى أصل كُمّه ومدخل اليد منه، لولا زِرٌّ وبَزْمٌ أحكمه، مما يعمد إليه المقاتل. ولم أتبيَّن أن في الإشارة سر إلّا بعد حين، حين رأيت أثرها. كأنه أمرهم بها، أو أنه وظّف «بعض» قدرته وسلطانه وولايته التكوينية، في أدنى حدودها وأقل درجاتها، فبدأت الجلبة تتخافت شيئاً فشيئاً، حتى أمكنه أن يقول لهم:

ويلكم ما عليكم أن تنصتوا إليّ فتسمعوا قولي؟ وإنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمن أطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين. وكلّكم عاص لأمري غيْر مستمع (بمعنى مطيع) قولي، فقد ملئت بطونكم من الحرام، وطبع على قلوبكم، ويلكم ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟

فتلاوم أصحاب «عمر بن سعد» بينهم وقالوا: أنصتوا له.

فكأن «زقلل» تقهقر وآثر التراجع والأنسحاب، خشية أن يكون في الإصرار مفسدة تفوق ما يخشاه من الأستماع لخطاب «المولى».

عندها قام «الحسين» عليه السلام، وقد تغيّرت قسمات وجهه الشريف، وبدا فيها الغضب أكثر من الإشفاق، كأنه أنثنى في حاله وخطابه من الرحمة والعطف والغفران إلى الشدة والنقمة والعقاب، وعاد من الوعد والحض والأمل، إلى التهديد والتقريع والوعيد، فخطب قائلاً:

تباً لكم أيتها الجماعة وتَرَحاً، أحين أستصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم؟ وحششتم علينا ناراً أقتدحناها على عدونا وعدوكم؟ فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلا الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه. فهلا ـ لكم الويلات ـ إذ كرهتمونا، تركتمونا والسيف مشيم لم يشهر، والجأش طامن، والرأي لما يُستحصف؟ ولكن أسرعتم علينا كطِيَرة الدَبا، وتداعيتم كتهافت الفراش، ثم نقضتموها. فقبحاً لكم، يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ونفثة الشيطان وعصبة الآثام ومحرفي الكتاب ومطفئي السنن وقتلة أولاد الأنبياء ومبيري عترة الأوصياء، وملحقي العُهّار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمة المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، وأنتم «أبن حرب» وأشياعه تعتمدون، وإيانا تخاذلون.

أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت عليه عروقكم، وتوارثته أصولكم وفروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدوركم، فكنتم أخبث شيء سنخاً

للناصب وأكلَة للغاصب، ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، فأنتم والله هم.

ألا وإن «الدعي ابن الدعي» قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت وحجور طهرت، وأنوف حمية ونفوس أبية، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

ألا قد أعذرت وأنذرت، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة، على قلّة العدد، وخذلان الناصر.

ثم أنشأ ـ عليه السلام ـ أبيات فروة بن مسيك:

فإن نَهزِم فهزّامون قدماً * وإن نُهزَم فغيَر مهزّمينا

وما إن طبّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودولة آخرينا

أما والله لا تلبثون بعدها إلّا كريثما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ «أبي» عن «جدي رسول الله». فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم كيدوني جميعاً ولا تنظرون، إني توكلت على الله ربي وربكم. ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم.

ثم رفع يديه بالدعاء وقال:

اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني «يوسف»، وسلّط عليهم «غلام ثقيف» يسقيهم كأساً مُصبَّرة، ولا يدع فيهم أحداً إلّا قتله، قتلة بقتلة، وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم، فإنهم غرونا وكذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

ومع بلوغه ـ عليه السلام ـ في كلامه قوله: «غلام ثقيف»، ارتسمت في السماء صورة وجه مشرق، قالت الملائكة القريبة مني، وجمع ممن كان حاضراً معي، إنها صورة «المختار بن أبي عبيد الثقفي».

ثم سأل «المولى»: أين «عمر بن سعد»؟ أدعوا لي «عمرَ»!

فدعي له، وكان كارهاً لا يحب أن يأتيه.

فقال: يا «عمر» أنت تقتلني، تزعم أن «الدعي ابن الدعي» يوليك بلاد «الري» و«جرجان»؟ والله لا تهنأ بذلك أبداً، عهداً معهوداً، فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، ولكأني برأسك على قصبة قد نصب بـ «الكوفة»، يتراماه الصبيان ويتخذونه غرضاً بينهم .

فاغتاظ «عمر» من كلامه، ثم صرف بوجهه عنه، ونادى أصحابه:

ما تنتظرون به؟ احملوا بأجمعكم إنما هي أكلة واحدة!

ثم إنه عليه اللعنة، رمى نحو «الحسين» بسهم، وقال:

أشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى.

وأقبلت السهام من القوم كأنها المطر، فقال ـ عليه السلام ـ لأصحابه:

قوموا أيها الكرام إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم، فوالله ما بينكم وبين الجنة والنار إلا الموت، يعبر بهؤلاء إلى جنانهم وبهؤلاء إلى نيرانهم ، هذه الجنة قد فتحت أبوابها.

ثم صاح ـ عليه السلام ـ أما من مغيث يغيثنا لوجه الله؟ أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟

فإذا «الحر بن يزيد» قد أقبل يقول:

جعلت فداك، إذا كنت أول من خرج عليك فأذن لي أن أكون أول قتيل بين يديك (يريد أول قتيل بعد الإذن بالقتال، لأن هناك من قتل قبله بالسهام وغير ذلك)، لعلّي أكون ممن يصافح جدك «محمداً» صلى الله عليه وآله وسلم غداً في القيامة. ثم ترجل وهو يقول لـ «المولى»: أنا لك راجلاً خير مني لك فارساً، وإلى النزول يصير آخر أمري!

فأذن له «المولى» فجعل يقاتل أحسن قتال، حتى قتل جماعة من الشجعان والأبطال، ثم أستشهد. فحُمل إلى «الحسين»، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: "أنت «الحر» كما سمتك أمك، حرٌّ في الدنيا والآخرة".

وعاد «برير بن خضير» وأستأذن «المولى» للبراز، فأذن له، فخرج إليه «يزيد بن معقل» فأتفقا على المباهلة إلى الله تعالى في أن يقتل المحق منهما المبطل. وتلاقيا فقتله «برير»، لكنه لم يرجع إلى المعسكر، بل بقي في الميدان ومضى يقاتل بقية الأعداء، حتى قتل رضوان الله عليه.

وخرج «وهب بن جناح الكلبي» فأحسن في الجلاد وبالغ في الجهاد، وكانت معه أمرأته ووالدته، فرجع إليهما وقال: يا أماه أرضيت أم لا؟ فقالت الأم: ما رضيت حتى تقتل بين يدي «الحسين». وقالت أمرأته: بالله عليك لا تفجعني بنفسك. فقالت له أمه: يا بني أعزب عن قولها، وأرجع فقاتل بين يدي «أبن نبيك» تنل شفاعة «جده» يوم القيامة. فرجع فلم يزل يقاتل حتى قطعت يداه، فأخذت أمرأته عموداً فأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين حرم «رسول الله» صلى الله عليه وآله. فأقبل يردّها إلى النساء، فأخذت بجانب ثوبه وقالت: لن أعود دون أن أموت معك! فقال «الحسين»: جزيتم من أهل بيت خيراً، أرجعي إلى النساء رحمك الله، فأنصرفت إليهن، ولم يزل «الكلبي» يقاتل حتى قُتل رضوان الله عليه.

ثم خرج «مسلم بن عوسجة» فبالغ في قتال الأعداء وصبر على أهوال البلاء حتى سقط إلى الأرض وبه رمق، فمشى إليه «الحسين» ومعه «حبيب أبن مظاهر» فقال له «المولى»: رحمك الله يا «مسلم»، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، ودنا منه «حبيب» وقال: عز عليّ مصرعك يا «مسلم»، أبشر بالجنة. فقال له «مسلم» بصوت أضعفه النزف والجراح: بشّرك الله. ثم قال له «حبيب»: لولا أعلم أني في الأثر، لأحببت أن توصي إليّ بكل ما أهمك. فقال له «مسلم»: فإني أوصيك بهذا، وأشار إلى «الحسين»، قاتل دونه حتى تموت، فقال له «حبيب»: لأنعمنك عيناً، ثم أسلم «مسلم» الروح وتوفي رضوان الله عليه.

ثم خرج «عمرو بن قرظة الأنصاري» وآستأذن «المولى» عليه السلام فأذن له، فقاتل ـ رضوان الله عليه ـ قتال المشتاقين إلى الجزاء، وبالغ في خدمة سلطان السماء، حتى قتل جمعاً كثيراً من حزب «آبن زياد»، وجمع بين سداد وجهاد. وكان لا يأتي إلى «المولى» سهم إلّا آتقاه بيده ولا سيف إلّا تلقّاه بمهجته، فلم يكن يصل إليه ـ سلام الله عليه ـ سوء حتى أثخن «الأنصاري» بالجراح، فآلتفت إلى «الحسين» وقال: أوفيت يا «آبن رسول الله»؟ فقال: نعم، أنت أمامي في الجنة، فآقرأ «رسول الله» عني السلام وأعلِمْهُ أني في الأثر، فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه.

ثم برز «عمرو بن خالد الصيداوي» فقال: يا «أبا عبدالله»، جُعلت فداك، قد هممت أن ألحق بأصحابك، وكرهت أن أتخلّف فأراك وحيداً بين أهلك قتيلاً. فقال له «الحسين» عليه السلام: تقدّم فإنّا لاحقون بك عن ساعة. فتقدّم فقاتل حتى قُتل رضوان الله عليه.

وحضرت صلاة الظهر فأمر «المولى» «زهير بن القَيْن» و«سعيد الحنفي» أن يتقدّما أمامه بنصف مَن تخلّف معه، ثم صلى بهم صلاة الخوف. ولمعراجها صورة قلبت أحوال السماوات، لا يسع المقام الحديث عنها.

فوصل إلى «الحسين» صلوات الله عليه سهم فتقدم «سعيد بن عبدالله الحنفي» ووقف يقيه بنفسه، ما زال ولا تخطى، حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: اللهم آلعنهم لعن «عاد» و«ثمود»، اللهم أبلغ نبيك عني السلام، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت ثوابك في نصر ذرية «نبيك»، ثم قضى نحبه رضوان الله عليه، فوجد به ثلاثة عشر سهماً، سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح.

وتقدم «سويد بن عمر بن أبي المطاع» وكان شريفاً كثير الصلاة، فقاتل قتال الأسد الباسل، وبالغ في الصبر على الخطب النازل، حتى سقط بين القتلى وقد أثخن بالجراح، فلم يزل كذلك وليس به حراك حتى سمعهم يقولون: قُتل «الحسين» عليه السلام، فتحامل وأخرج سكيناً من خُفّه، وجعل يقاتلهم بها حتى قُتل رضوان الله عليه.

وجعل «الأصحاب» يسارعون إلى القتل بين يديه، وكانوا كما قيل فيهم:

قـــومٌ إذا نُـــودُوا لـــدفع مُلِمَّـــة
والخيل بين مُـدَعَّـس ومكـردسِ

لبسـوا القلـوب علىٰ الـدروع كـأنهم
يتهـافتـون إلـىٰ ذهـاب الأنفـس

ووقف «نافع بن هلال الجملي المذحجي»، يرمي بنبال مسوَّمة كتب أسمه عليها، حتىٰ قتل أثني عشر رجلاً سوىٰ من جرح. ولما فنيت نباله، جرّد سيفه وبرز وهو يرتجز: أنا «الجملي»، أنا على دين «علي». فخرج إليه رجل يقال له «مزاحم بن حريث» يقول: أنا على دين «عثمان». فقال له: أنت على دين الشيطان. ثم حمل عليه «نافع» فقتله. فصاح «عمرو بن الحجاج» بالناس:

"يا حمقىٰ، أتدرون مَن تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر، قوماً مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم".

فقال «عمر بن سعد»: صدقت، الرأي ما رأيت، وأرسل إلىٰ الناس ألّا يبارز رجل منكم رجلاً منهم. وقد رأيت «زقلل» بين يدي «عمرو» وهو ينصح، ثم من وراء «عمر» وهو يأمر!

فأحاطوا بـ «نافع» يرمونه بالحجارة والنصال، حتىٰ كسروا عضديه وأخذوه أسيراً. فأمسكه «الشمر» ومعه أصحابه يسوقونه، فقال له «أبن سعد»: ما حملك على ما صنعت بنفسك؟ قال: إن ربي يعلم ما أردت.

فقال له رجل وقد نظر إلىٰ الدماء تسيل على وجهه ولحيته: أما ترىٰ ما بك؟ فقال: والله لقد قتلت منكم أثني عشر رجلاً سوىٰ مَن جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقيت لي عضد ما أسرتموني!

وجرّد «شمر» سيفه، فقال له «نافع»:

والله يا «شمر» لو كُنْتَ من المسلمين لعظُم عليك أن تلقىٰ الله بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه.

ثم قدّمه «شمر» فضرب عنقه، فقضىٰ «نافع» رضوان الله عليه.

وكان «الحسين» قد عاد لتوّه من مصرع «واضح» التركي مولى «الحرث المذحجي»، وقد أستغاث بـ «أبي عبدالله» فأتاه ـ عليه السلام ـ وأعتنقه، فقال: "مَن مثلي وأبن «رسول الله» واضع خدّه على خدّي". ثم فاظت نفسه الطاهرة. ومشى «الحسين» إلى «أسلم» مولاه وأعتنقه، وكان به رمق، فتبسم وأفتخر بذلك ومات، رضوان الله عليه.

إنني أشهد منظراً يتكرر مع كل شهيد يسقط...

تنفلت زمر الملائك من شتى طبقات السماء، وممن مُنعوا من النصرة فحُبسوا في فضاء «كربلاء»، يهرعون كأنهم يتسابقون، يندفعون كخطف البرق، ينحدرون بنزق الشُهب، لا يربعون على شيء، حتى إن بعضهم كان يهوي إلى الأرض أرتطاماً يودي به، لست أدري أمن الإعجال واللهفة كان ذاك، أم هي جذبة الشوق ونشوة العشق، أم هو ضرب من الجزع أبيح لهذا الملأ، كما جاز لمن بعدهم أن تذهب أنفسهم حسرات؟... كانت أفواج الملائك هذه تلحق برعيل سبقها، يلازم كلٌ الشهيد ويحيط به ويرتقب لحظة سقوطه، فيه «جبرائيل» و«ميكائيل» و«إسرافيل» و«عزرائيل»، وحملة العرش، و«رضوان» خازن الجنان، فإذا فاظت روح الشهيد حملوها يزفونها إلى المقعد المُعَدّ والمقام المُدّخَر، عند مليك مقتدر. فترى النفس المطمئنة والروح المتألقة، ترتفع وتعلو من بين سنابك وركام، وتودّعَ عرصة تناثر فيها منهدم دروع ومنثلم بيض ومنحطم وشيج، لترجع وتعود إلى ربها راضية مرضية، يجللها «رضوان» بجناحيه، كأنه يقيها تزاحم ملائكة يلتمسون منها البركة، بمسحة أو نظرة تقع منهم عليه. وبقيت طائفة تلازم الجسد حيث صرع... تدرأ عنه الخيل أن تطأه، وتغطيه عن سافي الرياح وحاصب العجاج، وتجهد في ثني طالب نهب وطامع في سلب، وتحول دون قاصد مُثْلَة. كانت الملائكة الجاثية حول كل جسد شهيد، تتلفت في تطاير ووجل، وقد أستدارت منها الأعين وتقلّبت، كأنها كانت في النزع والأحتضار، بل بدت في ذهول وشَدَه، إذ أخرسها الوقع وأبكمها، فباتت في صعق مستمر وبهت متواصل! فصارت هيئتها تورث في الناظر رعباً وتلزمه بُعداً.

ولكن الذي يراها من الحضور هنا قلّة، ظننت لوهلة أنهم لا يكترثون بها ولا يعيرونها ألتفاتاً، ثم تبين لي أنهم لا يبصرونها، لاحظت أن القوم لا يرون هنذا المنظر من الملائكة، ولا يدركون شيئاً مما يجري هنا!...

كانت طقوساً مهيبة ومراسم جليلة، لا يقل وقعها على قلوب مشاهديها هولاً وصعقاً من أحداث الميدان نفسه.

ويبدو أن مثل هنذا الأداء الغيبي هو ما يسري في بعض أحداث الدنيا ووقائعها فيخلق فيها ما يُحَسُّ من أثر، فتشعر في بعض البقاع وفي بعض الأحيان، بهيبة وجلال لا تعرف له سبباً ولا تجد تبريراً... إنها فعل الطاقة الروحية المترشحة والمنتشرة من الحركة الغيبية القائمة هناك في تلك الساعة، حركة الملائكة وسكان الملكوت، أو حركة الوجودات الكلية، حركة القيم والمعاني، يسري منها ويفيض، حين تتجسم في موجود حسي وتتمثل في قالب يخرجها عن تجرّدها، ولكنه تجسّم لا يبلغ ببعض العيون والإدراكات مبلغ الرؤية والمشاهدة والحس. تدخل ـ على سبيل المثال ـ داراً أو تمر بمكان أو تنظر شخصاً... فينقبض قلبك أو ينشرح. ولربما تمادى التأثير وتصاعد حتى صعقك وأفقدك الوعي، وأنت لم تر شيئاً ولم تسمع صوتاً!

أما أنا فرغم الهول والذعر والهيبة، فقد أنتابتني، من مرأى إهراع الملائكة وأنفلاتها وهويّها تجاه أجساد الشهداء، رغبة جامحة، وتملكتني طلِبة وألحَت، أن أنفلت وأندفع وأهوي معهم! وفور خطور الخاطر، وبمحض مروره في نفسي، كنت قد شللت وأقعدت، فلم أطق حراكاً من أي نوع، حتى عيني جمدت عن الحركة وأجفاني أن تطرف... فلما أنثنيت وعرفت حدودي من جديد، وعدت مكتفياً بالمشاهدة والمراقبة، عادت إليّ حالتي الأولى!

كنت في هنذا...

إذ أضطرب الميدان، وتداخلت الصفوف، وأختلطت العساكر، وتسارع الحدث، وكأن «الطوارئ» أعلنت... لست أدري ماذا يجري الساعة، ولكن المشهد هنا يحكي شتاتاً وفوضى غريبة لم أتوقعها، أو أنني ما كنت أحسب أن تعرض وتقاطع أنتظام توالي الحدث وتسلسله.

ومع هذا الأضطراب في المشهد، أعتلال في بدني ونزلة في روحي، ألمْ ألمَّ بي وأستحوذ عليّ فأسقطني وطرحني أرضاً، فصرت مردوعاً قد عمّ جسدي كلّه الوجع، خثرت عظامي وخارت قواي ووهنت، مع خفقان وضرَبان أهوىٰ بقلبي وقبضه، وقلق وخوف كأنه أعتصره... لعمري ما كنت أحسب أنني بهذا الضعف والخور، كلّما جد في هذه المسيرة جديد سقطت أمامه وهويت، وعاودتني الآلام الجسدية المثنية عن الأستمرار والروحية الرادعة عن الثبات والقرار!؟

لست أدري، هل بدأت المعركة النهائية، هل قرب المصرع المرتقب، هل دنا المشهد المنتظر؟ لست وحدي المضطرب هنا، فأنا أرىٰ فورة من الملائكة وأسمع هينمة، وهديراً أشبه بهديل القماري أو الرواعب، بتطريب يروّع الأسماع ويصدم الأرواح... ترىٰ، ماذا يجري، أو سيجري؟

كان القتال محتدماً ضارياً، وقد حمي الوطيس وأستعر، أشعل القوم غارتهم وراحوا في إجلاب قاس ومنابذة شديدة، ومضوا كذلك حتىٰ أنتصف النهار، دون أن يقدروا علىٰ حسم المعركة، رغم التفاوت بين العسكرين والبون الشاسع في العدةَ والعدد...

وقد وقف قادتهم علىٰ أن السر، بعد شجاعة وأستبسال «الحسينيين» وتفانيهم، يعود إلىٰ أنهم يأتون المعركة ويخوضون القتال من وجه واحد، لأجتماع الأبنية وتقارب بعضها من بعض، وللخندق الذي أحتفر خلف المخيم، ما مكّنهم التموضع وأتاح لهم التحصّن، فألتفرّغ لمناجزة وَرَدّ الجبهة الوحيدة التي يواجهون. فلما رأىٰ «عمر بن سعد» ذلك وألتفت إليه، عزم علىٰ تغيير طريقتهم في القتال... فأرسل رجالاً يقوّضون الأبنية عن أيمانهم وعن شمائلهم، علّهم يحيطون بأصحاب «الحسين» من عدّة جهات، فيفتحوا عليهم جبهات جديدة. فأخذ الثلاثة والأربعة من «الأصحاب» يتخلّلون البيوت ويكمنون بينها، فينبرون للكتائب التي تتعرّض للخيام وتسعىٰ أن تزيلها من جانبي المعسكر، يشدّون علىٰ الرجل وهو يقوّض وينتهب، فيقتلونه ويرمونه من قريب ويعقرونه...

وما زالـوا في هـٰذا حتىٰ أفنـوا الكتائب وأبادوا مَن كـان يتقـدّم ويقحم المخيم وينشغل بالسلب والنهب.

عندها دوّىٰ صوت «زقلل» بأنكر ما يكون...

لم أتبيّن ما يقول، والحق أنه ما كان يقول أو يتكلّم! كان يزحر كمَن غلّبه البحـاح، ينفث كفحيح الأفـاعي ويخـرص كنشيج النـواعي ويعـوي كالذئاب... ومن بعد هـٰذا الصوت المنكر صدرت تعليمات «عمر بن سعد» الجديدة بمنع الجند من دخول البيوت لنهبها أو تقويضها، وأمره: أن يحرقوا البيوت بالنار!

فجاءوا بالنار وصاروا يحرقون...

وقف «الأصحاب» في حيرة لا يدرون ما يصنعون، وقد أخلوا النساء والأطفال من الأخبية المتاخمة لأطراف المخيم إلىٰ أخرىٰ في وسطه، وأمّنوا لسلامتهم ما تهيأ من أسبابها، ولـٰكن ذلك لم يخفف من صدمتهم وحرجهم، وقد هالَهم ذعر العيال وصراخهـم. فتدخل «المولىٰ» سريعاً، ولملم شتات الموقف وحرجه، وهدّأ من روعهم وسكّنهم حين قال:

دعوهم فليحرقوها... فإنهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها. وكان ذلك كذلك، وما كانوا يهجمون إلا من وجه واحد.

بقي القتـال سجـالاً، قِـرْنٌ يبرز لـقِرْن في طـرف الميـدان، وكتيبـة تَـكِرُّ وتعطف، وأخرىٰ تَفِرُّ وتدفع... وبين هـٰذه وتلك رأيت جماعة منزوية، كأن لا شأن لها بما يجري، جُلّ ما تفعله: تهـامسٌ فيما بينهـا وإسرار إلىٰ بعضهم بعضاً، وإشارات بالأيدي وإيماء، وفيهم مَن تجاهل المعركة وضراوتها وراح يسجل ويدوّن في الرقاع! لست أدري مَن تكون هـٰذه الجماعة الغريبة؟

أمن الطفيليين المغامرين الذين يلحقون بالجيوش الجرارة، ينتظرون نهاية المعارك والحروب ليلتقطوا ما يضيق عن وسع الجند وركائبهم من الغنائم، أو ما يعف عن جمعه وحمله العسكر الظافر من سقط المتاع وفضلة الأسلاب؟... لا أظن ذلك، فليس في سيماهم ومرآهم، ولا في ملابسهم وهيئاتهم ما يوحي بعَوَز وحاجة وطفيلية!

هل هي وحدة إسعاف وطبابة، تنتظر مَن يصاب لتحمله حيث يُداوىٰ ويضمَّد؟ كلا، فهٰذا جريح يتعفّر إلىٰ جوار بعضهم، يتخطونه دون أن يعيروا تأوّهاته أدنىٰ ٱلتفات، ناهيك بأهتمام!

هل هي كتيبة ٱحتياط يدّخرها «ٱبن سعد» للنجدة عند الحاجة القصوىٰ؟ كلا، فهي مُخِفّة لا تحمل سلاحاً ولا تتجشّم تهيؤاً وٱستعداداً.

أم تراهم كتاباً و«علماء»، يرصدون الحدث ويسجلونه للتاريخ؟

نعم، إنها ليست من ذاك، ولٰكن فيها شيء من هٰذا!... إنها عصبة «أُموية» صرف، قدمت من «الشام»، من بلاط «يزيد بن معاوية» مباشرة، بمهمة محدّدة وتكليف واضح بيِّن، أن تراقب وتتابع، تلاحق وترصد وتسجّل، حتىٰ تقف ـ بدقّة ـ علىٰ درجة الولاء وحجم العطاء، لتدرج الجند والقادة والأُمراء في الرتب القادمة، وتصنّف العشائر وتنزل القبائل في مواقعها المنتظرة بعد الفراغ من القتال وٱستتباب الأمر. ولعل «عمرَ» أرادها حين رمىٰ وطلب الشهادة له عند أميره. إنهم جواسيس «يزيد» وعيونه، يلقطون وينطسون.

كانوا منعزلين في ركبهم مذ ٱرتحلوا مع من قدم من «الكوفة»، صامتين، لا يخالطون العسكر في كلام، ولا يشاركونهم في القتال، ولا يتدخّلون في شيء، كانوا منصرفين إلىٰ تقصي الخبر وتحري الحدث، ما يخرجهم من الرجم والخرْص والتخمين إلىٰ إدراك الوقائع فضبطها ونقلها.

ولعمري، فإن فعلهم لم يكن أقل شأناً من أولئك «المتنقبين»، كتيبة المردة والشياطين!... كان وجودهم يشكل عنصر ٱستنفار وعامل إذكاء وتأجيج. كان القادة يعرفونهم ويدركون خطَرهم، وهٰكذا بعض الجند، فكانوا يتبارون في الأستعراض أمامهم، وإظهار ما يرفع شأنهم ويثقل كتبهم وما يُدوَّن عنهم! فيثقلون الوطأة، ويبالغون في الفضاضة والخشونة، ويوغلون في القسوة، ويفرطون في العنف علىٰ «الحسين» وأصحابه وأهل بيته، عسىٰ أن يبلغ الخليفة فعلهم فيحظون ويفوزون.

❁ ❁ ❁

هذه امرأة «الكلبي» تمشي إلى مصرع زوجها الشهيد، حتى جلست عند رأسه تمسح التراب عن وجهه وتخاطبه، أو تخاطب نفسها، لست أدري! وتقول: هنيئاً لك الجنة. فيرصدها «شمر بن ذي الجوشن»، فيشير إلى غلام له يُسمّى «رستم» أن يهجم عليها، فيضرب اللعين رأسها بعمود فيشدخه، فتموت مكانها شهيدة إلى جوار زوجها الشهيد.

هذه صورة مكررة، لقد سبق أن رأيت «حنظلة بن أسعد الشبامي» حين جاء يودّع «المولى»، فانهمرت تجاههما رشقات السهام، وتطايرت نحوهما الرماح، ورمى بعض عسكر «الشام» الحجارة، وقذف بعض من قرُب سيوفهم وحذفوا خناجرهم! فوقف «حنظلة» بين يدي «المولى» يقيه السهام والرماح والسيوف بوجهه ونحره، ببسالة أدهشت الملائكة، وما اكتفى حتى راح يناجز القوم بسيفه... عادت الصورة ثانية وعاد نداءه:

﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾. يا قوم! لا تقتلوا «حسيناً» فيسحتكم الله بعذاب، وقد خاب من افترى.

فجعلوا يسبُّونه ويشتمونه...

فقال له «الحسين»: يا «ابن أسعد» رحمك الله، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك يشتمونك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين.

قال: صدقت جعلت فداك، أفلا نروح إلى ربنا، ونلحق بإخواننا؟

قال: بلى، رُحْ إلى ما هو لك خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى.

إنه الإكسير الأعظم، هذه هي الولاية العظمى، ليت البشرية جمعاء نظرت فعل هذه الكلمة: «رُحْ»، وما جرى حين نطق بها «المولى» صلوات الله وسلامه عليه؟...

كانت إمضاء الخلاص الذي طبع على صحيفة الرجل، والخاتم الذي مهر صك أنتقاله الفعلي إلى مقام الشهداء السعداء. صدر الإذن التكويني، فأنقلبت السماوات وأنفلتت الملائكة وأزدانت الجنان وتعطّرت الحور وخرجت زرافات تستقبل الشهيد، وأشرأبّت أعناق الأولياء والشهداء وتطاولت لتنظر ما جرى أو سيجري بعد ساعة، ومن يكون التالي الجديد.

كانت روح «حنظلة» قد آستوفت ما لها من مزاج بدنه، وأستخلصت نفسه من كل قيود الدنيا ولوازم نشأتها، إذ صقلت من طَرْق الآلام عليها، ونقيت بنارها، فكأنها بلغت الجلال قبل أجلها، ولم تكن بحاجة لألم المصرع، بعد الذي قاست وهي تتلقى السهام عن «المولى»! فصدر أمر عروجها قبل نزعها ووفاتها!... أعد البراق، وتهيأ «حنظلة» للمعراج، وهو بعد في بدنه الدنيوي وجسمه المادي، وهو يقول:

السلام عليك يا بن رسول الله، صلى الله عليك، وعلى أهل بيتك، وعرّف بيننا وبينك في الجنة.

فجعل «الحسين» عليه السلام يقول: آمين آمين.

ثم تقدم، وقاتل قتالاً شديداً، حتى حملوا عليه فقتلوه...

❁ ❁ ❁

ثم أعترى الميدان أمرٌ هزّه وخطب زَلْزَلَه، فكأنه لحدث أشد مما كان يجري وأمر أفظع!... إنه «شمر بن ذي الجوشن»، يحمل ويقحم حتى طعن فسطاط «الحسين» عليه السلام برمحه! وأخذ ينادي:

عليّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله.

فتصايحت النساء وخرجن من الفسطاط.

فصاح به «الحسين»: يا «أبن ذي الجوشن»، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي، حرقك الله بالنار.

إننا نرى الآن «حميد بن مسلم»، الراوي الشهير الذي ضبط كثيراً من وقائع هذا اليوم ونقلها حتى بلغتنا بعد أربعة عشر قرناً، نراه يتقدّم وقد توجّه إلى «شمر» يكلّمه ويسعى أن يؤثر فيه فيثنيه عن قصده:

سبحان الله إن هذا لا يصلح لك، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين: تعذِّب بعذاب الله (النار)، وتقتل الولدان والنساء؟ والله إن في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك.

فيقول له «شمر»: مَن أنت؟

فلا يخبره، خشية أن يضره ذلك، فإذا نجا من شر «شمر»، كان يخشى أن يلتقط الجواسيس شفاعته ويبلغوها السلطان!

وبينا هم في هذا، إذ جاء «شمراً» رجل كان أطوع له من «حميد»، هو «شبث بن ربعي» فقال له: ما رأيت مقالاً أسوأ من قولك ولا موقفاً أقبح من موقفك... أمُرْعِباً للنساء صرت؟

فكأنه آستحيا، فذهب وآنصرف.

وكان «زهير بن القَيْن» قد بادره وحمل عليه ليبعده عن المخيم في رجال من أصحابه عشرة، فشد على «شمر بن ذي الجوشن» وأصحابه، فكشفهم عن البيوت حتى آرتفعوا عنها وأبعدوهم، وصرعوا من أصحاب «شمر» «أبا عزة الضبابي».

وتعطّف الناس عليهم فكثروهم...

فما زال «الأمويون» يقتلون الرجل من أصحاب «الحسين» والرجلين فيتبيّن فيهم ويظهر، وكأن عسكر «المولى» قد خلا من الجند وفرغ من الرجال! وأولئك كثير، لا يتبيّنُ فيهم ما يقتل منهم، ولا يظهر عليهم عجز وآنكسار، ولا قلّة في العدد وآندحار.

فلما رأى «أبو ثمامة» «عمرو بن عبد الله الصائدي» رضوان الله عليه ذلك، توجه إلى «المولى» قائلاً: يا «أبا عبد الله» نفسي لك الفداء. إني أرى هؤلاء قد آقتربوا منك، ولا والله لا تُقتل حتى أُقتل دونك إن شاء الله، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها.

فرفع «الحسين» عليه صلوات ربه رأسه، فقال: ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها. ثم قال ـ عليه السلام ـ: سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلي.

فقال لهم «الحصين بن تميم»: إنها لا تقبل.

فقال له «حبيب بن مظاهر»: زعمت لا تقبل الصلاة من آل «رسول الله» صلى الله عليه وآله، وتقبل منك يا حمار؟

فحمل عليهم «حصين بن تميم»، وخرج إليه «حبيب بن مظاهر» فضرب وجه فرسه بالسيف فشب ووقع عنه، وحمله أصحابه فأستنقذوه.

وأخذ «حبيب» يقول:

أُقْسِمُ لو كُنّا لكم أعدادا * أو شَطْرَكُمْ ولَّيْتُمُ أكتادا

يا شرَّ قوم حسباً وآدا

ثم جعل ـ رضوان الله عليه ـ يقول مفاضلاً:

أنا حبيب وأبي مظاهرُ

فارسُ هيجاءَ وحرب تُسْعَرُ

أنتم أعدُّ عُدَّةً وأكثر

ونحن أوفى منكُم وأصبرُ

ونحن أعلى حجة وأظهرُ

حقاً وأتقى منكم وأعذَرَ

وقاتل قتالاً شديداً، فجاءه رجل من «بني تميم»، يقال له «بديل بن صُرَيْم» من «بني عُقْفَان» يحمل عليه، فضربه «حبيب» ـ رضوان الله عليه ـ بالسيف على رأسه فقتله.

كان وضع الميدان ينبي عن طامة وشيكة، والملائكة حولي في هيض وأنكسار، فعلمت أن فيهم مَن يعلم ويدري ما سيقع بعد قليل، وكأنه شاهَد المنظر وحضر الموقف من قبل! وكانت الملائكة توزع نظرها بين الميدان ووجه «المولى»، تنظر ما سيغلبه من اللوعة.

كنت أرقب «حبيباً» يصول ويجول، يتبدّل الغضب في وجهه بشراً والحزن سروراً، فيعود ألقاً ونوراً يسطع ويبهر، ثم يعود فيخبو ويخفت، فلا يلبث أن يرجع إلى الألق والإشعاع ثانية، وهكذا مرّة بعد أخرى، كأنه في مخاض الولادة للعالم القادم، وإرهاصات النقلة إلى الملكوت.

وقد غلبت البسمة على وجهه كل معاني الجهد والإعياء، ومسحت كل تقاطيع الألم، وأزالت كل آثار الفجعة، إلّا شيئاً واحداً بقي كأنه آمتزج في وجود الرجل وآندك!: ألم فراق حبيبه وفجعة تركه وحيداً يقاسي وحشة فقده! كان يبسط، بخطواته وتحركاته في الميدان، كل ما آنطوى فيه من علوم، وما آختزن من أخبار وآثار، وكل ما آستبطن وأخفى من السر الأكبر والآسم الأعظم... إننا نرى حقيقة «حبيب» في بسط بعد قبض وتجسم بعد معنى. أسرار معرفته وولائه لوليّه، وأسرار مقامه وقربه من إمامه، ثم أسرار شهادته المرتقبة بين لحظة وأخرى. كانت الخفيات تتكشف حين تتجسم، وترتسم بأبهى صورة وأزكى منظر، فنراها نحن في السماء، ويغترف من بهائها الملأ الأعلى ما شاء.

والشهداء السعداء، من أول الخلق والنشر إلى ساعة الطي والحشر، من الأولين إلى الآخرين، يتقلّبون في الغبطة!

وكنت ـ خلال مسيرتي السابقة ـ أعاني في فهم هذا المعنى وأتكلّف في قبوله، فلا أذعن إلّا تعبّداً بالنصوص المعصومة... وذلك من عدّة وجوه:

إذ كيف يمكن لكُمّل آستحقوا تبوُّؤَ مرتبة الشهادة ومقامها، ودخول الجنة من بابها المخصوص. كلّهم عظماء، وفيهم أنبياء وأوصياء، عالمون بأنها مقامات آختصّها الله لأهلها، لا تصلح إلّا لهم ولا تليق إلّا بهم... كيف لهم بغبطة أصحابها؟

ثم ماذا تعني هذه الغبطة وكيف تكون أمراً محموداً لا ينطوي على قبح، وهو ميدان تزاحم ومنافسة، على نحو مانعة الخلو أو الجمع، فهذا مقام إما أن يكون لي أو لغيري، لا يمكن أن يكون لنا معاً، ماذا يعني تمنيه غير زواله عن الآخر وآنصرافه إليّ؟ وماذا يعني هذا غير الحسد؟!

ومن الأولى إلى الثانية أدركت الثالثة...

لم أتبين معنى الغبطة فأنزهه عن الجهل، ولم أدركه لأفصله عن الحسد وعن كل قبيح لا يليق بالشهداء، إلّا حين وقفت على حجم الحسرة ودرجة المعاناة وكيفية الشوق، فـ:

لا يَعرِفُ الشَوقَ إلّا مَن يُكابِدُهُ
وَلا الصَبابَةَ إلّا مَن يُعانيها

هؤلاء قوم ذاقوا فبلغوا، وطعموا فعرفوا... ومن هنا كانت الحسرة على الفوت تقطّعهم، والشوق إلى البلوغ يبريهم، فيشغلهم هذا وذاك عن قضية التزاحم ومسألة الزوال، وأن الأمر ملزوم سلب وقرين إزاحة، بل إن ذلك لا يعتري أفكارهم ولا يمر في أخيلتهم. إنهم يطمحون في اللحاق والبلوغ، لا يريدون شيئاً سوى ذلك، ولا يظنون أو يحتملون الحصرية في المقام، حتى يلتفتوا إلى لوازمها فيكون الحسد.

إنهم إذا رأوا المقام ونظروا الرتبة والدرجة، تهافتوا ليصلوها وتحرّقوا ليبلغوها، فيعجزون، فتحل بهم وتتملّكهم الغبطة.

كان «حبيب بن مظاهر الأسدي» يدير الرؤوس في الميدان، كما يفعل في السماوات والملأ الأعلى، ويسقي هؤلاء الأخيار من خمرة العشق والولاء، مثلما يطيح بتلك من حمم التبري ويروي أولئك من حميم سيفه، ومما أرادوه لأنفسهم من شقاء. وما عجبت لشيء عجبي من الشياطين، وكيف كانت تشرب من نجس تلك الدماء! كأنها تستبق المعاد لتحتج على أوليائها وترد على مزاعمهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بينا «حبيب» في ذلك، ينظم ملحمته الخالدة، وينسج وشاحه الأجمل، ويرسم صورته الأروع الأبدع، يصنع لنفسه عنوان «شيخ الأنصار» ويتهيأ ليضطلع بمهمته القادمة ليكون «مسجل المعزين والزوار»...

إذ حمل عليه رجل آخر من «بني تميم»، وهو منشغل بغيره، فباغته وطعنه، فوقع أرضاً... فذهب ـ رضوان الله عليه ـ لينهض، فعاجله «الحصين

بن تميم» بضربة أخرىٰ علىٰ رأسه، فوقع ثانية... عندها، نزل إليه «التميمي» سريعاً فقتله، ثم آحتز رأسه الشريف. أو كأنه لم يقتله، بل عمد إلىٰ حز رأسه وهو بعد حيٌّ ما أسلم الروح!

وبينما كان «المولىٰ» يغالب فجعة فقده شيخ أنصاره وأعظم أصحابه، كان القتلة يخوضون في شأن آخر!

هٰذا «الحصين» يقول لقاتل «حبيب»: إني لشريكك في قتله.

فيرد عليه: والله ما قتله غيْري!

فيقول «الحصين»: أعطنيه أعلّقه في عنق فرسي كيما يرىٰ الناس ويعلموا أني شركت في قتله، ثم خذه أنت، وآمض به إلىٰ «عبيدالله بن زياد»، فلا حاجة لي في ما تُعطاه علىٰ قتلك إياه! فيأبىٰ عليه، حتىٰ تأزمت بينهما.

فآنبرىٰ «زقلل» وأطل برأسه، وكأنه آستشعر الخطر من هٰذا النزاع ورأىٰ فيه ما ينذر بشقاق يفرّق الجند ويجعل بأسهم بينهم، والغرض الأصلي لما يتحقق بعد. فراح يفاوض هٰذا الطرف ويساوم ذاك، يغري مرّة ويرجو، ويهدد أُخرىٰ ويتوعد، حتىٰ أرسل من قوم «التميمي» وأبتعث مَن يقترح حلاًّ، لم يكن إلّا عين طلب «الحصين»، لٰكن «زقلل» أجراه علىٰ لسان الرجل من قوم «التميمي»، فلم يبدُ الإذعان تنازلاً وهزيمة!... فدفع إلىٰ «الحصين» برأس «حبيب»، فعلقه في عنق فرسه وصار يجول به في المعسكر، ثم أرجعه بعد ذلك وأعاده إلىٰ الذي آحتزّه... واللعنة تتنزل عليهما!

إنني أرىٰ الآن وأشهد معنىٰ ما كنت أقرؤه في المقاتل وأسمعه علىٰ المنابر من أن قتل «حبيب بن مظاهر» هدَّ «الحسين» هدّاً. أرىٰ آنكساراً في وجه «المولىٰ» وألماً وحرقة لم أرها من قبل.

لست أدري لماذا تجسمت الساعة صورة حوار واحد دون غيْره، دار يوماً بين «حبيب» بيّض الله وجهه و«الحسين» عليه السلام؟ حين سأله:

أي شيء كنتم قبل أن يخلق الله عزو وجل «آدم» عليه السلام؟

فأجابه: "كنّا أشباح نور ندور حول عرش الرحمٰن، نعلم الملائكة التسبيح والتهليل والتحميد".

ألأنه سؤال سكان الملكوت واللغز الذي ما آنفك يحيرهم، حمله «حبيب» وجرىٰ على لسانه، فتجلىٰ الجواب وظهر ـ مع عروجه ـ في ما تجلىٰ من حقائق حملها هٰذا العظيم؟ من باب أن المرء يستحضر من الأُمور الممتنعة، إن طاوعته، أكثرها خطراً عنده، ويرقب في المنظر المحجوب، إن بذل له، المواقع التي يعظم خطبها عليه. فوقعت أبصارنا على صورة هٰذا الحوار وحقيقته وآستحوذ بهاؤه على أنفسنا، فما رأت أعيننا غيْره؟

أم أن هٰذا الحوار، في سؤاله وجوابه ومضمونه المعرفي الأرقىٰ، يشكل في الواقع أعظم صورة في عالم الحقائق، صورة تغلب على كل شيء وتفوق كل عمل وعبادة، حتىٰ على الشهادة، فحكمت وقهرت فظهرت؟

كان «حبيب» وهو يعرج في السماء، ينظر إلىٰ الأرض، وكان «المولىٰ» يرقب السماء يبادله النظرة! كأنهما يتوادعان ثانية، أو أن كُلّاً يتزوّد من صاحبه بنظرة للصورة الملكوتية التي صار عليها، فـ «حبيب» صار ينظر بعينه البرزخية ويرىٰ «المولىٰ» في صورة جديدة ما كان قد رآه بها!... والحق أن الأُمور هنا تلقائية طبيعية، إذ لا يملك النظر إلّا أن ينصرف تجاه الأجمل، ولا ينشغل الكمّل عن الأكمل، لذا قلّ أن تجد هنا آلتفاتاً وآنصرافاً، فالجميع منشغل بشأن واحد، ألهم أنه التهليل أو التسبيح أو التحميد، أو غيْر ذلك من الشؤون. فإذا عرضت صورة جديدة أعظم شأناً، تراهم يمموا تلقاءها، ينهلون من نعيم مرآها ويغترفون من جمال منظرها ومعناها.

وأما «المولىٰ» الذي لم تكن صورة «حبيب» الجديدة تخفىٰ عليه وهو أرضي دنيوي... فقد كان ينظر إليه عشقاً ويرقبه لهفة ويرمقه حسرة. كان يودّع الصحبة ويشيّع حقيقتها في وجوده الشريف. كان ـ عليه صلوات ربه ـ يتجرّع مرارة فقد مَن آتخذه لنفسه خليلاً، وجعل فيه سلواه وتعلّق به أُنسه وراحته، وأناط روحه بشخصه...

لعمري، كم عسىٰ أن يكون هٰذا الشخص الشريف ربانياً وإلهياً؟ كم هو متخلّق بصفات الحبيب الأصلي لـ «المولىٰ»، حتىٰ وجد فيه «العاشق» إشارات وعلامات تذكّره بحبه الأول والأخير...

بـ «الله» سبحانه وتعالى، فاتخذه حبيباً واجتباه خليلاً؟ وأجاز لنفسه وسمح له أن يبلغ من روحه موقعاً سيصاحبه في النشأة القادمة، في معاده وفي جنانه؟

ها قد ظهر بجلاء كيف أختار «المولى» أصحابه؟

وكيف كان «الأصحاب» يلتحقون بركبه؟

ولماذا كان منه هذا ومنهم ذاك؟

نصراني قضى حياته على غيرِ هُدَىً، يرسل إليه في منامه «المسيح» يرشده ويهديه، ثم لا يكتفي حتى يفجر له من الأرض آية. وأموي الهوى يتجنبه ويتحاشاه، فيتعمد «المولى» أن ينزل إلى جواره، فيدعوه ويهيء من الأجواء ما يلحقه بالركب ويدخله في الصحب. وقائد في معسكر العدو جعجع بركبه وأنزله حيث حصره عن الماء، يتوب من ساعة فيلحق ويفوز. ومتوارٍ في «الكوفة» أدّخر نفسه ليكون في ركاب سيّده، وسيّد «مسلم»، وسيّد الكونين... وبعد هذا، رأيت السؤال يلحُّ:

ماذا تريد الوحدة أن تستوفي من هذه الروح؟

لعمري ماذا أبقت «كربلاء» لـ «المولى»؟ هل كتب على «القربان» أن لا تبقى له بقية سلوة وذرة من عزاء، هل كان عليه أن يفرغ قلبه حتى من كمالات الفطرة البشرية وينزع عنه حتى هذا الثوب الذي لا يقبح ولا يستنكر؟ هل الأمر نوازع الكَثْرات والخلوص منها إلى الوحدة والواحد؟ خلوص حتى عن هذا الأنس، لمجرد أنه من هذا العالم؟

هكذا صنع «القربان» الحدث، ورسم الملحمة الخالدة...

نخبة أفنى حياته في جمعها وانتقائها... ليفقدها في ساعة! ويجعل من اللوعة التي سيلقاها قلبه المضنى مذبحه و«خشبته»، وقنطرة عبوره وصراط جوازه، التي هي وسيلة خلاص محبيه وشيعته.

لولا هؤلاء الصحب والخلان، وحبه لهم وأنسه بهم... ما كان «المولى» ليبلغ النهاية من الألم ويصل الغاية من الوحدة والوحشة، ولا ليستنزف هذا الجانب من الوجود البشري فيه ويفرغ، وتنقى الإنسانية من كل ما سوى الله،

حتى من تعلقاتها السامية وخصالها النبيلة المحمودة، ما دام فيها خيط ـ مهما رق ـ من أسباب الدنيا وشؤون نشأتها ومتعلقات طبيعتها.

❁ ❁ ❁

اضطرب الوجود ووَنَأ، واهتز كل شيء، فقد بلغ الأمر مداه...

بلغ الحدث غايته ووصل ذروته...

اعتصر قلب «المولى» وجعله هيفاً كسيراً، وأقام عنده حتى أذاب لفائفه وقطّع نياطه، وما تركه حتى استنفد من وجوده وحشاشته، ما زلزل العرش وصدع السماوات...

فكنّا نرى الملائكة تصرع من الهول وتهوي من الجزع، فلا ندري إلى أين تصير، وكأنها تعدم وتفنى، وما زالت في هذا حتى كأن السماوات فرغت وخلَت فأقفرت!...

سكن كل شيء وخمد...

وكأن الوحشة سرت من قلب «المولى» إليها، والفراغ من نفسه الشريفة قد عمّها وغلَبها، أقفرت وغدت خالية، كقاع صفصف، يباب لا شيء فيها، وقد أخذ الوجود يقرب من العدم، وينحو صوب النهاية...

ذلك حين نظر «المولى» يميناً وشمالاً فلم يرَ أحداً من أهله وأصحابه وأنصاره، فجعل ينادي:

يا «مسلم بن عقيل»، ويا «هاني بن عروة»، يا «حبيب ابن مظاهر»، يا «زهير بن القين»، يا «يزيد بن مظاهر»... وسمّى كثيراً من أصحابه ثم قال:

يا أبطال الصفا، ويا فرسان الهيجاء، ما لي أناديكم فلا تجيبون وأدعوكم فلا تسمعون، أنتم نيام؟ أرجوكم تنتبهون! أم حالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصرونه، هذه بنات الرسول لفقدكم قد علاهن النحول، فقوموا من نومتكم أيها الكرام، وادفعوا عن حرم رسول الله الطغاة اللئام...

لم يفكّر «الحزن» كثيراً فلا أبطأ ولا تمهّل... فتحول أول الأمر إلى ريح أنتشرت نسماتها شيئاً فشيئاً، وأخذت تطوف في الأرجاء، تتحرّى القلوب وتصطادها، كأنها تدس قبضتها القوية لتخترق الصدور، ثم تفرد كفّها في الأجواف لتقبض على القلوب وتعتصرها بكل ما آتاها الحدث من قوة وخلّف فيها من قسوة. أو أنها كانت تتغلغل مع الأنفاس، فتقتحم الصدور والأجواف، فإذا بلغت القلوب لفّتها بردائها القاتم، وغمرتها بظلالها الثقيلة... تهيئها للمنية ترديها، وتُعِدّها لسهام الموت تجهز عليها وتفنيها.

ولكن «الحزن» حار بعد حين وضجَّ، إذ ما وجد لفعله من نهاية ولا لِسَعْيِه من خاتمة، فقد بقيت القلوب، في الأرض وفي السماء، معتصرة مفجوعة، كأنها في النزع، ولكن دون أن يتوقف نبضها ويسكن حراكها، ودون أن توافيها آجالها ويختطفها الموت؟...

لله در «كربلاء» وعظم هذه الساعة فيها، كأن لا طريق للفناء هنا ولا وجود للموت؟ أتراه أستوفى حاجته وبرد غليله، ونفد، فأرتحل كلّه مع هذه «الكوكبة» الصريعة، فما بقي منه شيء يلاقي غيْرَهم؟ أو أن الخلَف منه يتحين حدثاً أعظم، يدّخر له نفسه ويضن بها على غيْره، فخلّفت لنا ـ تلك «الكوكبة» ـ وأوْرَثَتْنا الخلود؟

حار «الحزن» كيف يصنع وإلى أين يمضي بهذا الحمل الثقيل والصيد الوفير؟ فراح يسري في الطير والوحش والحيوان والجماد، فأحمرت السماء وتلبّدت، وكأنها تتهيأ لينهمر مطرها بِلَوْنٍ قانٍ يصبغ الوجود بكدره، وأهتزت الأرض وربت وتزلزلت الصخور بدم يريد أن يتفجر من تحتها، وأضطربت البحار وعلّت الأمواج وطفت الحيتان وهجرت الأعماق أستعداداً لأنتحار جماعي!

ثم دوّى صوت «روح القدس» يرثي الأماجد، على لسان «السيد حسن قشاقش»، يقدم من «شقرا» «جبل عامل»، فيملأ الفضاء هنا... كأن الرثاء يؤدي دوراً في الحدث عظيماً، بين أن يدفع في تسارعه ويسهم في نقله إلى فصله التالي، وبين أن يوفيه بعض حقّه:

وردوا على الهيجا ورود الهيم * ورأوا عظيم الخطب غير عظيم
وتنازعوا كأس المنيّة بينهم * في غير ما لغوٍ ولا تأثيم
يتسابقون إلى الهجوم كأنهم * خلِقوا ليوم تسابق وهجوم
وكأنهم والحرب تزفر نارها * من شرها في جنة ونعيم
وكأنما بيض الظبا بيض الدمى * لاقتهم برحيقها المختوم
تروي حديث الموت من عزماتهم * بيض الصفاح على القضا المحتوم
يستعجلون البذل قبل أوانه * ويسارعون لدعوة المظلوم
نثروا كما نظموا الجماجم والطلى * فتشابه المنثور بالمنظوم
وجدوا الحياة مع الهوان ذميمة * والموت في العلياء غير ذميم
وتقدّموا للموت قبل إمامهم * ولقد يجوز تقدّم المأموم

لم تكن الأجساد الصريعة المخاطبة بمنأى عن فعل النداء المولوي وكلماته، فمع قوله: "ما لي أناديكم فلا تجيبون"...

اهتزت وربت بعد خشوع، ظننتُها الأرض من تحتهم، وقع عليها صوت «المولى» وقع الغيث من السماء، ولكنها كانت الأجساد التي فارقتها الأرواح، تنتفض لتقوم من رقدة مصارعها لتسعف المنادي الكريم وتكون طوع أمره مما رغب ومِلْءَ يده مما أمّل. علت غبرة وسمع صرير وارتفعت الأجساد شيئاً، وقد انثنت الرُكَبُ منهم حتى استقبلت الأقدام الأرض، واستوت الأكف وقبضت على التراب ونهضت الظهور لتقوم!

أدركها «المولى»، فأشار إليها وأومأ... فعادت إلى رقدتها.

* * *

العقد الثالث: الأكبر

رأى الخليل في منى الطفوف
ذبيحَهُ ضريبة السيوف

كنت في صغري قرأت قصة، أو حضرت فيلماً سينمائياً، ما عدت أتذكر، فيه مشهد يظهر «البطل» وهو يمسح مصباحاً قديماً (مصباح «علاء الدين») ويفركه، فتخرج منه أبخرة وتتصاعد أدخنة، وفي إثرها «مارد» كأنه تحرر من حبسه، يعرض مقابل عتقه وشكراً لإطلاقه، خدماته على صاحب المصباح، ويُعْلِمه بأنه سيلبي له طلبات ثلاثاً، ويعلّمه طلّسم إرجاعه، وكلمة السر التي تستحضره كلّما أراده «البطل» وأحتاجه... وتمضي قصة الفيلم الخيالي لتدور في مفارقات الطلبات ونسيان كلمة السر وضياع المصباح.

أعجبتني القصة وأُخذت بسحرها، وحكَمتني بخيالها المشوّق حيناً، قبل أن تتحوّل فيّ إلى فكرة ورؤية، وتصير حِكْمة وعِبْرة. فكثيراً ما كنت أسرح في الأوهام وأُحلّق في الآمال وأسأل نفسي عن أمَسّ الطلبات عندي وأعز الأماني عليّ؟ ماذا أرجو لو قيّض لي مَن يجيب سؤلي ويحقق أملي؟ ماذا سأصنع لو خرج لي «مارد» من قمقم يوماً وعرض عليّ خدماته؟ ما هي أكثر رغباتي إلحاحاً وأعظم حاجاتي ضرورة وفرضاً؟

وكنت أعجب ـ دائماً ـ وأضحك، بعد أوان لا يطول، وأسخر من نفسي وأُعاتبها، وأسفّه رغباتي السابقة وطلباتي الساذجة... حين أرى الأماني والآمال التي كنت أحسبها الأعظم والأكبر والأخطر، فأستحقّت ـ عندي ـ أن تُعرض على «المارد» المجيب، وتُطلَب إلى القادر الملبّي، وتقتنص الفرصة الذهبية السانحة مَمَرَّ السحاب... أراها خطأً فادحاً وَقَعْتُ فيه، وقراراً جهولاً اتّخذته، إذ لا تلبث أن تبدو وتتكشّف كغيث أَعْجَبَ نباته العقول الخاوية، سرعان ما يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً. وبعد العجب والأسف، واللوم والندم، كنت أنتقل إلى الخجل من نفسي والحرج من سخفها وتفاهتها: لعمري، ما كان ينبغي ولا يصح أن تكون هذه الرغبات في أدنى همومي وأقل طموحي... فأعقد العزم أن أفيق من سكرتي وأخرج من جهلي وأبصر بعد اليوم رشدي!

وقد تدرّجَت الرغبات وتنامت في طيش الطفولة وفورة الشباب، من نطاقات اللهو وصنوف اللعب وأنواع المرتع، إلى ميادين الزينة والمتاع و﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ في مقتبل العمر ومكتمل الرجولة، إلى التفاخر والتكاثر وما يدور في فلَك الملكية والجاه والسلطة، مع الكهولة والدنو من الشيخوخة.

ارتقيت مرّة فتمنيت أن أسمع أصوات الكائنات، وأفقه منطق الطير والحيوان، ناهيك بلغات الإنسان. وفي مقاطع من حياتي تمنّيت أن أحظى بطاقيّة الإخفاء، فأُمكَّن من «بيغن» و«صدام»، وغيرِهم من الظلمة اللئام، الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، كنت أتمنى أن أكون سوط عذاب الله الذي يصب عليهم، أنفذ إلى وكر أحدهم من حيث لا يراني حرس ولا عسس، ومعي سلاح كاتم أجهز به عليه وأُريح البلاد والعباد من شرّه! وكم تمنيت أن أفعل شيئاً يغني كل فقير ويشفي كل مريض ويشبع كل جائع. وأن أُمكَّن فأحول دون قصف المدن في الحروب، وأُسلّط فأفك كل أسير وأُطلق المعتقلين من السجون، وأنتقم من السجانين الذين يعذبون الأبرياء...

كما سقطت الهمّة وانحدرت تارة، ووهن العزم مرّة، وكَلَّ الحدُّ مرات، فكنت أتمنى أن يُشفى غليلي بغشاوة تجلل عين «معلّم الحساب» الذي بخسني حقي في الامتحان، فتصدم سيارته جداراً أو تنقلب به، فيصاب ويقضي حياته معاقاً يتنقّل على كرسي متحرك!

تواردت عليّ هذه الذكريات وأقبلت، ورحت أسترجع شريط الفشل والسقوط في مسلسل طلباتي السابقة ورغباتي الماضية... حين عرض لي - وأنا في هذه الحضرة - السؤال، وجاءني إلهاماً قدسياً، وتجدّدَ هبة إلهية:

ماذا تريد الآن، ليتحقق من فوره؟

حدّد رغبة واحدة لا غير فتُلبّى، عيّن أمنية دون سواها فتُجاب!

كنت أستجمع أفكاري وحواسي، وأحشد طاقتي وقدرتي، وأركّز عزمي وهمّتي، وأسلّط رؤيتي وأدقق نظرتي... فأترفّع عن نوازع النفس وأتجنّب شتات الحال، فلا أسقط في ما سقطت، وأكرر ما فعلت! فالموقف أخطر من أن يُفوّت، وأعظم من أن يُستدرك. ولا سيّما أن الأمر لم يعد خيالاً تتسلى به ظنون الضعفاء وحلوم الجهلاء، ولا وَهْماً يشطح بنفس عَجَزَتْ عن مواجهة واقعها، فساقها الوهم إلى عالمه وراح يمنّيها ويعبث بها كيف يشاء... إنني أشعر أن الرغبات هنا مجابة فعلاً، وأن العرض جِدٌ لا هزل فيه وحقيقة تقهر الأخيلة وواقع يبدد الظنون! فمجرّد أن حدّثتني نفسي به، فهذا يعني أن باباً شُرِعتْ ومشكاة فُتِحَت، فلا أخلاط هنا ولا أوهام، بل حقائق وإلهام.

ماذا أُريد؟ ما الذي ينقصني؟ ماذا أطلب، فلا أندم بعد حين؟

لم أكن - بطبيعة الحال، رغم عدم انفصالي التام عن حياتي الدنيا - في وارد المتاع والشهوات واللذات الدنيوية، من مال وبنين، وملك وسلطان، ولا حتى الحاجات الأساسية كالأمن في العيش والصحة في البدن.

كان جولان الأفكار وسَرْح الآراء والتدبّر يورثني المزيد من الحيرة! فالحضرة تتدفقُ عليّ، وكلّما عرَضَتْ في نفسي حاجة، ونويت أن أجعلها رغبتي أو أرشّحها لتكون طلبتي، سدّها العلم: إما بانتفائها، عبر كشف غفلتي عن سابق وجودها، أو ببيان أن المصلحة والخير في عدم تحققها.

أردت أن أسأل لِعَاقبتي وحسن خاتمتي، أن أخرج من دُنياي على خيْر، وأُنقل إلىٰ حفرتي مرضياً عنّي، فأنصرفت مطمئناً وأنثنيت راجياً، وكأن الخير في أن أبقىٰ بين الخوف والرجاء، ولا أتواكل علىٰ وعد محتوم بالنجاة!

ثم بدا لي أن أسأل عن والديّ وأين هما الساعة من عالم البرزخ، وهٰكذا عن بعض صحبي الماضين، خصوصاً عن إخوة لي أستُشهدوا... فأنصرفت عن ذلك أيضاً، وقد ردّ عليّ هاتف يوبّخني: ما لكَ ولهم؟ ماذا ستقدّم مشاهدتك لهم أو يؤخر غيابهم عنك؟ هلا سألت لهم مقاماً وطلبت فضلاً، فيكون لذلك وجه وجيه ومحمل حسن لا تُلام عليه ولا تُعاتب؟

ألا تُحسِن ـ يا هٰذا ـ حتىٰ الطلب والسؤال؟

صرفَني الزجر والتقريع عما كنت فيه...

ثم عزمت أن أطلب شيئاً أنقله معي حين عودتي لدُنياي ورجوعي إلىٰ عالَمي. ذكرىٰ تُبقي الحدث حيّاً في حياتي، وأثراً يتبرّك به أهلي وصحبي... فأُجِبْتُ أنني لن أنفصل عن الحدث في مُقْبل أيامي إلىٰ حين مماتي حتىٰ أحتاج لتذكّره، وإن كان الأمر لزهو وتفاخر، فـ: "تُبْ وأستَعِذْ"!

ثم دخلني ـ بعد الإخبار والزجر ـ بأنه قد قُدِّر لي شيءٌ من ذلك سلَفاً (لعلّه هٰذا الكتاب)، فلا تفرّط في الطلب، وتحرَّ ما لم يُكتَب لك ويقدّر.

فكّرت أن أملُكَ خيار العودة، أن تُبذل لي الأسباب وأمكّن من وسيلة الرجوع إلىٰ هٰذه الحضرة متىٰ شئت، كأن أُلقَن وِرْداً أو أُعطىٰ «كلمة سر» أتلوها وأُرَدّدُها فأنتقل إلىٰ هٰذا العالم كلّما أردت ومتىٰ شئت! جاءني العلم الملهم والرد «المرشد»: أن ذلك سيكون إذا غلَبك الشوق وجذبك الحنين حقاً، فأدّخِر الطلِبة لأمر أعزّ عليك، وشأن أجل وأخطر.

الحق أنني ما عدت أدري ماذا أطلب وكيف أصنع؟

وهنا وقفة طالت وتأمل آلمني...

أن يقضي أمرؤ عمره، ويستغرق حياته يخوض في شتّىٰ شؤونها ويعترك مختلف ميادينها، ثم يغفل عن الأعزّ ويهمل الأعظم ويتجاهل الأخطر؟ فيفرّط في مثل ما سنح لي، ويفشل في أختيار ويعجز عن تحديد رغبة!؟

و«المؤمن» ـ في المفترض ـ قصي المرمى، طلاع ثنايا، يبني خطط المكارم، ويرقى يفاعَ العز، ويطلب المعالي، ويتسنّم ذرى الشرف، ويمد في وجوه المجد غُرراً، فأين من هذا وذاك قعود الهمة، وعجز الرأي، وتخاذل العزم، وخمول الحس؟ كيف لم يروّض «المؤمن» نفسه ويُعِدّ لهذه الساعة عدّتها؟ أو الحق أن يسأل: كيف لم تبلغ به الرياضة، وينتهي السير والسلوك إلى ما يخرجه الساعة مما هو فيه، فيحسن الاختيار؟

بينا أنا في هذا... إذ عرَضت لي نزعة وانتابتني فزعة، رفعَتني فعَلَتْ بهمّتي، وأخذتني فسَمَتْ بعزمي، فصرت في نطاق من الآمال جديد، وساحة من الرغبات كدت عنها أحيد...

هممت في الطلب: أن تتوقف هذه الطامّة المفجعة وتطوى الصفحة قبل تمام نشرها، فيعود «المولى» إلى وطنه ومأمنه، ويُجنَّبُ وعياله هذه المأساة... فتبادر إليّ: أن لا سبيل إلى ذلك، اللهم إلّا في نفسك. إنَّ لك أن تُعْرِض عن المشهد وتنصرف فتنفصل عنه وتبين، فتتوقّف المأساة في نفسك وينفك الحزن وتخرج من كمدك، ويزول عنك الروْع.

عندها... اخترت أن أسأل المشاركة معهم، وأجعل أُمنيتي وطلبتي الالتحاق بـ «سيد الشهداء» والنزول إلى الحومة في ركبه، حتى ألقى ما يلقون وينزل بي ما ينتظرون... فذهلت وصعقت حين جاءني الرد:

إنك لا تريد ذلك، كما لم تُرِدْه من قبل!

فأجبت دافعاً ومدافعاً، بتحدٍ وغضب:

بل أُريده، وها أنا أسأله؟

: كلا، إنه ليس خياراً صادقاً تريده ولا رغبة حقيقية ترجوها، ولو نظرت إلى نفسك وتدبَّرت في حالك، لرأيت أنّ الصدق فيك لم يبلغ هذا الحد الذي تزعم والدرجة التي تدّعي، وأنّ لسانك وقولك لم ينبئا عن تمام صورة روحك... ما زال غبار الريب متناثراً في أرجاء نفسك، والمرية حاضرة فاعلة ترين على قلبك. وإن لم يكن ذلك نتاج فساد في الرأي وضعف في الإيمان، وهو ليس منه، وكنت على يقين من معتقدك وولائك...

فهو صنيعة الرهاب ووليد الرَّوْع، إنك تخرع من الحدث حتى ليمتقع لونك ويتهدّج صوتك وتسْلِمُكَ رجلاك، وأنت في المشاهدين والنظّارة، ومن جيل يبعد عن الواقعة قروناً، فكيف بك إذا دخلته وقحمته؟!

دع عنك يا هذا، والله لولا اللطف بالموالين، والإشفاق والرأفة بالمحبين، لعَرَّضْتَ الساعة لابتلاء ووقعت في امتحان، ولافْتَضِحْت في هذا الملأ وخزيت... فأمسك على نفسك والزم حدّك وكُفّ! نعم، لك أن تتمنّى... فتدخل من باب الرحمة التي فتحها «المولى» لمن يلحق من أوليائه ومحبيه، وتركب «سفينة النجاة» التي أبحرت تشق الماء بجآجئها مع مَن يأتي ويتعاقب من أجيال المؤمنين المحبين، فيكتب لك ولهم أجر الحضور والمشاركة، كلٌ على قدر معرفته ودرجة ولائه وحدّ نيّته ومبلغ إخلاصه ومدى صدقه. أما أن تكون واحداً ممن حضر أو استُشهد هنا، فليس لك ذلك، ولا لغيْرِك، كائناً مَن كان، لأسباب كثيرة، أوّلها أنه لا يريده، فإن كان يريده، ما كان يطيقه.

وفي غمرة ضعف نَفَدَ احتماله، وعجز نَزَفَ اصطباره، وانكسار ناهز اليأس، ويأس دنا من القنوط، وكاد أن يهلكني ويسقطني في مهوى «الغضب»، رغم أن لا طريق له ولا منفذ ولا محل إلا في الأقل الأضيق من هذه الحضرة الملكوتية... جاءني هاتف الفرج وتداركتني الرحمة:

سل أن ترى وجه «الأكبر» من حيث رآه «السبط»...

لعلّك تصاب ببعض مصابه!

❁ ❁ ❁

كالشمس... برزت ذكاء من لُجّة المشرق، فصبغت آراؤها الذهبية جبين الأفق النحاسي، أو كالبدر يرخي عن الفضاء عصابته السوداء الحندس فيشقّه بفلَق، وينزع عنه رداءه الدَّجي فيصرمه بسَفَر، ويشع بنور «هاشم» وقد اتّحد وتأكّد من فرعيه، وتأصّل ـ من جديد ـ وتركّز، وانصبّ في قالب صَنَعَهُ الله تعالى لأربعة عشر شخصاً حصراً، لكنه لحقهم وانصبّ فيه من بعدهم، فصِيغَ وبُرِئ على أثرهم، وخُلِق وسُوّي على شاكلتهم، حتى التبس الأمر وتداخل على الملكوت فظنه منهم، خامس عشر!

يخطر بين الصفوف ملؤه الزهو والأعتداد، كأنه يخاطب أعداءه ويذكّرهم بصَغَارِهم، والموت والحتف بهوانه، و«أباه» ليفخر ويعتز، ولكن الطبع فيه غلب التطبّع، فعاد ليزول قَلْعاً ويخطو تكفّياً ويمشي هوناً، كأنما ينحط من صَبَب، فيرسم خطىً ما تخرم مشية جدّه «المصطفى»... فتوغل الأرض في أنين الذكرى وتبالغ في شجو المقارنة والشكوى. فكأنها تجيب نحيب النسمات وتردُّ عليها فجعتها حين لاقت محيّاه النضر الصّبوح، ولَفَحَتَ قسَمَات تحكي وجه جدّه «المختار»، فكأن «محمداً» بُعث من جديد، يافعاً يجول في أحياء «مكة»، ويسرح بأغنامه في بواديها، ويتبتّل منفرداً في كهوفها... ها هو يخطر في ميدان الموت بـ «كربلاء» يبحث عن منيته.

وما كانت الصورة «الأحمدية» لتتم، وتفعل هذا الفعل في الأرض والسماء، لولا نفحة مع الإطلالة، وخُلُق مع الخَلْق، وخصال مع الشمائل، وأتصال للجمال والكمال ناهز التماثل وأشرف على التطابق... ما أنتزع، بعد الأرض والسماء وما فيهن وما بينهن، الصرخة من عماته وأخواته «العلويات»، والزفرة من أمّه «ليلى»، والشهقة من «سيد الركب» و«الشهداء»، وهو ينظر أبنه يتقدم، يطلب منه الرخصة للبراز!

كان الجمال «النبوي» يزهر ويبدع، والبهاء «الأحمدي» يتجلى ويظهر، والمنطق «المحمدي» يتدفق ويفيض وينحدر، والأنوار «الهاشمية» تسطع وتتلألأ، و«الأكبر» يخطر... وقد راحت الملائكة في هدج يدير الرؤوس، وحنين يفطر الأفئدة، وترسيل يأخذ بمجامع القلوب، ذكّرني بنشيدها يوم خرج «الركب» من «مكة» أو وافاها من «المدينة»، ما عدت أدري... كانت تشدو بكلمات «روح القدس»، تشنّف الأسماع هنا بمديح يحبس الأنفاس، ويطلق الأرواح حتى تكاد أن تفارق الأجساد وتزهق الأنفس. وقد أجراها على لسان عاشق «المولى» وعبده «عبدالحسين صادق» وأنطقه نظماً كالدر في العقد، بألفاظ كالزلال أو أرق، ومعان كالسحر أو أدق، فتدفق اليعبوب، من بركات ما أنفجر في «شيخ النبطية» غَيْرة على شعائر العزاء، ونصرة للمظلوم وإحياءً لما ناله من المصائب والخطوب:

جَمَعَ الصفاتِ الغُرَّ وهي تُراثه
من كل غِطْريف وشَهْمٍ أصْيَد
في بأس «حمزة» في شجاعة «حَيْدر»
بإبا «الحسين» وفي مَهابة «أحمد»
وتراه في خَلْقٍ وطيب خلائق
وبليغ نُطْقٍ كالنبي «محمد»

لولا النص العرشي والتعيين الإلهي، وصحيفة أنزلها «جبريل» من الرب الجليل سجّل فيها سبحانه أسماء الأئمة... لكان «الأكبر» حرياً بمقام الخلافة والإمامة، وهو أهل لها ومحل.

تقدم «الأكبر» ويمّم الحرب مرتجزاً:

أنا علي بن الحسين بن علي * نحن ورب البيت أولى بالنبي
تا الله لا يحكم فينا ابن الدعي * أضرب بالسيف أحامي عن أبي
ضرب غلام هاشمي علوي

غير عابئ بصياح مخدَّرات الإمامة المنيعة وعقائل البيت «الهاشمي» الرفيع، وهن ينظرن عماد أخبيتهن ومعقد آمالهن يتقدم إلى الموت... هذه ترى هتاف الرسالة في وشك الانقطاع، وتلك تجد شمس النبوة في شفا الانكساف، وأخرى تشاهد الخلق «المحمدي» قد آذن بالرحيل، وهن جميعاً يرين فلذة أكبادهن وشقيق أفئدتهن أزف أن يفطر صدورهن وينخلع من وجودهن. فأحطن به وتعلّقن بأطرافه، وقلن:

ارحم غربتنا، لا طاقة لنا على فراقك!

وما كان ينقص الفتى من الألم واللوعة، ولا يعوز مشيعيه من الجزع والمحنة والفجعة، إلا أن يوافيه خطاب الهوان يعرض عليه السلام والأمان! يأتيه من غدر الزمان وتقلّب الحدثان، ما يخس ابن «فاطمة الزهراء» وجعل لابن «آكلة الأكباد» الشان... فقد جاءه العرض من حيث إن جدّته لأمّه (ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي)، هي «ميمونة ابنة أبي سفيان»، فصاح به رجل من القوم وناداه:

يا «علي»... إن لك رحماً بأمير المؤمنين «يزيد» (!) ونريد أن نرعى الرحم، فإن شئت آمنّاك.

فرَدَّ عليهم ـ سلام الله عليه ـ كاتماً حنقه، كاظماً غيظه، يريد أن يطوي هذه الصفحة سريعاً، فلا يماطل فيها أحد بمفاوضة ولا يناور بمزايدة أو مناقصة... رَدَّ بحزم واقتضاب:

"إن قرابة «رسول الله» أحق أن تُرعى".

عندها، لم يتمالك «المولى» صلوات الله عليه، وهو ينظر إلى أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً يستأذن للقتال ويؤذن بالوداع والفراق، دون أن يرخي عينيه بالدموع، وقد رأى عزم «ابنه» وحزمه، فصاح بـ «عمر بن سعد»:

ما لَكَ؟... قطع الله رحمك كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله. لا بارك الله في أمرك، وسلّط الله عليك من يذبحك على فراشك. ثم رفع «المولى» صوته وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم نظر إلى «ابنه» نظر آيس منه، ورفع شيبته المقدسة نحو السماء وقال:

اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم أشبه الناس برسولك «محمد» خَلْقاً وخُلُقاً ومنطقاً، وكنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك، نظرنا إليه.

قال ذلك وهو رافع رأسه، ينظر إلى السماء... لم أتبين لِمَ رفع «المولى» رأسه، أو إلامَ كان ينظر؟

فالسماء التي كانت قد فعُمَت بالملائك، وأُدهقت بالأرواح، ونزقت بالجن ويخلق من سكّان الكواكب والنجوم، لا قِبَل لي بإحصائهم وتمييزهم ولا معرفة لي بأجناسهم... كانت كلّها هي التي تنظر إلى «المولى»، ترقبه وتتطلّع إليه. أما الأنبياء والأولياء والأصفياء، ومَن يُقدّر أن تكون الشكوى والتوجه إليهم، ها هم بإزائه على ربوة في هذه «العرصة»... أمّا الله سبحانه وتعالى فهو حاضر في نفسه، ملْءَ قلبه وكيانه، لا يبحث عنه في سماء ولا يتحرّاه في كواكب ونجوم آفلة؟

تُـرىٰ إلامَ كـان «المـولـى» صلـوات الله وسلامه عليه ينظـر، وعمَّ كـان يتحرّىٰ ويبحث؟ هل كان يشيح ببصره عن المادة والطبيعة، وينصرف إلىٰ عالم آخر؟ هل كان يبحث عما لا وجود له في أرض الدنيا، ولا بد من تنزيهه عن الحس والمادة؟ أم أنه بإجالة نظره وتصريف وجهه كمن يستهدي، وبتأمّله كَمَن يتدبر، كان يدعو للتفكّر والتأمل، وعدم الأخذ بالظواهر والاغترار بها، وأن يحاكي الإنسان في توحيده ومعرفة ربه المنهج الإبراهيمي في التأمل، والسرح الأنفسي مع السياحة الآفاقية؟

كان ـ صلوات الله عليه ـ وهـو علىٰ وَشكِ الدعاء بالسخط والنقمة، يستقصي كمالات بعض الأسماء الربوبية، ويفعّلها في نفسه، لتظهر من بطونها وتتجلىٰ، مشيراً إلىٰ حقيقة عرفانية خفية، في غاية الرقي والسمو... وهي بطون بعض التجليات والكمالات في بعض الأسماء الربوبية، وظهورها في أسماء أُخرىٰ. منزهاً فَقَدَ بعض الأسماء لبعض الكمالات، كيف وكلّها عين الذات الأحدية؟ فـ «الرحمن» ظاهر فيه الرحمة باطن فيه السخط والغضب، و«المنتقم» ظاهر فيه الانتقام والسخط، باطن فيه الرحمة والغفران. فالمراد بصفات الجمال ما كان الجمال فيه ظاهراً والجلال في حد البطون، والجلال علىٰ العكس من ذلك. وإلا فجميع الأسماء والصفات مستجنٌ فيها جميع الكمالات الوجودية، بل باعتبار استهلاك الكل في الذات الأحدية، وفنائها في الجمال السرمدي، وارتباطها بالوجود المطلق، لا افتراق بينها.

إن لبعض الأسماء الحيطة التامة والسلطنة الحقة علىٰ سائرها، وبعضها ليس لها ذلك، ولازم كل اسم في حضرة الأعيان الثابتة يناسب ربه وملزومه ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾... فاسم «الله» المحيط الحاكم علىٰ سائر الأسماء هو أوّل ظهور الكثرة في عالم الأسماء وحضرة الواحدية، وبتوسّطه ظهرت الأسماء، بل سائر الأسماء من مظاهره وتجلياته. وهو الظاهر في مراحل الظهور، والباطن في مراتب البطون. وصورته ـ التي هي عين الثابت للإنسان الكامل ـ هي أوّل صورة ظهرت في الحضرة العلميّة ظهور ثبوت لا وجود، وبتوسّطها سائر الصور، بل صور سائر الأسماء من مظاهرها وتجلياتها.

وبهذا القياس فإن أوّل نور فَلَقَ صبح الوجود، وشق بحر الكون والشهود هو «الإنسان الكامل»، خليفة الله وأسمه الأعظم، ومشيئته ونوره الأقدم الأكرم، وبتوسطه سائر مراتب الوجود من الغيب والشهود ومنازل النزول والصعود، بل سائر الوجودات ظهورات نوره ومظاهر حقيقته. فالإنسان الكامل والكون الجامع هو الأسم الأعظم، ظِل أسم الله الأعظم، وله الأوّليّة والآخِريّة والظاهريّة والباطنيّة، وهو «المشيئة» التي خلقها الله بنفسها، وخلق الأشياء بها.

وهذا «القرآن الكريم» يشهد وهو يحكي عن معراج خليفة الله الأكمل، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، فـ «التدلّي» هو حقيقة الفقر، الذي أشار إليه ـ صلّى الله عليه وآله ـ بقوله: "الفقر فخري"، وهو مقام البرزخية الكبرى، والهيولية المطلقة. ومقام «أو أدنى» أستهلاكه في الأحدية وزوال حكم الواحدية.

بـ «محمد» و«أهل بيته» صلوات الله عليه وعليهم، "فتح الله وبهم يختم"، ومن هنا كانت "أرواحهم في الأرواح وأنفسهم في النفوس"، وكانوا "السبب المتصل بين الأرض والسماء".

لقد كان «المولى» يتحرّىٰ مقام ومرتبة «أبنه» الماثل أمامه، من صورة الإنسان الأكمل وأسم الله الأعظم و«شبيهه» الأجل، وأين بلغ في القرب منها واللحوق والأقتران بها في عالم العقل، فمن هذا العالم وفيه ستتشكل صورة معاده وحشره... فهل آن الأوان للأنتقال، وهل من طقوس بقيت عليه أن يأتيها، تفرغ الصبابة وتأتي على الثمالة؟

وكأنه رأىٰ في «أبنه» ما أراد له من المقام المحمود، ونظر ما تمنّى له من المنزلة الشريفة، وبلغ ما أمّل من الدرجة الرفيعة... لكن «المولى» عمد ـ بعد ذلك ومعه ـ إلى أن يُذكي في نفسه جذوة الأبوّة وعاطفة الرحم وحنان الوالد، ليجعل من الألم واللوعة التي ستحل به لفقد عزيزه، كفارة وقرباناً لتعلّق شيعته ومحبيه ببنيهم، وخلاصاً لأرواحهم مما أحبّت من دنياها، فتحشر حين تحشر وهي نقية خالصة، يليق بها أن تكون في جواره!

ما كان انشغال «المولى» بالمعركة وملاحقته تفاصيلها وجزئيات أحداثها، ليخرجه لحظة عن هواجس الأخطار الأولى التي تتهدد رسالته، ولا لتصرفه عنها غفلةٌ ولا أولوية أخرى. وما كان لينفك، وهو في غمار سعيه لتحقيق أهدافه، عن معالجة «المضاعفات» المرتقبة، التي ترصد قضيّتَهُ وتَكْمُنُ لدعوته، مما وقع في الأديان، وعانت منها الأمم السابقة... من الغلو في شخص «النبي» و«الوصي»، وتأليه «المرسل»، ورَفْعِ السبب المتصل بين الأرض والسماء إلى الألوهية والربوبية.

كان ـ عليه السلام ـ يتعمّد أن يوغل في آدميته لينفي ألوهيته، ويمعن في بشَريَّتِه ليبطل ربوبيته، ويسدل على نفسه من لباس الدنيا وكسوة النشأة التي أصبحت ميداناً لدعوته وحقلاً لرسالته... فهذا القادر على أن يحيل كل حصاة في «كربلاء» زمردةً خضراء، وكل حجر ياقوتةً حمراء، ويقلب هذا الأديم الباهت نوراً وضياءً يتألق. وهو الذي لو شاء لفجّر في كل بقعة من صحرائها القاحلة عيناً وأجرى نهراً، وأحال هذا اليباب حدائق وجنّات، جمّة الأشجار دانية الثمار، تموج بين برة سمراء وروضة خضراء، وتزهو بأرياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة...

هذا العبد المُطاع، والإنسان المُفوَّض، و«الولي» المُمَكَّن، والقادر المحتكم... تراه يقف موقف العاجز المهزوم المقهور، الضعيف الواهن، لا يقدر على رَدِّ الأعداء عن بنيه وأعزته، من فرط وحدته وغربته. وفي الحقيقة: تراه مستسلماً لقضاء ربه، صابراً على بلائه... فإذا بلغ الأمر مداه، وقف يدعو بمتهدّج صوته، من خالي جوفه وبذابل شفاه!:

اللهم امنعهم بَرَكَات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا تُرضِ الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، ثم عدوا علينا يقاتلونا.

ثم كرّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

نزل «علي الأكبر» الميدان... ولم يزل يحمل على الميمنة، ويعيدها على الميسرة، ويغوص في الأوساط، لا يقابله جحفل إلّا رَدَّه، ولا يبرز إليه شجاع إلّا جدله، حتى قتل مئة وعشرين فارساً.

بل ألفاً وخمسمئة فارس وثمانين راجلاً، غيْر تلك المئة والعشرين...

فهنا قتلىً لا تتخلّف جثثهم في الميدان، ولا تظهر مصارعهم للعيان، أفناهم سيفَ «الأكبر» وأحالهم إلى أعدام... أعدامٌ حقيقةً، ألحِقُوا ـ من فورهم ـ بالدرك الأسفل، وغابوا ـ في الآن ـ في جُبِّ الشرور وقليب النيران، لست أدري أمِنَ عفاريت الجن كانوا أم ذراري الشيطان؟

وكان ذلك فِعْل كل واحد من أصحاب «المولى» وحاله... سجّل الرواة شيئاً من بطولاتهم، وغابت عنهم أشياء، فتجدها مبثوثة في مطاوي الأحاديث والروايات، يستكثرها البسطاء ويستنكرها غرقى الحسيّات!

يبدو لي أنه في بدء الأمر، وأول خوض «علي» الميدان، كانت هناك حالة من الإحجام تحكم معسكر «الأمويين»، وكأن بهم رغبة عن مواجهته، أو أن أهل «الكوفة» ـ على الخصوص ـ يتجنّبونه ويتّقون قتله. لست أدري، لعل هيبته «الهاشمية» أخذتهم، وجماله «المحمدي» فتنهم، وهالة نورية ساطعة فوق رأسه وحول منكبيه، كانت تشعُّ بوهج، وتستطير بألَق فتغلب نور الشمس الحارقة وتكسرها، جلّلته بقداسة تقشعر لها الأبدان... ردعتهم؟ فما كان يبرز إليه ولا يهجم عليه من الوجوه والأعيان أحد، اللهم إلّا رعاع وسفلة، لا يدرون أين حُشدوا وفيم حُشروا، ما زال ـ عليه السلام ـ ينكّل فيهم، ويحصدهم إلى جهنم زمراً... حتى رأى «عمر بن سعد» ما وقع في جنده، وشهد عظيم بطش «الأكبر» وتنكيله فيهم وما أفنى منهم... دعا «طارق بن كثير» وانتدبه، وكان فارساً منّاعاً وبطلاً دفّاعاً، وخاطبه قائلاً:

كم أكرمك «الأمير» من نعمه؟ وكم أنالك من هباته ووصلك بعطاياه وأغدق عليك من صِلاته؟ هذه ساعة الوفاء يا «طارق»، وهذا أوان رَدِّ الجميل والعرفان... ها قد رأيت ما فعل هذا الغلام بجيش «الأمير» وعسكر الخلافة، فاخرج إليه وأرح الجند منه وجئني برأسه.

فـرَدَّ عليه: ما أنصفتَني يا «آبن سعد»... أنت تأخذ مُلك «الري» و«جرجان»، وأنا أخرج إليه؟ نزرع فتحصدون، ونجني فتأكلون؟ بئس الأياس، وخسرت الصفقة!

: فماذا تريد؟

: تضمن لي عند «الأمير» إمارة «الموصل»؟

تلكأ «آبن سعد» شيئاً، وتلفّت ثم قال: أفعل.

فـأبى «طـارق» إلّا أن يُشهد عليه جمع من أعوانه وقادة عسكـره. فتلكأ «آبن سعد» أُخرىٰ، وصار يتلفّت كمَن يبحث عن أشخاص بعينهم، كأنه كان يضمر الغدر بـ «طارق» هـٰذا وما كان جاداً في وعده، إذ "قَوْله كبَوْله"! أو أنه ما كان يديل علىٰ «عبيدالله بن زياد» أو يجرؤ علىٰ أن يَعِدَ ويهب دون إذنه وموافقته، ناهيك بـ «يزيد»... وأمر الإمارات إليه، لا سواه.

لـٰكنه آضطـر أن يلبي لـ «طـارق» طلبه، ويشهـد جمعـاً علىٰ قـطعه وإقطاعه. عندها آنتفض الرجل وقام وهو يقول:

"الساعة آتيك برأسه".

ولـٰكن ما إن بـرز إلىٰ «الأكـبر»، حتىٰ عـاجله ـ سلام الله عليه ـ بضربة منكرة، فآنجدل صريعاً، مُعَجّلاً بروحه إلىٰ جهنم، وسط دهشة «آبن سعد» ومَن معه. فما توانىٰ أخو المقتول أن خرج مسرعاً يطلب ثار أخيه، فآستقبله «الأكبر» ولم يـزالا في كَرٍّ وفَـرٍّ، حتىٰ وصل إليـه «علي» فعطف عليه بضربة وقعت علىٰ عينه فخرَّ صريعاً. عندها، ثلّثهما وَلَدٌ لـ «طارق»، ما كانت هنيئة حتىٰ أرداه «علي» قتيلاً يلحق بأبيه وعمه.

ووقف «الأكبر» وقد آنكفأ عنه الجند وتراجعوا، وآنحسرت عنه الجموع وتلجلجت، يطلب البراز... فلا يبرز إليه أحد!

فهتف «عمر بن سعد» بـ «بكر بن غانم» وندبه، فبرز إليه...

فلما برز، تغيّر وجه «المـولىٰ»! و«ليلىٰ» أم «علي» واقفة تنظر إليه، وتقرأ حركة الميدان وحال «آبنها» من قسماته وحالاته، فقالت:

مِمَّ تغيّرك يا سيدي، لعل شيئاً أصاب آبني؟

فقال عليه السلام: لا، ولكن برز إليه مَن يخاف عليه منه... فأدعي لولدك يا «اليلى»، فإن دعاء الأم مستجاب في حق ولَدها.

فدخلت خباءها وجرّدت مقنعتها وكشفت رأسها ونشرت شعرها... فأضطربت السماوات، وضجّت الملائكة، لا تدري أتؤمّن على دعائها أم تصرخ لهول فجعتها، فما رُئيت ـ من قبل ـ في حرائر الرسالة واحدة على هذه الحال! وقد أستلهمت «اليلى» من دعاء «المولى» الأخير في «عرفة»، إذ علمت ما فيه من أسرار، وراحت في النجوى:

يا مقيّض الركب لـ «يوسف» في البلد القفر ومخرجه من الجب، وجاعله بعد العبودية ملكاً، يا رادَّهُ على «يعقوب» بعد أن أبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، يا كاشف الضر والبلاء عن «أيوب»، يا ممسك يد «إبراهيم» عن ذبح «أبنه» بعد كِبَرِ سنّه وفناء عمره.، يا مَن أستجاب لـ «زكريا» فوهب له «يحيى» ولم يدعه فرداً وحيداً، يا مَن أخرج «يونس» من بطن الحوت، يا مَن فلق البحر لـ «بني إسرائيل» فأنجاهم وجعل «فرعون» وجنوده من المغرقين، يا مَن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، يا مَن لم يعجل على من عصاه من خلقه، يا مَن أستنقذ السحرة من بعد طول الجحود، وقد غدوا في نعمته، يأكلون رزقه ويعبدون غيره، وقد حادوه ونادوه، وكذبوا رسله.

أما «المولى» فقد أستحضر حال «النبي» يوم «الخندق» ودعاءه حين خرج «أميرالمؤمنين» لـ «أبن عبد ود»: " اللهم إنك أخذت مني «عبيدة بن الحارث» يوم «بدر»، و«حمزة بن عبدالمطّلب» يوم «أحد»، وهذا «علي»، فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين" . فرفع يديه بالدعاء فما زاد أن قال:

اللهم أنصر ولدي «علي» وأجعله غالباً... ولا تشمت به الأعداء.

هذا و«الأكبر» يخوض غماراً حكَتْ مبارزة جدّه «أمير المؤمنين» لـ «عمرو ابن عبد ود» في حرب «الأحزاب» وآسترجعت صورته... إذ ثارت غُبرة وعلَت عجة، ما آنجلت إلّا وقد آنخرق درع «بكر بن غانم» من تحت إبطه، فعاجله «الأكبر» بضربة قدّته نصفين!

وقف على طريدته يسترد أنفاسه، ولسان حاله:

صيد الملوك أرانبٌ وثعالبٌ * وإذا خرجت فصَيْدِيَ الأبطال

وقف وقد آشتد به العطش وبلغ الجهد والإعياء مبلغه، ونالت منه الجراحات ما شاءت، وقد علم ما أصاب «أمّه» المروعة من الخوف عليه والجزع... فرأى أن يعود إلى «المخيم»، يقر عينها، ويستريح ساعة، ويجدد عهداً بـ «أبيه»، يحكي له ما جرىٰ وما صنع. ويصلح لامَتَهُ وسرباله وسلاحه، فقد آنثلم سيفه، كلَّ حدّه وكَهُم، وتقطّعت حمائله وبترت علائقه، وضاع في الميدان جفنه، كما صدعت ترسه وآنزاحت عن بدنه الدَرَقة...

رجع إلى «أبيه» يستريح، ويذكر ما أجهده من العطش.

وبينا أنا ألاحق الحدث وأواكبه، أدهشني أن الملائكة هنا آنزوت جانباً وآنصرفت عن المتابعة، وأخذت في العويل والندبة وضجّت كما لم تفعل من قبل! وكنت قد تعلّمت أن لا أتخلّف عنها، ففيها مَن شَهِدَ الواقعة وحضر عرضها مراراً، فهُم أدرى بما سيكون ويلحق، ولربما آستبق بعضهم المشاهد، وحكى لنا ما سيكون قبل أن يقع... فلحِقْتُ بها وتبعتها.

وإذا أنا بطائفة منها تمثل الواقعة فيما بينها وقد آنعقدت حولها الملائك رعيلاً يتلو رعيلاً، في دوائر، وهي تتدرّج من جلوس إلى القيام، وقد راحت في «مسرحية» تشبّه الحدث وتحكيه بأداء يفطر القلوب... كانوا في رَجْع وتعديد! كالثكالى: تُنشئ الأقوال على لسان فقيدها فتجيبه، وتتصوّر له حالاً ومقالاً فتردُّ عليه، تئن وتنتحب، وتتفنن في أسباب إسالة الدمع وتجديد البكاء! إنها تقيم مأتماً في السماء، في سماء «كربلاء»، أثناء وقوع الحدث، وهي تواكب لحظة تحققه! فتعمد إلى ضروب من الندبة وفنون من العزاء، ما يستدر الدمعة ويهيج الفجعة، ويرفع الرنّة ويدوّي الصرخة...

كانت تُنشد الأشعار وتُنشئ الحوار، بين «المولى» و«الأكبر»...

يقول (شبيه) «الأكبر»: العطش قد قتَلني، وثقل الحديد قد أجهَدني، فهل إلى شربة من سبيل، أتقوى بها على الأعداء؟!

ثم ينادي: وا محمداه، وا علياه، وا أبتاه!

فيجيبه (شبيه) «المولى»: يا بني، يعز على «محمد» و«علي» وعلى «أبيك»، أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك!

ما سمعت أنا هذا الحوار والطلب؟! ولكن الأداء كان من الإتقان والروعة ما بدا كأنه الواقع. حتى شككت أني مَن حُجِب عن هذا المقطع وحُرِم أن ينظره مباشرة، أو أني ذهلت حتى اختلط الأمر عليّ!

فالمشهد الذي رأيته أنا كان يخلو من طلب الماء ...

فـ «الأكبر» - صلوات الله وسلامه عليه - لم يطلب الماء من «أبيه»، كما صوّرت الملائكة ومثّلت، وكما كنت أظن وأحسب! بل كان يتجنّب ذكر العطش ويتجاهله ويتعمّد الإعراض عنه، حذر أن يصدع الحزن قلب «والده» ويزيد في كربه ولوعته. فهو على علم بنضوب القرب وفراغ الأواني وجفاف الأوعية. كما يعلم أن «المولى» عزم على إنجاز الأمر وقرّر أن يكون إتمامه بالسبل العادية والأسباب الطبيعية، فلا نيّة لتحقيق معجزة هنا، ولا أمل في خرق للنواميس الطبيعية... إنما كان ينقل لـ «أبيه» كيف قاتل القوم، ويحكي له ما صنع بأعدائه، ليُسِرّه ويبهجه ويسلّيه، ثم اعتذر بأنه لولا العطش لأثخن فيهم وزاد، ولما احتاج أن يعود ليستريح ويلتقط أنفاسه.

لكن «المولى» الذي كان ينظر إلى عزيزه «الأكبر» ويصغي إليه، عرضت له حالة لم أعِها، وأدركه من العطف وبلغ به الوجد ما لم أجِز له تفسيراً... والحق أني ما كنت أدري ماذا كان يعني له «الأكبر» ولا أعي مقامه عنده ومنزلته لديه، حتى نزل به ما نزل، وظهر منه ما رأيت من شجوه ونجواه!

أتراه كان يحسب - حتى تلك اللحظة - أنّ نَوَاصي المُنى ستذل يوماً، وأعناق الرغائب ستنقاد في ساعة الحسم، فأخذ يرصد بروق الآمال، ويَشِيم مخايل الرجاء، لعلّها تنثني عن الصدود وتنصرف عن العناد؟

فإذا بَرْقُ مناه يتكشّف ـ الساعة ـ عن سحاب خُلَّب! فخابت آماله وأنقطع رجاؤه، وهو يرىٰ فلذة كبده وحشاشة جوفه يمضي لحتفه، دون رادع من الأرض يعوقه، ولا مانع من السماء يصرفه؟!

لعمري كيف يكون ذلك من «المولىٰ» وهو عين العلم وعيبته؟ إن علمه الحضوري الذي لا يفتقر لكسب ولا يحتاج إلىٰ تحصيل، لا يعزب عنه مصير «أبنه»، ما يربأ به أن يعلّق الآمال علىٰ ما في واقعه محال؟ أم هي من لوازم هذه النشأة ومقتضيات عالم الكَثَرات (وظّفها لهدفه في تحرير شيعته وخلاص محبيه وتنقية أوليائه)؟ أن يكون العلم حاضراً عنده مبذولاً لديه وفي متناوله، لكنه يعرض عنه ويتجاهله، وكأنه يفتقده!

أم أنه رجا أن يعرض في «أبنه» «بَدَاء»؟

لست أدري... فالخطب أعظم من أن يحيط به أحد، وإن أطّلع عليه من السماء وشاهده في الملكوت!

كان وجهه الشريف يتبدّل ولونه يتغيّر، وقد هجمت عليه الأحزان، وجثمت علىٰ قسماته وأستقرّت علىٰ تقاطيعه، فمَسَحَتْهُ وغَلَبَتْهُ، فبَانَ عليه الضعف وظهر الأنكسار. وصار يتعمّد ويغالب أن يصرف نظره عن «علي»، ويتشاغل عنه برمق الأفق... ورغم أنه بدا متأملاً مستشرفاً، لا شارداً هائماً، لكن الشعور السائد هنا بيننا، والرؤية التي صرنا عليها، أن فجعة خروج «علي» للبراز أصابت «المولىٰ» في مقتل، ونقلته إلىٰ طور جديد.

حتىٰ إنه قطع علىٰ «أبنه» سَرْدَهُ، وصاح: وا غوثاه... ما أسرع المُلتقىٰ بـ «جدك»، فيسقيك بكأسه الأوفىٰ شربة لا تظمأ بعدها أبداً.

ثم دخل «المولىٰ» في طقس غريب ما صنعه في أحد قبل «علي» ولا بعده!

إذ أخذ لسان «علي» فمصّه، أو أنه ألقمه لسانه هو ليمصّه... لم أتبيّن الصورة؟ ولكنها نقلت المقام، وأنتقلت بالزمان، وساقت عالم التكوين وقادته، ليوقع الربط ويحقق الدمج التام بين: «النبي» و«شبيهه»، عبر لسان «السبط» الذي كان يمصُّ إبهام «النبي» يوماً فيرتضع، وقد جفّ الساعة ويبس حتىٰ أصبح كالخشبة!

ثم أتمّ «المولى» الطقس وأكمل الشعائر، فألقم عزيزه خاتمه... وليس في الخاتم ما يقطع صيام الفتى، أو يخفف ظمأه ويبرّد غلّته. إنما هو خاتم «الولاية» و«الإمامة»، وفيه من رحيق الكمال وعذب الجلال وزلال الجمال، ما استحق هذا «الولي» ـ بجدارة ـ أن تتوّج به خاتمته، ويمضي دخوله الحق في «أهل البيت» الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. لقد كان «الشاهد» يشهد لـ «الشهيد» ويمضي! هكذا تم المقام وبلغ المرقى غايته... همّ «علي» أن يرجع إلى الميدان، ولكن صبابة بقيت، قادته إلى أمّه لتودّعه، فتقلب عالي السماوات على سافلها، وتهز العرش وتضعضعه!

ثم رجع إلى الميدان مبتهجاً أنه راحل الساعة ومُلاق جدّه وشارب من كأسه الأوفى، فمضى حلس خيله، لا تميله ضربة ولا تسقطه طعنة، يخترقهم ويطردهم ويغوص فيهم كلَيْثٍ وقيعة، لا يدرون مَن الذي يسقي منهم الحتوف: أ«محمد» هذا النبي تحميه الملائك وتنصره، أم «علي» الوصي يزأر في الميدان فيخلع أفئدتهم؟ أم هي صواعق السماء تترى من بريق سيفه!... والتباس الأمر ليس من الإغراق أو كنايات الشجاعة، فقد دخلهم ـ حقاً ـ أنه «حيدرة» بُعث من قبره القريب، وجاء ينصر أبناءه! فكانوا يذهلون وينفرون ويتفرقون بين يديه، حتى أكمل من قتلاهم (المشهودين) المئتين.

ملأت جهجهة «الأكبر» وغمغمته الميدان، وقد جمع إليها صولات ما أبقت لمن تقدّم رأساً ولا ذراعاً، فعَلا القتام وأنبثّ الذعر وملأ الفزع المكان... والقوم كأنهم عقروا، حتى إن بعض قادة الكتائب الذين كانوا ينادون على جنودهم ويدفعونهم للهجوم، غَرِقَت أصواتهم! هذا «قيس بن الأشعث» تلجلج صوته وتقعقع حنكاه وتخاذلت قوائمه، فجلس على الأرض وبرِق وخَرِق وأقام مبهوتاً لا يطرف من الدهشة. ولم يكن غيره أحسن حالاً منه ولا أفضل.

حتى طفرت الشياطين وانتفضت، وأخذت تجول بين الجند... تبصق في وجوههم، وتهرق على رؤوسهم من أكواز لم أتعرّف ما فيها، ثم تبيّن أنها «مبَوَلات» جمعوا فيها أبوالهم، وخلطوها بقَزْح الكلاب!

ومن ورائهم «زقلل»...

رأيته يجول بين الصفوف وفي أطراف الجموع كالذي يبحث وينقّب عن شيء يفتقده، حتىٰ وقعت عينه علىٰ «مُرّة بن منقذ العبدي» فكأن المضل وجد ضالّته! فدنا منه، وأخذ بيده وقاده بعيداً بعض الشيء، حتىٰ آنفرد به، فصار ينبس إليه ويسرُّه بما لم نسمعه ولم يتبيّنه أحد.

ولكن سرعان ما عاد «مُرّة» إلىٰ موضعه، منشغلاً بنفسه، يصلح من درعه ويثبّت بيضته، حتىٰ إذا علا صهوة فرسه، ناوله «زقلل» قناة كأنه آدّخرها له أو لمهمته الخطيرة، و«مُرّة» يقول:

"عليّ آثام «العرب» إن لم أُثكل أبويه به"!

ثم لكز فرسه وآنطلق إلىٰ الميدان، ولكن دون أن يخوضه، بل كان يحوم حوله، يتحيّن الزمن والفرصة المؤاتية، يُكثر من الألتفات تجاه «زقلل» والنظر إليه، كأنه يُنبئهُ بما ينعم عينه ويبشّره بما يقرّها، أو أنه كان ينتظر الإشارة أو العلامة منه، ليتقدّم وينجز مشؤوم وَعْدِه... ترك «مُرّة» «الأكبر» يناجز أعداءه ويقاتلهم وينشغل بهم ويدافعهم، وجاءه خلسة من خلفه، حتىٰ إذا ما قرب منه، وتيقّن الإصابة، هز رمحه وأرجع ذراعه لمداها، وهمَّ أن يرميها... عاد وآنكفأ خوف الخطأ إذا هو أرسلها من يده، وحرّرها من كفّه وأسلمها الريح، ما يدري ما تصنع بها؟ أو من يعترضها دون الهدف؟

كان عازماً أن تكون طعنة واحدة، لا تخيب ولا تضيع...

ها قد بان لنا الساعة وظهر بعض ما تلقّاه من «زقلل» وأسرَّ به إليه وعلّمه في خلوته القصيرة... لقد وضع «زقلل» كفّه علىٰ الأرض أمام «مُرّة»، وضرب بها ضربة، كأنه يحفز ويستنهض منديلاً آفترشه علىٰ الأديم، ثم أخذ يرفع يده شيئاً فشيئاً حتىٰ بلغت باعاً، فكأنه صنع لوحة (أو شاشة عرض) آرتسمت فيها صُوَرٌ تتقلّب من سجلٍ «الشجرة الملعونة» ومدوّنات «أمجاد» «بني أمية»! تمتم «زقلل» بكلمات، فآستقرت الصورة علىٰ منظر: «الوحشي» أجير «هند بنت عتبة» زوجة «أبي سفيان» وأم «معاوية» وجدّة «يزيد»، وهو يرمي «حمزة بن عبدالمطلب» ويزرقه في «أُحُد»!

ثم قال له: إمّا أن تحسن الرمية وتتقن الزرق مثل هذا، وتصنع بـ «الفتىٰ» مثل الذي صنع «الوحشي» بـ «عمّه» من قبل، أو تمضي وتقترب، وتدنو وتحتسب، لا تفارقن القناة قبضتك، إلّا وديعة غائرة في ظهر «ابن الحسين»، طعنة يلقىٰ فيها حتفه ويُصرع قبل أن تستلها منه!

فقال له: كيف لي بالدنو، وأنت ترىٰ حال مَن يفعل ومصير مَن يجرؤ؟

قال: أنا الكفيل بأن يغفل عنك وينشغل بمَن أمامه.

ما زال «مُرّة بن منقذ العبدي» يدنو ويدنو، و«زقلل» من ورائه مَرّة، وعن يمينه وشماله أخرىٰ، ومن بين يديه، يشير إلىٰ الجند من الجهة الأُخرىٰ أن يتكاثروا علىٰ «الأكبر» ويشاغلوه، حتىٰ بلغ «مُرّة» من هدفه مبلغ الالتحام، فمال عليه بالرمح، يحملها بكِلْتَا يديه، فهوىٰ بكل ثقله وغاية قوّته، ووجَّهَهَا في ظهر «الأكبر» طعنة غائرة.

وكانت درعه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ جدلاء، وقد تهلهل زَرَدُها وتراخت حلقاتها وغلائلها من كثرة الضرب والطعن، فاتسع فيها خرق سمح بنفوذ الرمح، في مُلتقىٰ صدفيها، إلىٰ ظهر الفارس لتباغته...

جمد «الأكبر» لحظة من ألم الطعنة، وكأنها أورثته خَدَراً ناهز الإغماءة، فأمال رقبته إلىٰ الوراء وأفرد صدره وأرجع كتفيه ورأسه الشريف، كمَن يريد أن يضم موضع الألم ويحتوي محل الطعنة فيخفف من شدّتها... فعاجله اللعين، وقد تحررت يداه من رمحه، وضربه بالسيف علىٰ رأسه، ففلق هامته.

سكن الميدان عن قعقعته وهدأت الجلبة والصليل، وانقطعت هتافات الجند ونداءات القادة، وانبتّ رَجَز الفرسان، ووجم الجميع، ولَفَّ الموقع صمت رهيب، تجاوب معه حتىٰ العجاج والقتام، فحطّ عفيره وركَدَ عصفه وسكنت زوبعته، وانقشعت العرصة من ريح خفيفة هبّت، كنسمة تشمّمها كل من حضر، فكأنها أنْشَقَتْه إكسير الخَدَر وسَقَتْه شربة الجمود، فامتنع الناس عن الحراك، وتعطّل كل شيء!... فقد وقع رزء ودهم خطب وحلّت طامة، كأن الوجود ـ بهذا السكون ـ يلتقط أنفاسه ويقضي دهشته، ويجمع شتاتاً نزل به، ويتهيأ ليعول ويصرخ ويندب كما لم يفعل مذ كان!

لقد قضىٰ «الأكبر» صلوات الله عليه نحبه وأستُشهد...

أودت به الطعنة وأتت عليه، فسقط صريعاً... لكن رَمَقاً فيه مكّنه وأبقاه علىٰ ظهر جواده، فأنكفأ علىٰ عنق الفرس كأنه أعتنقه، ليرجع به ويعود إلىٰ أهله... وكان نزف الدماء قد غشي عيني الجواد، بل إن الجواد ناله من الضرب والطعن وأصابه من الجرح ما أعمش عينيه وطمسهما، فحمل فارسه الصريع يعدو به إلىٰ معسكر أعدائه!

فأحاطوا به يقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً...

أخذوا يتناوشونه وينهشونه، وهو منصرف عنهم منشغل عن دناءتهم، لا يبالي بما ينزل علىٰ جسده الشريف ويحل بجسمه المثخن الضعيف... لا يحمل في قلبه الكبير همّاً إلّا حال «أبيه»، وما سينزل به لفقده ويعانيه، فغالب جراحه وآلامه لينادي «أباه» ويمارس آخر برّه في دنياه، بل آخر وأشرف طاعاته وعباداته، وهي السلام علىٰ «القربان». فنادىٰ بصوت أنهكه ما فيه، لكنه دوّىٰ فصك سمع الملكوت:

عليك مني السلام «أبا عبدالله»، هذا «جدّي» قد سقاني بكأسه شربة لا أظمأ بعدها، وهو يقول: إن لك كأساً مذخورة.

ما كان في قلبه غيّر حب «المولىٰ»... فكأنه لحظة لاقىٰ «جدّه» الأعظم يقدم له كأسه، سأل عن «كأس» «أبيه» وشكا لـ «النبي» عطشه، فنقل الرد (إن لك كأساً مذخورة)، عسىٰ أن يكون في ذلك لـ «أبيه» سلوة وعزاء.

وقد أحتوشه القوم في مشهد يحمل معانٍ تكاد تفوق مصيبة مقتله وتتخطىٰ هولها وفجعتها... فالفارس فتىً وحيد أعزل، قد خلّت يداه من سلاحه، وأنحلّت عُرىٰ درعه، ووقعت عن رأسه بيضته، بين مئات أشتبكت عليه الأسنة منهم والسيوف، وهو في النزع الأخير، وفي حكم مَن قضىٰ ومات من فرط ما أثخن بالجراح ونزفت منه الدماء... وما زالوا يوزعونه بالخناجر والمُدىٰ والجُراز، ويفترسونه كذئاب ضارية قتلها السغب، بل ضباع تنعشها المُثْلة وهي في الشبع والتخمة.

مشهد أكمل صورة لأسلافهم رسمتها «هند» في «أحد»، ومُثْلَتها في جثمان «حمزة»! وصوّر الحقد «الأموي» على حقيقته، وأين ضربت جذور «الشجرة الملعونة في القرآن» وبلغت من أعماق النَّصب وأغوار العداء... صدور تخشّنت وأوغرت على «بني هاشم» بالغل، أورثها إحَنٌ وأضغان، لا تجدها في الأفاعي والجمال، تحكي حقداً دفيناً أُشربوه خلَفاً عن سلَف، وقلوب ملئت حسيكة وسخيمة، وجاشت حزازة وضغينة، لا تبرّدها إلّا المُثلة وتقطيع الأجساد، ولا يشفيها إلّا شرب الدماء ولَوْكُ الأكباد!

لا أدري مَن الذي أجاب نداء «الأكبر» وردّ عليه سلامه... فقد ملأ صوت الجواب المكان كالهدّة قِبَل البحر، والجلجلة تحكي الرعد، فذعر القوم وصعقوا وأخلوا الميدان وتفرّقوا، وهم يرون «المولى» يقدم على سابق له، يسابق الريح، ويستبق عزمهم أن يبتروا أعضاء عزيزه ويوزعوها أشلاء يتقاذفونها ويطرحونها هنا وهناك! فلما وافاه، أنكبّ عليه واضعاً خدَّه على خده قائلاً: "ما أجرأهم على الرحمن، يعز على «جدك» و«أبيك» أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك".

وكأنه ـ عليه صلوات ربه ـ تعمّد ذِكْر «الرحمن» وقصد، ليشير إلى المعنى الأول، الذي أراده حين رمق السماء وأجال النظر فيها قبل أن يدعو على القوم: وهو أن «الرحمن» آسم ظاهر فيه الرحمة باطن فيه السخط والغضب، فلا يعوّلن أحد على مغفرة ورحمة، ولا يرجوَنّ عفواً وشفاعة، بل لا يُمَنيَنّ نفسه بتوفيق لآستغفار وتوبة!

كانت السماء تئط وتئن، والجمع هنا في نشيج ونحيب يذيب سماعه المهج، ويزلزل العرش، وينذر آستمراره بآنفجار وصعقة في الملكوت... فقد كانت الجن تطفر وتنوح، والملائكة تولول وتتلهّف، والحور تتأوّه وتصرخ، وقد أخذها المُقيم المُقْعِد، فكأن قيامة الأحزان قامت هنا... و«المولى» ينظر إليها نظرة إشفاق عليها ورحمة بها، وأخرى شكر لسعيها وإكبار لمواساتها، ثم نظرة خشية وحذر، أن تنال فجعتها الحدث وتربك نظم تسارعه وتفصم عرى وقوعه، فيحول حائل دون تحقق «القربان».

ولسان حاله: إذا أنا قضيت وكان «القربان»، فأنتم وما تشاؤون من الجزع!... لذا، أخذ بكفّه من دم «أبنه» الطاهر، ورمى به نحو السماء، فأنشغلت الملائكة، وتهافتت الجن والحور لألتقاطه، تخضّب به شعورهن وتصبغ وجوههن وثيابهن. فلم ترجع من تلك الدماء الطاهرة إلى الأرض قطرة، ولا هدأت من «المولى» على عزيزه رنّة وزفرة.

أنحنى عليه يريد أن يحمله ويعود به إلى مخيّمه، فما تمكّن ولا أستطاع... فكما تقطّعت أعضاء «الأكبر» وتوزّعت، حتى دعا «المولى» ببارية يجمع بها أوصاله، فقد تقطّعت أحشاء «المولى» نفسه أسىً وكمداً، وأخذت الأحزان بكظمه وأغصّته بريقه وخنقته بعبرته، فكأن الأنفاس أحتَبَسَتْ في صدره، ما خرجت إلّا بزفرة كاد أن ينشق لها، ظننت أن ضلوعه تقصّفت منها.

وقف «المولى» على مصرع «أبنه»، وقد أنهملت عيناه وفاضت بالدموع، ثم صاح بأعلى صوته وأخذ يكرر:

قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الله وعلى أنتهاك حرمة الرسول.

وقد عجبت من رفع صوته وصياحه، وكنت أظن أنه سيعجز عن النبس ويهن عن الهمس من عظم المصاب وشدته. وما دريت العلّة وما عرفت السر في تعمّده ذلك وإصراره عليه وتكراره... حتى سمعت صياح النساء وصراخهن وعويلهن، فكأنه ـ صلوات الله عليه ـ أراد إخبارهن وإعلامهن بأستشهاد «الأكبر»، فلا يسألنه عنه ويستخبرن عن حاله بعد هذا. أو أنه كان ينادي أُخته العقيلة «زينب» ـ خاصة ـ لتدركه وتخرجه مما عَلِمَ أنه واقع فيه بعد لحظات!؟

وَجَمَ «المولى» بعد صرخته وأطرَق، وسَهَم وَجْهُهُ وزَهِق، وأمال رأسه على صدره وسكت طويلاً، كأنه يبخع نفسه ويقودها لحتفها!... ثم صدع بكلمة حارت فيها السماوات وسكّانها، وما زال أهل الأرض يسألون عنها ويبحثون في أسرارها ويستبرون أعماقها وأغوارها، فقد نادى ـ صلوات الله عليه ـ «أبنه» بحرقة وخاطبه بزفرة بعد شهقة قائلاً:

"على الدنيا بعدك العفا"...

لعمري، متى تعلّق «المولى» بالدنيا حتى يزهد فيها ويملّها الآن؟ متى عمرت في نفسه وأزدهرت في حياته وحَلِيَتْ في عينه حتى يدعو عليها الآن بالدروس والهلاك، ويرجو لها الفناء والأنقضاء؟ وهو «أبن» الذي طلّقها ثلاثاً لا رجعة فيها، ورث الزهد فيها عنه وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، يخاطبها: "إليك عني، أبي تعرضت، أم لي تشوقت؟ لا حان حينك". وعرف تقلّبها وغدرها وهو يعدو خلفه مُلَبَّباً بحمائل سيفه، يقودونه إلى البيعة مخفوراً مكرهاً. ثم شهد ما يمكن أن تبلغه ويكون منها، وهو ينظر عَصْرَ «أُمّه» صلوات الله عليها، وسقوطها بين الباب والجدار، ومصرع شقيقه «المحسن» على أعتاب الدار، وهكذا في ما رآه من سهام شكّت جنازة «أخيه»، تمنع دفنه إلى جوار «جدّه»! ما كان للدنيا أن تغري وتخدع مثل «الحسين»، وقد ذاق منها الأمرّين، ورأى من سوء صنيعها إذاً، ولا هو في غفلة عنها، حتى يعلن الساعة ـ فقط ـ أنه زهد فيها وتخلى عنها، فيرجو لها الفناء والأنقضاء...

تُرى، ماذا كان يريد «المولى» إذاً من كلمته؟ لست أدري...

ولكن الحديث هنا، في السماء، يدور عن خطاب كشف الساعة عن مرحلة جديدة، بل طور أخير خطير أنتقل إليه «المولى» يؤذن برحيله وينبئ بموته! كأنه بكلمته التي كان يبُثّ عبرها وَقْمَه، وينشر أشجانه، ويكشفها لكل مَن يعي ويسمع، يُعْلِمه أنه راحل بعد هذا، ويعلن عن أنتهاء رسالته وأنقضاء وجوده، فما من موقع له ومكان بقي في هذه الدنيا، فقد أستوفت حقّها، وأخذت نصيبها، وزادت فما أبقت ولا خلّت؟!

كان ـ في الواقع ـ ينعى نفسه... كان يصرّح أن الدنيا قد خرجت فما بقي منها شيء، حتى من حلال مُباحها وجميل مندوبها، بل واجب فرضها! ما يؤذن بتقدم «القربان» ويسمح بتقديمه. فهذا آخر متعلّقاته ونهاية بقاياه في هذا العالم، أدّى ما له من حق الحب وعليه من واجب العشق وأستوفى منه ما شاء من اللوعة... ها هو مُلقىً أمامه، مُرَمّلاً بدمائه.

وبما وقع في خاطري وبلغني في مُطّلَعي، ولست أدري كيف كان ذلك، ولا من أين جاءني... وما زال ـ حتى اليوم ـ يبهرني ويحيرني:

أن حب «الأكبر» عند «المولى» غيرَ حب «السجاد»!

فإذا افترضنا أن «الأكبر» عليه السلام يشكّل الامتداد الذاتي لـ «المولى»، ويعكس صورته الشخصية، ويستغرق الغاية ويبلغ النهاية من البُعد البشري والجانب «المخلوقي» في «المولى»... فإن «السجاد» عليه السلام يمثّل امتداده المقامي الإلهي، وسمِّه إن شئت «الخليفي»، المستغرق في الربوبية المفيضة من مقام الإرادة وموقع المشيئة (البرزخ بين الخالق والمخلوق)، الظاهر في الإمامة والمنبسط في الولاية.

هكذا كان مصرع «الأكبر» يعني اضمحلال الدنيا وفنائها، وتلاشي كل «أنا» في وجود «المولى» وكل «ذات»، وكل اعتبار «شخصي» أو قيمة في إطار النفس وحدود الشخصية. ذلك وإن تقدّس «الشخص»، وتمحّض في الصفات الإلهية، ومهما ذاب وانطبع بالأخلاق الربانية.

إن عشق «المولى» لابنه «السجّاد» مندك في عشق الله سبحانه وتعالى. صرف، خالص، لا واسطة فيه ولا خلال، لا جوف له ولا سطح، لا بطن ولا ظهر، لا فرق فيه ولا تفاوت، إذ لا اثنينية في ذلك مقام ولا تعدد ولا ازدواج... فمَن أحبَّ «الإمام» فقد أحب الله، ومن عرفه فقد عرف الله، ومن والاه فقد وَالَى الله، وهكذا من أبغضه وجحده وعاداه، فقد أبغض الله وجحده وعاداه. بينما حبُّ «المولى» لـ «الأكبر» كان نحواً من حب «الأنا»، وضرباً من انشغال «الأوحدي» عن «الواحد» بـ «الكثرات».

لِمَ لا وكيف؟ وقد بلغت صفات «الأكبر» الكمال، وتطابقت ودرجة العصمة الواجبة، دون أن يُنَصَّ عليه ويمثل الامتداد الإلهي (وإن كان حرياً)، فأصبح ـ لزاماً ـ مهوىً لقلب العارف ومحطاً لحب الكامل ومجلباً لعشق الإمام الولي... وبتعبير آخر، كان «المولى» يرىٰ خلاصة وجوده وعصارة صفاته، في شخص («علي الأكبر») من غيرَ الأنوار «الأربعة عشر»، فتعلّق به شغفاً وذاب فيه عشقاً وهام وَجْداً.

وبقي السؤال وما أنقضت الحيرة: في حدِّ التفريق وحيِّز التمييز بين «الذاتي» «الشخصي» وبين «الإلهي»، أو بين «الدنيوي» و«الأخروي»، أو «المادي» «العاطفي» وبين «الروحاني»... في «موجود» كلّه لله ومع الله وفي الله؟! كيف يكون الأمر أمتداداً، يقع في طول القضية، لا عرضها، ثم يُعدّ في نفس القائم عليه ميلاً وأنصرافاً وحيوداً؟ فلا شك أن حب «الأكبر» يقع في طول حب الله، و«عاطفة» التعلّق به وعشقه، ما هي إلّا موجة روحانية ونفحة عقلية، و«دنيا» عبادية من أتم مصاديق مزارع الآخرة. وجود كلّه لله وفي الله ومعه، فيكون حبه، بل مجرد النظر إليه، عبادة ما بعدها عبادة... كيف بالله، يكون ذلك نحواً من الشخصانية والذاتية من المحب؟

إنها حالة وقْفٌ على أصحابها صلوات الله عليهم... مَدْرَج في السير ومنزل في السلوك، وطور في الحركة والسعي، لا يدركه إلّا أهله، ولا يعرفه إلّا أربابه، ولا يحيط به إلّا من عاشه وذاقه.

فيرى أي ألتفات إلى «الكثرات»، بل حتى الأنشغال (في مرحلة) بالأسماء والصفات، ضرباً من الغفلة عن الذات!... من هنا كان «النبي» صلى الله عليه وآله يترقب دخول الوقت ويقول: "أرحنا يا بلال"! فالصلاة هي راحة «رسول الله»، إذ بها ينفك عن واجباته وتكاليفه الدنيوية ـ وكلّها من أسمى العبادات وأشرفها ـ وينصرف من «الكثرات» وينفصل عنها، ويرحل إلى لقاء الواحد الأحد، ويعود ـ من خلال الصلاة ـ إلى حضرته الأصلية ومقامه الأول ووطنه الذي هجره لينزل إلى الأرض ويهدي الخلق! ومن هنا كانت سهام أُصيب بها «أميرالمؤمنين» تُنتَزَع من جسمه الشريف وهو في صلاته فلا يشعر بها. وكانت النساء تصرخ على طفل لـ «زين العابدين» هوى في بئر، و«المولى» في صلاته لا يكترث بذلك فينفتل عنها.

ومع هذا وذاك، كانت لكلمة «المولى» وجوه أُخر، وبطون وأعماق لا تستبر. كانت تظهر لي في صفحات تطوى، وأُخرى تنشر، تظهر أمامي وتتجسد وتنطق. منها أن: "على الدنيا بعدك العفا"... أطلقت وأنطلقت من مقام «نوحي»، وإن شئت فهذا «فصٌّ» منه:

فـ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا... وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ... إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

من هـٰذا القضاء وعلىٰ ذاك الدعاء، قام «الطوفان» (الأول)، وأرسل الله الماء فآستولىٰ علىٰ الأرض، وأغرق مَن عليها، إلّا الذين ركبوا فلك النجاة... أنشؤوا من بعدُ حياة ثانية وأقاموا بشرية جديدة.

وها قد أسجر «المولىٰ» بكلمته هـٰذه للتنور ثانية، ليفور بـ «الطوفان الثاني» والنهائي الذي يؤذن بنهاية الدنيا، ومن بعد ذلك القيامة!

وسواء كانت الكلمة إخباراً أو إنشاءً، فقد تغيّر كل شيء، أو آذن بالتغيّر والآنقلاب، وآنصرف ـ خاضعاً مُنقاداً ـ في الوجهة التي صرفه «المولىٰ» إليها!... فما تراه يقع ـ منذ ذلك اليوم ـ وتجده في كل صقع ومكان، وعلىٰ مَرّ القرون والأعصار، من كَدَرٍ عن الصفو والصفاء، ونَقْص عن الكمال والتمام، في كل شيء بحَسَبِه وشأنه، هو من تأثير تلك الكلمة الشريفة. فدعاء «المولىٰ» سيفعّل في الآية الشريفة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، سيفعّل ما جاء بعد حرف الآستثناء (لـٰكن) الذي يقع بعد الجحد والرجوع عن صدر الآية وأول الكلام فيها. وسيفعّل غيرها من آيات العذاب الدنيوي ويطلق لتأثيرها العنان.

لن ترىٰ هـٰذه الأمة بعد اليوم في دنياها خيراً...

وكل ما تراه ـ في فترة أو علىٰ حين غفلة ـ نعيماً وتظنّه من الطيبات وتحسبه خيراً، هو في باطنه نقمة وعذاب، ومكر من الله وآستدراج، وفتنة وإغواء! لن تلبث أن ترجو زوالها وتتمنىٰ ذهابها، وتعض الأنامل عليها.

وإذا كان آنحطاط الأمة، وسقوطها وتخلّفها قد بدأ بعد وفاة «رسول الله» صلىٰ الله عليه وآله مباشرة، حين آستبدلوا الأدنىٰ بالذي هو خير، فـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾...

فإن فرصة "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" قد تصرّمت في «كربلاء»، ومهلة التوبة والعودة إلى الحق قد انقضت في «عاشوراء»... فحلّت النقمة ووقع العذاب وكان النكال، مما فعلوا بـ «سبط النبي» و«أهل بيته» الأطهار.

فـرُفعت صفة هذه الأمة، ولم تعد «المرحومة»!

فبرحيل «نبي الرحمة» ارتفع المانع الأول وارتحل، وبانقطاع سبيل التوبة والاستغفار رُفع الثاني وزال، إذ ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فلا «رسول الله» فيهم يحول، ولا هم من بعده يستغفرون، إذ لا توبة من الذنب الذي وقعوا فيه في «عاشوراء» ولا كفارة تطفئ غضب الرب، فلِمَ لا يحل العذاب وينزل السخط وتكون اللعنة؟ وكل واقعهم اقتضاء، وكل حالهم طلب لها واستدعاء؟

من هنا، فإن كلمة «المولى» ستؤثر في الجبال جروداً وتشققاً وتدكدكاً، ثم براكين تنفجر حمماً. وفي الأفلاك كسوفاً وخسوفاً، وهبوطاً ووبالاً، وفي الأنهار شحاً والآبار غوراً والعيون نضباً والبحار تلاطماً وإغراقاً للسفن وإهلاكاً. وفي الأشجار يبساً ونقصاً في الثمار، وفي الرياحين والأزهار حبس ضوعها وأريجها وزوال غضاضتها وذهاب نضارتها، وبَهْتَ ألوانها وذبول براعمها. وفي البلابل والطيور عروض الخرس والسكوت عن حسن ألحانها وعذب أصواتها، وفي الشفق حمرة لا تزول وغضباً لا ينطفئ...

لـن ترى أمة قتلت «ابن بنت نبيها» عزاً.

ستذل هذه الأمة بقتلها «الأكبر» وتضرع، وستسقط في حضيض الجهل والتخلّف، وستهزم وتخضع منها الرقاب، وستظهر عليها الأمم وتسومها الضعة والصَغار والهوان. سيبتذل فتاؤها ويستباح ذمارها، وتختطم كما يفعل بأنف البعير، تقوده الصبيان والغلمان... ستعطش هذه الأُمة ويقتلها الظمأ والأنهار تغمرها، وستجوع وتهلك من سغب والطعام على مرمى حجر منها، وستفتقر وتدقع والأموال مِلْء جيوبها والذهب مكتنز في أرضها، وسترثُّ ثيابها والحُلل أمامها، وستُهزم وترغم والسلاح في أيديها، وستبقى في العراء، وفي التيه والغربة والشتات، وهي في بلادها وأوطانها!

لن يزكو لـ «الشجرة الملعونة الخبيثة» وأتباعها طعام وإن لذّ وطاب، ولن يطهُر لهم شراب وإن صفا وساغ، ولن يوفَّقوا لـ «موقف» ولا عيد... ستعود صلاتهم ـ كما كانت ـ مُكاءً وتَصْدِيَة، وسيرجع حجّهم عُرْياً وضجيجاً، ولن ينالوا من صيامهم إلّا الجوع والعطش، وستنقلب زكوات ينفقونها ليصدوا عن سبيل «آل محمد» حسرة ونيراناً تحرقهم ثم يُغلَبون، وستندك مساجد ضرار شيدوها تفريقاً بين المؤمنين وصداً عن «قبا» الحق، وتكون مزابل يُلقى فيها اللقطاء ويلتقي أبناء السفاح وكل بُهْتَةٍ مُسْتَلاط، ومجامع قمامة تجتذب الهوام والخشاش وتحوم في فضائها أسراب البعوض والذباب، تقتات على دماء الأبرياء، تنشر المرض والوباء، وتعكس ما ينفّر منهم البشرية جمعاء.

سيتبدد جمعهم، فلن يخرجوا من تِيهٍ يَلْزَمهم، ونزاع يُفْشِلهم، وفرقة كُتبت عليهم، وستتقوّض فتوحاتهم، وستهوي صروحهم وعروشهم، وستنهار دُوَلهم، وتكون كما حلي سلَبوها من «بنات الرسالة» ودنانير انتهبوها من «رحل الحسين»... رماداً يسوّد وجوههم في الدنيا، يلطّخها بالعار والشنار، ويسمها بالذلة والصغار، قبل أن يكوى بها غصبوا من خمس «آل محمد» واكتنزوا من الفيء جباههم وجنوبهم وظهورهم.

"على الدنيا بعدك العفا"... ستؤثّر في الوجود من الذرّة إلى المجرّة، ستقلب سَيْرَه وتنثني بقِيَادِه إلى الدروس والهلاك، ما يرجو للدنيا ويؤول بها إلى الفناء والانقضاء. ستتعدد الأسباب وتتفاوت العلل، وستختلف مظاهر الغضب وقنوات صبّه وانحداره: من الزلازل والأعاصير، فالمجاعات والأوبئة وغريب الأمراض، إلى الانحلال الخُلُقي والتفكك الأسري والتفسخ الاجتماعي والإحباط النفسي والضياع الروحي، إلى التردي البيئي في التلوث والتصحّر وخرق الغلاف الجوي وذوبان ثلوج القطب والاحتباس الحراري، إلى الحروب والدمار والإرهاب وضياع الأمان... كلّها حصيلة ما جرى في «عاشوراء»! أنبأ «المولى» بها وأخْبَرَ، وهو يرى ابنه «الأكبر» صريعاً قطّعته سيوف البغي ووزّعَتْهُ إرباً إرباً.

❁ ❁ ❁

أدركت العقيلة «زينب» ما دَخَلَ أخاها وحلَّ به، وما صار إليه من مشارف الموت، وتيقّنت أنه هالك لا محالة، اللهم إلّا أن تدركه فتصرفه إلى خطب آخر يهوّن ما فيه، أو معالجة تبعده عنه وتثنيه. (وقد فوجئتُ أنّ «زينب» بدأت في دورها «البرزخي» الناقل بين الإمامتين، الذي مثّل القنطرة التي عبرت عليها الولاية من «الحسين» المُحْتَضَر إلى «السجاد» العليل... بدأته قبل أستشهاد «المولى» ورحيله، وكنت أظنها نهضت به حين المصرع).

ها هي ـ عليها صلوات ربها ـ تخرج مدهوشة مسرعة عَجْلى، وهي الوقور، تتعثر بأذيالها، مجلّلة بأنوار من القدس والحياء، كسفت الشمس وأخجلتها، ووارتها مدهوشة مذعورة، فما سبق أن طلَعَتْ عليها، ولا ألقت لها على الأرض ظِلّاً... إذ ما رأت حتى عيْنُها ظِلَّ شخصِها، حتى بَدَتِ الساعة وظهرت تقصد الميدان! وقد تساءل عنها جمع من الملائكة وراحوا يستفسرون من عجب وإكبار: مَن تكون هذه التي أذعن لها كل نور، وأنقادَ كل ضياء ويمم كل شعاع صوبها يحفّها ويكللها ويخلع عليها من الحجب أستاراً؟ فقيل لهم: هذه «زينب بنت علي بن أبي طالب».

خرجت مسرعة لتسعف «أخاها» في مصابه وتعينه على جزعه وبلواه، وقد سبق نداؤها مقدمها، وعلَتْ عَوْلتها وأرتفعت صيحتها تندب فقيده وفقيدها: "يا حبيباه، يا بن أخاه"... فإذا وصلت مصرعه، أرتمت وأنكبَّت عليه، ورأسه في حجر «أبيه». وبينما راحت ـ عليها السلام ـ تلثم جراحه وتغسلها بدموعها الحرّى، وتسوّي أعضاءً نُخِعَتْ وبدناً سَهَف: تسبل يديه وتعدل رجليه، وتصلح ممزق ثيابه، جعل «أبوه» يمسح الدماء عنه ويقول: "يا بني، لعن الله قوماً قتلوك، ما أشد جرأتهم على الله، وعلى أنتهاك حرمة رسول الله". وعيناه غارقة منهملة الدموع.

لكن قدوم «زينب» إلى الميدان، أربك «الحسين» وقطع عليه ما كان فيه... فقام يستر وجهها بعباءته، وقد أخذ بيدها إلى الخيمة، وهو يدافع ويُرجع «العلويات» اللاتي تَبِعْنَها وجئن في أثرها، ويرجع أخريات أذهلهن الروع، فكأنهن هِمْنَ على وجوههن لا يدرين ما يصنعن!

والحديث هنا، بين الملأ الأعلىٰ، أن «زينب» لما خشيت علىٰ أخيها، في شخصه وفي رسالته وهدفه (القربان)، أرادت، بما لها من «شأن الولاية»، أن تحيي «علياً» وتبعث فيه الروح بأمر ربها، وترجعه إلىٰ الحياة! خوف أن يهلك «أخوها»، ويفلت الحدث من عقاله ويتمرد علىٰ تسلسل مقاديره... وإنما أرجعها «المولىٰ» لهذا، لا صوناً للستر وحفظاً للخفر، فالأنوار المشعة الساطعة منها، والأخرىٰ المنصبة المنحدرة عليها من السماء، غطّتها وجلّلتها فخلقت لها كللاً وأستاراً حجبتها عن كل ناظر، حتىٰ عن بعض مَن في السماء! فما كان يُرىٰ منها إلّا خيال يغشىٰ الأبصار.

رجعت إلىٰ خبائها فألتفت النسوة حولها يسألنها ويستخبرن منها الحال... ثم عاد «المولىٰ» يجر قدميه إلىٰ «أبنه»، ومعه فتيان «بني هاشم» يحيطون به، يقول لهم: أحملوا أخاكم. فحملوه من مصرعه، وجاؤوا به حتىٰ وضعوه قبالة الفسطاط الكبير. والمنظر غاية في الغربة والوحشة، فلا هو إسعاف ينقذ جريحاً، ولا هو تشييع يواري ميتاً... فقد وضعوه أمام الفسطاط، ولم يعمدوا لتجهيز ودفن، ولا سأل أحد عن ذلك ولا تحدّث! ما كانت غيْر الأنفاس تتصاعد، والوجوه يغالب فيها الحزن الغضب، وقد نفرت في الجباه عروق عرفت في «بني هاشم»، كأنهم جميعاً يشاركون «سبط النبي» مقولته، وينادون معه: أن علىٰ الدنيا بعد «الأكبر» العفا.

فأنتظم البيان، يصف الموقف والحال:

وقد وضعوا العمائم في رقابٍ
جَلالاً للعميد أبن العميد
وزلزَلَ حملُهم شُمَّ الرواسي
وصدّعَ مشيهم قلب الجليد

ثم خرجت حرائر بيت الوحي وأرتمين علىٰ جنازته، بعولة صكّت سمع الملكوت، فمضىٰ الإنشاد يملأ فجعته السماء:

ولم أنسَ النساء غداة فرّت
إلىٰ نعش الشهيد أبن الشهيد

بناتُ النعش حول النعش حامت
وقد دارت على بدر السعود
فهذي قبّلت كفّاً خضيباً
وشمّت تلك ورداً في الخدود
و«ليلى» خضّبَتْ شيب النواصي
بقانٍ سال من حبل الوريد
تعانق قدَّهُ قدّاً بقدٍّ
وتلثم جِيدَهُ جيداً بجيد
وتُسعِدُها «سكينة» في نياح
ألا فاعجب لذي ثكل سعيد
بصوت طبّق الدنيا شجاه
تنادي: يا حمانا يا عضيدي
و«زينب» قابلت «ليلى» وقالت:
أعيدي النوح يا «ليلى» أعيدي
على حُلو الشباب وبدر تمٍّ
شبيه «محمد» خير الجدود
فيا نفسي اذهبي وَجْداً عليه
ويا عيني بِحُمْر الدمع جودي

وقف «المولى» يرمق الأفق من جديد، وقد غلبه الحزن وظهر عليه كما لم يكن في حياته كلّها... وبدا أن السماء ستطبق على الأرض، وأن الوجود سينعدم وينقضي. فظهرت بعيداً هناك، سحب، كانت تجسّم طوائف من سكان النجوم، تركض في السماء ركض الخائفين، وتعود من حيث جاءت، تنعى الشهيد وتواسي «الولي» وتهتف:

لله بدر من مراق نجيعه * مَزَجَ الحسامُ لُجَيْنَه بالعسجد
ماء الصبا ودم الوريد تجاريا * فيه ولاهب قلبه لم يخمد

❋ ❋ ❋

العقد الرابع: القاسم

مـــا عـــرسه إلا المـنـيَّـــة
وهـــي أُمـــنـــيـــة الهُـــمام

في سيرة الملحمة التي قضت على «طروادة»، قصة غريبة تحكي زواج «أفجنيا» أبنة قائد الجيوش، بـ «أخيل» بطل أبطال «الإغريق»، وغضبه من المكيدة التي وقع فيها... هناك: أن «هيلاس» حشدت ألف ألف للحرب، ولم يبق إلّا أن يقلع الأسطول إلى «طروادة» المنيعة فيدمرها تدميراً.

ولكن البحر هادئ، والرياح نائمة، ولا بدَّ لهذه السفن المثقلة بالعدّة والعديد من قوة هائلة تدفعها في هذا الخضم الزاخر. والأيام تمضي دون أن تستيقظ الريح، والملال يدب في قلوب الجند، من طول ما لبثوا في تلك الجهة من الشاطئ العابس المتجهّم لا يرمون. والميرة تكاد تنفد، والخيل تعلك حديدها كأنها برمت هذا الركود.

«أجاممنون» (ينادي): «كالخِس»!

: مولاي.

: أذهب يا رجل فأستوحِ لنا أربابك، ماذا تبغي لتطلق الرياح؟

: لبيك يا مولاي.

أنطلق عرّاف الحملة إلى المعبد القريب فمكث غيْر قليل، وعاد بقلب موهون، وجسم مضعضع، ووجه مغبر، وجبين كاسف معقّد.

: ما وراءك يا «كالخِس»؟

: مولاي!

: تكلّم، تكلّم يا «كالخِس».

: الآلهة، الآلهة عطشى يا مولاي!

: عطشى؟

: أجل، عطشى إلى الدماء.

: أية دماء، دماء مَن؟

: دماء... أبنتك!

: أبنتي أنا؟ أي بناتي تقصد؟

: «أفجنيا»...

: ويلاه، ماذا تقول؟

: لا بد من تقديمها قرباناً!... لا بد أن يَطْلِيَ دمُها مذبح «ديانا» يا مولاي! لن تطلق الآلهة الرياح من عقالها ولن يقلع هذا الأسطول، حتى تكون «أفجنيا» فدىً للجيش كلّه، ولـ «هيلاس» جميعاً.

: يا للهول!... لا كانت هذه الحرب.

وما كاد قائد جيوش «هيلاس» أن يقولها حتى كبكب القُوّاد حوله وطفقوا يرتضونه: من أجل الآلهة، وفي سبيل الوطن. والرجل يبكي وينشج، وتذهب نفسه شعاعاً. وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه.

فلما أنصرفوا، دعا «كالخِس» وأخذ معه في حوار طويل، ثم رجاه أن يذهب إلى المعبد فيضرع إلى الآلهة ثانية، عسى أن تقبل قرباناً آخر، غيْر هذه الفتاة الحبيبة المنكودة، مهما غلت قيمة هذا القربان!

وعاد «كالخِس»... وأخبر أن الآلهة لا تبغي عن «أفجنيا» بديلاً!

وأخيراً، أنهزم «أجاممنون» الأب، وأنتصر «أجاممنون» القائد المؤمن، ألتقي الورع، الذي يقدّس الآلهة، ويعرف لها قدرها...

فأمر بقرطاس وقلم، وكتب إلىٰ زوجته «كليتمسرا»:

بُشراكِ حبيبتي، أتعرفين «أخيل»؟

«أخيل» الذي أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب، بطل «هيلاس» الذي وَعَدَتْنا الآلهة بالفتح على يديه، الشاب الوسيم القسيم القوي الأبي الشجاع... لقد تقدّم لخطبة ٱبنتنا المحبوبة «أفجنيا»، ويودُّ لو تُزفَّ إليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير «طروادة»، لا شك أنه سيرىٰ في مرآه «أفجنيا» وطنه، وحينئذ يكون حرباً علىٰ أعدائه ونقمة عليهم من السماء.

أرسليها أيتها العزيزة، وبودّي أن تسرعي في ذلك من دون ما جلبة، فالوقت يدهمنا ونحن علىٰ وشك الإبحار.

الإمضاء: «أجاممنون»

وٱنطلق البريد إلىٰ «آرجوس»، حيث تثوي «كليتمسرا» في قصرها المنيف مع ٱبنتها «أفجنيا» وأبنائها الآخرين.

خفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمّها أن «أخيل» يريدها، فقد كانت «هيلاس» كلّها تتحدّث بٱسم الفتىٰ، وتصلي للآلهة التي وفّقته للٱنضمام إلىٰ الجيوش الغازية.

لا ندري ما الذي أبطأ بـ «أفجنيا»؟ ولكن لما مرّت أيام دون أن تحضر الفتاة، رغم أن الطريق لم يكن طويلاً أو شاقاً... تغيّر رأي «أجاممنون» الأب وبدا له ألّا يخضع لهذا الظلم الأولمبي، ولو صار بعدها زنديقاً ملحداً مطروداً من جنة الآلهة، مغضوباً عليه من قلب الوطن.

وقد كان! إذ عاود ٱستدعاء البريد، ودفع إليه برقعة يتراجع فيها عن طلبه الأول، وأمر ألّا تحضر «أفجنيا». وحثّه أن يسرع بها قبل أن تكون زوجته أخذت أهبتها للسفر. ولكن البريد لقي «منلوس»، شقيق «أجاممنون»، وملك «إسبارطة»، والذي من أجل ٱسترجاع «هيلين» زوجته التي ٱختطفها «الطرواديون»، نشبت هذه الحرب... فٱستوقفه وقرأها.

دارت الدنيا بالملك المحزون، وٱحلَوْلَكَتَ الحياة في عينيه وقصد من فوره إلىٰ أخيه وٱنتهره، ونشبت بينهما معركة حامية من السباب والتعيير...

يدفع «أجاممنون» عن ابنته وفلذة كبده، ويفديها بنفسه وبالدنيا وما فيها، ويُعيّره «منلوس» بالمروق من الدين، وعصيان الآلهة، وشق عصا الطاعة على السماء. وإنها لكذلك إذ يعلن الحاجب أن «كليتمسرا» زوجة «أجاممنون» وابنتها «أفجنيا»، تستأذنان في لقاء الملك، والقائد العام.

يا لسخرية المقادير! ذهل «أجاممنون» وانطلق يبكي، حتى تفجر الحنان في قلب «منلوس» المتحجر، ورق لأخيه البائس الملتاع، فقال له: أخي، أنقذها يا أخي، إنها ابنتي كما هي ابنتك، فأنقذها كما يحلو لك!

ويبهت «أجاممنون» لهول الموقف، ويقف وحده يبكي كما يبكي الأطفال، بعد إذ غادره أخوه وترك الخيار مطلقاً له، والمسؤولية والتبعية كاملة عليه. فيلمح زوجته مُقبِلة، فيصلح من شأنه، ويتكلّف البشاشة والتبسم، وإنها لبشاشة باكية وتبسّم مرٌّ حزين.

: أهلاً «أفجنيا»، مرحباً «كليتمسرا»، سفرٌ حميد ورحلة طيبة.

: أين «أخيل»، وماذا أعددتم للاحتفال بالعروسين؟

تلعثم «أجاممنون» شيئاً ثم قال:

أجل، ولكن لا بد أن تعودي أنت إلى «آرجوس»!

: أعود إلى «آرجوس»، أعود وأترك ابنتي؟

: أجل تعودين وتتركين «أفجنيا».

: لا العرس ولا إعلان الخطبة في الأقل، ألا أحضر شيئاً من ذلك؟ هذا لا يكون، لن أعود حتى أشهد كل شيء.

تصر «كليتمسرا» على البقاء حتى تحتفل بابنتها، وحتى ترى هذا العسكر الجرار والأساطيل المنتشرة في البحر كالدبي، تحيي ابنتها وتحيي «أخيل»، وترقص طرباً للعروسين.

ثم يحدث ما ليس في حسبان أحد!

يحضر «أخيل» ليقابل القائد العام، وليبدي له سخطه وسخط جنوده «المرميدون» من طول هذا الانتظار الذي يبدو أنه ليس له آخر، ويلح لديه في وجوب الإقلاع إلى «طروادة» مهما كلّفهم الأمر.

وما تكاد الملكة «كليتمسرا» تسمع كلام «أخيل»، وتسمعه يذكر فرقة «المرميدون» المشهورة في جميع الآفاق ببسالتها وكلَفِها الخالِق بالحروب، حتى تعرفه، وتعرف أنه «أخيل»... «أخيل» بعينه، خطيب ابنتها، وزوج «أفجنيا» العتيد. فتقدّمت إليه «كليتمسرا» هاشة محيية، حتى إذا أنس إليها، بدهته بالسؤال عن العرس!

: عرس! أي عرس؟

: أي عرس؟ ألستِ «أخيل»، ألست قد تقدّمت إلى «أجاممنون» أمير «آرجوس»، تطلب يد «أفجنيا» زوجة لك؟ ألم تفعل، ألم تكلّم أباها؟

سمر «أخيل» في مكانه باهتاً لا يدري ماذا يقول. فهو لا يعرف مما قالت السيدة شيئاً. تحملق الملكة في «أخيل» طويلاً، ويتصبب العرق من جبين «أفجنيا» الفتاة البريئة لما ترى من حيرة أمّها، وارتباك هذا الجندي الباسق الجميل، الذي كانت تحلم به زوجاً كريماً لها.

كشف صاحب البريد - وكان حاضراً - السر، وأذاع خبر الحقيقة.

: مولاتي الملكة، خذي حذرك لفتاتك المسكينة، إنها ستُذبح، إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الذكي البريء، إن «أخيل» الكريم لم يتقدم ليطلب يد «أفجنيا»، بل هو لا يعرف من أمرِ ذلك قليلاً أو كثيراً، ها هوذا أمامك فاسأليه.

وكأن صواعق السماء جميعاً نزلت على قلوب القوم.

لقد تحطّمت «كليتمسرا»، وذاب الثلج في عروق «أفجنيا»، وزُلزل «أجاممنون». أما «أخيل»، فقد شُدِهَ وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول، ثم ما هو إلا أن أفاق فاضطربت به الأرض، وأحنقه أن يُتخَذ مطيّة لهذا العبث العابث، والسخرية المهينة. وصاح كأنه أسد مهيج، وانقدح شرر الغضب من عينيه، حتى خيف أن يبطش بـ «أجاممنون» وجنوده، كيما يثأر لاسمه ويصون كرامته.

وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل، فارتمت عند قدمي «أخيل» تقبلها وتغسلها بدموعها، متوسلة أن يدفع عن «أفجنيا» الموت.

: فإن لم يكن بحسبك أن أمرّغ خدي تحت قدميك لتكون حامي أبنتي، فإنها هي تفعل مثلي يا «أخيل»، إنها تمرغ حُرّ جبينها عند موطئ هذه القدم الطاهرة لتكون حاميها وحارسها.

: قفي يا سيدتي، وكلّمي أباها في شأنها، فهو ولي أمرها، وله أن ينصرف عما أراد الكهنة لها. فإن لم يحل بينها وبين الموت، فإني سأقاتل دونها حتى أنقذها من الهلاك، ولو حاربت «هيلاس» جميعاً.

وترجو الأم زوجها، أن يحول بين أبنته وبين هذه القتلة الشنيعة، فَيَعِد، ولكن لات حين موعد... لقد نما إلى العسكر أن «أخيل» أنذر أنه سيسل سيفه دون الدم الذي أمرت به الآلهة أن يراق. فغيظوا وأحنقوا، وذهبوا يتحسسون جلية الأمر، فصارحهم به فأنقضوا عليه يرشقونه بألسنتهم الحداد، ويرجمونه بحجارة الشاطئ، فولى مدبراً.

وريعت الأم حين رأت «المرميدون»، جنود «أخيل» الأمناء، يرجمون سيدهم في من يرجمه من الجنود الآخرين، فعولت أن تحمل السلاح وتقف إلى جانبه، لتذود هؤلاء الوحوش.

ولكن «أفجنيا» الصغيرة، «أفجنيا» الفتاة، «أفجنيا» العظيمة، وقفت في وجه أمها، وصرخت قائلة:

مكانك يا أماه، لن يموت «أخيل» من أجل فتاة.

مَن أنا حتى يفتديني هذا البطل العظيم؟ وما حياتي التافهة في حياته المذخورة الغالية؟ إن رجلاً يحارب من أجل «هيلاس»، أجدر بالحياة من عشرة آلاف أمرأة لا يستطعن إلى الحرب من سبيل!

أيها الجنود! خلو سبيل سيدكم، فلن تفتح «طروادة» إلا على يديه، كما أخبرت بذلك آلهتكم، وما دام النصر معلّقاً بحياتي، فكم يبهجني أن أفتدي الوطن، وأرض أربابي، إن «هيلاس» كلّها تنظر إليّ اليوم، فهل هناك فخر أكثر من أن أكون عند حسن ظنها بي، أنا لها، أنا أفديك يا وطني... أمّاه لا تحزني، أنظري إليّ، ها أنا أبتسم للموت، للقتل، للذبح، هلموا يا سادة هلموا، أين المذبح، صلّوا من أجلي، تحيا «هيلاس»!

وفي هذه اللحظة تكبر «أفجنيا» في عيني «أخيل». فيتمنى لو أجّل في حياتها لتكون زوجة كريمة له، ويعرض استعداده للمنافحة عنها بسيفه، ولكنها تنهاه، وتوصيه أن يعيش لوطنه، يذب عنه ويعلي كلمته.

وتنسكب دموع «أخيل»...

فيا للفتاة... ويا للأم... ويا لـ «أخيل» البطل.

وتنحني «أفجنيا» وتضع رأسها على رخامة المذبح، ويرهف الكاهن مُدْيَتَه... ولكن؟

شُدِه القوم... ونظر بعضهم إلى بعض.

إنهم ينظرون فلا يرون «أفجنيا»!

بل يرون مكانها ظبياً، رشأ غريراً.

إذن هي معجزة.

لقد تفطّر قلب «ديانا» الكريمة من أجل الفتاة... فهبطت من ذرى «الأولمب» لتنقذها. فرفعتها إلى السماء... ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم في مملكة «توريس».

وارتفعت أغاني الغواني... يسبحن الآلهة العطشى!

* * *

«عرس» في «هيلاس»...

و«عروس» في «مصر»، يلتقمها «النيل»...

وهذا «السبط» يدعو «ابن أخيه» ويُعد لـ «عرس» في «كربلاء»!

لعمري، عسى أن لا يكون ذلك فعلاً ثابتاً وسُنّة مطردة في محافل القرابين، وحتماً مقضياً في طقوس تقديمها؟!

انقبضَتْ نفسي وضاق صدري أول الأمر، حين تداعت لي قصة «أفجنيا» و«أخيل»، تقدُم من أعماق تاريخ يغور في اثني عشر قرناً قبل ميلاد «المسيح»، سواء أكان حقيقة وَقَعَتْ، أم أسطورة نسجها خيال «هوميروس»، استوحاها من «ميثولوجيا الإغريق»، تحكي ما عاش في نفسه، وهواجس ظهرت في هذا الضرب الرائع من الفن والإبداع...

انقبضَت نفسي وأنا أرىٰ «المولىٰ» يأخذ في مقدمات عقد زواج ابن أخيه «القاسم» علىٰ «ابنته» المسماة له ويهيئ للعرس والزفاف!... وهي مقدمات لم يشك أحد هنا أنها ستنبو سريعاً وتتقوّض، فهي تنعىٰ نفسها، وتعلن بملء الفم أنها لن تفضي ولن تنتج! فهٰذي الرماح تشتبك علىٰ رؤوسهم، والسيوف تبرق في وجوههم، والخيل تحوم حولهم وتطوق خيامهم، والشرر يتطاير من أعين أعدائهم... والصحب صرعىٰ والأهل علىٰ الأثر.

انقَبَضَتُ ووجدت في نفسي مَضَـاً مؤلماً وحزازاً: لعلّه يريد أن يقدّم هٰذا الفتىٰ الأغر الأبلج، البهي الغسّاني، قرباناً بين يديه، يوطّئ به للقربان الأكبر، وذبيحة تمهّد للذبيحة العظمىٰ؟ وأن القِرَان والزفاف ظاهر يخفي باطناً من القتل والدماء، ومن بعدها الأتراح والأحزان؟

ثم انْشَرَحَتْ بعض الشيء وطِبْتُ نفساً، فأمّلت أن يفدىٰ الغلام بغزال أو بخشف، وتكون له خاتمة القصة «الإغريقية»؟... أو بكبش كما صُنع بجدّه الأعلىٰ «إسماعيل» في «منىٰ».

لعمري ماذا يفعل «المولىٰ»؟!

أين بلغ الأمر وفيمَ صار وإلىٰ أين سينتهي... ما هٰذا الطقس الخارج عن زمانه ومكانه، الغريب في حاله ومقامه؟ أين هو من منظومة لا تتخلّف عن الحكمة المطلقة، ما زالت تضع كل شيء في موضعه؟ لا يزل بها شَطَطٌ، ولا تجنح عاطفة، لا يبطئ بها حذر ولا تسرع عجلة؟

بعد مصرع «الأكبر»...

خرج «عبدالله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب» (وأمّه «رقية الكبرىٰ بنت أميرالمؤمنين») في ثلاث حملات، قتل فيها جماعة، حتىٰ إذا كانت الحملة الأخيرة، رماه «يزيد بن الرقاد الجهني» بسهم، فاتقاه «عبدالله» بيده، فسمّرها إلىٰ جبهته، فما استطاع أن يزيلها. وبينا هو علىٰ هٰذا إذ حمل عليه رجل برمحه فطعنه في قلبه... ومات. فجاءه «يزيد بن الرقاد»، وأخرج سهمه من جبهته، وبقي النصل فيها وهو ميت!

ومن بعده حمل «آل أبي طالب» حملة واحدة...

فصاح بهم «المولى»: صبراً على الموت بني عمومتي، والله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم.

فسقط منهم: «عون بن عبدالله بن جعفر الطيار»، (وأمّه العقيلة الحوراء «زينب بنت أميرالمؤمنين»)، وأخوه «محمد» (وأمّه «الخوصاء»)، و«عبدالرحمن ابن عقيل بن أبي طالب»، وأخوه «جعفر بن عقيل بن أبي طالب»، و«محمد بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب».

وأصابت «الحسن المُثنى بن الإمام الحسن السبط» ثمانية عشر جراحة، وقطعت يده اليمنى ولم يستشهد.

وخرج «محمد بن أميرالمؤمنين»، ويكنّى بـ «أبو بكر»، قتله «زاحر بن بدر النخعي». وخرج «عبدالله بن عقيل»، فما زال يضرب فيهم حتى أثخن بالجراح وسقط إلى الأرض، فجاءه «عثمان بن خالد التيمي» فقتله. وخرج «عبدالله الأكبر بن الحسن بن أميرالمؤمنين»، وأمّه أم ولد يقال لها «رملة»، فقاتل حتى قتل... صلوات الله عليهم أجمعين.

آه، لا أدري ماذا أصابني...

لست أطيق - في طبعي المتفائل - كل هذا القهر والهزيمة! ألا يغلب الحق حيناً ويعلو شيئاً فيضيء الأنفس ويشرقها بالبشرى ويحييها بـ «أخرى تحبها»؟ بلى، إنهم يقتلون أعداءهم ويفنون منهم أضعافاً مضاعفة، ولكنهم لا يلبثون أن يسقطوا!... هكذا كنت دائماً في حياتي، لا أواجه الحقائق ولا أعالج الصعاب، بل أفر منها إلى الأماني والآمال، وأخادع نفسي الضعيفة وأسوّل وأجد لها ما يرضيها ويريحها في نزعات المثال ونماذج الكمال.

ها أنا أسمع صوت «عبدالحسين صادق» ثانية، (لعمري، كم أسرّني هذا الشيخ الجليل بمواقفه في دنياه، حتى صرت أكثر ما أسمع صوته في هذه الحضرة القدسية وألجأ إلى سلواه) كأنه أتاني - هذه المرّة - ليجيبني ويهديني السبيل، ويصف لي من ناجع طِبّه الأثيل، ويبعدني عن الأماني الخيالية والآمال المستحيلة، فيدوّي ويهدر مخفّفاً من الأحزان الضاربة في نفسي أطناب اليأس والأنكفاء، بحماسة بثّها وفخر بعث في المضاء.

وقد أنقدح في ذهني وخطر أن من أسرار ما وقع وكان في «كربلاء»، وسجّله التاريخ عنها فصار أدباً لها وتراثاً، من ملاحم البطولة وضروب الشجاعة، ونماذج الإقدام ومُثُل التضحية والفداء... إنما هو لعلاج الوهن الذي يعتري أنفس الناس من غلَبة الباطل، والعجز والأكتئاب لهزيمة الحق وأندحاره، ما يصرفهم عن التفاعل المطلوب مع الحدث والأرتباط الأكمل بالواقعة. فتخرجهم الحماسة من الفترة واليأس والضعف، ويعود الفخر بِهِمَمِهِمْ للأرتفاع ويعينهم على أداء حق الحب والولاء.

وهو العمدة والأصل والمرتكز، وما سواه فضلة ونافلة... إنما نحن هنا لِنُحِبَّ ونعشق، وما خلقنا إلّا لنعرف ونوالي.

لا أن البطولة كانت لكي تحثّهم على القيام وتُحَمّسهم للجهاد وتبعث فيهم أسباب الحركة والنهضة... مما أستغلّه السياسيون ووظّفه الثوريون! فرُفِعَت الشعارات وتلاحقت النداءات، تستخف الناس وتستنهض العوام، حتى خرج مَن خرج يدعو لحزبه، ونهض منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا مَن نهض، يجر النار إلى قرصه ويريد الملك لنفسه، ويستأكل بـ «آل محمد» ويدعو إلى «الرضا» منهم، وهو يضمر التنكّر وينوي - إن ظفر - الأستئثار والأنقلاب! وإن كان فيهم مُحقّين ومخلصين، قاموا ليدحضوا باطلاً ويستنقذوا حقاً وينعشوا مظلوماً، ويصدقوا بالوفاء، فإن البلية سرعان ما أصطلمتهم والمكروه ما لبث أن عاجلَهم.

لقد رأيت «كربلاء» في أفق غيْر هذا الذي يعرض ويصوّر في عالمنا ويقال عنه ويذكر في دنيانا: طائفة تزعم أنها لحفظ الدين وتقويمه من زيغ بلغ المدى وأعوجاج صار في النهاية (وكأن الأمر - في جوهره - لم يكن كذلك قبل «يزيد»!). وأخرى تظنها حركة سعت للحكم وطلبت الملك لإحقاق الحق وإقامة العدل في الناس. وثالثة لا تراها إلّا تمرداً وثورة، أسست مدرسة في الغيرة والإباء، وألقت درساً تاريخياً في الشجاعة والمضاء، ثم مثلاً وقدوة خالدة في التضحية والفداء... والحق أنها لم تكن شيئاً منفرداً من هذه ولا تلك، ولا كانت حكراً على عطاء واحد تنفرد به طائفة من «الزاعمين».

لقد رأيتها هنا، قبل كل شيء ومعه: مناراً للرثاء، وبيتاً للبكاء!

إن القضية إلهية عرشية ملكوتية سماوية بأمتياز... لا علاقة لها بالأرض والدنيا إلّا في أضيق الحدود وأقلّها. ولا ميدان للتعامل معها والأتصال بها إلّا عبر الرثاء والبكاء، فهي القنطرة الوحيدة التي رأيتها تفضي إلى تلك العرصة المقدسة، والسبيل الوتر المنتهي إلى ينابيع الخير المتدفقة، وبحور الأنوار الزاخرة، وذرى الكمال الشامخة، وجبال العظمة المنتصبة هناك... فلا يصعد ولا يرقى ولا يسبح ولا يغترف، إلّا من ورد من هذا الطريق، وطرَقَ هذا الباب. وغيَر هؤلاء متطفّل متسكع، أو مقتحم غاصب.

من الجرم والظلم أن يُنَزَّل الأمر ويُنَزَّل، حتى يُحسب في هذا العِداد من أفعال البشر ويُدرج في هذا النطاق من حركاتهم، وهو أصل الوجود وعلّته، وغايته ونهايته، وعليه مدار الخلق والقيامة... لذا فلا قياس هنا ولا مقارنة، ولا تحليل ولا دراسة، ولا فلسفة ولا فذلكة، بل لا عِبْرة ـ من حيثٍ ـ ولا أعتبار، ولا درس ولا تذكار!

إنه أمر الله، وشأن أهل نبيه... «آل الله» في بيته وقبلته!

وكما إن «الولاء» هو أصل الدين وأساسه، ومن بعده العبادات والأعمال، يمكننا أن نزعم، وجاز لنا أن نقول: كذلك الأمر في «كربلاء»، أصله الرثاء والبكاء، ومن بعده باقي القيم والعطاءات.

نعم، أُبيح لنا، من فيض جودهم وعظيم كرمهم، أن ندرس ونحلّل، وسُمح لنا أن نستلهم ونتعلّم، ولكن دون أن نُخْضِعَ «أمر الله» لأمزجتنا وأهوائنا، بل ولا حتى لعقولنا ومحدود إدراكاتها.

لقد رأيت «كربلاء» تسمو وتحلّق فوق تلك الدعاوى والمزاعم والحركات، وتمضي بعيداً عن أهداف أولئك وأماني هؤلاء، حَسُنَتْ أم ساءت منهم النيّات، وأنّ النهضة والثأر بإرجاع الغصب وإحقاق الحق وتحقيق العدل، وَقْفٌ على «ولي الدم»... وما زال الإمام ـ من بعد «الحسين» ـ في صبرٍ وأناة، وإن ظنه الناس في غفلة من أمره وشُغْل عن ثاره وسبات!

فمن له أن يقوم مقامه ويزعم وكالته وخاصة نيابته؟

عدت إلى صوت «عبدالحسين صادق» يهدر بالحماسة:

ما العرب إلّا سماءٌ للعلاء وما
أبناء «عمرو العُلى» إلّا ذراريها
فللنبوّة تاجٌ في مفارقها
وللإمامة عقدٌ في تراقيها
حليان ليس سواها تحتلي بهما
شتّان عاطل أجياد وحاليها
من «شيبة الحمد» شبّانٌ مَشَتْ مَرَحاً
لنصرة الدين لا كِبْراً ولا تِيها
بسّامة الثغر والأبطال عابسة
تفتر منها الثنايا عن لآليها
جرت بطوفان «حرب» في بواخرها
وما بواخرها إلّا مذاكيها
لو لم يكن همّها نيل السعادة ما
أبقت على الأرض شخصاً من أعاديها
ليست تبالي وللأسياف صلصلة
مطبق سعة الغبراء داويها
وللرماح اصطكاكٌ في أسنّتِها
وللسهام اختلاف في مراميها
وللرؤوس انتثار في كواهلها
وللصدور انتظامٌ في مجانيها

فعَلَت الأبيات فيّ فعلتها...

فغُدَتُ ماضي العزم، وقد توقّد فيّ النَّهَمُ، واشتعل الشوق أن أنظر «القاسم»، وأستجلي أسرار هذا الزفاف، فتنجلي غمامة من الإبهام تجلل المشهد وتغطيه، تخلّف في كل ناظر حيرة ما بعدها حيرة!

* * *

إنها «كربلاء»...

هنا «كربت» الأرض وقلّبت، وهنا قيّدت «الكروب» وصارت موثقاً، وأشتدّت الخطوب وأستعرت الأرزاء حتى نالت «كَرَبَ» النخلة المقدسة وأصول سعف (الشجرة) الطيبة وقطعت كرانيفها، فـ «كَرُبَتْ» شمس الإمامة وغَرُبَتْ، و«كَرَبَ» كأس الوجود وآذن برحيل وأنقضاء... وما زالت تبذل وتعطي، وتسمو وترقى، حتى صارت «عرشية»، آتخذها سادة الملائكة موطناً، وأنتسب إليها «الكروبيون».

وهنذا «عقد» فيها، شدّهُ «القاسم بن الحسن» وأحكمه...

«عقد» ملكوتي، ليس من جنس الدنيا ولا من مقولاتها، لا في عرفها ومعهودها ولا من مقتضيات أحوالها... أن يتساوى الضدان: القيام والقعود، ويلتقي في الفضل الحالان: الجهاد وتركه!

كما أن الرؤى والأحلام تصوّر الأحوال وتنقل النبوءات وتأتي بالأخبار من عالم آخر عبر رموز وإشارات، نُذُر سوء أو بشائر خير... فيُفَسَّرُ الماء بالعلم والإيمان، ويقال إن المرجان زواج بحسناء، وحدوة الحصان إرث وسفر، والحزن فرح وسرور، والصحراء مرض وخسارة، والدلو مكر وخداع، والسباحة غم ومشقة. كذلك لغة الملكوت وأسرار الغيب، تظهر في الدنيا بصُوَرٍ غريبة على محيطها، ويتلقّاها أهل الأرض تناقضاً وتضاداً وأضطراباً، من خلال طقوس أكثر غرابة ووحشة...

هنا فصل عقَدَهُ هنذا الفتى بلُغة غريبة، ومفردات عجيبة، كالزفاف في الحرب، والزواج في ميدان القتال. ليحقق أملاً ورجاءً، ويبلغ أمراً وقضاءً، يحاكي زوال الفرق وأنتفاء الأثنينية بين القيام والقعود!

لا يفهم أهل الأرض هنذا المعنى الملكوتي والمُعْطى الإلهي، ومَن فَهِمَ، فلن يدرك عمق الخفايا والمكنونات ولن يسبر غَوْرَ الأسرار والمطويات... من قول «رسول الله» صلى الله عليه وآله وفعله:

" «الحسن» و«الحسين» أبناي، هما إمامان قاما أو قعدا، وأبوهما خير منهما " ... ثم قوله: " لا تزرموا أبني " ، حين بال «الحسين» في حجره!

لا يفهمون القول ولا يدركون المعنى، ولا يستوعبون الفعل فيضعونه في موضعه... لأنهم لا يميزون الطهارة من النجاسة، ولا الظاهر من الباطن، ولا الكُنْهَ والحقيقة عن المجاز والأعتبار، ولا التكوين والخلق عن الجعل والوضع، ولا يعرفون الأفضلية وملاكاتها...

ولأنهم لا يعرفون الإمامة والخلافة الإلهية ومقام وراثة الله.

كما لا يعرفون جوهر القيام والجهاد، ولا حقيقة القعود والخلوف... لهذا وذاك تراهم يضطرون للتفريق بين القيام من أحد السبطين والقعود من الآخر عليهما السلام. بل يعضدون رأيهم بكلام الله عز وجل وقرآنه الكريم أن: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾! فظُلِم «السبط الأكبر» في تاريخه وفي النظرة إليه وإلى سيرته ومواقفه، حين أُخضع لمقارنة «عاميّة» ومقايسة جهلائية وضعته قبال «السبط الأصغر»، فنُسِبَ «الحسن» إلى غيْر ما ذهب فيه «شقيقه»، من التضحية والجهاد والشهادة والفداء!

وضلَّ بعضهم وتاه، فخرص وفجر، بل هوى وكفر، حين نال من مقام الإمامة والولاية العظمى وعليها جسر، إذ أخضعها لمعاييره الضحلة ومقاييسه التافهة، وهو يبني حركته وموقفه، ورؤيته للأشخاص والأحداث من منطلق الثورة والجهاد، ليغمز في كل قاعد ويطعن في كل ساكن، حتى زعم أن المرء إما أن يكون «حسينياً» يجاهد بالسيف، أو «زينبياً» يصدع بالحق في وجه الظالم، وإلّا فهو «يزيدي» ملعون!

هذه موجات من الرحمة الحسينية تهب الساعة في صحراء هذا «الموقف» والصعيد، لترأف بشيعة «الحسين» ومحبيه على مدى الدهر وقادم الأيام، أن لا يسقطوا في ما كان من «سليمان بن صرد» في أول أمره وقبل توبته، و«سفيان بن أبي ليلى» وجسارته، وأن يستيقظوا من أستغفالات «السياسيين» ويفيقوا من تدليسات وإغواءات «الحركيين الإسلاميين»!

في خضم المعركة والقتال... ما كان «المولى» ينفك أن يستنقذ العباد من الجهالة وحيْرة الضلالة، ولا ينصرف عن كريم طبعه وعظيم حنانه وعطفه، فهو مطّلع على ما يحمله القادم من الأيام، وما ستكون عليه أحوال محبيه ومواليه وما سيقعون فيه من آثام، فأراد أن ينتشلهم من أخطرها وينجيهم من أفظعها وأشنعها، أي بخس «الإمام» حقه، ورفع قيمة ما، وآتخاذ معيار ما، فوق الإمام والإمامة!

كان «المولى» يجاري ويبني على أساس وَضَعَه «النبي» الأعظم عليه وآله صلوات ربه، وناقوس خطر قرعه في آذان المنحرفين، ونداء تحذير أرسله للمستضعفين والمستغفلين، أن: «الحسن» و«الحسين» إمامان، قاما أو قعدا. فبادر ـ صلى الله عليه وآله ـ وتقدّم، فكان ـ حقاً ـ الخاتم لما سبق والفاتح لما آستُقبِل، والمهيمن على ذلك كلّه، ورحمة الله وبركاته للعالمين!

كان «المولى» يعيش هاجس ظلم أخيه «الحسن»، وبخس الإمامة حقها، ويحذر أن تسقط الفرقة الناجية في هذا المهوى السحيق والجرف الهار. كان قلِقاً متوجساً مما يمكن أن يجرّه ذلك على المؤمنين من تبعات لا طائل لهم بها، ويعرضهم لسخط مهلك لا نجاة لهم منه.

ظلمٌ على غرار ما كان من «سفيان بن أبي ليلى»، ولكن دون أن يكون هناك من يدركهم برحمته ويعطف عليهم برأفته... إذ جاء وهو على راحلة له، فدخل على «الحسن» عليه السلام بعد صلحه «معاوية»، فقال له:

السلام عليك يا مذل المؤمنين!

فأمره «الحسن» أن ينزل ولا يعجل.

فنزل، ثم سأله: ما قلت؟

قال: قلت يا مذل المؤمنين!

قال: وما عِلْمُك بذلك؟

قال: عَمَدْتَ إلى أمر الأُمة فخلعته من عنقك، وقلّدته هذا الطاغية يحكم بغيْر ما أنزل الله.

فقال ـ عليه السلام ـ: سأخبرك لم فعلت ذلك.

سمعت «أبي» يقول: قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله: "لن تذهب الأيام والليالي حتى يلي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم رحب الصدر يأكل ولا يشبع، وهو «معاوية»، فلذلك فعلت".

ثم أنثنى عليه «منبع الجود»، وأنعطف «كريم أهل البيت» ليسأله:

ما جاء بك؟

قال: حبُّكَ!

عندها قال «السبط الأكبر» صلوات الله عليه: "والله لا يحبنا عبد أبداً ولو كان أسيراً في «الديلم» إلّا نفعه الله بحبنا، وإن حبنا ليساقط الذنوب من «بني آدم» كما تساقط الريح الورق من الشجر".

الساعة يعقد «المولى» - عبر «القاسم» - فصلاً، ويحقق من خلاله التداخل بين الدورين، والأقتران بين الإمامتين، والوحدة بين الوجودين، ويثبت أنهما من أصل ونور واحد، وأن قولهما وفعلهما وتركهما من جوهر واحد وحقيقة واحدة، وإن ظهرت الأعراض مختلفة والأدوار متفاوتة. وقد جاءت طقوس تكريس هذا التساوي، وتعميد هذا الأقتران، من جنسه وطبيعته الغريبة عن أهل الأرض، الذين: لا يعرفون زفافاً في ميدان، ولا زواجاً في أحزان، ولا عروساً يُزَفُّ في لامَةِ الحرب وسرباله؟!... فيستنكر مَنْ عَلِم، أو يستغرب، إن حسن هديه وخلُقه وأدبه، وينكر من جهل ويريح نفسه بالنفي من الأصل والبتر من الجذر!

بهذا التداخل والأقتران، أراد «القاسم» تحقيق الأندماج بين الشقيقين، وأن يشير إلى التساوي بين السيدين، وينفي التفاضل بين السبطين، ويزيح عن كاهل البشرية رُزْءَ التفريط في هذا الواجب، ووِزْرَ كتمان هذه الشهادة، وظلم بخس هذا الحق. كان «القِرانُ» إشارة إلى مقام الجمع بين فرعي الشجرة، و«الزفافُ» ضرباً من إقحام الغريب النشاز والأنتقال من خلاله إلى المراد، حتى بدا الأمر كالأستطراد (من المحسنات المعنوية في أساليب البلاغة والبيان)، فيدرج المتكلم عبارة غريبة، ويقحم جملة مقتطعة من خارج سياق الحديث، ليلفت النظر إليها ويؤكد عليها، ويمعن في بيانها.

هكذا جاءت هذه الطقوس وكانت...

غريبة عن زمانها ومكانها، موغلة في الضراعة والشكوى، متناهية في زخم الأحاسيس وشحن العاطفة، متأججة في الأسى واللوعة، مكتنزة في الأسرار، وفي ما يحير العقول ويطير الألباب... فيرجع الحاضر والسامع والمشاهد ليسأل ويتساءل، ويعود ليصوغ المفاهيم كما أرادها صاحبها، وينظم الأفكار على النحو الذي أراده واضعها ومبلّغها.

إن زفاف «القاسم» كشف عن حضور «الحسن» في «القربان»، وإلى أي مدىً كان على اتصال به واندماج فيه... وكيف يتلاشى الفرق بين حد السيف وحر الميدان و«الجهاد»، وبين الصبر على مفاوضة عدو الله وعقد الصلح والهدنة معه! وتذكّر، بأن لولا صبر «الحسن» وتحمّله ومعاناته، لولا قيادته الإلهية وتدبيره الغيبي للأمور، لما بلغ الأمر هذا المبلغ، ولا دنا «القربان» من المذبح!

وهكذا ليؤكد أن «القيام» هو عين «القعود»، والصبر هو عين الجهاد، والموت على الفراش في الانتظار هو عين التشخب بالدماء والشهادة تحت راية السماء، و«التقية» دين الآباء والأجداد... إذ كانت طاعةً للإمام، وتولياً للمعصوم، وعملاً بالواجب وحذواً للخط المرسوم.

❋ ❋ ❋

تقدم «القاسم» إلى «المولى» يطلب الإذن بالبراز...

فلما نظر إليه، ما رأى الفتى الصغير الذي لم يبلغ الحلم، بمُجِبْ رونقه وغُرِّ مَعْرَفه وحُسْن مَسْفَره فحسب، بل رأى الفرع «العلوي» الذي يكتنز في وجوده نسلاً عظيماً من «الكوثر»، يأذن أن يفنى الساعة ويهدر.

لقد كان العطاء في «المولى» ينازع «الحرص»!...

كان يبخل بـ «القاسم»، ويضن أن تنتهب السيوف من هذه النبعة الواعدة، ويشح أن يتقوّض هذا البنيان الفتي الآخذ بالنهوض، وهو يحمل من أسباب الفلاح والنجاح، ما لن تجد له البشرية مثيلاً ما كانت ودامت، ولا عنه بديلاً ما سعت ونقّبت إلى يوم القيامة.

«حرص» و«إمساك» و«مِضَنَّة» ولكن لا على الحطام، وما هو بطبعه وحكمه مُنْتَهٍ إلى انقضاء وزوال، حاشاه، بل على أسباب بقاء الرسالة، وأعمدة قيام البيت، وأركان نهضة الأمة... رأى كل ما يكتنز هذا الفتى الغر في وجوده من نسل طاهر، ويطوي بين جنبيه من فضل عميم، ويحمل في صدره من علم وسرٍّ دفين، سينتهي بعد لحظات، وسيؤول إلى الانقضاء، فتحرم منه البشرية جمعاء.

وقد تداعت هنا ـ في سماء الحدث ـ صور شتى، وتلاحقت مشاهد مختلفة... لست أدري، هل كان ذلك من فيض تداعيها وخطورها في ذهن «المولى»، فإذا تذكّر ـ سلام الله عليه ـ شيئاً عمّت صورته المكان، وطغى على الأفق، أو انطبع فيه، يسهّل عليه تناوله؟ أو تُراه كان يزهو من نشوة مروره في ذاك الخاطر المبارك ووقوعه محلاً لتذكّر قطب عالم الإمكان؟ أم أن الوجود هو الذي تدفق بها، وقد استنهضها الحدث فاستدعاها من مواضعها التي باتت فيها منذ وقعت: على رفوف التاريخ وفي مخزون الذكريات؟

فعرضها لتملأ السماء وتصنع خلفية وأرضية مفجعة للمشهد... لعَمْري، وكأن الفجعة كانت تعوزه أو تنقصه!

صور شتى، أبرزها واحدة للإمام «الحسن» السبط:

وقد فرغ من خطبة له جمع لها الناس، يختبر إخلاصهم ويقف على مدى ولائهم له وثباتهم معه، بعد أن فشت أخبار دسائس «معاوية» بين جنده، وشرائه ذمم بعض قادة عسكره. وكان غالِبُ مَن معه من جنده مُحَكِّمَة وأصحاب فتن. فنظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا:

ما ترونه يريد بما قال؟

قالوا: نظن أنه يريد أن يصالح «معاوية» ويسلّم إليه الأمر.

فقالوا: كفر والله الرجل.

فشدّوا على فسطاطه وانتهبوه، حتى أخذوا مصلّاه من تحته! ثم شدَّ عليه «عبدالرحمن بن عبدالله بن جعال الأزدي» فانتزع مطرفه عن عاتقه، فبقي ـ عليه السلام ـ واقفاً متقلّداً سيفاً وهو بغير رداء.

ثم دعا ـ صلوات الله عليه ـ بفرسه فركبه، وقد أحدق به إخوته وخاصته، ثم شيعته، ومنعوا عنه مَن أراده، ودعا مَن معه من «ربيعة» و«همدان» فأحاطوا بهم ـ نطاقاً ثانياً ـ ومنعوهم. فسار ومعه شَوْبٌ من أتباعه، أخلاطٌ لا يُدرىٰ الوفي من الخائن فيهم، ولا يُعرف وثيق الذمة من الغادر الناكل بينهم. فلما مرّ في مكان مظلم بـ «ساباط»، بدَر إليه رجل من «بني أسد» أسمه «الجراح بن سنان»، فأخذ بلجام فرسه وبيده مِغْوَل، وهو سوط في جوفه حديدة مسنونة، يؤخذ به الخصم غيلة، فقال:

" الله أكبر، أشركت يا «حسن» كما أشرك «أبوك» من قبل " ؟

ثم طعنه في فخذه فشقّه حتىٰ بلغ العظم، فأرتمىٰ عليه «الحسن» وأشتبك به، وخرّا معاً إلىٰ الأرض. فأكب علىٰ اللعين رجل من الشيعة يقال له «زيد بن حفصة التيمي» فرضخ رأسه بحجر، وخضخضه «عمارة أبن ظبيان» بخنجر فمات الخبيث من ساعته، وقُتل معه رجل آخر كان يعينه ويساعده. وحمُل «الحسن» عليه السلام علىٰ سريره إلىٰ «المدائن» ، فبقي في «المدائن» أياماً كثيرة لمعالجة جرحه.

ها هي «المدائن» تظهر أمامي من جديد، وتفض لي من أسرارها!

طبيب نصراني يعالج «الحسن»، فلما برئ جرحه، أخرج ـ عليه السلام ـ كيساً فيه خمسمائة دينار وصبّها بين يديه وقال له:

يا أخا النصارىٰ، خذها ونحن نعتذر إليك لأنّا علىٰ طريق، وقد نهب أعداء الله فسطاطنا.

فتبسّم «النصراني» وقال: يا «بن رسول الله»، أتدري منذ كم أتوقع قدومكم؟ منذ فتح «سعد بن أبي وقاص» «المدائن» وأخذت «العرب» «الجزائر»... وقع في يدي من بعض كتب تلامذة «المسيح» عليه السلام كتاب بـ «السريانية»، وفيه لولده: " إن العام الفلاني يأتي بلدكم هذه أبنا رسول الله المبعوث في آخر الزمان، وبالأكبر منهما جراحة، وهو مطلوب من الأعداء، فإذا لقيتهما يا بني فأقرأهما مني السلام، وقل لهما لا ينسياني من الشفاعة عند الله تعالىٰ وعند جدهما رسول الله يوم القيامة " .

فما برحت أحسب الليالي والأيام حتى كانت ساعتي تلك، فقلت: إن كان الكتاب صادقاً، فالساعة يشرف أبنا رسول الله...

فما أتممت كلامي إلّا و«المختار» يدعوني ويقول لي:

يقول لك عمي، إنه قد نزل بنا آبنا رسول الله وبالأكبر منهما جراحة، فقلت: الله أكبر هذا هو الحق. فكل ما أعطيتنيه يا مولاي هدية مني إليك فأقبلها مني بحق جدك رسول الله. وإنكم أولياء الله وخلفاؤه، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسول الله، وأنتم خلفاؤه في أرضه، فلا تنساني من الشفاعة.

فقبلها «الحسن»، وقال: أنت «شمعون» المدعو بـ «بطرس الأكبر»... رزقك الله عشرين ولداً ذكراً.

قال: نعم، أنا هو يا «بن رسول الله».

ومن بعدها عرضت في السماء صورة أخرى لـ «الحسن» عليه السلام:

وهو في مرضه الذي توفي فيه، وبين يديه طشت، يقذف فيه الدم ويخرج كبده قطعة قطعة من السم الذي سقته زوجته «جعدة بنت الأشعث بن قيس»، بتدبير «معاوية بن أبي سفيان».

و«جنادة بن أبي أميد» يسأله: يا مولاي ما لَك لا تعالج نفسك ؟

فقال: يا عبدالله بماذا أعالج الموت؟

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم التفت إليه «الحسن» وقال: " والله إنه لعهد عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن هذا الأمر يملكه آثنا عشر إماماً، «علي» وأحد عشر من ولد «علي» و«فاطمة» عليهما السلام، ما منا إلّا مسموم أو مقتول " .

ثم رفعت الطشت وآتكأ صلوات الله عليه. فقال «جنادة»: عظني يا «ابن رسول الله». قال ـ عليه السلام ـ:

نعم ، أستعد لسفرك، وحصّل زادك قبل حلول
أجلك، وآعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك،
وآعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قُوتِكَ إلّا

كنت فيه خازناً لِغـيْرِك، وأعلم أن في حلالها حساب وحرامها عقاب وفي الشبهات عتاب. فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، خذ منها ما يكفيك، فإن كان ذلك حلالاً كنت قد زهدت فيها وإن كان حراماً لم تكن قد أخذت من الميتة، وإن كان العتاب فإن العتاب يسير.

وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فآخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فأصْحَبْ مَن إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك، وإن قلت صدق قولك، وإن بدت منك ثلمة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت عنه آبتداك.

ثم أخذت الصورة تتلاشى تدريجياً، حتى آختفت تماماً من سماء الحدث، أو غابت عن ناظري وحُجِبْتُ أنا عنها؟ ذلك مع آنقطاع أنفاس «الحسن» وآصفرار لونه، وقد دخل عليه «الحسين»، فقعد عنده وأخذا يتسارّا. كأن في هذا الحد من المشهد الكفاية من تهييج الذكرى، وآسترجاع الوصايا.

وقف «القاسم» أمام عمّه كظليم نزّ، لا يطيق الآنتظار من شدة تعطّشه للبراز وفورة غضبه وطلبه الثار، وهو يوزع نظراته بين «عمّه» الوحيد الكسير، وجنازة آبن عمّه «علي الأكبر» المضرّج القتيل! وقد أودى به شوق الفوز ولم يُبْقِ فيه شيئاً من جلَد ولا قرار... قد ضاق جأشه، ونزف آحتماله، ورأى ـ باليقين ـ أنه في أمر يقبح في مثله الصبر ولا يجمل الآنتظار.

لست أدري، هل كانت الصور ما تزال تظهر من خلفه في مرأى «عمّه» الحزين؟ أم أنها آنقطعت في الواقع عن المشهد كلّه، فعاد «القاسم» البطل الوحيد الذي تتوجه إليه الأنظار، حتى من «عمّه» «المولى» الذي يخترق نظره الحجب وينفذ بصره فيأخذ أقطار الأرض ويعم آفاق السماء.

ضمّه «المولى» إلى صدره... أعتنقا طويلاً، وجعلا يبكيان حتى خرّا على الأرض جثياً، كأنهما يتهيئان للدعاء والشكاية إلى الله، أو أن الضعف والرقّة أدركت «المولى»، وغلبه عطفه، وأودت به شفقته، فخرّ على ركبتيه، فتبعه الفتى الذي يعتنق؟

قال ملَك إلى جواري أنه غُشي عليهما... وأبى آخر أن تعرض الغشية على «الإمام»، وهو الذي إن نام، نامت عينه دون قلبه، وبقي في وعيه، فهو الساعة ـ وكل ساعة ـ يدير الأفلاك، ويمارس ولايته على الوجود، حتى لتستأذنه القطرة في أقصى الأرض أن تهطل مطراً، والأُخرى أن ترتفع في لحاء الشجر وسيقان النبات لتسقي الأغصان والأوراق وتروي الثمار، فتكبر ورقة ويطول فرع وتينع ثمرة؟ فكيف لمثل هذا «المولى» أن تعتريه غفلة وتناله غشية؟ هيهات، إلا أن تسيخ الأرض بأهلها ويهلك كل شيء!

والحق مع مَن أبى... فهي حالة ظهرت للعيان غشية، ولكن واقعها، كان وما زال وسيبقى، منطوٍ في أسرار الولاية وخصائص الإمامة.

رفض «المولى» أن يأذن لـ «القاسم».

فلم يزل الغلام يلثم يديه ويقبّل رجليه، ويرجوه ويتوسّل إليه... و«المولى» يأبى عليه ويقول له: أنت العلامة من أخي، وأنت سلوتي. ويمنعه ولا يأذن له في البراز.

فعاد «القاسم» إلى أمّه حزيناً كئيباً... وقد عظم الحزن في قلبه حتى أستولى عليه، وراح يعتصره، ليخرج منه كل ما فيه، سوى خوف الحرمان، والحرص على اللحاق بركب الشهداء، والفوز بالسعادة الأبدية.

ها قد عاودته ذكرى الأجتماع الذي عقده «المولى» البارحة، وجمع فيه كل أهله وأصحابه، فقال لهم:

> يا أهلي وشيعتي أتخذوا هذا الليل جملاً لكم، فأنجوا بأنفسكم، فليس المطلوب غيري، ولو قتلوني ما فكّروا فيكم. فأنجوا رحمكم الله، فأنتم في حل وسعة من بيعتي وعهدي الذي عاهدتموني عليه.

فقال إخوته وأهله وأنصاره بلسان واحد: والله يا سيدنا يا «أبا عبدالله» لا خذلناك أبداً، ولا نخليك وحاش لله أن يكون ذلك أبداً أو نقتل دونك.

فراح «المولى» ـ عليه السلام ـ يُبيّن لهم ويكشف مصائرهم وما سيلقون في غدهم من القتل جميعاً، حتى لا يبقى منهم أحد، وهم يحمدون الله ويشكرونه أن أكرمهم بنصرة «سيد الشهداء» وشرّفهم بالقتل معه.

فسأله «القاسم بن الحسن»: وأنا في مَن يقتل؟

فأشفق عليه، فقال له: يا بني كيف الموت عندك؟

فأجاب: يا عم، أحلى من العسل.

فقال: إي والله فداك عمُّك، إنك لأحد مَن يُقتل من الرجال معي، بعد أن تبلو بلاءً عظيماً. وأبني «عبدالله»!

فقال: يا عم، أويصلون إلى النساء، حتى يقتل «عبدالله» وهو رضيع؟

فقال «المولى»:

فداك عمُّك، يقتل «عبدالله» إذا جفّت روحي عطشاً، وصرت إلى الخيام فلا أجد لبناً ولا ماءً قط، فأقول: ناولوني أبني، لأشرب مِن فِيه! فيأتوني به، فيضعونه على يدي، فأحمله لأدنيه من فيّ، فيرميه فاسق ـ لعنه الله ـ بسهم فينحره، وهو يناغي، فيفيض دمه في كفي، فأرفعه إلى السماء، وأقول: اللهم صبراً وأحتساباً فيك، فتعجلني الأسنة منهم، فأكِرُّ عليهم في أمَرّ أوقات في الدنيا، فيكون ما يريد الله.

تلاحقت الذكرى، وتواردت الفكرة وأعقبتها الحيرة، و«القاسم» يسأل نفسه: كيف يكون ذلك من إخبار «المولى» وبشارته لي البارحة، ثم أمتناعه اليوم، ورفضه أن أبرز للقتال؟! رحماك يا رب، ألن أكون في جملة الشهداء؟ ألست أهلاً أن أحظى بهذه الكرامة وألحق بهؤلاء السعداء؟ هل بدا لله في أمري؟ أم ترى أن «المولى» لم يعدني أصلاً ولا بشّرني، فما وعيت ما سمعت ولا دريت ما قيل لي، فرحت أنسج في خيالي وأسمع ما أهوى وأريد؟!

كـان «الصراع» في نفس هـذا الفـتى الصغير، يتراءى لنا هنا نـوبـات من التـخلية وموجات من التزكيـة، ترقّباً للفيض الـذي سـيعمّـه قريباً، وتمهيداً وتوطئة للتحلية التي ستغشاه وتملأ نفسه بعد لحظات! فـ «القاسم» عليه السلام، وهو الغر الذي لم يبلغ الحلم، لمّا أخبر البارحة بقتل «الرضيع» وفجعة «عمّه»، وما سيصير إليه الحال «في أمرّ أوقات الدنيا»، وراح يتصوّر تلك اللحظات الرهيبة ويرتقب هولها... دخلته وحشة، وأعتراه ضيق شديد، وأستولى عليه همٌّ عظيم، أو خوف! لست أدري؟ خصوصاً من كلمة «عمّه» الأخيرة: "فيكون ما يريد الله".

لقد كَفَاهُ الوصف، وأغْنَتْهُ الإشارة، فأنتقلت نفسه إلى الصورة وعاشت روحه الحدث، فترتبت الآثار، وتواردت التوالي... فنزل به ما نزل. فكأنه خَلَطَ ومَـزَجَ وشَـابَ ـ شيئاً ـ في طلبه الموت وسعيه للشهادة نصرة للحق وعشقاً لـ «المولى»، برغبته في الخلاص من حضور هـذا المشهد المرعب، والإعفاء من الحضور في هـذا الحدث المهول، كأنه كان يريـد الفـرار من مواكبة الخطب إذا بلغ أحلك ساعاته، والنجاة من معايشته إذا صار في أقسى مقاطعه ودرجاته، وأن يُكفى ذروة هدّته وقمّة تفجّره!

وحق له ذلك، ولا عتب يتوجّه إليه ولا عيب يعلق بأذياله، لا ملامة عليه ولا غضاضة... فالخطب مما لا يحتمله إلّا «الولي» نفسه، لا يطيقه غيّره ولا يسعه سواه، لا في قلبه وروحه، ولا في بدنه وجوارحه.

من هنا قرعت أجراس التأخير وكانت هزّة التعويق، وعرضت فتنة الزيّ وخشية الصرف وهاجس التَنْحِيَة... لمزيد تشذيب في تلك الروح السامية، ومزيد تنقية وتخليص لتلك النفس الزكية الشريفة، تستوفي كل ما سوى حب «الحسين». تروّض الروح وتقوّم النفس، حتى لا يبقى في هـذا القلب المُضْنى شيء سوى خالص عشق «المولى» وصِرْف نصرته، ووجه الله المستغرق في أحديته، بلا شريك من حاجة، ولا رغبة في راحة، ولا نازع من خوف، ولا عارض من «أنا»!... عظُم «القاسم» فوق عظمته، وسما فوق سموه ومجده، وصار حيث لم يكن من قبل!

ذهب الخوف من اللقطات الأخيرة للمشهد، ونسي الروع من اللحظات المزلزلة، التي نالت من نيّته وخالطت عزمه وأشركت في قصده، وأنبعث فيه نقاءٌ أستُخلص من غمار الخوف على الفوت، ولجج الخشية من التخلّف عن اللحوق بلائحة الشرف الأسمى... خوف غلب كل خوف، وخشية طغت على كل خشية ورغبة تجاوزت كل حاجة.

فعلت المعاناة فعلها في قلبه الكسير... فحضر في خاطره أبوه «السبط الأكبر»، وذكّره بعوذة ربطها في عضده، كان قد أوصاه أن يحلّها، إن هو وقع في أمر شديد ودخله همٌ عظيم، فيقرأها ويعمل بما يراه مكتوباً فيها.

فحدّث «القاسم» نفسه: أنه مذ كان، ما أصابه مثل هذا الهم والغم الذي هو فيه. فأقبل إلى العوذة وفكّها من عضده ونشرَها أمامه، وما إن شرع في قراءتها، حتى كانت السماوات، وكل من يشهد الواقعة هنا، تردد معه، وتتلو ما فيها، حتى أنا وجدت نفسي أقرأ من حيث لا أحتسب!:

ولدي «قاسم»... إذا رأيت عمّك «الحسين» في «كربلاء»، وقد أحاطت به الأعداء، لا تبخل عليه بروحك. وكلّما نهاك عن البراز وصرفك عن القتال، عاوِدْه في الطلب والإلحاح حتى يأذن لك، فتحظى بالسعادة الأبدية.

ما إن وقف «القاسم» على العوذة وما فيها... حتى زال حزنه وأنقلب غمّه وتملّكه السرور، خفّ مسرعاً مستبشراً لا تكاد تحمله الأرض، وأتى عمّه «الحسين» ليعرضها عليه ويبلغه ما فيها. وكان عمّه «الحسين» ينتظره، وكأنه سبقه في قراءة محتوى العوذة والأطلاع عليه، أو أنه سمعه من تلاوة الملائكة، وراح - صلوات الله عليه - في بكاء شديد، قطعه مع وصول «القاسم»، وتنفّس الصعداء كمداً، وقال له: يا بن أخي! تلك وصية لك من أبيك، وهذه وصية أُخرى منه إليّ، ولا بد من إنفاذها.

ثم شرع «المولى» بمراسم «القِران»، وراح في مقدمات العقد والزواج والزفاف!... وأنصرَفَ عن الميدان!

ترك الساحة بلهيبها، تعظّ بأضراسها، وتحتدم في وقدتها، وأعرض عن كل ذلك، وتوجّه تلقاء الفسطاط الأوسط... ولمشيه صرير، ولسعيه أطيط، ولحركته رَجَس (بالفتح) وحنين، ثم صوت انخلاع وانتزاع وصدع، يحكي ما في المشهد من نشاز وخلاف، وتضاد بين حالين، بل طبيعتين، يريد «المولى» أن يرجعهما إلى أصلهما ويعيدهما إلى نصابهما الإلهي، فكأنه كان يقرأ مفردات الأرض وكلمات الدنيا ويتلو نصوص عالم الشهود، بلغة السماء ومكنونات الغيب ومفاهيم الآخرة.

وإن رآها بعضهم وقرأها على ظاهرها، مجرّد عمل بالاستحباب وتمسك بالشريعة الغراء، فلم يرَ فيها نشازاً ولا غرابة، فكما إن الحرب ما أثنت «المولى» عن الصلاة، ولا شغلته عن أداء واجبها، فلِمَ عساها أن تصرفه عن هذا المندوب، وأي ضير في القيام به؟ وحق ذلك... لكن ما تتلقّاه هنا، وما يظهر لي من مطّلعي، شيء يفوق ذلك ويتخطّاه، موغل في السر، يحمل معان من الغيب عظيمة، هذا ما تلقّته الملائكة، فقامت بمراسم الزفاف التي حفلت بها الأرض والسماء!

إنها وصيّة «الحسن»، ينفذها وصيُّه وشقيقه، كما أمر الله وشاء...

أخذ «المولى» بيد «القاسم»، ومضى به حتى أدخله الخيمة، يأخذ في طريقه وهو صامت مطرق، لا يكلّم أحداً ولا يرد على أحد، وقد أفرجت له النسوة والعيال، فشق جمعهم حتى إذا ما صار في طرف الخيمة وآخرها... التفت إليهم، وطلب «عوناً» و«عباساً»، وما زال ممسكاً بيد «القاسم»، فإذا أخلاها طوّقه بذراعه، وتوجّه لـ «أم القاسم» وسألها:

أليس لـ «القاسم» ثياب جدد؟

قالت: كلا.

فقال لأخته «زينب»: ناوليني الصندوق الفلاني.

فأتت «الحوراء» بصندوق مخصوص معهود، يبدو أن فيه مواريث النبوة والإمامة ومقاليدها، من عمامة «رسول الله» وردائه وعصاه، إلى مقنعة «الزهراء» وسيف «أمير المؤمنين» ودرعه، وما إلى ذلك من ذخائر...

فتح ـ عليه السلام ـ الصندوق، وأخرج منه قباء «الحسن» وعمامته وألبسها «القاسم»، فأستوى الفتى وكمل على هيئة «أبيه»، وتمثّل وكأنه «السبط الأكبر» بعث حياً. والعجيب أن الصورة والهيئة التي ظهر فيها «القاسم» على شبه «أبيه»، لم يغلب فيها مبعث البهجة والحياة والسرور، كما كان يفعل مرأى «السبط» دوماً، بل كانت تفيض فجعة وتقطر أسىً وحزناً، وكأنه جاءهم من «بقيع الغرقد»، مسهب ذَنِف من نقيع سُمِّه...

ثم أبتعد عنه «المولى» قليلاً وأفرج من حوله، لتتركّز الأنظار عليه وتتزوّد الأعين من مرأى «العروس». فضجّت الخيمة برنّة مفجعة، وأرتفعت الأصوات وتعارضت الصيحات بين طائفة تصرخ: وا حَسَناه! وأُخرى تنادي: وا قاسماه! والحق أن صرخة الملائك و«الشُهّد» في السماء فاقت ما كان في الأرض ومن أهلها، لولا عولة الحوراء «زينب»، وما كان منها وهي ترى مثال «أخيها» وتجدد بصورته عهداً.

ثم أخذ «المولى» بيد «أبنته» المسماة لـ «القاسم»... وما إن شرع في إجراء العقد، حتى أختلط الموقف وأضطرب! هذا فوج من كبار الملائكة وأركان «المقربين» يهبط إلى «التل»، حيث يقف الأنبياء، وعلى رأسهم «محمد» و«علي» و«الزهراء»، يوافيهم ويجتمع معهم على عزم وقرار، أن لا يزف «نجل السبط» على كريمة «أخيه» إلا بما يليق بهذا «البيت» من التكريم والتبجيل، وإن أزرى الدهر بـ «الهاشميين» وحال دون أن ينهضوا بما يناسب شأنهم، فإن السماء ستنهض بدورها، ولن تقصّر في ما عليها!

وتداخل الأمر عليّ، فما عدت أدري ما يجري هنا...

إنه زفاف مولاتنا «خديجة الكبرى» وحفل أقترانها بخير البرية «محمد» عليه وآله صلوات ربه، بل هو زفاف «فاطمة الزهراء»، عادت الملائكة لتصوّره وتنشر في الأفق مشاهد منه وومضات... أم أن السماء أخذت تتهيأ لتقيم لـ «القاسم» زفافاً يرجع العهد بأقتران «النور» بـ «النور» ويؤكد على وحدة «النورين»، ويستحضر المعاني التي أرادها «المولى» من هذا الزواج؟ أين هذا الحال والمقام عن الأعراس والأفراح؟ لست أدري!

إن السماء تؤدي دورها وتنهض بواجبها وتعين «المولى» على الربط، وتسعف رسالته في اقتران «الفرعين ـ السبطين»، وتصيب أقصى مراميه وأبعدها من بروز «القاسم» وزفافه، ثم شهادته... رسالة تقول:

إن «الحسن» و«الحسين» إمامان قاما أو قعدا، وهما في مرتبة ودرجة ومقام واحد، فالحرب والمعركة والقتال في هذا «البيت»، سيّان مع العرس والزفاف، وهكذا «القعود» والصلح والهدنة، والانتظار في هذا «البيت»، هو عين القيام ولا يفرق عن النهضة والجهاد.

ها قد صعد الفوج وعاد إلى السماء من جديد، وكأنه حظي بالإذن وأخذ «الوكالة» من أولياء الزوجين، ومضى إلى «البيت المعمور» ليجري العقد هناك. وهذا «جبريل» ينادي فيجمع الملائكة، ثم يأخذ في تنظيمها صفوفاً تمتد من المشرق إلى المغرب، وعلى مدى ما يبلغ البصر (وهو حديد!)، وقد رفعت أصواتها بالتسبيح والتقديس والتهليل، وضروب من الذكر لم أسمعها من قبل ولم أعِهَا. وهذا «رضوان» خازن الجنان، يزينها ويهيئ الحور والولدان، ويصفُّ أقداح الشراب، ويزين الكواعب والأتراب. ويفرش «البيت المعمور» بفرش العبقري الأصفر والإستبرق الحسان، والرفرف الأخضر والأسود والأحمر، وقد علّق فيه قناديل الدر بسلاسل المرجان، وصفَّ فيه السكان، ورصَّ حول البيت منابر الرحمة وكراسي الكرامة، ونصبت أسِرّة الياقوت الأحمر...

الحقيقة أن نفحات من الرَّوْح تغشى النفس من مرأى «شيء»، أو دعني أقول: من حضور «شيء ما» وحصوله، أو من استعادة ذكراه وتمثّلها، فتحضر النفحات وتتداعى وتظهر أمامي الغشوات (بل الإفاقات!) في صور: الفرش والإستبرق والرفرف واللؤلؤ والقناديل والمرجان والحور والولدان، مما أنِسَت به النفس من ألفاظ، سبق إليها التمثيل والتشبيه لمناسبتها مكامن اللذة ونوازع الإحساس في الدنيا، وإن مثّلت قطرة من محيط... وإلّا فإن حقائق «الزينة»، وما تورثه في النفس من نعشة ولذة، أمر يفوق إدراكات العين وما ترى، والأذن وما تسمع، بل القلب وما يخطر فيه.

جلست الملائكة على الكراسي والأسِرّة، ونشر الله تعالى فوق رؤوسهم سحابة من نور تغشى الأبصار، يظهر مما تنضخه وتمطره على مَن حضر وأجتمع، أن حشوها المسك الأذفر والكافور والعنبر، طيوب وعطور ما شمّ منها أهل الدنيا على مرّ العصور. وهنا تسبيح وتقديس وتهليل وتكبير، يأتي من رفيف أجنحة الملائكة، وأصوات ترتفع بالحمد للرحمن، وتلهج بالصلاة على «محمد» وآله الأطهار. أما «شجرة طوبى»، هذه الدوحة العظيمة بالبهاء الزاهية بالولاء، فقد راحت تنثر الدر والجواهر واليواقيت. وقد أوحى الله عز وجل إلى الأمين «جبريل» وأمره أن يرقى «منبر الكرامة»، وقد نصب في صدر هذا المحفل المهيب... فرقى الأمين المنبر حتى آستوى عليه واقفاً، فقام خطيباً وقال خاطباً: "الحمد لله الذي خلق الأرواح وفلق الإصباح وصوّر على عرشه «خمسة الأشباح»، محيي الأموات وجامع الشتات ومخرج النبات ومنزل البركات، بارئ الأنام ومنشي الغمام، لا تشتبه عليه الأصوات ولا تخفى عليه اللغات، لا يأخذه نوم ولا سنة ولا نسيان، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن «محمداً» عبده ورسوله، ونشهد أن «علياً» خليفة نبيه ووصيه...إلى أن قال:

أشهدوا معاشر الملائكة المقربين والراكعين والمسبحين والسفراء والكروبيين، والحَمَلة والكاتبين، وجميع أهل السماوات والأرضين، بأني زوجت بنت «محمد» الأمين، «فاطمة» الزهراء، بـ «علي بن أبي طالب» سيد الوصيين، على أن لها خُمس الدنيا، أرضها وسمائها، برها وبحرها، جبالها وسهلها. فأوحى الله تعالى إليهم، مجرياً العقد من بطنان عرشه: أني قد زوجت وليي ووصي رسولي «علياً» بسيدة نساء العالمين «فاطمة».

فضجّت الملائكة بالصلوات، وأخذت «سدرة المنتهى» تنشر وارف الظلال ومختلف الأفنان، وعادت «شجرة طوبى» تنثر على الحور والولدان والملائكة والسكّان من الدر والجواهر والياقوت.

وهم يجمعونه ويتبركون به، وما زالوا يدخرونه ويتهادونه، حتى عرف في السماء بـ «نثار الزفاف».

بعد إتمام العقد والفراغ منه في السماء، هبط «جبريل» و«إسرافيل» و«ميكائيل» والملائكة المقربون، وفي أيديهم ألوية الحمد ورايات العز، وتركوا الجنان وقد زخرفت، والحور الحسان والولدان تشرف وتنظر، والأطيار تغني على رؤوس الأشجار، بما خُصَّ «محمد» المختار و«حيدر» الكرار و«فاطمة» الزهراء من مدائح وجلوات تليق.

وهبت «ريح الرحمة»، وصفقت أوراق الجنة، فانبعث من الألحان ما يقطّع الأنفس شوقاً ويأتي عليها نشوة وطرباً، ويخف بكل شيء، حتى يسبح معها ويطير، فلا يدري أين يحط!... رافقت «جبريل» ووفده وصاحبتهم، وقد تسرّب إلى الأرض شيء من تلك الألحان، فاهتزت وربَتْ، وعمَّ الدنيا بِشْرٌ وسرور، وأهلها يجدون ذلك في قلوبهم، ولا يعرفون له سبباً!

حتى وافى الوفد «النبي»، وقد جلس مع «علي» و«بني هاشم»، ليجروا عقد النكاح في الأرض، ويقيموا الزواج في الدنيا.

وما انفكّت الملائك تحوم حول «البيت» وتَسْبَح في فضائه، حتى دخلت دار «علي» وحجرته، وأتته بعطايا ربه ووافته بهداياه لحليلته وزوجته... فمسح «أميرالمؤمنين» على ناصية «الزهراء»، كأن ذلك كمال الأقتران وتمام التزاوج والاتصال، ووضعت الملائكة التاج على رأسها، تاج من الذهب الأحمر، مرصّع بالدر والجوهر. ثم نهض «جبريل» فقلّدها بقلائد من الزبرجد الأخضر، أتى بها من أعلى عليين، فيها ثمانية آلاف ورقة من الذهب الأحمر، لم تحم ولم تطبع، إنما قال لها العزيز الجليل: كوني، فكانت.

ولعل صفائح الذهب الأحمر هذه، كانت أغرب ما رأيت وأعجب ما كان في هذا الحفل البهيج من تحف الجنة وحليِّ السماء وأشكال زينتها، سواء ما ظهر منها في الملكوت، فأحسسته بالروح وذقت لذته بالوجدان، أو ما هبطت به الملائكة ليظهر في الأرض فرأيته حقيقة بالعيان، بعد أن خضع للتطوير وناله التكييف والتعديل، ليناسب النشأة وينسجم والخلقة، ومع ذلك (الهوي والانحدار) فقد جاءت هذه التحفة تُحيِّر العقول وتأسر الألباب وتختطف الأنظار...

كانت شيئاً عجباً وإبداعاً معجزاً وإنجازاً رائعاً، يخرق قانون العِليَّة، ويتجاوز ـ متعالياً ـ السببية، تحفة ما صُنعت ولا صيغت، ولا طرِقَتْ ولا شُغلت، آختزلت كل ذلك فـ «كانت» بإرادة (أقرب إلىٰ المباشرة) من الجليل... سَبَكٌ مصبوب يتموّج بالروح عن بريق الذهب ووهجه، ويتدفّق بالحياة عن لمعة الإبريز وألقه، ما أخرج هٰذا الفلز من طبيعة المعادن وخصائصها، إلىٰ ذوات الأرواح الناطقة والأنفس الكاملة وصفاتها! ورغم سُمْكِ أوراق الذهب هٰذه ومتانتها، كانت ـ من عجب ـ ليِّنةَ طيِّعة، خفيفة رقيقة! لا صلابة فيها تخدش، ولا ثقل يُنهِك أو غلظة تزعج.

ما كانت هٰذه قلادة ولا سِخابٌ، ولا لَطٌ ولا سُمَة... كانت تحفة تقرّرُ حقاً بأن "الهدايا علىٰ قدر مُهديها".

❋ ❋ ❋

خرج «المولىٰ» من الفسطاط، وتبعه مَن حضر من إخوته وبني إخوته وعمومته، وكأنهم زفّوا «القاسم» الزوج، إلىٰ آبنة عمّه زوجته، وفرغوا من مراسم الزواج، وأمر ـ عليه السلام ـ أن تفرد للزوجين خيمة... وهنا جلال يغشىٰ الأبصار، وحجب لا يسمح بآستجلاء الخبر وتحقيقه، وتمييز: علىٰ أي بناته عقد «المولىٰ» لـ «آبن أخيه»؟

والحور والملائكة يحفّزن النسوة أن يجلين العروس ويخرجنها إلىٰ زوجها بالإنشاد الذي تعاهدته «الهاشميات» منذ زفّت «الزهراء»، فما آنفكوا يسترجعون تلك الجلوات في أفراحهن... لٰكنه الساعة إنشاد خالطه أسىً، مزج الفرح بما يقطّع الفؤاد:

ست النساء خصّها الباري بحيدرة
خير الوصيين والموصوف بالشيم
لو لم يكن حيدر في الناس ما وجدوا
في الخلق كفواً لذات الصون والخيم
عليهما الله صلىٰ ما بدا قمر
وغاب نجم بأفق الحندس الظُلَمِ

وجلوة أخرى:

يا حبّـذا زوجـة في العـالمين إلى * خير الوصيين أبر السـادة الغرر
محروسة عن عيوب الناس كاملة * عفيفـة لا يدانيـها شـنا العـذر
حوراء أنسـية طابت مدائحـهـا * ما مثلها خلقت في جملة البشر

وثالثة أعقبتها:

أصـبح الكـون بـاسمـاً فى سـرور
بـوصـال البتـول صنـو البـشـير
والعنـا قـد مَضـى وجـاء التهاني
يـا له مـن يـوم فـرحـة وحـبـور

ومع بلـوغ هـذا المقطع، أنقطع الإنشـاد... فبالله، أي فـرحـة هنا وأي حبور؟ وأنصرف المشهد في وجهة واحدة، وراح يحكي كل ما في الوجود من الأسى واللوعة، ما قطّع الأفئدة وأذاب المُهَج.

وقد سمع «القاسم» الأعداء ينادون: هل من مبارز؟

وسمع صيحة «عمّه» تدوّي في الآفاق: "هل من ناصر ينصرني"؟

فعاد ينظر إلى «أبنة عمّه» ويبكي إشفاقاً عليها، حتى أخلى يده من يدها، وهمّ بالخروج، فجذبت ذيله ومانعته وهي تقول:

ما الذي تريد أن تصنع؟

فقـال: أريد ملاقاة الأعداء.

فلـزمت «أبنـة عمه» ذيله، وهـوت عليه «أمّه»، وأحـاطت به النسـوة يصرخن، فقـال لهن: إن عـرسنـا أخّرنـاه إلى الآخـرة. فبكين بكـاءً شـديداً، وأنفجع حتى الرجال من «أهل البيت» وأنفجروا بالإعوال والنحيب.

ثم عرض أمر غريب، لم أسبر عمقه وما زلت أجهل كنهه...؟

فقد توجهت «أبنة عم» «القاسـم» إليه قائلة: يا «قاسـم» أنت تقول إن عرسنا أخّرناه للآخرة، فبأي شيء أعرفك هناك، وأنت قتيل عفير مجدّل؟

فقبض «القاسم» بيده وضرب بها على ردنه فقطعها، وقال:

"أعرفيني بهـذه الردن المقطوعة"!

ما عرفت سبب الطلب والسؤال، ولا سر الفعل والرد والجواب؟ ولكني أظنها «حركة» من تلك التي يراد لها أن تزيد في مظهر الفجعة وتهيّج الزفرة والدمعة، وتفجّر المزيد من مكامن العاطفة لتعرض القضية وتقود المسيرة إلىٰ غايتها المنشودة!... فقد آتّضح لي أن «العاطفة» هي السلاح الأبرز والأقوىٰ الذي عمد إليه «أهل البيت» في معركتهم هٰذه، سواء في كشف دناءة العدو وفضح خسته، أو في آستعراض درجاتهم وقدراتهم وعظيم عطائهم.

وهم يتوجهون بهٰذه «العاطفة» إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الشاهد والناظر، يستدرون عطفه ويطلبون رحمته، ويتضرعون أن يجازيهم بقبول قربانهم، فيمضي الحدث إلىٰ نهايته، ولا يجشّمهم عناء «بَدَاء» يصرفه ويؤجله!

كما يخاطبون بها أهل الأرض وسكان السماء على السواء، لينهض كل بتكليفه ودوره، من الفجعة والبكاء. بل إنني لما ظهر لي أنها توجيهات «المولىٰ» نفسه، وأن هناك حرصاً وتأكيداً علىٰ آلتزام هٰذه الأساليب والأخذ بها، علمت أنها من خاصة طقوس «القربان» وفي صميم حركة تقديمه... بل هي مخ العبادة «الكربلائية»، ورأس المظاهر «العاشورائية».

وهي، وإن كانت مقصودة مُتَعمَّدة، إلّا أنها ليست تمثيلاً وتصنّعاً، ولا تكلّفاً وتعسفاً، بل إطلاق للمشاعر عن الحبس، وفك لعقال المأساة، وترك لحبل الفجعة علىٰ غاربه، تسير إلىٰ حيث تفعل فعلها!

زاد المشهد في الفجعة، فضجَّ «أهل البيت» بالبكاء والنحيب لفعل «القاسم»، ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ثم إن «القاسم» ركب جواده وخرج للبراز، فلما رآه «الحسين» قال له:

يا ولدي أتمشي برجلك إلىٰ الموت؟

فقال: نعم يا عم، وكيف لا أمشي برجلي إلىٰ الموت وأنت بين الأعداء وحيداً فريداً، لا تجد محامياً ولا معيناً... روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا.

عند ذلك نفر «القاسم» وقحم الميدان، ولم يزل يجاهد أعداء الله حتىٰ غلب عليه العطش، فرجع إلىٰ عمه «الحسين» وهو يقول:

"العطش العطش يا عماه، أدركني بشربة من الماء".

فصبره «المولى» وقال له:

ما أسرع ما تلقى جدك «رسول الله» فيسقيك شربة لا تظمأ بعدها أبداً.

عاد الفتى وانقلب إلى الميدان راجلاً... عاد كما خرج أوّل مرة، غير متسربل ولا متدرّع، ولا عليه من لباس الحرب شيء، فما كان هذا الفتى في عداد المقاتلين ولا من جملة الرجالة ولا الفرسان! خرج كأن وجهه شقة قمر طالع، وفي يده اليمنى سيف، وقد خلت اليسرى حتى من ترس! وعليه قميص وإزار من أفخر وأبهى ما يكون، حتى أن الناظر لا يرتاب أنه عروس أقبل من زفافه، اللهم إلّا مقطوع كمّه!

فلم يزل يضرب بسيفه ويقاتل، وقد جعل همته على صاحب لواء «عمر ابن سعد»... كان «القاسم» يَخْطِر في مشيته بنُبْل لا يتردد الناظر فيه، فلا يشك أنه من سامي الأعراق ومن أبناء ملوك الأرض وسادة السماء، وكانت كمالات العز والسؤدد والفخر والمجد ترشح عنه وتفيض، وقد بلغ الحال مداه حين انقطع شسع نعله اليسرى، فأنف «ابن النبي الأعظم» أن يحتفي في الميدان، فتوقف يشدها وانحنى يزمّها، وهو لا يزن الحرب إلّا بمثله، غير مكترث بالجموع ولا مبال بالألوف!

ها قد دوّى الساعة صوت المبدع السيد «ميرعلي أبوطبيخ»:

أهوى يشدّ حذاءه * والحرب مشرعة لأجلِهْ
ليسومها ما إن غلت * هيجاؤها بشراك نعلِهْ
متقلّداً صمصامه * متفيئاً بظلال نصلِهْ
لا تعجبن لفعله * فالفرع مرتهن بأصلِهْ
السحب يخلفها الحيا * والليث منظور بشبلِهْ

وهل وغِرَ ووَجِرَ صدر «زقلل» وأعوانه من كبراء «الشجرة الملعونة»، وزرع الحقد فيهم وأجّجه، وأودع الأكباد منهم جمرة... شيء أكثر من هذا النُبل والسمو والشمَم، وهذه الرفعة والأنفة في «بني هاشم»؟

هنا قام الصراع، وكانت المعركة الحقيقية!

معركة التفاوت بين العزة والذلة، وحرب الرفعة والوضاعة، وصراع الخطر والحقارة، ونزاع الكرم واللؤم. إنه الحسد من تفوُّق العِلْيـة والأشراف السادة والأُمـراء والغطارفة والجماجم، على الزمع والرعاع والسُـوقة والأخلاط واللهازم والأخياف... كيف وقد جمع إلى ذلك المجد «الدين» وضُمَّ إليه «العلم»، وما زال يعلو ويعلو حتى ارتفع عن مطال أيديهم، وسما عن مدارج مساعيهم، فبلغ «النبـوّة» وتُوّج بـ «الولاية»، وصار الأمر بعد عُرْفِ أهل الأرض وفخر الناس وسنة الحياة، شأناً من شؤون الغيب والسماء واتصالاً بالله سبحانه وتعالى؟!

والأمر تحكيه قصة رؤيا «عاتكة بنت عبد المطلب» عمّـة «النبي»، فتلخّص الصراع وتجمل القضيـة، على لسان رأس الكفر: «أبي جهل»!... كانت «عاتكة» تسكن مع أخيها «العباس بن عبد المطلب» في «مكة»، فرأت رؤياً قبيل وقعة «بدر»، ففزعت، فأرسلت حين استيقظت من نومها إلى أخيها، وقالت له: رأيت رؤياً وقد خشيت منها على قومك الهلكة.

قال: وما رأيت؟

قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها، فإنهم إن سمعوها آذونا فأسمَعونا ما لا نحب. فعاهدها «العباس»، فقالت:

رأيت راكباً أقبل على راحلته من أعلى «مكة»، يصيح بأعلى صوته: "يا «آل غدر» ويا «آل فجر» اخرجوا في ليلتين أو ثلاث". ثم دخل المسجد على راحلته فصرخ في المسجد ثلاث صرخات، ومال إليه من الرجال والنساء والصبيان، وفزع الناس له أشد الفزع. ثم رأيته علا ظهرَ «الكعبة» على راحلته، فصاح ثلاث صرخات "يا «آل غدر» ويا «آل فجر» اخرجوا في ليلتين أو ثلاث"، حتى أسْمَعَ بين الأخشبين (الجبلين) من أهل «مكة»! ثم عمد لصخرة عظيمة فنزعها من أصلها، وأرسلها فأقبلت الصخرة لها دوي، حتى إذا كانت عند أصل الجبل، ارفضّت، فلا أعلم بيتاً ولا داراً في «مكة» إلّا قد دخلتها فلقة من تلك الصخرة!

فلقد خشيت على قومك أن ينزل بهم شر.

ففزع «العباس» من الرؤيا، وخرج وانصرف عن «أُخته». فلقي من آخر ليلته «الوليد بن عتبة بن ربيعة»، وكان خليلاً لـ «العباس»، فقَصَّ عليه رؤيا «عاتكة»، وأمره أن لا يذكرها لأحد. فذكرها «الوليد» لـ «أبيه»، وذكرها «عتبة» لأخيه «شيبة»، وارتفع حديثها حتى بلغ «أبا جهل بن هشام».

واستفاضت... فلما أصبحوا غداً، خرج «العباس» يطوف بالبيت، فوجد «أبا جهل» و«عتبة بن ربيعة» و«شيبة بن ربيعة» و«أمية بن خلف» و«زمعة بن الأسود» و«أبا البختري» في نفر يتحدثون، فلما نظروا إلى «العباس» يطوف ناداه «أبوجهل»: يا «أبا الفضل»، إذا قضيت طوافك فأتنا.

فلما قضى طوافه أتى فجلس، فقال «أبوجهل»:

يا «أبا الفضل»، ما رؤياً رأتها «عاتكة»؟

قال: ما رأت من شيء.

قال: بلى، أما رضيتم يا «بني هاشم» بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء؟ إنّا كنا وأنتم كفَرَسي رهان، نحمل إذا حملتم، ونظعن إذا ظعنتم، ونوقد إذا أوقدتم، فلما استبقنا المجد، وتحاذت واستوت بنا وبكم الركب، قال قائل منكم: منّا نبي، فما بقي الآن إلّا تقولوا منا نبيّة!؟ لا أعلم في «قريش» أهل بيت أكذب رجلاً، ولا أكذب امرأة منكم!

ومضى «أبوجهل» يهدد ويتوعد:

زعمت «عاتكة» أن راكباً قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث... فلو قد مضت هذه الثلاث، وتبينت «قريش» كذبكم، كتبنا سجلاً ثم علّقناه على الكعبة، يشهد بأنكم أكذب بيت في «العرب» رجالاً ونساءً! أما رضيتم يا «بني قصي» أنكم تسلّطتم وهيمنتم على «الندوة»، وذهبتم بـ «الحجابة»، وتوليتم «السقاية» و«الرواء»، واستأثرتم بـ «الرفادة»... حتى جئتمونا تزعمون بـ «نبي» منكم؟!

وتحاملوا يومئذ على «العباس» وحاصروه وحملوه أشد الأذى.

ردّ «العباس» وعارض «أبا جهل»:

مهلاً يا مُصَفِّرَ أسته! هل أنت مُنتهٍ؟ فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك.

لكن حضور السوء تدخّلوا ونصروا «أبا جهل»:

يا «أبا الفضل» ما كنت بجاهل ولا خرف!... مستنكرين تصديقه الرؤيا ومُدينين نقلها، ما صنّفوه حرباً إعلامية تهز جبهتهم الداخلية، وتضعضع وجدان أهل «مكة»، وهم الذين لا تنقصهم هزّة ولا رعدة!

كما لقي «العباس» من «عاتكة» مؤاخذة وملامة لما أفشى من حديثها.

فلما كان مساء الليلة الثالثة من الليالي التي رأت فيها «عاتكة» الرؤيا... جاءهم الراكب الذي بعث «أبو سفيان» «ضمضم بن عمرو الغفاري» فقال: يا «آل غالب» آنفروا، فقد خرج «محمد» وأصحابه ليعترضوا لـ «أبي سفيان» فأحرزوا عيركم. ففزعت «قريش» أشد الفزع وأشفقوا من رؤيا «عاتكة»، ونفروا على كل صعب وذلول.

وكان ما كان من وقعة «بدر»، وما دخل منها بيوت «مكة» و«قريش».

* * *

كانت مشية «القاسم» ترسم أمام «زقلل» وتمثل: «الندوة» و«الحجابة» و«السقاية» و«الرفادة»، بل تصوّر «بدراً» و«الخندق» و«حنيناً»... و«الفتح» و«الغدير»، فتتداعى في الأذهان كل المآثر والمكرمات، وكل ما جعل التفوّق قدراً لـ «بني هاشم»، والسمو رداءً لا يليق ولا يستوي إلّا على مناكبهم، والعز والمجد وساماً لا يجلو ولا يحلو إلّا على صدورهم. ما أهاج في القوم مضمر الإحَن، وأثار كامن الأضغان، وبعث دفين الأحقاد، وأذكى جمرة ما زالت تستعر في الأكباد.

لم يتلكأ «زقلل» ولا تباطأ، وهو يرى مشية الغلام، وينظر تصرّفه وتعاليه في الميدان... فأوعز ـ وهو يتقطّع حسداً ويموج حنقاً وغيظاً ـ إلى «عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي» أن يحمل عليه ويشد، فأجابه: لأفعلن. وقد سمعت رجلاً إلى جواره يقول له: "سبحان الله وما تريد من ذلك؟ يكفيك هؤلاء الذين قد آحتوشوه". فلم يطق اللعين أن قال: "والله لأشدن عليه"! وهو مطرق ساهم... وهي حالة طالما رأيتها تتكرر في الأشقياء، وعلمت أنها من مظاهر آستحواذ الشيطان وآستيلائه عليهم.

شد اللعين على «القاسم»، منتهزاً الفرصة ليباغته وهو منشغل بشسع نعله يزمّها، وهيئته يصلحها أن لا تكون على غيّر ما يرام! فما ولّى حتى ضرب رأسه بالسيف، ولا مغفر يحميه ولا بيضة ترد عنه، فوقع الغلام لوجهه، فصاح ونادى، لا أدري أمِن ألَم أم من دهشة: "يا عماه" !

فجلى «الحسين» كما يجلي الصقر، ثم شدَّ شدَّة ليث أغضب، فضرب «عمراً» بالسيف فاتقاه اللعين بالساعد، فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تنحى عنه. وحملت خيل لأهل «الكوفة» ليستنقذوا «عمراً» من «المولى»، فاستقبلته بصدورها فطرحته أرضاً، وجالت عليه الخيل بفرسانها، فتوطأته حتى مات. وانجلت الغبرة، فإذا بـ «المولى» قائم على رأس «القاسم»، والغلام يفحص برجليه! و«المولى» يقول:

بُعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك وأبوك. عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك، صوت والله كثر واتره وقل ناصره.

ثم احتمله إلى المخيم، فكأني أنظر إلى رجلي الغلام يخطّان في الأرض، وقد وضع «الحسين» صدره على صدره، فجاء به حتى ألقاه مع ابنه «علي الأكبر» ومدّده إلى جواره، وقتلى آخرين صرعوا حوله من أهل بيته.

وإن كانت الأمور قد اشتبهت عليّ في شأن الزفاف الذي رأيت قبل المصرع، هل كان لـ «القاسم» أم صورة لزفاف جدهِّ... فإنني الساعة على يقين من مشهد ملائكة انتشروا في سماء الحدث، السماء الأدنى والأقرب إلى عرصة «كربلاء»، بل منهم من ترجل وأخذ يسير على الأرض، وراحوا جميعاً ينثرون على رأس «القاسم» مما التقطوا وجمعوا وادخروا عندهم، وصاروا يتهادونه بينهم على مر السنين، من نثار زفاف «الزهراء»...

ورعيل يقدم في موكب، يتلوه موكب ورعيل، فيصطفون حول جثمان الشهيد صفوفاً، يعزفون لحناً فريداً، خلَطَ جنائزياً مفجعاً ومزجه بإيقاع عزف الأعراس! وراحوا ينشدون أهازيج الزفاف:

كـأن بيض مـواضيهـا تكلّمه
غيدٌ تغـازله منهـا غـوانيهـا
كـأن سُمْرَ عـواليهـا كـؤوس طِلاً
تـزفّهـا راحُ سـاقيهـا لحـاسيهـا
لـو كـان يحـذر بـأساً أو يخاف وَغىً
مـا أنصـاع يُصلح نعلاً وهـو صـاليها
أمـامه مـن أعـاديه رمـال ثـرىً
من فـوق أسفلهـا ينهـالُ عـاليهـا
مـا عممّت بـارِقات البيض هـامتَـهُ
فاْحمـر بـالأبيض الهنـدي هـاميهـا
إلّا غـداة رأته وهـو في سِنَـةٍ
عن الكفـاح غفـول النفـس ساهيها
وتلك غفـوة ليـث غـيْر مكـترث
مـا نـاله السيف إلّا وهـو غـافيهـا
فخَرَّ يـدعـو فلبّـىٰ «السبط» دعـوته
فكـان مـا كـان منه عنـد داعيهـا
فقل به الأشهبُ البـازي بين قطـاً
قـد لفَّ أولهـا فتكـاً بتـاليهـا
جنـىٰ ولكن رؤوس الشـوس يانعة
ومـا سـوىٰ سيفه البتّـار جـانيهـا
حتـىٰ إذا غصَّ بـالنـار أرحبهـا
وفـاض من عَلَقِ البتّـار واديهـا
تقشّعـت ظلـمات الخيل نـاكصـة
فـرسانهـا عنه وأنجـابت غـواشيهـا
وإذ به حـاضـن في صـدره قمـراً
يـزيـن طلعته الغـراء داميهـا

وافـى به حـاملاً نحـو المخيـم والآ
مـاق في وجهه حمـر مجـانيهـا
تخـطُ رجلاه في لـوح الـثرى صحفـاً
الـدمع منقـطهـا والقلب تـاليهـا
آه علــى الـبــدر المـنير محـا
بـالخسف غـرته الغـراء مـاحيهـا

ومع عولة الملائك وإنشادها، ونثار السماء وعزائها...

خرجت «الفاطميات» من خدورهن إلى جنازة «القاسم» الطريحة ومثوى جثمانه الطاهر، عليهن من السواد وثياب أهل المصائب والحداد ما تقشعر منه الأبدان، ويرعب الرجال، فليس هذا منظرٌ مبذول ولا مشهد متكرر! مُعَصَّبات بعمائم سوداء، مجللات ـ فوق ثيابهن السود ـ ببرود وأردية سوداء، تطاير أطرافها وأذيالها وأرتفع رفيفها من شدة العَدْو وسرعة الإقبال، فكأنهن سابحات!... والمنظر يعد أنوار الوجوه وحمرة أعين تتطاير من الدهشة والحيرة، تكاد تخرج من مآقيها من غضب يفور وحنق يجيش، وقد جف فيها الدمع وأنحبس، وغبرة ثارت من حولهن، وهيعة من السماء صاحبتهن، حكَمَت الميدان وجمّدت رجاله، بدا المنظر: سواد في سواد.

كأن الغضب والبغض والكره والشنآن فيهن غلب رقة النساء وضعفهن، فبدين كزِمْزِمَةٍ من لَبُوَاتٍ فزعت من عُرُنها إلى أشبالها، لا كثواكل خاثرات أو نساء جازعات. وكأني بهن لو حملن الساعة السلاح، وكتب عليهن القتال لما قصرن عما فعل رجالهن بالأعداء من قتل وفتك! وقد أنحصر ندبهن ووقفت صيحتهن هتافاً واحداً خرج زمجرة ونَهْمَة:

أخا، أخا، أخا...

ثم أنقطع الصوت عن المشهد... ما عدنا نسمع شيئاً، إننا نرى فقط! بل إن الصورة ـ هي الأخرى ـ أعترتها غشاوة ونالها بتر وتقطيع، فما بتنا نرى الساحة ولا نحضر المشهد كلّه. كأننا زوينا وأقصينا إلى حيث تمتنع عنا رؤية ومشاهدة كل ما يجري الساعة.

أخبرنا ملَك كريم وأطلَعَنا على السر، وقال إنها مَشاهد حجبت عن أهل الحدث أنفسهم، فما رأوها في ساعة وقوعها، فكيف بنا نحن الآن؟ وقال إنه لا يراها إلّا نخبة منتخبة من محارم «أهل البيت» وذوي أرحامهم!

كانت مشاهد جزع «الفاطميات»...

إذ ما إن وصلن جثمان الشهيد وأجتمعن حول جنازة «القاسم العروس» حتى خارت منهن القوى، وأرفضّ الجلَد، ووهن الجأش، وتبدد الصبر، وأنقلبت الحال بعد الفورة والغضب إلى الحزن والأسى والجزع... خرجن صوارخ غاضبات، ووصلن بواكي نائحات نادبات.

تحن حنين النيب وهي ثواكل * تنازع منهن القلوب النوائب

تسقط إحداهن وتكبو من جزع، وتعثر في أذيالها من لهفة، وتنشر أخرى شعرها وتهمُّ لتجز ذوائبها، وثالثة تهتك جيبها وتشق ثوبها، وترفع تلك عن وجهها برقعها وتطرح خمارها، وتخمش هذه وجهها فتكفكف الدماءُ دموعها... أما «أبنة عمه»، فكانت تخضب شعرها من دماء «القاسم» و«خضابه»!

نوادب لو أن الجبال سمعنها
تداعت أعاليهن فهي سواجد
تداعين يلطمن الخدود بعولة
تصدّع منها القاسيات الجلامد
وظلن يرددن المناح كأنما
تعلّم منهن الحمام الفواقد

* * *

العقد الخامس: العباس

يوم أبو الفضل استجار به الهدى
والشمس من كدر العجاج لثامها

كان جوهراً مزدوَجاً، أو خليطاً متداخلاً...

لا تدري أغلَبَ مزاج «عِلّيين» فيه على «فضَلَة» الطين، أم أن «الفَضَلَة» كانت من النقاء ما ألحقها بالأصل، إذ أختيرت من قبضة وكانت من نخبة هي في ذروة القرب والدنو والخلوص من «عِلّيين»، ما صار ينزع ويدفع ليلحقها بها ويدمجها ويصيرهما شيئاً واحداً، وجوهراً خالصاً من نور؟

«فضَلَةٌ» جَهَدَ «أميرالمؤمنين» في البحث عنها والوصول إليها.

وإن عمد للأسباب الطبيعية، وأبى إلّا أن يجعل من تقصّيه: لَبِنَةً في بناء رسالته وخطوة في إعلان بشريته، فآثر أن يسأل ويستشير، وهو العليم بأمره... أو أنه ـ قبل ذلك وبعده ـ أراد أن يخلع على أخيه «عقيل» وساماً، ويجعل له شأناً ومقاماً، فقد كان يحبه لثلاثة: لحب «النبي» له، ولحب «أبي طالب» له، ولأن ولده مقتول في طريق «القربان»! ورابعة لا أراها تقل عن الثلاثة: كان سريع البديهة حاضر الجواب لاذع اللسان على «قريش»، متميزاً في «البراءة»، كما هو متألق في «الولاء».

إلّا أن هذا الفعل، سواء أكان تشريفاً منه وتكريماً لـ «عقيل»، أو ضرباً من الأخذ بالأسباب، لم يغيّر من حقيقة عزمه وأختياره، وسابق تعيينه وأنتخابه لـ «الفاضلة» التي ستكون وعاءَ يورث «أبنه» العتيد المجد والفضل من مجراه البشري الطبيعي، وهو يدس فيه من الأعراق أسماها وأشرفها، ويُسري فيه من الخصال أتمّها وأكملها.

وما كانت «فاطمة بنت حزام الكلابية» لتَكمُل في شيء، كما كَمُلَت في الإيمان والعرفان. والحق أن الناس أخذت بكرم محتدها، وهي التي ولدتها الفحولة من العرب، وليس فيهم بيت أشجع من بيتها، وذهلت بعظمة أبنائها الذين أنجبتهم لمولانا «أميرالمؤمنين». وهكذا أنشغل الناس بعطائها وتضحيتها، ودرجة صبرها وما بلغه تحمّلها في سبيل الله... عن أكرومة لعلّها أجلّ شأناً وأعظم خطراً، هي علمها وعرفانها.

كانت «أُم البنين» من أعبَد أهل زمانها وأزهدهم، ناسكة، معتكفة في محرابها، منقطعة عن الناس كراهبة في دير، لا تنفتل عن صلاة حتى تدخل في أخرى، ولا تفرغ من وِردٍ حتى تبدأ وتنشغل بآخر، ولا تنصرف من «أربعينية» حتى تشرع وتلتزم جديدة، ولا تفطر من صيام أو تخرج من أعتكاف حتى تُبيِّت النيّة لتال جديد يصله. وما كانت تخرج من صومعتها إلّا لعارض أو طارئ، حتى إنّ طعامها كان يأتيها إلى محرابها.

وبين أهلها حديث يهمسون به عن سبب تبتّلها في بيتها وأنقطاعها عن ملاقاة قريناتها، فيه أنها ترى صور الناس على غيْر ظاهرهم، وتشاهد لهم أشكالاً غيْر هيئتهم البشرية! فيقذيها ذلك ويزعجها... فقد بلغت في الصفاء والنقاء ما كان يكشف لها حقائق الناس وبواطنهم.

كانت ترى الرجل من «العامة» وهو على صورة الجرذ!

أمهَر شيء في السرقة والأختلاس، فـ " لا أسرق من فأر " ... يأتي القارورة ضيقة الرأس، فيحتال حتى يدخل ذَنَبه في عنقها، فكلّما أبتل بالدهن أخرجه فلَطَعه، ثم أعاده حتى لا يدع في القارورة شيئاً. ولا أعجب منه في الحيلة والتوبير، يطأ على مآخير أكُفّه ليخفي آثاره فلا يعرفه من يقتصّه!

وإن تعجب كيف مُسِخَ، أو كيف ظهر الرجال بصورة الجرذان...

فٱنظر كيف يخرج أحدهم من داره، كما يخرج الفأر من جحره، يرقص ويتوعّد، ويضرب بذنَبه، ثم يرفع صدره ويهز رأسه، فلا يزال كذلك حتى يخرج الجرذ الذي يقابله (جاره من داره)، فيصنع كصنيعه، فيعود أحدهما وينكفئ إلى جحره (داره)! لم يزل ذلك دأبها في الوعيد والفرار، وفي التناجز وترك التلاقي، رغم ما يظهر من جِدّهما وٱجتهادهما، وشدّة توعدهما، وكأنهما سيلتقيان بشيء أهونه العض والخَمْش. ولا والله إن ٱلتقيا قط!

مجتمع ٱستحكمت فيه الحيلة وتمكّن الخداع، وطغت ٱلنفعية والمصلحية والوصولية... يحتال كلٌّ في تأمين معاشه وترتيب وضعه وتكييف حالته:

لا يصطدمَنّ بسُلْطة، ولا يُخَسِّبَنّ على معارضة، ولا يُثيرَنَّ حاكماً أو حتى يهيجنّ شرطياً! رغم علمه وتمام الحجة عليه في فهمه وإدراكه ووعيه السياسي. بل إن المستغفَل منهم والجاهل، ٱختار لنفسه هذا الطريق ورضيه مع أول طلائع الضغط وبشائر التصنيف في «الرفض»! فٱنثنى وآثر «السلامة»، والٱلتحاق بسرب «الأكثرية»، مُكِباً على وجهه.

يرون الحق لا يعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه، فلا يُنكِرون مخافة فوت منفعة، ولا يبادرون خشية ضياع حطام، فيعيشون دنياهم في ٱنحطاط وحقارة، ويقضون حياتهم في خسة ودناءة.

فتعجب ـ سلام الله عليها ـ من وعيد دائم لا إيقاع معه، وفرار مستمر لا ثبات معه، ثم من هَرَبٍ لا يمنع من عودة، ومن إقدام لا يوجب ٱلتقاء؟! بالله كيف يتوعّد الرجل صاحبه ويتوعده الآخر؟ وبأي شيء يتوعده، وهما يعلمان أنهما لا يلتقيان أبداً؟ فإذا كان قتالهما ليس إلّا الصخب والتنييب، فلم يفر كلٌّ من الآخر ويدخل جحره؟

وبعد الجرذان والفئران واليرابيع، كانت ترى خلقاً على هيئة القُراد؟

والقُراد أول ما يكون «قَمقامَة» وهو الذي لا يكاد يُرى من صِغَر، ثم يصير «حَمْنانة» ولعلّه القَمّل، ثم يصير قُراداً، ثم يصير «حَلَمة». والقِردان يتخلّق من عَرَق البعير، ومن الوسخ والتلطّخ بالثلوط والسَلْح والأبوال.

والحَلَم يعرض لآذان الكلاب، فترىٰ الكلب يلوي عنقه ويميل برأسه ويرفع إحدىٰ رجليه ويعمد لمخالبه يحك بها أذنه ويخرج ما دخلها، بينما القُراد يعرض لعجز المطية وأستها، أما الخصي فيعرض لها النمل.

وكان العرب إذا خافوا الجَدْبَ تقدموا في عمل «العِلْهِز». و«العِلْهِز»: قِردان يُعالج بدم الفصد مع شيء من وَبَر. فيدّخرون ذلك كما يدّخر غيرهم، إذا خافوا الحصار، الأكارع (عظام سيقان الذبائح) والجاوَرْس (دقيق الذرة). فإذا جاعوا شووا «العِلْهِز» بالنار وأكلوه.

هٰذا كان شأن سواد السلطة وأعوان الظلَمة وأوباش الحكام، والرعاع الذين كانت «الشجرة الخبيثة» تلقيهم في لهوات حروبها الصامتة، ومناوراتها السياسية، تدسّهم وتبثّهم يعلقون بكل ذيل ويؤذون كل مَن وما يدبُّ على الأرض!... يحشدونهم على الكرام يشاغلونهم، ويعبئونهم على الأحرار يناجزونهم، ويرسلونهم إلىٰ أباة الضيم يؤذونهم، ويوكلونهم بمَن لم يخضع من الناس ويخنع ومن لم يطاوع ويتبع، يناورون ويساومون ويضاربون.

ذلك أن الفحل يَمْنَعُ أن يُخْطَم، فإذا أزالوا من قراده شيئاً، لذَّ لذلك وسكَن إليه ولانَ لِصاحِبه، فعند ذلك يُلقىٰ الخطام في رأسه ويخزم أنفه! وهٰكذا كانوا إذا أرادوا أن يستحثوا الإبل ويهيجونها في المسير، نثروا القردان بقربها، فإذا وجدت الإبل مَسَّها نهضت، بل إنهم كانوا يعمدون إلىٰ شَنَّةٍ يجعلون فيها شيئاً من القردان فيشدّونها في أذناب الإبل، فإذا سمعت صوت الشنة وقد عملت فيها القردان، نفرت، ولربما ندّت وتاهت!

كان الرجل منهم يسعى بين الناس، يخوض في الأندية والمجالس، يحاور ويناجز... وهو في حقيقته «قراد»، نشأ من السلح والروث والسفاح، ويقتات على النفاية والفتات، ويؤدي دوراً يناهز شأنه دناءة، وقدره خسة وحقارة.

إنهم «السواد»... ظهر جرذاناً وقراداً!

«العامة» الذين صلّىٰ بهم السلطان «الجمعة» ظهر الأربعاء، فكانوا يده التي سلّطها على النجباء، وسيفه الذي مكّنه من رقاب الشرفاء... يسوقهم إلىٰ مهالكهم، ويحتطب بهم ليوقد لهم نيران آخرتهم!

«السواد» الذي لولاه لظهر الحق على الباطل وغلّب، كثّر بهم عدده، وزاد قوّته، فسهّل قصده وحقق غايته. فلولا أن «بني أمية» و«بني العباس» وكل ظالم جائر، وجدوا مَن يكتب لهم في الديوان، ومَن يجبي لهم الفيء، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم... ما سلبوا أهل الحق حقهم، ولو تركهم الناس وما في أيديهم، لما وجدوا شيئاً يتطاولون به.

كانت المرأة الطاهرة الناظرة بعين الله ونوره، التي بلغت العصمة العملية، ودنت أن تكون حوراء إنسية... ترى في الناس، بعد تلك الطوائف، القردة والخنازير والكلاب، وأحناش الأرض من ضباب وقنافذ، وهوام وخشاش، وعقارب وحيّات، وترى بعضهم سِباعاً ضارية وضباعاً.

وبعد، فقد كانت «أم البنين» عالمة عارفة بـ «الإمام»، عاشقة لـ «المولى» وهي بعد فتاة في دار أبيها، يضمّها الخدر ويكتنفها الصون، لا تخرج ـ إن خرجت ـ إلّا لمسجد «النبي» صلى الله عليه وآله تزور قبْرَه الشريف، علّها تلتقي هناك أو في الطريق بـ «سبطه» الحبيب، فتغتنمُ نظرة منها إليه نظرة!...

وهي حيْرى لا تدري لِمَ تعلّق قلبها إلى هذا الحد بـ «الحسين» دون غيْره من ذراري «رسول الله» و«أهل بيته»؟ إن علمها لم يقصر بها عن إدراك فضل سادتها «أصحاب الكساء» على السواء، وأنهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى وأعلام التقى وذوي النهى، أرباب الولاية ومعادن الحكمة وتراجمة الوحي والتنزيل، والرحمة الموصولة والأمانة المحفوظة والباب المبتلى به الناس... كانت تعرف ذلك لهم جيداً وتحفظ مقامهم وتجل شأنهم، لكنها كانت تُكِنُّ لـ «الحسين» شعوراً خاصاً، وترتبط به بعلاقة تختلف شيئاً، ولم تعرف لذلك وجهاً ولا تفسيراً! ولعمري، متى كان لمثل هذا الحب وجه وتفسير؟

وقد حدثتها نَفْسُها مرّة أن قدراً يربطها بهذا «السيد» دون غيْره من «السادة»، وأحداثاً ومصيراً ينتظرها معه سيقرنها به، وأن ذلك هو مَرَدُّ هذا الحب وسرُّ خصوص التعلّق؟ ثم عادت وأستدركت: بل إن خاصة الحب وخصوص التعلّق هذا، هو الذي سيربط قدري به ويعقد مصيري معه، فهو معلول لا علّة، ونتيجة لا مقدمة؟!

كانت مستغرقة في النسك، منقطعة للعبادة، تقضي نهارها متبتّلة صائمة، وتحيي ليلها متهجدة قائمة، حتى إذا غلبها النعاس إلى سِنَة، وهوّمت عيناها بغفوة... رأت «المولى» الحبيب وزارته في منامها.

وفي مرّة رأت، لست أدري أمناماً كان ورؤياً، أم شهوداً ومكاشفة... رأت كأنها تسير في صحراء جرداء قاحلة، مترامية الأطراف، سَيْرَ مُهْتدٍ قاصد هادف، لا تائه ضال يبحث عن مأوىً ويتحرّى مخرجاً، حتى لمحت في المدى القريب واحة غنّاء، يجللها الغمام، وتهدل في سمائها الأطيار. فلما دنت رأت نخبة تفترش بساطاً وثيراً بطائنه الدِمَقْس وحشوه الإستبرق، وقد صفّت حوله الأرائك، فجعلوها متّكيات لهم، ليزداد قربهم من بعض. كانوا يتحاورون ويتداولون فيما بينهم أمراً، وراح بعضهم في السؤال وطلب الجواب، وبين أيديهم كتاب منشور وصحيفة تعرض، وسجل يطوى.

حتى إذا ما تراءت لهم «أم البنين»، وأشرفت عليهم من بعيد، ألتفتوا إليها، فما أبطؤوا أن عرفوها وميزوها، فأشاروا قائلين: هذه هي!

عندها أحست الحُرّة ورأت كأن القمر سقط في حجرها...

فتفاءلت خيراً وأستبشرت، وعلمت أن أسباب اللقاء قد أكتملت، وأن القدر آخذها إلى حيث تهوى، وبالغ بها ما ترجو وتتمنى.

* * *

دخلت «أم البنين» دار «علي» دخول السيدة المعظمة المكرمة، بل العظيمة الكريمة، النجيبة الأصيلة، لتثبت مع أولى خطواتها ما بلغه علمها ووصله عرفانها، وتحقق لـ «الأمير» ما أمّله في أختيارها ورجاه... فقد أشترطت أن تكون بمقام خادمة له ولبنيه. كما تمنت أن لا تُنادى بأسمها: «فاطمة».

وكنت أظن أن ذلك لئلا يتداعى لسكَنة الدار ذكر أمهم «الزهراء»، فتتجدد عليهم الأحزان والآلام... فظهر لي أن هذه علّة ثانية سبقتها أولى، أعظم وأخطر، هي الحذر أن يعقد تطابق الأسماء مقارنة، ويشير إلى مقايسة، ويلمّح إلى مفاضلة مما يجري عادة بين الضرائر؟! فهي تعلم أنها بلغت الذروة بمقام الخدمة، وما وراء ذلك هراء تعرف جذر تسويلاته.

وما زالت الفيوضات تنصب عليها والكرامة تحيطها والأنوار تجللها، ما تفانت في خدمة البيت وأهله، وأخلصت في حبه وأزدادت معرفة به، حتى سكن إليها «أمير المؤمنين» فكان الحمل المبارك.

يا له من حمل...

ويا لها من أسرار فيه وخفايا، عجائب وغرائب...

هذا «روح القدس» يردد من عليائه، ما نظمه في واحدة من حالات هذا الحمل، فيما كان بينه وبين «أمه»، وما بينهما والمولى «الحسين»:

«أم البنين» ببيتها وجنينها
في بطنها متوثب الحركات
تلقى «الحسين» إذا أتاها زائراً
فتقوم واقفة تحيي الآتي
فيقول: يا أماه لا تتحركي
فتجيبه: يا سيد الجنات
إن الجنين يقول: قومي وأنهضي
لأخ سيمنحني غداً راياتي
فأحس في جوفي أكفاً تعتلي
لتقيمني مرفوعة الجنبات
وأرى على شفة «الحسين» تحية
لأخيه يرفعها بخير صلاة

أما الميلاد فحكاية في حوار بين «علي» و«أم البنين»:

وحكاية بين الوصي وزوجه
حتى تكمل في الحشا النبراسُ
: «أم البنين» بمَنْ هتفت عندما
حمي المخاض وضاقت الأنفاسُ
قالت: بأسم السبط قلبي هاتف
فهوى أشتياقاً لأسمه «العباسُ»

أدرك المولود الميمون وهو في ساعته الأُولىٰ خصوصية خلقه!

فهو يرىٰ ويسمع، ويعي ويفهم، ويحيط ويعلم بكل ما يجري حوله، كمَن أتمت السنون خلقته وأكمل العمرُ نموَّه، وهو ما يزال آبن ساعته؟! لقد كان يسمع حديث القوابل عن جماله، وتحاورهن وعجبهن من أنواره وبهائه، وكان يشعر بشفتي «أمّه» الطاهرة تطبع أولىٰ قبلاتها علىٰ وجنته، وبـأيدٍ تحمله فتناوِله «أباه»... فأنتقل هـو إلىٰ العجب، حين رأىٰ وليَّ الله الأعظم وآيته الكبرىٰ يقلّب كفيه الصغيرتين ويقبّلهما، ثم شهد تقاطر دموع «علي» علىٰ وجهه، ورآها تغوص في كريمته الشريفة، تتوارىٰ وتختفي، وتخفي معها سراً كأنه ما أراد إفشاءه ولا رغب الساعة في كشفه!

بادرته الطاهرة، أم المولود الطاهر:

أفي ولدي عيب أو نقص أستدر منك الدموع يا «أميرالمؤمنين»؟

: كلا، ولكني أبكي لما سينال هاتين الكفّين.

: وما سينالها يا مولاي؟

فكأن الجواب جاءها:

ستحملان راية الحق، راية الله، رايتنا «أهل البيت»، في معركة أسس لها «المصطفىٰ» حين نادىٰ فوق «أبي قبيس»: "قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا"، ونهَجْتُ لها حين خرجتُ أنا إلىٰ البراز في «الخندق»... رسمت للقمة، وأشرت إلىٰ الذروة والغاية، وأقصىٰ ما يكون في العمل.

ستلتقي قمّتان... قمة الإيمان والإخلاص والطهر والعطاء الرباني، مع أقصىٰ الشرك ونهاية الكفر وغاية الظلم.

ستُقطَع الكفان يا «أم البنين» في نصرة ولدي «الحسين».

يريدون أن يُسقطوا الراية ويطفئوا النور...

وأنا أبكي هٰذه الهامة، تفضخ بعَمَدٍ من حديد، يهوي، أو يهوي به كل ما في الوجود من حقد وكره، لو ضرب به جبل لَخَرَّ وتدكدك. وأبكي هٰذه العين ينبت فيها سهم البَيْن، والأخرىٰ تجمد عليها الدماء!... وراح «المولىٰ» يكرر: "ما لي و«معاوية»؟ وما لِأبنائي وأبنه «يزيد»"؟

: أوَكائن ذلك يا «أمير المؤمنين»؟
: إي والله!
عادت بطفلها تناغيه، وأنثنت تريد أن تختلي بنفسها... وقد أبتعدت شيئاً، وأعرضت عمّن حولها من القوابل بإطراقة ووجوم، وما كانت ترمق رضيعها الذي في حجرها ولا تصب نظرها إليه كما يتوهم مَن يراها، بل كانت تحدق وترسل نظرها في الفراغ، في فجوة من الزمن وخلسة من المكان... في لا شيء! كانت في خليط مشاعر متقابلة، مزيج وتركيب غريب، جمع الفجأة والصدمة بآثارها من ذهول ووجوم، مع البأس والأعتداد بل الزهو والفخر! وقَرَنَ الخوف ـ أو قل الرهبة ـ والوجل، مع شعور عميق بشرف المسؤولية وخطر الدوْر، ونوازع القرب من مقام الولاية بشأنه ورسالته... كل ذلك في أوْجِه وذروته وأقصاه، ما أضناها وأرهقها أيّ إرهاق. لٰكنه ما نال من وقارها ولا أخرجها عن بِشْرٍ وهشاشة، وأبتسامة وبشاشة تكلّفتها في وجه بعْلها، «وجه الله»، علّها تصرفه عن أحزانه وتدخل شيئاً من السرور على قلبه الكسير.
ثم عادت إلىٰ حالها وأنصرفت إلىٰ شأنها... كأنها تبلّغت رسالة أنتظرتها طويلاً، وتلقّت إشارة البدء في دخول منعطف عظيم وأتخاذ الخطوة الأُولىٰ في عملية كبرىٰ طالما أرتقبتها وحسبت لها.
لم تكن مضطربة أو مرتبكة، كانت آمنة وادعة ساكنة. وكانت واثقة، ثقة العالِم المحيط بما يجري حوله، المطّلع المسبوق الذي لا يفاجئه شيء، ومطمئنة، طمأنينة المؤمن العارف الذي لا يتزحزح يقينه. فما خرعت ولا فزعت، بل تلقت الأمر ببأس القادة الشجعان، وواجهته بعزم وأقتدار الملوك، وأستقبلته بمُكْنة وسلطة الحكام... وهي نُفَساء أُخبِرَت الساعة بويلات ستحل بوليدها وفجائع ستنزل علىٰ بكرها!
وبعد هنيئة راحت تردد كمن يحدّث نفسه:
فدىٰ «الحسين»... ولَدي ونفسي.
وأخذت تكرر: فدىٰ «الحسين»، فدىٰ «الحسين».

وفي مرة قالت: «حسين الفدى»! لا أدري أكان سبق لسان منها، أم أنها كانت على معرفة بـ «القربان»، وتَحَسُّبٍ وآرتقاب، وعلم أنه به الفداء والأضحية والقربان الإلهي المنتظر؟

وقد ظهر لي أنها لم تكن تحدّث نفسها، ولا تنبس لطفلها أو تناغيه، بل كأنها كانت تسمع شيئاً فترد عليه، وكان ردّها: "فدى «الحسين»"! صوتٌ يصف لها الهول المنتظر ويعظّم الخطب القادم، وهو يعدّد ما سيلقى آبنها العزيز... فترد عليه: "فدى «الحسين»".

حتى جاءها من وليدها، أو أن السماء هتفت بجوابها على ما كانت تلقيه وتردّ به على ذلك الصوت:

"وهل آنتُجبت الحُرَّة إلّا لهذا"؟

صوت خلع عليها وساماً من العز لا يسامى، وكلّلها بتاج من الفخر خرق الدهر فنفذ وحكم، فسرى خالداً لا يفنى ولا يبلى. تردد مجده المجالس ما عقدت وأقيمت، وتعدد عظمته المنابر ما شيّدت ورقيت، ويلهج بذكره الخطباء ما أحسنوا وأجادوا، ويراه العاشقون والطالبون المفتقرون: مُراداً يتحقق بنذر، وحاجة تُقضى بدعاء، وأملاً لن يخيب بتوسل ورجاء.

ومع هذا الهاتف كفّ الصوت المنبئ وآنقطع! أو أنه آنقلب إلى لحن ونشيد جارى «أم البنين» في إهداتها آبنها، إذ جعلت تربت عليه بكفّها وتسكّنه لينام، فلا يسمع هذا الحديث المفجع، وهي تناغيه:

لك نفس من معدن اللطف صيغت

جعل الله كل نفس فداها

فيرد الصوت:

أمّ البنين طابت الأبناءُ * مِنْكِ كما طابت الآباء

ثم قطع «الأمير» عليها ما آسترسلت فيه، وسألها:

ما أنت مسمّيته؟

: ما كنت لأسبق «أمير المؤمنين» أباه.

: إنه «العباس».

ومع ذكر أسم «العباس»... هبت ريح شديدة، ولكن دون أن تثير غبرة أو تهيج عجاجاً، وأخذتنا معها هزّة وزلزلة، وأرتفع صوت أخذ يتصاعد كدوي خشرم عظيم من النحل يقدم من بعيد، وتراءت في السماء سوادة مخروطية الشكل كانت تحوم أفقياً، لم تكن تنزل من السماء وتنحدر، بل كانت تسبح وتقبل نحونا تقدم من موضع آخر من الأرض. لعلّهم قدموا من «الجزيرة الخضراء» كما يهمس بعض ويؤكد، أو أنهم نشروا من قبورهم فتقاطروا وتجمّعوا في موضع أنطلقوا منه إلى هنا... نعم، فبعض مَن في هذه الكوكبة ـ الغمامة متّشح بكفنه، وأنا أعرفهم أمواتاً منذ عهد بعيد!

فلما قربت السوادة ودنت من مقصدها، وصارت كأنها فوق رؤوسنا، أخذت تضيّق قطر دورانها وتحسر نطاق سبحها وحومها حول المكان، حتى أستقرّت فوق دار «أميرالمؤمنين» تظلله كالغمامة العظيمة، تتهادى من ثقل وتتموج من شوق وحماسة.

كانت كوكبة من ملائكة، وجماعة من بشر، وطائفة من أبرار الجن، وثلّة من سكان الكواكب والنجوم، جمعوا الحسن والقسامة والرواقة مع الجسامة والعبولة والقوة، في جَدْل وعَصَب، ومُحْكَم فَتْلٍ، كأنهم فتيان خلقوا للنجدة وأبطال أعِدّوا للقتال، عليهم سيماء النجباء، وفي قسماتهم ما يجزم بأنهم سُراة أقوامهم وكرام أجناسهم وأماجد الخلق طرّاً.

يجردون سيوفاً هندية قشيبة تبرق، ويشهرون أُخرى أنصالها من نور أحمر، في أيدي بعضهم صفائح ورماح أسِنّتُها ضوء أبيض، تقذف من رؤوسها الشواظ دون أن يرميها صاحبها ويرسلها من يده، بل يكفيه أن يومئ بها ويشير إليها فتنطلق منها قذائف الضوء، تفتك بمَن تلاقي وتحرق من تصيب، فيتلاشى في الآن ويتبخّر كهباء منثور!

جمعهم «فطرس» وتقدمهم، يقودهم كاليعسوب.

إنهم من «المنتقمين»، يحملون رايات «يا لثارات»، أنصار «المهدي المنتظر»، جاؤوا يبايعون واحداً من أعظم قادة جيشه العتيد... إنهم نخبة الجند في الكتيبة التي سيقودها «العباس» في «الرجعة».

«الرجعة»... ما إن سمعت بهذه الكلمة حتى أنشرح صدري وأنفرجت أساريري وأنبسطت روحي وطابت نفسي، وكأن حبيباً لي قد ذكِر أو قريباً قد وُصِل! لطالما كانت «الرجعة» توقي وشوقي، أمنيتي وأُمنية كل شائق يتمنى من مؤمن ومؤمنة ذَكَرًا فحنّا... «الرجعة»: مُلتقى العاشقين ومجمع المتطلّعين وموقف العارفين وموعد المنتظرين، وهي بعد، عزاء المضطهدين وأمل المظلومين وسلوة المقهورين.

عقيدة العودة إلى الحياة ثانية بعد أنقضائها بالممات، ليستدرك المؤمّل ما فاته من الأولى... حياة دنيوية جديدة، تعمُّ فيها العدالة ويحكم الحق وتطبق المساواة، فيحظى المظلوم المقهور بالإنصاف وينال من ظالميه، وهو يُنْزِل بهم ما يبرّد غليله من نقمة بإقامة حدود الله المعطّلة، ويقيم عليهم ما يشفي صدره من غيظ بالقصاص. يزدهر العلم وتتفجر كنوزه وتُستبر أغواره وأعماقه حتى يحقق العالم تطلّعاته ويبلغ ما عجز عن إدراكه في حياته، فتُكتشف مكنونات الأشياء، بل تكشف الأشياء عن مكنوناتها بلا جهد ولا مؤنة ولا عناء، وتسفر الحياة عن حقائقها وتظهر الطبيعة أسرارها، في بُعدها المادي الحسي، ومختلف حقول العلوم، كما في المعنوية الغيبية، فيدرك السالك غايته ويبلغ العارف أمله، ويصل مراده وينهل من صافي معين «إمامه». وتعمر الأرض بالعبادة والطاعة والتقى، كما ترفل بالأمن والسلام، والرخاء والغنى... تنتشر الفضيلة وتسود الأخلاق ويُطبِق الجهال ويفشو الحب، فيسكن الناس ويطمئنون، ويقرّون ويأنسون، يشبعون ويروون، يصحّون ويسلمون، يثرون ويستغنون، يتعلّمون ويتفقهون... فتسمو الأنفس وتكمل العقول، وتتحقق غاية الخلق، إذ يُنجز الله وعده للذين أستضعفوا في الأرض فيَمُنّ عليهم ويمكّنهم فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين.

كل ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وفي هذه الحياة قبل القيامة الكبرى والمعاد، إذ تزول هنالك كل الأعتبارات. ينقطع الإنسان عن الحياة الدنيا وينسلخ عن قوانينها، وتنقلب أمانيه وتتغيّر آماله، فلا زمان في النشآت الغيبية ولا مكان، ولا حيث ولا أعتبار...

فلَم يجعل الله سبحانه وتعالى الأمر كمَن يَعِدُ مريضاً بالشفاء والمعافاة والبرء والسلامة، ويمنّيه خلاصه من آلامه وخروجه من محنته، ثم يحقق له ذلك بالموت، حين لا مرض ولا ألم ولا معاناة! أي أن يجعلها سالبة بأنتفاء الموضوع؟ فكأن الأمر ـ حاشَ الحكيم ـ لغو وعبث في المقاصد، وأزدراء للحِكَم والغايات... وهي ـ على صعيد البشر ـ دعوة ترسخ الهزيمة وأمر يبعث على القنوط واليأس من هذه النشأة، والأستسلام لغلبة الباطل فيها، وتدفع لأستقبال الموت وإهمال الحياة، ما يتعارض وغاية بعث الأنبياء ونزول الإنسان، ولا يلتقي مع وعده ـ سبحانه وتعالى ـ بأنتصار أوليائه ووراثتهم الأرض.

إن كمالات وغايات الدنيا تقوم ـ في جلّها ـ على أمور أعتبارية، متضايفة ومتقابلة وأنتزاعية وما إلى ذلك، وهذا ما يجعل اللذة والسعادة فيها تختلف عن عالم المجردات، أو عن الحقائق الكاملة.

إن لذة الملبس ـ على سبيل المثال ـ تنحسر إلى أضيق نطاق إذا كان الإنسان وحيداً في جزيرة نائية... فلِمَن عساه يرتدي زاهي الثياب وجديدها، وقشيب الحلل وفاخرها؟ بعد أن يكف الحر والبرد عن جسمه ويحميه مما يتهدده؟ كم يبقى من قيمة الثوب حيث لا ناظر ولا مُشاهِد؟

إن العبد المملوك الذي ينتظر العتق والتحرر ويتمنى الخلاص من الرق، يريد ـ في حقيقة الأمر ـ شيئين، لا شيئاً واحداً:

يريد الحرية، ويريد عدم العبودية.

فهو كما يريد أن يحصل على الحرية ليعيشها ويستشعرها كمعنىً مستقل قائم بذاته، ويتحرق ليتذوق هذه القيمة بما هي هي... فهو يريد معها شيئاً آخر. يريد أن يكون في الضفة الأخرى من التقسيم الطبقي أو الأجتماعي، يريد أن يستطعم لذة أن يكون سيداً... بأن لا يكون عبداً.

ولا يكون ذلك إلّا في عالم فيه عبيد وإماء، وأحرار وأسياد. أي، في نفس ذلك العالم الذي أضطُهِد فيه، ونفس الأجواء التي قُهِر فيها وأحتُقر، وعانى ذل العبودية وأمتُهن.

هناك نزعة طبيعية، تكاد تكون فطرية، تقرر أنّ أمل العبد في الحرية، يختزن تطلّعه لحياة حرّة، ولكن فيها عبيد (غيْره، بطبيعة الحال!). وينطوي على رغبة دفينة، هي شيء آخر، غيْر محض التحرر والخلاص من الرق، رغبة تقتضي وجود «آخر»، ما يفسح للتفاضل والمقارنة والقياس، ومن بعد ذلك التفوق عليه وإرغامه!

وإلّا فلا معنى للأرتواء حيث لا عطش ولا ظمأ، ولا للشبع حيث لا جوع ولا سغب، ولا للنقد والمال حيث لا أسواق ولا سلع تباع وبضاعة تُشترى، ولا شيء يُمتلك، وإنما يصبو الفقير إلى الغنى ويرغب في الثراء حتى يباهي بأمواله ويبلغ اللذة التي لا تكون إلّا بنَيْل ما حُرِم، وبالمقارنة والمقايسة مع مَن أمتهنه لضيق ذات يده وعيَّره بفقره وعوزه...

إنه عالم الكَثَرَات وهذا شأنه، وهذه هي دنيا الأعتبارات وهذا أمرها... اللذة فيها تُنتزع وتُستخلص من أسبابها، ولا تتحقق السعادة ولا تسكن النفس ولا تقر ولا تشبع، إلّا بكيفية خاصة تستمد من طبيعتها وتراعي شأنها وخصوصيتها.

وهكذا المؤمن الرباني والإنسان الإلهي، الذي عاش حياته منقطعاً إلى ربه، مخلصاً لدينه، ملتزماً شرعه، متعالياً على حاجاته الخاصة، متسامياً على جراحه ومطالبه الشخصية المادية، تراه يتطلّع لقيم الحق والعدالة... فإنه يريد أن يرى ـ في هذه الدنيا ـ ما يقر عينه في دينه، من إقامة حكم الله وسيادة أولياء الله، وأن يهنأ برؤية هوان أعداء الله، يريد أن يشفي صدره بِذُل الطواغيت الظلمة وأعوانهم الغاصبين.

ولعل الآيات القرآنية الكريمة التي تصوّر محاورة أهل الجنة أهل النار، وتخاصم أهل النار فيما بينهم، رغم ما تنطوي عليه من أجواء تحقيق الوعيد ونفحات «الشماتة»... تراها لا تشفي غليل المؤمن الذي قضى حياته يعاني من ظلم الطغاة وقهر المتجبرين، ويقاسي الأمرّيْن من أستكبار أتباعهم وفسق أعوانهم وعهر الناهضين بأحتجاجهم. وتراه لا يكتفي بما وعد الله المتقين من رؤية خصمائهم معذبين في النار!

لا يكفي هذا في دفع النفوس للعمل في سبيل تحقيق العدالة في «الدنيا»، ووراثة الأرض في «هذه الحياة»، ولا يشفي الصدور من غيظ نالها في «هذه النشأة»... لا بد من ﴿أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا بد مما ﴿يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، لا بد من نصر للمؤمنين ونقمة على أعدائهم يكون ميدانها هذه الدنيا قبل الآخرة، لا بد من يوم للمظلوم على الظالم، هنا، حيث ظلَمه.

كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يوفر للبشرية وهي تسعى لكمالها وتتطلّع لقيم الحق، ما يكون طاقة يوقد شعلة الحياة فيها ويذكيها، ووقوداً يدفع، وعنصراً يحفّز، فوَعَدَها بتحقيق العدالة وإظهار الحق في هذه الدار، وفي هذه النشأة، وهي على ما هي عليه من الموازين والاعتبارات!

لم يبتَلِها ـ سبحانه وتعالى ـ بما ابتلى به «بني إسرائيل» خاصة، دون الأمم، إذ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾!... ولست مُبالغاً ولا مغالياً أو مُتحاملاً لو استطردت هنا فعزَوْتُ ظاهرة «الانتحاريين» التي تعصف بالساحة الإسلامية اليوم، إلى بُعد هؤلاء في معتقداتهم عن مدرسة «أهل البيت»، وعن عقيدة «الرجعة» والوعود الإلهية بالنصر والثأر في هذه الدنيا، ما جعل اليأس يتملّكهم والعجز يستولي عليهم، فأصبحوا أدوات تبث ثقافة الموت ووسائل تنشر كُره الحياة، بل غدوا بؤراً تبعث الكُره والضغينة، وتبني السدود وتنصب الحواجز دون أن تنظر البشرية إلى الدين الحق.

إن الله سبحانه وتعالى دعا الإنسان للعيش، وغرس في فطرته حب الحياة، ودفعه للتمسك بها واتخاذها وسيلة تسمو به وتكمّله، حتى جعله خليفته على الأرض، وحضّه على إعمارها وتنشئة نفسه في هذه «المزرعة»، وبناء روحه وصقلها في هذا «الحقل»... وعبّأه لذلك وحفّزه، فجعل له موعداً: محطة تتحقق فيها طموحاته، وأمّله ومنّاه أن تكون هذه الأرض وهذه الحياة الدنيا، ميداناً تظهر فيه كلمته ومسرحاً تبلغ فيه غايته.

وهي «فكرة» من العمق والرسوخ والطبيعة، ما جعل لها موقعها في العقل البشري والوجدان الإنساني، فكانت مطّردة ضرورية على مرّ العصور والأديان، وتوالي الأمم والحضارات، وكأنها بديهة تنطلق من الفطرة... ولكن الأولين شطحوا وضلّوا، فاستعاضوا بها عن القيامة الكبرى و«المعاد»، وظنوها «تناسخاً» وحسبوها «تقمّصاً»...

أن يعود المرء إلى هذه الحياة بعد موته، أو أن تكون له أطواراً متعددة من الحياة والموت... حقيقة أشار إليها سبحانه وتعالى في مواضع عدة، منها قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ وهكذا في: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾... وغيرها من الآيات الكريمة.

وإذا تصفحت وتدبرت، وجدت كثيراً من الآيات ورد تفسيرها في أحاديث أئمة الهدى تارة بـ«القيامة» وأخرى بـ«الرجعة» وثالثة بـ«الظهور»، وليس ذلك إلّا لوحدة وسنخية بين هذه المعاني. والناس لما لم يبحثوا عن حقيقة «يوم القيامة» ولم يستفرغوا الوسع في الكشف عما يعطيه القرآن الكريم من هوية هذا اليوم العظيم، تفرقوا في أمر هذه الأحاديث، فمنهم من طرحها ورفضها (رغم أنها مئات، وربما زادت على خمسمئة رواية في أبواب متفرقة!)، ومنهم مَن أوّلها (رغم ظهورها وصراحتها)، ومنهم ـ وهم أمثل طريقة وإنصافاً ـ مَن نقلها ووقف عليها من غير بحث.

أما غير الإمامية من عامة المسلمين، فإنهم وإن أذعنوا بظهور «المهدي» ورَوَوْهُ بطرق متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لكنهم أنكروا «الرجعة» وعدّوا القول بها من مختصات الشيعة. وربما لحق بالعامة في هذه الأعصار بعض المنتسبين المحسوبين على الشيعة.

فشطحوا حتى عدّوا ذلك من «الإسرائيليات» التي دسّها «عبدالله بن سبأ» وأضرابه! وبعض غَلَبَه الخرَص وطغَتْ فيه «الحداثة» وأستولى عليه الشيطان، فراح يهذي ويهذر ويبربر بترهات بسابس، يقحم فيها الدين بالسياسة، ويخلط العلم بالإعلام والصحافة، ويربط المصالح والأغراض الشخصية بالفكر والعقيدة... فينادي بـ «الأنفتاح» و«الوحدة» ويبح صوته ويفني عمره في طلبها، حتى يتنكّر لخصوصيات مذهبه ويتبرأ من معتقدات ملّته، وينسى مشيته ويتخلى عن هويته، ويلتحق ـ في واقع الأمر وحقيقته ـ بالعامة، منسلخاً غاوياً، وقد داس في طريق «الوحدة» هذا، وسحق في سبيل تقربه من الآخر و«أنفتاحه» عليه، ما عَلِمَ وما جهل ولم يَعَلَم من معتقدات تقوم على جبال من الأدلة، وشعائر دينية في غاية الخطورة، وأحكام شرعية بمنتهى القدسية... كانت عقيدة «الرجعة» واحدة منها.

ولست براد على الجاهلين إلّا بالإعراض والسلام ومرور الكرام، ولا متصوراً حواراً علمياً مع سياسيين متلونين، ولا مجيباً على خطاب إعلامي يتهالك صاحبه ويستميت في سبيل الظهور، قد أصمّته شهوته عن سماع الحق، وأبكمته أضواء الشهرة وأجواء الأختلاط و«الأنفتاح» عن البوح بما أيقنت نفسه وجحد لسانه، وأعماه بريقها عن رؤية عاقبته، وهو يتقلقل بين أطباقها الساعة قبل «الساعة»!

لست محاوراً هذا السياسي وذاك التاجر وهؤلاء الوصوليين، وإن تجلببوا بلباس العلم وأهله، وأرتدوا مسوح الدين وأتباعه، ورفعوا شعارات نصرته وإنقاذه، وزعموا الحداثة ونادوا بالإصلاح... إنهم ـ في الحقيقة ـ يفاوضون ويقايضون ويبرمون الصفقات، ولا يحاورون بالدليل أو يناظرون بالحجة، إنهم تجار يتنافسون وغرماؤهم، يناورون ويوجهون الرسائل إلى الحكام والملوك وأولياء «الشجرة الملعونة»، ينادون على أسعارهم ويعلنون عن مدى أستعدادهم للبذل ولأقتراف الجرائم في سبيل مآربهم، ويستطلعون كم عسى أولئك أن يفسحوا لهم ويمنحوهم من مجالات الإعلام ونطاقات السياسة ومنابع المال ويخلون لهم مراكز السلطة التي يمسكون بأزمّتها؟

بماذا عساني أساوم مَن جعل الدين سلعته والعقيدة بضاعته؟ وكيف لي بحوار من باع دينه بدنياه، أو أتباعهم الذين باعوه بدنيا غيْرهم؟!

وإن أستحق أحد من منكري «الرجعة» ورافضي هذه العقيدة أن يُناظر ويحاوَر ويُرد عليه، فهو مَن رام إبطال «الرجعة» بما زعمه من الدليل العقلي وظنه برهاناً... فهو على وَهْنِه وتهافته، لجأ إلى الميدان العلمي والحقل الصحيح لبناء الأفكار وتشييد المعتقدات، لا إلى السياسة والصحافة والتجارة وأضرابها، فقال ما حاصله:

إن الموت بحسب العناية الإلهية لا يطرأ على حي حتى يستكمل كمال الحياة، ويخرج من القوة إلى الفعل في كل ما له من الكمال، فرجوعه إلى الدنيا بعد موته رجوع إلى القوة وهو بالفعل، وهذا محال. إلا أن يخبر به مخبر صادق وهو الله سبحانه أو خليفة من خلفائه، كما أخبر به في قصص «موسى» و«عيسى» و«إبراهيم» عليهم السلام وغيْرهم. ولم يَرِد منه تعالى ولا منهم في أمر «الرجعة» شيء، وما يتمسك به المثبتون غيْر تام. ثم أخذ في تضعيف الروايات فلم يدع منها صحيحة ولا سقيمة.

ولم يدرِ هذا المسكين أن دليله هذا لو تمّ «دليلاً عقلياً» أبطل صدرُه ذيلَه، فما كان محالاً ذاتياً لم يقبل استثناءً، ولم ينقلب بإخبار المخبر الصادق ممكناً. وأن المخبر بوقوع المحال لا يكون صادقاً، ولو فرض صدقه في إخباره أوجب ذلك ـ اضطراراً ـ تأويل كلامه إلى ما يكون ممكناً، كما لو أخبر بأن الواحد ليس نصف الاثنين، فعلينا تأويل قوله وحمله على غيْر ظاهره.

وما ذكره من امتناع عَوْدِ ما خرج من القوة إلى الفعل إلى القوة ثانياً، حق، لكن الكلام في «الصغرى»، وهي ممنوعة.

فإنه إنما يلزم المحال المذكور في إحياء الموتى ورجوعهم إلى الدنيا بعد الخروج عنها إذا كان ذلك بعد الموت الطبيعي الذي افترضوه، وهو أن تفارق النفس البدن بعد خروجها من القوة إلى الفعل خروجاً تاماً ثم مفارقتها البدن بطباعها. وأما الموت «الاخترامي» الذي يكون بقسر قاسر كقتل أو مرض فلا يستلزم الرجوع إلى الدنيا بعده محذوراً.

فإن من الجائز والمعقول أن يبقى أستعداد الإنسان لكمال موجود في زمان بعد زمان حياته الدنيوية الأولى، فيموت ثم يحيا لحيازة الكمال المعد له في الزمان الثاني، أو أن يبقى أستعداده لكمال مشروط بتخلل حياة ما في البرزخ فيعود إلى الدنيا بعد أستيفاء الشرط، فيجوز على أحد الفرضين الرجعة إلى الدنيا من غير محذور المحال...

وأما ما ناقشه المنكرون لـ «الرجعة» في كل واحد من الأحاديث ففيه:

أن الروايات متواترة معنىً عن أئمة «أهل البيت» عليهم السلام، حتى عُدَّ القول بـ «الرجعة» (في تراث المخالفين وأدبياتهم)، من مختصات الشيعة وأئمتهم، وذلك من لدن الصدر الأول. والتواتر لا يبطل بتعرّض آحاد الروايات للخدشة وقبولها المناقشة. على أن عدة من الآيات النازلة في «الرجعة»، والروايات الواردة فيها تامة الدلالة قابلة للأعتماد.

آه أيتها «الرجعة»... يا يوم الله ووعده الذي لا يخلف، يا حبيبة الأحرار ومعشوقة كرام النفوس وأمل الأباة، يتطلّع إليك المضطهدون، ويرتقبك المظلومون، ويرجوك العظماء المغمورون!

هل عانيتَ من الإهمال والإقصاء يوماً أو دوماً؟

هل أضطهِدتَ لمذهبك وظُلمت لمعتقدك؟

هل تعرّضت للتمييز بسبب لونك وأصلك وعرقك؟

هل قتلت البيروقراطية طموحك وجمّدت قدراتك وإبداعاتك؟

هل تخطّاك المتزلفون بعذب ألسنتهم وتفوّق عليك المتملقون بحِيَلِهم؟

هل صادروا حقك في منصب ودور ومقام؟

هل أفسدوا عليك مشاريع كان يمكن أن تنقذ بها بلدك وقومك؟

هل همّشتك المحاباة وأقصتك الواسطة؟

هل عانيت وقاسيت في سبيل عرض قدراتك وإثبات كفاءتك وأولويتك؟ فسبقك الوصوليون بملتوي أساليبهم، وغلبوك وهزموك، وتركوك وهمومك، لا تدري لمن تشكو وكيف تصنع؟ فأنت عاجز عن مجاراتهم في ميدانهم هذا، تبعدك روحانيتك عن مواجهتهم والتصدي لهم؟

إذا كنت كذلك، فأنت منتظر للرجعة، مرتقب لدولة الحق والعدل التي لا محاباة فيها ولا تمييز، لا نفاق فيها ولا رياء، لا حِيَل ولا ٱلتواء... يعرفك القائد بسرائر نفسك، وحقيقة قدراتك، وخالص نيّاتك. فلا يجشّمك عناء العرض والسعي، ولا تصرف وقتك وجهدك في إسقاط الحواجز دونه ورفع الموانع عن بيان حالك إليه، بل ينتقيك ويختارك، ويقيمك من بين الأموات لتنهض بما يمكنك وتعمل بما يكملك.

ما ملكت نفسي، ومعي جمع عظيم من النُظّارة والحضور هنا، ونحن نرىٰ هٰذه الكوكبة العظيمة، إلّا أن ردّدنا معاً:

ثبتني الله أبداً ما حييت علىٰ مُوالاتكم ومحبتكم ودينكم، ووفقني لطاعتكم، ورزقني شفاعتكم، وجعلني من خِيار مَواليكم التابعين لما دعوتم إليه، وجعلني ممن يقتص آثاركم ويسلك سبيلكم ويهتدي بهداكم ويحشر في زمرتكم ويكِرُّ في رجعتكم ويملّك في دولتكم ويُشرّف في عافيتكم ويُمَكّنُ في أيامكم وتَقَرُّ عينه غداً برؤيتكم.

منظر يُزهدك بما في أيدي القوم، أتباع «الشجرة الملعونة» وأولياء الباطل بمختلف أشكالهم وشتّىٰ أزيائهم، من مال وجاه، ويسقط من عينك ما هم فيه من سلطة وقدرة، ويرفع همتك ويرتفع بك إلىٰ حيث يجب أن تكون، من الثقة بالنفس والشعور بالمكنة والعزم والقوة.

❁ ❁ ❁

دخلتني فرحة عظيمة وأنا أرىٰ «فطرس» ثانية، وأردت أن أدنو منه وأقترب، أحدّثه وأُجدد به عهداً، ولربما أشكو ما أُعاني من الضعف والحجب وأرجو أن يعينني ويأخذ بيدي... لٰكن الوضع لم يسمح لي بشيء من هٰذا ولا ذاك، فتبعت الجمع الحاضر وٱلتزمت معه، فقد أفرج النظّارة هنا لهٰذه الكوكبة وأوسعوا، حتىٰ أخلوا لهم المكان وتركوهم يباشرون طقوساً جاؤوا يقصدونها، وٱكتفينا جميعاً بمراقبتهم.

كان الغضب يغلب الفرح فيهم، كما يغلب الحزن، والنصر يقهر الهزيمة، والقوة والبأس لم تترك للضعف والعجز محلاً... لعمري هل طغىٰ آسم «العباس» عليهم حتىٰ سرىٰ ـ تكويناً ـ في أحوالهم وأشكالهم! فقد لاحظتهم يلتفتون إلىٰ بعضهم بعضاً متعجبين، وكأنهم لم يكونوا علىٰ هٰذه الهيئة والقوة من قبل، إذ صار أحدهم يشعر أن فيه بأس أربعين رجلاً، وفيه من العزم والشدة حتىٰ لو شاء لبطش بطش الليث الهصور.

كانوا يتقدمون واحداً تلو آخر، يعرّفهم «فطرس» بأسمائهم وأسماء آبائهم وينسبهم إلىٰ بلادهم وأوطانهم وقبائلهم، وقد آنحنىٰ الملَك حتىٰ أدنىٰ شفتيه من أذن «أبي الفضل» في مهده، ينتقل من اليُمنىٰ إلىٰ اليُسرىٰ، كأن مَقسَماً صنّف بعض الجند لتتلقىٰ هٰذه الأُذن آسمه وآخرَ تلك! أو أنه جارىٰ ـ متعبداً ـ هيئة «أمير المؤمنين» وفعله حين أذّن في واحدة وأقام في الأخرىٰ... لست أدري. فإذا عرّف أحدهم، تقدم وآستلم يمين «العباس» ثم يساره المُستَلّتَيْن من قماطه وقبّلهما، وهو يتمتم بعبارة لم أتبينها، ولٰكنها بدت ضرباً من العهد والبيعة، ثم يرجع القهقرىٰ، فلا يستدبر حضرته الشريفة. فإذا خرجوا من الدار، آرتقوا في الفضاء وآصطفوا في مواقعهم التي آنحدروا منها.

حتىٰ أكملوا جميعهم مراسم الزيارة والبيعة، وعادوا للآصطفاف في سماء «دار علي»، ورايتهم بيد «فطرس» تخفق أمامهم... آرتفعت أصواتهم بنشيدهم، وأخذوا يهتفون بشعارهم ويدعون:

اللهم إن عدوّك قد آستسنّ في غلوائه، وآستمرّ في عدوانه، وأمن بما شمله من الحِلْم عاقبة جرأته عليك، ولك اللهم لحظات سخط بياتاً وهم نائمون، ونهاراً وهم غافلون، وجهرة وهم يلعبون، وبغتة وهم ساهون... وقد آشتد الخناق وآحتد الوثاق، ومحيت القلوب وتنكّرت العقول، والصبر قد أودىٰ وكاد أن تنقطع حبائله.

وأنت لبالمرصاد من الظالم، لا يُعجلك فوت دَرَك، ولا يُعجزُك أحتجاز محتجز، ولك بطشة الأناة وعقوبة التأييد. اللهم قرِّب ما قد قرُب، وأورد ما قد دنا، وحقق ظنون الموقنين، وبلّغ المؤمنين تأميلهم من إقامة حقِّك ونصر دينك وإظهار حُجّتك والأنتقام من أعدائك.

والمولود العظيم يسمع كل ذلك ويراه، وهو بين الحيرة والعجب، فما هٰذه إلّا دقائق معدودة مضت على ولادته، لا يتجاوز مجموعها ساعته الأولىٰ في هٰذه الدنيا... لعمري، أي دنيا هٰذه التي تنتظره، هجمت عليه بثقلها وحلّت بأعبائها وحطّت وهو للتوّ قد لُفَّ في خِرق القوابل؟!... وكان ـ عليه صلوات ربه ـ يغالب أربطة القماط، يطلق ساعديه من بين لفائف وخيوط شدّته كلما أعادوهما إليه، كأنه يستل سيفاً من غمده، فقد عزم وقرّر، أن لا يطوي هاتين الذراعين ولا يحبسهما شيء!

كان يشعر في نفسه بالتركّب والأزدواج، بـ «أثنينية» غريبة مقلقة، لا على نحو وكيفية صراع السبيلين وصدام النجدين، فشاكرٌ يغالب كفوراً، مما يكون في كل نفس بشرية، حين تنازع فطرةُ الحق وغَرْسُ الله سبحانه وتعالىٰ، شهوات الباطل وهمزات الشياطين، وتحتدم المعركة بين جنود الرحمٰن وجنود إبليس، وما إلىٰ ذلك مما بين العقل والهوىٰ... بل جوهر مركب وأزدواج من طبيعة أُخرىٰ وكيفية مختلفة.

وكأنه ـ عليه صلوات ربه ـ لم يتبين بعد تمام ما ورث وجاءه من أبيه «جامع الأضداد»، ولا أحاط بطبيعة تكوينه، وغلَبة النور فيه، التي جعلت وجاءت بقبضة طينة خَلْقِه من «عِلّيين».

فأجتمع العبوس والكريهة والغضب والشدة، مع اللين والحلم والبِشْر، والتقىٰ بلطف القمر وجماله، ونوره وبهائه. أئتلفت قسوة الحرب وضراوة الميدان وكره القتال، مع رقة المناجاة وأُنس الوصال وسكينة اليقين وأمان الإيمان ووقار الطمأنينة.

فالعلم في عميق بحوره وعالي أجوائه وسامي فضائه، وضرورة التفرغ لطلبه والأنصراف لأداء حقه... لا يلتقي مع الأنشغال بالسياسة والتصدي لتدبير أمور البلاد ورعاية شؤون العباد، ولا مع مناجزة الأعداء وإبطال كيدهم وتآمرهم.

والتقى الذي ينفض بيت المال فلا يُبقي فيه صفراء ولا بيضاء إلّا صُرفت في مقصدها وبلغت مستحقها، والورع عن سلب نملة جلب شعير، مقابل أن يُعطى الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها... لا يستقيم مع التصدي للفتن وخوض الحروب وسقي الأرض من دماء الأعداء.

والزهد الذي يكتفي من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ويرقع مدرعته حتى يستحي من راقعها، ويرى شسع نعل مهترئة يخصفها أهونَ من الدنيا بما فيها... لا يكون في من يملك خزائن الأرض وأموال الدنيا.

والقتّال الذي فتك حتى ما أبقى بيتاً في العرب إلّا أدخل فيه النوائح... لا يكون بكّاءً ترتعد فرائصه في المحراب.

والصنديد الذي يجدّل الأبطال ويفلق الهام فلا يطرف له جفن ولا تأخذه في الله لومة... لا يُبكيه مرأى يتيم جائع، ولا توهي جأشه أرملة شهيد تشكو العوز، ولا يُفجعه أحتمال أنّ في الحجاز أو اليمامة، في أقصى الأرض وأدناها، مَن لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع.

والصابر عن حقه المضيع دهراً، الحَمُول العَزُوف المحتسب، الذي تجرع الغصص وتجلّد على مضض المحن، فقاسى أفجع الفجائع ولاقى أعظم الدواهي والخطوب، الكاظم الذي شهد الهجوم على داره، ورأى حرق بابه، وعصر حليلته، وكسر ضلعها، وإسقاط جنينها... لا يضنيه «أخو غامد»، الذي وردت خيله «الأنبار»، وقتل «حسان بن حسان البكري»! ولا تنفصم عرى صبره لما بلغه أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهَدَة فينتزع حجلها وقُلبها وقلائدها ورعِاثها، ما تمتنع منه إلّا بالأسترجاع والأسترحام، حتى يقول: "فلو أن أمرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً".

حقول متضاربة وميادين متضادة، وطباع في القضايا وأمزجة في الأشخاص متعارضة. ثم خصال موروثة وكمالات مكتسبة، سعي لشحذ مواهب، وإذكاء وصقل لأخرى. سير وسلوك، علم ورياضة، جد وآجتهاد، وأكبر الجهاد: أن يغلب، بل يصرع المرء نفسه ويقتل هواه...

هكذا صيغت شخصية «العباس»، وبنى الرجل نفسه...

فأصبح العظيم الذي له مقاييسه وموازينه الخاصة، سواء في الحكم عليه أو في ما قيّد به نفسه وألزمها به... له آنشغالاته وله أولوياته، له طباعه وآستئناسه، له مِزاجه الذي شبّت عليه روحه كما بني جسمه، ما ميّز شخصيته، وجعله ينفرد بِسِمَةٍ لم تُعرف في غيْره.

زال الآزدواج وسقط التضاد وآنزاح التناقض... فآجتمع جمال القمر مع عبوس الليث وغضبة الأسد، وهدوء العابد الناسك مع صولة البطل المغوار، وحراك الغيور وحماسته، مع سكون الكريم وترفعه، وآلتقت الضراوة والقسوة والشدة على الكافرين، مع لين ورحمة ورقة تأبى سماع نداء العطش وشكوى الظمأ... وما كان ليكون أروع من هذا الآجتماع والآلتقاء.

❁ ❁ ❁

بينا أنا أنهل من مرأى هذا الميلاد الشريف وأغترف من أنواره وإشراقاته، إذ آنقطعت الصورة عني فجأة... آعترى المشهد تغيير كامل وناله تحول قلّبه، ما عدت أرى من المنظر شيئاً ولا أسمع من موقع الحدث صوتاً!

كأني أُقصيت وزويت ونفيت، وصرت في صد وحصر...

أو أن حاجزاً ضخماً وستاراً عظيماً لا تطاوله مساعي الآستراق، وتعجز عن خرقه أو التخلل والتغلغل من أطرافه وجوانبه الأنظار، قد ضرب على العرصة التي كنت أرقب وأشاهد، وأُسدل دونها، فحجبت عني.

ذعرت وفزعت، ولولا أني رأيت جمعاً من النظارة الذين كانوا يرقبون المشهد ويحضرونه معي، رأيتهم قد نزل بهم ما حل بي، لما وسعني من فرط الجزع والوحشة شيء، لكني ـ من ذلك ـ علمت أن البلاء عام لا يقصدني، والأمر شامل لا يختص بي... فسكنت شيئاً وهدأت.

تُرىٰ، هل هي محطة وسطىٰ ومفرق طرق أم منعطف يهيئ للأنتقال إلىٰ طور جديد؟ أمْ هي وقفة تأمّل ومراجعة وتدقيق ومحاسبة، يعمدون إليها هنا، كالإجراءات والحواجز الأمنية عندنا في الدنيا؟

لا أدري ما الذي جرىٰ، ولا أدري لِمَ كان ذلك؟

هل طاش سهم فهمي فأسأت تلقي بعض الحقائق فعكستها؟ هل تماديت شيئاً فقرأت الحدث علىٰ غيْر واقعه؟ وسوء الفهم مرفوض هنا، مرفوض بمعنىٰ أنه غيْر قابل للتحقق والوقوع، أو الأستمرار والبقاء (إن حدث وكان)، فلا بد من تقويمه وتصحيحه.

أم تراني أصبت مناطق حظر ما كان لي أن أبلغها وأخوض فيها؟

لقد سبق أن تلقيت الدرس وعرفت حدودي فلزمتها، ذلك حين حدثتني نفسي مرّة أن أقحم الحدث وأسجل فيه حضوراً فاعلاً... فشُلَّت أعضائي وجمدت عن الحراك وصرت كصخرة صماء!

فما عاودت الجرأة ولا تخطّيت بعدها الحدود.

لعلّي أرسلت إلىٰ ذاكرتي وشحنتها بما لا يجوز لي رصده أو لا يحق لي نقله... أطلعوا عليه فأستوقفوني ليفرغوه؟ أم أن المشهد وصل مواضع خطيرة وبلغ درجة خاصة، لا يُسمح لنا بحضورها؟

كنت متأكداً من شيء وحقيقة واحدة، هي أنني لم أهْوِ بروحي ولم أنحط، بل كنت في تسام ورقي، كنت أستشعر الألق وأتحسس التكامل يسري في وجودي، وأدرك كم غدوت مختلفاً عما كنت عليه في دنياي، حتىٰ كنت أشكك في إمكانية رجوعي وعودتي إلىٰ تلك النشأة الدنيا.

إذاً فالأمر والحظر لعارض خارجي، لا داخلي.

يا لحسرتي، لقد تغيّر الوضع وأنقلب...

بعد أن كان المسرح والساحة التي ننظر إليها من السعة والكبر ما تشاء النفس وترغب، ولنا فيها من الحرية وإطلاق اليد مثل ذلك، وكأن لا راعي هنا ولا سادن، اللهم إلّا همّة المرء وعزمه، وقوة روحه وسموها، فيتسع له الفضاء ليحلّق في ما وكيفما شاء... ها قد تغيّرت وتبدلّت.

أغلق المشهد، وحُبِسْتُ، وظهرت ملائكة لم تكن معنا من قبل، وأنتشرت في هذا الأفق المريك المقلق، حتى أستقرّت أمام ما أشبه بوابة في سياج، السياج من أسلاك فولاذية متعاكسة ومتشابكة النسج كالتي تحيط بالمعسكرات أو المستودعات والمخازن الشاسعة المكشوفة... لا أدري، أضُرب حولنا، أنا وجمع النظارة الذين كانوا معي، أم أنه نُصب بإزائنا، يحول بيننا وبين الأنتقال إلى حيّز وموقع جديد.

كانت الملائكة تتحدث فيما بينها، وقد أجتمعت زرافات ووحداناً، ومنهم من أنصرف يرمقنا ويخزر، وكأنه في عجب وحيرة من وجودنا، بل دخلني أنه يتوعدنا بحساب وعقاب على توغلنا وبلوغنا هذا الموضع!

كانوا يعيدون قراءة جداول وأسماء في سجلات يحملونها، فإذا تطابق الأسم مع شخص من بيننا أشاروا إليه منادين، وفتحوا له البوابة وأدخلوه يعبر إلى الطرف الآخر.

كأنها حملة تفتيش، تتثبت من صلاحياتنا للحضور هنا أو مدى أستعدادنا وأهليتنا للأنتقال وشهود ما سيلي. وقد كثُرت النداءات على الأشخاص، وتوالت رخص الدخول، حتى أزدحمت البوابة وأكتظ المسيل وتراكم المدخل... فحدّثتني نفسي أن أتبعهم وأختلط بهم، أتحرّى سبيلاً وألتمس مخرجاً، علّني ألحق بغيْري فأنجو وأفرغ مما أنا فيه...

فتقدمت من ورائهم ببطء...

كان هناك جمع حاشد في الجهة المقابلة وراء السياج، يستقبلنا نحن القادمين، وكأنهم ينتظرون أقارب لهم أو معارف، ينادون عليهم ويلوّحون لهم، كما يجري في المطارات. وكانوا على أحسن هيئة وأفضل حال، من الحلل التي يلبسون، والمراكب التي يعتلون، والمواكب التي تحيط بهم وتحفهم، ثم الوقار الذي يلفهم، والهيبة التي تجللهم... بدوا في غاية السعادة والحبور، ما ألقى في روعي وأكّد لي أنهم شفعاء يلتقطون مَن يشاؤون من جمعنا وينقلونهم إلى الطور الجديد. وأن من لا يحظى بمعرفة أحد منهم وشفاعته، يبقى أسير وضعه، ولا يلبث أن يعود من حيث أتى!

ومن فرط قلقي وأرتباكي، أو كإجراء وقائي يدفع الشبهة ويصرف الأنتباه عني، ويضفي عليّ الثقة ويسبغ الطمأنينة، فأظهر كأنني ـ حقاً ـ ممن نودي عليه... صرت أشير بيدي وألوّح كأنني أحيي بعض المستقبلين في الجهة الأُخرىٰ! وما كان أحد يشير إليّ أو حتىٰ يرد عليّ!

وإذا بصوت يهمس في أذني: غشٌّ في الأرض وغشٌّ في السماء؟!

وقفت من فوري وجمدت في مكاني مبهوتاً، حتىٰ إني لم أتحرك أو ألتفت لأنظر إلىٰ الذي كلّمني وآخذني... فأستمر ـ بدوره ـ في همسه من ورائي ولم يواجهني ويستقبلني:

لم تمض ثوان علىٰ هاجس أعتدادك بسمو روحك ورقي نفسك وزهوك بكمالك؟! ألم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي أنت واثق ومتأكد منه؟

فجاء ملك آخر، تجاهل الأول الذي كان يلومني برفق، فكأنه أنتهرني:

إلىٰ أين؟

: لا أدري، مع هؤلاء الماضين.

: مَن الذي أذن لك، ومَن ناداك؟

: ما أبلغني أحد بأنتظار نداء وطلب رخصة.

: يا لجرأتك، أوَترد عليّ قولي بعد فِعلَتِك هذه؟

فأشار بعصاً في يده إلىٰ صدري، وراح يضرب بلين وخفة كمَن يطرق... ذهلت وأنا أرىٰ شيئاً كالبخار أو الدخان، وأسمع صوتاً يخرج من صدري، يكذّبني ويشهد عليّ وينطقني:

"لقد كُنت أعلم، إنما أردت التوغل"!

أنعقد لساني وتراخت مفاصلي، وكاد أن يغمىٰ عليّ. ولكن أملاً أنعشني بأن الملَك لم يسمع الصوت، ولم يرَ الأدخنة والأبخرة، إذ تدخل في تلك اللحظة الملَك الأول وحدّثه فشغله، فكأنه ألهاه عني وأغفله.

ثم تبيّن لي أن حركة الإلهاء وحديث الإغفال كان أقتحاماً متعمداً، فإن الكرم والسماحة هنا طاغية فائضة، حتىٰ إنهم ليستحون أن يؤاخذونا بذنوبنا، فيعفّون ويعفون وكأنهم لا يعلمون!

بينا أنا في ذلك، إذ بصرت بشخص أعرفه، لمحته من بين المستقبلين... إنه الحاج «موسى»...

أدركته شيخاً في العقد الثامن من عمره، من أهالي «الإحساء» أصلاً وسكنة «الجزائر» من «الأهواز»، وقد هاجر إلى مدينة «قم» المقدسة فاراً من الحرب التي شنها «العراق» على «إيران» عام ١٩٨٠م. فأستقر بها وأقام حتى توفي عن تسعين عاماً.

رجل يصدق عليه أنه من «عوام المؤمنين»، أُمّي، لا يحسن القراءة ولا الكتابة. لا شيء يميزه في تقواه وورعه، ناهيك بعلمه ومعرفته... لا أدري ما الذي جاء به هنا وكيف بلغ هذا المبلغ؟! حتى إني شككت أن يكون هو، فقد كان فقيراً ضعيف الحال، ولا شيء من هيئته هنا يشبه حاله في دنياه.

فلما ألتقت عينانا، بكى... فتثبت منه!

عرفته من بكائه! هذا ما أشتهر به وعُرف... لقد كان بكّاءً، سريع الدمعة على «السبط الشهيد»، غزيرها، في المجالس وغيْر المجالس، ما إن يذكر «المولى» حتى تسيل دموعه سخية. وكان يقرن بكاءه ـ في المجالس ـ بصيحة وعويل، ونداءات الندبة، يرفعها بعالي صوته يصرخ ويجزع: وا حسيناه، وا علياه، أسفي عليك يا أبا عبدالله، وا مصيبتاه، وا إماماه... فيهيج المجلس ويُحْييه، ويستدر الدموع من أعين الحضور، ويدفعهم دفعاً لأستشعار المصيبة والمشاركة في الرثاء والندبة.

صاح بي بعالي صوته وتخطّى الجموع ليدنو مني ويستخلصني، وأضطرب في أن يبلغ الملائكة عني، وكيف يدعوني، فقلب المحفل ـ على طريقته ـ وأثار الفوضى، حتى عرّفوه أنهم سمعوه وأنهم مجيبوه ومُلَبّو طلبه.

هذا شخص آخر عرفته، إنه السيد «محمد رضا السيد علي شبر»... شعلة من الغيرة الهاشمية، أشتهر بالتصدي لفتنة رجل أنكر مصيبة «الزهراء»، فعُرف بمواجهته لبدعه ومحاربة ضلالاته، بطل في الدفاع عن عقيدته، ثائر في قضيته، وكانت تتلخص في الذود عن مقامات «أهل البيت» وإثبات ظلاماتهم، وفي إقامة المجالس الحسينية وإحياء شعائر العزاء.

كان مجاوراً لمرقد السيدة «زينب» عليها السلام في «الشام» في شيخوخته، وكان يتشح في فجر عاشوراء بكفنه ويشهر سيفه ويقود موكب التطبير، يخرجه من حسينيته ليطوف بالحرم الشريف.

وكان داء «السكري» أودى بساقيه، فأصابتها الجروح والقروح حتى بترتا، فصار في سنيه الأخيرة يقود الموكب وهو على مقعده المتحرك... لكن لما نظر إليّ الساعة، قام من الأريكة الوثيرة التي كان متربعاً عليها، ووقف بِفَارِه طوله ومستوي قامته، وأشار إلى رجليه وتبسم، كان في أتم صحة وعافية، وأكمل هيئة، وأحسن منظر، لكنه ما ترك عصاه، التي أشار بها إلى أحد خدمه هناك وأخبره عني، وأفهمه أن يبلغ عن دعوتي.

بدأت الصورة تتغيّر شيئاً فشيئاً... فكَثُرَ هنا الذين أعرفهم ويعرفونني، وأجد في الأغراب الذين لا تربطني بهم صداقة أو معرفة، أجد بِشْراً وألمس ألفة وأُنساً وكأنني أعرفهم أيضاً، وصرت أتلقى الدعوات منهم، فالجمع هنا يجمعه عنوان «خادم الحسين»، وكل من انتسب إلى هذا العنوان بِصِلَة، انضم - تلقائياً - إلى هذا «الحزب» وعُدَّ من هذه الجماعة، فصاروا يتضامنون ويتكافلون ويتناصرون!

هذا آخر عرفني وأشار إليّ...

نعم، لقد عرفته، إنه «آغاي براتي»...

من كبار تجار «طهران» وأثريائها، «آذري» من أهالي «أردبيل»، أشرك «العباس» عليه السلام في تجارته! فجعل له عُشر أمواله. وكان يحسب في كل عام أرباحه، بعد أن يطرح مصاريفه ويخرج الحقوق الشرعية من أخماس وزكوات، ثم يعزل عُشر المتبقي من صافي الأرباح ليصرفه على مجالس حسينية تعقد بأسم «أبي الفضل العباس»، وما إلى ذلك من عموم أوجه البر كالإطعام، وإكساء فقراء المؤمنين وطبابتهم، وتزويج العزاب منهم، وابتعاث الحاج نيابة عن «أبي الفضل» عليه السلام، أو تمكين الفقراء وبذل الزاد والراحلة وكلفة الحج، وهكذا إرسال الزوار إلى العتبات المقدسة، أو المساهمة في بناء الحسينيات، كل ذلك بأسم «أبي الفضل».

وقد آزدهرت تجارة الرجل ففاق أقرانه ثروة وغنىً، ونما ماله أيما نماء، حتى بلغ ذلك «العُشر» في السنة التي توفي فيها «آغاي براقي» أكثر من مئتي مليون تومان، ناهيك بالعرصات والعقارات والمباني والمحلات التي حبسها وأوقفها من ذلك المال على مدى حياته، وما زال ورثته والقيِّمون على تركته يصرفون ريعها ويبذلونه في ذلك السبيل.

عاد الملَك ليهمس في أذني وهو يقودني عبر البوابة:

إن رزقك يسعى إليك سعياً، فلا تفسد جمال وصوله ونشوة حصوله بعجلةٍ تضيع عليك أُنس لقياه ولذة موافاته، وإن طلبته فلا تطلبه إلّا بعفة ونزاهة... إن ما يناله الحريص النهِم بالنزق والقلق، ويصيبه الحسود الممتعض بالمداهنة والخداع، ويكسبه الشره المطفف بالمكر والحيلة، هو عين ما يناله القنوع العفيف بالحياء والرقة، ويحصل عليه الرضي النزيه بالصبر والأمانة، ويدركه الملتزم الكريم بالعدل والإنصاف! يبلغ مبلغه من الرزق، غيْر متهالك ولا قاتل نفسه، قد أفرد لربه وعبادته وقتها، وخصص لعياله وأهله ساعتهم، وترك لبدنه حقّه ولنفسه نصيبها، فإذا أثرىٰ وآستغنىٰ لم يطغَ، وإذا آبتلاه ربه فقدر عليه رزقه لم يفجر أمامه ويكفر به أن أهانه!

إنما أرزاق مقدّرة، نازلة آتية، بالغة أهلها، لا يبطئها إلّا ما هو خيْرٌ لأصحابها، ولا يعوقها إلّا شرٌّ من حصائد أيديهم وأفعالهم. والمعلّق المؤجل منها ينتظر أيسر السعي وأقل الجهد والعناء، ولم يجعل الله سبحانه وتعالى في سبيله حيلة قط ولا مكيدة، ولا أناط بعطائه مراوغة وآلتواء وغشاً... إنما يفسد الأرزاق أهلُها بسلوك غيْر طرقها، ويتلفونها بالتكالب والتهافت عليها، ويلوثونها بطلبها من غيْر مواطنها، ويضيعونها بطَرْق غيْر أبوابها.

يظن البليد في نفسه ذكاءً يغالب به الأقدار، والأحمق حكمة يُرغم بها المعوقات، والسفيه حلماً يقهر به الأسباب، والجاهل علماً وفناً يحتال به على علل التأخير وأسرار الحبس والإقتار! وهم في ذلك على يقين يستهلك جهدهم، وثقة تبدد طاقتهم، وإيمان يفرغ وسْعَهم، فلا تنفع فيهم نصيحة، ولا تؤثر موعظة، ولا يثنيهم زجر وتقريع...

أما ترىٰ السَمِجَ كيف يظن في نفسه الظرف والخفة، وهو أثقل ما يكون إذا تلطّف! ترشح منه الغلظة والوخامة كلّما تفكّه ومازح، وتمتد كثافة ظلّه وتستطيل وهو يتذاكىٰ ويتبرّعُ! لا يشعر بذلك ولا يحس منه شيئاً، فيمضي في سماجته لا يرىٰ وجهاً لما يناله ويحل به: كيف تنفض الناس عنه، وهو يستقبلها بكل هذا البِشْر؟ كذلك الحريص النَهِم، يهرب منه الرزق، وهو في حيرة: كيف لم يبلغه، وما ترك باباً إلّا طرقه، ولا سبيلاً إلّا سلكه؟ فإذا بلغه وأدركه، عجب أن لم يحقق له السعادة التي كان يرجو، ولم يورثه الغنىٰ الذي كان يأمل، إذ ما زال فقيراً في نفسه، شحيحاً في روحه!

أي أخا البشر...

إن الآفة تسري في طلاب الحق وسالكي دروب الكمال وعشاق الجمال، كما في المتهالكين علىٰ الحطام المتلطخين بالسخام، إذ شرع الله لهم أن يتنافسوا ويُسارعوا، فٱختلط عليهم الأمر وٱلتبس، ولم ينجُ إلّا من سبقت له من الله الحسنىٰ. فٱحذر...

ثم ربت الكريم علىٰ عاتقي برفق... يودعني، كأنه يدفعني ويسوقني إلىٰ الأمام، وهو يقول: "سلام عليكم، طبتم".

* * *

عاد المنظر لينفتح عليّ، وقد أُفهمت وعلمت أنني لن أتسلسل بعد الآن في ملاحقة مشاهده ومتابعة أحداثه، ولن يفسح ويسمح لي للتنقل من الواقعة حيث أشاء، وإنما ستفتح لي مقاطع مختارة وصور منتخبة...

ها قد فتحت الطاقة وٱنكشف الغطاء... فأنا أطل الآن علىٰ المنظر وأستشرف الساحة ثانية.

ولكنه مشهد غريب أرجعني ـ من جديد ـ إلىٰ «ساباط» «المدائن»، دون عرصة «كربلاء» التي أُريد! فحرت، وظننت أني خولطت شيئاً أو تهت؟ وما زلت أرىٰ فرساً ينادونها بـ «الطاوية»، يحتفون ويعنون بها وكأنها غنيمة ذات قيمة وشأن يميزها عن غيرها، يزعمون أنها لملك «المدائن»، كانت تحت «الحسن السبط» عليه السلام.

لكن سرعان ما لبث المشهد أن قادني ثم ساقني، وما زال بي حتى أخرجني مما أنا فيه، وعاد بي إلى «كربلاء»...

هذا «زهير بن القين» (قبل أن يقتل، أو هو غيره، لست أدري، ولكني حملته على «زهير» من مطلع رد «أبي الفضل» عليه) يأتي فجأة «العباسَ بن علي» ويقول له: يا «أبن أمير المؤمنين»، إني محدّثك بحديث وعيته.

: حدّث، فقد حلا وقت الحديث، حدّث ولا حرج عليك، فإنما تروي لنا متواتر الإسناد.

: إعلم يا «أبا الفضل»، أن أباك لما أراد أن يتزوّج بأمك «أُم البنين»، بعث إلى أخيه «عقيل»، فقال له: "أخطب لي أمرأة من ذوي البيوت والحسب والنسب والشجاعة، أصيب منها ولداً يكون شجاعاً، وعضداً ينصر ولدي هذا، وأشار إلى «الحسين»، ليواسيه في «طف كربلاء»".

لقد أدّخرك أبوك لمثل هذا اليوم، فلا تقصّر في نصرة أخيك.

فأرتعد «العباس»، وتمطّى في ركابه حتى قطعه. وقال:

"يا «زهير»، تشجعني؟! والله لأرينك شيئاً ما رأيته قط".

لم تكن المعركة الكبرى قد بدأت بعد، ولكن المناوشات والألتحامات الفردية أو الجزئية، والمبارزات كانت محتدمة، وهكذا التراشق في الخُطَب والرسائل المتبادلة، وفي المحاججات والمناظرات... كأنه اليوم السابع من المحرم، وقد بانت آثار قطع الماء، وظهرت آثار منعه في معسكر «سيد الشهداء»، على النساء والأطفال خاصة.

وكان «العباس» ينظر إلى قلب «المولى» ويرقب حركة «القربان» فيه، وفي جوارحه، وفي مسيرته وخطّته... أين بلغ، وماذا سيستوفي منه؟

ثم أين عسى أن يكون دوره هو بين هذا وذاك؟

كانت الخصال والمواهب وما تمليه عليه من وظيفة وواجب، وتطالبه به من دور، تنازع فيه «الحب». «الحب» وقد تألق كعنوان أبرز وحالة أمثل في روحه، تغالب وتتفوق على كل شيء آخر فيه، حتى إنه فصل نفسه وأنفرد بعيداً عن كمالات يفترض أنها تصب فيه أو أنه جاء منها؟!

وبعد أن كان يظن أنه فرغ من الأزدواج إلى الأحدية، وأرتاح من صراع الأضداد، وخلص إلى جمعها في نفسه السامية وحملها في روحه المتعالية... عاد الساعة ليعاني من جبهة جديدة بين: حب «المولى»، وواجب يدركه تجاه «القربان»، يقتضي ويتطلّب ما يبلغ به الفناء والمحق بعد الصعق!

كان بغزير علمه وعميق عرفانه، يدرك أن الأُضحية الإلهية التي ستختم المسيرة وتطوي «الفرش» وتأخذ الخلق إلى «العرش»، لن ترضى بأقل من سيد الوجود وأشرف الموجود، ولن تقبل بدلاً عن سبيل يستهلك كل جزء فيه، ويأتي على ذرات وجوده، ذرة فذرة!...

كان «العباس» يعي ذلك ويرتقبه بين لحظة وأُخرى، فيردد:

ويح قلبي، ماذا ينتظر قلبك يا «أبا عبدالله»؟

كيف سيُقدِّم هذا «القربان»؟ وكم سيستوفي من روحك وبدنك؟

كنت أنظر في حال «العباس» وما سيفعل... إذ علت أصوات طبول. مثل التي سبق أن سمعت قرعها أول وصول «الركب الحسيني» إلى «كربلاء»، تصاحب هتاف الملائك، تقدم من بعيد، وتقرب شيئاً فشيئاً:

حيدر...

حيدر...

ها هي تعود بإيقاع ولحن مختلف، وهتاف جديد، لكنه من نفس الأصوات الأولى، وبنفس الحماسة، وإن كانت حماسة لم تبث الرعب كما كانت تفعل الأُولى، ولم تورث شيئاً مما في النداء الأول من الخوف والهلع. لقد كان النداء متمحضاً في الحماسة والبأس، وإن مزجه شيء، فزخم مهلك من الحزن والجزع، وضغث يعتصر الصدر، ما زال يكرر:

ساقي عُطاشى «كربلاء»... «أبا الفضل»

ساقي عُطاشى «كربلاء»... «أبا الفضل»

حتى كأنه مال إلى الأستعطاف والرجاء!

هزّ الهتاف كل شيء هنا، وقلّب الأوضاع، وإذا بـ «أبي الفضل» وقد حمّى جواده نحو القوم، حتى توسط الميدان، فوقف وقال:

يا «أبن سعد»، هذا «الحسين بن بنت رسول الله»، قد قتلتم أصحابه وإخوته وبني عمّه، فبقي وحيداً فريداً مع أولاده وعياله... وهم عُطاشى، قد أحرق الظمأ قلوبهم، وبلغوا الهلاك، وهو مع ذلك يقول: دعوني أخرج إلى طرف «الروم» أو «الهند»، وأخلي لكم «الحجاز» و«العراق»، وأشرط لكم أن لا أُخاصمكم عند الله غداً في القيامة، حتى يفعل بكم ما يريد.

سكن الميدان بعد كلام «أبي الفضل»...

لا أدري، هل شغلهم التداول في الرد الأنسب والجواب الأتم الذي عليهم أن يواجهوه به، فقد كانوا يعوّلون على «موقف» من «العباس» يقلب الموازين في جبهة «بني هاشم» ويفكك معسكرهم، فهذا الفتى هو عمود الخباء وحامل اللواء، وهو غيّر شقيق، ولقرابته وخؤولته دور وشأن في معسكر «بني أُمية» يراهنون عليه. وهو بعد، حبيب «الحسين» وقرة عينه وأمله، ونكوصه أو أهتزاز موقفه سيقلب الموازين في قلب «المولى»، ما يودي به قبل قتله، فيغنيهم عن حكاية تطول، ولربما خلدت فلا يمحوها شيء، ويسجل لهم أنتصاراً وظفراً ما دفعوا له ثمناً!

هل هذا التدبير هو الذي أبطأ الردّ منهم والجواب، أو أنهم كانوا ينتظرون سكون غضب الطبيعة عليهم، ومرور زفزفة نكباء عصفت؟... هدأ هجهاج الريح، ولف الساحة صمت مهيب، فتقدم «الشمر» ومعه «شبث بن ربعي» فقال أحدهما، لا أدري أيها كان:

لو كان وجه الأرض ماءً، وهو تحت أيدينا ما سقيناكم منه قطرة.

تبسّم العباس ومضى تجاه أخيه... فلما وصل المخيم أو قرب منه سمع الأطفال ينادون: "العطش العطش". وطبول تدق وتقرع، وملائكة تهتف في السماء فتبُثُ الحماسة في الأجواء، لتنهمر على الأرض زخّات:

ساقي عُطاشى «كربلاء»... «أبا الفضل»

ساقي عُطاشى «كربلاء»... «أبا الفضل»

رمق بطرفه السماء، كأنه يستأذن قدره، أو يستجلي ساعة يعرفها ويعهدها، تبيح له أتخاذ خطوته التالية، وأن أوانها قد حان، فقال:

إلهي وسيدي، أُريد أن أعتد بعدق، وأملأ لهؤلاء الأطفال قربة من الماء.
ثم توجه إلى «المولى» وقبّل ما بين عينيه وودّعه، وركب فرسه وأخذ رمحه، وألقى القربة في كتفه، أو عنقه، لم أتبين ذلك، إذ طوي عصام القربة ووكاء الإداوة في ثنية الدرع، أو أن «العباس» تعمّد أن يداريها بقميصه أو بعض ثيابه... وقصد «الفرات».

حتى إذا أتى الشريعة فإذا دونها عشرة آلاف فارس مدرعة... فلم يهولوه وهو يقدم عليهم كالجبل العظيم وقلبه كالطود الجسيم. ووالله إن المنظر ليورث الهول والخرع وهو صورة أراها الآن، فيصرف مرآهم كل عزم على التخلل ويبدد كل نيّة للنفوذ خفية، فكيف بالتحدّي والمواجهة؟

صاحت عليه الرجال من كل جانب ومكان: مَن أنت يا غلام؟

: أنا «العباس بن علي بن أبي طالب». ثم نادى: "يا «بني فلاح»، أنا ابن أختكم «أم عاصم الكلابية»، وأنا عطشان. أأهل بيت «محمد» يُذادون عن الماء، منه محرومون وإليه بالحسرة ينظرون، وهو مباح للكلاب والخنازير"؟!

فقال له «عمر بن الحجاج»: يعزّ عليّ يا بن الأخت ما نزل بك من العطش، ولو علمت لأرسلت إليك الماء، دونك و«الفرات» يا بن الأخت!

فسار «العباس» حتى نزل «الفرات» وملأ القربة.

فبلغ خبره «عمر بن سعد» فقال: عليّ برأس «عمر بن الحجاج»، حيث يقوّي علينا أعداءنا. فبعث إليه «عمر بن الحجاج» يقول: لا تعجل عليّ، إنما هي مكيدة أحتال بها عليه لأقتله!

ولست أدري هل أصدقه القول، أو أنه أراد أن يستدرك حميّة ويصلح فورة ويقظة ضمير أدركته على «ابن أخته»... فراح يداريها ويواريها ليطمسها على أميره وينجو من حكم الإعدام الميداني الذي صدر بحقه؟

ثم إنه نهر الرجال وقال: دونكم «العباس»، ها هو بأيديكم، منشغل بالقربة والماء. فتسارعوا إليه، وهو ـ عليه السلام ـ مُكِبٌّ على الماء... فلما رآهم، أخلى يده من القربة وعاد ليستل سيفه من غمده، وأخذ فيهم كأنه النار في الحطب، وهو يرتجز:

أنا الذي أُعرف عند الزمجرة * ابن عليّ المسمّىٰ حيدرة
فأثبتوا اليوم لنا يا كفرة * لعترة الحمد وآل البقرة

ثم حمل، بعد نهضة الدفاع الأولى، وخاض فيهم حتى قتل مئة، منهم عداد فرسان وأبطال، فتفرق البقية من حوله وانهزموا، ثم كأن الأمر صدر للكتيبة أن تتراجع لتنظم صفوفها. فعاد هو إلى القربة، فاحتملها ـ عليه السلام ـ على عاتقه وراح تجاه المخيم.

وكان في عسكر «عمر بن سعد» رجل ينادونه «المارد»، عرفت أنه جنّي من «كتيبة المنقبة»، انبرىٰ كاشفاً عن وجهه اللثام، ثم انتسب فزعم أنه «ابن صديف التغلبي»... ولم يسأل أحد: مَن يكون «صديف» هذا؟!

وطفر «المارد» أمام الجند، وراح يخرّق أزياقه ويشق جيوبه، ويلطم على وجهه ويهيل التراب على رأسه! في أداء مسرحي رخيص، أخفق أن يؤثّر في الجند شيئاً، فما كان ـ من الأولىٰ ـ لينطلي على القادة. ثم صاح:

لا بارك الله فيكم، أما والله لو ملأ كلٌّ منكم كفّه تراباً أهاله عليه لطمرتموه، ولكنكم تُظهرون النصيحة وأنتم تحت الفضيحة.

ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته:

أُقسم على مَن كانت في عنقه بيعة للأمير «يزيد»، وكان تحت الطاعة، إلّا اعتزل عن الحرب وأمسك عن النزال، فأنا دونكم لهذا الغلام الذي أباد الرجال وقتل الأبطال وأودىٰ بالشجعان وأفناهم بالحسام والسنان.

ثم أقتُل من بعده أخاه «الحسين» ومَن بقي من أصحابه!

فقال له «شمر بن ذي الجوشن»: إذا ضمنت أنك كفء الناس أجمع، ارجع معي إلى الأمير «عمر بن سعد» وأطلعه على أنك تأتيه بالقوم أجمعين إذا كان بك غنىً عنّا.

فقال «المارد»: يا «شمر»، أما والله ما فيكم خير لأنفسكم، فكيف تُعيّرون غيْركم؟ إنكم تطلبون شيئاً لتهنأ حياتكم، وأنا في غنىً عنه وعنها.

فردّ «الشمر»: ها نحن نرجع إلى رأيك وأمرك، وننظر فعالك!

ثم أمر الناس أن يعتزلوا، وقال: حتى ننظر ما يكون منه.

فأقبل الشيطان «المارد»، وأفرغ عليه درعين ضيقي الزرد، وجعل على رأسه بيضة، وركب فرساً أشقر أعلى ما يكون من الخيل، وأخذ بيده رمحاً طويلاً... وبرز إلى «العباس بن علي» عليهما السلام.

فألتفت إليه «العباس»، فرآه وهو طالب له، يرعد ويبرق... فكأنه علم مَن يكون! فثبت في موضعه، لم يحرك ولم يناور.

حتى إذا قاربه، صاح «المارد»:

يا غلام أرحم نفسك وأغمد حسامك، وأظهر للناس أستسلامك، فالسلامة أولى من الندامة، فكم من طالب أمراً حيل بينه وبين ما طلبه، وغافَصَهُ أجلُه. وأعلم أنه لم يحاربك اليوم ولا قبل اليوم مَن هو أشد قسوة مني وبأساً، وقد نزع الله الرحمة عليك من قلبي. وها أنا أنصحك إن قبلت النصح، ثم أنشأ:

إني نصحتك إن قبلت نصيحتي * حذراً عليك من الحسام القاطع

ولقد رحمتك إذ رأيتك يافعاً * ولعلّ مثلي لا يقاس بيافع

أعطِ القياد تعش بخير معيشة * أو لا، فدونك من عذاب واقع

فلما سمع «أبوالفضل» كلامه ونظامه قال له:

ما أراك أتيت إلّا بجميل، ولا نطقت إلّا بتفصيل، غيْر إني جاعلك في مناخ تذروه الرياح، أو في الصخر الأطمس لا تقبله الأنفس، وكلامك كسراب يلوح، فإذا قُصد صار أرضاً بواراً. وأنا يا عدو الله وعدو رسوله فمعَوَّد للقاء الأبطال والصبر على البلاء في النزال ومكافحة الفرسان وبالله المستعان. فمن كملت هذه الأوصاف فيه، فلا يخاف ممن برز إليه.

ويلك، أليس لي أتصال برسول الله؟ وأنا غصن متّصل بشجرته، وتحفة من نور جوهره، ومَن كان من هذه الشجرة فلا يدخل تحت الذمام ولا يخاف من ضرب الحسام، فأنا «أبن علي»، لا أعجز عن مبارزة الأقران. ما أشركت بالله لمحة بصر، ولا خالفت «رسول الله» في ما أمر، وأنا منه والورق من الشجر، وعلى الأصول تثبت الفروع، فأصرف عنك ما أمّلته، فما أنا ممن يأسى على الحياة، ولا يجزع من الوفاة، فخذ في الجد وأصرف عنك الهزل.

وقد تبادر لي وأنكشف أن السجع والترادف والشعر وعذب البيان وضروب الأدب، مما يكون في مخاطبات الميدان ومساجلات الفرسان، بعضه فصاحة وبلاغة، وطبع وسجيّة، كما هو جليّ في «العباس»، ينمُّ عن خصال «هاشمية» وطباع «علوية»... وبعضه الآخر، كما هو في «المارد» وأضرابه، تكلّف هادف، وأفتعال موجّه، يرمي الجبهة الروحية ويقصد الحرب النفسية، ليوحي للعدو، وهكذا يبعث في الصديق: كم هو مطمئن هذا الفارس، شجاع واثق من قدرته، غيْر مضطرب ولا مرتبك ولا هيّاب، حتى يستحضر ويحشد من مخزون كلماته أبلغها، ويختار من الألفاظ أجملها، وينتقي من العبارات أبدعها، بل ينظم وينشئ الأشعار!

ومن هذا القبيل... كم من «شاعر» تراه يغالب ويتعسف، يحاور ويناور، ليسوق الحدث تجاه أمر مُعيّن، ويقوده نحو نتيجة يريدها، في أداء أشبه بحبكة القصص الخيالية! فإذا بلغ ذلك الموضع، وصار في النطاق الذي يريد، تراه ألقى قصيدة أعدّها مسبقاً، و«أنشأ» (!) شعراً حضّره ونظمه بليْل، بدا وكأنه وليد ساعته، وأدّعى أنه أرتجله من وحي الحدث وفجأته!

لما سمع «المارد» كلام «أبي الفضل»، لم يعط صبراً دون أن حقق عليه بالحملة وبادره بالطعنة، وهو يظن أن أمره هيّن، وأنه قد وصل إليه! وقد أستدرجه «العباس» بتعمّد الإبطاء وتمكينه من نفسه... حتى إذا وصل إليه السنان، قبض «العباس» على الرمح وجذبه إليه، فكاد أن يقع «المارد» من سرجه، فخلّى الرمح، وردَّ يده إلى سيفه، وقد تخلله الخجل وأعترته الهزيمة إذ أنتُزعت رمحه ومُلكت منه. ثم شرع «أبوالفضل» الرمح لـ «المارد» وصاح به: يا عدو الله، إني أرجو الله أن أقتلك برمحك!

جال المارد على «العباس» وقحم عليه بسيفه، فبادره «العباس» وطعن جواده في خاصرته، فشبَّ به الجواد ووثب «المارد» فإذا هو على الأرض، ولم يكن المغتر ليقوى على القتال راجلاً، فقد كان عظيم الجثة ثقيل الخطوة... فأضطربت الصفوف وتصايحت الألوف، وناداه «شمر»: "لا بأس عليك". وصاح بأصحابه: "ويلكم، أدركوا صاحبكم قبل أن يُقتل".

فخرج إليه غلام بفرس يقال لها «الطاوية»!

«الطاوية»... أليست هي الحِجْر التي ظهرت لي أول المشهد في «ساباط» «المدائن»، وظننت الأمر خلطاً أنتهى بي بعيداً عن «كربلاء»؟!

لما نظر إليها «المارد»، فرح بها وكف خجله، وتبددت الهزيمة من روحه وآنتشى أمله، وصاح بالغلام: عجّل بـ «الطاوية» لأعجّل على «آبن علي» وأنزل به وبأخيه الداهية.

فما زال الغلام يسرع بها إليه، و«المارد» يعدو تجاهها، ولكن لبطأ، وركْضَ مَن رَسَفَ في القيد، من فرط بدانته!... وإذا بـ «أبي الفضل» يثب وَثَباتٍ مسرعات، كان السبق فيها، وقد أعانته «الطاوية» على نفسها، إذ جفلت من الغلام السائس، فعاجله «العباس» بطعنة في صدره أخرجها من ظهره، ليحتوي على الحجر ويركبها! و«المارد» يرى ذلك ويشهده، وقد تغيّر وجهه وحار، وأيقن بالهلاك. وما ملك أن دخل في الجزع، فصار ينادي: " يا قوم، أُغلَب على جوادي وأُقتل برمحي "؟

فأجابه «الشمر» وتبعه «سنان بن أنس»، و«خولي بن يزيد الأصبحي»، و«أحمد بن مالك»، و«بشر بن سوط»، وآخرون، نفضوا الأعنة وقدّموا الأسنة وجرّدوا السيوف، وتصايحت الرجال ومالت نحو «العباس».

فناداه أخوه «الحسين»: ما أنتظارك بعدو الله يا أخي؟ فقد غدر القوم بك.

ونظر «العباس» إلى سرعة الخيل ومجيئها نحوه كالسيل، فعطف على «المارد» برمحه. فتوجه إليه الخبيث يكلّمه:

يا «آبن علي»، يا سليل «بني هاشم»، بني المروءة والصفح والكرم، رفقاً بي يا «أبا الفضل» فأنا أسيرك، وإني حافظها لك شكراً ما عشنا وعشت... وراح يرجو «العباس» ويضرع بين يديه، وهو - بين الكلمة والأخرى - يلتفت إلى الخيل، يرتقب نجدتها ووصولها إليه!

فأجابه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾؟ ويلك، أمثلي تلقي الخدع والمحل؟ أي أسير وسيفه بعدُ في يده! وما أصنع بالأسير وقد قرب المسير؟ ثم طعنه في نحره، فذبحه من الأذن إلى الأذن، فأنجدل صريعاً يخور في دمه كالثور.

ووصلت الخيل والرجال وهي تربو على خمسمئة فارس، وقد فرغ «العباس» من «المارد»، فآنعطف عليهم وهو على ظهر «الطاوية»، فلم تكن ساعة حتى قتل منهم ثمانين رجلاً، وأشرف الباقون على الهرب.

عندها حمل «عمر بن سعد»، وزحفت في إثره الأعلام ومالت إليه الخيل، فصاح «الحسين» بأخيه: "إليّ لأدفع عنك وتدفع عني".

فجعل «العباس» يقاتل ويتأخّر، وقد أدركته الخيل والرماح كآجام القصب، وهو يضرب فيهم ويشتتهم فينهزمون بين يديه يميناً وشمالاً... إلى أن وصل المخيم وبلغ مأمنه.

آستشاط «الشمر» غيظاً وتمعّر لونه، وأخذ يرقص لغيْر طرب، فكأنه يحجم خيله أن تقحم، ويدير بالعنان عنقها فتحرن وتعود، وتصهل وترفع قوادمها وتقف على رجليها، وقد رأيت الزبد يظهر على شدقيه وهو يقول:

"يا «أبن علي»، إن كنت قد رجّلتَ «المارد» عن «الطاوية» وقتلته، فهي والله التي كانت لأخيك «الحسن» يوم «ساباط» «المدائن»"!

يريد أن يفسد على «أبي الفضل» لذة آنتصاره ويحبط عظمة عمله، ويبدد جوهر الغنيمة الثمينة، فكأنه يقول: ما هو إلّا سلب كان لكم، فردّ إليكم! ولعمري، متى كان شيئاً من المال أو السلطان لا يعود في أصله ولا ينتهي في معدنه إلى هذا «البيت» ومضيع حقوقه؟ وأي شيء في يد أعدائهم لم يكن سلباً ونهباً؟... واللعن متواتر متّصل بكل إرث غصبوه، وفيءٍ آقتطعوه، وسحت أكلوه، وخمس آستحلّوه.

لما وصل «العباس» إلى أخيه، نقل له ما قال «الشمر» وذكر من خبر «الطاوية»، فنظر «الحسين» وقال: هذه والله «الطاوية» التي كانت لملك «الري»، وهبها أبي «أمير المؤمنين» لأخي «الحسن».

وصارت «الطاوية» تلوذ بـ «المولى»، ودخل «العباس» إلى خيمة الحرم بالسقا الذي معه. ورغم أن ما بقي في القربة من الماء لم يزد على أواق أربعة، من كثرة ما وقع فيها من سهام، لم تكف لري الأطفال ولم تف بحاجتهم، فصاروا يتواسون بالقليل ويتصابرون...

إلا أن الأمر كان يعني الكثير...

الكثير في الحرب النفسية ضد العدو، وفي التعبئة المعنوية للصديق. يعني أن الحصار قابل للكسر، وأن قرارات الجيش الأموي يمكن خرقها وهزيمتها في أصعبها وأشدّها... ما كان يعني: الأمل.

كان رجوع «العباس» بالسقا، ومعه خيل لأخيه سليبة، أستردها بعد سنين متمادية، يعني الكثير ـ أيضاً ـ في ترسيخ صورته في أعين الحرم والعيال، وتكريس موقعه في معسكر «المولى»...

فهُم في حمى ضيغم بطل، تسقط أمامه معادلة التفوق العددي، التي كانت عنصر القلق والخوف الأول في نفوس «الهاشميات»، فهذي ألوف مدججة بالسلاح، مردفة بالمدد، عجزت أن تحول بينه وبين بلوغ مشرعة «الفرات»، ولا أستطاعت منعه عن الرجوع وإيصال الماء إلى المخيم. فارس تتبدد في ظلال بطولاته هواجس أخذت تعتريها بعد أن رأت جرأة العدو ووقاحته، وخسته ونذالته، وهو يمنع عنها الماء ويحول بينهم وبين «الفرات»... فلعلّه ـ وهو بهذا القدر من الخبث والدناءة ـ لا يعرف حرمة ولا يخفر ذمة، فيبلغ مبلغ هتك أستارها والنيل من خدرها؟!

لم تكن بطولات «العباس» في ميدان «كربلاء» مجرد بطولات تُسطر.

كان موقع «الكفيل» و«المحامي»، ومن بعده «الساقي»، يترسّخ ويأخذ شكله الأتم وصورته الأكمل. وكانت قيمة «العباس» ما زالت تتألق وتظهر، ورتبته تسفر، ومقامه يتأكد ساعة بعد ساعة...

و«المولى» ينظر ذلك ويملأ عينه من جمال أخيه «القمر»، وروحه من الأعتداد بأريحية ونبل حامل لوائه، ونفسه من الأعتزاز ببسالة وشجاعة وزيره. كان «المولى» ـ في واقع الأمر ـ يتزوّد من عشق «العباس» ويمتلئ، ليصاب ـ بعد لحظات قليلة قادمة ـ من فقْدِه، في الذروة والغاية والنهاية، فيستوفي هذا الحب، وينال هذا العشق، ويأتي هذا الفخر والأعتزاز، وتنزل هذه المصيبة على كل ذرة في قلب «المولى»، تهوي عليه بمطارق من الغم توجع حتى الموت، وسياط من الحسرة تلسع حتى الهلاك!

و«العباس» يعلم ما يصنع، أو يعلم ما في فعله من نتائج!

وكان هذا يرهقه ويضنيه، ويجهده ويعنته، حتى يهدّ أركانه، ويخلّفه وانياً لاغباً مكدوداً... أن يجتمع دوره ويلتقي في هذا التلازم القاتل، فعليه أن يحامي ويدافع، ويظهر ما فيه من بطولة وبسالة، ليكون هذا الظهور جرعات تملأ كأس منية أخيه الأعظم!

فبقدر ما كان «العباس» يتألق بقدراته، ويتجلى بكراماته، كان «الحسين» يسعد ويعتد، ويزداد عشقاً وتعلّقاً، وبهذا المقدار سيكون وسيبلغ ألم «المولى» وحسرته وحزنه على فقده.

بل إن الأمر يذهب في التلازم والتركّب والتعقيد مدىً أبعد، إذ لن يكون «القربان»، إلّا إذا بلغ الألم ووصلت المعاناة في «المولى» ذروة خاصة ودرجة معينة، وهي لا تكون ـ بدورها ـ إلّا بعد تألق من «أبي الفضل» يورث إعجاباً وتعلقاً به وعشقاً له في الغاية والنهاية!... هكذا أصبحت القضية: أن يزيح المحبوب عن وجهه الأستار ويكشف عن صفاته للأنظار، وهو يعلم أن حتف حبيبه في رؤية جماله ومعاينة بهائه!

وكما كانت «زينب» العالمة غير المعلمة، تدري ـ في اللحظات الأخيرة ـ أنها تقدّم لأخيها فرس المنون... كان «أبوالفضل العباس» يعلم تمام العلم دوره في تحقق «القربان» وإكمال أسباب أنبعاثه. يعلم أنه بهذه البطولات والروائع، وهذا الأداء الفريد من نوعه في عرض ذروة الجمال، ومجمع كمالات الوجود، يعلم أنه يصنع «نهاية» أخيه ويذلل الطريق أمام شهادته! إنه يرفد وهج الروح وألَقِها في أخيه، وهج يستقي من المعاناة والحسرة على فقد مثل هذا الأخ... ما سيفضي عما قليل إلى تلفه وهلاكه، بعد أن يذكي روحه ويسعرها حتى تحترق، قرباناً على مذبح العشق الإلهي!

كأنه كان يصعد بأخيه إلى ذروة الجبل، ليقدّمه هناك...

فلا تأتي نارٌ تأكله، تقرر قبول «القربان» ورضا الرحمن... بل يد تأخذه وترفعه إليه، وما زالت به حتى تنصبه على عرشه، وتحكّمه في ملكه، ومعه «كربلاء»، المذبح الذي قضى عليه.

لذا تراه عندما خرج ـ ثانية أو ثالثة ـ في يوم «عاشوراء» ليطلب الماء للأطفال والعيال... تراه حين ملك الشريعة بعد أن أزاح عن دربه الألـوف، آمتنع عن الشرب! إذ كان شربه سيُبرّد شيئاً من غلّة «الحسين» وحرقته، ويطفئ بعضاً من وقدة روحه المستعرة بجمر الآلام والمحن، الآخذة في إعداد «القربان» وإنضاجه، وإتمام تحضيره وتهيئته، وتقديمه على مائدة الرب... ما سيعيق آنبعاث «القربان» وخروج هٰذا السر المستسر في «المولى» من القوة إلى الفعل، ومن الكمون إلى التحقق والظهور.

آمتنع عن الشرب حتى لا يقطع الطريق على «القربان»، أو يربك مسيرته ويؤخر حركته بعض الشيء. فنهض بدوره كاملاً تاماً، وهو على وعي مطلق يخرق الزمان والمكان، ويحيط بالأسرار والأسباب. وبعد الوعي، نهض بدوره ببأس وآقتدار، ووُسْع وطاقة، لا تتحمّلها إلّا هٰذه النفس الشريفة، فلو نزل ما به بجبل لدك الجبل، ولو كان بـ «يَلَمْلَم» لساخ «يَلَمْلَمُ».

كان «أبوالفضل» يحس حضور الملائكة ويشهده، ويرى الأولياء والأنبياء يقفون على ربوة تشرف على الميدان، ويرى أباه «المرتضى» ينظر إليه ويرقب حركته ويقيّم أداءه، ويعلم أنهم جميعاً ينتظرون حدثاً واحداً... وكان ـ سلام الله عليه ـ يرى الله ناظراً وحسيباً، ليمسك أو يعطي، ليطلق «القربان» ويسمح له، أو ليحبسه ويرجئه.

كنت قد سمعت وقرأت كثيراً في حياتي، وصرفت من الفكرة والتأمل والتدبر أكثر، عن سر آمتناع «أبي الفضل» عن شرب الماء وقد ملك المشرعة؟ الحدث الذي أدار الرؤوس وأطار الألباب، فما زالت الخطباء تمجد والشعراء تنظم، والحكماء تبهر، والعلماء يناقشون ويفلسفون ويفسرون... ماذا زاد «الحسين» أو أفاد سيْر المعركة والوضع القتالي آمتناعه؟ وماذا كان سينقص من ذلك شربه؟ ألم يكن من الأفضل أن يشرب «العباس» ليتقوى ويُهلك مزيداً من أعداء الله يرسلهم إلى جهنم بسيفه يدفع بذلك عن إمامه؟ هل يجوز في شرع الإسلام أن يتعمّد أحدٌ الإضرار بنفسه، أو يتعمّد عدم إسعافها بما ينقذها إذا أُتيح له ذلك وتمكّن وقدر وآستطاع؟

من العلماء مَن ذهب إلى أنه «الإيثار»... ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، مفترضين وجود تزاحم ما، بين أن يبادر «أبوالفضل» بنقل الماء، ويسرع في الوصول إلى العُطاشى في المخيم، وبين تلك اللحظات القليلة التي قد يستغرقها شربه. وليس في الأمر إغراق ومبالغة...

فأحتدام القتال وشراسته، وحجم الرصد والتعبئة في العدو، وسرعة المدد والنجدة، والشدة والقسوة المفرطة في إدارة المعركة، تكشف عن إصرار خرافي بات عليه الجيش «الأموي» في قطع الطريق على «العباس»... كل ذلك يفتح باب الأفتراضات والأحتمالات، بل يرجح أن يعرض ما يعيق وصول الماء، ويجعل للتأخر، ولو للحظات معدودة، آثاراً كبيرة وخطيرة، تسمح وتفسح أرضية للإيثار أن يبرز، وتصنع له محلاً أن يتألق.

فأمتنع ـ عليه السلام ـ عن الماء مؤثراً، ولسان حاله:

فلو على قدر حبُّ المرءِ تؤثره * ما كان إيثارُ خلقٍ فوقَ إيثاري

ومنهم من قال إنها «المواساة»... أبت المروءة والشرف، وأمتنع كرم المحتد وطيب المنبت، وحكم النبل وقضى الوفاء أن يبقى «العباس» صادياً، فلا يروى وإخوته وأهله عطاشى.

وحق له ذلك، فكيف لطاهر المنبت وزكي المغرس، أن يشفي أوامه ويفثأ غلّته، وأطفال ونساء على مرأىً منه ومسمع، أخذهم العطش حتى صرَّ آذانهم وأجج صدورهم وألهب أحشاءهم؟ فصاروا من اللواح إلى الظمأ، ومن الصدى إلى الغلّة، ومن الهُيام إلى الأوام، ما بلغ بهم الجُواد، أي أفضى إلى القاتل، وهو أشد العطش وأفحشه!؟

وكنت على رأي ثالث... إنه التعبّد المحض، والمتابعة الخالصة المطلقة. رأى إمامه لم يشرب الماء، فأراد أن يتأسى به. لم يشرب، و«العباس» يعلم أن «الحسين» لو شاء لأجرى الأرض من تحت أقدامه، وفجّر ـ بإيماءة ـ ينبوعاً، لكنه يمتنع، فحقّ أن يُقتدى ويتّبع، لأثرٍ وضعي يلتمسه، أو لسِرٍّ خفي يرجوه، بل لا لهذا ولا ذاك، إنها مجرد أتباع وأئتمام تعبدي محض.

وها أنا أقف الآن على وجه جديد رابع، وجه ملكوتي وتفسير لاهوتي لهذا الفعل الإلهي الذي كان من «العباس»! ما سبق أن قرأته في سطور الكتب وصفحاتها، ولا سمعته من الأفواه، ولا خطر في ذهني، ولا حدثتني به نفسي قبل أن أُلهمه، بل أراه، الساعة.

إن «العباس» كان يخشى أن يفسد على «القربان» مسيرته.

خاف أن يقطع عليه سبيل «جُلجُلته»، فيكون قد قصّر في دوره وما كان يُرتقَب منه من رفد «المولى» بالهموم وتغذيته بجرع الآلام، وملء الكأس من الجزع! والأصح أن أعبر: أن يخلي بين «المولى» وبين الهموم والآلام، ولا يقوم بما يحول دون أن تمتلئ كأس منيته، فتفيض روحه قرباناً.

هكذا ظهر قلب «العباس»: خزانة لله، وعيبة لإرادته، ووعاءً لمشيئته... فكان أعظم من العرش، وأوسع من الكرسي، وأطيب من الجنة، وأزين من الملكوت. أرضه المعرفة، وسماؤه الإيمان، ومطره الرحمة، وأشجاره الطاعة، وثمره الحكمة. وانكشف أن له أبواباً أربعة لا غير: العلم، والحلم، والصبر، والرضا... لا يتسرب إليه شيء من الخيال والوهم، ولا يعتريه ضعف من «عاطفة». و«العاطفة» المرفوضة هي ما ينشأ من ضعف الروح، لا تلك التي تتولّد من الرحمة. هكذا تجلّى «العقل» وظهر، وهو يقهر الوهم ويرغم العجز بأروع صورة!... والملفت أنه ظهر عبّر فعل موغل بـ «العاطفة»، مُترع بالأحاسيس، مفيض بالرقة والحنان ويكل ما قد يصنّفه السفهاء مقابل «العقل» ويخلطون بينه وبين عمليته؟! حتى نعت بعضهم فعل «العباس» بالانفعال العاطفي وصنّفه في الإفراط والهيجان النفسي الذي فرضته قسوة المعركة وشدة القتال. وتخلّص آخرون من البحث والتفسير والتماس وجه علمي، بأيسر مؤونة وأقل كُلفة، فأنكروا الفعل ووقوعه، وعزوه إلى ما دُسّ في التراث وتسرّب إليه من باب عشق البطولة وخيال صناعة الأبطال!

ولم أملك، حين انكشفت لي الحقيقة الملكوتية لهذا الفعل العظيم، أن أردّ على هؤلاء السفهاء إلّا بالقول: ألا تعساً لكم وقبحاً. ورحت أكررها وأنا أتقلّب في حيرتي وأدور في دهشتي... وكدت ألعنهم، فأمسكت.

هكذا علمت كيف يكون كل شيء هنا، في ملحمة «كربلاء» وسيرة «عاشوراء»... عقلياً وعقلائياً، حتى أخص أفعال العاطفة ومظاهرها كالبكاء والجزع، هي من العقل وإليه! وعلمت مدى سخافة وتفاهة تلك الآراء التي تزدري البكاء وهي تصنفه نزعات عاطفية، ليست من شأن الرجل المؤمن، بل يراها تُخِلّ بالموقع العقلي وتسيء للدور الرسالي للحدث!

❁ ❁ ❁

ظننت أنني أكتشفت سرّ عظمة «العباس» صلوات الله عليه ووقفت على إكسير تفوقه على أقرانه، ما بوّأه مقاماً يغبطه عليه جميع الشهداء، وأن ذلك في ملحمة البطولة التي سطرها بينه وبين نفسه، وهو يمتنع عن الشرب. وإذا بالساعات ـ من بعد ذلك ـ وهي تقودني إلى أحلكها وأشدها، إلى حيث قامت القيامة في تلك النفس الزكية... تكشف لي جديداً.

كان «الصحب» صرعى يفترشون ذلك الصعيد الملتهب، وجنائز «الآل» ممددة طريحة هنا وهناك... و«حجة الله» وناموس العصر، مكثور منكسر، آيس من الحياة، قد أنقطع عنه المدد، وأنفرد وحيداً يكثر من قول: "لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم".

وبدا أن للوحشة صوت يفتك، وللوحدة والأنفراد أنين ورجع يملأ الفضاء، ويطبق على الأشياء، كأنه يتساقط وينهمر، أو يحط ويستقر، حتى يلف القلوب ويرغم الأنفس والأرواح أن تجاريه وتنطبع بمسحته وسحنته! سرَتِ الوحشة وأطبقت كبقايا مؤتفكة خلّفت غباراً وسَفْسافاً، غمر كل شيء بكآبته وضمّخها برائحة الموت وكافور الفناء، وهذه يدها الثقيلة تمرُّ على المساجد السبعة، على الجبهة والراحتين، ثم الركبتين، فإبهامي القدمين، «تحنّطها» بغبار «كربلاء»، وتدرجها بأكفان من نسج هذا التراب... والفضاء لا يوفر أجراس الأحزان وألحان النوادب والناعيات، ولا يقصر عن أصوات الرعب وصدى المهولات! فلا أدري: أحنين إبل هذا وإرزام، أم عواء ذئاب تتضوّر؟ وضُباح بُوم هنا يصك الأسماع، ونعيب غربان هذا يملأ الآذان، أم وَطْ خفافيش وغَقّ نسور وعقبان؟

كوِّرت الشمس، وكمه النهار، وتجهمت السماء، وقتمت حتى تخال أن «عبوساً قمطريراً» وصفت هذا اليوم لا «القيامة الكبرى»!... ها قد تراءت النجوم، نجوم في الظهيرة؟! نعم، ولكنها ما إن ظهرت حتى خفقت وآذنت بأفول، ومن حولها كواكب خُنّس وجوارٍ كُنّس، كأنها ظهرت لتعلن وتعبِّر عن رأي لها في ما يجري هنا الساعة، وتتخذ موقفاً تسجّله فترحل.

لست أدري، أهذا ما ملأ «العباس» وشحنه ففاض صبْره وأودى، أم ما كان يفيض من الأرض والسماء، وينصب في مسامعه من عويل النساء وصراخ الأطفال من العطش؟ وكأنه لم يكن يُطلَق في الفضاء، بل كان يوجّه إليه ويتحرى أذنه ويقصده بالتحديد!

أم أن الأمرين كانا رافدين للإرادة التكوينية، وشكّلا ـ معاً ـ العلامة المعينة في ناموس الطبيعة والتكوين، التي كان ينتظرها «العباس»؟

فتقدّم يطلب الإذن من «أخيه».

وقف «المولى» ينظر إلى أنفس ذخائره وأعز إخوانه وأنصاره، فهو مرعب الأعداء ورادعهم، وحامي النساء ومطمئنهن... فلم تسمح نفسه القدسية بمفارقته، فبكى «الحسين» بكاءً شديداً، ثم قال له:

يا أخي أنت صاحب لوائي!

قال «العباس»: قد ضاق صدري وسئمت الحياة، وأريد أن آخذ من هؤلاء المنافقين ثأري.

فقال «الحسين»: فاطلب لهؤلاء الأطفال ماءً.

فذهب «العباس» إلى الأعداء ثانية، ووعظهم وحذرهم، وحاور بعضهم، فلم ينفع من ذلك كلّه شيء، فرجع إلى «أخيه» يخبره بإصرار القوم وتمسكهم بمنع الماء... وبينا هو يحدّثه وينقل له ردودهم، إذ سمع الأطفال ينادون: "العطش العطش".

ومن ورائهم يأتيه هاتف السماء ونداء سكّان الملكوت:

ساقي عُطاشى «كربلاء»...

ساقي عُطاشى «كربلاء»... «أبا الفضل»

فركب فرسه وأخذ رمحه والقربة، وقصد المشرعة، وإذا بأربعة آلاف ممن كانوا موكّلين بـ «الفرات» ينبرون له ويتصدون، وبدا أنهم من غيْر الفرقة الأولى التي لقيها أوّل مرة، أو أنهم قد أُضيفوا إليها وأُلحقوا بها، بعد أن هزمها «العباس» آنفاً، فأرادوا أن يحتاطوا حذر أن يكررها ويبلغ الماء ثانية. أحاطوا به وأخذوا يرشقونه بالنبال...

نفر فيهم «أبوالفضل» وقحم فرسه، فهاجت عليهم كأنها من قيد الأوابد، ففرقهم وكشفهم، وقتل منهم عدداً، حتى دخل الماء وخاضه.

أنغرست سنابك الفرس، وأنغمرت حوافرها في لازب الطين، وغاصت قوائمها في النهر حتى الركب من قوادمها، والعراقيب من أرجلها، وكانت تتكربل وهي تتحامل لتنزعها من فرط لزوجة الرَدَغة وشدة ألتصاقها... ترجّل الفارس من على سرجه، ترجل الثبيت الإسوار، فرسب في قاع «الفرات» وأرتكز كوتد ضرب أو رمح زرع، ما حرك ولا تـرأد، دون أن تنغمر قدماه، بل كأنه وقف وثبت في قاع صخرية صلبة، وللحظات خِلْتُ قدماه ما غطّتا ولا مَقَلَتا، بل هو واقف على قلل الماء وصفحة «الفرات»، كما يقف على جدد الأرض وأديمها!

ثم أنحنى يغمر قربته ويسقيها، ينظر فقاقيع تسرّب وخروج الهواء منها، ويسمع ما تحكيه البقبقة من دخول الماء فيها... وكانت قربة كبيرة كتيم، جيدة الخرز، لا خرم فيها ولا أنحثاث، لا ينضح منها الماء ولا ينز. يبدو أن «العباس» أختارها من بين القرب والسقا بعناية، فكأنها بكر جديدة لم تستعمل، فلا طويت على بلل من رطوبة أو بقية لبَن، ما يغيّر أديمها فتلخن وتتقطّع عفناً، ولا تثنّت أو غَضِنت. وقد حرص ـ سلام الله عليه ـ أن يطفحها وينزقها، فما وكاها وسد فاها حتى أمتلأت وفاضت.

فرغ من القربة، وما فرغ قلبه من الفكرة في حال عيال «الحسين»، فبعد أن كان قد أنهى معركته الشخصية مع الشرب، وقرر الأمتناع والإبقاء على غلّته، قبل الشروع في ملء القربة، عاد الآن يفكر في خاطر جديد!

فأغترف غرفة بكفيه، ووقف ليدنيها من فمه...

لا ليشرب، فما عزم على ذلك ولا همّ به لحظة، ولكن ليوهم مَن كان ينظره من النساء والعيال، فيريحهم ويسكن أضطرابهم، بتحقق شيء من الآمال وتمكنه من شرب الماء!

أراد أن يمثّل الشرب تمثيلاً...

فإذا كان «الدور القرباني» يقتضي أن يبقى ألم «المولى» في الذروة والغاية، لا ينخفض به أرتواء أخيه، ولا يسكّنه فرج أو تخففه فرحة، فلِمَ يكون ذلك للنساء والأطفال؟ وما بال «زينب» تحرم من هذه النعمة؟... دعهم يفرحوا وتنزاح بعض همومهم بنصر عمّهم الضيغم البطل، وتمكّنه من إطفاء عطشه، ليسروا عن أنفسهم شيئاً. ليرفع الماء إلى فيه كأنه يشرب، فيحقق ذلك، وهو ما لا ولن يخفى على «المولى»، فلا يقع في المحظور من دوره ورسالته.

ولكن خاطراً أنتابه في اللحظة الأخيرة، صرفه حتى عن التظاهر و«التمثيل»، ومحاولة تسلية «زينب» والعيال... خاطر جاءه من النور الذي كان يجلّله ويسطع في وجوده في هذه اللحظات، كما لم يكن من قبل... كشف له الغيب وأطلعه على مصير القربة، وأن الماء لن يبلغ المخيم، أو أنه لن يبلغ المخيم بالماء!

فخشي أن يولّد ذلك حسرة في نفوس الأطفال، على حسراتهم! أن شرب عمّهم الماء ولم يشربوا، فقرر أن يواسيهم...

ولعل ما فهمه الناس وصاروا يتحدّثون به حتى يومنا هذا، من المواساة والإيثار والفداء، في موقف «أبي الفضل» عليه السلام مع الماء وأمتناعه عن الشرب، مفاهيم أستلّت من هذه الصورة الرائعة، وأنتزعت من هذا الفعل العظيم، ولكن أختلط عليهم الأمر وحسبوا أن «العباس» همّ - حقاً - وأراد صدقاً أن يشرب، فتذكّر عطش «أخيه» فأنصرف. والحق أنه ما قصد ولا همّ بالشرب أبداً، ولا نسي عطش «الحسين» لحظة ليعود فيتذكره، إنما مثّل ذلك تمثيلاً. كما ظنوا أنه أنصرف إيثاراً ومواساةً لـ «الحسين» عليه السلام، والحق أنه إنما واسى العيال والحرم، وآثرهم على نفسه.

أما حاله مع «المولى» فكان لها شأن آخر يحكمها.

أهرق الماء من كفيه...

فكان لرشيشه على سطح «الفرات» خَدَمة وزفير، ونقيض وحسيس!

قطرات رجعت إلى مصدرها ولحقت بموردها، هوت من قريب ناهز قامة «العباس»، وسط مثيلات لها لا تحصى من تساقط السهام وقذف الحجارة، ومن خبط الخيل ورشاش ضبحها ورمحها حول الموقع الذي قحمه «أبوالفضل»... لكن هذه سقطت كأنها المهل وهوت كشواظ وتقاطرت كالجمر أو مذاب الرصاص، وكان لألتقائها بـ «الفرات» قصف وصعق ودوي، قبل أن يطفئ بَرْدُهُ نيرانها ويهمد ذكوتها!

وكأنه مع النار، علقم يداف، أجّ هذا النهر العظيم وأحاله زعاقاً مريراً.

ألقى أبيّ النفس قربته على عاتقه، وحملها على كتفه الأيمن، وتوجه نحو المخيم... وسرعان ما قطعوا عليه الطريق وأحاطوا به من كل جانب. فحاربهم وأكثر من قتلهم، وهم بين فوج ينكشف ويفر، وآخر يقحم ويكر، يتوالون عليه ويتعاقبون كتيبة تلو أخرى. حتى إذا خرج من محيط المشرعة وخلّص نفسه من القتال المنهك في لزج الطين وثقله، ومن التكربل في وَحْلِه، وأخذ طريقه إلى المخيم، كمن له «زيد بن الرقاد الجهني» من وراء نخلة، ومعه «حكيم بن الطفيل السنبسي» يعاونه...

عندها أحتجب المنظر عني وتوارت الصورة!

لم أعد أرى ما يجري في الميدان، لا أدري أذهلت فأختلط الأمر عليّ، أم عاد الحجب والحظر مرّة أخرى، غابت الصورة، ولكن الصوت بقي يصلني على حاله... حتى سمعت شهقة وصعقة، ومن بعدها أرتفعت أصوات الجوقة الأولى التي كانت تبث الحماسة بهتاف: "ساقي عُطاشى كربلاء"... عادت الآن لتنشد بأفتجاع مصحوب بلطم وندبة:

"يا «فاطمة» الحزينة، قطعوا يمين «العباس»"!

بلهجة نبطية وإلقاء عامي غير فصيح، سكّن الطاء في «فاطمة» وفي «قطعوا»، ناهيك بأواخر الكلم، فأتزنت العبارة وتناغمت مع إيقاع اللطم الشديد الذي ضجت به السماء.

وما انكشفت لي الصورة إلّا وكانت ضربة «زيد بن الرقاد الجهني» قد بترت يمين «أبي الفضل»! من لدن الساعد، ما بين المرفق والرسغ، والأقرب إلى المعصم، فقد كانت عضده وبعض ذراعه ما تزال في جسمه الشريف... وكانت الدماء قد لطّخت ثيابه ودرعه، لكنه ما سقط عن فرسه، وإن أخلى العنان، بل مضى في القتال وقد أخذ السيف بشماله، وجعل اللواء بين السرج وفخذه، وضمه بعضده وما بقي من ذراعه إلى صدره.

كان في غاية الحرص ألّا يسقط اللواء! وما كان لواءً، لا والله ولا راية، بل عُقاباً له رنق كخفق النسور، تقصر الكف الواحدة حتى من شَرَنْبَثِ الكفّين من الرجال، أن تطوق قائمته وتحتوي عليه، ناهيك بأن ترفعه.

فبعد ما في الراية من الرمز وما تحمل من معنىً، كانت العلامة التي تشير إليه وتدل أهله عليه، فهي ما يظهر لهم من بين الألوف التي أحدقت به واحتوشته من كل جانب، وما دامت عالية تخفق، واضحة تلوح، كان الأمل: ينبسط في نفوس الأطفال بشربة تطفىء لهيب صدورهم، ويبعث في الهاشميات ما يؤمن روعتهن ويسكّن هواجسهن، ويبقي في وجود «المولى» على نياط تعلّق بها قلبه، وحزام يشد ظهره.

أخذ «أبو الفضل» السيف بشماله، وألقى القربة على كتفه الأيسر، وحمل على القوم كالليث الغضبان، يفتك بهم ويبيد من جمعهم عشرات ومئات، حتى ندموا أن جرحوه دون أن يقتلوه ويجهزوا عليه. وكان يرتجز:

والله إن قطعتُمُ يميني
إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين
نجل النبي الطاهر الأمين

وما زال يقاتل... حتى بدا عليه الثقل والفتور من كثرة النزف وشدة الضعف، فباغته «حكيم بن الطفيل» من ورائه. عاد المشهد للانقطاع، واختفت الصورة ثانية، ومعها الصوت هذه المرة، لا أدري لماذا؟ وما رجعت إلّا وقد قطعت ضربة اللعين شماله من الزند.

و«العباس» يقول، ولكن بضعيف صوت:

يا نفس لا تخشي من الكفار
وأبشري برحمة الجبار
مع النبي المصطفى المختار
قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصْلِهِم يا رب حر النار

تهلهل سرباله وأنحلّت عرى لامته، من كثرة ما وقع فيها من الضرب والرشق، وأخذه الإعياء والنزف حتى وقع السيف من يده! ولم أرَ على رأسه الشريف مغفره وبيضته، كأنه تخلص من ثقلها ليخفف عن نفسه شيئاً وينطلق في حركته دون إعاقة، أو أنها الأُخرى سقطت من ضربة أو رمية، لكن الراية ظلّت منتصبة، وقد أخذ القربة بأسنانه، وجعل يهم ليسرع إلى المخيم ويوصل الماء بلغ الأمر ما بلغ...

فلما نظر «عمر بن سعد» إلى شدة عناية «العباس» بالقربة، وحرصه على الوصول بها إلى المخيم، عجب من ذلك وأستغرب:

ما عسى أن تحوي قربة واحدة من ماء؟ وكم لها أن تروي من عطش؟

ما أنتظر «زقلل» الذي كان منتصباً خلفه، بفاحش طوله وعظيم جثته، حتى بدا «أبن سعد» بين يديه كظلٍ له إذ كانت الشمس خلفهما، ما أنتظر أن يسأله أو يستشيره في الأمر، بل بادر قائلاً بأجش صوته، وما وجّه خطابه إلى «أبن سعد» مباشرة، كما لم يتوجّه «عمر» بسؤاله إليه... كان «زقلل» يتأمل الساحة، يرسل نظره من ضيق عينيه، كأنه يحادث الميدان ويخاطب المشهد: إن في القربة لسراً، سحراً من سحر «بني هاشم»، أعداد يحسبونها وأرقام يؤلفون بينها وكلمات يتمتمون بها، تقلب القربة نهراً وتفجر منها ينبوعاً، فلا تنضب ولا تجف حتى ترويهم وتكفيهم جميعاً!

ما أتم «زقلل» عبارته الشريرة حتى صاح «عمر بن سعد» بجُنده:

"ويلكم، أرشقوا القربة بالنبل، فوالله لو شرب «الحسين» من هذا الماء، لأفناكم عن آخركم".

فأنصبت السهام على «العباس» وأتته كالمطر...

وقد قطعوا عليه طريقه، وأزدحموا حوله وتدانوا منه وضيقوا عليه الخناق. فبعد أن كانوا يفرون ويتباعدون، يدفع كل صاحبه ليتقدمه، صاروا يسارعون ويتشجعون، إذ لا سيف في يديه! ومع ذلك ما كانوا يقربون إلى حد الأشتباك والألتحام، مُبقين على حذرهم وحيطتهم، فيكتفون بالحجارة والسهام، يرمونه بها من كل جانب...

فأصاب القربة ووقع فيها أكثر من سهم حتى أريق ماؤها، وسهم أصاب صدره نفذ من متهلهل زرده، وسهم أصاب عينه فأطفأها، وكانت الدماء قد جمدت على الأخرى... فلم يعد يبصر طريقه.

وكنت أعجب من إصرارهم على الرمي والمنابلة، رغم أن «العباس» صار قطيع يدين، وبلا عينين، قد أثخنته الجراح ونالت منه حتى كأنه وقف مستسلماً ينتظر حتفه! فلِمَ لا يقدمون عليه من قريب؟

لم يفعلوا، فقد كان مرآه يبعث فيهم الرعب، وقد رأيت مثالاً لآية ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يرتسم في السماء ويتجسم فوق رأس «العباس»، مثالاً يحكي كيف يلقي الرعب في قلوب أعدائه وأنه يستل هيبته من «أبيه» الذي نزلت الآية فيه... فلا يقربون منه ولا يدنون، يخال أحدهم أنه إذا قرب فإن هذه الأنفاس الأخيرة التي تهدر في صدر «العباس»، تحكي حشرجة الموت، ستنقلب نهيأ وزئيراً، وهدَّة تعصف من قِبَل بحر البأس والشجاعة، يقتلعهم هديده من الجذور ليقذفهم في وادي «برهوت»، يرميهم في عرائه، إذ يأبى حتى بطن هذا الوادي أن يحتويهم ويضمهم، و" ويل لمن كفّره «نمرود» "، وويل لمن أبته «برهوت»! فمن يملك ـ بعد هذا ـ أن يدنو من الليث في زُبيته ويقرب من الغضنفر في عرينه؟

حتى الشقي اللعين الذي أجهز عليه، لم يواجهه بضربة سيف أو طعنة رمح، بل أتاه من خلفه وباغته بعمود من حديد... هوى به على أم رأسه، فأنقلب «العباس» عن ظهر فرسه، وخرَّ إلى الأرض صريعاً والراية إلى جواره، سقطت وهوت معه.

لم ينقطع عني المشهد ولا غاب، فقد كنت من الألتصاق به والأندماج معه، بحيث لم يحتجب عني، ولكنه قتم وكدر، وغبشت صورته ونال وضوحها شيء، ثم عادت إلىٰ حالتها الأولىٰ.

هدأت الأصوات بعد جَلَبة ومعمعة، وضجّة وبلبلة، وبعد صليل وطنين، ولَدْم ودبدبة... زالت الضوضاء وأنقضىٰ الصخب وتوقف الصياح، وقد عمّ ذلك الصمت الرهيب الفضاء، وشمل الأجواء، وسرىٰ إلىٰ السماء، فقد سكنت الريح، وحط العجاج، وأنقشعت الغبرة، وقرّ الهواء فما عاد يتحرك، حتىٰ كأن الأنفاس أنقطعت هنا، وأطبق سكون مهيب، وأصغىٰ الجميع للبطل الصريع، إذ كان به رمق، وهو يغمغم، ينبس ويهمس... لم يتبيّنوا، لكن المؤكد أنه لا يئن ولا يتأوّه، والصوت الصادر منه كلام، لا حشرجة ميت ولا نخير محتضر، كلام تتحرك به شفتاه...

أهتز المكان لكلماته وأرتجف بعد ذلك السكون المطبق القاتل الذي أنعدمت فيه الحركة والصوت والنَّفَس، بل توقف الزمان إجلالاً وما عاد يتقدم فَجْعَة، وكأن وعاء الدهر ضاق عن هذا الحدث، فما كان في وسعه ولا طاقته. ونزلت من فورها ملائكة وهبطت تهدهد وتحوم، في جلبة وجزع... وأنا في وجوم! وعمّت الموقف ـ ثانية ـ دكنة وعتمة، وعاد العثير وسطع العجاج، يهيجه نوح ملائكة وجن، وخلق آخر لا عهد لي به ولا معرفة، أجناس من سكان الكواكب والنجوم و«بنات نعش الكبرىٰ»... تطوف حول الجثمان المضرج هفواً وعدواً، تقفز من جزع وتطفر من لوعة.

وملائكة تحيط بربّات الأسىٰ، الثواكل اللاتي أفجعهن نداء «العباس» الأول: "أدركني يا أخي"، ثم الثاني الذي جاء بعد لحظات:

"عليك مني السلام «أبا عبدالله»". فعلمن بمصرعه...

فهبطت أفواج لتنهض بدور حامي الحمىٰ الفقيد، والبطل الشهيد، كأنهم حرس أو حجّاب، يجللون مَن يهتك الجزع خدرها فتخرج لتنشر شعرها وتشق جيبها وتعول فتصدع الجبال في أقصىٰ الأرض وأدناها، وتزلزل العرش في ملكوت ربه جل جلاله... فلا تراهن عين ولا يميزهن ناظر.

وقد عاد شيء من المنظر الذي رأيته أول عروجي وانتقالي إلى هذا العالم، حين أطلعني «فطرس» على «المذبح» وأراني عرصة تقديم «القربان». فوقفت أستجمع شتات نفسي، وأستحضر: في أي الموقفين أنا الساعة؟ كيف تترتب الصور وتتوالى الأحداث للمشاهدين في هذه الحضرة؟ لقد سبق أن سمعت هذه الأصوات ورأيت جانباً من هذه المناظر! هل هي شاشة تعرض باستمرار، يستمد من خلود الحدث، يطلع عليه من يبلغه ويصل إليه؟ هل حقاً أنا في «كربلاء»، أم أن اللطافة هنا تناهز التجرّد، فتشف الأشياء وترق، حتى ينعدم المكان والظرف، فكأنني في رؤيا ومنام؟

أفقت مما أنا فيه على زلزلة الأرض من تحتي، وما أخذها، وأخذني، من رعدة شديدة، وهاتف يسرّني: سنزوّدك من هذه الحضرة بما يثبت لك أنك لست في منام! هاتف قطعه ما ارتفع من أصوات الندبة والجزع تنادي:

"وا عباساه، وا قمر بني هاشماه".

وآنستُ والملائك صوتاً شجياً يقدم من جهة «المدينة المنورة»، فأقبلت معها عليه وألقيت السمع إليه، فإذا به ينشد:

يا من رأى العباس كرّ على جماهير النَّقَد
ووراه من أبناء حيدر كل ليث ذي لَبَد
أُنبئت أن ابني أصيب برأسه مقطوعَ يد
ويلي على شبلي أمَال برأسه ضرب العمد
لو كان سيفك في يديك لما دنا منك أحد

فبادرت الملائك من فورها وصدحت، كأنها تقابل رثاء «أم البنين» وتجيبه، وترد عليه وتعدد معه:

عَمَدُ الحديد بكربلا خسَفَ القمر
من هاشم فلتَبْكه علَيَا مُضر
أوَما دَرَتْ عن سرجه العبّاسُ خَر
فمَشى إليه السبطُ ينعاه كسر
تَ الآن ظهري يا أخي ومعيني

وقد أنشأ الوحي من فوره وراح ينثر:

سلام الله وسلام ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وعباده الصالحين وجميع الشهداء والصديقين، والزاكيات الطيبات فيما تغتدي وتروح عليك يا بن أمير المؤمنين. أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخَلَف النبي المرسل والسبط المنتجب والدليل العالم والوصي المبلغ والمظلوم المهتضم، فجزاك الله عن رسوله وعن أمير المؤمنين وعن فاطمة والحسن والحسين أفضل الجزاء بما صبرت وآحتسبت وأعنت فنعم عقبى الدار، لعن الله من قتلك ولعن الله من جهل حقك وآستخف بحرمتك ولعن الله من حال بينك وبين ماء الفرات... أشهد أنك قتلت مظلوماً وأن الله منجز لكم ما وعدكم. أشهد وأُشهد الله أنك مضيت على ما مضى به البدريون والمجاهدون في سبيل الله المبالغون في نصرة أوليائه، الذابون عن أحبائه، فجزاك الله أفضل الجزاء وأكثر الجزاء وأوفر الجزاء وأوفى جزاء أحد ممن وفى ببيعته وآستجاب له دعوته وأطاع ولاة أمره. وأشهد أنك قد بالغت في النصيحة وأعطيت غاية المجهود، فبعثك الله في الشهداء وجعل روحك مع أرواح السعداء وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً وأفضلها غرَفاً ورفع ذِكْرَك في علّيين وحشرك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. أشهد أنك لم تهن ولم تنكل، وأنك مضيت على بصيرة من أمرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين فجمع الله بيننا وبينك وبين رسوله وأوليائه في منازل المخبتين فإنه أرحم الراحمين.

كانت هذه الزيارة العرشية تحفة السماء التي أستقبلت وصول «المولى» إلى جثمان «أخيه»، وبمثابة التعزية والتأسية التي قدمت بين يديه. وقد هوى عليه وأرتمى كالصقر إذا أنحنى على فريسته، فتفرق جند «بني أُمية» من حول الجثمان كأنهم يفسحون لـ «المولى» أو يتجنبون مواجهته وهو في غضبته.

نزل ـ عليه السلام ـ إلى أخيه، وأنحنى عليه يمسح الدم عن وجهه، ثم همّ أن يحتمله، ففتح «العباس» عينه فرآه، فقال له:

إلى أين تريد بي يا أخي؟!

: إلى الخيمة!

: أخي، بحق جدك «رسول الله» (صلى الله عليه وآله) عليك، أن لا تحملني، دعني في مكاني هذا!

: لماذا يا أخي؟

: إني مُستحٍ من أبنتك «سكينة»، فقد وعدتها بالماء ولم آتها به!

: ما عادت تأبه بماء، وقد أنقطع رجاها إذ سمعت النداء...

: أنا كبش كتيبتك ومجمع عددك، فإذا رآني أصحابك وأهل بيتك وأنا مقتول فلربما يفل ذلك عزمهم، وينفد صبرهم.

فقال «المولى» عليه السلام: جزيت عن أخيك خيراً، حيث نصرتني حياً وميتاً. وأخذ برأسه ووضعه في حجره، وجعل يمسح الدم عن عينيه، فرآه وهو يبكي، فقال «الحسين»:

ما يبكيك، يا «أبا الفضل»؟!

قال: أخي، يا نور عيني! وكيف لا أبكي ومثلك الآن يأخذ رأسي في حجره، فبعد ساعة مَن يأخذ برأسك، ومَن يمسح التراب عن وجهك؟

وكان «المولى» جالساً ورأس «العباس» في حجره، إذ شهق شهقة... وفارقت روحه الطيبة.

فصاح «المولى»: "وا أخاه! وا عباساه"! ثم قال:

"الآن أنكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمت بي عدوي". وصار يكرر:

"وا أخاه! وا عباساه! وا مهجة قلباه"!

ولست أدري هل تركه في موضع مصرعه في الميدان، أم حمله على ظهر جواده وأقبل به إلى الخيمة، أم أنه حمل «المثال» وترك الجثمان؟

وصل الخيمة، وصار يبكي بكاءً شديداً، حتى بكى جميع من كان حاضراً، فقال ـ عليه السلام ـ:

"جزاك الله من أخ خيراً، لقد جاهدت في الله حق جهاده".

وصرخت «زينب» بأفتجاع وقالت: "وا أخاه! وا عباساه! وا قلّة ناصراه! وا ضيعتنا من بعدك"!

فقال «الحسين»: "إي والله! وا ضيعتنا من بعده! وا أنفصام ظهراه"!

وقد حكى «روح القدس» المشهد وصوّر حال «المولى» على لسان السيد «جعفر الحلي» في ميميته الخالدة:

فَمَشى لِمَصْرَعه الحسين وَطَرفُه
بَينَ الخِيام وَبَينه مُتَقَسّمُ

ألفَاهُ مَحجُوبَ الجَمال كَأَنّه
بَدرٌ بِمُنْحَطم الوَشيج مُلَثَّمُ

فَأكَبَّ مُنحَنِياً عليه وَدَمعُهُ
صبَغَ البَسيطَ كَأَنَّما هوَ عَنْدَمُ

قَد رامَ يَلْثمُهُ فَلم يَرَ مَوْضعاً
لَم يُدمِهِ عَضُّ السِلاح فَيُلْثَمُ

نادى وَقَد مَلأ البَوادي صَيْحةً
صمُّ الصُخور لِهَوْلِها تَتَألَّمُ

أأخيَّ يُهنيك النَعيم وَلَمْ أخَلْ
تَرضى بِأن أُرزى وأنتَ مُنعَّمُ

ما خِلتُ بَعْدَكَ أن تُشل سَواعدي
وتَكُفُّ باصِرَتي وَظهري يُقصَمُ

لِسواكَ يُلطم بِالأكُفِّ وَهَذِهِ
بيضُ الظُبا لك في جبيني تلطمُ

مـا بَينَ مصـرعِكَ الفَظيـعِ وَمَصـرعي
إلّا كَـمـا أدعــوكَ قَـبلُ وَتُـنـعِـمُ
هـٰذا حُـســامُكَ من يَـذُبّ بِهِ العِـدىٰ
وَلِـــواكَ هـٰذا مَــن بِـهِ يَـتـقَـــدَّمُ
هــوَّنتَ يـا بـن أبي مصـارِعَ فتيتي
وَالجُـرحُ يُـسكِـنُهُ الـذي هُــوَ أآلَـمُ
يـا مـالِكـاً صَـدرَ الـشَريـعـة إنني
لِقَلـيلِ عُـمـري في بُكـاكَ مُـتَـمّـمُ

ومن عجيب ما يتجلىٰ هنا الساعة، أن روح «أبي الفضل» تأبىٰ العروج إلىٰ حظيرة القدس! وبقيت في سماء «المذبح» تنتظر «القربان»... ولست أدري: ألتشهد الحدث؟ أم لتكون في معية «المولىٰ» حين يعرج إلىٰ ربه بعد ساعة؟ أم أنه ـ عليه صلوات ربه ـ وجد في هـٰذه «العرصة» حظيرة القدس وأقصىٰ الجوار؟ لست أدري!

والأعجب من ذلك أن «رضوان»، وأفواج خزنة الجنان، والحور والحسان الذين قدموا لأستقباله وليزفوه إلىٰ مقامه، قدّموا له قدحاً ليشرب، فأبىٰ أن يروي عطشه، حتىٰ وهو في برزخه، قبل «المولىٰ»!

لم يشرب حتىٰ بعد شهادته!

وأنكشف لي أنه لم تكن لـ «علي الأكبر» هـٰذه المندوحة، ولا في وُسْعِهِ هـٰذا الأقتداء ولا أتيحت له فرصة هـٰذه المواساة... فهو نفس «المولىٰ» وروحه التي بين جنبيه. أما «أبو الفضل العباس» فيختلف ـ بدرجة ـ عنصراً وذاتاً، وحق له أن يجعل من هـٰذا الأمتناع سبيلاً يرتشف من خلاله صبابة كأس الكمال، ويعلو آخر مرقاة في سلّم الجمال... فيقضي علىٰ التعدد والأزدواج، ويصل الأحدية، ويفنىٰ في ذات الله.

* * *

العقد السادس: الطفل الرضيع

ومنعطف أهوى لتقبيل طفله

فقبّل منه قَبْلَه السهمُ منحرا

كيف يفكر هنؤلاء، وكيف يحكمون؟

أيعقل أن النفوس منهم فرغت إلا من الدِمَن، والأرواح أجدبت إلّا عن الأحقاد والإحَن؟ هل يمكن أن يكون الفكر فيهم خلا وقحل إلّا عن الحسائك، والصدور إلّا عن الضغائن؟... أضمروها وأضبّوا عليها وطووا الأضلاع وأشرجوا الصدور وأوغروها، ليفرغوها الآن، فيكون هنذا الأداء الأثم الشنيع؟ فما زال الفكر يتلاشى، والخطاب يتراجع، والمنطق يهوي ويضمحل، حتىٰ تراه أنحطَّ وسقط وبلغ هنذا الحضيض. فلا وجه لما يجري الساعة، ولا تفسير إلّا سواد الأكباد والعداء المبين.

ما هنذه الجاهلية التي يعيشون؟

هل هي «جاهلية النفاق»، والعَوْد المضمر إلى الكفر بعد التظاهر بالإيمان، «جاهلية» ردّة وأنتكاس، كالتي أصابت جملة من الصحابة في «أحد»، من فقدان الإيمان والألتزام، لفرط أبتهاجهم بالنصر القريب في «بدر الكبرىٰ»؟ فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ فيهم:

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أم «جاهلية الفسق» التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟

أم هي «حمية الجاهلية»؟ فـ «الجهل» نقيض المعرفة، لا بمعنى نفي المعرفة، بل بمعنى المعرفة بكيفية واحدة ورفض ما عداها، وسمّها إن شئت العصبية. وكان الجهل في سياقاته الجاهلية القبلية والحربية يعني إسراف الأعرابي المحارب وشدة اندفاعه، بل فتوته وبطولته القائمة على التضحية بالذات. وهي بطولة لا تصدر عن أخلاق أو فكر أو تفان عقائدي، بل هي بطولة عصبية نفسية متهورة رعناء... إنها «حمية الجاهلية» التي كشفها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، تجدها مبثوثة مطردة حاضرة ماثلة، في جيوش «بني أمية» و«بني العباس» (إلى حد ما)، وعموم عساكر السلطة وحماة الظَّلَمة على مدى التاريخ العربي.

بأس شديد وتفان فريد، حدَّة نادرة وقسوة فاجرة، وغلظة لا تكون إلّا في الأعراب... ومنها ما تراه اليوم في أداء «التكفيريين»، من تفانٍ في «الجهاد» وإقبال على الموت، شغف بالعنف ونَهَم للتخريب وعطش للتدمير، ولا قيود على الوسيلة، غِرّةٍ وفتك وغِيلة، حتى بلغوا «الانتحاريات»: يلغّم أحدهم نفسه بحزام أو معطف ناسف، أو يفخخ عربة بعبوة متفجرة، يقحم بها موقعاً من مواقع «الأعداء». وفي الطريق إلى هؤلاء «الأعداء»، تراهم لا يوفرون الأطفال والنساء، ولا تردعهم حرمة المساجد ومراقد الأولياء، ولا يثنيهم حياد المستشفيات، أو براءة الأسواق والطرق والساحات.

هٰكذا كانوا بالأمس، وهٰذا هو شأنهم اليوم، وهٰكذا سيبقون ويظلّون، خَلَفاً لأولئك السلف، ينطلقون من تلك الحميّة والجاهلية، وتقوم جماعتهم وينهض حزبهم ـ في جوهره ـ على الجهل، لا بمعنى نفي المعرفة، بل بمعنى المعرفة بكيفية واحدة ورفض ما عداها، كما سلف البيان.

وإن جاء العروبيون والقوميون اليوم ليجعلوا من المصطلح (الجاهلية) وصفاً دالاً على مفهوم التحقيب والتقسيم الزمني ليس إلّا، ويفرغوه من الدلالة السيميائية لذاته، ويسعوا جهدهم لوصف ماضي العرب وحقبة ما قبل الإسلام بأنها شيء له قيمته الحضارية، وصب وتحوير المعنى المتبادر في البداوة والتخلّف والوحشية، مقابل العلم والحلم والمدنية... تحويره إلى قيم الإباء والحرية والأنفة، ما ينعكس في عدم الأنضباط والأنقياد، مقابل الألتزام والخضوع، والطاعة والأستسلام الذي ميز الإسلام!

فإن هٰذا لا يغيّر ولا يقلب من حقيقة أيام العرب في الجاهلية شيئاً، ولن يلغي تجليات نموذجية للجهل تراها في أخلاقهم، مما لم تكتمه المدونات ولم يداريه التراث، ومن سيرتهم المشهودة بلا مواربة ولا خفاء... ففي تلك الأيام ـ على سبيل المثال ـ وجدت الحرب تعبيرها الملحمي والخرافي، بل الأسطوري، في أندلاعها بين القبيلتين الأختين: «بني بكر» و«بني تغلب»، التي بدأت بذبح ناقة «البسوس» من «بني بكر»، وذبح مقابل لـ «كليب» زعيم «بني تغلب» المتغطرس، ليتواصل بعدها العداء، وتبادل القتل بإسراف بين الأخوين أربعين سنة متتالية! في واحدة من أتعس وأفظع وأشنع صور الغطرسة والمكابرة والجهل والعناد.

إنها النزعة التي تفتخر وتزهو بالجهل، وتباهي بالعناد وتنادي بالمكابرة، وترى العلم منقصة والحلم ضعفاً، أو حالة ثانوية، وترفاً يمكن التخلي عنه بـ «ميكيافيلية» وقحة! لا تخفي ذلك ولا تداريه، ولا تسعى أن تتنكر له أو تتستر عليه، بل تتبجح وتعتز وهي تقرر حقيقة حالها وتُمضي نظرتها إلى منطلقاتها وما توظفه في سبيل أهدافها، تعرض ذلك كجزء وحالة طبيعية من «ثقافتها»، لا غضاضة فيها ولا ضير، حتى تنظم فيه:

لئن كنتُ محتاجاً إلى الحلم إنني
إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
وما كنت أرضى الجهل خِدناً وصاحباً
ولكنني أرضى به حين أحْرَجُ
فإن قال قومٌ إنّ فيه سماحةً
فقد صدقوا والذل بالحُرّ أسمجُ
ولي فرس للحلم بالحلم ملجَمٌ
ولي فرس للجهل بالجهل مسرَجُ
فمن شاء تقويمي فإني مقوّمٌ
ومن شاء تعويجي فإني معوّجُ

إنها الثقافة التي حكمت عداء «قريش» لـ «بني هاشم»، والمنطلقات التي دفعتهم وما زالت تستحثهم وتأخذهم في طريقها حتى بلغوا ما صاروا فيه الساعة في عرصة «كربلاء». أو قل: الأدوات التي وظّفها «الأمويون» ومن لف لفّهم من أتباع «الشجرة الملعونة»، وسخروها في حربهم الضروس «بني هاشم»! فإنني أرى وجهاً يمكن فيه نفي «الجاهلية» عن القوم... إذا كانت «الجاهلية» مقابل العلم والحلم والأناة، أو رديف بداوة مقابل التمدن والتحضر، فإن في الأداء الأموي تركبّاً وتعقيداً، لا تراه في سذاجة الأعراب وبساطة البدو. ليس الأمر منهم وليد فورة غضب ونزعة حماسة، ولا مجرّد رد فعل نشأ من تعصّب وحمية، إذ هناك مكر ودهاء، وتخطيط وتدبير... ولكن كل هذا وذاك، مما كان على مستوى القادة والأمراء، وطائفة من الجند، لا الجيش كلّه، إنما وجد الأرضية الخصبة من الخسة والوضاعة لزراعة الحقد وتغذيته، ولقيَ النوازع الطبيعية من الجلافة والوحشية، غير المتكلّفة ولا المُحمّلة، في تلك البيئة القذرة والنفوس المريضة. فوافق «شنٌّ» طبقه، ووافى «أبو رغال» غصنه الذهبي، وأدرك «السامري» عِجْله! فكانت المجزرة «الأموية»، بعد حرب ممتدة، أنست العرب قبح «البسوس».

* * *

بعد مصرع «العباس»، بان الأنكسار في وجه «الحسين»، وظهر في واقع وضعه في الميدان، كما أنتعش العدو وبان التفوق وظهرت بوادر النصر النهائي وساعة الحسم الكبرىٰ في معكسر «بني أمية»...

حقاً لقد خلا لهم الجو، بل صفا لخطير قصدهم وراق لفظيع عزمهم! فقد هدأ الميدان شيئاً وقرَّ وسكَن، كأنهم يعيدون تنظيم صفوفهم وترتيب أوضاعهم، ويهيئون ويعدون لإنهاء المعركة.

وهٰذه ثلّة، فيها من قادة الجند وأمراء الكتائب ومبرّزي الفرسان، ومعهم زمرة من أعضاء «الفرقة الصامتة»، تلك الجماعة المريبة الملتزمة للرقابة والتدوين، التي كانت تبعث الخوف والهلع في نفوس العسكر، وتدفعهم للأستعراض وإظهار ما يقربهم من «الأمير»... أنصرفوا جميعاً إلىٰ ركن في طرف المخيم، تستره النخيل وتواريه الأثل، وراحوا في اللعب واللهو! منتشين ومحتفلين بنصرهم المرتقب، أو بإنجازهم آنفاً من قتل عماد معسكر «الحسين» وفراغهم من العقبة الكبرىٰ والأخيرة في طريق إتمام مهمتهم. ومعاودين وَصْلَهم بما قطعته المعركة وأجواؤها عليهم، مما يبدو أنهم كانوا فيه دوماً، وما دخلوا المعركة وخاضوا القتال وأقترفوا هٰذه الجناية العظمىٰ إلا في سبيله، أنصرفوا إلىٰ الشرب والمجون والعبث بالغواني المصاحبات! وكم عجبت لهٰذه الحال... أما أمكنهم أن يؤجلوا هٰذا لأيام، أو حتىٰ لساعات معدودة؟ هل تمكّن الفجور منهم حتىٰ بلغ الإدمان، فلا يطيقون الخروج منه حتىٰ يعودوا إليه؟

وقد فاجأني وهالني أنني رأيت «زقلل»، وهو ـ في مفترض ظاهره ـ الزاهد المتقشف، الجاد البعيد عن الهزل واللهو والفساد، بل قل الجلف الغليظ والخشن السمج، الذي ما عرف الدعابة يوماً ولا خاض في المزاح... رأيته يقصدهم ويمم طرفهم لينضمَّ إليهم ويدخل فيهم! وكنت أظنه سيزجرهم علىٰ لهوهم ومجونهم، وينتهرهم علىٰ عبثهم، ويحثهم للعودة إلىٰ الميدان وإدارة المعركة وشؤونها، والأنصراف لمتابعة أحوال الجند، لٰكنه لم يفعل، بل ألتحق بهم وشارك معهم.

وما زلت في حيرتي وعجبي... حتى تبين أنها مراسم سحرية، وطقوس شيطانية، لا مجرد لهو وتسلية، ولا أستراحة مقاتل منهك!

إنها طقوس تجديد بيعتهم وإمضاء عقدهم مع «الشيطان»، عقد قديم وَعَدَهُم أن يورثهم القوة والقدرة على فعل كل شيء تقريباً، وقد أختبروه وجربوه، فوجدوه حقاً وصدقاً. كان آباؤهم قد أبرموا ميثاقاً مع «الشيطان» أن يطيعوه، فجعل أول أوامره وطلباته إليهم أن يمكّنوه من وطء نسائهم ونكاح أمهاتهم، وأن يغشى متى شاء أخواتهم، ويسمحوا له أن يفسق بأبنائهم ويوقب فيهم، بل أن يلوط بهم!... فيذلل ـ بدوره ـ لهم الصعاب، ويجعل الأشياء طوع أمرهم، ويسلّطهم على ما يريدون. ومن يومها أرتبطوا وتعرّفوا على سَحَرَة تصنع العجائب! كانت تريهم الغيلان وتسخّر لهم عفاريت الجان، وتوكل بهم أمواتاً يمشون في الهواء على صورة أشباح... وكانوا يجنون من ذلك ويحققون كثيراً من أمانيَهم ورغباتهم.

وقد أولدهم «الشيطان» الأولاد ودخل في أنسابهم، حتى تحولوا ـ في واقع أمرهم ـ من عائلات بشرية إلى عائلات شيطانية. وكانت لهم في ديارهم كُنُسهم وبِيَعهم ومحافلهم التي يعبدون فيها «إبليس»، ولكنهم هنا، إذ أفتقدوها، جعلوا هذا الموقع النائي محفلاً لهم ومجمعاً لأداء طقوس عبادتهم.

كانوا يذبحون ويقربون القرابين، بأسم رب لم أتبينه...

ومع كل ذبيحة يفرونها، كانوا يصيحون صيحات منكرة أشبه بعواء الذئاب وأقرب إلى نباح الكلاب، ويميلون برؤوسهم ويديرونها كأنهم آلات تتحرك بلا وعي منهم أو إرادة، أو كحركة المصروع الممسوس.

ثم رأيت بعضهم يعمد إلى مديته وخنجره فيجرح يده، وآخرون إلى إبر يشكّونها ويغرسونها في سواعدهم عشرات المرات، فإذا نزفوا وسالت منهم الدماء، أخذ كلٌ من نجس دمه شيئاً، يخلطه بخرء يتبرزه أمام أصحابه، كما كان أصحابه يفعلون بدورهم، كالبهائم، ثم ينقش به باطن نعله ويكتب عليها لفظ الجلالة! فإذا جفت وضعها في قدمه وسحق بها الأرض، وهو يتمتم ـ ثانية ـ بأسم ربه... إنهم من «عبدة الشيطان» وهذه طقوسهم!

حتى إذا فرغوا من سحرهم ومن قذارتهم، وآنجلت شيئاً روائح الغائط من حولهم والعفن من المعي والسلى وبقايا الذبائح، وقد أختلط بالعرق والعلق، ما خلق مزيجاً من نتَن أشبه صَمَر البحر... وما بقي إلا قُتار الشواء، آنبعث ولم يجد ريحاً تهيجه وترفعه، فسكن بأبخرته وهمد بأدختنه، يتخلل الحضور ويقبع في مجلسهم. ويبدو أنهم يتعمدون ذلك ويقصدونه، فلا شيء يجتذب الملائكة وأرواح الأخيار مثل الطيب، كما لا ينفرها شيء ككريه الروائح... فهذا «بنن» من بعر ظباء رعت الزهر، يفوح أريجاً يغالب عفن القوم، رأيتهم يكنسونه ويلقونه بعيداً، يتخلصون منه!

آستووا وآنتظموا في صفوف تسعة متقابلة، أربعة عن اليمين وأُخرى مثلها عن الشمال، وما بينها، في الطرف الأقصى، أو سمّه إن شئت الصدر، صف للقادة وعِليَةِ القوم. وتقسّم البقية وتوزعوا فئات ومجاميع، آلتحق بكل صف نحو من خمسين من أولاد الشياطين أو أنصاف الأبالسة، وقفوا وراء الصفوف كبيّاب ونُدُل يسقون أربابهم ويقومون على خدمتهم.

ولفتني أنهم كانوا يتحرون مواضعهم بدقة ويتخذون مجالسهم بعناية، وكأن بطاقات لكل منهم تحمل أسماءهم، وضعت على مكان من الأرض معين، لا يجوز لصاحبه أن يتخطّاه إلى غيره. كما لفتني الآلتزام الشديد، والخضوع والتقيد الذي كانوا يبدونه... ما كان نشازاً في أجواء القذارة والنجاسة، وغريباً عن فوضى الذبح والسلخ والتغوّط، بل عن أصل سلوكهم الهمجي وسابق توحشهم وبداوتهم المعدمة عن كل رقي!

وقد وضعت كل «فئة» قرابينها خلفها، وكانت: تسعة عجول سمان ذوات خوار. فصارت الشياطين تقدم الحوايا لأربابها في الصفوف أمامها، وتضحي بالسواعد والأفخاذ! تلقيها لتحترق من ورائها في حفيرة كبيرة أعدّتها لذلك. ورغم أنهم كانوا مشتغلين بالشواء والشراب، ومنغمسين بالمعازف والغناء، ومأخوذين بتمايل الغواني بين الصفوف وتساقطهن في الأحضان، وتلقفهن بين الأذرع وضمهن، في فجور أظهر خسة معدنهم وضعة أصولهم، وكيف كان حقاً أن لا يحب «آل محمد» اللكع والمحيوس...

رغم انشغالهم بلَهْوِهِم وسُكْرِهم، رأيتهم هبوا ـ جيعاً ـ للقاء «زقلل» الذي تعمد أن يأتيهم متأخراً، ليفرغوا من الذبح والإعداد والأنتظام، وبعد أن ينالوا ما يشاؤون من اللهو. جاء يخطر في مشيته تيهاً وعُجُباً، ويميس أختيالاً، ملتحفاً جلباب الكِبر، ممتطياً ظهر التيه، زاماً بأنفه مصعِّراً خدّه ثانياً عِطْفَه. ورغم كل هذا المظهر المتجبر المتعظّم، كان الرجل حقيراً في نفسه، ذليلاً في روحه، وبدا ـ في حقيقته ـ ككراع صار ذراعاً، وبغاث أستنسر، وكأنه لم يصدق هذا الأحتفاء الذي يلقونه به... فقد راح ينظر ذات اليمين وذات الشمال، يومئ للحضور بالتحية هنا وهناك، ويبارد بسمة أفرجت عن أسنان فلجاء قعص، غلبها القلَح من الصفرة إلى السواد، كأنها ما ضرست إلّا قديد لحوم الوحوش ومحترق الشواء، ولا عرفت في حياتها السواك.

لعمري، كأن الطقوس هي تكريم لـ «زقلل»، والقرابين صلة إليه! إنه «الشيطان الأكبر» أو مثاله الذي ظلّوا عليه وما برحوا عاكفين! وإن كنت ألمح في الصفوف الخلفية من الجمع، مَن أستمر في مداعبة غانيته ومضى في ملاعبتها، وهو غيْر عابئ، أو مسترقاً من وقفة الأحترام التي قاموا لها جميعاً، غفلة من الحضور. ما كشف لي أن ليست لـ «زقلل» عندهم حرمة حقيقية.

تقدم إليه «حرملة بن كاهل»، فصافحه هشاً وتلقّاه بشاً، وأجلسه على فراشه المعدّ له في صدر المحفل، حتى إذا صار «عمر بن سعد» إلى جنبه، بادره فقدّم له مضغة من حويّة، ثم خمراً معتقة في كأس ذهبيـة... تذوّقها «زقلل» وتمززها وأرتشف حببَها، وراح يتمضمض الرشفة في تجويف فمه، يمتحن جودتها كنبّاذٍ مُحنّك، أو أبن حانة خبرها من فرط ما عاقرها، فإذا أعجبته ولقيت منه القبول، رفعها نخباً يحيي بها الحضور.

رفعها إلى السماء... ويلي، إنه يرفعها ويومئ إلينا، ويرمينا ـ نحن جمع النظارة والمشاهدين هنا ـ بنظرة ثاقبة، كلّها غل وحقد، مُزج بخبث ودهاء ومكر، وشماتة وأستهزاء، وتحدٍ وأستقواء، نظرة تقول: ها قد أرغمتَ الأنوف وطأطأت الرؤوس، وضربت التي أبت بأعمدة الحديد فأطيح بها وفضخت حتى سال المخ منها على الكتفين!

تناول الكأس بكلتا يديه بوقار يناهز مشيته، وسَمْتٍ يحاكي تبختره، وتكلّف الرصانة وأغرق حتى لا يُخِلَّ بتعظيمهم له وأحتفائهم به. صمت قليلاً وطأطأ برأسه، وبدا كأنه يرسل صلاة ويرتّل ويتمتم، حريصاً أن يراعي طقوس دخول «المحفل» ويجاريها بأدب جم، ويظهر مزيد آمتثال وخضوع... ثم ما لبث أن عاد ـ سريعاً ـ إلى جذور العهر فيه، وأدركته الضعة والدناءة، فأكترعها كسوقي رعاع، وشربها جرعة واحدة وهو يقول:

فديْتُكِ... دم عنقودٍ كنتِ، أم ذَوْبَ نُضار!

فإذا أتى على آخر الكأس، مسح فاه بطرف كمّه، ثم ألتفت إليهم خطيباً، وقد أخرج من جيبه رقعة دوّن عليها كلمته المرتقبة، أو هي قصاصة سجل فيها ملحوظاته ومحاور حديثه، ألقاها وكأنها «كلمة السر» التي منها ينطلقون، ومفتاح أذهانهم وإكسير هممهم وشاحذ نيّاتهم ومحرك عزائمهم، ما يهيئهم للطور القادم والفصل الحاسم من المعركة:

لقد شربت نخبكم وشربتم معي، هٰذه «البيسانية» المعتقة، ألا سلِمَت يدٌ جنتها من كَرْمها، ويد أسالت عنقودها، ويد ملأت بها الأقداح... وتربت يد قطعتها عنا وحظرتها علينا، وتبّت إذ أرادت إذلالنا بها!

من هٰذه أبداً... أشعرتم معي بـ «رحيق الآلهة» يفوح من روحها، وبأريج «بنات الله» يسري من سَوْرتها وحيّاها؟ أما أحيت فيكم الذكريات وأذكت عبق «هبل» و«اللات»؟ أرأيتم كيف تنتشي الأرواح وتنجلي الهموم من نكهتها؟ أما دبّت في عظامكم فبثّت خدر النشعة وفتور السكرة؟... أتدركون أين هي من العيش، وكيف هي الحياة بِلاها؟

بلى، إنكم مثلي، تعون وتفعلون...

لقد تقصّدوا أن ينزعوا عنها قالبها ويفرغوا جوهرها، ويجعلوها مقايَضَة صبيانية بين الألتزام والأستقامة التي رسموها لنا، أو بين العبادة والخُلُق الذي وضعوه قانوناً وشريعة، بل بين الطاعة والخضوع الذي أرادوا أن يسوموا به أعناقنا... وبين ـ في المقابل ـ «أنهار من خمر» لمن أطاعهم وخضع لهم، يوفوه في أخراهم وموعود جناتهم!

لعمري، لماذا علينا أن نقطعها ونحرمها فلا نقربها ولا نمسها، ناهيك أن نشربها، قليلها وكثيرها، بل نلعن مَن عصَر وعمَل وخمّر، ومَن سقى، ومَن نادم وجالَس وسامَر؟ وهي «لذة للشاربين» لا يأبونها، وفيها «منافع» لا ينكرونها؟! والله لنشربنها وندمنها:

في غَبوقٍ وَصَبوح * لَم نَبِعْ نَقداً بِدَيْنِ

عجبت إذ صرت أرى في المحفل وجوهاً جديدة لم تكن موجودة من قبل، ليست من الجند ولم تكن في العسكر حتى الآن... وما زلت أرى الوفود الجديدة تتقاطر من كل حدب وصوب، من أعماق التاريخ وغابر الأيام، كما من آتيها ومستقبلها، أفراداً وأقواماً، وتأتلف جماعات وتلتقي آحاداً، حتى كأن كل ما في الوجود من أعداء وخصماء لـ «آل محمد» قد اجتمعوا هنا الساعة، معهم جميع الشياطين وأبناء الشياطين، وكل من يمتُّ إليهم بصلة قرابة في نسب، أو صِلَة في عمل والتقاء في هدف. كلّهم هنا، كأن نفيراً عاماً جمعهم، ونداءً خطيراً استنفرهم، فخفّوا مسرعين.

يلتقون ويأتلفون ويتوافقون على قتل «الحسين»!

وقد تداعى لي حديث ورد عن «الهروي» فيه أنه قال: قلت لـ «الرضا»: يا «ابن رسول الله» ما تقول في حديث روي عن «الصادق» أنه قال: إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة «الحسين» بفعال آبائها؟ فقال ـ عليه السلام ـ: هو كذلك. فقلت: وقول الله عز وجل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ما معناه؟ قال: " صدق الله في جميع أقواله، ولكن ذراري قتلة «الحسين» يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها، ومن رضي شيئاً كان كمن أتاه. ولو أن رجلاً قُتل بالمشرق، فرضي بقتله رجل بالمغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل، وإنما يقتلهم القائم إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم ".

تذكّرت الحديث وأنا أرى الأبناء والأعقاب والذراري، سواء أولاد الأصلاب من السفاح، أو أبناء الأفكار من فاسد لقاح المعتقدات، يجتمعون بالسلف... إنهم جميعاً هنا، حضور وشهود، ومشاركين في تكثير السواد والربط على القلوب، وقبل هذا وذاك، في الرضا والموافقة.

وقد ميّزت بعضهم، بل أنا أشخّص كثيرين: سياسيين وقادة وحكّاماً ووزراء وكبار مسؤولين، أثرياء ورجال أعمال ومُلّاكاً، علماء دين ومصنّفي موسوعات عظيمة ومفكرين، أدباء وشعراء، رجال إعلام وصحافة من رؤساء تحرير وكتّاب زوايا ومراسلين، نجوم طرب وسينما وتمثيل... ولولا حذري وخشيتي ومراعاتي لظروف النشر، لعدّدت أسماءً لشخصيات ورموز دينية وأجتماعية وسياسية، رأيتهم في محفل «الشيطان» هذا، في العصابة التي جاهدت «الحسين» وشايعت وبايعت وتابعت على قتله، أسماء لرجال دين و«دعاة» سيذهل نشرها أتباعها، ويثير الأستغراب حتى في نفوس غير الأتباع، ممن لا يرون شديد قبح سرائر هؤلاء، وحلك ظلمة حقائقهم.

ها أنا أرى أشخاصاً أشتهروا (عبر قناة فضائية) بالنهوض بأحتجاجات «الشجرة الخبيثة»، حتى إن أحدهم ألّف كتاباً في الدفاع عن «يزيد» وتبرئته، وإدانة «سيد الشهداء» وتحميله مسؤولية فاجعة «كربلاء»!

يا إلهي، إنهم هنا مع «جند الشام» وفي معسكر «بني أمية» يلتفون حول «زقلل»، يحضرون خطابه ويشهدون مشهده، يتلقون منه دينهم ويستقون فكرهم، إنه ملهمهم وإمامهم الذي سينادون به في معادهم فيتقدمهم... ها هو اللقيط، السنوط المرط بلحيته العُنْصُوَة وقامته القصيرة ووجهه القاتم، ومعه الآزر، أبيض العجز المسرول، سمي «أبن ملجم» الذي ضربت له في الأَبَنَة راية حمراء! وهذا الثالث الذي جاهر بأمَويّته وفلَت لسانه بناصبيته، وذاك الرابع، ومعهم صاحبهم التعيس، بل كلبهم الذي إن تحمل عليه أو تتركه يلهث، صاحب «القناة الفضائية». إنها المجموعة التي مهّدت للحرب الطائفية والتفجيرات الإرهابية في «العراق»، وكادت أن تعصف بالعالم الإسلامي كلّه. أطلقت فتاوى تكفير الشيعة جهاراً وأفترت على معتقداتهم ونسبت إليهم ما أباح دماءهم وأفسح لقتل عشرات الآلاف منهم. فأكملوا ما قصرت عنه مقابر «صدام» الجماعية! هؤلاء هم طليعة مَن مهّد ووطّأ وأمّن الغطاء العقدي، ووفّر المسوّغ الشرعي لمجازر تقشعر منها الأبدان. كلّهم هنا، مع قتلة «أهل البيت»، وفي هذا المعسكر الملعون...

ونحن في دنيانا نعجب من أفعالهم ونحار: كيف يمكن للإنسان أن يصل هذا الحد من الجحد وإنكار الحق، ومن الضلال والإضلال، ويبلغ هذا الحد من الأنحطاط والتهتك، ومن التفسخ والتحلل ما يسمح له بتحمل وزر كل هذه المقاتل والمجازر والدماء، ويطيق تبعة كل هذا الخراب والدمار والإفساد في الأرض!؟

لقد شاركوا في قتل «سيد الشهداء»... وليس وراء ذلك جرم يحذر أو عارٌ يُدارىٰ. لعمري، لقد ذهبوا ـ قديماً ـ بعارها وشنارها، ولن يرحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنّىٰ يرحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ خيرتهم ومفزع نازلتهم ومنار حجتهم ومدرة سنتهم ألا ساء ما وزروا، وبعداً لهم وسحقاً، فلقد خاب السعي وتبت الأيدي وخسرت الصفقة وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة. الويل لهم إذ دروا أي كبد لرسول الله فروا وأي كريمة له أبرزوا وأي دم له سفكوا وأي حرمة له أنتهكوا؟ لقد جاؤوا بها صلعاء عنقاء خرقاء شوهاء كطلاع الأرض أو ملاء السماء...

أفنعجب بعد هذا أن يقتلوا أبرياء في تفجيرات إرهابية بأسم المقاومة الإسلامية أو الوطنية، وبأسم الجهاد؟ ونحار في ألتماس وجه لهذا الشقاء، ومنطق وتفسير للسقوط في حبائل «الشيطان»؟! نحار ونسأل ونعجب، وهم أبناء «الشيطان» وأعوانه، أنصاره وحزبه وخدّامه؟

كانت الوفود تترىٰ، والجماعات تأتلف من شتىٰ أقطار الأرض وآفاق السماء، حتىٰ ضيقت المورد وسدت المنظر وملأت المدىٰ، فعاد «زقلل» إلىٰ خطابه، وأخذ ـ الآن ـ يفلسف وينظّر، وتعمق في رسالته، وصار يكثر التركيز علىٰ ما في الرقاع واللفائف، وينقل ما دوّن فيها... فقال:

قد يتوهم بعضكم أن معركتنا تتسم بالوحشية والجلافة والبداوة، وأن الخلُق والعطف والرحمة فينا قد أنعدمت فبلغت القسوة مبلغها. وقد يظن آخرون ويرون أننا لا ننطلق من فكر ولا نتمتع بمنطق ولا نرتكز علىٰ حجة... كلا، ليس الأمر كذلك.

إننـا على بينة من أمرنا وبصـيرة، وعلى مبدأ راسخ تنهض به إثباتات متينة، وقد آلينا على أنفسنا أن لا نخضع لمتهافت الأدلة وباطل الحجج، ولا ننخدع بفاسد البراهين وواهي الأقوال، ونحن في هـذا السبيل إنما نخوض معركة الوعي والتنوير، لا نرضى أن يستغفلنا أحد فيقودنا ويستعبدنا بأسم «الله»! دعوني أوضح لكم الأمر وأبسطه، وأسمحوا لي إن أسهبت وأطنبت بعض الشيء، فأنا مكلوم متألـم، أعاني وأقاسي، وأتجرع الغصص، فلا غرو إن أطلت عليكم. وسآتيكم بمثال وشاهد:

أنظروا إلى «أحسن القصص» التي يزعمون!

أقتباس من الركام الأسطوري السردي للكتاب العبراني (التوراة)، أو من المصـادر الأكثر إبهاماً التي غـذت «العهـد القـديم»، أنظـروا إلـى قصـة «الطـوفـان»، وقصـة «يـوسف»، وقصـص «سليمان» و«بلقيس»، وبقـايا وقدحات أقل تبلوراً، كـ «عاد» و«ثمود» و«أصحاب الرس»، وقصة «صالح» وناقته ومدائنه، كيف لـمّحوا إليها تلميحاً، بل حرصـوا على عدم إكمالها والإبقاء عليهـا مقتضبـة. لماذا أستفاضـوا في روايـة قصة «مـوسى»، بينما أمسكوا في هاتيك الأخرى؟ لماذا أجملوا الأحكام في القرآن، المفترض أن فيه تبياناً لكل شيء، وأنه دستور الحياة وكتاب الهداية، بالله كيف يصلي المؤمن وكيف يصوم؟ وكيف يفهم المتشابه من الآيات إن لم يرجع إليهم؟

هـذا هو السر... السر في «وضع» القرآن! يريدونه أن يرسخ مرجعيتهم ويوثق إمامتهم. جـاؤوا إلى أمر سـواء وعرضـوا مبدأ وفاق، قطعـوا عنه الشـوائب، ووعـدوا بحفظـه عن التحـريف، ومنعـوا عنه ذكـر أسمائهم والتصريح بفضلهم، ليكون مـقبـولاً مرضياً، فإذا نزلنا عليه، قالوا بالرجوع إليهم في تفسيره! فإن أعيتهم الحيلة وأنقطعت بهم الحجة ومـا أسعفهم التفسير، قالوا إن لآيات القرآن تأويلاً لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم! وهم «آل محمـد». لقد عقدوا الفصل كما يشاؤون، وأحكموا العقد فجعلوا الأمر: ثقلين، لا يفترقـان ولا ينفصلان، ما إن تـسمكنا بهما لن نضل، وإن تخلينا عن «أهل البيت»، أو أخلينا منهم «كتاب الله» ضللنا.

إن معركتنا يا أبنائي معركة العقل والفكر(!)، وحربنا حرب الحرية والإرادة، وهدفنا تحرير العقول والعتق من عبودية «بني هاشم» و«آل محمد»، والخروج منها إلى عبودية الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

كان «زقلل» ماضياً في خطابه، مسترسلاً في أستدلالاته الخرقاء وشواهده الشوهاء، وفي أثناء ذلك كانت أدخنة الشواء قد أنقشعت وأبخرة العفن قد تبددت، فقام عنق من الشياطين وجمّة من مردة الجن يبثون مزيجاً ملوناً من سطع نتن، يزكم الأنوف ويعطب الأرواح، يحملون مواقده ويدورون بمجامره بين الصفوف، يتخللون الحضور، فلا يغادرون أحداً إلّا ضمخوه بالأدخنة ووسموه بمساحيقها. وقد فاتني ذكر أن في الحضور رجال دين يهود ونصارىٰ ومجوس ومن أديان أُخرىٰ ناهيك بالمسلمين، وهم بزي الكهنة والأحبار والقساوسة والرهبان والقضاة والشيوخ... إنهم جميعاً هنا، وقد أشتد الزحام، وضاق عليهم المكان، فتراكمت الجموع وغصَّ بها المشهد، وأنتابتهم حالة غريبة من الهيجان، أرتفع معها اللغط وأشتدت الضوضاء وتكبكب الحضور حول الذبائح في بادئ الأمر، ثم بعد ذلك حول لا شيء! فلم أرَ في بعض مواقع الأستقطاب والأزدحام ما يستدعي هذا التجمهر وهذه الفوضىٰ. تغيّر المشهد تماماً وأنقلب، وأكتظ وأصَّ، وضاق بالحضور وأمتلأ، فصار بعضهم يعلو بعضاً، يدوسون الرؤوس ويطؤون الأبدان، كأنهم في بحور من الظلمات تصب في محيطات، وأطباق من العتمة تتلو أطباقاً، والجموع تتقلّب في أمواج متلاطمة، ترتفع وتحط، تجيش بها لجة ويقذفها إعصار، وهنا أصوات تعلو وهتافات تتردد، وصور تتجسد وتنبثق لفجائع ماضية وأُخرىٰ قادمة مستقبلة، وويلات وقعت وحروب ستكون... لم تكن كل الصور واضحة، ولا كل الأصوات مفهومة، ولكني رأيت بعض الواضحات فميزتها وعرفت الوقائع التي تحكيها، إذ كانت تلهم الرائي من تلقاء نفسها وتعرّفه بحالها، وكأنها تخط من تحتها أو من فوقها عنواناً يعرّف بها. بينما لم تكن أُخرىٰ كذلك، كانت مجرد منظر يظهر، فكنت أجهد في تطبيقها على أحداث معينة، لا أدري هل أصبت في ذلك أم أخطأت.

والصور متداخلة مختلطة، غيْر مرتبة ومتلاحقة زماناً، ولا متناسبة حجماً وخطراً... حدَثٌ في عصرنا تليه واقعة من تاريخ «الرومان»، وصورة لهرج وآضطراب ورعب في المسجد الحرام مما كان في حادثة «جهيمان»، مع أخرىٰ وقعت قبل الميلاد، ثم صورة دمار عظيم يجتاح بلاداً كبيرة، إلىٰ جوار صورة كتاب ضلال صغير، كتاب، مجرد كتاب لا تتجاوز صفحاته الخمسين! فهل كان ذلك ما كنت أتلقاه، وما ألتقطه أنا منها، جاء كشتات وخضع لفوضىٰ من فرط آضطرابي وشدّة ذهولي، أو لعجزي عن التلقي الأصح الأتم؟ أم هي مبعثرة ـ واقعاً ـ في هٰذا المحفل؟ لست أدري.

رأيت صوراً لـ: نار «النمرود» تطاول ألسنة لهبها السماء، وعجل «السامري» و«الإسرائيليين» سُجّداً حوله، و«كرونوس» «الفينيقي» وبغيض «الأمونيين»، واليهود يضحون له بأبنائهم في جهنم، و«ليليث» شيطانة الليل اللطيفة، ربة الغواية والمجون، و«بلفيغور» بلحيته الكثة المتموجة وفمه المفتوح يتدلىٰ منه لسان مثل قضيب كبير. وهنا صور متعددة كثيرة لمحاكم التفتيش وأدوات التعذيب وطرق التنكيل التي مارستها الكنيسة.

ثم لثورات ونهضات سياسية، وحركات آجتماعية، نشأت من، أو خلّفت تيارات فكرية، فجرفت معها أجيالاً من البشر، وخلقت مدارس ومذاهب، منها ما كنت أحسن الظن فيها... فإذا بها شيطانية!

رأيت صورة مروعة لنهاية الحرب العالمية الثانية، وكيف تشكّلت كتلة الغبار الذري علىٰ هيئة الفطر في سماء «هيروشيما»، ورأيت القوارب تجوب القنوات البحرية في «البندقية» وركابها في بذخ وترف وطرب يحكي آزدهارها ومجونها، و«الغاليين» يحتلون «روما» ويسيطرون عليها، وجانباً من مآسي «أسخيلس» الأولىٰ، وخراب «إسبرطة»، وحريقاً مهولاً في «القاهرة» وآخر في «بغداد»، ودماراً ودماءً في «المحمرة»، وحرائق آبار النفط في «الخليج»، ورأيت مشاهد من فتك الأسلحة الكيماوية في أكراد «حلبجة»، ومشاهد من خراب «لبنان». وصورة لـ «برقوق» يمضي حكم «آبن جماعة» في إعدام «الشهيد الأول» (محمد بن مكي الجزيني).

رأيت أعراباً يرقصون رقصة الحرب و«يعرضون»، يغنون مجدهم ومليكهم، ويلوّحون بسيوفهم، متمنطقين ومتنكبين بأحزمة جلدية متقاطعة، وأمامهم جَوْق من حملة طبول يتدلى من أطواقها كضفائر الشياطين، يقرعون ويتمايلون، وقد حمل أحدهم راية عظيمة، ألقى بها على كتف كبيرهم. رأيت «القسطنطينية» عصيّة على هجمات «البرابرة» و«العرب» و«الروس»، وكيف سقطت أمام «العثمانيين»، و«محمد الفاتح» يدخلها ويجعلها «إسلامبول»، وشعراً لـ «يزيد» حين تثاقل وأعتل إذ أمّره أبوه «معاوية» على غزوها فتخلّف وقد أصاب الجند جوع ومرض شديد، فأنشد مستهزئاً:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم * بالفرقدية من حمى ومن موم
إذا أتكأت على الأنماط مرتفعاً * بدير مروان وعندي أم كلثوم

رأيت أوبئة الطاعون والجدري وأمراضاً غريبة لا عهد للإنسان ولا علم له بها، تفتك بالبشر، تزحف وتتطاير على شكل خيوط وحبال تتخلل القوم وتنثني حولهم تطوقهم، وتعود لتنطلق من خلالهم، كأشرطة الحرير إذا تلاعبت بها الريح، لكنها كانت سيلاً من الجراثيم ومسببات الأمراض... يبدو أن كل الشرور، ماضيها وآتيها أجتمعت هنا، أو أنها أخذت تنبع وتفيض من نتاج عزم هذا الجمع وهول ما هو مقدم عليه.

وسأمتنع هنا وألتزم ـ برقابة ذاتية فرضتها على نفسي ـ فلن أذكر مشاهد ومناظر رأيتها لأحداث مستقبلية ستقع في آتي الأيام، وقد تحقق بعضها منذ عودتي، وكان كما رأيته هناك! وقد نسيت بعض المشاهد والأحداث التي ألتقطتها من عرض المحفل وغابت عن ذهني، فإذا وقع منها شيء وتحقق، عدت وتذكرت أنني رأيته وسبق أن شاهدته هناك!

دعني أرجع فأسرد ما يمكنني من الماضي... لقد رأيت في ذلك المحفل «شركساً» يرقصون ويدبكون بمهارة وحماسة، ويديرون في أيديهم مناديل، في إيقاع يتصاعد سرعة مع خبط أقدامهم وضربها، و«مماليك» و«أيوبيين» يقطرون خبثاً ولؤماً ونصباً، ورأيت «عثمانيين» بتيجانهم الطربوشية الطويلة، كما رأيت «فراعنة» و«إغريقاً»، ورأيت «صليبيين» يعيثون بطراً.

وكانت تنطلق وتتصاعد من المحفل هتافات مختلفة وأهازيج يرددونها، يُحَيّون بها «زقلل» ويمجدون روحه وفكره، ويعلنون نصرته وٱستعدادهم للبذل والتضحية دونه، ٱلتقطت بعضها، وطاشت أُخرىٰ لغرابة لغتها وسرعة تبددها. ولكني عجبت أن سمعت من بين الهتافات:

"هبّت هبوب الجنة وينك يا باغيها"! قيلت بعامية أهل «نجد» البدوية. وينك، أي: أين أنت؟ وباغيها تعني: مريدها وطالبها. وسمعت هتاف: "يا حوم ٱتْبَعْ لو جرَينا"، ٱرتفعت بالعامية «العراقية». الحوم: الصقر، لو جرينا: إذا مضينا للحرب. وهتافات أُخرىٰ بلهجات «شامية» و«فلسطينية»، وهتاف سقط ولم يبق في ذاكرتي إلّا أنه كان بـ «البشتونية»، لغة طائفة من «الأفغان». وقد تداخل إطلاق الأصوات وتزامن وٱقترن بظهور صور الويلات والفظائع التي تنبثق من هٰذا الجمع وتتولّد من المحفل المشؤوم.

ومع الظلمات وصور الشرور وما ٱنبثق من تجمّع قتلة «سيد الشهداء» ومحفل «الشيطان» هٰذا، ظهرت صور ملحقة... إنها لمن خذل «المولىٰ»، سمع واعيته فلم يجبه ولم ينصره، كما لم يحاربه، إنهم الذين قرروا الحياد.

ظهروا هنا يعلو بعضهم بعضاً، يتقلقلون بين أطباق حفرة عظيمة جمعتهم، وقد بدوا أكثر عدداً من القَتَلَة. وكانت الحفرة ترتفع لتتعلّق بين السماء والأرض، لا يدرون متىٰ تهوي بهم.

لقد صرفوا عن الرحمة وشملتهم اللعنة، رأيتها تحط عليهم آناً بعد آن، لا تفتر ولا تنقطع، وجل اللعنات تصلهم من «الزوار» وتنزل عليهم من الملائكة، تمسخهم من قبيح إلىٰ أقبح، وكلما حلّت لعنة شاهت منهم وجوه وٱنباجت عليهم بوائج منكرة. وقد رأيتهم في رعب ووجل فوق ما هم فيه من ألم العذاب وشدة العقاب، وَجَل ٱنتظار اللعنة العظمىٰ التي يرتقبون، إذ علموا بها ودَرَوْا ولٰكن أُخفيت عليهم ساعتها، ما زاد في عذابهم وضاعفه أضعافاً... لقد أُلحقوا ـ حكماً ـ وحُسبوا في مَن حارب وقاتل!

وكان في نفسي شيء من هٰذا الإلحاق، وأنا أجده في أدعية المزار ونصوص مقدسة مروية عن «أهل البيت»:

أشهد أن الذين خالفوك وحاربوك، والذين خذلوك،
والذين قتلوك ملعونون على لسان النبي الأمي،
وقد خاب مَن افترى. لعن الله الظالمين لكم من
الأولين والآخرين، وضاعف عليهم العذاب
الأليم.

ورغم أن اللعن والإلحاق لم يشمل إلّا من بلغته الواعية فصد عن النداء وأعرض، وراح يبرر خذلانه، ويبحث، سواء أمام الناس أو في سريرته وما يسكّن نفسه اللوامة، عن معاذير يلقيها، فإن أعيته الحيلة، وكابر ليخفي جُبْنه وحرصه على دنياه وما إلى ذلك من أسباب، هي حقيقة العلة والباعث على الخذلان، فراح يطعن في حركة «المولى» وينال منه... إلّا أنني كنت أرى في ذلك (الإلحاق) شدة وقسوة، فليس مَن حارب وقتل كمَن خذل!

كان في نفسي شيء حتى رأيت الساعة مدى قبح فعلتهم، وبان لي خبث دورهم، وانكشفت حقائقهم وظهرت ذواتهم وافتضحت سرائرهم. فليست الطعنة يسددها ملعون إلى «المولى» والضربة ينزلها ببدنه الشريف، والحجر يقذفه والسهم يرميه، بأقل من الغمز في مشروعية نهضته، وإنكار فضله وحقه، والتشكيك في أنواع مصابه. ولا يهون ذلك خطب مباشرة القتل والقتال، أو يخفف أمر الجرأة على تلك الأفعال، لكن «الخذلان» كان من السوء والخطر والشناعة والفظاعة، ما رفعه إلى ذلك الحد، وأدخله في نطاق الذروة والنهاية، فاستحق اللعن والعذاب. وإن كان لهذا النطاق ـ الذروة درجاته، وبقيت له مراتبه وطبقاته ومستوياته التي تحفظ للقاتل ومباشر القتال أقصى العقوبة وأشد اللعن.

كانت في الحفرة كائنات عجيبة: بَشَرٌ برؤوس قردة، تحكي كل زنىً وحيلة، وخبث وعبث، وجهالة وخديعة. وآخرون برؤوس الخنازير، يمثلون دناءة النفس والحقد، وذهاب الغيرة. وطائفة لها رؤوس ابن العرس والنمس من كثرة شرّه على ضعفه! ورأيت بعضاً احتفظ برأسه البشرية ولكن ظهر ببدن القنافذ الكبيرة، بمدبب شوكها، وتحفزها للشر وإلحاق الأذى بغيره.

وما دهشت لشيء دهشتي أن رأيت في حفرة الخاذلين رجالاً أعرفهم.

رجالاً من المؤمنين المصلين الصائمين المزكّين، ولكنهم كانوا بالعزاء مستهزئين ساخرين، وللشعائر الحسينية محاربين!

ورغم أن الدهشة ما لبثت أن أنتقلت بي إلى أنس ورضىً، وبعض شماتة لا أكاد أخفيها. فقد جمعتني مع بعض هؤلاء معارك وخصومات، ونزاعات وعداوات، لا أنكر ولا أبرّئ نفسي أن تكون قد أنجرت - أحياناً - وأفضت إلى عداء شخصي. بل أفتخر وأباهي، ولا أبالي، أن جاءت عداواتي الشخصية من هذا المنشأ النبيل! إلا أنني سريعاً ما عدت إلى الشفقة عليهم والحسرة على ما صاروا إليه، اللهم إلّا عدداً محدوداً منهم، بقيت نزعة الشماتة فيهم تدغدغني، وظل أنسي بأنكشاف الحق وظهوري إلى جانبه يرضيني ويريحني! ولا سيما أني رأيت واحداً منهم - في الأقل - باق على مكابرته وغروره، وهو في تلك الحفرة! أخذته العزة بالإثم وراحت به بعيداً... كان يعاني ويتعذب، لكنه ما كان يستغفر ولا يبدي ندماً، ولا يظهر تراجعاً عن أقواله وآرائه أو تنازلاً عن مواقفه، فقد رأيته، حين ألتقت عينانا وعرف أنني أراه، راح يمثل هيئة الباكين كالطفل إذا شكا شيئاً، ومضى يضرب على صدره بأستهزاء، يحكي حركة اللاطمين، يزعم أنها رقص! وكان يشرب من دنٍّ، لا أدري أحقيقة كان ذلك منه، أم هي الأخرى حركة أستهزائية يشير فيها إلى زعمه الأول أن المطبرين يشربون الخمر للإحماء ويسكرون ليخدروا فلا يشعرون بألم الجراح، حتى يشتد بهم النزف فيغمى عليهم!

يبدو أن عاقبة الذين أساؤوا السوءى فصاروا يكذّبون بالله وبآياته يستهزئون، تصاحبهم حتى في نشآتهم الآتية، أو أنها كانت معهم من السابقة، وتلتزمهم لا تنفك عنهم في جميع العوالم الأخرى. لقد تجرؤوا على المجاهرة والإعلان، وتصدوا لحرب الشعائر الحسينية، بوقاحة وسوقية ونهج إعلامي، إذ أعدموا العلمي. ووظفوا للحرب من إمكانياتهم وقدراتهم ما أستطاعوا، حتى أثّروا قليلاً أو كثيراً، وحققوا - فعلاً - ما عجز عنه «الأمويون» وأتباعهم من الظلَمة على مدى تاريخ حربهم لذكرى «عاشوراء».

ولـولا العنايـة الغيبية، وما ألمسه الآن بوضـوح، من قـدر إلهي باتٌ في حفـظ هـٰذه الشعائر وإذكاء جذوتها عاماً بعد عام، لـتَمَكّنوا من تقـويض المسيرة وثني الشيعة وصرفهم عنها.

والحق أنني في حيرة من أمري، يتجاذبني ـ من جهـة ـ الشـوق للقـول والتـوق للنشر والميـل إلىٰ الإعلان والـرغبـة في الكـشف عن هـٰذه الوجـوه الشوهـاء وفضحها، و ـ من جهة أخرىٰ ـ الخوف من التبعات الضارة والمفاسد اللاحقـة. وقـد انقطعت عليّ سبل الحـسم وتعـادلت ملاكـات الترجيح وتساوت، فما عدت أدري هل المصلحة في أن أُقدم أم أُحجم؟

وهنـا مقطع طـويل استغـرق صفحات، حـذفته من مسـودة مدونـاتي، أسهبت فيه وأنا أصف حال «علَم» من أعلام عصرنا، ورمز إسلامي يشار إليه بالبنان، منتسب إلينا ومحسـوب ـ زوراً ـ علىٰ مذهـب «أهل البيت»، والناس، دون أهل العلم والفن، لا تعلم من حاله إلّا ما تعرضه لهم الصحف والفضـائيات ومـا إليها من قنوات الشيطـان وأدواته، في غفلـة وجهل عن حقيقته. رأيته في الحـفرة بمنتفخ شفتيه، وسمعته برنة صوته... ولا يسعني أن أفصح بأكثر من هـٰذا، وإلّا لَعاد ما بتِر! والحرُّ تكفيه الإشارة.

❁ ❁ ❁

قضىٰ القوم وطرهم من الاحتفال، ومن تحية «زقلل» الذي أنهىٰ خطابه سريعـاً، رغم ما قـدّم له واعتـذر من أنه قد يطيل عليهـم... فتركـوا لهـوهم وعادوا ـ فجـأة ـ إلىٰ جِدّهم. ورأيتهم انتعشوا جميعاً وثابوا إلىٰ رشدهم، بل تجدد نشاطهم ودبّت فيهم روح غريبة من العزم والمضاء!

قاموا ينفضون عن أنفسهم الغبار، ويصلحون من هيئاتهم ويـدخلون في دروعهم ولامـاتهم، ويستعـدون لخـوض الغمار. إنهم يعودون إلـىٰ الميدان ليكملوا فصـول جريـمتهـم الكبرىٰ، كـأنهـم تعبؤوا بما أمدّهـم السّحْر، وقـد رفدهـم «إبليس» بما شاء، وتلقوا ـ بدورهم ـ ما شاؤوا من عزم وبأس وطاقة، وتـزوّدوا بما وسعت صـدورهـم من الحقـد علىٰ «أهل البيت» وضـمّت جوانحهم من الغل علىٰ «سيد شباب أهل الجنة»...

وقد أخذتني الفكرة والعجب من حال هٰؤلاء الجبناء؟

جبن وذلّة، وخسة وضِعَة، طبعوا بها، فلزمتهم والتزموا بها حياتهم وشؤونهم كلّها! أراها لا تتناسب وهٰذا الإقدام منهم؟ كيف يجسرون، وما انفكوا يشعرون بالدونية والحقارة؟ أم أنهم يجبنون ويخسؤون، يَهِنُون ويصغرون... فإذا بلغوا هٰذا الموضع، ووصل الأمر إلىٰ هٰذا «البيت» أزهرت فيهم الشجاعة وتأجج الإقدام وظهر البأس وتألّق! يجيش في صدورهم الحقد ويجيش، ما يطير عقولهم ويفقدهم اتزانهم وينسيهم خوفهم وحذرهم، فيتهورون ويقحمون لا يلوون علىٰ شيء؟

لست أدري كيف يفكر هٰؤلاء، وكيف يتخذون قراراتهم ويعزمون؟ ما الذي يحقق البواعث ويذكي النوازع ويؤجج المشاعر فيهم فيقدمون، أو يطلها ويخمدها فيثبطون ويحجمون؟ هل يحكمهم غيْر الحقد والبغض والحسد شيء؟ وهل يصلح هٰذا أو يكفي لتأسيس الدول وقيام الأنظمة وحكم الناس وتولي البلاد؟ هل يحقق طموحهم ويلبي حاجاتهم ومنطلقاتهم في نيل الملك أو في تثبيت ما نالوا؟

ثم كيف طمس علىٰ أعينهم، فغابت عنهم واحدة من أعظم مفردات قاموسهم الجاهلي: «الأنتقام»... هل أمنوا الأنتقام؟ وهم يفجرون في الشنآن، ويوغلون إلىٰ هٰذا الحد في الخصام؟ وهي فاجعة لا توارىٰ ولن تُستر، وقصة لا تخفىٰ ولن تُطْمَر. وإن كفروا برَبٍّ سيحفظها وأقدار ستودعها الذكريات وتبقي عليها حية في النفوس، فإن هنا ملاحم وبطولات لن تغفلها الأجيال وسيتناقلها العرب، وسيروونها خلَفاً عن سلف؟

مَن يدري؟ وكيف لهم أن يأمنوا ويركنوا ويطمئنوا أن لا تعود «هاشم» يوماً فتديل منهم، وتستأصل شأفتهم، وتكون لها الكرَّة عليهم، فتنتقم حتىٰ لا تُبقي لـ «آل حرب» وأشياع «أبي سفيان» بقية؟

كيف غابت عنهم سيرة «النبي»، فلم يأخذهم الحياء من إطلاقهم «يوم الفتح» ولا أخذوا حكمته من العفو عنهم؟ كيف تناسوا سيرة «أميرالمؤمنين» في «صفين» وحكمه في أسراهم وفي الغنيمة من أموالهم؟

فإذا فقدَ «الأمويون» الحياء وأعدموا الشهامة والنبل، فلم تلزمهم عطيةٌ مُنِحُوها ولا ملأت أعينهم صدقة بلغتهم وما أستحقوها، وتحرروا من كل يد لـ «بني هاشم» عليهم، وتنكروا لكل مكرمة ودَيْن لزم أعناقهم، بطوق ما حرره ولا فلّه ولا كسره - والله - إطلاقهم يوم «الفتح»، بل أحكمه وأمعن في رِقّهم وعبوديتهم وهو يصدع: أذهبوا فأنتم الطلقاء، أو حين جعل دار جدهم «أبي سفيان» ملاذاً للمنافقين ومأمناً للكفار؟...

أمَا كان دهاؤهم يقتضي أن يجنِّبوا «هاشماً» هذه القسوة؟

أمَا أمرتهم أحلامهم بشيء من الرأفة والرحمة؟

أمَا كان من سبيل للنيل من «الحسين» وإرغامه، بأعتقاله أو حتى بقتله، غيْر هذا الذي سلكوه من البطش والتنكيل، وعلى هذا الحد من الشدة والقسوة؟ أما كان في وسعهم أن يجنبوه وعياله الحصار ومنع الماء؟... يدلون عليهم بعددهم وعُددهم، فيقتلونهم بـ «الموت البطيء»، يقذفونهم بالسهام والحجارة، ثم بالسيف ضربة تلي طعنة، حتى يقضون صبراً؟!

لا يحسبون أن الحرب سجال، والدهر دول وعقب ونوب؟

ألا ما أشبههم بوعلة أجاءها المخاض، فولدت في عرين أسد، فلما عاد الليث إلى عرينه لم يُبْقِ عليها ولا على أغفارها! بل قَثام - لعمر الله - معها سِمْعها، ظلّت وجارَها... والأسد - بلا ريب - عائد يوماً إلى زبيته، فيرى كيف بلغها سيل جورهم وغمرها طوفان تعديهم! وتلك الأيام نداولها بين الناس، ففرح أنزلته اليوم بعدوك سيمسك في غدك، وإن أُخليَتْ لك اليوم وبُسطت يد، يمحّص الله بها المؤمن من الكافر، فإن المحق ينتظرك في غد؟

كيف يغفلون عن أوليات فيها هلاكهم؟

لطالما كنت أعجب من الأخطاء السياسية الفاضحة والقرارات المهلكة التي يقع فيها جهابذة السياسة وأساطين الملك والحكم والتدبير. رجال أفنوا أعمارهم في ممارسة وأمتهان هذا الفن، أتقنوا الصنعة، وأجادوا كيف يحافظون على ملكهم ويديمون حكوماتهم، فإذا بهم يسقطون في أخطاء فاضحة، بينة واضحة، لا تخفى على أبسط الناس وأقلّهم خبرة.

ودع عنك التاريخ بزاخر ماضيه ومليء عبره، دع عنك حمق «مروان الحمار» وسفاهة «المعتمد العباسي» وغباء «كافور الإخشيدي» وطيش «صاحب الزنج» وطغيان «محمود سبكتكين»...

وأنظر إلى شاهد لا ينكر في زماننا قام على يد «النظام البعثي» حين غزا «الكويت» وقرر ضمها وإلحاقها بـ«العراق»... فقد كان واضحاً جلياً لأي مطّلع بسيط وقارئ سياسي متواضع أنه خطأ قاتل، وقرار مهلك، ومغامرة محسومة النتائج، لا ينبغي خوضها بأية حال. ومع ذلك، سقط في هذا الخطأ، عن سابق عمد وتدبير، وإصرار وألتفاف على عشرات محاولات ثنيه ومساعي صرفه، ناهيك بتحذيره ونصحه، وأقترفه داهية من دهاة العرب، وطاغية من طغاة العصر، فأودى به وأفضى إلى هلاكه! فكيف كان ذلك؟

كذلك الحال هنا، لقد عَمُوا حتى عما ينفعهم، وتاهوا عما ينجيهم...

كأنما ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، ينعقون بما لا يسمعون، إلاّ دعاءً ونداءً، فكانوا شرّ الدواب عند الله، الصم البكم الذين لا يعقلون. بل هو مكر الله جلّ وعلا الذي ما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذنه، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون.

خرجوا، فأنتظموا في صفوفهم من جديد...

فظهر «المولى» في المشهد، كشمس مشرقة، أو تؤذن برحيل، لست أدري! واقفاً أمام مخيمه، متكئاً على رمح له بيساره، أو أنه كان يمسكها بلا أتكاء، وراح يمسح على كريمته بيمينه، وقد رمى بنظره أقصى القوم، ثم أخذ يتلفت وينظر من حوله، فلا يرى من أهله وأصحابه إلاّ المجزرين كالأضاحي، وهو إذ ذاك يسمع عويل الأيامى وصراخ الأطفال...

عندها، رفع «المولى» صوته، ونادى بندائه الأخطر:

هل من ناصر ينصرنا؟

هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟

هل من مُوَحِّدٍ يخاف الله فينا؟

هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟

كأنه ناقوس يقرع ليؤذن بالرحيل، ويرتفع لينذر بالنداء الأخير، الأخير الذي يسبق الخاتمة ويمهّد للنهاية. نداء يمضي طولاً وعرضاً، يخترق المكان فيبلغ أقصى الأرض وأدناها، بل يسري فيبلغ أفلاك السماء ويصل الكواكب والنجوم، يقرع آذان الكائنات من إنس وجن وعجماوات وجمادات، وخلق بين ذلك لا عداد لأحد ـ غيرِ «المولى» ـ بهم. وينفذ في الزمان، حتى بدا يقدُم من عالم «الأظلة» و«الأشباح» و«الذر»، منذ كينونة «الدهر»، كأنه رَجْعٌ وصدىً يحكي ذلك النداء الأول الذي جمع كوكبة «الأنصار»، وأئتلف على أمواجه القدسية أولئك المصطفين الأخيار.

ها هو يرتفع ويدوّي من جديد، يخاطب الحضور والغياب، مَن وُلِدَ ومَن مات ومَن بعده في الأصلاب. كما كان يخاطب الهمم والنوازع، لم يخلِ ولم يعذر، مَن كانت الكملات تحفزه، ومَن كان الدين ـ أي دين ـ يحكمه، فإغاثة الملهوف، وعون المكروب، ونجدة الطالب، ونصرة المظلوم، خصال جُبِل عليها الإنسان وفُطِر، وقِيَمٌ سبقت بها الأديان الإسلام وتقدمت.

دوّى النداء يزعزع الوجود ويهز قوائم العرش، حتى كادت الأشياء أن تخرج من هياكلها وتنسلخ عن هوياتها، وتجد لنفسها أوعية تنقلها إلى ساحة الحدث، فتجيب بأية كيفية قابلة، وتحقق النصرة بما يمكنها. رأيت الأرض تمور برملها وتربو، والجبال تسير ـ من بعيد ـ كأنها تتسابق لتبلغ ساحة الحدث وتجيب «المولى»، فتنتق من فوق رؤوس القوم كأنها ظُلل، لتقع بهم وتهوي عليهم حقاً لا ظناً. ورأيت السماء تتقطّع، لا بالغيوم، بل بكتل صخرية عظيمة تؤذن أن تسقط كسفاً... وكانت النخيل تنحني بسعفها دون عصف يميل بها! ورأيت البعيدة منها تقتلع جذورها المتغلغلة في أطباق الأرض وتنزع تسير خبباً! وقد تقاطرت السباع وأجتمعت، وجلّها الأُسود والليوات، والأسد ملوكي النفس، رفيع الهمة، صبور غضوب بعد حلم. ولم أرَ نموراً، والنمر صلف تيّاه، متأنث الفعال، محب للقتل والقهر لمن عارضه. ولا فهوداً، والفهد ذو دلال وحدّة، متكلّف للشر، طالب رفاهية... ناهيك بضبع نَهِم أو ذئب غدّار غشوم.

رأيتها وقد طوّقت «كربلاء» من كل جهة، متحفزة، يرعب نئيمها الفضاء، ويصك زئيرها الأسماع. والقوم في عمىً وصمم وتيه، لا يرون ما يحدق بهم ولا يسمعون ولا يعون، ولا يهتدون سبيلاً! وكانت الليوث والسباع ترى المعسكر «الأموي» ظهر لها وتمثل: حمراً مستنفرة، وهي قسورة، طالما فزعت منها وفرّت! انكشفت لها هذه الحقيقة وتجلّت، فكيف استأسدت هذه الحمر وتجرّأت الكلاب وتطاولت على أسيادها؟... فكان يشق عليها ذلك ويعز، فيضيف في آلامها ويسعر في غضبها. ومع الأسود كائنات غريبة أشبه شيء بـ «بنات الغاب» و«عرائس النبع»، ومعز آدمية تحمل أجمل الرؤوس البشرية، تدل بها على ذوات الأربع.

وممن وَفَدَ طيور تحلّق من كل حدب وصوب... بوم وبواشق وشواهين، وأضراب الكواسر من صقور ونسور وعقبان، تدف وترفرف لتنقض، وتصف وتكْنَع لتخطف، وهي تصفر وتزعق.

كلّها تريد أن تجيب وتنصر...

كما كان «البيت المعمور» في السماء الأولى، و«الضراح» في الرابعة، أقفر من رواده وحجاجه، فلا يُطاف به ولا يُستلم منه ركن، إذ نزلت الملائكة كلّها مدججة بأسلحتها، تعلن النصرة وتنتظر أمر «المولى».

وفي الوفود المقبلة، أرواح المؤمنين على مدى الدهر، ممن صدقوا: "يا ليتنا كنا معكم". وقد عرفت منهم كثيرين، وفوجئت أن وجدت فتياناً جل شأنهم في ميدان الدين، وأقصى ارتباطهم بتعاليمه وأحكامه: الالتزام بخدمة مجالس العزاء، وإقامة المآتم على «سيد الشهداء»، وإحياء طقوس وشعائر عاشوراء، من لطم وتشبيه وتطبير وبكاء! وقد صدمت واضطربت حين رأيت بينهم فتىً كنت على خصومة معه ونزاع، مرّت عليه أعوام من القطيعة!

هالني اضطراب ورَبَكٌ في الربوة التي يقف عليها الأنبياء والأوصياء والأولياء، والكروبيون والحمَلة، يحفون جميعاً بـ «رسول الله» و«أهل بيته» الأطهار، الذين كانوا ـ بدورهم ـ يحيطون بـ «الزهراء»... كأن فيهم مَن أراد أن ينزل الميدان ويدخل ببدنه في «الأنصار».

أجال «المولى» صلوات الله عليه نظره فيهم، ووزّع ألتفاتة منه عليهم، بلغتهم فرداً فرداً، ذلك في ثوان معدودة لعلّها ما تجاوزت الدقيقة! فتلقوا من لدنه ما سكّن خواطرهم وأشعَرَهم بأنتهاء أدوارهم وأوقفهم أو ردّهم عند حدود حركتهم. كما أشعَرَهم وأبلغهم قبوله صلتهم وشكره سعيهم... فقد وافى ـ عليه السلام ـ كل من حضر وأجاب، من السباع والطيور، والملائكة والحور، والإنس والجن، والأرض والسماء، بنظرة حملت الشكر وأبلغت الرضا والقبول، وسجّلت ووَثّقت الوفاء، ليتحقق للشيعة الفوز العظيم، ويركبوا سفينة النجاة.

ما فرغ «المولى» من جولة النظرات هذه، حتى نجح في تسكين خواطر الكائنات، وإرجاع كل شيء إلى مكانه ونظامه، فقد أرخى عينيه بالدموع، تتقاطر على خده، ثم تنحدر على كريمته لتبل صدره. فكانت للعبرات آثاراً تكوينية، قلبت الحماسة في أنصار الغيب والسماء إلى بكاء وجزع ورثاء. ثم ألحق «المولى» عبراته بإشارة من يده الشريفة، بسط ذراعه ومدّها أمامه، بحيث كانت راحة كفه تستقبل الأرض، فرفعها وقد أبقى الرسغ منها ثابتة على حالها، رفع كفّه إلى الأعلى مرة واحدة فقط، كمن ينهى أو يقول بالإشارة: كلا... فعلم كلٌّ مشربه، وأنصرف مُفَهّماً إلى دوره وما سخّر له، ثم ما أرجئ من أمر غاية خلقه. ولكن هذا لم يمنع أن تبقى طائفة من الملائكة ورعيل يأبى الأنصراف ويلح في طلب الإذن للنزول وإبادة الأعداء، فخلّى «المولى» بينهم وبين البقاء في مواضعهم في السماء، يؤمّنون على زواره بالدعاء. تركهم لسبيلهم، وأنصرف ـ صلوات الله عليه ـ لشأنه.

أراد «المولى» أن ينصرف لشأنه وينشغل بنفسه ويتهيأ ويستعد ليتقدم إلى مذبحه، فقد كان يسابق الزمن ويلاحق الأقدار، وهو في وجل أن يعرض ما يقطع تتابعها، وحذرٍ من «بداء» يُرْجئ تحقق نهايتها...

وإذا بأبنه الأصغر، «عبدالله الرضيع» يعترض سبيله، ويعرض ـ بدوره ـ نصرته! جاءته به أخته «زينب»، بعد أن سلّمتها إياه «أمه» «الرباب بنت أمرئ القيس» (الكلبي القضاعي، لا الشاعر)، التي قال «الحسين» فيها:

لعمرك إنني لأحب داراً * تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي * وليس لعاذل عندي عتاب
فلست لهم وإن عتبوا مصيخاً * حياتي أو يغيبني التراب

جاءت به «الرباب»، تسلّمه «زينب»، بعد أن أعيتها الحيلة، وما عادت تدري ما تصنع به... وما كانت ـ سلام الله عليها ـ تدرك حقيقة ما يريد «الرضيع»، أو ما صار فيه عندما سمع الواعية!؟

كان النزاع في نفس «الرباب» بلغ بها النزْع وأشرف بها على الهلاك، نزاع الألم واللوعة على رضيعها، وهي تراه يشرف على التلف عطشاً، وقد عصب الريق بفيه، وعلا لسانه الطلَى، جمعت ذلك مع الخشية من التقصير في أداء حقه وواجب المسؤولية الملقاة على عاتقها في رعاية «ابن رسول الله»! كانت تخشى أن تقصرَ في حفظ صنو لـ «الأكبر» ابن «ليلى»، ولـ «السجاد»، ترى فيه مُنية وتعقد عليه أملاً أن يبلغ مقاماً يناهز مقامهما. لِمَ لا وهو مثلهما: سليل بيت النبوة والإمامة، ومحتد المجد ومجمع العظمة، يحمل شمائلهم ويرث خصالهم وطباعهم وصفاتهم، وهو فرع سيورق ويثمر، فتزدهر الشجرة الطيبة وتمتد أغصانها لتظلل «العرش» بعد الفرش... فكيف لـ «الرباب» أن تطيق وتسمح بفقده بهذه السهولة؟

كانت ترى كل ذلك بوضوح، ما كان يربكها ويوقعها في اضطراب شديد، يغلب ـ أحياناً ـ شفقتها ويفوق عاطفتها وحنانها على رضيع لها يتلظّى عطشاً ويتقطّع سغباً، ويشرف على الهلاك ظمأ. وكانت تشتد حرصاً عليه وضنة به وتزداد خوفاً وحذراً، وهي ترى أبناء هذا «البيت» العظيم ونسل «رسول الله» الكريم، يقتلون ويلقون حتفهم ويستأصلون واحداً تلو آخر، فيهدّها وينوء بها ثقل حفظ «البقية».

تقدمت به إلى «عقيلة الهاشميين» عمته «زينب»، تخلي مسؤوليتها: فهذا ابنكم انظروا ما أنتم به فاعلون. أخلت مسؤوليتها عن الطفل الرضيع، وأخلت، وهي تناوله «عمته» وتفرغ يديها منه، قلبها من روحها، ودخلت في عداد الأموات ولما يبلغ أجلها!

مهلاً، إنني أرىٰ شيئاً آخر، وصورة ثانية للمشهد...

كأن «المولىٰ» هو الذي طلب رضيعه لا أن النساء جئن به من تلقاء أنفسهن. طلبه ليودعه، في ظاهر الأمر، أما في واقعه، فليجيب دعوته وطلبه النصرة! فقد ضجَّ «عبدالله الرضيع» في ندائه، وبالغ في إلحاحه ورجائه، حتىٰ فاق وغطّىٰ طلب جميع الملائكة، وتخطّىٰ إلحاح كل مَن حضر في الأرض والسماء بعرض النصرة.

بل إنني أرىٰ الآن وجهاً يجمع الصورتين ويكمّل المشهد:

فإن «الرضيع» لما سمع آستغاثة «أبيه»، ودوّىٰ في الأرجاء نداء: هل من ناصر ينصرني؟ قطع القماط ومزق اللفائف، وألقىٰ بنفسه من المهد، وصار يصيح بغيْر الصوت الذي عهدوه منه، وكان يوشك أن ينطق ويتحدّث! فقد تغيَّرت ملامح وجهه، وأخذت سحنة الطفولة تزول عنه، وراحت تقاطيعه تميل إلىٰ التبدل والتغيّر، فدهشت «أمه» وآرتعبت، ظانة ـ لوهلة ـ أنها سكرة الموت، ولٰكن مع تزايد علامات الحياة فيه ومؤشرات دفقها وتألقها، لعبت بها الظنون وتناهبتها الشكوك في ما يجري علىٰ آبنها، وعلمت أن خطباً فظيعاً حل به ونزل، فلا يكون هٰذا في رضيع أدركه الموت ولا هو من شأنه، ولا سيما أنه كان قبل لحظات، وهو في يومه الثالث من آنقطاع الماء، يميل برقبته، وقد آنقلبت عيناه ودارت في رأسه، وآنقطعت أنفاسه، حتىٰ كأنه يستلها من خَرْت إبرة، فبدا حقاً أنه دخل في النزع والآحتضار، ثم عرض له ما عرض من قطع القماط والسقوط علىٰ الأرض وتبدل الشكل والصوت!... فحملته «أمه» إلىٰ عمته «زينب» لتنظر ما أصابه.

تلقاه «المولىٰ» من «أُخته»، وحمله بين يديه، وراح يسرح نظره فيه ويقبّله بحسرة، وهو يقول:

بُعداً لهٰؤلاء القوم إذا كان جدك «المصطفىٰ» خصمهم يوم القيامة.

ثم توجه به نحوهم وقال:

يا قوم، إنكم قتلتم شيعتي وأهل بيتي، وقد بقي هٰذا الطفل يتلظّىٰ عطشاً، فأسقوه شربة من الماء.

وكأن نزاعاً نشب في المعسكر «الأموي»، بين مطالب بإجابة «المولى» وسقي الطفل البريء... لا أدري أشفقة كانت منهم ورقة ورحمة أخذتهم على حال هذا «الرضيع» الذي كان يزهر نوراً ويتألق، أم حذراً من انتشار الخبر بعد حين وخشية من العار الذي سيلحقهم؟ وبين معاند يأبى ويصرّ أن لا يبلغ الماء معسكر «سيد الشهداء» بلغ الأمر ما بلغ.

وكأنه ـ عليه السلام ـ أذكى النزاع وأججه، ليمضي الحدث ويروح في المزيد من التمحيص والابتلاء، وكشف معدن الأعداء، حين قدّم مقترحاً يقطع الطريق على جملة من المعترضين، فقد عرض أن يأخذوا الطفل ويسقوه بأنفسهم ويرجعوه، فلا يبقى سبيل لحذر أن يشرب هو مما يقدّم للطفل! ثم انكشف لي أن «المولى» لم يكن يقصد ابتلاء القوم وتمحيصهم، إنما جاء فعله امتثالاً للوحي ونزولاً عند طلب السماء، فـ «المولى» لا يمتحن ولا يبتلي ولا يفتتن، بل يكون الامتحان والابتلاء تلقائياً من فعله، ونتاجاً وتبعاً لحركته.

احتدم النزاع بين القوم واشتد، وارتفعت الأصوات وتقاطعت، وصار كل يدلي بدلوه، ويجاهر برأيه، وكأن حجاب الخشية والحذر من مؤاخذة الحكومة ومحاسبة السلطة قد هتك، وحاجز الخوف من «سرية الجواسيس» ومن تقاريرها المرتقبة التي سترفع إلى «الشام» وبلاط يزيد مباشرة قد سقط وكُسر، وما عاد كثير من أمراء السرايا، بل عامة الجند يعبؤون، فراحوا يتنادون بينهم ويتحاججون، ويرد بعضهم على بعض... وهذا صوت يقول: كم أنتم قساة، أما في قلبكم رحمة؟

: أية رحمة يا هذا وأية شفقة، إننا نُحْكِمُ خطّتنا ونحسب لمعركتنا لنحسمها، وهذا ميدان حرب وساحة قتال، لا منتدى شعر ولا مجلس طرب ولا نحن خرجنا للمصيف! إنها الحرب، والرقة فيها أن نُسِنّ النصول ونشحذ السيوف ونمضي الشفار، والرحمة أن نعجل بالقتل ونبادر، فلا نترك جريحاً يعاني! اعلموا أيها الناس إننا لا نقصد الشدة ولا نريد الحدة ولا نتعمد القسوة، ولا شأن لنا بأعدائنا مَن يكونون؟ ولا نسأل أالأطفال هم أم نساء أم رجال؟ إننا نقاتل مَن خرج على الخليفة، وخلع الطاعة وشق العصا.

نَصَرَه صوت إلىٰ جواره:

نحن نريد رأس «الحسين» نحمله إلىٰ «يزيد»، نفعل ما في هٰذا السبيل ونقدم، لا نتوانىٰ، ونزيح من الطريق مَن يحول بيننا وبين ذلك ونفنيه. ثم إنّا إذا لم نصرعهم نحن فسيميلون هم علينا ويبيدوننا...

وعَضَدَه آخر جاء من بعيد:

لا تبقوا لهٰذا «البيت»، لا لأهله ولا لشيعته، بقيّة. فإن فعلتم، عادوا لينتقموا منا وينكّلوا بنا.

ردّ عليه وعارضه قائل من بينهم:

مَن سيميل عليك ويبيدك يا أحمق، ولم يبق منهم أحد، وهٰذا طفل رضيع، ماذا عسىٰ الماء أن يفعل ويبعث فيه؟ أتخشىٰ أن يتقوّىٰ بشربة، فيمتشق سيفاً يبارزك فيه ويصرعك؟... أما تستحي من قولك؟

وتوالت الأصوات وتعالت من الرأيين:

وما يريد هٰذا الرضيع من الحياة؟ دعه يموت فإن راحته في موته! ثم إنها ـ والله ـ لغُصّة وجمرة ستكوي قلب «أبيه»، ما أظن شيئاً يسر «يزيد» ويثلج صدره ويبرد غليله من «هاشم» مثلها!

: أتمنعون الماء رضيعاً، وتقتلونه صبراً؟! والله إنكم لتألون بسَوْءَةٍ شنعاء، ومَعَرّة دهماء، وتجرّون علىٰ أنفسكم عاراً لن يغسل، وتلطخون وجوهكم بشنار لن يرحض، وتعصّبون رؤوسكم بالدنية وتورثونها أعقابكم.

: صه، فض الله فاك، أتدري ما تقول؟ إنما تحتطب لنار ستأتي علينا جميعاً، وتوقد في جذوة لا تتأجج فترتفع منها الألسنة إلّا علىٰ تشتيت هٰذا الجمع وفل هٰذا العزم وخراب هٰذا البناء وتضييع هٰذه الجهود. والله ما جاء «الحسين» بـ «رضيعه» ولا طلب له الماء إلّا ليبث الخلاف بينكم ويذكي الشقاق، وليفتنكم عما أجتمعت كلمتكم وأئتلفت جماعتكم عليه.

: أتركوا النزاع وعودوا إلىٰ أميركم، وأنزلوا علىٰ رأيه.

: نعم، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فما هلك قوم إلّا حين أختلفوا، أرجعوا إلىٰ وصية «ولي أمركم»، فالرشد كل الرشد في الطاعة.

: لقد أمر خليفة المسلمين «يزيد بن معاوية» أن لا نترك للبغاة بقية، وأن نأتي على آخرهم بالسيف، وأمر أن نحبس عنهم الماء، ولم يستثن طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً، فمن له أن يجتهد وقد نصَّ «الأمير»؟!

: أحسنت وأجدت، قلت حقاً ونطقت صدقاً... والله لو سقى أحد الطفل لأدخلناه في عداد أعداء «الأمير» وقاتلناه.

: مه يا لكع، أتهددنا وتزايد علينا ولاءك لـ «الأمير»، وأنت من آخر مَن ألتحق ببيعته وأنضم إلى جيشه ودخل في جنده؟ نحن من بادر وأجاب، وأنت وقومك تتلجلجون وتقلّبون الأمر وتحسبون له، بل وتأملون أن تكون الغلبة لـ «بني هاشم» فتَكُفَوْن دماءهم، وتجنبون الأبتلاء بوِزْرِه، وقد جاءت عيون «أبن زياد» قبل أن تلحقوا بنا، بأن أحسنكم حالاً مال إلى الأعتزال ورغب في الصلح، وأمّل أن يَرْشُد «الحسين» كما صالح «الحسن»، وأبتهل إلى ربه أن يبقى في داره ولا يخرج إلى «العراق»؟ وتأتي الآن لتزايد علينا في الولاء لـ «أمير المؤمنين يزيد» وتبارينا في نصرته؟

كانت المساجلات والمخاصمات تأخذ طريقها لتفرز المعسكر «الأموي» إلى: «كوفيين» و«شاميين»، وأخذت منحىً خطيراً، ما حمل «عمر بن سعد» على صرخة نكراء أسكتت الأصوات، ولفتت إليه الأنظار فقال:

كفّوا عن النزاع ودعوا المفاخرة ولا تنابزوا، ولا يعيّر بعضكم بعضاً، فنحن جميعاً على السنة ومن الجماعة، ليس في معسكرنا ولم يلحق بجمعنا هذا «شيعي» واحد... لا يضم هذا الجيش ـ بكوفييه وشامييه ـ إلّا مَن يُجِل صحابة «رسول الله» ويحفظ حرمتهم ويعظّم منزلتهم. وإن كان فينا من يوالي «أهل البيت» ويشايع «علياً» وبنيه، فإن ذلك لم يبلغ به البراءة من خصومهم والنكير على أعدائهم، فإذا شذ واحد وأتبع «المصريين» وأنتهج نهجهم في النيل من «ذي النورين»، فإن ذلك لم يبلغ به يوماً إلى تقديم «علي» على «الشيخين»، ناهيك بالطعن فيهما والبراءة منهما، ولا وصل أحد منكم إلى «الرفض» الذي عليه معسكر عدونا في تلك الجبهة. ليس فينا «شيعي» واحد، ليس فينا «رافضي» خبيث، فعلام النزاع ولم التعيير؟

: أما سمعته يؤلّب أهل «الشام» علينا؟

عاد «الشامي» فقال:

بل أنتم من غمز في ولائنا لـ «أميرالمؤمنين».

لم ينقطع النزاع بل آحتد وآستحكم، فزاد آرتفاع الأصوات وتكاثر الآراء وتراشق الأقوال... ما هدد ـ بحق ـ تماسك جبهة معسكر «الأمويين»، وأنذر بخطر يقلب موازين المعركة.

عندها... أقدم «زقلل» متأبطاً قوساً له عجيبة، جعل حِمالتها في صدره، وأخرج منكبيه منها، ثم عاد وتنكّب بها، ثم توشّح، فجعل الحمالة في منكبه الأيمن وأخرج يده اليُسرىٰ منها، فصارت القوس في ظهره... لا أدري، أكان يستعرض ليلفت الأنظار إليه، أم أنه كان يحيي القوس، كما يحيي الفارس السيف برفع قبضته إلىٰ طرف أنفه، أم أنها تكملة طقوس سحرية، فقد كان يتمتم وينبس، لا يُسمع أحداً؟

ما كان بحاجة للآستعراض حتىٰ يلفت الأنظار، إذ يكفيه مرأىٰ القوس حين أخرجها من حمالتها وجردها من لحافها، عن أية حركة تدير إليه الأعناق... لعمري، من أين جاء بها؟ كيف لوىٰ عليها العصب وشد وَتَرها؟ كيف آنعطف قاباها وآستقر مقبضها في كبدها؟ ولا شيء في هيئتها يوحي بالمطاوعة والمرونة واللين، فما كأنها من عود ولا من شيء من أخشاب الأرض! لقد صُبّت من حديد، أو من فضة فرغ جوفها، فكانت صفائح حكَت هيئة القوس وآنحناءته، جعل في جوفها مثل الأطواق والحلقات التي رُصّت بإحكام وحُبكت وركّبت بدقة، ما زالت تصغر وتضيق في الأطراف حتىٰ تطاوع الثني وتستجيب للميل. وقد وقّف علىٰ طائفَيْها بمضائغ من عَقَب، جعلها في غراء من دماء الظباء. فبدت حفوزاً قذوفاً، كأبعد القسي موقع سهم، وأشدّها دفعاً، ليس لها مثيل في المعسكرين، ولا شبيه في ما رأت أعين مجرّبي الرماة وعرفت حروبهم؟!...

وإن حق لشيء أن يصرف الأنظار عنها، فهي الكنانة التي جاء بها معها، والسهام والنبال التي فيها!

كان «زقلل» يحدث نفسه، هذا ما ظهر لي، إذ لم يكن معه أحد. ولو لم أتعرف على لغته لظننته يهذي، أو يهجر هجر مَن خولط! فقد كان يتكلّم بلغة تعرفتها من دراسة في فقه اللغة أطلعت عليها، تذهب أنه كان في البدء، أو في ما يسمى بـ «الحقبة الأشتقاقية الأولى» (Rhematic Period)، حين بدأ الأشتقاق الفعلي - أي من الأفعال - قبيلةٌ تسكن أواسط آسيا كانت تتكلّم لغة تتركب كلماتها من مقطع واحد... وأن هذه اللغة كانت أصلاً لمجموعات اللغات «الطورانية» و«الآرية» و«السامية». ثم تلت تلك الحقبة حقبة «بدوية»، كان أهلها يضربون في البادية ٱلتماساً للكلأ، وأطلقوا عليها «الحقبة اللصوقية» (Agglutinative)، وهي الحقبة التي كان الضمير يُلصق فيها بالفعل تصريفاً له، أو يُلصق فيها الحرف بالأسم دلالة على محل الأسم من الإعراب، دون أن يكون في ذلك كلّه تداخل أو نحت. ولم تزل اللهجات تتدرج رويداً رويداً حتى ٱستقرّت آخر الأمر على مجموعات اللغات المعروفة في العالم. ثم تأتي بعد الحقبة «اللصوقية»، حقب «الأساطير» أو الحقب «الميثولوجي» ويسمونه أيضاً «الأسطوري الشعري» (mythopoeis)، ثم يلي ذلك عصر «القوميات».

لا أدري ماذا كان يقول على وجه التحديد، فأنا لا أفقه تلك اللغة، ولكني أعلم أنها لغة يتحدث بها، لا يهذي. كان يحدّث كائناً خفياً بلُغة «الأشتقاقية الأولى»، كلمات أشبه بالأصوات: "صك رع قاق، لك مو سو، وق مو خاخ"!! كان يحدّثه دون أن يلتفت إليه... وفي لمحة خاطفة، ظهر المخاطَب في المشهد، فتبيّن أن «زقلل» كان مقبلاً عليه، فلم يكن يلتفت جانباً، لأنه كان يسير أمامه ولكن القهقرى، يمضي ووجهه لقفاه يحدث «زقلل»! ولم أدرِ أكان يستدرجه ويقوده إلى حيث يريد، أم أن «زقلل» هو الذي يسوقه ويدفعه؟! شيطان في أنكر هيئة وأقبح وجه وأبشع منظر، دميم كريه، أحد أولئك الذين رأيتهم يتفرعون عن جذع «إبليس» في أعناقه الستة، في الوادي الذي أطلعني عليه «فطرس» أول وصولي هذا العالم، لكنه غيّر في هيئته وبدّل في صورته، دون أن يحسّن فيها أو يزيل من قبحها شيئاً...

حقاً إنه لمسخ تقذئ به النواظر وتشمئز الأنفس... أسود كالح، لا كسواد الزنوج، بل أسيِوِد بلون المغبر الذي أخذته عطبة الحريق، كأنه طلي ولطخ بالسخام. أستبدل قرناه بضفائر رفيعة وغدائر غطّت رأسه الأكبس وذوائب وارَت هامته وناصيته، تعجب كيف أمكن عقصها من هذا الشعر الأجعد، فنسج على بعضه وأسترسل كالخيوط؟! وقد تهدّلت حتى بلغت أكتافه، مغطية وجهه، فكان يزيحها بنفضة يهز بها رأسه بين حين وآخر، فتتراجع إلى جانبي أذنيه الكشاوتين. وقد غلظت شفتاه في لَعَس وحُوَّة، كما الأموات أو مَن أنقطعت منهم الأنفاس، ما زاد في إظهار حمرة فاغر فيه ومندلع لسانه المتدلي ككلب يلهث، وقد سال منه لعاب غزير، وريق أخضر كأنه عصائر السموم وأخلاط زعاف تفرزه حية صمّة قرناء قُصَيْرى آتخذت من فضاء فمه بيتاً لها وجحراً، وحميم من طبيعته النارية وغسّاق!

فلما وصلا إلى حيث قصدا بسابق تحديد منهما وتعيين، كان «حرملة بن كاهل» واقفاً... آختفى الشيطان وتوارى، وأضطرب المشهد وتداخلت صورته. وكل ما يسعني أن أقوله عن الأمر أن «زقللَ» ألقى كنانته وطرحها أمامه، وأخرج قوسه ونكّبها «حرملة» وهو يهمس في أذنه: "أقطع نزاع القوم". آلتفت «حرملة»، وإذا هو «عمر» الذي يحدثه ويأمره! ثم ما لبث «زقلل» أن عاد لهيئته الأصلية، ثم رأيته يفعل ويفعل، حتى تلبّس وأندك في بدن «حرملة»! الذي أعترته هزة خفيفة كمَن شَرَقَ بشيء، ثم عاد وسكن، وكأنها حالة سبق أن نزلت به وأعترته، فأعتاد عليها وألِفها! وما كنت قبل هذا أظن لـ «زقلل» هذا الشأن والحال ولا أن له هذه القدرة والقوة، أن يتلبّس بغيْره وينفذ في أجسام أوليائه! حتى كأنهم هو، يباشر من خلالهم أفعاله ويؤدي بجوارحهم وأعضائهم ما يريد، ويلقى منهم الرضا والقبول.

آفترش «حرملة» الأرض، وأفرغ الكنانة من السهام، نشرها أمامه، وراح يتفحصها ويقلّبها لينتقي. فلم يقنع بما فيها من النشاب والأسَل، وليس فيها من النبل ما يُعاب: لا «شارفٌ» طال عهده بالصّيان وأنتكث عقبه، ولا «أمرط» سقط ريشه. لا «نِكْس» مما يجعل سِنْخُه نصلاً وتصله سنخاً فلا

يكون فيه خيراً، ولا «خِلْط» نبت عوده على عوَج، فلا زال يتعوّج وإن قُوِّم، وإنما كانت ـ كلّها ـ صِعادٌ لِيط، طُرقة يد وصيغة نبّال حاذق... لكنها رغم ذلك، ما أقنعته ولا ملأت له عيناً، إذ رآها قاصرة عن أداء ما يريد، ودون ما يرمي من غرض، وأعجز من أن تنفذ أو تلتقط «الدريئة» التي يستهدف!

فاختار قدحاً، لم يُرَش أو يُنصل بعد، ومضى في بَرْيه وتصليته، إذ كان مشذباً خشيباً، فسخّنه حتى لانَ وطاوع، ثم شدّ عليه الرصاف وعصب، حتى إذا أتم الإقذاذ بإلصاق الرياش، عمد إلى الرعظ فثبت فيه سنخ النصل، وأخذ يحد الشباة ويسن الظبة، على تؤدة ومهل. وكان ذلك يتجاوز منه الإتقان وجودة الصنع، إلى شغف غريب وهوس وشذوذ! لقد كان في سكرة، وكأنه يناغي حبيباً ويسامر معشوقاً! فإذا فرغ من إعداد سهمه وأتم صنعه كما يشاء، عمد يحتفر وينقش أسمه على مستدقّه. و«عمر بن سعد»، حقيقة هذه المرة لا تلبساً، يكرر عليه: "أقطع نزاع القوم يا «حرملة»"!

: سأفعل ورب الكعبة، فمن تريد الوالد أم الولد؟

: أيهما شئت أو أصبت، أرحتنا.

: أما «الحسين»، فما عسى سهمي أن يفعل ويؤثر فيه، وهو متدرع متسربل، وقد نالته سهام غيْري حتى الساعة فأكْدَتَ ولم تظفر، وقد رميته من قبل، فكأن بعض النصال تعرفه، فتطيش عنه، وقد سُدِّدَت عن رمية لا تثنى! إني أراه يُعمل في السهام سحره، أما رأيت كيف كانت تحيد عنه في الرشق الأول وتصيف، وما لم يكن يخطل منها فيصيبه، كان يرتعد وينفضخ عوده، وأحسنها حالاً كان يقع في درعه يشكها؟

إن أجله لم يحن بعد، لعل الله يدخر له المزيد من المحن والآلام في هذه الدنيا، فدعه لساعته، فما كنت والله لأريحه من شيء أرجو أن يشدد عليه ويزيد في عذابه!... ولكن دعني أفري كبداً له حملها بين يديه، وأفجعه برضيعه هذا، يراه مصروعاً أمامه، فيعلم أنقطاع نسله، وهو منشغل بطلب الماء، يرجو له النجاة. أمهلني لأرى من الصبي مرمىً، فيجعل لي سهمي هذا، سهماً عند «يزيد» ينازع «أبن زياد» إمرة «الكوفة»!

ما كان يخاطب «عمر»، بل ما كان يشعر بوجوده ولا بوجود شيء في هذا الميدان المزدحم... كان يرى أمامه فضاءً صافياً رحباً، وعرصة خالية، إلا من «المولى» يحمل رضيعه على راحتيه. وقد عميت بصيرته وانطفأت في عينه الأنوار التي كانت تسطع من «المولى» و«رضيعه»، وكانت قد تأججت وتألقت حتى ذهبت بنور الشمس وبددت خيوطها الذهبية وخلّفتها باهتة خاسئة! والمنظر (في عين اللعين) من حول «المولى» وعن يمينه وعن شماله، فراغ خلو من أي مانع يصرف النظر أو يشتت الانتباه... إنما كان «حرملة» يحدث نفسه، لذا لم ينتظر جواب «عمر» الذي جاء: دونك ما تشاء.

ملأ الخبيث كبد قوسه بتلك السهم المسوّمة، وما زال ينزع في القوس نزعاً ويجذب وَتَرَها حتى أغرق وبلغ غاية المد، وغلا رافعاً يده من جهة المرفق حتى خشي على الوتر الانقطاع، وبزَمَ يترقب اللحظة المُثلى.

ومن عجَبٍ أن هبّت في هذا اليوم العكّ الغتم، الذي جمع هاجرة صيهد مع سكون الريح وأخْذِ الأنفاس، هبّت في لحظة خاطفة نسمة، لعبت بخرق الطفل وما انحل من لفائفه، وأزاحت قميصاً كان يداريه عن الحر، فبان بياض عنقه وتلألأ ككأس فضية، أو كمرآة صيقل شعت عليها الشمس، أخذت الأنظار عن كل شيء هنا، وجذبتها إليه...

أخلى «حرملة» ما بين سبابته وإبهامه، وأفلت ما كان يمسك من رياش سهمه، فانطلقت من القوس وانزلقت في زَلْج وتعضيل، تلتوي على نفسها وهي تشق الجرد وتبدد الفضاء وتقطع نحو غرَضها، لا عَرَضاً ولا غَرَباً. وبعد خَرَس وكتم، فلا سمعت لها رنة حين أنبضت، ها قد نئمت شيئاً، فأنّت وحنّت، ثم رنّت بعد ذلك وهي تشق طريقها، وتشق صمت الموقف وسكون ترقّبه، ثم ظهرت لها هزمة، صوت كالدوي...

كأن الصورة صارت تُعرض بالحركة البطيئة، أم هو الفعل من الشناعة والهول والفظاعة، ما نازع الزمن وغالبه، والحدث صارع القدر من فجعة النظارة وجزع المشاهدين الراغبين في صرفه وعدم تحققه، وفيهم أنبياء وملائكة وأولياء، فكان النتاج هذا البطء الظاهر في الحركة؟

كلا، بل هي آلية العرض التي تزيد في اللوعة وتمعن في الفجعة، وتحقق في سبيل «القربان» أقصى الغاية من آلام «المولى» ومحنته. ثم هي الرحمة الموصولة ـ بعد ذلك ـ بفتح باب جديد لبكاء الشيعة. فقد أقتضت العناية الأزلية وهي عالمة بقسوة بعض القلوب وإدبار بعض الأرواح، التي لا ترق لمصيبة ولا يهزّها شيء، أن يجعل لها سبباً، ويمعن في أستمالتها وترويضها ومعالجتها وتهييج أسباب الرقة فيها، فكان تقديم «الرضيع»، وكان هذا البطء، الذي يحكي صراع «الكم» و«الكيف»، فلم تكن لحظة خاطفة وثوان معدودة، ولا هي سهم نافذ صرع رضيعاً فما أحس بشيء... بل هي فاجعة كادت أن توقف عجلة الزمن، وتعطل هذه الحياة وتنهي هذا الوجود.

ومن هذا المنطلق ومن ذاك رفعت «كربلاء» وأصعد بها وكانت في «العرش» (وهو الجسم المحيط بجميع الأجسام)، ومنه كان نهار «عاشوراء» يمتد ليعادل أكثر من ثلاثة أيام كاملة!... فالحدث أعظم من أن يحويه ظرف، ويطيقه زمان ومكان، فأختلت الموازين وأضطربت، فما كانت الدقيقة ستين ثانية، ولا الساعة ستين دقيقة، ولا اليوم أربعاً وعشرين ساعة! هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن درجة الآلام والمعاناة واللوعة المطلوب والمفروض حصولها لتحقق «القربان» وتنجُزه، لا يحتملها هذا الزمن ولا تكون في مثل هذه الفترة المحدودة، فهي لا بُد أن تجمع إلى «الكيف» والنوع الذي هو في الذروة، «كمّ» يضاهيه ويجاريه ويعينه على هدفه... لذا تمدد الزمن وتوسع النطاق، وتغيّر ناموسه وتبدّل نظامه، فما كانت الشمس تمضي، ولا الأرض تدور كما كانت تفعل كل يوم!

وفي «كربلاء» الساعة، في هذه اللحظات الخطيرة، صمت رهيب وسكون مطبق... إلّا من هزيم السهم ودويّه.

أنخلع قلبي وأنا أرقب المشهد، ونزا فؤادي وأنماث كما ينماث الملح في الماء، أو أستطار كأنني أهوي من شاهق، فأضطرب موقفي من تحتي فسقطت وأنا أتابع سَرَب السهم.

كأنه كان يخترق صدري وينفذ في قلبي...

سمعت صرخة بدّدت الصمت وكسرت السكون، وصيحة أسقطت كل شيء عن موضعه وأخرجته من قالبه وهيكله، كانت «مجرد» زفرة ونفَس همٍّ وتأوُّهٍ من «المولى»! انعكس صيحة هزت «العرش» وراح صداه يجوب الوجود ويصبغه باللوعة، فيحكي جانباً من حقيقة تألّمه لذبح «ابنه» وهو على يديه، وقد رآه ينتبه من غشية الظمأ على حرّ نفاذ السهم في عنقه!

لقد بذل «المولى» اللحظة من نفسه الغاية وأعطى النهاية، فكان الألم يعتصر قلبه ويقبضه قبضة مَن لن يخليه إلّا هامداً عن كل نبض أو حراك، وكأن روحه أخذت تنازع بدنه فصار يحتضر!

عندما قمت من سقطتي وعدت إلى مطّلعي، كان السهم قد وقع في لبة الصبي وموضع القلادة من نحره، فقتله من فوره، لكني رأيت «الرضيع» صلوات الله عليه رفع يديه وأمسك السهم بهما، كأنه أراد منع نفاذه في نحره فسبقه المشؤوم، أم تراه حسبه سقاءً فرفع يديه يتلقاه، ومن هنا ابتسم؟

أما «المولى» فقد شغله خطب جلل، ما زلت وما زالت الأجيال تبحث عن علّته وفلسفته وتستجلي سرّه... أن لا يسقط من دم نحر «الرضيع» على الأرض ولا يلاقيها منه شيء أبداً. فكان يملأ كفه من الدم، ويرمي به وينثره نحو السماء، فلا تعود منه قطرة.

كيف لا، وهي صلة العاشق لمعشوقه، وتحفة الكريم لربه العظيم... فالقطرة الواحدة من دم هذا الشهيد بمنزلة ألف ألف شاهد صدق على دعوى الحب، وصدق الوفاء وحقيقة الفناء في الله. ترسل إلى الحضرة الرحمانية، لتكون من ذخائر «العرش» وكنوز «الكرسي»، ولو خصّ الله تعالى أحداً من حملة عرشه وسكان كرسيّه بذرّة من شموس أنوار هذه الدماء، أو بمقدار ما يكتحل به من مزاجها، لكان مكرّماً بنعمة ليس فوقها نعمة، ولكان ريّاناً من كأس المحبة الأوفى.

ومن هنا كان خطر أن يسقط من هذه الدماء ويلاقي الأرض منها شيء، فكيف لهذه الأرض الدنيوية أن تطيق وتتحمل هذه التحفة الملكوتية والهدية العرشية؟ ولو سقطت ولاقت لانخسفت الأرض بأهلها.

ومن هنا أيضاً بادر «المولى» لدفن آبنه «عبدالله»، لا ليحفظ جسده الصغير عن تفرق أعضائه بحرارة الشمس وسحق سنابك خيل الأعداء فحسب، بل إن بقاءه طريحاً ظاهراً مكشوفاً كان ينذر بالخسف ويهدد بها كان ينتظر الأرض لو سقطت من دمائه قطرة.

وهكذا آنكشف الساعة وظهر سرّ آسم هذا «الرضيع»، ولِمَ كان «عبدالله» إلى جانب آسم «علي الأصغر»، وسرّ تكنية «النبي» صلى الله عليه وآله سبطه «الحسين» بـ «أبي عبدالله»؟... إنه عطاء التجلي الأخير لـ «المولى»، والظهور الدنيوي الأقرب إلى حظيرة القدس، وبوابة السماء والمعراج للقاء الله، بأحب الأثواب إليه وأتمها عليه: العبودية! ومن نافلة القول أن ظهور هذا المقام لا يعني أن هناك منحىً تدريجياً وطريقاً تكاملياً سلكه «المولى» حتى بلغ ما بلغ وصار في ما وصل، وكأنه ما كان تاماً في قربه ولا كاملاً في عبوديته، فتم له ذلك وتحقق بتقديم «عبدالله»، كلا، بل يعني أن الموانع آرتفعت والمقتضيات الخارجية فرضت نفسها وألحّت، فسمحت أو لزمت أن يظهر «المولى» بهذا المقام.

كنت أرى وألتقط هذه الكشوفات الثمينة، وأرقب وأتلقى الفتوحات النفيسة، ترتفع وتظهر في جهة من سماء «كربلاء»، وترتسم هناك كصفحة كتاب عظيم أو شاشة عرض... فإذا بها آختفت فجأة وتوارت، حين خرجت من الخيمة آمرأة كسفت الشمس بمحياها، وهي تعثر في أذيالها، تقع تارة وتقوم أخرى، وهي تنادي: وا ولداه، وا قتيلاه، وا مهجة قلباه. فضجت السماء وبكى لسجعها جلّ عسكر «الأمويين»، وراح بعضهم يقبّح فعلة «حرملة»، بينما آخرون يبررون ويدافعون.

حتى أتت المرأة «الطفل» الذبيح وآنتزعته من «أبيه» وهوت عليه تندبه طويلاً، فخرجت خلفها بنات كاللؤلؤ المنثور ورحن يسعفنها ويعنّها على البكاء. سألت ملكاً بجواري عن المرأة؟ فقال: هي «أم كلثوم»، والبنات العلويات «فاطمة الصغرى» و«سكينة» و«رقية» و«زينب»... فلم أملك نفسي من شدة البكاء، وما عدت أستطيع التوقف.

وكانت «أم كلثوم» قد ضمّت الطفل إلى صدرها، وجعلت نحره على نحرها وأسبلت غزير عبراتها، ثم أهوت إلى الأرض ووقعت جاثية على ركبتيها، ثم عادت فوقفت، لتنادي: وا محمداه، وا علياه، ماذا لقينا بعدكما من الأعداء، وا لهفاه على طفل خضب بدمائه، وا أسفاه على رضيع فطم بسهام الأعداء، وا حسرتاه على قريح الجفن والأحشاء...

وقد ترددت في الأنحاء ندبة لم أعرف لها مصدراً:

لهف نفسي على صغير أوام * فطمته السهام قبل السهام
لهف قلبي عليه وهو صريع * جرعوه نجيعه وهو ظام
خضبوه بدمه وهو طفل * لهف قلبي على قتيل الطغام
أقرحوا قلب والديه عليه * ورموه بذلّة وأنتقام
ويلكم بيننا وبينكم الله * يوم الحشر عند فصل الخصام

وتبعتها زيارة وصلاة لهجت بها الملائكة معاً:

السلام على «عبدالله بن الحسين»، الطفل الرضيع، المرمي الصريع، المتشحط دماً، المصعد دمه في السماء، المذبوح بالسهم في حجر «أبيه»، لعن الله راميه «حرملة أبن كاهل الأسدي» وذويه.

ثم أرتفع صوت «روح القدس» بالأبيات التي ألهمها العلامة «محمد تقي آل صاحب الجواهر»، وفيها:

وربّ رضيع أرضعته قسيُّهم
من النبل ثدياً درّه الثرُّ فاطِمُه
فلَهفي له مُذْ طوّق السهمُ جِيدَهُ
كما زيَّنَته قبل ذاك تمائمُه
هَفَا لعناق السبط مُبْتَسِمَ اللمى
وداعاً وهل غيرُ العناق يلائمُه
ولهفي على أم الرضيع وقد دجا
عليها الدجى والدَّوحُ ناحت حمائمُه

تسلل في الظلماء ترتاد طفلها
وقد نجمت بين الضحايا علائمُه
فَمُذْ لاحَ سهم النحر ودّت لَو أنها
تشاطره سَهْمَ الردىٰ وتساهمه
أقلّته بالكفّين ترشف ثغره
وتلثم نحراً قبلها السهم لاثِمُه
وأدنته للنهدين ولهىٰ فتارةً
تناغيه إلطافاً وأُخرىٰ تكالمه
بني أفق من سكرة الموت وارتضع
بثدييك عل القلب يهدأ هائمه
بني فقد درّا وقد كظّك الظما
فعلّك تطفي من غليلك ضارمه
بني لقد كنت الأنيس لوحشتي
وسلواي إذ يسطو من الهم غاشمه

* * *

العقد السابع: الوداع

فدعاهم قوموا إلى التوديع من
قبل الفنا إن الفراق قريب

لا شيء يطيق هنا، ولا شيء يُطاق...
لا الأرض تطيق الحدث، ولا السماء تطيق الواقعة.
ولا نحن النظّارة في حال يسمح بالبقاء.

حتى بدن «المولى»، ما عاد يطيق روحاً خلت من جميع الأعراض، وانفكّت من كل القيود، وانقطعت عن جميع النسب والتعلّقات وتحررت من الارتباطات والإضافات، وغدت منوطة بأجلها وساعة وفاتها، تنتظر أدنى سبب لتندك في «الذات»، وترتقب وتتطلّع لتعود إلى وطنها الأصلي.

كانت سُبُحات الوجد وإشراقات العشق والشوق في وجه «المولى» تزهر وتتألق وتغالب الجلال وتطغى على الجمال، ونفحات القرب من الحبيب والأنس بالجوار تتصاعد من أنفاسه وتفيض من قسماته. كان يبدو كمتيّم وَلِهٍ ومحب دنف، أكثر من مصاب أو مكثور أحاط به أعداؤه، ومن غريبٍ عدِمَ الناصر وفقَدَ المعين. حتى ليذهل الناظر عما نزل بهذا «البشر» من مصائب وحل به من ويلات، وينسى ما يعاني من المحن والأرزاء...

كان الرضا يتدفق من مُحيّاه ويرتسم على طلعته، و«الطمأنينة» ترشح من وجهه الشريف وتقطر من محاسنه، فتجدها تنزع به صوب «الرجوع» نزعاً، وتهتف به وتنادي: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.

وكنت أظن أن الأمر بلغ النهاية، وهذه علامتها الحتمية، فيخفق قلبي ويعلو وجيبه، وكأنه يلفظ ـ هو الآخر ـ آخر نبضاته وحركاته...

ولكن يبدو أن هناك مزيداً من العطاء، ومزيداً من الرحمة!

ثمة ثمالة في الكأس تبحث عن شارب يفرغها، فلَقٌ من لبن، وعُشان من تمر، وجُرامةٌ من حصاد الزرع. أو أنها مُدّخرة عن عمد، تركت لظامئ لم يروه ما كان في هذه العرصة حتى الساعة، وجائع ما أشبعته هذه المائدة! أو هي صرخة ونداء أخير يوقظ المستغرقين في نومتهم، الذين أخذهم سبات البعد عن حقيقة العطاء في هذه الملحمة... سهروا في دنياهم حتى ثنى النعاس رؤوسهم، ولهوا في فاسد الأقوال وشاذ الآراء، و«أنفتحوا» على الضلالات حتى أمال الكرى أعناقهم، شرّقوا وغرّبوا فغفلوا حتى عرتهم النعسة وعلتهم الوسنة، ففاتهم ما كان حتى الآن وحرموا.

هذا نداء أخير يبني بيتاً للوعة والفجعة، وضرب آخر من المصاب يورث الحسرة والكمد، ويؤجج الأسف واللهَف، ويضرم الكآبة والغصص، ورافد جديد يغذي الرثاء والبكاء والجزع، ذلك لمن عجز ـ حتى الآن ـ أن يتلقّى ويغترف فيهناً، وضعف أن يتفاعل ويلتحق فيظفر... والناس أمزجة وأهواء، ودرجات في الرقة والرحمة أو في الغلظة والقسوة وطبقات، بل قدرات وطاقات، فكما أن هناك فطِناً لقِناً زكِناً، ثقيفاً لقيفاً، هناك بليد فدِم، أغلف القلب، يسافر في طلب المعنى أميالاً وهو لا يفوت أطراف بنانه!

لعلّ وعسى أن ينبّههم ويبتعثهم من رقدتهم. وقد أسهد من قبل إخواناً لهم، فجفاهم الرقاد وسلبهم الكرى وأهجرهم النوم وآتترقهم، يرقبون كواكب الأسى والأتراح، ويقلّبون طرفهم في نجوم الهموم والغموم، ويرعون فرقدي الأشجان والأحزان.

وإن تعجب لشيء، فأعجب لهذه الرحمة الواسعة، والسفينة القادس، والفلك العظيم، صنعها صاحبها ليحمل خلق الله وينجيهم من بحر الضلال والظلمات، وقلّفها ليمخر بهم ويخلّصهم عباب الشرور والبليات. وهو الساعة يطيل وقفته، ويؤجل إقلاعه، لا يريد أن يغادر المرفأ ويأبى أن يبحر بركّابه، وعلى الشاطئ نائم عن الطوفان غاف. وقد رأيت الشياطين تكمن تحت ثبج البحر، وبعضها طفر يناغي النيام ويهدهدهم، ويشغل مَن أفاق منهم ويخلط الأمور عليه ويذهب به بعيداً عن الخطب!

نعم، ثمة بقية من أنفس زكية لم يسرِ فيها من خيوط شعاع «كربلاء» شيء بعد، نجباء أطهار، مؤمنون أخيار، ولكن لم يبلغهم الكرم ولم تشملهم الرحمة، على أستغراق الفيض، وعظيم النوال، وعميم الجود، الذي لم يغادر حتى الجمادات والعجماوات، فنهلت حتى ضجّت بالنحيب وأعترفت حتى أنفجرت بالعويل. فأراد «المولى» أن لا يحرم تلك البقية الباقية، على ضيق صدورهم وصغر أوعيتهم وقلة بضاعتهم وسقوط هِمَمِهِم، وأن يعقد خيطاً بل حبلاً يمسكوا به ليركبوا «سفينة النجاة»... بدمعة يهرقونها أو بلل يسيح من أعينهم ولو كجناح ذبابة أو رأس إبرة، ونَفَس يزفرونه ولو كساهم أحتبس الضجر أنفاسه للحظات ثم أنفلت سريعاً وعاد إلى سابق سروره وغفلته، وهَمٌّ يعتري قلوبهم وحزن يمتلكهم فيوجعهم ولو كما ينزل بالغريب الذي سرعان ما يجد مأنساً يخرجه من حزنه ووحشته.

لذا قرر أن يضيف مقطعاً جديداً في أنشودة محنته، ويلحق سطراً أعمق حزناً في قصته وفصلاً أكثر فجعة في ملحمته، لعلّه يمس بقايا الإحساس ويلامس جذوراً ـ لم تنبت ـ من العاطفة فيهم... فكأنه أمر الملاحين أن يُؤخّروا الإقلاع، فيطووا الشراع، ويؤجّلوا شيئاً في نشره، بل كأنه أمر الرياح أن تسكن فلا تهب! وأمسك ـ بنفسه، فدته النفوس ـ بمرساة السفينة، يلجمها ويكبحها، ويستمهلها لتستقر قليلاً وتركد ريثما يقضي من شأنه وطراً، ولم يتبين لنا هذا الشأن بعد! فيركبها مَن تأخر ولم يلحق حتى الآن، فكأنه زُحزح عن النار وأُدخل الجنة، وفاز...

صدر نداء: "قوموا إلى التوديع"...

فظهر أنه يريد توديع أهله وعياله، ويحقق غاية في نفسه ما زالت خافية!؟ ولو اكتفى الناظر بالظاهر، وعن اللباب بالقشور، وبالأعراض عن جوهر الأمور، لقال عن بروز «المولى» وتقدمه للوداع، أنه إمعان في إحراق قلوب «الهاشميات»، وزيادة في فجعتهن ليس إلّا! ولكننا نرى ـ من مطّلعنا هنا ـ صورة أخرى، تحمل تفسيراً يحكي ارتباطاً غريباً بين هذه الخطوة الأخيرة، وبين سيدة نساء العالمين «فاطمة الزهراء» عليها صلوات ربها...

فقد اضطربت «ربوة الأولياء» من جديد، ولكن بتموّج عكسي هذه المرة: من القلب إلى الأطراف، لا من الخارج إلى الداخل. وأهل الربوة من الصفوة يتحدثون عن إغماءة جديدة عرضت على «الزهراء»، وانهيار آخر نزل بها، وقد شغلهم الأمر عن الميدان، وصرفهم حتى عن «القربان»! وكأنه سبق هذه حالات شبيهة اعترت «سيدة النساء» مع كل مصرع وكل مصيبة... ولكن الأمر هذه المرّة مختلف شدة وحِدة، ومنشأ وعلّة، وذلك رغم أنه لم يقتل أحد ولم يجدّ جديد في الميدان!؟

والحديث بين الملائكة أنه أوان تنفيذ وصية «الزهراء»!

أية وصية هذه؟ وهل لراحل إلى حتفه أن ينفذ وصية؟

إنها أمانة أودعتها «الزهراء» ابنتها «زينب»، وهي في آخر لحظات حياتها، على فراش الموت والشهادة، وقد أخذت تتهيأ للانتقال إلى الرفيق الأعلى، وتستعد للقاء «أبيها» صلى الله عليه وآله، والعودة إلى «وطنها» الأصلي... أوصتها أن تقبّل أخيها «الحسين» ـ نيابة عنها ـ في منحره، كما كان ـ كثيراً ما ـ يفعل «جدّه» الأعظم، دون شقيقه «السبط الأكبر» الذي كانت تأتيه القبلة النبوية على فمه! وقد علم «المولى»، كما علمت أخته «الحوراء»، أن ساعة تنفيذ الوصية وإعمالها قد أزفت، ولحظة أداء الأمانة وإبلاغها قد حلّت، فعاد ـ صلوات الله عليه ـ من الميدان ورجع إلى المخيم، بعد أن قحمه متقدماً إلى مذبحه آيساً من حياته، وخاضه مقبلاً على حتفه... ها هو يعود ويدعو للتوديع ثانية (وكان قد سبق أن ودع مرّة في خروجه الأول)!

وبقي السر في شغف «الزهراء» صلوات الله عليها بذكر مصيبة الوداع وتكرار طلب سماعها والتأكيد عليها، إلهاماً تقذفه في القلوب، ووحياً تحرك به الأنفس الروحانية، أو من خلال الرؤى والمنامات الصادقة التي ما زالت تكشفها لخدام «سيد الشهداء» من شعراء وقرّاء تعزية وراثين، وتتصل عبرها بهم وتبلغهم رغبتها، على مدى الأيام وفي شتى المناسبات... بقي سر ذلك طي الكتمان، ولم يسعني إدراكه، أو لم يسع المقام كشفه وبيانه.

ومع هذا الخاطر السامي، ومن بركة ـ مجرد ـ التفكّر في سرّ هذا التعلّق والسؤال عن فلسفة هذا التأكيد من مولاتي «الزهراء» عليها السلام... سَمَتْ نفسي ورقت، كأنني كوفئت من فوري وتلقيت أجري على هذه العبادة العظيمة (التفكّر في هذا السرّ!) في ساعتي، فالأمور في عالم الحقائق تخضع لأشرف المعايير وأسمى العلل، إذ هي التي تفعّل الأحداث وتخلق الوقائع وتنجّزها، وكانت جائزتي وعطيتي أن أنتقل بي المشهد إلى رؤية واقعة وتجسّم «قصة» علقت بذهني ولزمتني مذ سمعتها، فولعت بها وهفوت إليها... ها هي متاحة أمامي أحضر وقائعها وأُشاهدها عياناً.

بقيت في مكاني لم أنتقل، ولكن المشهد هو الذي غاب عني للحظات، توارت عن عيني عرصة «كربلاء» التي كنت أنظر، والمشهد المشهود ليوم «عاشوراء»، وأنتقلت بي الصورة إلى عهد لاحق في زمن قادم... هذه «كربلاء»، ولكنها عامرة مبنية، ما عادت صحراءَ ولا بساتين نخيل على ضفاف نهر، إنها مدينة أقرب إلى التي نعرفها في عهدنا وزماننا.

ولم يثبت المشهد في نظري إلا بعد أن جال وأستعرض مختلف العهود التي مرّت بها «كربلاء»، منذ واقعة «عاشوراء» حتى عصرنا، ثم عادت لتثبت على الفترة التي وقعت فيها «القصة» التي ستعرض عليّ. فكأنني رأيت تطوّر بناء الحرم الشريف وتدرّج عمارته حتى وصل إلى هيئته الحالية... رأيت كيف تم ذلك وعلى يد مَن من الملوك والحكّام، وفِعْلَ كلٍّ منهم ودوره في العمارة. ومن عجب أن وقائع التخريب وصوَر الهدم التي تعرّض لها المرقد على مرّ التاريخ، كانت تظهر كسراب وكأنها صفر لم تقع؟!

هكذا حققت لي «النقلة» ـ الهدية، إلى جانب عرض القصة التي ولعت بها وما زلت أتطلّع إليها، حققت جانباً آخر من ولعي وشغفي في ما يتعلّق بجزئيات هذا المقام العظيم وخصوصيات هذه الحضرة المقدسة...

فطالما كنت حريصاً على معرفة «كربلاء»... «كربلاء» المدينة، الحسية المادية، كأرض وبقعة، ناهيك بما تطويه من معنىً وتكتنفه من روح. شغوفاً بالوقوف على تفاصيل الحرم الحسيني الشريف، بناءً وعمارة، تاريخاً وحاضراً، وما زلت أطوف بهذه الديار وأتمثل قول «ابن الملوّح»:

أَمُـرُّ عَلـىٰ الـدِيـارِ دِيـارِ لَيلـىٰ
أُقَبِّـلُ ذا الجِـدارَ وَذا الجِـدارا
وَمـا حُـبُّ الـدِيـارِ شَغَفـنَ قَلبـي
وَلٰكِـن حُـبُّ مَـن سَكَـنَ الـدِيـارا

أما أنا، فقد شغف قلبي حب الديار، بعد حب مَن سكن فيها! إنني أُحب «كربلاء» وأعشق تربتها وأهيم في أجوائها وأتحرق لزيارتها، وما سلوت عنها يوماً ولا لهوت... ناهيك بعشق «المولى» وذاته المقدسة المصونة. إنني مفتون شَغِف، مُغرَم كَلِف، عاشق متيّم، لا يلقىٰ نسمة مرّت بالحبيب إلّا سلبته فؤاده، ولا يرىٰ أثراً منه إلّا براه الشوق والهيام.

وبعد، فقد علمت الساعة واكتشفت أن للمدن أرواحاً، وفي الأقل لبعضها روح وشخصية خاصة! كيان وهوية تستمد من مزيج ينتج عن تداخل عناصر وتلاقي علل، فيتفاعل ما يكتنف أرضها وطبيعتها الجغرافية والبيئية، مع نوعية سكانها وطبيعة أعمالهم، مع دور حضاري سابق أو مقدر آتٍ، فتنبعث للمدينة روح وتبرز شخصية تميزها عن غيرها...

ترىٰ ذلك في كثير من المدن، وقد تراه حتىٰ في الأحياء الصغيرة...

لا أريد المناظر والروائح والأصوات التي تعود بك إلىٰ ذكريات خاصة، تتداعىٰ كلما وقع شيء منها، فتقترن هذه بتلك. فأنا أعرف «لندن» ـ على سبيل المثال ـ بعطر عرفته وابتعته للمرة الأولىٰ هناك، فإذا شممته، حيثما كنت، استحضرت صورة «لندن»، وعادت بي الذكريات إليها.

بل أريد جانباً أكثر عمقاً... يجعل للمدن والأصقاع، كما للبشر، أو للمتميزين من بني الإنسان، صفات خاصة وملامح معنوية ترسم شخصياتهم وتضفي عليهم هوياتهم التي يعرفون بها.

كما لأيدي الطهاة وأطعمتهم، ما يسمونه «نَفَساً»... شيء فوق المكونات وقبل الإمكانيات وبعد الجودة وحسن التوبلة، أشبه بروح. فقد يُعِدّ طبّاخان الطبق ذاته، من نفس المواد الغذائية، وهما على نفس المستوى من التخصص والمهارة والحِرَفيّة، ويعملان الجهد والإتقان نفسه، ثم يقيّم الخبراء الطبقين ويحكمان بأنهما على نفس الدرجة والقدر من الجودة... لكنك تجد اختلافاً كبيراً وتفاوتاً شاسعاً في مذاق الطبقين وطعمهما، يعود لـ «النَفَس».

هكذا يشعر المرء بخصائص المدينة ومميزات وطابع وروح لها تحلّق فوق معالمها العمرانية وسلوكيات سكانها وطبيعة أرضها وهوائها، ما يفرز شخصيتها ويبرز هويتها. تحس ذلك وتستشعره وأنت تقف في ساحات «روما» المرصوفة بالحجارة، أو تجوب طرقات «نيويورك» بأبنيتها الشاهقة تناطح السحاب، أو تتمشّى في «القاهرة» المترامية المزدحمة، أو تتسوّق في «دمشق» العتيقة، أو تسيح في «ملتان» الصوفية... أو تصطاف في «إهدن»، وعلى مرمى حجر منها «بشرّي»، مسقط رأس «جبران»، تتكئ على كتف الجبل بهوية أخرى وشخصية مختلفة وروح تكاد تكون متباينة.

فإن لم تكن ـ حتى الآن ـ تشعر بذلك مع المدن التي تعرف، فجرّب أن تحلّق في سماء تاريخها وتتأمّل في أجواء حاضرها، وأن تجمع وتمزج ذلك بخصائصها السكانية والجغرافية، تجمع ذلك كله معاً ولا تنفصل بك واحدة فتغرّك! وأسْعَ أن تستنطقها وتحاورها... فستكتشف، بعد حين، شخصيتها.

وإذا كانت الأسرار هي ما يكتنف «النجف الأشرف» حيث العلم والأدب، تراه يقطر من حيطانها ويفيض من أبنيتها ويسري في أزقتها ويتدفق من حوانيتها وبيوتها، ويغلّف كل شيء فيها، يشير إلى «باب مدينة العلم» ويومئ إلى «آية الله العظمى»... فيقلب المدينة إلى أجواء أسرار وخفر وحذر، تبقيك غريباً يحجزك جهلك أن تندك فيها وتنتسب إليها!

وكان الأنس هو ما يلف «مشهد الرضا» عليه السلام في «خراسان»، وكأن يداً هناك تمسح على النفوس فتبث فيها البهجة والسرور، فيتلقاك البِشرُ في أرجائها ويحييك الهنا أينما توجهت من أنحائها...

فإن هنا، في «كربلاء» روح تسري، تجوب الطرقات وتتخلل الأزقة والنواحي، وتحلّق في السماء فتغشى كل شيء، وتلقاك حيث كنت فتغمرك. تنبعث من معالم مَرَسَتْها الأيدي والأقدام، ومناظر مرّت عليها الأعين ملايين المرات، ولكنها ما سلبتها مذاقها، ولا قللت من وقعها وأثرها، فكأنها مجللة بدثار أثيري مضمّخ بعطرها الخاص، فعمود الإنارة الفولاذي القديم هذا، ومجاميع المصابيح والسرج المتدلية من السقوف كالثريا، تنطق وتلهمك قبل أن تنير لك المكان وتبدد في الطريق الظلام. وتغريد العنادل هنا وهديل الحمام، ما كأنه ألحان تتكرر وأنغام تعاد، كما تفعل نظيراتها في الدنيا منذ آلاف السنين، بل هي تأتي هنا في كل ساعة بجديد! وكأنها إن لم تفعل ذلك وتبدع فستُقصى وتحرم، أو أن ما تدركه من الأجواء أو ما أدركها ونزل بها، قلّب أحوالها وأطار ألبابها، فما عاد يمكنها القرار، ولسان حالها: "كيف القرار وفي السبايا زينب"؟ فغدت تنتقل في كل آن من لحن إلى لحن، وفي كل ساعة من مقام إلى مقام، لا كمن يهذي، بل تنشئ النياحة ألحاناً فألحاناً!

روح هي جوهر الهيبة وحقيقة الجلال وكنه القدس، يفرض فرضاً: من عطاء «عاشوراء»، من ملحمة الشهادة والفداء، ومن عظمة «العرش» ونفحات الجنان التي تهب، ومعها عبق المجد وزهو الانتصار... انتصار رغم القتل والتنكيل والسبي والأسر، وما بدا في ساعاته الأولى نهاية، وتراءى للظَلَمة وأعوانهم هزيمة، من سفه فيهم وعماية!

تراه في تلاطم أمواج الزائرين، وتدفق أفواج المعزين، وفي تهافت أرواح المجاورين، وتعلّق قلوب المحبين على بعد الديار... تحوم أرواحهم من العشق في السماء، وتتطلّع ـ حيث كانت ـ سناءً يعرج من هنا، فتأمل في تحية تبلغ وسلام، وتتصل يومياً في صلاتها عبر تربة اتخذت مسجداً، و«قرص» من طينها صار خاتماً يطبع الجباه والوجوه بسيماء المفلحين الفائزين.

وبعد، ففي «كربلاء» شيء آخر غير كل هذا وذاك، يطبع هويتها ويميز شخصيتها ويجلل أرضها، ويصبغ أفقها وسماءها... هو العجب.

فلا يكاد العجب هنا ينقضي أو ينتهي، وما زال يتقلّب في نفوس المحبين وأفئدة العارفين، وحتى في غيرهم، فإذا خرجوا من جانب وأنفكوا دخلوا آخر وعلقوا، محوره: كيف أستقرت السماوات وبقيت الأرضون وأستمرت الحياة، وقد وقعت الواقعة في هذه العرصة الملكوتية؟ فإذا خرج متدبر من هذا، وقع في ما هو أعظم، إذ صارت الحياة تنبثق من هذه البقعة وتتدفق، وغدت هذه العرصة بحراً يموج بأسمى معاني الحياة!

كيف لـ «ميّت» أن تتدفق منه الحياة وترشح وتفيض، فيهبها للملايين؟ وقد قضى الحكماء أن بين الفعل وفاعله، بين المعلول وعلّته الفاعلة، سنخية وجودية ورابطة ذاتية، يصير بها وجود الفعل كأنه مرتبة نازلة من وجود فاعله، ووجود الفاعل كأنه مرتبة عالية من وجود فعله، بل الأمر على ذلك بناءً على أصالة الوجود وتشكيكه.

أوَتتعطّل ضرورة «السنخية» وتنقطع الرابطة فتكون العلّة من غير سنخ المعلول؟ ففقير يخلّف الغنى، وضعيف يرفد القوة، وميت يهب الحياة؟... كيف وفاقد الشيء لا يعطيه!؟ حاشا، وهذا خطاب معصوم ما زال يسري في الأرجاء هنا، ويدور في أنحاء «كربلاء»، يغمرها بمعانيه ودلالاته، ويطبعها بطابعه، ويكسر سكوناً بهيمياً يصم الآذان في غيرها من البقاع، ويحرك صورة جمدت عليها الأنظار الحسيرة المفتقدة للبصيرة:

أشهد أنك قتلت ولم تمت، بل برجاء حياتك حييت قلوب شيعتك، وبضياء نورك أهتدى الطالبون إليك، وأشهد أنك نور الله الذي لم يطفأ ولا يطفأ أبداً، وأنك وجه الله الذي لم يهلك ولا يهلك أبداً، وأشهد أن هذه التربة تربتك، وهذا الحرم حرمك، وهذا المصرع مصرع بدنك، لا ذليل والله معزك، ولا مغلوب والله ناصرك.

فَلِروح «كربلاء» سطوة وقهر، وحكم وسلطان، وجبروت وهيمنة لن تتركك، ولن تخلي لك السبيل، وستراها تلاحقك حتى تغلب نفسك وتأخذ بيدها: تخرجها من جهل، وتنبهها من غفلة، وترشدها من ضياع، وتهديها من ضلال، وتنتشلها من غرق وغواية... و«تُحييها»، فترغمك على الصلاح والفلاح رغماً، وتحقق لك السعادة حتماً. اللهم إلّا أن يسبق الشقاء ويحكم الجهل وأستغراق الذنوب ورَيْن القلوب، فتغلب التعاسة. وغلبة التعاسة هنا ليست هزيمة لفيض «كربلاء» وأنكفاءً لعطائها غيْر المجذوذ، بل غلبة تكون من أنصراف المرء وطرده نفسه ونفيه روحه من هذه «المدينة» وأبتعاده عنها، نفياً طوعياً، فيحرم! وإلّا فإنه إذا بقي في فضاء «كربلاء» الواقعة، ناهيك بالمدينة، وأستمر يرفل في أجوائها، فسيهتدي حتماً ويركب السفينة جزماً.

توالت عليّ الصور، وتجسدت الأطوار التي مرت بها هذه العرصة الملكوتية على مرّ العصور، وقد رأيتها تمر أمامي، وكنت بالخيار للوقوف أمام أيها أردت، والتزوّد منها بما شئت... وها أنا أعرض رؤية مقتضبة لهذه الأطوار وصورة مختصرة مما علق بذهني، بما أسعفني المقام ووسعني، وقد أرتسمت أمامي، في طليعة سجل بناء هذه الحضرة، مقولة الإمام «زين العابدين» عليه السلام:

> أخذ الله ميثاق أُناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، هم معروفون في أهل السماوات، يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة والجسوم المضرّجة وينصبون بهذا الطف علماً على قبر سيد الشهداء، لا يُدرس أثره ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام. وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه، فلا يزداد أثره إلّا ظهوراً وأمره إلّا علواً.

أول من عُنيَ بالقبر الشريف هم «بنو أسد»... الذين ساهموا مع «السجاد» في دفن الأجساد، وأقاموا رسماً للقبر، وتعاهدوه بالزيارة، ونصبوا عَلَماً له فلا يُدرَس أثره.

ولما حكم «المختار» «الكوفة» في عام خمسة وستين (٦٥هـ)، وبعد أن اقتص من قتلة «الحسين» صلوات الله عليه... بنى المرقد الشريف وشيّد له قبة من الآجر جصّصها، وهو أول مَن بنى عليه بناءً. وكانت على القبر سقيفة وحوله مسجد، ولهذا المسجد بابان أحدهما نحو الجنوب والآخر نحو الشرق. ومن هنا تجد الإشارات المذكورة في نصوص الزيارات المأثورة، منها الوارد عن «الصادق» في «كيفية زيارة قبر الحسين»، إذ قال: "إذا أتيت الباب الذي يلي الشرق فقف على الباب وقل:..."، وقال ـ عليه السلام ـ: "ثم تخرج من السقيفة وتقف بإزاء قبور الشهداء".

وما زال هذا المسير والوضع قائماً حتى الآن، فالجهة المحاذية لقبور وضريح «الشهداء» تقع في شرقي مرقد «الحسين» وابنه «علي الأكبر»، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

بقيت تلك السقيفة والمسجد طيلة فترة العهد «الأموي»، حتى سقوط دولتهم سنة ثلاث وعشرين ومئة (١٢٣هـ) وقيام دولة «بني العباس».

وفي عهد «هارون العباسي» (الرشيد) الذي أزعجه توافد الزوار على «كربلاء» وأرّقه تعاهد المؤمنين ذلك المرقد الطاهر، فسعى إلى هدمه، وكافح ونافح ليمحو ذكر «آل محمد»، وكانت الزيارة «نبراساً» يؤكد فضلهم وينشر فضائلهم وما سموا به على غيرهم، في حياتهم وبعد وفاتهم...

أوعز إلى نفر من الأعراب، طبع الله على قلوبهم فنسوا ذكره، ونزع من نفوسهم خوفه تعالى، فقدموا إلى «كربلاء» وعمدوا إلى الهدم والتخريب. فهدموا أبنية حرم «الحسين»، والبناء المقام على قبر أخيه «العباس» عليهما السلام. كما دمّروا وخرّبوا كل ما فيهما من معالم أثرية. وأمرهم «الرشيد» بقطع «السدرة» التي كانت نابتة عند القبر الشريف، يهتدي بها الزوار إلى قصدهم، ثم يتفيؤون ويستظلون، وأمر بكرب موضع القبر وجرفه، حتى ساواه بأديم الأرض! وقد حظر الزيارة ووضع جنوداً يمنعون الناس الوصول إلى المرقد الشريف. واستمرت هذه الحال حتى هلاك «الرشيد» عام ثلاثة وتسعين ومئة (١٩٣هـ).

أما العمارة الثانية: فقد كانت في عهد «المأمون» العباسي، الذي خالف سيرة أبيه وقرّب «العلويين»، وما زالت السياسة تقتضي والتدبير يفرض ويلزم حتى عقد ولاية العهد وأسندها إلى الإمام «علي بن موسى الرضا» عليه السلام، وأمر بإعادة بناء قبر «سيد الشهداء» وسمح للشيعة بالتنقل والزيارة... فأقيم على القبر الشريف بناء شامخ، بقي عهداً.

حتى سنة اثنتين وثلاثين ومئتين (٢٣٢هـ) حين جاء دور «المتوكل» وعهده المظلم... وكان ناصبياً، فضيّق الخناق على الشيعة وشدد النطاق، وأمر بتتبعهم، ومنع الناس من الزيارة، ولم يكتف بوضع المراصد والمسالح، وتعقب الزائرين ومطاردتهم، إذ لم يكن لذلك أثر، ولا وجد فيه رادعاً يثني المؤمنين عن تعاهد القبر الشريف وزيارته، وإعادة بنائه كلما هدمه، وقد فعل ذلك ثلاث مرات خلال سني حكمه الخمس عشرة! حتى كانت الرابعة، فأمر بهدم المقام وما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث موضع القبر ويبذر ويسقى، فيعفيه الزرع! ناهيك بمنع الناس من إتيانه. فنادت الشرطة وأعلنت: أن من وجدناه عند قبر «الحسين» بعد ثلاثة (أيام)، بعثناه إلى المطبق (وهو سجن تحت الأرض)، فانصرف مَن كان زائراً وهرب مَن كان مجاوراً وتفرّق الناس، ولجأ كل إلى ملجأ، وأقلعوا عن المسير إليه.

وقد حرث اللعين موضع القبر وزرع ما حوله وفجّر المياه، وشق لها إليه، فكانت إذا وصلت القبر توقفت حائرة، ثم تفرعت يمنة ويسرة!... وهذا «عبدالله بن دانية الطوري»، يسجّل حضوره ويقول: حججت سنة سبع وأربعين ومئتين (٢٤٧هـ). فلما صدرت من الحج، صرت إلى «العراق»، فتوجهت إلى قبر «أمير المؤمنين» على حال خيفة من السلطان، فزرته، ثم توجهت إلى زيارة «الحسين»، فإذا هو قد حرثت أرضه ومخر فيها الماء، وأرسلت العمال الثيران، فبعيني كنت أرى الثيران تساق في الأرض فتنساق لهم، حتى إذا حاذت مكان القبر حادت عنه يميناً وشمالاً، فتضرب بالعصي الضرب الشديد فلا ينفع ذلك فيها، ولا تطأ القبر بوجه ولا سبب، فما أمكنني الزيارة، فتوجهت إلى بغداد، وأنا أقول في ذلك:

تـالله إن كـانـت «أمـيـة» قـد أتـت
قـتـل ابـن بـنـت نـبـيـهـا مـظـلـومـا
فلقـد أتـاك بـنـو أبـيـه بـمـثـلـهـا
هـذا لـعـمـرك قـبـره مـهـدومـا
أسفـوا علىٰ أن لا يكـونـوا شـايعـوا
في قـتـلـه فـتـتـبـعـوه رمـيـما

بعد هلاك «المتوكل»، كانت العمارة الثالثة في عهد «المنتصر» الذي تولى السلطة في أواخر عام (٢٤٧هـ)، فأصاب «العلويين» يُسْرٌ وفرج، وخفف عنهم شيئاً. وقد أمر بتشييد قبة على القبر الشريف، وركز عليها ميلاً ليرشد الناس إليه. وعطف على «العلويين» ووزع عليهم الأموال ورفع الحظر عن الزيارة. فهاجر إلىٰ «كربلاء» جماعة، منهم من أولاد الإمام «الكاظم» عليه السلام، وفي مقدمتهم السيد «إبراهيم المجاب بن محمد العابد بن الإمام موسى بن جعفر»، وذرية «محمد الأفطس» حفيد «الحسين الأصغر» بن الإمام «السجاد» عليه السلام، وأولاد «عيسى بن زيد» الشهيد عليه السلام، واستوطنوا «كربلاء»... وبقي هذا البناء مشيداً حتى سقوطه سنة (٢٧٣هـ) على عهد الخليفة «المعتضد».

سقطت العمارة التي شيدها «المنتصر»، وأنهدت في التاسع من ذي الحجة عام ثلاثة وسبعين ومئتين (٢٧٣هـ)... والحرم مكتظ حاشد بالزائرين، وكان ذلك في «زيارة عرفة» وهي من الزيارات المخصوصة التي يجتهد الموالون أن لا تفوتهم، فيكثر فيها الناس ويتزاحمون. وقد أُصيب من جراء السقوط خلق كثير، فقد هدمت السقيفة وهوت دفعة واحدة، كما نجا من الزوار جمع غفير أيضاً. وما زال سبب سقوط السقيفة مجهولاً حتى الآن: هل كان حادثاً عرضياً نتج عن التدافع والزحام، كالحوادث التي تعرض في زماننا في المشاعر المقدسة في «مكة» و«منى» أو «الجمرات» في كل موسم حج (تقريباً)؟! أم أن هناك أيدٍ خبيثة من قبل النواصب والسلطة الحاكمة آنذاك كان لها الدور في هذه الفاجعة العظمى؟

على كل حال، كان الحادث مؤلماً ومروعاً، وفي الوقت نفسه أُصيب القبر بالأنهدام وصار مكشوفاً لمدة عشر سنين.

حتى تولى «الداعي الصغير» (محمد بن زيد بن الحسن جالب الحجارة، ولقب بـ «جالب الحجارة» لقلعه الحجارة من الجبال ونقلها ليبني بها المساجد ويشيد القناطر) من أولاد «الحسن السبط»، إمارة «طبرستان» بعد وفاة «أخيه» الملقب بـ «الداعي الكبير»... فأمر ببناء مشهد «أميرالمؤمنين» في «النجف» الأشرف ومشهد «أبي عبدالله الحسين» في «كربلاء»، وإقامة العمارة المناسبة لهما. وكان تاريخ هذه العمارة يتراوح في الفترة ما بين ٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ. وقد زار الأمير «محمد بن زيد» هذا «كربلاء المعلاة» و«النجف الأشرف»، وأرسل المواد وقدم التحفيات والفرش وعني بالحرم وبذل في سبيله ما وَسِعَه... فشيّد على القبر في «كربلاء» قبة عالية لها بابان، ومن حول القبة سقيفتين، وعمّر السور حول «الحائر» وأمام المساكن، وأجزل العطاء على سكنة «كربلاء» ومجاوري الروضة المقدسة.

وعندما حكم «بغداد» «عضد الدولة البويهي» في خلافة «المعتضد»، أمر ببناء «رواق عمران بن شاهين» في المرقدين «الغروي» و«الحائري»، وهو الذي عرف في الحرم الحسيني بـ «رواق السيد إبراهيم المجاب». وشيّد للمقام قبة وبنى ضريحاً كبيراً من العاج، وعمّر حول الحرم بيوتاً للمجاورين والزوار، وأحاط المدينة بسور.

وفي عام ٤٠٧هـ، شب حريق هائل داخل الروضة جراء شمعتين كبيرتين غفلوا عنهما فسقطتا على المفروشات، فالتهمت النيران الأثاث والستائر، ثم تعدّت إلى الأروقة، حتى أتت على القبة السامية، ولم يسلم من النار سوى السور وقسم من الحرم، ومسجد «عمران بن شاهين».

في عام أثني عشر وأربعمئة (٤١٢هـ)، نهض «الحسن بن المفضل بن سهلان» وزير الدولة «البويهية» ببناء الحرم من جديد، وترميم وإصلاح آثار الحريق الكبير. وقد شيّد قبة جديدة، وأمر ببناء سور يحوط الحرم، وهو الذي يذهب العلماء إلى عدّه حد «الحائر»، ويفتون بأن ما يختص منه بحكم

«المساجد الأربعة» التي يخير فيها المصلّي المسافر بين القصر والتمام، هو ما يقع في نطاقه، دون سور المدينة الخارجي. وقد أقام «آبن سهلان» العمارة الجديدة بأحسن ممّا كانت عليه قبل الحريق.

وبقي هذا البناء حتى خلافة «المسترشد بالله العباسي» سنة ست وعشرين وخمسمئة (٥٢٦هـ) إذ عاد الإرهاب والتنكيل والبطش بالشيعة ورجعت سيرة التضييق عليهم. آستولى «المسترشد» على ما في خزائن الحرم من أموال ونفائس وموقوفات ومجوهرات، فأنفق قسماً منها على جيوشه وقال: "إن القبر لا يحتاج إلى خزينة وأموال"! ولكنه أكتفى بهذا السلب والنهب، ولم يتعد على الحرم والقبر الطاهر.

وفي عهد الخليفة العباسي «الناصر» تولى الوزارة «مؤيد الدين محمد بن عبدالكريم الكندي» الذي يعود نسبه إلى الصحابي الجليل «المقداد بن الأسود» فقام بترميم الحرم المطهر عام ٦٢٠هـ. وأصلح ما تهدّم من عمارته. فأكسى الجدران والأروقة الأربعة المحيطة بالحرم بخشب الساج، ووضع صندوقاً على القبر الشريف من الخشب الثمين. وفرش الروضة بالديباج والسجاد والطنافس الحريرية. ووزع الخيرات الكثيرة على «العلويين» وعموم المجاورين للحائر الشريف.

وفي العهد «المغولي»، كان السلطان «أرغون بن أباقاجان بن هولاكو» معروفاً بحبه الشديد لـ «أهل البيت»، فسعى في حفر نهر جديد يخرج من «الفرات» ويدفع ماءه إلى سهل «كربلاء»، ما أنعش العباد وأحيا البلاد وعمّرها، وثبّت «الجوار» ورسخه، بما هيّأ من مقدماته ومكّن من أسبابه.

ففي سنة ثمان وتسعين وستمئة (٦٩٨هـ) توجّه السلطان «غازان» إلى «الحلّة» وقصد زيارة المشاهد المشرفة، وأمر للعلويين ولمجاوري الحرم بمال كثير، وأمر بحفر نهر من أعلى «الحلّة» سمي بـ «الغازاني»، وقد تولى ذلك ونفّذه «شمس الدين صواب الخادم سكورجي» و«غرس الدولة». وعندما جاء «أولجايتو محمد خدابنده» خلفاً لأخيه «غازان» الذي وافاه الأجل سنة ٧٠٣هـ أقتفى أثر «أخيه» في العناية ببناء المشاهد المشرفة والإحسان إلى

العلويين، حتى إنه اعتنق المذهب الجعفري ودخل في التشيّع على يد «العلامة الحلي» (الحسن بن يوسف بن المطهّر) رضوان الله عليه، إثر زيارته لـ «النجف الأشرف».

وعندما تولى السلطان «معز الدين أويس الإيلخاني» بن «الشيخ حسن الجلائري بن حسين بن أيليغا بن سبط أرغون بن ألغابن هولاكو خان» السلطة في «العراق» عام سبعة وخمسين وسبعمئة (٧٥٧هـ) بعد أخيه السلطان «حسين الصغير»، قام ببناء الحرم «الحسيني» في «كربلاء». وأقام عليه قبة على شكل نصف دائرة محاطة بأروقة كما هو عليه الحال اليوم. وقد بوشر بالعمل في عام ٧٦٧هـ، وأكمله ابنه «أحمد بن أويس» سنة ٧٨٦هـ. حتى كان الواقف عند مدخل «باب القبلة» من الخارج، تقع عينه على الضريح والروضة ويشاهدها مباشرة دون عائق.

كما شيّد البهو الأمامي للروضة الذي صار يعرف بإيوان الذهب، وبنى مسجد الصحن، ونظم ما حول الروضة وهندسها على شكل مربع، وعني عناية فائقة بزخرفة الحرم والأروقة من الداخل وتزيينها بالمرايا والفسيفساء والقاشاني، وإنارتها بأفخر المصابيح والثريات. كما أمر السلطان «أحمد الجلائري» بزخرفة المئذنتين باللون الأصفر من الطابوق القاشاني، وكتب عليها تأريخ التشييد وهو عام ٧٩٣هـ.

وبقيت هذه العمارة دهراً، ولكن الإضافات عبر السنين المتعاقبة كانت متواصلة والترميات مستمرة، فلم تتوقف العمارات ولا التوسع بالإضافة إليها وصيانتها وترميمها منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا.

في عام أربعة عشر وتسعمئة (٩١٤هـ)، فتح الشاه «إسماعيل الصفوي» «بغداد»، وبادر من فوره لزيارة العتبات المقدسة... وقد حمل معه إلى «كربلاء» الضريح المذهب للحضرة الشريفة، ووقف في الحرم اثني عشر قنديلاً من الذهب، وفرش الرواق والروضة بأنواع المفروشات القيمة. واعتكف هناك ليلة. وقد بذل أموالاً كثيرة لتعمير الحرم، ووسّع المسجد الكبير الملحق بالحائر الشريف.

وفي سنة ٩٨٤هـ توفي الشاه «طهماسب الصفوي» مسموماً، وخلفه ابنه «إسماعيل ميرزا»، الذي كان سجيناً في قلعة «ألموت»... وفي هذه الأيام صدرت الإرادة الهمايونية بتعيين «علي باشا ألوند» والياً على «بغداد». وبأمر من «السلطان العثماني» شيّد ضريح: "سيد شباب أهل الجنة، وقرّة عين أهل السنّة، الإمام الحسين رضي الله عنه"! كما شيّد المسجد والرواق والقبة.

وفي عام ١١٥٣هـ أمرت «زوجة نادر شاه»، كريمة السلطان «حسين الصفوي»، بتعمير الحرم المطهر وأنفقت لذلك أموالاً طائلة.

في السنة السابعة بعد المئتين والألف (١٢٠٧هـ) جرى التذهيب الأول للقبة، على يد السلطان «آغا محمد خان» مؤسس الدولة «القاجارية». أما التذهيب الثاني فقد حصل في عهد السلطان «فتح علي شاه القاجاري»، بعد أن اسودّ التذهيب الأول وأثرت عليه عوامل الجوّ وغيّرته، فأمر الشاه بقلع الذهب القديم واستبداله بآخر جديد. كما أهدى الحرم عام ١٢١٤هـ ضريحاً جديداً من الفضة، نصب على القبر الشريف. وفي عام ١٢٢٥هـ، قام «خان جان القاجار» بوضع صندوق خشبي جديد فاخر، مطعم بالعاج ومشغول بـ «الخاتم» (وهو ضرب من غرس ورص الأحجار الكريمة ودقها في جوف الخشب لتظهر في مقطعه السطحي)، على القبر الشريف بعد أن كان «الوهابيون» كسروا الأول وهشموه ثم أحرقوه في هجومهم الهمجي الذي شنّوه على «كربلاء» عام ١٢١٦هـ. وفي عام ١٢٣٢هـ جرت إصلاحات كثيرة للحرم، بعد غارة «الوهابيين» تلك، وذلك على يد «فتح علي شاه»، وبهمّة المرحوم الشيخ «جعفر آل كاشف الغطاء» (الكبير) رضوان الله عليه.

وكان لنجل الشاه «محمد علي مرزا القاجاري» دور مشكور في تعمير الحرم وتزيينه، والبذل في سبيل ما يحتاج إليه وتأمينه.

ثم كان التذهيب الثالث للقبة على يد السلطان «ناصر الدين شاه القاجاري»، حفيد «فتح علي شاه»، وذلك سنة ١٢٧٣هـ. كما قام بتجديد بناء الجانب الغربي من الصحن الشريف وتوسعته، وذلك تحت إشراف وبهمّة المرحوم الشيخ «عبدالحسين الطهراني» رحمه الله.

وقد بذلت «الدولة القاجارية» ـ في المجموع المشهود ـ عناية كبيرة، وأجرت إصلاحات واسعة، ورصدت مبالغ طائلة للحرم الحسيني الشريف، إلّا أن أعمالها تلك توقفت إثر إعلان «الدستور العثماني» سنة ١٩٠٨م، أي أوائل القرن الرابع عشر الهجري إلى ما بعد منتصفه.

* * *

إنني الساعة أطل على الحرم الحسيني الشريف ـ بعد تلك الأطوار ـ وأراه كما أعرفه من زياراتي السابقة لـ «كربلاء» التي وُفّقت بها في حياتي، وجلّها جاء في صغري، حين كان والدي رحمه الله وأثابه يستصحبني وإخوتي في زيارة سنوية لجميع العتبات، ولعلّه كرر ذلك في العام مرتين لمناسبتين... ما كنت أعرف ما الزيارة ولا أدرك قيمتها، بل كنت أنزعج من تخلّف الخدمات البلدية وما تعانيه مدن العتبات المقدسة من إهمال، وأشكو قذارة الطرقات ورداءة الطعام ومحدود أصناف السكاكر والحلويات التي يمكنني ابتياعها من البقال القريب من الدار التي ننزل فيها! وكنت أفتقد ألعابي ومقتنياتي في بيتنا، وأتوق للعودة إلى بلدي، أو أستعجل الإسراع إلى مصيفنا في «فالوغا» إذا كانت رحلة الزيارة أوّل الصيف. ولا يسعني الآن إلّا الترحم على والدي، لهذا «القهر» و«الرغم» الذي كان يحمّلناه عاماً بعد عام، وقد شهدت آثاره لاحقاً، كلّما كبرت ونضجت، وصرت أتلقى فيوضات عَدْوٍ ولَهْوٍ في أكناف الصحن الشريف أطارد فيه حمام الحرم، وألمس بركات قبلات ساذجة طبعتها على الضريح، وأشعر برشحات ما كنت أتمسح به من أبواب الأروقة وجدران الروضة، تسري في وجودي وتتخلل كياني وروحي...

و«الحرم» على نفس الصورة الراسخة في ذهني عنه، مع اختلاف يسير، وقد ملكني الشوق وأسرتني اللهفة، وعادت بي الذكريات، فرحت في تأمل البناء والتزود من معالمه القدسية. وهي تأتيني تمهيداً وتمر أمامي توطئة، لعرض «القصة» التي أرتقب وأتطلّع عن الشاعر المبدع «مُقبِل» وصاحبه «المحتشم»، وما جرى لهما في الحرم الشريف، مما كوفئت به على تدبّري في آيات «الزهراء» وسعيي لمعرفة واستجلاء أسرار حالاتها...

ها هو المقام الشريف ـ الآن ـ يتكون من صحن واسع تصل مساحته إلى خمسة عشر ألف متر مربع (١٥٠٠٠م٢)، يتوسطه حرم تبلغ مساحته ثلاثة آلاف وثمانمئة وخمسين متراً مربعاً (٣٨٥٠ م٢) يقع فيه الضريح المقدس، وتحيط به أروقة بمساحة (٦٠٠م٢)، ويتقدّمه إفريز أو إيوان (طارمة).

تحيط بالحرم أربعة أروقة، من كل جهة رواق، يبلغ عرض الرواق الواحد خمسة أمتار (٥م)، وطول ضلع الرواقين الشمالي والجنوبي أربعين متراً (٤٠م) تقريباً، بينما يبلغ طول ضلع الرواقين الشرقي والغربي خمسة وأربعين متراً (٤٥م) تقريباً. وأرضياتها كلّها مبلطة بالرخام الأبيض الناصع، وجدرانها مُردة بالمرايا والقوارير المقطّعة بأحجام صغيرة وكبيرة، مرصوصة مصفوفة في منظومات زخرفية بديعة، ويبلغ ارتفاع كل رواق اثني عشر متراً (١٢م)، ولكل رواق اسم خاص به.

الرواق الغربي يدعى: رواق السيد «إبراهيم المجاب» نسبة إلى مدفن السيد «إبراهيم بن محمد العابد بن الإمام موسى الكاظم» عليه السلام، ويعرف بـ «المجاب» لحادثة مشهورة، وكان قد قدم «كربلاء» سنة ٢٤٧هـ، واستوطنها إلى وفاته فدفن في هذا الموضع، وعليه اليوم ضريح متوسط الحجم من البرونز، وتمر به الزوار لزيارته.

والرواق الجنوبي يدعى: رواق «حبيب بن مظاهر» نسبة إلى قبر هذا التابعي الجليل الذي نزل «الكوفة» وصحب «أميرالمؤمنين» في حروبه كلّها، حتى استشهد وهو على مَيسرة «سيد الشهداء» يوم «الطف»، وعلى قبره ضريح لطيف من الفضة. ويشعرك موضع قبره وإفراده في ضريح مستقل يميزه عن مدفن بقية «الأصحاب»، بحقيقة الدور الذي ينادونه به الناس، ويتداولونه عنه، وأنه أشبه بحاجب «الحسين» أو كاتبه، وأنه هو الذي يسجّل أسماء الذين يخدمون ويشاركون في العزاء الذي يقام في البيوت والطرقات والحسينيات في مختلف أرجاء العالم، وهكذا يسجل أسماء الزوار، فينادون وهم يستلمون ضريحه: "يا شيخ الأنصار ومسجّل المعزين والزوار"، كأنهم يذكّرونه بأنفسهم، ويوصونه بتسجيل أسمائهم.

أما الرواق الشرقي، فيُدعى بـ «رواق الفقهاء»، أو رواق «آغا باقر البهبهاني»، مجدد «علم الأصول» وشيخه في عصره، بل معيد الطائفة إلى هذا النهج بعد «عهد الأخبارية». وفيه مدافن الشخصيات العلمية الكبيرة. وهناك الرواق الشمالي أو الأمامي الذي يُدعى بـ «رواق الملوك»، كونه يحتوي على مقبرة للملوك «القاجاريين».

وتعلو المشهد الشريف قبةٌ شاهقة بأرتفاع سبعة وثلاثين متراً (٣٧م) من الأرض، وهي مغشاة من أسفلها إلى أعلاها بالذهب، ويفتح في عنقها أثنا عشرة شباكاً. وترتفع فوق القبة سارية ذهبية بطول مترين، وتحف بالقبة مئذنتان مطليتان بالذهب، ويبلغ عدد اللبن الذهبي الذي يغطيها ثمانية آلاف وأربع وعشرين لبنة (٨٠٢٤)، تميزهما عن مئذنتي حرم «العباس» المكسوتين من منتصفيها فقط. ومما يتداوله سدنة الحرم «العباسي» الشريف، أنهم طالما أنصرفوا عن عزمهم كسوة المنارتين كاملتين بالذهب، إثر رؤىً ومنامات صادقة ينهاهم فيها «أبو الفضل» صلوات الله عليه ويثنيهم عن عزمهم، مبقياً تميز حرم أخيه «الإمام» صلوات الله عليهما.

يقع الضريح المقدس الذي يضم في ثراه الجسد الطاهر لـ «سيد الشهداء» مع أبنيه «علي الأكبر» و«علي الأصغر»، تحت صندوق مصنوع من خشب الساج الهندي الثمين المطعم بالصدف والعاج والأبنوس، والمنمنم بالأحجار الكريمة، ويحيط به صندوق آخر من الزجاج، ويعلو الصندوق شباك (مقصورة) من الفضة الخالصة، وعلى تاج الضريح كتابات قرآنية، ونقوش وزخارف بديعة، وصفائح ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة من الفيروز والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وفي كل ركن من أركان الضريح الشريف «رمانة» مصمتة من الذهب الخالص، بيضاوية الشكل، يبلغ قطرها في منتصفها نحو نصف متر.

ويتصل بالضريح ضريح آخر لا يختلف عنه بشيء ولا ينفصل بحاجز، إلّا أنه يقصر بمتر واحد من كل جانب، رقد تحته مولانا «علي بن الحسين الأكبر»، ما جعل الضريح ـ بمجموعه ـ يبدو بزوايا ست.

وفي داخل الضريح كتيبة نقشت عليها أبيات من قصيدة مطوّلة لأمير المراثي الشاعر السيد «حيدر الحلي»، منها:

يا تربة الطفّ المقدّسة التي
هالوا على ابن محمد بوغاءها
حيّت ثراكِ فلاطفته سحابةٌ
من كوثر الفردوس تحمل ماءها
واريتِ روح الأنبياء وإنّما
واريتِ من عينِ الرشادِ ضياءها
فلأيّهم تنعى الملائك مَن لهُ
عَقَدَ الإلهُ ولاءهُم وولاءها
ألآدمٍ تنعى وأين خليفة الـ
ـرحمنِ آدمُ كي يُقيمَ عزاءها
وبكِ انطوى وبقيّة الله التي
عُرضت وعُلّم آدمٌ أسماءها
أم هل إلى نوحٍ وأين نبيُّه
نوحٌ فيُسعد نوحَها وبُكاءها
ولقد ثوى بثراكِ والسببُ الذي
عَصَم السفينةَ مُغرقاً أعداءها
أم هل إلى موسى وأينَ كليمُه
موسى لكي وجداً يُطيل نُعاءها
ولقد تَوارى فيكِ والنار التي
في الطور قد رفع الإله سناءها

وعندما زار «كربلاء» السلطان «طاهر سيف الدين»، الداعية «الإسماعيلي»، أهدى الحرم الشريف شباكاً جديداً لينصب كمقصورة فوق الضريح المقدس، وقد صنع في «الهند» سنة ١٣٥٨هـ. ولصنعه قصة لطيفة، ذات دلالة عقائدية راقية...

فقد أحتدم بين المؤمنين هناك خلاف أفضى إلى نزاع، وكاد أن ينتهي إلى قتال، حول الحق في التشرّف بصنع هذا الضريح، وأنه ليس لأحد أن يحتكر ويستأثر بالشرف وحده!... أنتهى بأفتتاح حساب بنكي خاص، والسماح لكل مؤمن بـ «نايه بيزه» واحدة (جزء «الروبية»، عملة بلاد «الهند») يتشرف من خلالها بالمساهمة في تكلفة صنع وصياغة الضريح.

وتحيط بالضريح روضة متوسطة الحجم رُصِفت أرضيتها بالمرمر الإيطالي الثمين (الأونكس)، وكسيت جدرانها بأرتفاع مترين بالمرمر نفسه، فيما تزدان بقية الجدران والسقوف بمرايا صنعت بقطع وفرز بديع وركّبت لتشكل آية من آيات فن العمارة الإسلامية.

وقريب من الضريح إلى جهة الشرق، يقع مثوى الشهداء الأبرار من أصحاب «الحسين» الذين أستشهدوا معه، وهم مدفونون في ضريح واحد، وجُعِل هذا الضريح علامة لمكان قبورهم، وهم في التربة التي فيها قبر «سيد الشهداء». والضريح مصنوع من الفضة، وله شباكان: الأول يطل على الحرم الداخلي، وقد كُتبت فوقه أسماؤهم الشريفة، والثاني فُتح لاحقاً وهو يطل على الرواق الجنوبي إلى اليمين من باب القبلة.

وأبواب الأروقة الداخلية ثمانية تؤدي إلى الحضرة المطهرة وهي (غير الباب الرئيس): «باب القبلة»، «باب علي الأكبر»، «باب الكرامة»، «باب الناصري»، «باب إبراهيم المجاب»، «باب رأس الحسين»، «باب حبيب».

أما الأبواب التي تؤدي إلى الصحن فعددها سبعة، وهي: «باب حبيب أبن مظاهر»، «باب القبلة»، «باب صاحب الزمان»، «باب علي الأكبر»، «باب الكرامة»، «باب إبراهيم المجاب»، «باب رأس الحسين».

وإلى الجنوب الغربي من الرواق، هناك غرفة خاصة لها باب فضيّ، وأرضيتها من المرمر الناصع، وفيها سرداب يعلوه باب فضي أيضاً، ويطل من هذه الغرفة شباك على الإيوان المتصل بالصحن من الخارج... والحجرة هي موضع «المذبح» أو «المنحر»، وهو المحل الذي ذُبح فيه «سيد الشهداء» وحُزّ فيه رأسه الشريف صلوات الله عليه.

وقد آستوقفني وضع هذه الحجرة وحيّرني...

فإنه إذا فتح الباب الداخلي المطل على سردابها، أي في أديم الأرض، وعمق ما شيّد عليه البناء، رأى الناظر منظراً غريباً... فهنا فراغ وخلع وخلاء، ليس عدماً، إذ ثمة حيز، ولكنك إذا أحدقت وتمعنت لم تجد شيئاً في هذه البقعة، وآرتد إليك البصر حسيراً! لا هي أرض ولا سماء، ولا هي أديم وجدد، ولا حفرة وهوّة... كانت أشبه بفضاء متموّج، تشعرك أنه يخفي شيئاً، أو يداري ما أنتزع وأُخلي وفرّغ من هذا المكان. فيتساءل الناظر: هل يمكن مسه، هل يمكن الوقوف هنا، أو حتى السقوط في هذا الفراغ؟ ماذا سيحل بمن يقع هنا؟... هل ثمة جسم لطيف أو حاجز خفيف أو برزخ غير مرئي؟

إن في هذه الحجرة من الحجب والستر، ويلفها من الغموض والإبهام ما يذهل العقول ويحير الألباب. ما وسعني أن أطّلع وأستكشف سرّها حتى من الصور والمناظر السابقة التي مررت بها، وقد تجشمت الرجوع إلى عهود ماضية، علّني أستطلع الحقيقة وأُميز الحال، فما آستطعت! غاية ما أدركته:

أن الحقيقة في هذه البقعة، حيث ذبح «المولى» وفاضت روحه القدسية، مستغرقة في الملكوتية، موغلة في اللاهوتية، غاية في اللطافة ونهاية عن الشفافية حتى لتأبى الصور المُلكِية والظهورات الأرضية الدنيوية، ولو بأعلى المراتب وأسمى القوالب والهياكل!

وكأن مهندسي الحرم وبنّائيه، أو مَن يهدي مهندسي وبنّائي هذا المشهد الشريف، على كثرتهم وتعددهم في جميع العهود والأطوار، والذي بيده مقاليد القلوب، يصرفها أنّى يشاء... تعمد حَجْبَ هذا الموضع، وأنزله منزلة القبر الشريف نفسه، ولكن جلّله بحُجرة عوض الضريح! ولعلّ قلّة نادرة من الزوار أمكنها رؤية «المذبح»، ومشاهدة هذا الموضع، على نحو يجدده من أرضية الحجرة... لست أدري، فأنا أتحدث هنا عن مشاعري أكثر مما أنقل مشاهداتي. وقد علمت أن العمال والبنائين الذي كانوا يعالجون هذا الموضع، كانت تتراءى لبعضهم صورة للأرضية، وتتكوّن مادة ما، يقفون عليها ويمارسون عملهم، وبقية منهم يرون الفراغ فلا يجرؤون على الدنو!

أما أنا فكأن شيئاً كان يدفعني ويصرفني عن الحجرة ـ «المذبح» ويقول لي: "لا شأن لك بها، إمض بعيداً وأنصرف"! وكنت أرىٰ الزوار يستلمون الباب الفضي ويقبّلونه، وينصرفون لشأنهم. وفي بعض فترات الزيارة، كانت الباب الداخلية تفتح لتطل علىٰ وعاء أدُّخرت فيه تربة يقال للزائرين إنها من أرض «المذبح»، وأرض «المذبح» كلّها في «العرش»! ولم يتم الأمر لي، ولا قرّت عيني ولا سكنت نفسي، إلا عندما عادت بي الذاكرة، ونبّهني هاتف، إنها البقعة التي رأيتها أوّل سفري هذا... رأيتها تعرج إلىٰ السماء، ورأيت الملائكة حولها تحوم وتهدهد من ذهول، وتعدو وتطفر من فزع وجزع.

وفي الواجهة الشمالية هناك «الطارمة»: وهي الصُفّة أو الإيوان الذي يطل علىٰ الصحن الشريف من جهة الجنوب وله سقف عال، ولكنه ليس بمستوٍ واحد، فهو مرتفع من الوسط ومنخفض من الطرفين، ويرتكز السقف علىٰ أعمدة من المرمر الإيراني الفاخر.

و«الإيوان» مستطيل الشكل بطول ستة وثلاثين متراً (٣٦م) وعرض عشرة أمتار (١٠م)، وقد كسيت جدرانه بالذهب الخالص، وزُيِّنت جوانبه بالفسيفساء المنقوشة بشكل بديع، بينما كُسيت بقية الجدران بالقاشاني المزخرف، ويفصل هذا الإيوان عن الصحن مشبّك معدني، ويكون المرور لدخول الروضة الشريفة من جانبيه ومن وسطه، حيث يحتفي الزوار وينزعون أحذيتهم ويودعونها في «الكيشوانيات» خارج الصحن.

وكان قد بني هذا الإيوان بناؤه الأول عام ١٣٣٠هـ، وقد جلبت أعمدته الخشبية الثمينة وألواح سقفه من غابات «الهند»، وكُسيت جدرانه الأمامية بالذهب الإبريز. وفي مطلع ١٣٨٨هـ بوشر بهدم الطارمة الخشبية المذكورة لأستبدالها وتغييرها إلىٰ حجرية رخامية. وقد وصلت «كربلاء» في الحادي عشر من محرم الحرام، سبع وعشرون سيارة شحن كبيرة تحمل أعمدة المرمر، معها «جبهة» الطارمة، أو واجهتها، من الرخام الإيراني الفاخر الصلب، المستخرج من مدينة «سنندج»، نحتت وأُعدّت وحُجّرت في «طهران» بتبرع من السيد «قنبر رحيمي» متعهد مناجم الرخام في «إيران».

وقد ظهر صدع في الإيوان الوسطي المعروف بالإيوان «الناصري»، نسبة إلى «ناصر الدين شاه القاجاري» عام ١٢٨٣هـ، الذي لم يوفق لإكمال بنائه، فاضطر السلطان «عبدالحميد العثماني» لإكماله، وتم ذلك في شعبان ١٣٠٩هـ، فصار يعرف فيما بعد بالإيوان «الحميدي». أما في إيوان «رأس الحسين» الملحق برواق «السيد إبراهيم المجاب»، حيث ترى زخارف القاشاني والفسيفساء في لوحة بغاية الدقة والروعة، لعلّها أجمل ما في بناء الحرم وفق الموازين الفنية، وفي أسفلها عبارة: "عمل أستاذ «أحمد جواد شيرازي» عام ١٢٩٦هـ"... فقد نقشت هناك أبيات من قصيدة للشاعر «محسن أبوالحب» مرتبطة بـ «القصة» التي أرتقب، سيأتيك ذكرها بعد حين!

ويحيط بالمرقد الشريف بناء كبير وفناء واسع هو «الصحن»، وهو مستطيل الشكل من الداخل، لكنه - في الواقع - سداسي يجاري هيئة الضريح المقدس، ويحيط به سور عال يفصل الروضة من الخارج، وجرى تزيينه بالطابوق الأصفر والقاشاني. وقد نقشت على الأبواب، كما على جدران الصحن الشريف الآيات القرآنية الكريمة بخطّي الثلث والكوفي.

وقد جاءت كسوة الجدران الخارجية من رص الطابوق المعرّق وتركيبه بأشكال تحكي أسماءً مباركة. ومن الداخل تتوزعه خمسة وستون (٦٥) إيواناً تطل على الصحن وتحيطه من جميع جوانبه، وفي كل إيوان توجد حجرة زينت جدرانها الفُسَيْفساء من الخارج والداخل، أُعدت ليتلقى طلاب العلم دروسهم فيها، أو كمقابر للسلاطين والملوك وكبار العلماء والأعيان.

وفي الواجهة الشمالية من الحرم تقع خزانة الروضة، وفيها من الذخائر والنفائس النادرة التي لا تقدر بثمن، وتحتوي على مصاحف خطيّة قديمة موقوفة في أزمنة مختلفة، كما تحتوي على طنافس وسجاد عجمي ثمين، حيك من الحرير الخالص وطرّز باللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة والمجوهرات، وهناك لوحات ونقوش فنية وتحف ذات شأن، وقناديل ذهبية خالصة، وأوانٍ ذهبية وفضية... أُهديت من ملوك «إيران» و«الهند» والأقطار العربية والإسلامية وأمرائها حين تشرفوا بالزيارة.

وللصحن الشريف عشرة أبواب، يؤدي كل منها إلى الشارع الدائري المحيط بالحرم والشوارع والطرق المتفرعة منه والمنتهية إليه، ورغم كثرة هذه الأبواب إلا أنها لا تفي بحاجة زوار «كربلاء» وكفاية مرتادي الحرم، ولا تخفف من شدة الزحام، خاصة في مواسم الزيارات، ولا سيّما أن تعداد الزوار يتجاوز - في المواسم - الثلاثة ملايين زائر. وجميع الأبواب مصنوعة من خشب الساج وبأشكال بديعة، وتتضمن حواشيها آيات قرآنية كريمة، تفتح على دهاليز وممرات تفضي إلى الصحن أو الخارج، عليها سقوف تتدلى منها المقرنصات المغلّفة بالقاشاني. والأبواب هي:

«باب القبلة»: وهو من أقدم الأبواب، ويعد المدخل الرئيس إلى الروضة الحسينية، وعرف بهذا الأسم لوقوعه إلى جهة القبلة. و«باب الرجاء»: يقع بين باب القبلة وباب قاضي الحاجات. و«باب قاضي الحاجات»: يقع مقابل سوق التجار، وقد عرف بهذا الأسم نسبة إلى الإمام «الحجة المهدي» عجّل الله فرَجَه الشريف. و«باب الشهداء»: يقع في منتصف جهة الشرق حيث يتجه الزائر منه إلى مشهد «العباس» عليه السلام، وأُطلق عليه الأسم كرامة لشهداء «كربلاء». و«باب السلام»: يقع في منتصف جهة الشمال، وعرف بهذا الأسم لأن الزوار كانوا يسلّمون على «المولى» من اتجاه هذا الباب، ويقابله «زقاق السلام». و«باب السدرة»: يقع في أقصى الشمال الغربي من الصحن، وعرف بهذا الأسم تخليداً لشجرة كان يستدل بها الزائرون في القرن الأول الهجري إلى موضع قبر «الحسين» عليه السلام، ويقابل هذا الباب «شارع السدرة». و«باب السلطانية»: ويقع غرب الصحن الشريف، وعرف بهذا الأسم نسبة إلى مشيّده أحد السلاطين «العثمانيين». و«باب الكرامة»: يقع في أقصى الشمال الشرقي من الصحن، وهو مجاور لباب الشهداء. و«باب الرأس الشريف»: يقع في منتصف جهة الغرب من الصحن الشريف، وعرف بهذا الأسم لأنه يقابل موضع رأس «سيد الشهداء» عليه السلام. و«باب الزينبية»: يقع إلى الجنوب الغربي من الصحن؛ وقد سمي بهذا الأسم لأنه يقابل مقام «تلّ الزينبية».

في عام ١٢٨٢هـ أمرت والدة السلطان «عبدالمجيد» بتشييد خزان لسقي الماء في الصحن. وعندما أرادوا حفر أسس بناية الخزان وجدوا درعاً عتيقة وسهماً وقربة، وقد هدم سنة ١٣٦٣هـ إثر توسيع الصحن. كما أنشأ المرحوم «حبيب الحافظ» خزاناً آخر مقابله. وأنشأ غيره ثالثاً. ومع ظهور شبكات قساطل المياه وتمديداتها، أصبحت هذه الخزانات اليوم أثراً بعد عين.

أما القسم الشمالي من الصحن فقد قام ببنائه الشاه «إسماعيل الصفوي»، ويعرف «الإيوان الكبير» الذي يتوسطه إيوان «صافي الصفا»، وعرف فيما بعد بإيوان «الميلو» ثم إيوان «الوزير» نسبة إلى مجدده المرحوم «مرزا موسى» أحد وزراء الدولة «القاجارية» ليكون مقبرة له ولأسرته وذلك عام ١٢٨١هـ حين جدد مرايا الإيوان والكتيبة القرآنية التي كانت تزينه، إضافة إلى الكاشي المعرق... وقد ذهبت معالمه ولم يبق منها شيء اليوم.

ومن الآثار المندرسة في الحائر، «الصحن الصغير» الذي يقع خلف «مئذنة العبد» الشهيرة (التي بناها الخواجة «مرجان اولجياتي» عام ٧٦٧هـ، آية في الجمال، ثم أعاد بناءها الشاه «طهماسب»، ورممها بعد ذلك «العثمانيون»، وفي عام ١٣٥٧هـ أمر «ياسين الهاشمي» رئيس الوزارة العراقية بهدمها، وكان ناصبياً يعادي «أهل البيت» وشيعتهم، ويعلن الحرب على آثارهم ويجهد في منع شعائرهم، هدمها متذرعاً بالأعوجاج الذي ظهر عليها... فخسرت العمارة الإسلامية أثراً تاريخياً وتحفة فنية نادرة، كان يمكن معالجته بطرق هندسية وفنية تحافظ على الأثر، أو تُبقي منه شيئاً). وقد شيد الصحن في عهد «بني بويه»، واحتوى على مقبرة لأسرة السيد «إبراهيم القزويني» صاحب «الضوابط»، وأخرى للسيد «محمد مهدي الطباطبائي»، وثالثة لـ «آل بويه». ومقبرة السيد «مهدي» جد أسرة السادة «آل الصافي» في «كربلاء»، وتقع عند مدخل باب «الصافي» التي تعرف اليوم بباب «الشهداء». وكان «الصحن الصغير» آية في الهندسة وفن العمارة الإسلامية، إلّا أنه تناولته أيدي الهدم يوم ١٨/١١/١٩٤٨م، على عهد «عبدالرسول الخالصي» متصرف لواء «كربلاء».

❁ ❁ ❁

على «باب الرجاء» رأيت «مُقبِلاً» واقفاً، يقرأ إذن الدخول، وقد سبقته دموعه، وغلبه شوقه، وأضناه عشقه...

و«مُقبِل» هذا شاعر عظيم، مُفلِق مُجيد، مُوَفٍ على شعراء عصره، بقريحة ما أنفكت تأتيه بما يسكر الألباب ويخلب العقول... كان في مقتبل عمره شاباً مترفاً مفتوناً، غارقاً في اللهو والتشبيب، حتى مر يوماً بـ «موكب حسيني» يضرب رواده ظهورهم بالسلاسل حزناً على «سيد الشهداء»، فبدرت منه إساءة، وتلفّظ بالسخرية والأستهزاء... فلم يلبث أن حلّت عليه اللعنة وأبتلي بالمصائب فأُصيب بالبرص، وأفتقر!

بقي سنين عدة على حاله، وكان قد ندم على ما كان منه، وتاب توبة نصوحاً، فأخذ ينظم في رثاء «سيد الشهداء» أجود الأشعار وأشجاها، وصار يشارك بنفسه في العزاء، ويخدم في الحسينيات ويسير في المواكب والهيئات، يبكي ويلطم... حتى غدا من العشاق الحسينيين بأمتياز! ولم يلبث على هذه الحال يسيراً حتى عوفي من مرضه، ولكن فقره بقي ولم يزُل.

وفي سنة عزمت أفواج كبيرة من أهالي «أصفهان» على زيارة «الحسين»، فخرجت القوافل وأنطلقت تترى تجاه «كربلاء»... كان «مُقبِل» ينظر إلى ركائب الزوار وقوافلها تمضي واحدة تلو أُخرى، وهو في ضنك الفقر وضيق ذات اليد، فقال لصاحب له: إنني أخشى أن أموت، وحسرة زيارة «الحسين» تعتلج في قلبي! فأدركه صاحبه، وتطوع له بكلفة السفر.

وعندما بلغت قافلتهم أطراف مدينة «گلپايگان»، أعترضهم قطّاع طرق وسلبوا القافلة ولم يتركوا للزوار إلّا الثياب التي عليهم! وبعد جهد جهيد بلغوا «گلپايگان»، فأستدان الناس وأقترضوا من التجار، منهم من عزم على العودة إلى بلده، ومنهم من أصرّ على إكمال طريقه وبلوغ «كربلاء».

أما «مُقبِل»، فلم تكن له حيلة إلّا البقاء في «گلپايگان»...

حتى حل محرم الحرام، وأُقيمت سرادقات العزاء والأحزان، فكان الشاعر العاشق يقضي نهاره في نظم الأشعار، وليله في إلقائها في المحافل والتجمعات، يبكي ويُبكي، يرثي ويعزي.

وفي ليلة عاشوراء، بعد أن قضى من العزاء وطراً، أخذته غفوة، فرأى في المنام كأنه وصل «كربلاء» وحظي بشرف الزيارة واللقاء!

وقد نقلت رؤياه هذه بتفاصيلها، وتداولها الناس، حتى اشتهرت وغدت حديث العلماء والأدباء وتحفة المجالس والمنابر، وقد سمعتها مرات عديدة فتعلّقت بها وشغفت، وكم تمنيت أني كنت معه أحضر وأشهد... وها أنا الساعة أرى منامه ذاك متجسماً أمامي حقيقة ماثلة لطيفة! بدا حين نظرت إليه واقفاً ممسكاً بعضادة «باب الرجاء»، وقد أمال رقبته ومد كفه على هيئة المساكين المستعطين، وهو يقرأ إذن الدخول الأول ويقول:

اللهم إني قد وقفت على باب من أبواب بيوت نبيك صلواتك عليه وآله، وقد منعت الناس أن يدخلوا إلّا بإذنه، فقلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، اللهم إني أعتقد حرمة صاحب هذا المشهد الشريف في غيبته، كما أعتقدها في حضرته، وأعلم أن رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردون سلامي، وأنك حجبت عن سمعي كلامهم، وفتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم، وإني أستاذنك يا رب أولاً، وأستأذن رسولك صلى الله عليه وآله ثانياً، وأستأذن خليفتك الإمام المفروض عليّ طاعته الحجة ابن الحسن المهدي عليه السلام، والملائكة الموكلين بهذه البقعة المباركة ثالثاً، أأدخل يا رسول الله، أأدخل يا حجة الله، أأدخل يا ملائكة الله المقربين المقيمين في هذا المشهد.

وعندما بلغ خطاب الإذن هذا الموضع، ظهر شخص حسن الهيئة بهي المنظر، وقف أمامه وأشار إليه بيده ـ بلطف ـ أن أرجع القهقرى وعُد، أو أنه أراد: قف ولا تتقدم إلى الزيارة!

كان الصحن الشريف ـ على سعته ـ مكتظاً بالزوار بل مطبقاً عن آخره، حتى لو ألقيت إبرة ما بلغت الأرض... لكنهم ليسوا كسائر الزوّار. وقد تجلى لي أن الزوّار طبقات، والزيارة مدارج ومستويات، لم يكن الزحام مؤذياً أو متعباً، فأجسام هؤلاء الزوار الذين أكتظ بهم الصحن الشريف من اللطافة والشفافية، وأرواحهم من السمو والعظمة، ما نفى كل غلظة ومسح كل كثافة عن المشهد، فلم تنل كثرتهم من سعة الصحن وفسحته. وقد أوصدت أبواب الحضرة، ومنعت حتى هذه الجموع النورانية من الدخول!

خاطب «مُقبِل» الشخص الذي صدّه مستنكراً:

ما ظننت أن لحرم «أبي عبدالله» حُجّاباً يمنعون زوّاره؟ وأنشد:

هركه خواهد گو بيا وهركه خواهد گو برو

كبر وناز وحاجب ودربان بدين درگاه نيست

ومعنى البيت: فليأت من جاء وشاء، وليرحل من مضى، فليس في هذه الحضرة تكبّر وتعزز، ولا حاجب يمنع ولا بوّاب يصد!

رد الشخص المانع: يا «مُقبِل» لست بطاردك ولا مانعك، إنما الحرم مغلق الساعة، فقد دخلت «الزهراء» لتزور ولدها، ومعها أمها «خديجة الكبرى»، و«مريم أبنة عمران» و«حواء» و«آسيا بنت مزاحم»، وجمع من الحور العين، وقد دخلن الروضة الشريفة... فأصبر قليلاً ريثما يفرغن من زيارتهن، فتفتح الأبواب لعامة الزوار، ويأتي دورك.

سأله «مُقبِل»: ومن تكون أنت؟

قال: أنا ملك من الحافّين بهذا الحرم، الموكلين بالأستغفار لزواره.

وفي لحظة خاطفة رأيت الملك الكريم قد أمسك بيد «مُقبِل» وأدخله الصحن الشريف، وأخذ يجول معه في أكنافه العطرة... ولاحظت أن جملة من الزوار ليسوا على هيئة البشر، ولا هم من عالمنا، لعلّهم من سكان الأجرام السماوية والكواكب الأخرى! لما بلغت الجولة بهما ركناً من أركان الصحن الشريف، رأى «مُقبِل» محفلاً مهيباً، يحفه الوقار ويفيض منه البهاء والجلال، فيه جمع أستووا في مجالسهم وتربعوا بخضوع وخشوع.

سأل «مُقبِل» الملك: من هٰؤلاء؟

أجابه: ألـم تتعرف إليهـم؟ إنهم جمع من أنبياء الله ورسله جاؤوا لزيارة «سيد الشهداء»... هٰذا الذي يتصدّر المجلس ويتقدمهم هو أبوالبشر «آدم» صفي الله، وعن يمينه «نوح» نجيّ الله، وعن يساره «إبراهيم» خليل الله، وهٰذا «شيث»، وهٰذا «إدريس»، وهٰذا «هـود»، وهٰذا «صـالح»، وهٰذا «إسماعيل»، وهٰذا «إسحـاق»، وهٰذا «داوود»، وهٰذا «سليمان»، وهٰذا «موسىٰ» كليم الله، وذاك «عيسىٰ» روح الله...

وفي هٰذه الأثناء رأيت عظيماً مهيباً يخطف سناه الأبصار، يخرج من الروضة الشريفة، يتهادىٰ بين شخصين، كأنهما كانا يحملانه أو يعينانه علىٰ المشي، من فرط ما نزل به من الجهد والإنهاك... فما إن ظهر لأهل المجلس حتىٰ نهض «الأنبياء» وقوفاً لٱستقباله وأخلوا له الصدارة. سأل «مُقبِل» الملك عنه، فقال: إنه رسول الله خاتم النبيين «محمد» المصطفىٰ.

فما لبث ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ أن ٱستوىٰ في مجلسه، ومكث هنيئة حتىٰ رفع رأسه وقال: أئتوني بـ «المحتشم».

و«المحتشم الكاشاني» واحد من أبرز شعراء الفرس، الذين تخصصوا في مدح ورثاء «أهل البيت» عليهم السلام وأبدعوا. وكان ٱنصرافه وتوفيقه لهٰذا النهج ببركة وعناية خاصة من «أميرالمؤمنين» عليه السلام، فقد أُصيب «المحتشم» بولده وثكل، فٱنصرف إلىٰ رثائه ردحاً، حتىٰ رأىٰ «الأمير» في منامه يقول له: ترثي ولدك ولا ترثي ولدي؟! فعزم أن يوقف شعره مدحاً ورثاءً لـ «أهل البيت» عليهم السلام.

وله «الأثنا عشر عقداً»، وهي «عقوده الثنائية» (دوبنديها) الشهيرة الخالدة التي نظم فيها «قصة القربان»، فغدت معلّقة كل حسينية ومحفل ومجلس ذكر وسرادق عزاء في «إيران». وقد آثرت أن أُدرجها هنا وأُلحقها بكتابي هٰذا، رغم أنها فارسية، مجهولة لقُرّائي... كتميمة وعوذة! أتفأل بها خيراً وأرجو من ذكرها يُمْناً وفَتْحاً، إذ عرفت قدر هٰذا الشاعر العظيم، ووقفت علىٰ فعل شعره وأثره، وكم كان له من قبول. وهي:

بند اول:

باز این چه شورش است که در خلق عالم است
باز این چه نوحه وچه عزا وچه ماتم است
باز این چه رستخیز عظیم است کز زمین
بی نفخ صور خاسته تا عرش اعظم است
این صبح تیره باز دمید از کجا کزو
کار جهان وخلق جهان جمله در هم است
گویا طلوع می کند از مغرب آفتاب
کآشوب در تمامی ذرات عالم است
گر خوانمش قیامت دنیا بعید نیست
این رستخیز عام که نامش محرم است
در بارگاه قدس که جای ملال نیست
سرهای قدسیان همه بر زانوی غم است
جن وملك بر آدمیان نوحه می کنند
گویا عزای اشرف اولاد آدم است
خورشید آسمان وزمین نور مشرقین
پرورده کنار رسول خدا حسین

بند دوم:

کشتی شکست خورده به طوفان کربلا
در خاك وخون طپید میدان کربلا
گر چشم روزگار بر او زار می‌گریست
خون می‌گذشت از سر ایوان کربلا
نگرفت دست دهر گلابی به غیر اشك
ز آن گل که شد شگفته به بستان کربلا
از آب هم مضایقه کردند کوفیان
خوش داشتند حرمت مهمان کربلا
بودند دیو ودد همه سیراب ومیمکید
خاتم ز قحط آب، سلیمان کربلا

زان تشنگان هنوز بعیوق می رسد
فریاد العطش ز بیابان کربلا
آه از دمی که لشکر اعدا نکرد شرم
کردند رو به خیمه سلطان کربلا
آن دم فلك بر آتش غیرت سپند شد
کز خوف خصم در حرم افغان بلند شد
بند سوم:
کاش آن زمان سرادق گردون نگون شدی
وین خرگه بلند ستون بی ستون شدی
کاش آن زمان درآمدی از کوه تا به کوه
سیل سیه که روی زمین قیر گون شدی
کاش آن زمان ز آه جهان سوز اهلبیت
یك شعله برق خرمن گردون دون شدی
کاش آن زمان که این حرکت کرد آسمان
سیماب وار گوی زمین بی سکون شدی
کاش آن زمان که پیکر او شد درون خاك
جان جهانیان همه از تن برون شدی
کاش آن زمان که کشتی آل نبی شکست
عالم تمام غرقه دریای خون شدی
آن انتقام گر نفتادی به روز حشر
با این عمل معامله دهر چون شدی
آل نبی چو دست تظلم برآورند
ارکان عرش را به تلاطم درآورند
بند چهارم:
بر خوان غم چو عالمیان را صلا زدند
اول صلا به سلسله انبیا زدند
نوبت به اولیاء چو رسید آسمان طپید
زان ضربتی که بر سر شیر خدا زدند

آن در که جبرئیل امین بود خادمش
اهل ستم به پهلوی خیر النسا زدند
بس آتشی ز اخگر الماس ریزه ها
افروختند ودر حسن مجتبی زدند
وانگه سرادقی که ملك محرمش نبود
کندند از مدینه ودر کربلا زدند
وز تیشه ستیزه در آن دشت کوفیان
بس نخلها ز گلشن آل عبا زدند
پس ضربتی کزان جگر مصطفی درید
بر حلق تشنه خلف مرتضی زدند
اهل حرم دریده گریبان گشوده مو
فریاد بر در حرم کبریا زدند
روح الامین نهاده به زانو سر حجاب
تاریك شد ز دیدن آن چشم آفتاب
بند پنجم:
چون خون ز حلق تشنه او بر زمین رسید
جوش از زمین بذروه عرش برین رسید
نزدیك شد که خانه ایمان شود خراب
از بس شکستها که به ارکان دین رسید
نخل بلند او چو خسان بر زمین زدند
طوفان به آسمان ز غبار زمین رسید
باد آن غبار چون به مزار نبی رساند
گرد از مدینه به فلك هفتمین رسید
یکباره جامه درخم گردون به نیل زد
چون این خبر به عیسی گردون نشین رسید
پر شد فلك ز غلغله چون نوبت خروش
از انبیا به حضرت روح الامین رسید
کرد این خیال وهم غلط کار کان غبار

تـــا دامـن جلال جهـــان آفـــریـن رسیـــد
هـــست از ملال گرچه بـــری ذات ذوالجلال
او در دلـــست وهیچ دلی نیـــست بیـملال
بند ششم:
تـــرسم جـــزای قـــاتل او چـــون رقم زنـنـــد
یکبـــاره بـــر جـــریـــده رحمت قلم زنـنـــد
تـــرسم کـــزین گـنـــاه شفیعـــان روز حشر
دارنـــد شرم کـــز گـــنه خلق دم زنـنـــد
دســت عـتـــاب حق به در آیـــد ز آستـین
چون اهلـبیـت دسـت در اهـل ستـم زنـنـــد
آه از دمـــی که بـــا کفن خـــون چکـــان ز خـــاك
آل علی چـــو شعله آتـــش علـم زنـنـــد
فـــریـــاد از آن زمـــان که جـــوانـــان اهلبیت
گلگـــون کفـن به عـــرصه محشر قـدم زنـنـد
جمعـــی که زد به هـم صفـشـــان شـور کـــربلا
در حـــشر صف زنـــان صف محشر به هم زنند
از صـــاحـب حـــرم چه تـــوقع کـنـنـــد بـــاز
آن نـــاکـــســـان که تیغ به صیـــد حـــرم زنند
پس بـــر سنـــان کـنـنـــد سری را که جبرئیل
شـــویـــد غبـــار گیســـویـــش از آب سلسبیل
بند هفتم:
روزی که شـــد به نیـــزه سر آن بـــزرگـــوا
خـــورشیـــد سر بـــرهـنه بـــر آمـــد ز کـــوهـســـار
مـــوجی به جنبش آمد و بـــرخـــاست کـــوه کـــوه
ابـــری به بـــارش آمـــد و بگریـــست زار زار
گـفـتـــی تمـــام زلـــزله شـــد خـــاك مطمئن
گـفـتـــی فـتـــاد از حـــرکـت چـــرخ بیقـــرار
عـــرش آن زمـــان به لـــرزه در آمـــد که چرخ پیر

افتاد در گمان که قیامت شد آشکار
آن خیمه ای که گیسوی حورش طناب بود
شد سرنگون زباد مخالف حباب وار
جمعی که پاس محملشان داشت جبرئیل
گشتند بی عماری ومحمل شتر سوار
با آن که سر زد آن عمل از امت نبی
روح الامین ز روح نبی گشت شرمسار
وانگه ز کوفه خیل الم رو به شام کرد
نوعي که عقل گفت قیامت قیام کرد
بند هشتم:
بر حربگاه چون ره آن کاروان فتاد
شور و نشور واهمه را در گمان فتاد
هم بانگ نوحه غلغله در شش جهت فکند
هم گریه بر ملایك هفت آسمان فتاد
هر جا که بود آهوئی از دشت پا کشید
هر جا که بود طایری از آشیان فتاد
شد وحشتی که شور قیامت بباد رفت
چون چشم اهلبیت بر آن کشتگان فتاد
هر چند بر تن شهدا چشم کار کرد
بر زخمهای کاری تیغ و سنان فتاد
ناگاه چشم دختر زهرا در آن میان
بر پیکر شریف امام زمان فتاد
بی اختیار نعره هذا حسین از او
سر زد چنانکه آتش از و در جهان فتاد
پس با زبان پر گله آن بضعة الرسول
رو در مدینه کرد که یا ایها الرسول
بند نهم:
این کشته فتاده به هامون حسین توست

وین صید دست و پا زده در خون حسین توست
این نخل تر کز آتش جان سوز تشنگی
دود از زمین رسانده به گردون حسین توست
این ماهی فتاده به دریای خون که هست
زخم از ستاره بر تنش افزون حسین توست
این غرقه محیط شهادت که روی دشت
از موج خون او شده گلگون حسین توست
این خشك لب فتاده دور از لب فرات
کز خون او زمین شده جیحون حسین توست
این شاه کم اسپاه که با خیل اشگ وآه
خرگاه زین جهان زده بیرون حسین توست
این قالب طپان که چنین مانده بر زمین
شاه شهید ناشده مدفون حسین توست
چون روی در بقیع به زهرا خطاب کرد
وحش زمین و مرغ هوا را کباب کرد
بند دهم:
کای مونس شکسته دلان حال ما ببین
ما را غریب و بیکس و بی آشنا ببین
اولاد خویش را که شفیعان محشرند
در ورطه عقوبت اهل جفا ببین
در خلد بر حجاب دو کون آستین فشان
واندر جهان مصیبت ما بر ملا ببین
نی نی درآ چون ابر خروشان به کربلا
طغیان سیل فتنه وموج بلا ببین
تنهای کشتگان همه در خاك و خون نگر
سرهای سروران همه بر نیزه ها ببین
آن سر که بود بر سر دوش نبی مدام
یك نیزه اش ز دوش مخالف جدا ببین

آن تن که بود پرورشش در کنار تو
غلطان به خاك معرکه کربلا ببین
یا بضعة الرسول ز ابن زیاد داد
کو خاك اهلبیت رسالت به باد داد

بند یازدهم:

خاموش محتشم که دل سنگ آب شد
بنیاد صبر وخانه طاقت خراب شد
خاموش محتشم که ازین حرف سوزناك
مرغ هوا وماهی دریا کباب شد
خاموش محتشم که ازین شعر خون چکان
در دیده اشگ مستمعان خون ناب شد
خاموش محتشم که ازین نظم گریه خیز
روی زمین به اشگ جگرگون کباب شد
خاموش محتشم که فلك بسکه خون گریست
دریا هزار مرتبه گلگون حباب شد
خاموش محتشم که به سوز تو آفتاب
از آه سرد ماتمیان ماهتاب شد
خاموش محتشم که ز ذکر غم حسین
جبریل را ز روی پیمبر حجاب شد
تا چرخ سفله بود چنین خطائی نکرد
بر هیچ آفریده جفائی چنین نکرد

بند دوازدهم :

ای چرخ غافل که چه بیداد کرده ای
وز کین چه ها درین ستم آباد کرده ای
بر طعنت این بس است که با عترت رسول
بیداد کرده خصم وتو امداد کرده ای
ای زاده زیاد نکرده است هیچ گه
نمرود این عمل که تو شداد کرده ای

کــام یــزیــد داده ای از کــشتن حــسین
بنگر که را به قتل که دلــشــاد کــرده ای
بهـر خـسـی که بـار درخت شقـا وتـست
در بـاغ دین چه بـا گل وشمـشـاد کـرده ای
بـا دشمـنـان دین نتـوان کـرد آنچه تـو
بـا مـصـطفـی وحیـدر واولاد کـرده ای
حلقـی که سـوده لعل لب خـود نبی بـر آن
آزرده اش به خـنجـر بـیـداد کـرده ای
تـرسم این که تـو را به محـشر بـرآورنـد
از آتـش تـو دود به محـشر درآورنـد

لم تمض لحظات على صدور طلب «النبي»، حتى جاؤوا بـ «المحتشم».

رجل يميل إلى الربعة، وسيم المحيا، حسن الطلعة، قد لف على رأسه عمامة بالية رثة لا تليق به ولا تناسب شأنه، فأستقبحت ذلك، ثم تنبهت أنه في لباس العزاء وهيئة المصاب!... فلما وصل المحفل النبوي، وقف أمامه معظماً وأمتثل مسلّماً. فخاطبه «المصطفى» صلى الله عليه وآله قائلاً:

يا «محتشم»، هذه ليلة «عاشوراء»، وقد حضر «الأنبياء» ليزوروا ولدي «الحسين»، ويقيموا عليه العزاء، فيرثونه ويبكونه... فأرقَ المنبر وأبكِنا، وأنشدنا من أشعارك أشجاها.

أسرع الملائكة وجاؤوا بمنبر نصبوه إزاء مجلس «الأنبياء»... فقام «المحتشم» وأرتقى الدرجة الأولى من المنبر ووقف ينتظر الإذن، فأشار له «النبي» الأعظم: أن أرقَ. فصَعَد إلى الدرجة الثانية، فما زال ـ صلى الله عليه وآله ـ يشير إليه بالصعود والرقي حتى وصل الدرجة الأخيرة وكانت التاسعة، فأمره «النبي» وأذن له: أن أقرأ.

و«مُقبِل»، وغيره من الأدباء والخطباء والشعراء الحاضرين هنا، ينتظرون أي أشعاره سيختار «المحتشم» من عقوده الأثني عشر ليقرأ، ويعرضه كأشجى ما نظم، والأولى بالإلقاء في هذا المحفل الخطير؟

فأخذ «المحتشم» ينشد:

کشتی شکست خورده طوفان کربلا

در خاك وخون طپيده ميدان كربلا

گر چشم روزگار بر او زار می‌گریست

خون می‌گذشت از سر ایوان کربلا

از آب هم مضایقه کردند کوفیان

خوش داشتند حرمت مهمان کربلا

ثم توجه إلى «رسول الله» وخاطبه مباشرة:

بودند دیو ودد همه سیراب، ومی مکید

خاتم ز قحط آب، سلیمان کربلا

عندها علا صوت «النبي» الأعظم بالبكاء وسمع نشيجه، وقد ٱلتفت مخاطباً الأنبياء: أنظروا ماذا فعلت أُمتي بولدي؟ لقد حرموهم ماة أباحه الله للكلاب والذئاب والكفار.

فشرع «المحتشم» بقراءة أبيات أُخرى يقول فيها:

روزی گه شد به نیزه سر آن بزرگوار

خورشید سر برهنه برآمد کوهسار

موجی بجنبش آمد وبرخاست کوه کوه

ابری به بارش آمد وبگریست زار زار

عندها أخذ الأنبياء جميعاً يضربون رؤوسهم بأيديهم، فتوجه «المحتشم» إلى «النبي» ثانية وقال:

جمعی که پاس محملشان بود جبرئیل

گشتند بی عماری ومحمل، شتر سوار

فقال «النبي»: بلى، هذا كان جزائي عندهم، أن يطوفوا ببناتي في الأزقة والأسواق كسبي «الزنجبار». فٱضطرب المجلس وٱهتز الحرم، وجزع الأنبياء، وراحوا يلطمون صدورهم.

وأبيات «المحتشم» تلك، هي التي قابلها السيد «جعفر الحلي» بداليته الخالدة، التي مطلعها:

سـادة نحن والأنـام عبيـد
ولنـا طـارف العُلـىٰ والتليـد
فَبإيـمانـنـا أهتـدىٰ النـاسُ طـرّاً
وبـإيـمانـنـا أستقـام الـوجـود

حتىٰ يقول:

وعلـىٰ العِيـس من بَنـاتِ عليٍّ
نـوحٌ كل لفْـظِهـا تَعْـديـدُ
سَلَبتـهـا أيـدي الجفـاة حُلاهـا
فَخَلا مِعْصـمٌ وَعُـطْل جِيـدُ
وعليـهـا السِيـاط لمّـا تلـوّت
خلَّفَـتْـهـا أسـاورٌ وَعُقـودُ

صمت «المحتشم» ووقف ينتظر الإذن بالأنصراف. وأرىٰ أنه أبدىٰ بذلك نبلاً وكشف عن معرفة وأظهر تفوّقاً، إذ أنف عن أستغلال الحال وتوظيفها للمزيد من «النجاح» في مرثيته... فلو وجد غيْرُه من مستمعيه هذا التفاعل والإقبال، لما أمسك حتىٰ أهلكهم، ثم أفتخر!

لكن «النبي» الأعظم لم يكتفِ... فطلب من «المحتشم» أن يعيد، ويأتي بالمزيد. فأنثنىٰ «المحتشم» إلىٰ مرثية أخرىٰ، وقد تأثر وأنفعل وهو يرىٰ بكاء «النبي» وجزع إخوانه الأنبياء، فأخذته الحماسة فألقىٰ عمامته من علىٰ رأسه وضرب بها الأرض ودار بيده يشير تجاه الروضة الشريفة وهو يقول:

اين كشته فتاده به هامون حسين توست
وين صيد دست وپا زده زخون حسين توست
خاموش محتشم كه دل سنك آب شد
بنياد صبر وخانه طاقت خراب شد

عندها أنقلب الصحن بكل مَن فيه، وضج بالعويل والنحيب وأرتج من فجعة، حتىٰ نادىٰ ملك في الأرجاء: أن أمسك يا «محتشم» فقد أغمي علىٰ «رسول الله». فنزل «المحتشم» من المنبر.

ثم مضت دقائق، هدأ بعدها الحال، وعاد المجلس إلى قراره... فخلع «النبي» الأعظم بردته على «المحتشم».

أما «مُقبِل» فكانت تأخذه الغبطة لـ «المحتشم» وتتناهبه الحسرات على فوت هذا المقام، وراح يلوم نفسه ويقبّحها، ويستذكر قديم ذنبه حين أستهزائه بمواكب العزاء، وودّ لو أن الأرض أنشقت به وبلعته. وأخذ يبحث لنفسه عن ملجأ يواري به «عاره»! حتى إنه عزم على الخروج من الصحن الشريف حذر أن يلاقي مَن يعرفه، وكان يحدث نفسه:

ألا تعساً لي وترَحاً، لو علم «النبي» الأعظم فيّ خيراً لدعاني لرقي المنبر ورثاء ولده، لو كنت أهلاً لما حرمت هذه الكرامة... أي شقاء بعد هذا، أن أبلغ هذا المحفل وأحضر هنا وأشهد هذا المجلس، فيقام المأتم، ويدلي الشعراء بدلوهم، ثم لا يكون لي ولا لأشعاري نصيب!

وكان قد قرب من «باب الرجاء» ليخرج... وإذا به يرى الأنظار كلّها تتجه إليه! فقد ظهرت من داخل الروضة الحسينية حورية مجلّلة بالسواد، توجهت تلقاء «رسول الله» عدواً من إعجالها، فخاطبته:

يا «رسول الله»، إن أبنتك «فاطمة» تقول: لقد جُرحَ «مُقبِل» وأنكسر قلبه؟ وهو ـ أيضاً ـ ممن أنشد في رثاء ولدي «الحسين»، فأجبره.

فصدر الأمر أن: عُد أدراجك يا «مُقبِل» وأرق المنبر، فـ «الزهراء» ترغب بسماع شيء من أشعارك!

رجعت الروح إلى «مُقبِل» وعادت إليه الحياة...

فقدم حتى أمتثل أمام المجلس المعظم وأدّى التحية، ورقى المنبر، ووقف على الدرجة الأولى، فصدر له الإذن بالشروع، ولم يأمره «النبي» بالصعود، فعلم كم بينه وبين «المحتشم» من بون وتفاوت! ولكنه كان قانعاً بما حظي، ومنشغلاً بأختيار أجود أشعاره وأنسبها للمقام، إذ كانت أشعار «المحتشم» أتعبت مَن بعده، فماذا عسى أن يقال وراءها؟ فراح ينشد:

روايت است كه چون تنگ شد بر او ميدان

فتاده از حركت ذو الجناح از جولان

نه ذو الجناح دگر تاب استقامت داشت
نه سيد الشهدا بر جدال طاقت داشت
هوا ز باد مخالفت چه قيرگون گرديد
عزيز فاطمه از اسب سرنگون گرديد
بلند مرتبه شاهى ز صدر زين افتاد
اگر غلط نكنم عرش بر زمين افتاد

وهي التي قابلها الشاعر «محسن أبوالحب» بالأبيات التي أشرت إلى أنها نقشت على جدار الإيوان في الحرم الحسيني المطهر، وفيها:

الله أكبر ماذا الحادث الجَلَل
لقد تزلزل سهل الأرض والجبل
ما هذه الزفرات الصاعدات أسىً
كأنها شُعَلٌ ترمي بها شُعَل
كأن نفخة صور الحشر قد فجئت
فالناس سكرى ولا خمر ولا ثَمَل
قد قامت قيامة أهل البيت وأنكسـ
ـرت سفنُ النجاة وفيها العلم والعَمَل
جلَّ الإله فليس الحزنُ بالغَهُ
لكنّ قلباً حواه حزنه جلل
وأرتجّت الأرض والسبع الشداد وقد
أصاب أهل السماوات العلى الوجل
وأهتز من دَهَش عرشُ الجليل
فلولا الله ماسكُهُ أهوى به المِيَل

ما إن فرغ «مُقبِل» من إنشاده حتى كانت الرنة والفجعة قد علّت من داخل الروضة الحسينية، و«النبي» الأعظم يضرب على رأسه وينادي: وا ولداه، وا حسيناه... وإذا بالحور ينادين: أمسك يا «مُقبِل» فقد سقطت «الزهراء» على قبر «الحسين» مغشياً عليها.

نزل «مُقبل» من المنبر وقد بقيت في نفسه واحدة!... أمل ورجاء أن يخلع عليه هو أيضاً، وينال من «المصطفى» شيئاً، هدية وعطاء أو خلعة كالرداء، يفتخر بها على أقرانه ويعتز...

وهنا أنقطع عني المشهد، وما عدت أرى شيئاً...

وفي رواية «الرؤيا» والحكاية المتداولة لقصتها، أن «مُقبِلاً» رأى عندها جسداً مقطوع الرأس ظهر من الروضة الحسينية، وصوت يخرج من منحره يقول: سأكرمك بنفسي وأُتحفك يا «مُقبِل»!

عدت من هذا «الفتح» بالكثير، وكان مما أستوقفني أن الشعراء والراثين، رغم كونهم فرساً أعاجم، كانوا يعزّون على «النهج العربي»، وهو نهج قوامه الشعر، فالعرب ينظمون المصيبة، والعجم ينثرونها...

فقد دأب الفرس والترك والهنود في مجالسهم الحسينية ومنابرهم التي تعقد لإحياء ذكرى «الطف»، دأبوا على وصف المصيبة وسرد تفاصيلها المشجية وحكاية حال أبطالها وما نزل بهم نثراً. ينثرون ما يستدر الدموع ويصفون ما يذكي الغصص ويحكون ما يفجر الآهات... ثم يستعينون، في الخاتمة، بشيء من الشعر، بيت أو أثنين، يدعم مرثيتهم. ولعل بعض الراثين الفُرس أفسد حتى قليل الشعر الذي يأتي به، ذلك عندما يعطف عليه بالشرح ويلحقه بتفكيك الأبيات وبيان مقصود الشاعر من الكلمات والعبارات، ما يزري بالشعر ويودي بسحره! بينما ترى العرب على عكس ذلك، فإنهم ينظمون المصيبة ويصورونها في قالب شعري بديع، فيتفننون ويجيدون، يصبون المعاني ويحكون الواقعة ويسردون التاريخ في أبيات، موظفين متدفق القريحة وشدة العارضة ودقة الحس وسرعة الخاطر وحضور الذهن... ثم يستعينون ـ بعد ذلك ـ بعبارات نثرية مثيرة، ووقفات سردية تحكي بعض الأجزاء التي لم يتوقف عندها الشاعر، أو التي أجملها بإشارة أو أختصرها لضرورة، فيفصّلون.

تُرى لماذا كان المجلس شعراً؟ لماذا كان الراثون الفرس يلقون القصائد وينشدون الأشعار، دون أن يسردوا الفاجعة أو ينقلوها نثراً على دأبهم؟

هل لأن الراثين هم شعراء أصلاً، أم أن الحضرة والأدب فيها لا تحتمل ولا تسمح إلّا بالشعر، دون الحكاية والرواية وسرد الواقعة؟ أم هو النهج المحبب والمفضّل لهذا المحفل الأقدس؟ لست أدري.

* * *

عاد بي المشهد ثانية، ورجعت ـ من جديد ـ إلى يوم «عاشوراء» الأول، في ساعة الوداع التي تركتها لأشهد رؤيا «مُقبِل» وتجسم قصته...

كان «المولى» صلوات الله عليه قد عاد من الميدان لتوّه...

ذلك أنه بعد أن قتل «عبدالله الرضيع»، دعا «سيد الشهداء» قائلاً:

اللهم لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح، إلهي إن كنت حبست عنّا النصر فأجعل لنا ما هو خير منه، وأنتقم لنا من الظالمين، وأجعل ما حل بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل. اللهم أنت الشاهد على قوم قتلوا أشبه الناس برسولك محمد صلواتك عليه وآله.

وسمع صوتاً يقول: دعه يا «حسين»، فإن له مرضعاً في الجنة.

حتى إذا حفر له بجفن سيفه أو طرف رمحه ودفنه مرمّلاً بدمه وصلى عليه... تقدم نحو القوم مصلتاً سيفه، داعياً الأعداء إلى البراز، فلم يزل يقتل كل من برز إليه، حتى قتل جمعاً كثيراً ناهزوا الآلاف.

وقد انكشفت الصورة الآن واتّضحت بعد أن كانت تأتيني مقتضبة سريعة، أو غامضة غريبة، في براز «العباس» و«الأكبر» وغيّرهم من أبطال «بني هاشم»، ولمحات خاطفة في قتال جملة من «الأصحاب»، إذ كنت أرى الجموع تقدم نحو أحدهم بالمئات فتطبق عليه وتطوقه، فلا تنجلي الغبرة إلّا وقد هزمهم جميعاً وغلبهم وحده!... وهذا «المولى» ما كان يقرب منهم، ويومئ بسيفه ويديره في الهواء قريباً منهم حتى يتساقط من الإشارة الواحدة والتلويح عشرات بل مئات من جند «الشام»، يتبخرون ويتبددون ويفنون، ناهيك إذا ما لاقاهم السيف فباشرهم ومسّهم!

كانـوا يتحوّلـون إلى هباء ودخان بلون الرماد... لم يكونوا من البشر، وكانت أجسامهم إذا قرب منها نفح أنفاس «المولى» أو لاقت لفح تلويح سيفه تبددت وتلاشت، ولم تترك أثراً من جرح أو سيل دماء، ناهيك بجثث لهم أو أشلاء، اللهم إلّا شيئاً أشبه بالرماد تلعب به الريح وتسفّه.

ثم عاد «المولى» وترك الميدان إلى مخيمه للوداع...

فوقف بإزاء الخيمة مجهداً من صولته، وأخذ يحل عرى درعه وينزع ما عليه من لباس الميدان ويضع عدته، فبدا هذا غريباً لمن هو عائد من قريب، راجع بعد قليل إلى الحرب والقتال، وهو يُعد نفسه للجولة الأخيرة؟! فتبين أنه كان يريد لباساً مخصوصاً يرتديه تحت ثيابه. ثم نادى:

يا «سكينة» ويا «فاطمة»، يا «رقية» ويا «عاتكة»، يا «ليلى» ويا «رباب»! يا «زينب» ويا «أم كلثوم»! عليكن مني السلام.

هلمن إلى الوداع، هذا آخر العهد من اللقاء...

فخرجت النسوة من أخوات «المولى» وبناته وحريمه يحدقن به ويرتمين عليه، وحفت به بنات الرسالة وكرائم الوحي يتصارخن من كل جانب... هذه تلثم يديه، وتلك تقبّل قدميه، وهذه تتعلّق بذراعه، وتلك تسند رأسها عليه، وأخرى تمسك بأذياله، وهذه «رقية» ضمّت ساقه وعقدت ذراعيها بقوة عليه وتشبثت به، تريد أن تمنعه من الحراك والمضي إلى الميدان؟! وهنا نسوة أخرسهن الخطب، فوقفن حوله من بُعْد، ينظرن ما تفعل نظيراتهن، ويتزودن من مرأى «المولى»، ودموعهن تتقاطر متصلة كالسيل، ولكن بصمت أو بنشيج لا يكاد يُسمع، إذ أفلجهن الخطب وأشلهن بعد أن أخرسهن! وافتقد «المولى» ابنته «سكينة» فسأل عنها، فقيل إنها جالسة بظهر الخيمة، لا تقدر على رؤيتك مودعاً... فتوجه إليها، وكان يحبها حباً شديداً، وراح يسليها ويصبرها، حتى ضمها إلى صدره وقبّل ما بين عينيها، وراح يكفكف دموعها، ثم جعل يقول:

سيطـول بعدي يـا سكينـة فاعلمي
منـك البكـــاء إذ الحِـمام دهــــاني

لا تحـرقـي قلبي بـدمعك حسرة
مـا دام مـنـي الـروح في جثماني
فـإذا قتلت فـأنتِ أولـى بـالـذي
تـأتـينه يـا خيرة الـنـسـوان

وكانت «سكينة» أوّل الأمر صامتة واجمة مطرقة، تظهر حزنها وكمدها، وتصنع القطيعة والجفوة مع «أبيها»، علّها تثنيه عن عزمه وتلزمه بالبقاء إلى جوارها، يصلها و«يصالحها» ويسترضيها، كما عهدته يفعل كلّما رآها في كدر وضيق، كانت تريد أن توظف الدلال والحنان الذي نشأت عليه... فلما رأت ما كان من «أبيها» وسمعت مقالته، عادت فكلّمته وقالت:

يا أبة أستسلمت للموت؟

فقال: كيف لا يستسلم من لا ناصر له ولا معين؟

فقالت: يا أبة ردّنا إذن إلى حرم «جدّنا».

فقال: هيهات... لو ترك القطا لغفا ونام.

ثم قال: آئتوني بثوب لا يرغب فيه، أجعله تحت ثيابي، لا أُجرد، فإني مقتول مسلوب. فأتوه بـ «تبّان»، فأبى أن يلبسه وقال: هذا لباس أهل الذمة. فأتوه بشيء أوسع منه، دون السراويل، وفوق التبان، ففزره ولبسه، وأخذ ثوباً عتيقاً فخرمه فجعله تحت ثيابه. ثم وثب على قدميه ببردة «رسول الله» والتحف بها، وأفرغ عليه درعه الفاضل، وتقلد سيفه، ووقف وهو غائص في الحديد... فصار ينظر يميناً وشمالاً، فلما لم ير أحداً من رجاله وأصحابه، نادى بحسرة صدّعت الجبال، ونبرة شقت القلوب كمداً وحسرة:

ألا هل من يقدم لي جوادي؟

فخرجت إليه «زينب» وأخذت بعنان الجواد وأقبلت وهي تقول:

لمن تنادي يا أخي، قرّحت فؤادي...

ومع قرب الرزية من ذروتها القصوى، والملحمة من خاتمتها العظمى، ظهر أسم «آبن نصار» في سماء «كربلاء»، يرسم لوحته قريضاً بالفصحى، بعد معلقاته الخالدة التي سطر فيها «النصاريات» بالدارجة:

فــأتـته «زينب» بــالجــواد تقــوده
والــدمع من ذكــر الفــراق يــسيل
وتقـول: قــد قطّعت قلبي يــا أخي
حــزنــاً فيــا ليت الجبــال تــزول
فلِمَـن تنــادي والحمـاة على الثرى
صــرعــى ومنهـم لا يُـبَـلُّ غليل
مــا في الخيــام وقــد نفــانـا أهلهــا
إلّا نـــســـــاءٌ وُلّـهٌ و«عـلـيـل»
أرأيـت أختــاً قــدّمت لـشقيقهـا
فــرسَ المنــون ولا حـمـىً وكفيل
فتبادرت منه الدموع وقال: يا
أختــاه صبراً فــالمصـــاب جليل
فبكت وقـالت: يـا بن أمي ليس لي
وعليك مــا الـصبر الجميل جميل
يـا نـور عيني يـا حشـاشـة مهجتي
مَن لـلنســاء الـضــائعـات دليل
ورَنَتْ إلـى نحـو الـخيـام بعَوْلَةٍ
عُظمـى تصبُّ الـدمع وهي تقـول:
قـومـوا إلـى التـوديع إن أخي دعــا
بجــــواده إن الفــــراق طـــــويل
فخـــرجن ربّــات الخـــدور عـــواثـــراً
وغـــدا لهــا حـــول «الحسين» عـــويل
الله مـــا حـــال «العليل» وقـــد رأى
تلـك المـــدامع للـــوداع تـــسيـل
فيقـــوم طـــوراً ثــم يكبـــو تـــارة
وعَـــرَاهُ من ذِكْر الـــوداع نحـــول

فغدا ينادي والدموع بوادر:

هل للوصول إلى «الحسين» سبيل

هذا أبيّ الضيم ينعى نفسه

يا ليتني دون الأبيّ قتيل

أبتاه إني بعد فقدك هالك

حزناً وإني بعدكم لذليل

وما سكن نواح «روح القدس» وفرغ من تلك اللامية العصماء، حتى دوّى بثانية لـ «أبن نصار» أيضاً، وقام يهزج بها ويؤديها بلحن، وما خلت قبل هذا أن بعض ألحان الرثاء وأطواره إلهام ووَحي، حتى سمعت الصوت هنا، جاء بشجي نبرة الخطيب البارع «عبدالأمير المنصوري»، سمعته يقول:

فثنى لتوديع النساء جواده

ومن الظما في القلب منه لهيب

فدعاهم قوموا إلى التوديع من

قبل الفنا إن الفراق قريب

فتبادرت هذي وتلك تشمّه

وتقول تلك ودمعها مسكوب

أبي هل بعد التزود نظرة

أخرىٰ وهل بعد الذهاب تؤوب

وأتته زينب والمصاب يقودها

لشجىً له بين الضلوع دبيب

وغدت لما قد نالها تدعو به

ولها بمحني الضلوع وجيب

يا خير من هملت عليه مدامع

حزناً ومن شُقّت عليه جيوب

أأخي يا بحراً يسوغ لوارد

منه الروىٰ كيف أعتراه نضوب

أأرى الشراب وأنت مطوي الحشا
ظمـــأ وآلفه وأنـت غـــريـب
وأرى الخضـاب إذاً لقيت منيتي
عجلاً وجسمك بالدماء خضيب

ثم أعترى المشهد أرتباك وأضطراب جديد...

فهذا «علي بن الحسين زين العابدين» يخرج من خيمته، وهو مريض لا يقدر أن يقل سيفه، و«أم كلثوم» تعدو نحوه وتناديه: أرجع يا بني. فيجيبها وهو يجر خطاه، وسيفه يخط الأرض في موازاته: يا عمّتاه ذريني أقاتل بين يدي «والدي». فنادى «المولى» من بعيد: يا «أم كلثوم» خذيه لئلا تخلو الأرض من نسل «آل محمد». فأدركته وعادت به إلى خيمته.

وقد أنتقل الأضطراب إلى ربوة «الأنبياء»، ومختلف أرجاء السماء، حيث وجد عالم وكان عارف، من نبي مرسل أو ملَك مقرب أو عبد أمتحن الله قلبه للإيمان، إذ تبارد وخطر في أذهانهم:

أستبقى أرض بعد هذا وسماء؟

ماذا أراد «المولى» من خطابه لأخته «أم كلثوم»؟ ولماذا تراه يُبقي على أبنه هذا دون غيره، فيحبسه ويمنعه من الخروج للقتال؟

لم تكن حجة «المرض» لتقنع هؤلاء الكُمّل من الأنبياء والملائكة والأولياء! فقد خرج وبرز إلى مصرعه مَن هو أضعف حالاً، سواء لصغر عمره كـ «الرضيع»، أو لكبر وعجز كـ «عابس»... بل من الشهداء من عاد بعد جولة في الميدان وهو مثخن بالجراح، وقد نزل به من الضعف وحل به ما يعفيه ويفرض حبسه عن العود!؟

أعيد «السجاد» إلى خيمته...

وكان «المولى» قد أستوى على متن جواده، وهمّ أن يلوي عنانه ويصدر إلى الميدان... إذ أستوقفته «زينب»، وطلبت إليه النزول من جديد! ومن عجب أن «المولى» أمتثل دون ملال ونزل عن جواده دون أعتراض، وكأنه على موعد ـ هو أيضاً ـ مع هذا الموقف!

فلما وقف بإزائها، أخذت تفك عقد درعه وتزيحه، وتحل عرى قميصه من لدن جيبه، وتكشف عنه الثياب، حتى بان لها صدره... فهوت تلثم نحره، وهي تقول: أخي هذه قبلة أمي «الزهراء» أوصتنيها. ثم عادت وصارت تنظر نحو السماء وتقول: أماه! ها قد أديت أمانتك وبلغت وديعتك.

قضت وطرها من توديعه...

أخلت يديها مرغمة، و«المولى» يستل نفسه وينتزعها من عناقها المفجع، وقد أحرقت دموعها وما أبقت في فضاء «كربلاء» نسمة من هواء... فكأن السماء أطبقت على الأرض وكبست الأديم، حتى إني رأيت الخيل تحمحم وترمح إذ ضاقت عليها أنفاسها، والجند أحسوا بالضيق في صدورهم وحلوقهم، فصاروا يعالجون أعناقهم ويحلّون أزرارهم، وكأنه قد نزل بهم الخناق... لا يدرون ما يجري وممّ كان ذاك!

❋ ❋ ❋

العقد الثامن: المصرع

وأعـظـم شيء أن شمـــراً لـه على
جنــاجن صــدر ابن الـنبـي مقـاعـد

الخطب في السماء أعظم منه في الأرض...

إنه أوان المعاد، بل الأوْب والعَوْد... فلربما كانت هناك «معادات» من قبل، و«قيامات» تحققت في عوالم سابقة، بعد «حيوات» غيْر هذه الدنيا! كما أن مثل «آدمنا» هذا ألف ألف «آدم».

وهذا الحكيم جل وعلا يخبر في كتابه الكريم: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد سأل «جابر الجعفي» الإمام «أبا جعفر الباقر» عليه السلام عن ذلك فقال: إن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، جدّد الله عالماً غيْر هذا العالم، وجدّد خلقاً من غيْر فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه، وخلق لهم أرضاً غيْر هذه الأرض تحملهم، وسماء غيْر هذه السماء تظلهم. لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله لم يخلق بشراً غيْركم؟ بلى والله، لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين.

هـذا أوان الأوْب والعَوْد، من الخلق إلى «الحق»، عَوْدٌ لا عوالم بعده ولا خلق! لا أرض ولا سماء، لا أجرام ولا أفلاك، لا حياة ولا ممات، لا «آدم» مثل آدمنا بعده ولا «حواء»!... إنها ساعة «العلّة الغائية» من وجود الموجود، ساعة طي «الفرش» والرجوع إلى «العرش»، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء.

ليست هي القيامـة، على زلـزلتهـا وفـزَعهـا، ولا الآخـرة على جلالها ورهبتها، ولا «المعاد» الذي ينتظره البشر بعد موتهم ثم بعثهم فنشرهم من قبورهم، على هوله وخطره... بل شيء أعظم وخطب أفظع!

إنها ساعة تلقي «القربان»...

«القربان» الذي سيرضي الرب ويحقق غايته العظمى من الخلق.

وأنا حائر هنا تائه... تأخذني فكرة وتأتي بي أخرى، تنتابني سكرة أظن فيها هلاكي، فتعقبها غمرة تعلّقني بين الموت والحياة. لا أدري ما أصنع، حتى قدماي ما كانتا تستقران في موضعيهما، كأنني سأسقط وأهوي، فإذا أنحدر بي موضعي، عاد وأرتفع... شيء كحشرجة الموت ولُهاثه.

وقد ذكّرني ذلك بجاثوم أو كابوس كان ينتابني في صغري، ويتكرر نزوله بي في فترات متباعدة بعض الشيء، ولكنها ما كانت تسمح لي بنسيانه، فكنت أقضي ما بين النوبتين في حذر وقلق. كابوس يقض مضجعي ويرعبني حتى أشعر كأنه النزع وأن روحي مفارقة بدني، فأفيق فزعاً مرعوباً ترتجف أطرافي ويتصبب العرق مني، ساهفاً قد شرقت بريقي وغرغر حلقي... كنت أرى أنني أصعد سلّماً خشبياً طويلاً جداً، متكئاً على جدار بطوله، ورغم طول السلّم وأرتفاعه، كانت زاوية أتصاله وأستناده إلى الجدار ضيقة، بل ضيقة جداً، لذا فإن خوف السقوط ورهاب الأرتفاع كان يصاحبني طيلة رُقيي! فإذا بلغت نهايته، ظهر شخص من وراء الجدار، أو ما يبدو أنه سطح تلك الدار التي تسلقت، وأمسك بيديه جانبي السلّم، ودفعه بعيداً عن الجدار، ولم يكن بحاجة إلى دفع، فمجرد تحريكه وهزّه، سيخل بتوازنه ويودي بأستقراره فيقع، ولكن دفعته كانت بحيث يرجع بي إلى الخلف ويسقط إلى الوراء، فأهوي معه وأهوي، فإذا دنوت من الأرض أفقت!

ليس ما يعتريني الآن شيء يشبه ذاك، ولكن خفق قلبي وهوي روحي جعلني أتذكر الكابوس. كنت قد مررت ـ في سفري هذا ـ بمناطق وساعات عرضت لي فيها نوبات من فقدان التوازن، أسبح على غير هدي وأطير بعشوائية مزعجة، لكنها لم تكن مخيفة، ولا أورثتني رعباً وهلعاً، ولا أشعرتني بالنزع والموت... أما الآن فحالتي تختلف.

في خضم ذلك رأيت «النور» يظهر في منتصف الميدان... «نور» أعرفه جيداً، تكرر ظهوره عليّ في مواقف عدّة من سفري، إنه نور حجب المنظر، والمادة التي يتوارى خلفها المشهد كلّما وصلتُ مناطق محظورة وبلغت لحظات ليس لي أن أطّلع عليها... أنتصب كحاجز دائري عال، ما زال يرتفع بنطاق أسطواني ويشكل عموداً قُطره «المذبح»، حتى غاب أقصاه عن نظري، كأنه يقول لي: لا سبيل للولوج هنا، فاقطع الأمل واترك السعي. أو أنه كان يأمرني وينبهني أن: تزوّد من مرأى «المولى» وجماله، ما دام في مرمى نظرك، فإذا دخل هذا النطاق، غابت صورته عنك.

أورثني ذلك بعض القرار، فرحت أتأمل في وجه «المولى»...

الجديد الذي أراه، هو تبدد حذره من التبديل في القضاء والتغيير في القدر، ويقينه بأن أمر «القربان» قد أبرم وأمضي، وأنه صُرِفَ عن «البداء»... وطمأنينة مطلقة لا تتناهى ولا تُحَد.

ولعمري، ما كان في لحظة خِلْواً من الطمأنينة، وما كانت نفسه إلّا مستقرة راضية مرضية، إلّا أنها الآن طمأنينة ملكوتية، انسلخت عن طبيعة الدنيا، وتنزهت عن أعراض قد تنتاب النفس من مقتضيات النشأة.

لم يكن في نفسه الشريفة شيء سوى «الحب»... كانت بحور العشق تتلاطم في سبحات وجهه الشريف، وأنشودة:

هجــرت الخلق طــراً في هـــواكـــا
وأيتـمـت العـيـــال لكـي أراكـــا
ولـــو قــطّعـتـني في الحـب إربـــاً
لمـــا جـنّ الفـــؤاد إلــى ســواكـــا

تفيض من مُحَيّاه وترشح من قسماته، وتتردد في الأكناف، فيطغى صداها على أصوات إهماج الخيل وشدّها، وعلى ضبحها وإرخائها، وقد عمدوا أن يجولوا بها عَدْواً، جيئة وذهاباً، يذرعون الميدان ويستعرضونه. كانت أنشودة الحب التي يهيم فيها «المولى» تغلب قعقعة وخشخشة تضج في الساحة من أمر القادة جندهم أن يسايفوا ويرامحوا، ويقرعوا تروسهم، فيملؤوا الفضاء رعباً وفرَقاً، يناهز ضرب الطبول، ونفخ الأبواق، ورنين الأجراس المنكرة.

كان الجمال والحب المتدفق من وجود «المولى» يغلب كل ذلك الشر ويظفر على العنف وينتصر على الكُره... يرغمه ويهزمه، حتى يذهل اللبيب ويحار الحصيف، وهو يرى نتيجة المعركة جلية واضحة، قبل أن تحسم: كيف تسقط كل هذه الرماح والنبال والسيوف، ويقهر آلاف الفرسان، أمام رجل واحد، انفرد وحيداً، لا ناصر له ولا معين؟ غير نساء وأطفال، لربما أعان عبؤهم عليه وزاد من محنته وكربه؟!

هناك أعمال وأفعال تسمو بأصحابها، تتفوق عليهم بعظمتها، وتأخذ بأيديهم إلى رحاب عطائها ونتائجها، وتبهر الناظر بإبداعها. ولعل هذا هو حال كل العباقرة والعظماء والمبدعين في تاريخ البشرية، فقيادة سياسية فذة، وشجاعة وفروسية، أو نظرية في الفيزياء واكتشاف في الكيمياء وابتكار في ضروب التقنيات الحديثة، ينقل صاحبه، بفضل إنجازه وعطائه، إلى رحاب عظيمة تفوق شأنه وقدره، يتفوق بها على ذاته.

وهناك ذوات لا يطيقها شيء، ولا يسع عظمتها فعل ولا عمل؟

كنت أنظر إلى «المولى»، وقد فاضت منه كل تلك العظمة، وأشرق فيه مجدُ نصرٍ سيغلب الألوف، وأراه وهو يشرف على «موتٍ» سيبعث الحياة... فأتساءل وأحار، وأعود لأرى أن كنهه وحقيقته تستمد من ذاته، وأنها هي التي تخلع العظمة على أفعاله، لا العكس.

ذات تتفوق على كل شيء، فيصغر دونها العظيم، وكنهٌ مستتر يسمو على كل فعل، فيبدو أمامه ـ مهما عظم ـ باهتاً هزيلاً.

في «كربلاء» الآن شيء واحد فقط هو: «الحسين»...

هناك إباء وكرامة، هناك فداء وتضحية، وهناك بطولة وشجاعة، هناك جراح ودماء وشهادة، هناك علم بما كان وما يكون وما هو كائن، وعمل يملأ السماوات السبع بما تحت أفلاكها، ويخرق الحجب حتى يبلغ أقصى الرضا والقبول، هناك عشق تتقطع من نفحاته قلوب المحبين، ومعرفة تذهل من إشراقاته أنفس السالكين، وقرب تنعقد منه ألسنة الواصلين، هناك مدرسة ستنهل من معينها البشرية في دنياها ما دامت، وتتشفع به في أخراها إذا ارتحلت... ولكن كل هذه وتلك تبدو كـ «لا شيء» أمام ذات «المولى» وكنهه! وهي الساعة في أبهى صورها وأتم مجاليها، وكأن «كربلاء» وهذه اللحظة من «عاشوراء» خلقت أصقل مرآة، فظهر أبهى الجمال وتلألأ أزكاه... فذات «المولى» الآن أقرب ما تكون ـ مذ كانت في هذه النشأة ـ من أصلها، وأدنى ما يمكنها من حقيقتها. فلا يملك الناظر إلا أن يعيد التهليل ويلهج بالتكبير، ويكرره حتى المئة، ثم يشرع في السلام على:

خازن العلم ومنتهى الحلم وأصل الكرم وقائد الأمم وولي النعم وأمين الرحمن. محل معرفة الله، ومسكن بركته، ومعدن حكمته، وحافظ سرّه، والدليل على مرضاته والمستقر في أمره، والتام في محبته، والمخلص في توحيده. حجة الله وصراطه، ونوره وبرهانه، ورحمته وبركاته. أصطفاه بعلمه، وأرتضاه لغيبه، وأختاره لسرّه، وأجتباه بقدرته، وأعزّه بهُداه، وخصّه ببرهانه، وأنتجبه لنوره، وأيده بروحه، ورضيه خليفة في أرضه وحجة على بريته، وخازناً لعلمه، ومستودعاً لحكمته، وترجماناً لوحيه، وركناً لتوحيده، وشهيداً على خلقه، وعلماً لعباده، ومناراً في بلاده.

وفي السماء الآن زلزلة مستمرة... لا شيء يستقر ويسكن، هزّة تتلوها هزّة، كأن مواقعنا من تحتنا تنخسف وتسيخ، ثم تعود فترتفع بنا، فإذا قرّت الأجواء شيئاً وسكنت، شعرت كأن ملائكة عمدت فأذكتها وهيّجتها!

صرت أُحدث نفسي وأسعى أن أتذكّر وأُمرر في خاطري ما له القيمة ويحظى بالشأن في هذا الملأ، إذ علّمتني تجربتي سبل الخلاص وطرق آجتياز الحواجز وقهر الموانع هنا، فقد يكون خاطر مبارك، أو سؤال ذو شأن، أو حتى تساؤل وحيرة توجب توقفاً (مقابل المرور العابر والإغماض والتجاهل)... سبيلاً للخروج من المأزق والفوز بالمشهد والظفر بالفتح! أي شيء ينبئ عن تفكّر وتدبّر، ويكشف عن فضل وعرفان، له قيمة عظمى هنا، وله من بعد ذلك دور وقدرة، وفعل وتأثير.

بينا أنا في هذا إذ عرضت لي قصة "إني أجرت رُفيداً" ...

«رُفيد» الذي سخط عليه مولاه «علي بن هبيرة»، فعاذ بـ «أبي عبدالله الصادق» عليه صلوات ربه، فقال له: آنصرف إليه وأقرأه مني السلام، وقل له: إني أجرت عليك مولاك «رُفيداً»، فلا تهجه بسوء.

فقال: جعلت فداك، «شامي» خبيث الرأي!

قال: آذهب إليه كما أقول لك.

فآمتثل «رُفيد» أمر «الإمام الصادق» تعبّداً ورجاءً، وذهب... وفي طريقه لاقاه أعرابي ببعض البوادي ، فقال: أين تذهب؟ إني أرى وجه مقتول! ثم قال له: أخرج يدك. ففعل، فقال: يد مقتول. ثم قال له: أخرج لسانك، ففعل، فقال: آمض، فلا بأس عليك، فإن في لسانك رسالة لو أتيت بها الجبال الرواسي لآنقادت لك!

فمضى «رُفيد» حتى دخل على «آبن هبيرة»، فأمر من فوره بقتله!

فقال: أيها الأمير! لم تظفر بي عنوة، وإنما جئتك من ذات نفسي. وهناك أمر أريد أن أذكره لك... ثم أنت وشأنك.

فأمر من حضر فخرجوا... فقال له: مولاك «جعفر بن محمد» يقرؤك السلام، ويقول لك: "قد أجرت عليك مولاك «رُفيداً» فلا تهجه بسوء".

فقال: الله! لقد قال لك «جعفر» هذه المقالة وأقرأني السلام؟

فحلف «رُفيد»... فردّدها عليه ثلاثاً.

فقام «آبن هبيرة» من مجلسه وحلّ كتافه بنفسه!

ثم قال له: لا يقنعني منك حتى تفعل بي ما فعلت بك!

قال: ما تكتف يدي يديك ولا تطيب نفسي.

فقال: والله لا يقنعني إلا ذاك!

فكتفه «رُفيد» برهة وأوثقه، ثم أطلقه.

فناوله خاتمه وقال: أمري في يدك، فدبر فيه ما شئت!

مرّت القصة في خاطري، فشفّت نفسي ورقّت، ورحت أنادي وأصيح بصوت مسموع: لو أجرتني يا مولاي يا «جعفر بن محمد» وشفعت لي، فأنا عبدك الآبق، ومولاك المذنب المُقصّر!

ومع صيحتي وندائي، هدأ بي موضعي، وسكَنْتُ بعض الشيء... لكني رجوت أكثر مما نلت وطمعت بالمزيد، وقد وجدت الأثر سريعاً والسبيل مشرعة، فرحت أُحدّث ملَكاً إلى جواري بقصة «محمد بن سعيد»:

الذي ٱلتمس من «الصادق» رقعة إلى «محمد بن أبي الشمال» في تأخير خراجه. فقال ـ عليه السلام ـ قل له: سمعت «جعفر بن محمد» يقول:

"من أكرم لنا موالياً فبكرامة الله بدأ، ومن أهانه فلسخط الله تعرّض. ومن أحسن إلى شيعتنا فقد أحسن إلى أميرالمؤمنين، ومن أحسن إلى أميرالمؤمنين فقد أحسن إلى رسول الله، ومن أحسن إلى رسول الله فقد أحسن إلى الله، ومن أحسن إلى الله كان والله معنا في الرفيع الأعلى".

فأتاه، وذكر له الحديث.

فقال: بالله سمعت هذا الحديث من «الصادق»؟

قال: نعم.

فقال: ٱجلس. ثم قال: يا غلام ما على «محمد بن سعيد» من الخراج؟

قال: ستون ألف درهم. قال: ٱمح ٱسمه من الديوان.

ثم أعطاه بَدْرَةً (عشرة آلاف درهم) وجارية وبغلة بسرجها ولجامها.

فعاد إلى «أبي عبدالله» عليه السلام، فلما نظر إليه تبسم وقال:

يا «أبا محمد» تحدّثني أو أحدّثك؟ فقال: يا «ٱبن رسول الله»، منك أحسن. فحدّثه والله الحديث كأنه حضر معه!

أحسست أن الطرب والنعشة من الرواية أخذت الملَك، فصار يكرر بعدي: "أكرَمَ لنا مواليا"، "أكرَمَ لنا مواليا"...

ومع جُمَلِهِ المتكررة، ذهب الروع عني وتبدد، وزال ـ من يُمْن هاتين القصتين ـ ما بي من قلق الروح وأضطراب المستقَر، وسكنت في موضعي تماماً وقرّ بي المقام، وصرت أرى المشهد بوضوح تام وأنتظام...

كنت أشعر في قرارة نفسي وأعرف جيداً أنني لن أشاهد كل شيء، وأن خطَراً ما سيشملني وحَجْراً سينالني، وكنت متيقناً بأنه لن يطول بي المقام هنا... بل إني لم أرغب في المكث واللبث طويلاً! نعم، فالمقام طارد كما هو جاذب! جاذب للأشباه والنظائر، طارد للأغيار والغرباء. فإن كانت في نفسي جذبة من شوق وجذوة من عشق، ففيها ـ أيضاً ـ ظلمات من قبائح وذنوب، وأرتال من ضعف وعجز، تورث المنفرات والطاردات، وتجعل البقاء هنا، في هذه الرحاب الملكوتية، بما فيها من فجعة وآهات، شأن الأوحدي وفي وسع قلّة نادرة ونخبة من صفوة المخلوقات. فالآذان مكدودة من دوي صرخات الجزع، وهي أبداً تحن ـ بطبعها وهواها ـ إلى السكون، وأوتار قيثارة «عاشوراء» ملأتها رنيناً، والمَشاهد أوسعتنا أنيناً، والأمر وقْفٌ مقيم، لا ينبىء بنهاية ولا يؤذن بأنقضاء، وكأن غناء السيف ووقع السنابك ونشيج الثكالى، ملأت موسيقاه الأحقاب، ومع كل وتر تلعب به، يطير قلب وينخلع فؤاد وتزهق نفس من حسرة!

فمن له أن يشهد «عاشوراء»؟ فإذا فاز سعيد بنظرة وظفر موفق بلحظة، كيف له أن يطيل البقاء ويمدد المقام في هذه الأجواء؟

قحم «المولى» الميدان، مصلتاً سيفه، آيساً من الحياة، عازماً على الموت...

وهذه العبارة التي ذكرها أرباب المَقَاتِل، تراها هنا متجسدة متجسمة، حيّة ناطقة، ولعلّهم ـ في حينها ـ لم يكونوا يصفون «المولى» وما ظهر لهم من حاله كتفسير وفهم نفسي لكيفية حركته وطريقة قتاله، بل كانوا يشاهدون شيئاً، أو أن شيئاً سرى في أنفسهم وتخلل وجودهم جعلهم يستشعرون الحال ويعيشونه بالوجدان، كما نزل بي الساعة وأنا أرى المشهد!

فمع ضبح فرسه، وتعاقب ثني الركب وبروز الرضَف من قوادمها، ومع حمحمة وقبع تردّه من منخريها... كان اليأس من الحياة، ينتشر ويمتد يمنة ويسرة، ومن أمامها ومن خلفها، وينطلق إلى عنان السماء، فيميل الوجود بالموجود إلى الردى والفناء، وقد ملّت الأشياء العيش والحياة ورغبت في الموت والوفاة! وكانت لهذه الحركة صورة، فهذه أمواج تخرج من ناصية الدابة، ومن مركلها في جنبيها، ثم تتبع من ذيلها بمتطاير هُلبه، فإذا بلغت الأمواج الشيء وأصابته، وهي فاعلة لا محالة، غشيته وجللته وسرت في روحه وفعلت فعلها، كما فعلت بي الساعة، أمواج تبث اليأس وتورث المرارة، وتبدد ما في الحياة والعيش من طعم قد يلذ لبعضهم ويحلو، وترغّب في الرحيل والأنقضاء، في الموت والمنية.

والقوم يفرون من بين يديه، وهو يناديهم: أين تفرون؟

ثم أخذ يرتجز... وأوّل ما قال:

أنا ابن علي الطهر من آل هاشم
كفاني بهذا مفخراً حين أفخر

وجدي رسول الله أكرم مَن مضى
ونحن سراج الله في الخلق نزهر

وفاطم أمي من سلالة أحمد
وعمي يدعى ذا الجناحين جعفر

وفينا كتاب الله أنزل صادقاً
وفينا الهدى والوحي بالخير يذكر

ونحن ولاة الحوض نسقي ولاتنا
بكأس رسول الله ما ليس ينكر

ونحن أمان الله للناس كلهم
نُسِرُّ بهذا في الأنام ونجهر

وشيعتنا في الناس أكرم شيعة
ومبغضنا يوم القيامة يخسر

ثم أخذ يقول:

خيرة الله من الخلق أبي، بعد جدي فأنا ابن الخيرتين
أميَ الزهراء حقاً وأبي، وارث العلم ومولى الثقلين
فضة قد صفيت من ذهب، فأنا الفضة وابن الذهبين
والدي شمس وأمي قمر فأنا الكوكب وابن القمرين
عبدَ الله غلاماً يافعاً، وقريش يعبدون الوثنين
من له جد كجدي في الورىٰ أو كأمي في جميع المشرقين
خصّه الله بفضل وتقىً، فأنا الأزهر وابن الأزهرين
جوهر من فضة مكنونة، فأنا الجوهر وابن الدرتين
جدي المرسل مصباح الدجىٰ، وأبي الموفي له بالبيعتين
والدي خاتمه جاد به، حين وافى رأسه للركعتين
أيده الله بطهر طاهر، صاحب الأمر ببدر وحنين

فعلت هذه الأبيات فعل السحر في الموقف، فقد واكبت الملائك «المولى» في إنشاده، ورددت معه النخيل رجزه، وظلّت تعيد وتكرر، في شجو وحسرة تزلزل الأرض وتصدّع الأجواء، أن: كيف مَن تكون هذه صفته، يلقى هذا المصير من الظلم والخذلان؟!

ثم راح «المولى» ينشئ، بل هي السماء التي كانت تتغنى بأشعاره، فتجيبها الأرض وتنشد:

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة
فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت
فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً
فقلّة سعي المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها
فما بال متروك به المرء يبخل

وعلى الأرض ـ من غضب «المولى» وسخطه ـ حاصب وخَجوج، تتلوّىٰ في هبوبها وتنكب، صهدتها الشمس، فصارت سموماً يلفح ويسفح، وقد أخذ الحر الأنفاس وغتم حتىٰ ما عادت الناس تدري ما تصنع. وفي الأفق نُذُر خسف وسَيَخ، وقد بدأ ـ فعلاً ـ في الوهاد المتاخمة لـ «كربلاء»، وأخذ يسري ليبلغها. وفي الأجواء من الأنقلاب ما ينذر بعصف وقصف، فهٰذا رعد يهمهم، وإرنان وأرتجاس، وصواعق تبرق ووميض يكسف شعاع الشمس، من غيْر غيم في السماء وبلا سحاب في الأفق!

غاص «المولى» في الأوساط يحصد الرؤوس، وهم يفرون بين يديه وينكشفون بعد أن يتثالوا، كالليث يشد في معزىٰ اليرابيع لئام الخلقة، وخُطّةٍ من عنز سوء أو جداء، يتخطّف ما شاء منها. وهم يتدافعون حتىٰ يسقط بعضهم على بعض، وتسحق خيلهم رجالتهم!

وقد أنكشف لي الآن وجه جديد وتعليل آخر لسر المقتلة العظيمة التي كان يخلّفها سيف «المولى» في هٰؤلاء، وكثرة الأعداد من حصاد سيفه، التي توهمها بعضهم وظنها خرافة وأسطورة نسجها الوضّاعون... فليس ذلك لأن قسماً من «جند الشام» هم كائنات أثيرية وذوات نارية يطفئها سيف «المولى» ويحيلها دخاناً ورماداً، بل تفنيها أنفاسه وتبددها وتجعلها هباءً، فقد تبين لي أنه حتىٰ البشر منهم، ينالهم نفس ذلك النصيب وينزل بهم عين الأثر!

لقد تبين كم قلّ حظ بعض الكائنات في الكينونة، وكم تدنّت درجة الوجود في هٰؤلاء «الإنس» وأنحطّت، حتىٰ كأنهم أعدام لا تحقق لهم. فإذا كان «علم الأحياء» يقسم الكائنات ويصنّفها، لتكون الثديات أرقى المملكة الحيوانية، ويكون الإنسان في قمة الثديات، ثم يفرض أو يثبت أن أحقرها هو موجود أخس من حشرة وأدنىٰ من بكتيريا وميكروب، لا يُرىٰ بالعين المجردة، يُسمىٰ بـ «الأميبيا»، كائن أحادي الخلية!... فإن التصنيف الحقيقي، والمعادلة الروحانية التي تنطلق من حقيقة تشكيك الوجود وتدرجه، تجعل من هٰذا العسكر بقضه وقضيضه كـ «الأميبيا» هناك، تسحقه أقدام الهوام وكأنها ما فعلت شيئاً، فكيف بسيف «سيد الأنام»؟

إنها «كائنات» لا يستدعي فناؤها ولا يقتضي تبددها إلّا أقل جهد وأيسر بأس! لقد أنتقل «المولى» بهذه العرصة إلى عالم «الحقيقة»، فبان كم هي رخوة تلك الأجساد حتى لتودي بها وتفنيها ضربة من سيف، وكم هي دنية تلك الأرواح فتبلى وتتبدد بإيماءة من «المولى» وإطلالة. لقد كان مَرْآه ـ عليه السلام ـ وقد ظهر بالغضب والسخط وتجلى بالجبروت، كاف لهلاكهم.

ورغم أنشغالي في المشهد وتتبعي لتسلسل الأحداث وحذري من أي صارف يشتت ملاحقتي له، إلّا أنني تذكرت جماعة المادين الحسيين الذين ينسبون أنفسهم إلى «الثقافة» و«العصرنة»، الذين يرون الحقائق تهويلاً، والوقائع مبالغة وإغراقاً، والبطولة أسطورة وخرافة! فيسخرون من سِيَرِ المَقاتل وما حكت عن «كربلاء»، ومن أحاديث منابر العزاء ونقل الخطباء.

ألا تعساً للمشككين المكذبين... وسحقاً لـمَن زيّف لهم وغرّر بهم وخدعهم، حين وافقهم، وقد أنتسب كذباً وعدّ نفسه زوراً من علماء الدين، وهو ضال مضل، شر من الأبالسة وأسوأ من عتاة الشياطين!

ثم إن «المولى» عليه صلوات ربه دعا الناس إلى البراز، فأستجاب بعضهم... فلم يزل يقتل كل من دنا منه من عيون الرجال وقادة الكتائب والفرسان، حتى قتل منهم مقتلة عظيمة.

ثم حمل ـ عليه السلام ـ على الميمنة، ووهو يقول:

القتل أولى من ركوب العار * والعار أولى من دخول النار

ثم على الميسرة وهو يرتجز:

أنا الحسين بن علي * آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي * أمضي على دين النبي

وأشتد به العطش، فركب المسناة يريد «الفرات»، فأعترضته الخيل وحالت دون ذلك، حتى رماه رجل من بني «دارم» عليه اللعنة بسهم أثبته في حنكه الشريف، فأنتزع ـ عليه السلام ـ السهم وبسط يده تحت حنكه، حتى أمتلأت راحتاه، ثم رمى به نحو السماء، وهو يقول: اللهم إني أشكو إليك ما يفعل بـ «أبن بنت نبيك». فصعدت الدماء ولم ترجع منها قطرة.

وكان يحمل فيهم وقد ناهزوا عشرين ألفاً، فينهزمون بين يديه كأنهم جراد منتشر، فإذا تراجعوا وفرّوا من كرّه، رجع إلىٰ مركزه وهو يكثر من قول: "لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم". ولم يزل يقاتل حتىٰ قتل ألفاً وتسعمائة وخمسين رجلاً، سوىٰ من جرح وأثخن.

كانت الأجواء مقسمة في أنشطار فظيع، خلق أضطراباً، ثم صار يؤذن بصدع في الوجود، تتشاطره جهتان: واحدة تشير إلىٰ تحقق «القربان» ووصول الأمر إلىٰ نهايته وبلوغه خاتمته، وأُخرىٰ تقرر أن الحدث إذا مضىٰ علىٰ هذه الوتيرة، فإن «المولىٰ» سيقلب الموازين ويفنيهم عن بكرة أبيهم!

عندها ظهر «زقلل»...

وبدا لي منهكاً في الغاية، مذهولاً مكدوداً، وكأنه ثمل يترنح، أو هي سكرات الموقف وعبء الدور الذي يضطلع، أوهت جلده وقصمت ظهره، ومع ذلك كان قد أستجمع نفسه وبذل وسعَه وأستنفر كل جأشه، فتماسك لإتمام عمله وإنجاز مشؤوم دوره. ها هو يخطر ومعه «عمر بن سعد»، ولم أتبيّن... فقد كان يظهر تارة علىٰ هيئته الأصلية، وأُخرىٰ وقد سكن «عمر» وأستولىٰ عليه وكأنه حلَّ فيه! حتىٰ أخذ ينادي في العسكر:

الويل لكم أتدرون من تقاتلون؟ وسكت...

ألجم الفرسان خيلهم، وكفّوا عن عَدْوِهِم، وأمسك المطبّلون عن منكر قرعهم، ووقف الرجالة، وأحجم الرماة... وهدأ الميدان، أمتثل العسكر وكأنهم كلّهم علىٰ موعد ينتظرون أن يطلع الشيطان رأسه من مغرزه ليهتف فيهم بتعليماته المستجدة وتوجيهاته الطارئة من تقلّب أحوال القتال. لعمري، هكذا تكون الطاعة ويكون الأنقياد، وإلّا فلا! والشيطان ـ بدوره ـ يعلم كم سيلفيهم لدعوته مستجيبين وللغِرّة فيه ملاحظين، وكم سيجدهم خفافاً لما سيستنهضهم، وغضاباً إن أحمشهم...

أوقف «زقلل» المعركة بأقتدار. ولم يكن ذلك سهلاً، فالصيحات كانت تملأ المكان، والعج والريح يحجب كل نداء، وقد تقدم الجند وتفرقوا وراحوا بعيداً في الكر والفر، وعمّت الفوضىٰ وتداخلت الأُمور والصفوف...

باشر بإصدار أوامره الجديدة الصارمة، فمنع البراز، وحظّر الحملات العشوائية التي كانت تراهن على وحدة «الحسين» وأنفراده، فسهولة النيل منه... وها هو يستمهل الجند قليلاً ليسمعوا كلامه، ثم يفعلوا بعد ذلك ما تمليه عليه نفوسهم ويفرضه واجبهم تجاه حزبهم وعصبتهم.

بعد نداءات التضليل والإضلال التي ما أنفك، هو وأعوانه، يطلقونها منذ بدأت المعركة، وفي كل جولة، من قبيل: "يا خيل الله أركبي"، وأكاذيب وأباطيل تأويلات المشروعية الدينية والأجتماعية لحربهم وقسوتهم، كشق «المولى» عصا المسلمين وخروجه على خليفة زمانه، ونيات الخير الساعية لإخماد الفتنة وإطفاء النائرة، وما إلى ذلك من ترّهات...

ها هو الساعة ينطق بالحقيقة!

حقيقة أظهرت حسيكة النفاق التي يضمر ويضمرون، وسملَت جلباب الدين الذي به يتنكرون، وأخلقت - في الآن - رداء الإسلام الذي يتلبّسون، وأنطقت كاظم الغاوين، بما أنطوىٰ عليه قلبه وأختزن من حقد في صدره دفين... صاح «زقلل» بأعلى صوته:

"هـٰذا أبن الأنزع البطين، هـٰذا أبن قتّال العرب"!

كانت الكلمة تختزن كل ما في حزب «الشجرة الملعونة» من فكر وعزم وإرادة، ومن عصبية وحمية ألّفت بين أركانها الأول، وجمعت أتباعها الأواخر، وطليعتهم ماثلة هنا الآن تسمع مقولة «القائد المؤسس»!

فنبغ خامل الأقلّين، وهدر نفيق المبطلين، وخطر في عرصتهم كل لُكَع خسيس، غمطة مهين، عتل بعد ذلك زنيم... يبارون مقولة «زقلل» ويتنافسون في التذييل لها والتفريع عليها والتفصيل فيها، ولو كنت ثمّ لرأيت وعاظ السلاطين، وعالم الصحافة والإعلام والفضائيات التي نشكو اليوم، صغاراً مبتدئين أمام قدرة هـٰذه الشياطين على الإثارة، وأساليبها في التأثير والإقناع، وفنونها في ترويض النفوس والسيطرة عليها!

هـٰذا هو الأمر إذن! وهـٰذه هي ساعة المصارحة والمكاشفة، ليهلك من هلك عن بينة، والله غني عن الكافرين، بل العالمين.

لم أعجب كثيراً لحال الجند وتقبّلهم للمنطق الجديد ـ القديم، وأنصياعهم الفوري له! فكأنهم كانوا يعلمون ـ في قرارة أنفسهم ـ أن نداءات التكبير والتهليل التي يرفعونها هم أو يسمعونها من جمعهم، وصيحات قادتهم بأسم الله، والتبريرات الشرعية والأخلاقية التي كانت تخلق المسوغات وتؤمن الغطاء لحربهم «سيد شباب أهل الجنة»... كلّها ظاهر يخفي باطناً، وإعلان يواري سراً. كانوا ـ في الحقيقة ـ على شاكلة قادتهم، ومن اللؤم والخبث والشقاء ما جعلهم طوع البنان ورهن الإشارة، بل بأنتظار هذه الساعة! ولكن مع هذا، فالأمر بدا لي هنا إلى جانب الخبث والشقاء، نمطاً تربوياً وطريقة في الحركة والإدارة والخضوع للعقل الجمعي. فنحن نرى في عصرنا «إسلاميين حزبيين» تعبث بهم قياداتهم عبث اللاعب بالكرة، تنقلهم كأحجار وبيادق «الشطرنج»، من رقعة إلى أخرى، من موقف إلى نقيضه، ومن سلوك إلى ضده، وهم يمتثلون ويتبعون ولا يسألون!؟

حملت الجيوش على «المولى» من كل جانب، فحاصرته وحالت بينه وبين رَحْلِه، وكانت الرماة أربعة آلاف، يرمي كل ألف رشقة، يتلوهم ألف بعدهم، ليملأ الأولون قِسِيّهم ويلقموها من جديد، ودواليك كرّات، حتى صنعوا جداراً لا يمكن خرقه ونطاقاً من النبال لا يسع أجتيازه!

وعمَدت كتيبة يقودها «شمر بن ذي الجوشن» لتحمل على المخيم...

فصاح «المولى» بهم: وَيْحَكُم يا شيعة «آل أبي سفيان»! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم وأرجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون.

فناداه «شمر»: ما تقول يا «أبن فاطمة»؟

قال: أقول: أنا الذي أُقاتلكم وتقاتلونني، والنساء ليس عليهن جناح، فأمنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حياً.

قال: أقصدوني بنفسي وأتركوا حُرَمي
قد حان حيني وقد لاحَتْ لوائحه

فقال «شمر»: لك ذلك يا «حسين».

وكأن الدناءة والسفالة، والخبث والقبح الذي ظلّل بغمامه القوم وجلّلهم بكلالته، فضاقت منه حتى أنفسهم - على لوثها وغلظتها! - تبدد بكلمة «المولى» صلوات الله عليه ونداته، فأزاح شيئاً عن سمائهم وحرر - قهراً وتكويناً - جانباً في وجدانهم... فصاح «الشمر»:

إليكم عن حرم الرجل، أقصدوه في نفسه فلعمري لهو كفو كريم.

فقصده القوم واشتد القتال، وهو في ذلك يطلب شربة من ماء، فكلّما حمل بفرسه تجاه «الفرات» حملوا عليه بأجمعهم حتى أحلوه عنه.

فحمل «المولى» على «الأعور السلمي» و«عمرو بن الحجاج الزبيدي» وكانا في أربعة آلاف رجل على الشريعة، فكشفهم حتى أقحم الفرس الماء، فلما أولغ الفرس برأسه ليشرب قال - عليه السلام -:

أنت عطشان وأنا عطشان، والله لا ذقتُ الماء حتى تشرب!

فلما سمع الفرس كلام «سيد الشهداء»، رفع رأسه وأحجم عن الشرب، كأنه وعى وفهم، فأبى أن يتقدم ويسبق سيّده! فقال «الحسين»: فأنا أشرب... ومدّ - صلوات الله وسلامه عليه - يده، فغرف من الماء كأنه سيشرب، يريد أن يغري الفرس ويوهمها، لتقطع صيامها وترتوي!

فناداه فارس من «جند الشام»:

يا «أبا عبدالله»، تتلذذ بشرب الماء وقد هتكت حرمك؟

فنفض الماء من يده، وحمل على القوم، فكشفهم فإذا الخيام سالمة.

ولا والله، ما خدع الفارسُ «المولى» ولا غرّر به، لكنها بقايا لوعة مبثوثة في سماء «كربلاء»، تريد أن تحط على صاحبها وتنزل به وَجَلاً، فتكوي شغاف قلبه وتروّعه. لوعة وَهِمَتْ أن «المولى» لن يعانيها ويقاسيها، إذ سيكون قد فارق الحياة حين وقوعها!... لوعة من مصيبة هتك الخيام وسبي النساء والأطفال، فنزلت به الساعة وحلّت عليه، ونالت منه ما شاءت!

عاد «المولى» وجعل - في قتاله - يطلب الماء...

يـروي الثرى بـدمـائهـم وحَشَـاهُ من

ظمـأ تَـطـايـرُ شعلـةً قَـطَعـاتُهـا

لــو قُلِّبت من فــوق غلّــة قلبه
صُمُّ الصّفا ذابت عليه صَفـاتُهـا
تبكي الــسماء له دمــاً أفلا بكت
مــاءً لغُلّــة قلبه قــطـــراتُهـــا

ورغم تلك الحال وهذا الظمأ الذي حكته أبيات الشيخ «محمد حسين كاشف الغطاء» قدس الله سرّه، فإن «المولى» ما كان يريد من طلب الماء إلّا أن يجعل لقتاله وجهاً أسمى وأنبل من محض القتل وقصد إفناء أعدائه، أو حتى الدفاع عن نفسه وعياله! وكل الأوجه في أقواله وأفعاله، ومنها قتاله، نُبلٌ وسمو، وشرع ودين، لكنها رؤية رحمانية وحكمة ربانية. ولعلّه ـ عليه السلام ـ أراد أن يكشف حدود إصرار أعدائه على خستهم، ودرجة تمكّن الدناءة والحقارة من نفوسهم، ومدى غلبتها على كل شيء فيهم. وأراد أن يقطع الطريق على كل دفاع قادم في آتي الأيام عنهم.

و«شمر» يقول: والله لا ترده أو ترد النار.

وآخر يناديه: ألا ترى إلى «الفرات» يا «حسين»، كأنه بطون الحيات؟ والله لا تذوقه أو تموت عطشاً.

فقال «المولى»: اللهم أمته عطشاً.

وكان هذا الرجل الخبيث يقول: أسقوني ماءً. فيؤتى له بماء، فيشرب حتى يخرج من فيه. ثم يقول: أسقوني قتلني العطش! فلم يزل كذلك حتى هلك، عليه لعائن الله.

وبينما «المولى» يقاتل، وقد أصابته من الجراحات ما ناهز الألف جراحة، ثلاثمئة وبضعة وعشرون طعنة رمح وضربة سيف، والبقية من رميات السهام وصك الحجارة، كلّها في مقدمه. وكانت السهام في درعه كالشوك في جلد القنفذ! وهو يدفع عن نفسه، وينال من أعدائه...

بينا هو في ذلك، إذ رماه لعين يُدعى «أبو الحتوف الجعفي» بسهم وقع في جبهته الشريفة، فنزعه، فسالت الدماء الطاهرة على وجهه وخضبت كريمته، وهو ـ صلوات الله عليه ـ يقول:

اللهم إنك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة.
اللهم أحصِهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر على وجه الأرض منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً.

عندها سمعت أبيات من «نونية» السيد «حيدر الحلي»:

أضميرَ غَيْبِ الله كيف لك القنا
نفَذت وراء حجابه المخزون
وتصكّ جبهتك السيوفُ وإنها
لولا يمينُك لم تكن ليمين

كانت الشفار والنصال، والأسنة والرماح تستأذن «المولى» وتستخبر تكليفها منه وتسأله عنه! فتنبو السيوف وتجبو، وتحيد السهام وتطيش. ومنها ما كان يمضي بعيداً مكتفياً بالسلام على «المولى»، ينأى حتى عن الاستئذان، حذر أن يأتيه الأمر بغير ما يحب ويرغب، فيكلّف بإصابة سيّده وجرح مولاه، وكان بعضها ينال، فيرتدع وينفضخ عوده. وفي المقابل كان منها ما ينفذ فيصيب ويجرح. وكان من الرماح ما يتثلب، ومنها عسّال خطّار، يثلم الدرع ويَكْلِم... ولكني وجدت في بعض التي أصابت «المولى» أنها كانت طيبة نجيبة، ممتثلة مطيعة! وقد حملت هذا السرّ معي، حتى يومي، دون فهم وتفسير ظهر لي هناك، ولا وجدته في من سألته عنه هنا.

ثم حمل «المولى» عليهم كالليث المغضب، فجعل لا يلحق منهم أحداً إلّا عاجله بسيفه فقتله. وقد انكفؤوا عن مواجهته والالتحام معه في القتال، واكتفوا بقذف الحجارة والرشق بالسهام!... فكانت تأتيه وتأخذه من كل ناحية، وهو يتقيها بنحره وصدره ويقول:

يا أُمة السوء! بئسما خلفتم «محمداً» في عترته، أما إنكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتهابوا قتله، بل يهون عليكم عند قتلكم إياي، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني ربي بالشهادة بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.

فصاح به «الحصين بن مالك السكوني» فقال:
يا «أبن فاطمة»! وبماذا ينتقم لك منا؟
قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ:

يلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثم يصب عليكم العذاب الأليم.

ولما ضعف عن القتال... وقف يستريح ساعة.

ومع ما بدا أنها وقفة وأستراحة، رجوت أن تهدّئ أو تبطئ من سير الحدث، إلّا أن الملائك من حولي أخذت تطفر وتصرخ! وكأنها على سابق علم أو إحساس بما سيلي هذا المشهد ويعقبه، ما قلب الموقف ـ المنقلب المهول أصلاً ـ ذعراً وهولاً وفجعة، وأنا أنظر وقد أنعقد لساني ووهت مفاصلي وخارت قواي وتزايلت أعضائي.

ورعيل هبطوا إلى الأرض وهووا جثياً، ينثرون التراب في الهواء، كأنهم يداورون المشهد الآتي أن يظهر، أو هو الجزع الذي لا حد للسلوك فيه ولا علة خاصة له ولا وجه ولا تفسير. والأنبياء والأولياء الوقوف على «التل الزينبي»، تلك الربوة المشرفة على عرصة «كربلاء»، خرجوا من وقارهم، وأخذوا يشقون جيوبهم ويهيلون التراب على رؤوسهم، ويصرخون، ثم أخذوا يجارون الملائكة ويطفرون! ثم بدؤوا يتساقطون واحداً تلو آخر، كأنهم في نزع ستزهق معه أرواحهم! ما كشف مركز «الربوة» وأظهر محورها الذي كانوا قبل لحظات يحدقون به ويلتفون حوله.

وإذا بأربعة أنوار متلألئة لأشخاص «أصحاب الكساء»، وقد أنكشفت الحجب عنهم، من ملائكة وأنبياء، وأتصلوا بـ «كربلاء»، فظهرت حقائق: «محمد» و«علي» و«فاطمة» و«الحسن»، ومن ورائهم «تسعة» آخرون!

وقد عجبت لهيئاتهم، إذ كانوا وقوفاً في صمت مهيب، ثم تراءئ لي أنهم في حذر وترقب ووجل... ما عدت ـ والله ـ أدري، ولكني متيقن أنها حال، أيٌّ كانت، أجتمعت بإعظام وإكبار لـ «خامسهم»، الذي يجود الساعة بنفسه، ويقدمها قرباناً لله تعالى.

كانوا يقدمون باكورة زرعهم، وأنقى بُرْهم، وأزكى كباشهم!

هذا «شَبر»، بل «شَبير» «آل محمد»، هذا «قربانهم»، هذه ذبيحتهم!

هذا ما تمناه «آدم» و«شيث»، ودار بفلكه يبحث عنه في الطوفان «نوح»، ورجاه «إبراهيم» في النار، وطلبه «إسماعيل» في «منى» وأمّله «موسى» في «سيناء»، وتطلّع إليه «عيسى» على «الجلجلة»... هذا ما ترتقبه «هاشم»، وظنّه «عبدالمطلب» في «عبدالله»، هذا «القربان الأعظم» الذي أراده الله تعالى و انتظره... يتحقق الساعة.

إنها هي القطعة الأخيرة في فسيفساء، طالما شكلت لغز الوجود وأُحجيته، فإذا انحلّ اللغز عبر تاريخ البشرية مرات، وأجاب «الأولياء» و«الأنبياء» عن الأحجية كرات، تمنّعت اللوحة وظهر أنها سرٌّ لا يستبر غوره ولن تكشف حقيقته... إنها معادلة (شيفرة) لا يحسن تركيبها ولا يجيد ضبطها إلّا مخاطبها. فإذا جمعت أجزاء الفسيفساء وانتظمت أعداده، وقع الانفجار وتحقق الوعد الإلهي بوراثة الأرض ومَن عليها، وإعادة الوجود إلى غيب الغيوب.

بعد لحظات تقضى الحاجات وتتحقق الغايات وتنتهي الحياة، ويؤول الوجود إلى طوره الأخير. بعد لحظات سيُطوى الفرش إلى «العرش»، ويعود كل شيء إلى أصله ومنبعه، ويستقر في مآله ومنتهاه.

هذه هي النهاية قد أزفت، والقيامة قد حلّت!

كان «المولى» واقفاً يستريح... أثخنته الجراح، وأعياه النزف، وناله الإرهاق، وقد دكّته الآلام دكاً، وعركته ومرسته حتى خلّت نفسه وشفّت، فكأنها انتزعت روحه واستلّتها من بدنه، فما وجدت أشرف من محلّها الأول، فأعادها فيه القضاء وأسكنها إليه الأجل. ولكن أي قرار وأي سكن؟ إذ ها هي تنازعه ثانية وترفرف على رأسه وكأنها خرجت من جديد!

بينما «المولى» واقف على هذه الحال... إذ أتاه حجر فوقع في جبهته! فأُصيب وارتُثّ، ما أشفى به على الخطر، إذ انشخب العِرَق الذي بين عينيه دماً، وقد عَنَدَ العِرَقُ وهاج الجرح وجاش حتى أجدى، وما بدا أنه سيرقأ من قريب، ولا بعيد!

فأخذ «المولى» ثوبه ليمسح الدم عن وجهه. وقد أنحلت عرى درعه وتساقط منها القتير وهوت الغلائل من كثرة ما نالها، وتهلهل سرباله، فأنكشف صدره الشريف... عندها أتاه سهم شيطاني محدد، له ثلاث شعب (على غرار حربة «إبليس»)، وقع في صدره ونفذ إلى قلبه، فقال ـ عليه صلوات ربه ـ: "بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله".

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال:

إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض أبن نبي غيره.

ثم أخذ السهم، فأخرجه من قفاه...

تصاعدت تأوهات التألم من «التل الزينبي»، وقد أختلط صوت: «آه» المنطلق من «النبي» و«علي» و«الزهراء»، بـ «آخ» أطلقها «السبط الأكبر»، كلّها ممتدة: آآآآه، آآآآخ... تحكي الزفرة والنفثة أكثر من القول والكلمة.

لقد أخرج السهم من قفاه!

هذا ما قيل لي، فأنا لم أشهده.

حُجِبْتُ وصُرِفت عن مشاهدته... وقد أخبرني ملَك أن في كل ساعة يعرض أو يتاح فيها المشهد، مرّة بعد مرّة، يصرع آلاف الملايين من ملائكة وجن وبقية الكائنات التي تحضره وتراه، ومعهم جملة من أرواح المؤمنين والمحبين من بني «آدم»! يودي بها الألم، الذي ما زال يبث ـ تكويناً ـ حتى الساعة، وسيبقى إلى القيامة، وهو ألم حقيقي لا أنفعالي، فكأن الصدور منهم قد طعنت، والظهور قد أنشقت لتنفذ منها الطعنة وتخرج، بل حتى الدماء تراها تسيل، يتشخبون بنزفهم حتى يهلكون.

يتألّم المحبون لإصابة «المولى» بالسهم المثلّث، ثم لإخراجه المفجع من قفاه، تلتقي الأرواح منهم بروحه العظمى، فتحاذيها لذلك التألّم أو تدنو من مقامها السامي، فترغب في فدائه، فلا يكون لها ذلك، فتعزم على مواساته، فتعجز ولا تطيق، إذ تصرع وتهلك من مدخل بداية الألم في نفسها، فيعيد الله سبحانه وتعالى إليها الحياة ويبعثها، ويخلّدها في النعيم.

أنبعث الدم من «المولى» كالميزاب، فوضع - صلوات الله عليه - يده تحت الجرح، فلما أمتلأت كفاه رمى به إلى السماء، فما رجع من ذلك الدم قطرة. ثم وضع يده ثانية، فلما أمتلأت لطخ بها رأسه وصبغ لحيته، وقال:

هكذا أكون حتى ألقى جدي «رسول الله»، وأنا مخضّب بدمي وأقول: يا جد! قتلني فلان وفلان.

ومع الكف الثانية من الدماء الزاكية التي رمى بها «المولى»، عمّ الأحمرار السماء وأنصبغت قانية، وظلّت على هذه الحال ساعة، ثم أنحسرت الحمرة إلى الأفق شيئاً فشيئاً، حتى أستقرّت كأنها تطل على المشهد من بعيد! حمرة تختلف عن تلك التي تخلّفها الأغبرة المرتفعة من سفّ التراب، دون عَجّ الرمال، وقد لازمت السماء أبداً، وهي التي صارت تُرى عقيب مغرب الشمس وقبيل شروقها، وما عرفت في الأفق قبل ذلك اليوم، حتى رمى «المولى» بدمه إلى السماء.

كانت الأرض تتزلزل وما عليها يرتجف، ويأخذها الخسف تلو الخسف، فتغوص نخيل وتُبتلع هنا، ثم تظهر وتُلفظ بعيداً هناك. وقد أكفهرّ الفضاء وتجهم كمن يدعو على هؤلاء الظلمة ويلعن، ودلكت الشمس رغم أنها في كبد السماء! وما زالت حتى تكوّرت وغُوّرت وأضمحلّت. وظهرت الكواكب بعد خنوس وكنوس، وبدت النجوم بعد خفوق وأُفول، ووقب القمر وطمس... كل ذلك في النهار!

كمه النهار وأسودّت الدنيا، وجارت السماءُ الأرض، فأخذت في الهيجة والأرتجاج. ثم بان أنه «العرش»، أخذ يهتز إذ تضعضعت أركانه. وقد عم الأضطراب أطراف الأرض وشمل كل أصقاعها... فتهتكت أستار «الكعبة» في «مكة»، وغارت «زمزم»، وحنّ «الغري»، وأنّ «بيت المقدس».

وقد ضعف «المولى» عن القتال وأعياه نزف الدم، فجلس على الأرض، ينوء برقبته... ومعها كانت تدور الدنيا وتتقلب الأفلاك وتموج البحار وتضطرب في أقاصيها السفن وتجنح، وتنتحر على شواطئ المحيطات الحيتان زرافات جماعات، وتتفجر البراكين وتقذف من أعماقها الحمم...

وكان «المولى» وهو في تلك الحال، كلما أتاه رجل وأنتهى إليه عدو أنصرف عنه رعباً وهيبة. حتى جاءه رجل من «كندة» يقال له «مالك بن النَسر»، فشتم «سيد الشهداء»، ثم ضربه بالسيف على رأسه وعليه برنس، فأمتلأ البرنس دماً، فقال له «المولى» عليه السلام: لا أكلت بيمينك ولا شربت، وحشرك الله مع الظالمين. ثم ألقى ـ صلوات الله عليه ـ البرنس وأعتم على القلنسوة وقد أعيى، وكأنه أغمي عليه.

فجاء «الكندي» وأخذ البرنس وكان من خز.

فلبثوا هنيئة ثم عادوا إليه وأحاطوا به...

فخرج «عبدالله بن الحسن بن علي» وهو غلام لم يراهق من عند النساء، يشتد حتى وقف إلى جنب عمّه عليه السلام. وقد لحقته «زينب» لتحبسه، فأبى وأمتنع أمتناعا شديداً، حتى أفلت منها ووصل إلى «المولى» ووقف خلفه وهو يقول: لا والله لا أفارق عمي. وأهوى «أبجر بن كعب» أو هو «حرملة بن كاهل»، إلى «الحسين» بالسيف، فقال له الغلام: ويلك يا بن الخبيثة أتقتل عمي؟ وكان سيف الخبيث قد هوى بضربته، فأتّقاها الغلام بيده فأطنتها إلى الجلد، فإذا هي معلقة، فنادى الغلام مدهوشاً: يا عماه! ووقع في حجر «المولى»، فأخذه ـ صلوات الله عليه ـ فضمه إليه وقال: يا بن أخي أصبر على ما نزل بك، وأحتسب في ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الطاهرين. فرماه «حرملة بن كاهل» بسهم فذبحه وهو في حجر عمّه!

وبقي «المولى» مطروحاً ملياً، ولو شاؤوا أن يجهزوا عليه فيقتلوه لفعلوا، ولكن كل قبيلة تتكل على غيرها وتكره الإقدام.

وأصبح مُشتجراً للرماح * تحلّي الدما منه مُرّانها
عفيراً متى عاينته الكماة * يختطف الرعب ألوانَها
فما أجلت الحربُ عن مِثله * صريعاً يُجبّنُ شُجعانَها
تريبَ المحيا تظنّ السماء * بأنّ على الأرض كيوانَها
غريباً أرى يا غريب الطفوف
توسّدَ خدّيك كُثبانَها

وقتلك صبراً بأيد أبوك * ثناها وكسّر أوثانها
أتقضي فداكَ حشا العالمين * خميص الحشاشةِ ظمآنها

وكان الموقف مني قد أضطرب، والصورة في عيني قد كدرت، والأُمور قد تداخلت، وما عدت أرى الحقائق ولا تجلياتها كما كانت الحال قبل ساعة. وكنت ألتقط ما يأتيني ألتقاط راحل مفارق، محجوب بعد لحظات ممنوع. وقد ذهلت بالأنكدار والأنقلاب الكوني، وأنتابني الرعب والهلع مما كان يعتري الوجود، فصرت أصرف ـ فوق صرفي ـ عن المشهد.

ولكني عدت لأسمع «الشمر» عليه اللعنة يصيح في جنده:

ويلكم، ما وقوفكم وما تنتظرون بالرجل وقد أثخنته السهام؟ أحملوا عليه ثكلتكم أمهاتكم.

فحملوا عليه من كل جانب... فرماه «أبوالحتوف» في جبينه، و«الحصين أبن نمير» في فيه، و«أبوأيوب الغنوي» بسهم مسموم أصابه في حلقه.

ثم عرضت حالة جديدة، وطرأ وضع لم يكن من قبل:

صمت ووجوم، خرس وسكون، زالت معه كل الأصوات، وتوقفت كل الحركات، وما عاد شيء هنا إلّا وقد خمد وباخ، وسكن وأنعقد... أنقطعت الضجة والجلبة والبلبلة، وتوقف اللجب والصخب والضوضاء، وحكمت الدهشة والصعق.

أحتبست الأنفاس حتى من الأفلاك، فتوقفت عن طيشها، والنيازك عن تشظيها، والأملاك عن طفرها، والأنبياء عن جزعها...

بهت كل شيء وجمد في مكانه.

وما عاد هناك سوى حشرجة مرعبة، تصدر من موقع سقوط «المولى»!

ثم تبيّن أنها لم تكن حشرجة محتضر ولا همهمة ولا غرغرة، ولا كانت نحيباً ولا زحيراً، ولا حتى تأوّهاً وأنيناً من مثخن جريح... بل كانت نَشَغاً من شوق، وأنفاس عشق أخيرة صاغت العبارة التي قدم فيها «المولى» نفسه إلى ربه جل وعلا، وأظهرها بعنوانها النهائي الأخير، وزف إلى الوجود مآل روحه ونهاية حياته.

فقال صلوات الله عليه، معلناً عن نفسه «القربان الأعظم»:

بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله...

وهذا قتيل في رضا الله!

لقد كنت طيلة حياتي أبتعد عن هذا المقطع من سيرة «سيد الشهداء»، ما كنت أطيق سماعه من المنابر والخطباء، فكيف بي ولي أن أراه وأشهده؟ حتى الآن في هذه اللحظات، وأنا أسجله وأكتبه، أعتراني الضيق والسأم، ثم العجز عن الإكمال والأستمرار. فأستحضار المشهد في الذهن، وإعادة الرؤية القلبية في الخاطر، مع تجليات الحقائق المعروضة هناك، تورث ما تورث، وأوّله الصد والصرف عن الكتابة!

لذا، فإن ما تراه بعد هذا هو ما أسعفني به الحال، فعذراً:

بعد ذلك، مال إلى «المولى» «زرعة بن شريك التميمي» فضربه على كتفه الأيسر، و«عمرو بن الخليفة الجعفي» على حبل عاتقه، ورماه «الحصين» (بسهم ثانٍ) في حلقه، وطعنه «صالح بن وهب المزني» في جنبه، ورماه «سنان بن أنس النخعي» في ترقوته، ثم في بواني صدره.

عندها وقع «المولى» على الأرض، على هيئة السجود... ثم أستوى، فأخذ دمه بكفيه وصبّه على رأسه مراراً، وكأنه أستنفد ما به من رمق.

أنفجر الرعب والهول، وعلّت جلبة وأرتفعت صيحة تخال معها أن «العرش» قد تدكدك وهوى، فما عاد في الوجود شيء!... كان الوجود يتقوّض ويمضي إلى فنائه ونهايته، وقد ضج البكاء والنحيب من جميع أصقاع الوجود وأنحاء الممكن، من الصدر إلى الساق، ومن الباب إلى المحراب، ومما رأيت: شهباً تتقاطع في السماء، وكواكب تتخسف فتتشظى وتتطاير في الفضاء، وأخرى تقرب من الأرض كأنها تقدم لتهوي عليها. و«المدبرات» تعد العدة لتنهض بدورها في هذا التحول الأعظم، ومن ورائها «جبريل» و«ميكال» و«عزرائيل»، وقد خرج «البهم الصافون الحافون» عن صمتهم، ونطقت ألسنتهم بالويل والثبور، وصاحت بعظائم الأمور، و«إسرافيل» يتهيأ لينفخ في «الصور».

وبينما الملأ الأعلىٰ في هـٰذا... إذ أعترتهم فترة!

فقد ظهرت مع ذاك الخضاب الدموي، صورة أخرىٰ لـ «المولىٰ»...

كانت الأنوار قد أنعقـدت علىٰ وجهه الكريم، وأسفرت عن وجه الله وجماله، حتىٰ سكنت الملائكة شيئاً وحارت، أتأخذ في الجزع أم تقر لتتزود من حسنه وبهائه؟

ثم حانت من «المولىٰ» ـ في هـٰذه الغمار الملتهبة ـ أبتسامة!

فعلت هـٰذه الأبتسامة، ولعلّها قربت من ضحكة، في الكون والمكان فعل السحر... أطفأت ما في الوجود من عزم التقوّض والأنقضاء، أثنته عن قصده وصرفته عن طريقه الآخذ بها، وأنتقلت به إلىٰ طور مستجد، وحالة كان يُعد لغيْرها بل شُرع ومضي في سواها!

وكنت قد ظننت لوهلة أن الأبتسامة منه ـ صلوات الله عليه ـ ضرب من مقولة أبيه في مصرعه، يزف إلىٰ نفسه النصر: "فزت ورب الكعبة"، ومن قديم سيرتهم وسنتهم، إذ "والله لأبن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه"!... وأنها تعبير البشارة بتحقق الوعد، وعدم إرجائه بـ «بداء». أو أنها كانت من عجب! عجبٌ من غفلة هـٰؤلاء الأشقياء عن الجلبة التي تحيط بهم والضجة التي قلبت الأكوان، وهم ماضون في غيّهم لا يعبؤون؟!

إلّا أن البسمة أرادت شيئاً آخر...

أرادت أن تظهر الأنبساط، فتحفظ العالم عن الفناء والأنعدام، تمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض، والأرض أن تسيخ بأهلها.

وقد أرادت ـ أيضاً ـ أن تتم قضية الشهادة علىٰ النهج الذي سبق في العناية الإلهية، التي أنكشفت الآن لـ «المولىٰ» وأسفرت عن مداها وأقصاها، دون حجاب يستأثر شيئاً من حروف أسم الله الأعظم! فظهر أنها ليست ساعة القيامة، وأن ثمة تتمة لا بد أن تكون.

لقد كانت تلك الأبتسامة التي أمسكت الكون عن الفناء، إكسير أنقلاب جديد في الكون، ومفتاح معادلة طارئة، أرجأت أثر «القربان» إلىٰ عهد قادم وزمن آتٍ، وقلبت المعادلة: من النهاية والخاتمة، إلىٰ الأنتقام.

وكانت الملائكة قد ضجّت إلى ربها وفزعت فصاحت:

أيفعل هذا بحبيبك «الحسين» ولا يحلل يا رب العالمين غضبك وسخطك، وأنت للظالمين بمرصاد وللمتكبرين بميعاد؟

وإذا بالنداء يصدر من بطنان «العرش»:

أن أنظروا إلى ساق «العرش»... فنظروا فإذا «القائم» (الإمام المهدي المنتظر «الحجة بن الحسن» عليه السلام) قائماً يصلي.

فقال لهم: إني أعددت هذا، لأنتقم لهذا، وأشار إلى «الحسين»، من هؤلاء. فسلّموا لله تعالى، وقالوا: بلى، وسكنت أنفسهم.

ثم أخذ «المولى» في آخر دعائه:

اللهم متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما يشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابق النعمة، حسن البلاء. قريب إذا دعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، ومدرك ما طلبت، وشكور إذا شكرت، وذكور إذا ذكرت. أدعوك محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي إليك مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً.

أحكم بيننا وبين قومنا بالحق، فإنهم غرونا وخدعونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد بن عبدالله، الذي أصطفيته بالرسالة وأئتمنته على وحيك، فأجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم رمق بطرفه السماء ونادى: إلهي! صبراً على بلائك، رضاً بقضائك، لا معبود سواك، يا غياث المستغيثين.

ما رأيت بعد ذلك ما جرى ولا شهدته...

ولكني سمعت ملأ في جواري يحدثون:

أن «عمر بن سعد» دنا من «المولى» وقال لأصحابه:

حزوا رأسه!... فلم يجبه أحد.

وقد خرجت «زينب» من باب الفسطاط، وكأنها رأت إرجاء النهاية، وأنصراف السماء عما كانت ماضية فيه، فأخذت تنادي:

وا أخاه، وا سيداه، وا أهل بيتاه، ليت السماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل.

فعاد إليه ودنا منه «عمر» ثانية، وهو يقول: حزوا رأسه!

فقرب منه «نصر بن خرشة» فجعل يضربه بسيفه! وضربه آخر على عاتقه المقدس، فكبا لوجهه! وغشي عليه. وعندما أفاق «المولى» من غشيته، جعل يبكي بكاءً عالياً... ووالله ما من ضعف بكى ولا عجزاً شكا، ولكنه نظر فرأى صورة أعظم أعمال الأولين والآخرين تتجسد في البكاء على مصيبته. وأحدق وأمعن، فرأى مقام الراثين ومعراج بكائهم إلى رب العالمين، بأتم صورة وأكمل هيئة وأبهى حلة، لا ينقصها شيء، فأنفجر ـ عليه صلوات ربه ـ بالبكاء، ليزفّهم إلى الله تعالى مكللين بتاج البكائين!

ثم أبتدر إليه ستون رجلاً كل منهم يريد حز رأسه الشريف، و«عمر بن سعد» ينادي فيهم ويقول: ويلكم عجّلوا عليه.

وكان أول من أبتدر إليه «شبث بن ربعي»، وبيده سيف مُخذَوْذَبٌ، فدنا منه، فرمقه «المولى» بطرفه، فرمى السيف وولّى هارباً وهو يقول: ويلك يا «أبن سعد»، تريد أن أبوء بدمه فتطالبني «هاشم» وربها، وأنت سالم؟! معاذ الله أن ألقى الله بدمك يا «حسين»!... ورفع صوته كأنه يريد أن يُسمع من بقي في رحل «الحسين»، ويحظى بالبراءة بعد ما قدّم وفعل!

فغضب «عمر بن سعد» وقال لـ«خولي بن يزيد الأصبحي»:

إنزل إليه فحز رأسه!

فأراد «خولي» أن يفعل، فأرتعد وضعف.

فقال له «سنان»: فتّ الله عضدك وأبان يدك.

ثم أقبل إليه «سنان بن أنس النخعي»، وكان «كوسجانياً» أدقاً قد تثرمت أسنانه وهتّم فاه، وسنوطاً لا لحية في عارضيه، إلّا شعيرات في ذقنه. وكان أعوس الوجه أبرص، كالحاً مقطّباً... وكانت قد كملت فيه عدّة علامات أن يكون هو مباشر القتل، أوضحها «البرص». لكنه ما لبث أن رجع، فأقبل إليه «شمر» معنفاً: ثكلتك أمك، ما أرجعك عن قتله؟ قال: لقد فتح عينيه في وجهي، فشبهتها عيني «رسول الله»، فأستحييت أن أقتله.

كانت الإرادة الأزلية تصرف هذا وتدفع ذاك، وتجري على ألسنتهم ما يتم الحجة عليهم وعلى أتباعهم الحاضرين والآتين، من المدافعين عنهم والناهضين بأحتجاجهم في قادم الأيام... وهم قادمون!

فقال «شمر»: ويلك، إنك لجبان في الحرب.

هلمّ بالسيف، فوالله ما أحد أحق مني بدم «الحسين»!

ثم نزل «شمر بن ذي الجوشن» متنقباً، وجلس على صدر «سيد الشهداء»، وهمّ أن يفري نحره، ففتح «المولى» عينيه وقال له:

مَن أنت؟ فقد أرتقيت مُرتقىً عظيماً، طالما قبّله «رسول الله».

ثم سأله «المولى»: أما تعرفني؟

قال: بلى، أنت «الحسين بن علي بن أبي طالب»، وأمك «فاطمة»، وجدك «محمد»، وجدتك «خديجة».

فقال ـ عليه السلام ـ: عرفتني، فلم تقتلني؟

قال: أطلب الجائزة عند «يزيد بن معاوية».

قال: أيها أحب إليك، شفاعة «جدي» أو جائزة «يزيد»؟

قال: دانق معجل خير من درهم، بل دينار مؤجل.

قال: إذا كان لا بد من قتلي فأسقني شربة من الماء.

فقال: هيهات هيهات، حتى تذوق الموت غصة بعد غصة، وجرعة بعد جرعة. ألست تزعم، يا «أبن أبي تراب»، أن «أباك» على الحوض يسقي من أحب، أصبر حتى يسقيك «أبوك»!

فقال «المولى»: سألتك بالله، إلّا ما كشفت لي لثامك لأنظر إليك.

فكشف لثامه، فإذا هو أبرص أعور، له خرطوم كفقم الكلب.

فقال ـ عليه السلام ـ: صدق جدي «رسول الله»، إذ سمعته يقول لأبي «أمير المؤمنين»: يقتل ولدك هذا أبقع أعور، له بوز كبوز الكلب والخنزير.

فقال اللعين: يشبهني بالكلب والخنزير؟!

فمدّ يده وراح يفري عنق «المولى».

فما كان يعمل فيه خنجره، حتى ألقاه من يده وأستل مُدية له مذخورة، فما كانت الأخرى تعينه على نحره! لا يدري أمنها العيب أو من الرعدة والرعشة التي أعترت يده! فعاد إلى سيفه، أستله وراح يعجمه، يهزه ليختبره. وما زال في شأنه الفظيع، يحاول ويلاوص، يميل إلى يمين عنق «المولى» ويسارها ينظر كيف يأتيها! حتى جاءه نداء: أنه موضع شفتي «رسول الله»، لا سبيل لك إلّا أن تقتله من القفا!

فقلب اللعين الجثمان الطاهر وأكبّه، وراح يحز رأس «الحسين»...

أنقطعت الأصوات ثانية، وتوقفت الحركة، وجمد الكون والمكان...

رفع الرأس على القنا، وذهب به «الشمر» إلى «عمر».

وأنصبت على بدن «المولى»، الأحجار والأخشاب، ناهيك بما أشتبك عليه من السيوف والأسنة وأنغرس في بدنه من النبال. فكأن لوثة أنتابت القوم، فصاروا يرمون البدن الشريف بأوتاد الخيام وأعمدتها، وأنهالوا عليه بما تطاله أيديهم، وقد فرغت كنانة بعضهم فرمى الجثمان بقوسه!...

حتى صار موضع الجثمان الطاهر كالأجمة!

ولم يكن هناك شيء، سوى إنشاد راح فيه «روح القدس»... وكانت مئات القصائد والأبيات تتدفق في آن، ولكن الذي طرق مسامعي من بينها، أبيات للشيخ «محمد جواد البلاغي» يقول فيها:

فيا لجسم على صدر النبي رُبي
تـوزعته المواضي من أعاديهِ
ويا لرأس جلال الله توّجه
به ينوء من الميّاد عاليهِ

وصــدر قــدس حــوىٰ أسرار بــارئه

يكـون للـرجس شمـر من مـراقيهِ

ومـنحـــر كـــان للهـــادي مقبّله

أضحـــىٰ يقبله شمـــــر بـماضـيه

يـا ثـائـراً للهـدىٰ والـدين منتصراً

أمـست أميـة نـالـت ثـارهـا فـيه

كـانت السماء بدأت تمطر رذاذاً حتىٰ طلت الأرض، فأمسك الجناة، وأبتعدوا عن الجثمان، ثم أنقلب الطلّ هاطلاً هتوناً فغمرهم البلل ولطّخ ثيابهم... يا للهول، إنها تمطر دماً!

ومعه بَرَدٌ، يحصب «جند الشام» ويرجمهم، ويسمهم فرداً فرداً، فأنكفؤوا وتراجعوا إلىٰ معسكرهم، والبَرَدُ الدموي يلاحقهم ويستقبلهم. فوقفوا جميعاً ساعة في حيرة ووجوم، حتىٰ أنقطع «المطر»، وعادت الهاجرة، وأستأنف الفيح والصخد...

فراحوا في السلب!

* * *

العقد التاسع: العزاء والانتقام

ولصدره تطأ الخيول وطالما
بسريره جبريل كان موكلا

قضي الأمر، وتحقق «القربان»...

والحياة بعده زيادة والعيش فضلة وبقية، كثَمِيلَة في وادٍ أو شُفافة في إناء، أو قُلْ كسُؤْرَةٍ من شباب ونسيس من رُوح. لم يبق من ليلها إلّا غَبَش، ومن نهارها إلّا رَيْم وسَفَر. ولولا ما دخلت فيه من تأخير الأمر، وعرَض لها من إرجائه... لما كان للحياة معنىً وحكمة، ولا لأستمرارها وجه وعلّة، ولا لبقاء الدنيا فائدة وغاية، وما كان لأنقطاعها وزوالها وفنائها من بُدٍّ دون العبث، ومَفَرٌّ دون اللهو.

منذ لحظة أستشهاد «المولى» حتى اليوم، وإلى أن تحين الساعة الموعودة... فإن الدنيا تمضي في طريق من دَوْرَيْن، وسبيل من شعبتين متوازيتين: «العزاء» و«الأنتقام».

أبى الله أن يطوي الوجود وينهي الدنيا، ولمّا يأخذ «القربان» حقه من الرثاء والعزاء. وأبى الناموس وأمتنعت الطبيعة أن لا يكون لـ«القربان»، في هذه الحياة التي قضى فيها (ناهيك بالمعاد)، ثأر وأنتقام.

إنها رزية الله ومصيبته الراتبة، كما هو ثار الله ووتره الموتور.

الأجواء هنا حول ما ينبغي ويجب بعد الواقعة، تختلف عنها في الأرض... فلا كلام ولا نقاش في أدوار الخلق وتكاليفهم، إذ الحقائق واضحة جلية لا تحتمل ترديداً ولا تستدعي إثباتاً وبرهاناً.

وقد ألتفّ حولي وتجمّع ملأ من الملائك راحوا يستمعون إليّ في آستغراب وتعجب، حين علموا أن جُلّ أهل الأرض في شغل عن دورهم الحقيقي، وفي سؤال وبحث عن تكليفهم بعد «عاشوراء»، وقد عقد الذهول ألسنتهم حين علموا أن في «المؤمنين» مَن يغفل وينصرف في شأن آخر يظنّه أعظم «طاعة» وأكثر «قربة» إلى الله، ومنهم من تمضي به حياته وهو يبحث عن تكليفه ويسأل! بل منهم من يحارب «عاشوراء» ويعاديها!

الأمر هنا يزهو بحقيقته الناصعة ويتألّق، أبلج بيّن، كعمود الصبح، وكالشمس في ريعان الضحى. آنجلت عنه سُدف الشك، بل ما جلّلته لتنجلي، اللهم إلّا لغُمْش العيون، وإلّا فهو ظاهر صريح واضح:

إنما نحن أحياء، تقلّنا الأرض وتظلّنا السماء، وتتردد في صدورنا الأنفاس وتجري في عروقنا الدماء، ونرزق من الخيرات والثمرات، ونعيش الحياة، فنسعىٰ ونعمل، نتاجر ونتكسّب، نأكل ونشرب، ونتناسل وننجب، ونتداوىٰ ونتطبب... من أجل غايتين وفي سبيل أمرين لا ثالث لهما:

«البكاء» و«الأنتظار».

وإنما عَبّرتُ بـ «البكاء» أو قُل «الرثاء»، لا «العزاء»، لأن «العزاء» الحق لا يقوم به إلّا «الموعود»، وهو «التاسع» من وُلد «الشهيد». وقلتُ «الأنتظار»، لأن «الأنتقام» لا يقوم به إلّا «ولي الدم» وصاحب الثار.

أما نحن، فلا شأن لنا ولا دَوْر، لا مسؤولية ولا تكليف... إلّا أن نرثي «سيد الشهداء» ونبكي علىٰ ما أصابه في «عاشوراء»، ونتفنن ونبدع في أطوار الرثاء وضروب الجزع والأفتجاع، علّنا ندرك بعض العزاء، فنساهم ونعين إمامنا «المهدي المنتظر» علىٰ أستيفائه حقه والبلوغ به إلىٰ غايته. التي أرجأ الله إنهاء الحياة وأجّل طي الوجود إلىٰ حين تحققها.

ثم ننتظر، متى ينهض ـ صلوات الله عليه ـ ويقوم للثار:

في فتية لها ألتُقى شيمة * ويا لثارات الحسين الشعار

ونرتقب أن يتقبّل الله أعمالنا يستجيب أدعيتنا، فنكون في تلك الكوكبة المنتقمة، والنخبة الثائرة، والعصبة المنصورة.

وهو ـ عجل الله فرجه ـ الذي ما زال يقضي أيامه منذ ميلاده الشريف، عام ستة وخمسين ومئتين، في هذا الشأن: يبدأ يومه في مغيَبه، حيث كان من الأرض، بعد صلاته، فينشر قميص «جدّه» المظلوم، ممزقاً من ضرب السيوف وطعن الرماح وخرق السهام، مضمخاً بفيض النحر ونزف الجراح، ينشره أمامه، ويقضي يومه في البكاء والنحيب، لا يقطعه إلّا للصلاة.

ما أردت أن أعرض هنا مفهوماً وأعالج فكرة، إنما هي مقدمة رأيتها ضرورية لمعرفة وفهم الحوادث التي وقعت بعد «المصرع»، وكيف أنها تصب، بعد تحقق «القربان»، في تلك الغايتين. أي أنها عملت على إذكاء وهج المصيبة في النفوس، ورفد وتزويد نهج الأنتقام بالمزيد من الأسباب.

هكذا هو الأمر... هكذا بدا لي، وهذا ما فهمته وأدركته.

ولست الآن بصدد أن أستدلّ لرأيي، ووارد أن أثبت فكرتي وأبرهن عليها، فأنا بعد المقطع المفجع الذي مررت به، ما زلت في ضيق وسأم، وخوَر وضجر. كما كنت هناك، عاد بي الأمر هنا حين أخذت في تسجيله وتدوينه، وكتابته وتأليفه، وإن كان بنسبةٍ هي ـ ولا شك ـ أقل، ودرجة أدنى بكثير، لكنها فعلت فعلها وتركت أثرها.

ضيق وثقل، أنزل بي الكآبة، أجمت معه نفسي عن كل ما تأنس به وتهواه، من رحاب علمية وفضاءات ثقافية، وأجْتَوَيْتُ كل منزل ومقام، لا أستقر في مكان حتى تهجم عليّ الهموم وتغلبني الغموم فأرتحل... فمن أين لمن هو في حالي همة الحوار، وشوق إقناع الآخرين بمعتقده وفكرته؟ وأنّى له الرغبة في البحث والأستدلال والأحتجاج؟ إنني أعيش هذه اللحظات الأخيرة مع نفسي، أتعثر في أذيال اليأس والقنوط، ليس لي في شيء مُنية ولا رجيّة، وآخر الأشياء وأبعدها أن أجادل أو أقنع أحداً!

لذا فأنا أعرض ما سيأتي عرضاً وأسرده سرداً، وأتجاوز تجلّيات أسرار الحقائق وأعماقها، ولا أطيل الوقفة على الأدلة المثبتة، فعذراً...

وبَعْد... فقد تنبهت إلى الروح التي تبثّها «كربلاء» في أنفس عشّاقها وأتباعها. شيء من التعالي والإباء يخاله الجاهل كِبْراً، وضرب من الرفعة والسمو تظهر للغريب عن أجوائها غروراً... ها أنت تراها في طريقة عرضي وكتابتي وأنا أسرد هذا المقطع، كما لعلّكَ رأيْتَها تحكمني في البداية والمقدمة، حتى كادت أن تصرفني عن أصل الكتابة، من منطلق: هل سيدرك الناس ما أقول؟! ها هي نفس الروح تعود الآن لتلجم قلمي عن مزيد من البيان والتوضيح والأستدلال أن: مَن شاء فليأخذ، ومَن أبى فليُعْرِض!

ولست أدري هل في الأمر سلبية وقُبح أم هي نزعة إيجابية حسنة؟ ولعلّها مميزات تدخل في تكوين شخصية «الحسينيين»، تلك الفئة المنقطعة في ولائها لـ «عاشوراء» ومراسم العزاء... ترى فيهم شيئاً من الأنغلاق، وأسْمِه إن شئت التحزب في نطاق، والشعور بالأنتساب، تصنع منهم شخصيات متميزة، وتصبغهم بروحيات غريبة:

فرغم ذاك «الكِبْر» و«الغرور» و«التعالي» الذي يراه الغرباء فيهم، تجدهم يجهشون بالبكاء لأقلّ الذكْر، ويجزعون حتى يُغشى عليهم وينزل بهم الإغماء، وتراهم يخرجون من وقارهم فينزعون ثيابهم ويلطمون صدورهم، بل يفلقون هاماتهم ويجلدون ظهورهم حتى الإدماء، ومنهم من يدخل في النار ويدوس بقدميه الحافيتين الجمر ولا يبالي! يتتبعون مجالس العزاء ويلاحقونها بشغف وإدمان، ورغم تكرار محتواها ـ في الأغلب ـ لا ينفكّون عن جزعهم وتجدد المصيبة فيهم آناً بعد آن، كما هو شأن العُبّاد النُسّاك إذا حان وقت الصلاة، وقد فرغوا من سابقتها قبل سويعات. فإن فاتهم في يومهم فلم يحضروا مجلساً ـ واحداً في الأقل ـ فقدوا صوابهم وعرض لهم الصداع! وتجدهم يخدمون في المآتم كعبيد، فيصبحون إذا خرجوا منها أسياداً.

فتعلم أنه الشمم والأنفة والإباء، بثتها فيهم روح «سيد الشهداء».

❊ ❊ ❊

كنت قد ظننت ووهمت ـ لوهلة طالت ـ أن ما يجري على الجثمان الطاهر، وما يصيب الأهل وينزل بالعيال من آستمرار المصيبة ودوام الأشجان، إنما يصب ويرفد آكتمال الأضحية «القربان»، فكأن هناك شيئاً، يريد الله سبحانه وتعالى آستيفاءه وقبضه من «المولى»، ليكون قد سدّد كل ثمن «القربان» وأدّى كامل حقه. وأن ذلك سيظهر بعد المصرع، في مصائب أخرى ومحن تالية لاحقة، كالسلب وحرق الخيام وإجالة الخيل ورفع الرؤوس والأسْرِ والسبي، والتشفي والشماتة.

ولكن الأمر ـ سريعاً ما ـ نفض عن نفسه غبار اللبس، وبرز عن ظل الإشكال، وكأنه لا يطيق أن يؤوّل خطأ، فأفصح وآتّضح أنه لذاك الأول، أي «العزاء» و«الآنتقام»، لا لهذا الثاني فليس ثمة نقص في «القربان».

بعد الآنصراف عن تقويض الوجود، وإرجاء نهاية الدنيا... دخل الأمر في نطاق جديد، وكلّما تدبرت فيه، وجدت أنه الحق وما يقتضيه النظام الأتم لأمر «القربان»، سواء أكان فيه، أو في أعدائه ومناوئيه.

لا بد أن تمضي المسيرة، وتكتمل في طريق المأساة والفاجعة... لا لأن ما وقع منها في «عاشوراء» لم يكن كافياً لـ «القربان» وافياً، بل لأن رحمة الله سبقت غضبه، وأناته تعالى غلبت أخْذَهُ، وحكمته ـ سبحانه ـ حكَمت وقضت، فآستمرت الحياة وآمتدت لترتوي من «العزاء» ما يطفئ غضبها، وتأخذ في «الآنتقام» ما يشفي غيظ قلبها... قلب عالم الإمكان.

❁ ❁ ❁

أقبل الفرس يدور حول الجثمان الشريف ويلطّخ ناصيته بدمه...

فصاح «عمر بن سعد»: دونكم الفرس فإنه من جياد خيل «رسول الله».

فأحاطت به الخيل من كل جانب، فجعل يرمح بقوادم قوائمه، وينال منها ومن فرسانها، فقتل منهم أربعين، دون أن يرفس ـ من عجب ـ برجليه، حتى تلك التي كانت تباغته وتأتيه من خلفه، كان يدور فيستقبلها ويرمحها! ما كأنه دابة وحيوان، بل فارس من أنبل الفرسان!

فقال «آبن سعد»: دعوه لننظر ما يصنع.

فلما أمِن الطلب، أقبل نحو «المولى» يمرّغ ناصيته بدمه، ويشمّه ويصهل صهيلاً عالياً، آرتسم هنا بمنطق عربي مبين:

" الظليمة، الظليمة، من أمّة قتلت أبن بنت نبيها " .

ثم توجّه بذلك الصهيل ويمم نحو الخيام، فلما نظرن النساء إلى الجواد مخزياً، والسرج عليه ملوياً، خرجن من الخدور، ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات، وللوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العز مذللات، وإلى مصرع «الحسين» مبادرات.

وآنتظمت عندها أعظم إبداعات الشيخ «هاشم الكعبي»، وترددت:

وأقبلن ربات الحجال وللأسى تفاصيل لا يحصي لهن مفصّل
فواحدة تحنو عليه تضمّه وأخرى عليه بالرداء تظلل
وأخرى بفيض النحر تصبغ وجهها وأخرى لما قد نالها ليس تعقل
وأخرى على خوف تلوذ بجنبه وأخرى تفدّيه وأخرى تقبّل
وأخرى دهاها فادح الخطب بغتة فأذهلها والخطب يذهي ويذهل

لم يكن الموقف ـ في ذاته وتكوينه ـ يسمح بكشف الستور وإبداء الوجوه وهتك الحجب، رغم الحالة التي خرجن بها، ذلك من جهتين ولِعلّتين:

للأنوار الساطعة التي جلّلت وجوه الفاطميات والعلويات، والأُخرى الباهرة التي غشت أبصار الناظرين وأعمت كل عَيْن. ثم لزلزلة الساعة وفجعة الموقف وذهول العرصة، إذ تحققت آيات يوم القيامة، وطَبّقت سمات البعث والنشر ومعالم يوم المحشر... فالناس هناك عرايا، ولكن يسترهم ذهول بعضهم عن بعض، وآنشغالهم بأنفسهم، وشخوص أبصارهم، فلا أحد ينظر إلى آخر.

نادت «أم كلثوم»: وا محمداه وا أبتاه، وا علياه، وا جعفراه، وا حمزتاه!... هذا «حسين» بالعراء، صريع بـ «كربلاء».

ونادت «زينب»: وا أخاه، وا سيداه، وا أهل بيتاه!...

ثم دنت ـ سلام الله عليها ـ من الجثمان المرمّل، وأزاحت عنه القنا ومنحطم الوشيج، وأزالت متكوّم الحجارة، ولكنها ما انتزعت منغرس السهام وطعين النصال!...

ورغم ما أوهن بجلَدها من فظيع الخطب، ونال من بأسها وأبطل وبدّد بطولتها المطبوعة الموروثة... عمدت فوضعت يديها تحت الجنازة الزكية، وما زالت ترفع بدن «المولى» عن الأرض شيئاً فشيئاً، حتى صار أمامها، كأنها تقنُت به. ثم مدّت ذراعيها، وعلّت بهما وعلّت، دون أن تعاني من ثقل الجثمان الطاهر، أو تضعف وتعجز عن حمل البدن المثقل بالحديد ونزع الروح، حتى ارتفعت به فصار أعلى من مستوى رأسها، ثم نادت:

اللهم تقبل منّا هذا «القربان»...

أرعدت السماء وجهجهت، وبرقت ولمعت، ولكنها ـ من عجب ـ ما خلّفت في الأنفس الرعب ولا الخوف، ولا أورثتنا الوجل والهلع، بل جاءت بوَقْع كلّه عظمة وسمو، وجلال وخفر. حتى إن الأنوار كانت تساقط على الأرض وتنساب من الجثمان الشريف، كنثار الأعراس!

وإذا كان عرفان سيدتنا «أم البنين» عليها السلام بـ «الإمام» هو سرّ عظمتها، وهو إكسير حبّها لـ «المولى»، ناهيك بما يتداوله الناس عن تضحيتها وفدائها، وعن عاطفتها ورقتها عليه...

فإن سرّ عظمة مولاتنا الحوراء «زينب» صلوات الله عليها، هو هذا المقام، دون صبرها ومحنتها وعظيم بلائها، ولا حتى علمها اللدني (المشار إليه والظاهر في قول الإمام «السجاد» عليه السلام، المتضمن رتبة العصمة: «أنتِ ـ بحمد الله ـ عالمة غير معلّمة، وفهِمَة غير مُفهَّمة»)، ناهيك بتضحيتها وعطائها، وكبير دورها في تكفّل الأرامل والأيتام، وحفظ العيال، ورعاية إمام زمانها عليه السلام.

إنه مقام تقديم «القربان»...

هٰذا هو سرّ منزلة «زينب»...

إنها هي مَن رفع «القربان»، وقدمته وناولته الله سبحانه وتعالى! فخاطبته، والدنيا خلو من الخمسة «أصحاب الكساء»، وكلّمته مباشرة مشافهة، ثم رفعته إليه بيديها الطاهرتين، فتناولته يد الله جل وعلا... أنحدر «حيدر» من الربوة المشرفة على عرصة المذبح (التل الزينبي)، وتلقاه منها، وعاد به إلى موضعه، ثم أختفى مَن كانوا على التل جيعاً وغابوا. وكأن المهمة قد أنجزت والأمر قضي والوعد تحقق.

ثم عُدْتُ فنظرتُ، وإذا الجثمان الطاهر المطهر ثاوٍ في موضعه الأوّل!

وبينما أنا في الفكرة والحيرة: ما كان الذي تسلّمه «عليٌّ» إذاً وتلقّاه؟ وذهب به إلى «النبي» و«فاطمة» و«الحسن» فعرجوا به وأرتحلوا إلى السماء؟ وما هٰذا المسجّى هنا، والطريح في هٰذا العراء؟

وإذا «الأنبياء» و«الرسل» قد تراصت صفوفاً أمتدت إلى عنان السماء، والملائكة زمراً تتلو زمراً، يقيمون على «المولى» الصلاة، في أزدحام وضجة صكّت سمع الملكوت. وكنت في البدء أحسب لعدد التكبيرات، فأعجب أنها تجاوزت الخمس والسبع والتسع وفاقت تكبيرات «النبي» في صلاته على جنازة عمّه سيد شهداء زمانه «الحمزة بن عبدالمطّلب» وهو يدفن قتلاه في «أحد»، حتى فَقَدْتُ الإحصاء وضاع علي نظام العدّ وذهلت عن ضبطه، إذ كانت كل الكائنات تعيد وتكبّر مع المصلّين.

ولم أر أعجب من المنظر التالي...

بينما كان الأنبياء والأولياء والملائكة، يصلّون على الجنازة الملكوتية الطريحة لـ «المولى»... كان الأشقياء ينهبون ويسلبون الجثمان!

تداخلت الصورة في تضاد كاد يصدع الوجود من جديد، ومفارقة أخجلت السماوات السبع، وطأطأت برؤوس سكان الكواكب والنجوم، والبشر الناظرين بعيون القلوب، فما عاد أحد يدري ما يصنع، إلّا أن يُكبّر ويهلل، ثم يأخذ في النوح والبكاء.

أخذ «جابر بن يزيد الأزدي» عمامة «المولى»، وأنتهب «إسحاق بن حوىٰ» قميصه، و«جعونة بن حوية الحضرمي» ثوبه، و«قيس بن الأشعث الكندي» قطيفته، وكانت من خز، و«بحير بن عمير الجرمي» سراويله، أو هو «بحير بن كعب التميمي»، وأنتهب «الرحيل بن خيثمة الجعفي» و«هاني بن شبيب الحضرمي» و«جرير بن مسعود الحضرمي» القوس والحلل، و«الأسود الأوسي» نعليه، ورجل من «بني نهشل» سيفه، ومعه آخر من «بني دارم»، يقال هو «الأسود بن حنظلة» (وهم ممن أحرقهم «المختار» بالنار).

و«روح القدس» ينفث على لسان «الشريف الرضي» :

يَـا قَـتيلاً قَـوَّضَ الـدَّهـرُ بِه
عُمُـدَ الـدينِ وَأعلامَ الهُـدىٰ
وَصَـريعـاً عـالَجَ المَـوتَ بلا
شَـدُّ لَحيَـينِ وَلا مَـدُّ رِدا
قَـتَلـوهُ بَعـدَ عِلْـم مِنهُم
أنَّهُ خامِسُ أصحـابِ الكِسـا
غَسَّلُـوهُ بِـدَمِ الـطَّعنِ وَمـا
كَفَّنـوهُ غَيرَ بَـوغـاءِ الثَّرىٰ
يـا رَسـولَ اللهِ يـا فـاطِمَـةٌ
يـا أميرَ المُـؤمنينَ المُـرتَضـىٰ
عـظَّـم اللهُ لـك الأجـر بمـن
كظَّ أحشاه الظما حتى قضىٰ
ضـاربـاً في كـربلا خيمته
ثم مـا خيّـم حتى قـوّضـا
ميّـتٌ تبكي له فـاطِمَـةٌ
وأبـوهـا وعليٌّ ذو العُلـىٰ
لـو رسـول الله يحيـا بعـده
قعـد اليـوم عليه للعـزا

يــا رســول الله لــو عــايَنْـتَهُم
وهــمُ مــا بـين قَـتْلٍ وسِبَــا
من رميض يُمْـنَعُ الـظِـل ومن
عـاطش يُسقــى أنـابيبَ القنـا
ومَسُـوقٍ عـاثـرٍ يُسْعــى به
خـلْفَ محمـولٍ علـى غيرِ وِطَـا
لــرأتْ عينــاك منهم منـظـراً
للحشـا شجْـواً وللـعين قـذى
لـيـس هـذا لــرسـول الله يـا
أمَّـةَ الـطُّغـيـانِ والـبغي جَـزَا
جــزروا جَــزْرَ الأضـاحي نَسْلَهُ
ثـم سـاقـوا أهْلَـهُ سَوْقَ الإمـا
هــاتِفَـاتٍ بــرسـول الله في
بُهَـرِ الـسير وعثرات الخُطَـى
كَـيفَ لَمْ يَـستَعجِلِ الله لَهُم
بانقِلَابِ الأرض أو رَجمِ الـسَمَـا
لَـو بسبْطَي قَيْـصَـرٍ أو هِـرَقلٍ
فَعَلُوا فِعلَ يَـزيـدٍ مـا عَـدا
لا أرى حُـزنَكُمْ يُنْـسَى ولا
رُزءَكُمْ يُسلَى وإن طـالَ المَـدى
قَـد مَضى الـدَهرُ وَعفَى بَعـدَكُم
لا الجَـوى بـاخَ وَلا الـدَمعُ رَقـا

وبعد مطر السماء دماً، كانت الأرض من أقصاها إلى أدناها، قد نزفت! فما كان حجر ولا مدر يرفع في «اليمن» و«بيت المقدس» إلّا وتحته دم عبيط، ولا جدار في أدنى الأرض وأقصاها إلّا تسرّبت من شقوقه الدماء، ولا شجر إلّا نضحت أوراقه وقطرت غصونه وثماره دماً قانياً.

فلما بقي «المولى» سليباً طريحاً عرياناً، إلّا مما يواري عورته...

نادى «أبن سعد» الفرسان أن تطأ وتجول بخيلها على صدر «الحسين»!

لعمري ماذا يقصدون وماذا يجنون من هذا الفعل الشنيع؟

فقد قضى «عدوّهم» وصُرِع، وتحققت منيتهم ووقعت، فماذا يريدون؟

هل هو إطفاء نائرة وتسكين غضب من المقتلة العظيمة التي أنزلها هذا العدد والجمع القليل بجيشهم الكبير؟ أم أنه مظهر آخر للحقد الدفين والإحن المتأصلة من الغرس «الأموي» والكفر المستبطن الذي لمّا يُحصّل بعدُ وما زالت بقاياه في الصدور، لم تنفثها الطعنات والضربات، ولا فرّغتها وميّزَتها كل الأفعال الشنيعة السابقة التي أرتكبوها قبل المصرع؟ أم هي عبثية طغت على سلوك القوم، كَلَوْثة تنزل بالقاتل تعقب مباشرته جريمته، تنتابه فيهذي وينتفض ويأتي بحركات غريبة من هول ما صنع؟

لم يتلكأ القوم ولا ترددوا...

بادروا مسرعين وقاموا متطوعين... فكان كل كُرْدَوس من خمسين، ينفر مقبلاً من بُعد، فيجدّ ويشدّ، فيضرم جريه ويثير الغبار ويلهب، حتى إذا وصل موضع المصرع ورأت الخيلُ جثمان «المولى»، كَبَتْ بفرسانها، دون أن يَقِمَها أحد بجذب عنان أو يَكْمَخها بِرَدّ لجام! بل هي التي كانت تجمح من تلقائها وتنفر، وقد كانت من قبل ذلولاً طوعاً سلِسة! ومنها ما كان يقفز ويثب فيتخطى الموضع.

أنتهت هذه الجولات وأنقضت وسلِم الجثمان الطاهر مما أرادوا.

وما زالت تتعاقب الصُبّة تلو الكرْدَوْس، فلا تطاوع الخيل فرسانها، فتحرن على ما يريدون وتشمس لما يقصدون...

حتى أنتدب «أبن سعد» سُرْبة من عشرة من خيل «الأعوجية»!

وكان لندائه عليها أو بها، وقع في نفوس جيشه، مزج الفرح، بالفضول، بالتشفّي! فقد كانوا يحسدونه عليها، ويعقدون الأنظار وضيق عيونهم على آدخارها وأستئثاره بها، وكثيراً ما ألتمسوا الأعذار للمرور على مرابطها خلف المخيم، ليشاهدوها، فيبعدهم سُيّاسها ورُواتها.

علمت أنها سليلة خيل كانت ليهود «خيبر»، تُربَى في قلاعهم وتروّض في حصونهم المنيعة هناك. وكنت أظن الأسم لحق بها لأعوجاج في قوائمها، أو لجنوح في سيرها من فَجَج أو بَـدَد، ولكني رأيتها محدودبة الظهر مع ضمـور وخمـوص في بطنها، فكأن فارسها راكب ناقة أو بعير!... وأحسب أنه أطلق عليها «الأعوجية» لهذا، لا ذاك.

وهذه سُربة كان قد أرسلها «يزيد» من «الشام» لتكون في جيشه الذي يلقى «الحسين»، تعمّد «عمر» أن يبقيها مرتاحة لا تتجشم ثقل الأحمال والفرسان، حتى إنه جنّبها الأسراج، اللهم إلا لِبَدٍ ومراشحَ تداريها عن برد الليل وحرّ النهار! فقطعت طريقها من «الكوفة» وكأنها في مرعىً ومراح، لا في سفر حرب وجهاد! فإذا بلغت «كربلاء»، أبقيت في مرابضها، يحسن الراوي علفها والسائس رعايتها وحسّها. وقد جدّدوا ـ من غريب الصدف، أو منتظر الأقدار! ـ لغير حاجة نعالها، وأصلحوا حذواتها.

كان «عمر بن سعد» يضنُّ بها على المعركة والميدان، وعلى ما هو أدنى شأناً وأقل كلفة من ذلك، كحمل الجند وإركاب المشاة. يريد ـ لندرتها وغلاء ثمنها ـ أن يدّخرها لنفسه، طمعاً أن يُدخلها في خيله ويلحقها بجياده. وقد دبّر أن يَعُـدّها في ما نفَقَ في الطريق، أو يسجّلها على ما أصيب وتلف في الميدان، فيدخل في مصاريف «الحملة» ويُحْسَب على «بيت المال».

كانت دهماء، عظيمة الرأس والهامة، خُصٌّ مهلوبة مستأصلة شعر الأذناب، مرعبة الهيئة، شَرُود خِراط، تجذب رسَنها من يد تمسكها وهي تحمحم، ولا تكاد تستقر حتى تشبّ شبوباً، ترفع يديها عالياً وتصهل، ما يخيف الفارس فيردعه ويثنيه عن ركوبها!

ومع طلبه «الأعوجية» ونداته عليها، برز «العشرة»، ومعهم «مبشراتهم بجهنم»! زبانية تتقدمهم، ونيران تلوح فوق رؤوسهم!

ولست أدري هل كانوا مُعَيّنين من قبل؟ هل أنتدبهم «عمر بن سعد» من بين خيالته وفرسانه ودعاهم بأسمائهم، أم أنهم أبتدروا من تلقاء أنفسهم وسارعوا متطوعين للدور الخطير؟ وهم:

«إسحاق بن حوية الحضرمي»، و«هاني بن ثبيب الحضرمي»، و«أدلم بن ناعم»، و«أسيد بن مالك»، و«حكيم بن الطفيل السنبسي الطائي»، و«الأخنس بن مرثد بن علقمة الحضرمي»، و«عمرو بن صبيح الصيداوي المذحجي»، و«رجاء بن منقذ العبدي»، و«صالح بن وهب اليزني»، و«سالم أبن خيثمة بن وهب الجعفي».

أنطلقت «الأعوجية»...

يتطاير الحصا من وقع حوافرها، وتقدح الأحجار شرراً، تصهل وتجلجل كأنها في عز الشتاء وذروة البرد! وتنخر وتحمحم كأنها في طلب غريم وأثر طريدة عزيزة. وكانت تعلك ألجمتها وتلوك شُكُمها كأنها لا تطيق ما يكبحها أو يعيقها عن سرعة بلوغ هدفها، أو هي سباع ضارية مفترسة يسيل لعابها وتتهيأ لتنهش لحوم فرائسها!

فوطأت بتلك السنابك وذاك الأندفاع صدر «المولى»...

واحدة تلو أخرى... وقد أرخى الفضاء عن أستار الأصوات فسُمعت، أو هو بدن «المولى» كان ينطق بلغة الحقائق التي تخرق الحجب، فسمعت السماوات والأرض، ومَن حضر من خلق، صوت عظام بدن «أبن النبي» تحت حوافر «الأعوجية»... وقد جاءت الأصوات وأنتقلت إلى الفضاء ببطء وأمتداد، كأنه أمتنع أن تلتزم الزمن الذي أستغرقه هذا العمل الفظيع، إذ ضاق عنها، أو أنها أرادت أن تُشرك المحبين في ما يصيب حبيبهم.

سُمع صوت تكسّر أطراف الأضلاع، ضلعاً بعد ضلع، ثم الأضلاع كلّها، ثم سُمع صوت تهشّمها، ثم أرتفع صوت طحنها!...

وما زالت بقايا الصوت القاتل تَطِنّ في أذني وتَون.

وإذا كانت فرقعة الكسر وطق أنفطار العظم مسموعاً مألوفاً، فإن صوت تفتت العظام وطحنها شيء لا يمكن وصفه، وما يسعني من القول هو أنه: صوت أشبه بوقع حجر الرحى على حبة البُرّ بقشرها إذا يبس، ولكن عليك أن تمد هذا الصوت الذي يستغرق ثانية أو أثنتين، تمدّه متواصلاً لدقائق، لربما ناهزت الساعة... هذا ما كنّا نسمع!

وما زال الصوت يعود ليطرق مسامعي ويفجعني بين فينة وأخرى، كلّما قرأ الراثون وأعادوا ذكر هذه المصيبة. وأراه يأتيني أحياناً إذا خلوت بنفسي، وانصرفت أتأمل في بعض أفكاري.

أخبروني أنها عقرت...

نعم، انقطع نسل «الأعوجية»، وما عاد لها وجود بين سلالات الخيل. ولكن أيشفي هذا من المؤمنين صدراً ويُبَرِّدُ من الموتورين غليلاً، وقد فعلت فعلتها وأنجزت جريمتها؟! لعمري، لو فنيت خيل الدنيا كلّها، بل لو أعدم الوجود كلّه، لما عادل جزءاً ولا قابل لحظة مما وقع على «المولى» في شخصه، ونزل بجثمانه.

و«زينب» واقفة تنظر وتسمع!

وقد أبكمها الخطب وأذهلها، فوجمت وبهتت، فكأن أحزان عالم الإمكان كلّها تجمّعت في قلبها، ففاض وأودى، وكادت نفسها أن تزهق، لولا أن تدخّل «روح القدس»، فانطلق يصدح بصوته، على لسان المبدع «علاء الدين الحلي الشفهيني» يعدّد فضائل «أبيها» (و«ذكر الفضائل» أعظم عبادة تجتذب «الحوراء» وتغريها)... فأخذ يخاطب «أميرالمؤمنين» في «الغري»، ويُسمع «زينب» لاميّته الغراء الخالدة، يستدرك ما حلّ بها، ويشغلها بهذه التحفة الثمينة، علّه يسلّيها ويعزّيها ويصرف قلبها عما يتناهبه من الأشجان، أن لا يقودها إلى تلف النفس وزهق الروح!:

يا علّة الأشياء والشرف الذي * معنى دقيق صفاته لن يُعقلا
إلّا لمن كُشف الغطاء له ومن * شقّ الحجاب مجرّداً وتوصّلا
يكفيك فخراً أن دين محمد * لولا كمالُك نقصه لن يكمُلا
وفرائض الصلوات لولا أنها * قُرنت بذكرك فرضُها لن يُقبلا
يا من إذا عُدّت مناقب غيره * رجحت مناقبه وكان الأفضلا
إني لأعذر حاسديك على الذي * أوْلاكَ ربك ذو الجلال وفضّلا
إن يحسدوك على عُلاك فإنما * متسافل الدرجات يحسد من علا
إحياؤك الموتى ونطقك مخبراً * بالغائبات عذرت فيك لمن غلا

وبردّك الشمس المنيرة بعدما * أفلت وقد شهدت برجعتها الملا
ونفوذ أمرك في الفرات وقد طما * مدّاً فأصبح ماؤه مستَسْفِلا
وبِلَيْلَةِ نحو المدائن قاصداً * فيها لسلمان بُعثت مغسّلا
وقضية الثعبان حين أتاك في * إيضاح كشْفِ فضيلةٍ لن تغفلا
فحللت مشكلها فآب لعلمه * فرحاً وقد فصّلت منها المجملا
والليث يوم أتاك حين دعوت في * عُسر المخاض لعُرسه فتسهّلا
وعَلَوْتَ من فوق البساط مخاطباً * أهل الرقيم فكلّموك معجّلا

فلما سكنت ـ عليها السلام ـ نفسُها شيئاً، وخف عنها الروع، وعادت لبعض حالها... عاد «روح القدس» ليفجعها! فمضى ينشد:

أمخاطبَ الأذياب في فلواتها
ومكلّم الأموات في رَمس البلا
يا ليت في الأحياء شخصك حاضر
وحسينٌ مطروحٌ بعرصة كربلا
عُريان يكسوه الصعيدُ ملابساً
أفديه مسلوب اللباس مُسربلا
متوسداً حرّ الصخور مُعفّراً
بدمائه تَرِبَ الجبين مُرمّلا
ظمآن مجروح الجوارح لم يجد
يوماً سوى دمه المبدد منهلا
ولصدره تطأ الخيول وطالما
بسريره جبريل كان موكّلا
عُقرت أما علِمَت لأيِّ معظّم
وطأت وصدراً غادرته مُفصّلا

ومع هذا الإنشاد المواسي، والسلوة الكُبرى، والرثاء الملكوتي، والعزاء العظيم... كانت «زينب» تسمع ـ في المقابل ـ «أسيد بن مالك»، وقد تقدم «العشرة»، وراح يتبجح، ويطلب الجائزة من «ابن سعد»، وينشد:

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر

بكل يعبوب شديد الأسر

فلم يجبهم، بل أرجأهم أن يسألوها «عبيدالله بن زياد»... ومن عجب، بل من سخرية القدر، أنه أمر لهم ـ حين وافَوْهُ بـ «الكوفة» ـ بجائزة يسيرة!

وبعد ذلك، أنتشر القوم وتوزعوا في الأرجاء، وتوغلوا وأوغلوا، فقصد «شمر» الخيام، وراح ومَن معه في السلب والنهب، فنهبوا ما وجدوا من أهَرَة ومتاع، ورثياً وأثاث، وأموال وحلي... حتى قطعت أذن جارية لحلقة عصت على الناهب، خشي أن تعيقه فيسبقه أصحابه إلى بقية الغنائم! وسُحِبَ نُطَعٌ وبساط تحت «زين العابدين»، كان يستلقيه من فرط الإعياء وشدة المرض! ثم أحرقت الأخبية والخيام بعد نهبها، فباتت النسوة في العراء، وتفرق الأطفال وهاموا على وجوههم في البيداء.

ثم عمد الطغاة إلى أجساد «الشهداء»... فقطعوا منهم الرؤوس وأبانوها، وتوزعوها بينهم، كل قبيلة على قدر ما قتلت وأسهمت في المعركة! ليحملوها إلى «أبن زياد» في «الكوفة»، ومن هناك إلى «يزيد بن معاوية» في «الشام»! وقد سرّحهم «عمر بن سعد» بالرؤوس من فورهم:

فذهبت «كندة» بثلاثة عشر رأساً، وصاحبهم «قيس بن الأشعث».

و«هوازن» بعشرين رأساً، وصاحبهم «شمر بن ذي الجوشن».

و«بنو تميم» بتسعة عشر رأساً.

و«بنو أسد» بتسعة رؤوس.

وذهب سائر الجيش بتسعة رؤوس.

فذلك سبعون رأساً.

وذهب «خولي بن يزيد الأصبحي» برأس «سيد الشهداء».

وبقيت الأجساد طريحة على صعيد «كربلاء»...

هنا في هذا العالم، حيث تنكشف البواطن، وتتجلى المكنونات، وتسفر الأشياء عن حقائقها فتظهر بها... هنا عاد السؤال ليلح من جديد، والعجب، كل العجب لينعقد تارة بعد تارة: أن كيف بقيت الدنيا ولم تفنَ؟

ومع كل حادثة تقع بعد المصرع، من إجالة الخيل، إلى السلب وحرق الخيام، إلى قطع الرؤوس ورفعها على الرماح... كلّها قضايا كانت تحمل معها مزيداً من الحيرة والعجب، وتفجر الأجواء بحالة نشاز نعيشها من تلك اللحظات حتى يومنا هذا، وحتى قيام الساعة. وتشعرنا ـ في مطّلعنا ـ أنها ساعات ما كان ينبغي أن تكون! وأحداث أخترقت الزمن، أو عادت بعجلته، فوجدت فسحة وفرصة أقتنصتها...

وإلّا فلا شيء يسع ما يجري هنا، ولا شيء يطيقه.

وقد أستوقفني أمر آخر، بل أعتراني، إذ صرت أشعر به ـ تكويناً ـ وأعيشه... هو نفحة عارمة من «الحياء»، لفّت السماوات وأطبقت على سكانها، وغلبت كل شيء.

حياء وخفر، ستر وحجاب، صد وإعراض، أمتلك الكون والمكان، فكأن النجباء أعرضوا عن متابعة بنات الرسالة في دورهن العظيم، وتعامَوْا عن «برزخ» نهض بِعِبْءِ نقل الإمامة، ثم حفظها وصونها، وعظيمات من بنات «علي» و«الحسن» و«الحسين»، على رأسهن «زينب» و«أم كلثوم»، قمن بدَوْر أعاد تأسيس «الرثاء» والبكاء، وكان وقود الأنتقام وعلّة «الأنتظار».

خفر وحياء، أخفى أسرارهن وطمس فضائلهن، ولو أنكشف الغطاء، لبان رجحانهن على مثل «مريم» و«هاجر» و«آسية».

ولم يكشف إلّا عن يسير ظهر من مواكبة ركب الأسرى في ترحاله!

* * *

العقد العاشر: الأسر

كيف القرار وفي السبايا زينب
تدعو بفرط حرارة يا أحمد

كنت أتفكّر وأتدبّر وأسأل نفسي وأستخبرها:

هل أنكشاف السر ومعرفته، للمعنيين به، الذين سيباشرونه فتقع عليهم آثاره وتنزل بهم نتائجه، أو لنا نحن هنا، النظّارة والمشاهدين، سرّ وقوع مَن تبقّى من «الركب الحسيني» في الأسر... هل سيخفف الوطء عليهم ويهوّن الخطب لهم، أم أنه يزيده ويذكيه ويؤججه؟

هل العلم بما هو قادم وما سيكون، يعين على تحمّل الألم ويعضد الصبر عليه، أم أنه يزيد في الفجعة والكربة ويضيف إلى المحنة واللوعة... ما في الترقب والتوقّع والأنتظار، مقابل الدهم والفجأة، حين يعيش المصاب ساعته ويعاني لحظته فحسب، وما يلحقها، دون ما يسبقها؟

كانت السماء والأجواء وهي تحكي وتكشف سر بقاء الدنيا وعدم زوالها بعد المصرع... وأن ذلك لتحقق الأنتقام وأخذ الثار، ولأستيفاء «القربان» حقه من الرثاء والبكاء، قد كشفت ما سيلقى «الركب» بعد هذا، وكم من المصائب والأحزان سيعيش ويشهد.

كأن الأقدار نظرت فما رأت شيئاً أعظم وقعاً على «المنتقم» من وقوع بنات الرسالة وعقيلات الوحي في أسر طليقها.

فكما:

مشى الدهرُ يوم الطفّ أعمى فلم يدع
عماداً لها إلّا وفيه تعثّرا

فإنه:

جشّمها المسرى ببيداءَ قفرةٍ
ولم تدرِ قبلَ الطفّ ما البيدُ والسرى
ولم تـرَ حتّى عينُها ظِلَّ شخصها
إلى أن بدَتْ في الغاضريّة حُسّرا

حُسّرٌ عن عزّهن وجاهِهِن، مضيّعٌ فضلُهن ومقامهن، مهتوك خدرهن... فحجاب بنات «علي» و«فاطمة» وكريمات النبوة وحرائر أهل بيت الرسالة هو المنازل والدور، فهن مخدّرات، لم يُرَ لهن شخص ولا مُيّزَ طول. لم تعرفن يوماً خارج أسوار البيوت، ولا رُئين في المحافل، فكيف بالشوارع والطرقات والدروب، ناهيك بالصحاري والبراري والقفار!

أما سمعت «أمير شعراء العزاء» يقول:

فترفَّق بها فما هي إلّا
ناظرٌ دامعٌ وقلبٌ مَروُعُ
لا تَسُمْهَا جَذْبَ البُرَىٰ أوتدري
ربّة الخدر ما البُرىٰ والنُّسوعُ

فكانت الفاجعة ووقعت الطامة حين هتك هذا الصون، وتبدد هذا الخدر، فصرن يساق بهن في الأسواق ويعرضن في الميادين والأندية!

هناك أفعال وجرائم لا يمكن وزنها وتقييمها، ولا قياسها ومقارنتها، فتدرج في حد من السوء، وتوضع في نصاب من القُبح والفظاعة، فيقال إنها على هذه الدرجة وفي ذلك الحد المعيّن. كذلك الأمر في المحن والآلام، واللوعة والمعاناة، فلا يمكن درك بعضها ولا الإحاطة بنوع منها.

لأن القضية نسبية والأمر أعتباري...

فإذا كان القانون الوضعي (والشرعي أيضاً، منطلقاً من الظواهر)، وحتى العرف وما يتسالم عليه الناس، يحكم أن جريمة الضرب ـ على سبيل المثال ـ أشد وأكبر من جريمة السب، وهكذا الضرب المفضي إلى عاهة أو تشوّه، أشد من لَكْمَةٍ لم تُدْمِ وخبطة لم تجرح.

فإن هناك وقائع تحكي عن حقائق أخرى...

إن كلمة جارحة أو لفظة نابية وسبة بذيئة، أو صفعة عارضة على الوجه، أو دفعة بيد، أو ركلة برِجْل تخل بالتوازن وتسقط على الأرض وتعفر وتمرّغ الضحية في التراب... أصعب على بعضهم من رصاصة تقتله، وتفوق عنده على طعنة في صدره أو ضربة سيف تودي به وتهلكه!

إن «المهانة» و«الإذلال» و«التحقير»، أمور نسبية ظرفية تحكمها أعتبارات تتفاوت من زمان إلى آخر، وتختلف بين مكان ومكان. ولَرُبَّ «نظرة» أو «أبتسامة صفراء»، أو «غمزة» بإشارة من الحاجب أو طرف العين، يتلقّاها شخص من غريمه أو من خصمه وعدوه، تحمل أستخفافاً وتحقيراً، أو تنطوي على لمز أو شماتة، تكفي أن يتمنى المرء الموت دونها، ويرجو الهلاك قبلها، ويدعو: أن "ليت أمي لم تلدني"، فلا كان ولا كانت حياته!

ومهما شرّعت الدساتير وقنّنت للكرامة الإنسانية وحفظ الحقوق المعنوية، وصون القيم المجردة، فإن هناك مساحات من «النسبية» لا تُبْلَغ، ودرجات من التفاضل والتفاوت لا يمكن أن تُدرك.

وبعد الحيثيات الأعتبارية والأمر النسبي المتحقق في شأن «أهل البيت» عليهم السلام وما يلقونه من منغّصات وخطوب ومحن ورزايا، ليكون في أعظم درجة وأقسى حالة يمكن تصوّرها... فإن الأمر فيهم وتجاههم يمثل بعد ذلك ويعكس حقيقة واقعية، ذلك بمناسبة موقع «المجني عليهم» في الوجود ومحلّهم الحقيقي منه.

لقد كان «الأستخفاف» و«المهانة» تمس قطب رحا الوجود، وتنال من قلب عالم الإمكان، وتطال أشرف الكائنات في عالم خلق الله.

كان بعض العلماء يقول: يكفيك من ذِكْر المصيبة أن تقول:

"خرجت «زينب»"!

لستَ بحاجة لأكثر من تصور هذا الخطب، أن «زينب بنت علي بن أبي طالب، أبنة فاطمة بنت محمد» صلوات الله عليهم أجمعين... خرجت من خبائها، وواجهت القوم! ليس شيء في الوجود يعدل هذا، أن تلجأ «هذه» الحوراء لمخاطبة «شمر» و«عمر»، ثم «عبيدالله» و«يزيد»!

إنني ـ الآن ـ أدرك وأتفهم بعض أعماق هذا القول...

أتفهمه وأُدركه وأنا أرى عالم الإمكان يداري نفسه، وينطوي على ذاته، ويختبئ وينكفئ أن ينظر ما يجري أو يسمع ما يدور! الكون في خجل والسماوات بسكّانها، بل كل الكائنات، في وَجل، أن تلتقي بـ «زينب»، فتواجهها وتوافيها وهي في هذه الحال... فكيف بها هي صلوات الله عليها، وفي أي حال عساها أن تكون؟!

سليلة «سيد البشر»، وكريمة «أميرالمؤمنين»، وأبنة «سيدة نساء العالمين» من الأوّلين والآخرين، وشقيقة «الحسن» و«الحسين»...

أسيرة في دار مُلك «أبيها»!؟

كانت الأنظار في الملأ الأعلى تتوجه إلى ساق «العرش» أو يمينه، أكثر مما تنصرف إلى الحدث ونتائجه المتوالية.

وعندما أدنوا المطايا العجف، لبنات الوحي والتنزيل، قامت النسوة بإركاب بعضهن بعضاً، وبقي «السجاد» عليلاً مريضاً، أركبته «الحوراء»، ثم ظلّت تتلفت يمنة ويسرة، كأنها تبحث عن كفيلها «أبي الفضل»! أو عن أي محرم آخر يقوم بذلك... عندها، تأجّجت اللوعة في قلب «المولى»، «المولى» القائم المنتقم، وكانت الفجعة، قبل الأرض والسماء، وبعد روح «الحوراء»، كانت في قلب «المهدي المنتظر». فكانت أعين الحضور هنا تنصرف وتنظر إلى «الركب»، ثم تعود وتلتفت بنظرة أُخرى إلى يمين «العرش» حيث «القائم» متربعاً و«ذوالفقار» بين يديه. وقد ظنوا وحسبوا، كما ظننت، أن هذا المشهد كافٍ لثورته، وافٍ لملءِ قلبه ونهضته!

وقد أنتظم البيان وأرتفع النداء من «روح القدس»:

مـاذا يُهيجُك إن صبرت * لـوقعة الطف الفظيعه
أترى تجيء فجيعـةٌ * بأمضّ من تلك الفجيعه
حيثُ الحسينُ على الثرىٰ * خيلُ العِدىٰ طحنت ضلوعه
قتلتـه آل أميّـةٍ * ظام إلى جنب الشريعه
ورضيعـهُ بِدَمِ الوريد * مخضّبٌ فأطلب رضيعه
يا غيرةَ الله أهتفي * بحميّة الدين المنيعه
وظُبا أنتقامكِ جرّدي * لطلا ذوي البغي التليعه
ودعي جنودَ الله تملأ * هذه الأرضَ الوسيعه
وأستأصلي حتّىٰ الرضيعَ * لآل حربٍ والرضيعه
ما هزَّ أضلعَكم حداءُ * القوم بالعيس الضليعه
حملت ودائعَكم إلىٰ * مَن ليسَ يعرفُ ما الوديعه
وسبيّة باتت بأفعىٰ * الهمّ مهجتُها لسيعه
سُلِبت وما سُلِبت محا * مد عزّها الغرّ البديعه
فلتغد أخبية الخدور * تطيح أعمدُها الرفيعه
ولتبد حاسرةً عن الو * جه الشريفةُ كالوضيعه

ولم أكن وحدي مَن ظن أن في هذا القدر والموضع من «الأسر» الكفاية، وأن به تكتمل أسباب النهاية... بل حتىٰ الجمع المحيط بي، الحاضر هنا، من جن وإنس وملائكة وبقية أجناس النظّارة، كلّها حسبت أن هذا هو حد الإرجاء وآخر الأنتظار قبل الأنتقام والإفناء! وأن «المهدي» ناهض بعد ساعة أو سويعات بسيفه البتّار، شاهر «ذا الفقار»، وآخذ لجدّه «الشهيد» بالثار.

بل هذا «روح القدس» نفسه، ينشئ من جديد ـ بإصرار ـ عصماء تلو أخرىٰ، يستنهض بها «المولىٰ» الموتور ويهيجه للقيام، وقد أرسلها ثانية على لسان المبدع «الميرزا إسماعيل الشيرازي»:

نَبَـا نـزار من ظُبَـاكِ الشَّبَـا
أم سُمْرُكِ اليـوم غَـدَتَ أكعُبـا؟

أم عُـقِــرَتْ خيـلُكِ أم جُــزِرَتْ
منهـا نـواصيهـا فلَنْ تُـرْكَبـا؟

مــا كـــان عهْدي بِكِ أن تحملي
الضَيْمَ وفي يُمْنَــاكِ سَيْفُ الأَبَـا

فهذه حــــربٌ وقــــد أنْشَبَـتْ
فيكم علـى رغم العُلى المِخْلَبَا

فأيـن عنكم يـا لُيُوث الوغـى
مخـالبُ السُمْرِ وبيضُ الظُبَـا؟

أتُهـتَـكُ الخـدورُ من هــاشم
ولا يَهُـــز الهــاشميين الإبَـا؟

وتُـسْلَبُ النسـاء منهـا ولا
من سيفهـا البتّـار يـدمي شبـا

أتـدخل الخيل خبـاء الألـى
خباؤهـا فـوق السمـا طنبـا

لهفـــي لآل الله إذا أُبــــرِزَتْ
من خِـدْرِهـا ولَمْ تَجِـدْ مَهْرَبـا

تــؤم هـــذي ولهـــا مشـــرق
الشمس وهـذي تَـقْصِـدُ المغْرِبـا

وهذه تكْبُــو علــى وجههـا
وتجـزع الأُخـرى علـى مَن كَبَـا

فـآه وا لهفـي علـــى زيـنـب
والفـاطميـات قَفَـت زينـبـا

وزينـب تهتف بـالمصطفـى
والمـرتضـى والحسن المجتبـى

* * *

أما أنا...

فقد انفصلتُ عن الواقعة، وانقطع بي الحدث عند هٰذا المشهد، وانصرفت من «رحلتي»... لم يكن انقطاعاً مؤقتاً من تلك الانقطاعات وحالات الخَطَرِ التي عرَضَتْ لي في سفري هٰذا مرة بعد مرة، وكنت أحتال عليها بتوسّل ينجيني وأتخلّص منها بمزيد فيض يدركني. بل أدركت ـ في الآن ـ أنها الخاتمة، حين تغيّرت الأجواء التي كنت أعيش، وانقلب الفضاء المحيط بي، في طبيعته وحالته وكيفيّته، فعلمت أنني ما عدت حاضراً في تلك الرحاب، وأنني تركتها وانتقلت، وخرجت منها وارتحلت.

اعترتني غفوة وشبه إغماءة، بل كانت غفلة، إذ بقيت على يقظتي، ولٰكن خارت قواي بما سلب إرادتي في الحركة وشلّ قدرتي، دون وعيي... ولم يستغرق الأمر زمناً ولا اقتضى وقتاً طويلاً، بل جاءني بغتة واعتراني فجأة. كأن أحداً ناداني، أو شيئاً اجتذبني بقوة، أدخلني عبر باب أو ألقاني في كوّة، فصرفني عن موقفي ونقلني من مشهدي.

هٰكذا، بهٰذه البساطة...

انتهت هنا قصتي وانقضت روايتي.

لم أرجع من نفس الطريق التي قدمت منها، ولا عدت أدراجي من حيث أتيت، بل انتبهت ـ وقد عادت لي قواي ـ وإذا أنا في موضع من الدنيا (لا يسعني كشفه)... غيْر الذي انطلقت منه وعرجت، بعيد عنه. كأن سفينة فضائية «طبيعية» (غيْر صناعية أو آلية) حطّت بي، أو مركوباً أشبه ببساط أنزلني من علو، بهدوء وسكون، لم أضطرب ولم أفزع، اللهم إلاّ أن خفق قلبي شيئاً وانقطعت أنفاسي في شهقة، كالذي ينتاب ركّاب الطائرة في المطبّات الهوائية المفاجئة، مما لا يقاس بما أصابني عند صعودي.

وقد كان آخر عهدي بـ «الملكوت» وفتوحاته ذلك السفر وفيوضاته، التي صارت وبقيت حلاوة في ذائقتي، والتصقت نشعة في ذاكرتي، وانطبعت سكرة في مخيلتي. التفاتة من «ساق العرش»، حيث كانت الأنظار تتوجه، عُدْت منها إلى عرصة «كربلاء»، فرأيت المطايا تخد وتحفد، ينجشها ويزخّها عمال شِداد، وعليها أنوار تتلألأ...

وصوت ملكوتي رخيم، ينشد:

فما لِلنساءِ المُحصنات وللسُرى
تجوبُ بها البيداءَ عِيسٌ هوازِلُ
ألا يا لَحَاكِ الله فأرتقبي وغىً
يثور بها من غالِبِ الغُلْبِ باسِل
هو القائم المهديّ يُدرِك ما مَضَىٰ
من الثار فليهمل لك الثارَ هامل
طَلوبٌ فلو في مهجة الموت وِتْرُهُ
لشقّ إليه الصدرَ والموت ناكِل
ينالُ بحدّ السيف ما هو طالب
ويَمضي ولو أنّ المنيّة حائل

ها قد عُدْت... رحت أتفقد نفسي!

أتحسس جسمي، أتأكّد من وجوده وأتفحصه، وأنه حقيقة لا صورة! وأتلَمّس الأرض والمتاع من حولي، ثم أخذت أُحدّث نفسي وأُسائلها، وأربط المشاهد وأعقد المقارنات والمقايسات، وأستنتج... حتىٰ تيقنت وجزمت أنني هنا ولست هناك! نعم، لقد عدت إلىٰ عالم الدنيا وحياتي الأولىٰ.

وبعد مضي سنين (معدودة) علىٰ هذه الواقعة، فَقَدْتُ أكثر الآثار التي لحقت بي من سفري وصاحبتني عند عودتي، وبعضها خارق، كان يمكّنني من عجائب ويسلّطني علىٰ الأشياء! وكنت أفقد أثراً تلو أثر...

ولم يبق لي الآن إلّا القليل: بعض كشف وقراءة في الأماكن والوجوه صار ـ شيئاً فشيئاً ـ أقرب إلىٰ الفراسة، وبعض تنبؤ بالأحداث ورؤية وآستباق لها، أشبه بذكوة في الحاسة السادسة...

ومما بقي لي وعلق بي وٱلتصق، كأنه أندك في وجودي (بحمد الله) وأمتزج في كياني، فلا يزول (بمشيئة ربي ورحمته، وبجوده ولطفه)، حتىٰ إني تلقيته كغنيمتي العظمىٰ وتحفتي الكُبْرىٰ من سفري، وأنه زادي لبقية عمري في دنياي هذه التي عُدْت إليها، وذخيرة آخرتي، إذا آن معادي:

رقة ورحمة... في عين ساجمة سفوح، لا يكاد يذكر «القربان»، أو يخطر في الذهن خطوراً، حتى ٱستَعْبَرتْ وٱسْبَلَتْ، وصَبّتْ دمعها همولاً.

أما في مجالس الذكر وحلقات الرثاء، فَفُواقٌ ونشيج، ومَأْقَةٌ تعقبها غشية، وأمل أن يكون حتفي وقبض روحي، في نَشْغَةٍ تذهب بها في تلك الأثناء، وتعود بها هناك... حيث كانت يوماً، في «كربلاء»!

وما عاد سيح العبرات وأنهار عيني يتركني، وإن ٱنصرفت لشؤوني وعشت حياتي... بل صار يتملكني الأسى ويغلبني الأسف وينزل بي الشجو واللهف، ويهزّني الحق، أي حق يبلغني، حتى الحق الخاص في النزاعات والخصومات والخلافات الشخصية، وترى سَوْرَة النخوة تَنِزُّ في رأسي، وثورة الحمية تتدفق في دمي، لأية بادرة قهر وظلامة أراها أو أسمعها، وإن بَعُدَ مصدرها وٱنقطع، ولم تربطني به أية صلة.

بل ما عدت أملك نفسي عن التفاعل مع القصص والروايات، ومقاطع الحزن والأسى فيها!... كل شيء في الدنيا غدا يستدر مني الدموع ويخنقني بعبرتي. فإذا بكيت، عمّني السلام وشملتني الطمأنينة، والشعور بالغلبة والنصر والتعالي على حطام الدنيا، ونزعاتها وشهواتها، وصارت في عيني أحقر من أن يطلبها شريف عزيز، فكيف يُكِبُّ عليها شهم نبيل؟

صرت أبكي للحق والظلامة...

فأتغلّب على ضعفي وأقهر عجزي، ولا أشعر بقوة عدو، ولا سطوة وقهر سلطان، بل لا أرى قدراً لغير «إمام الزمان»، فلو جاءني الخطاب، وصدر الأمر الساعة، لبرزت من فوري شاهراً سيفي، مجرداً قناتي، ملبياً دعوة الداعي في الحاضر والبادي... وتلبيتي أبداً:

"يا لثارات «الحسين»"

❋ ❋ ❋

ـ تمت الرواية ـ

الفهرس

المدخل ٩

الفصل الأول: البداية ٢٩

الفصل الثاني: في الانتظار ٦٧

الفصل الثالث: الطلقاء واللقطاء ١٠٣

الفصل الرابع: آبن الذبيحين ١٦١

الفصل الخامس: الميلاد ٢٠٣

الفصل السادس: ركب حجازيون ٢٤١

الفصل السابع: المذبح ٢٨٩

الفصل الثامن: إذن الدخول ٣٣١

الفصل التاسع: النقاء والأرتقاء ٣٥٣

الفصل العاشر: العقود العشرة:

العقد الأول: الماء والعطش ٣٨٧

العقد الثاني: الغربة بعد الصحبة ٤١٩

العقد الثالث: الأكبر ٤٧١

العقد الرابع: القاسم ٥٠٥

العقد الخامس: العباس ٥٤٧

العقد السادس: الرضيع ٦٠٧

العقد السابع: الوداع ٦٤٩

العقد الثامن: المصرع ٧٠١

العقد التاسع: العزاء والأنتقام ٧٣٣

العقد العاشر: الأسر ٧٥١